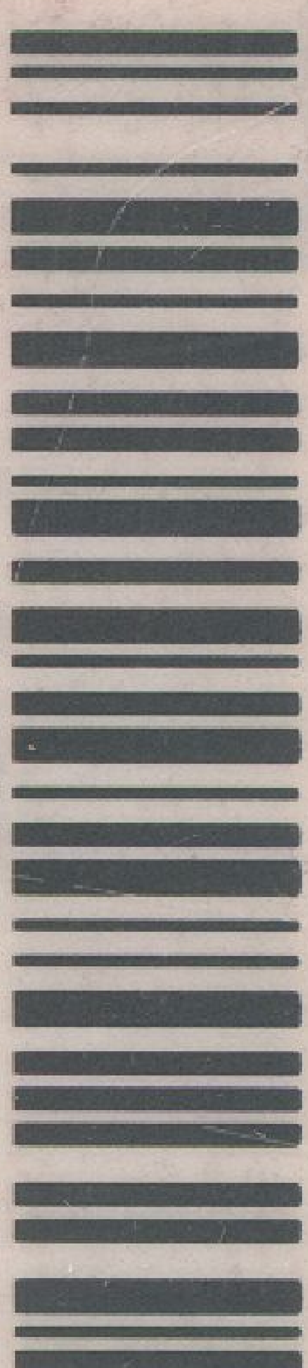











كتاب الهلال

سارة

بقلم

عباس محمود العقاد

طبعة خاصة مزدانة بالرسوم



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٨٧ – ذو القعدة ١٣٧٧ – يونية ١٩٥٨

No. 87 — Juin 1958

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال – بوستة مصر العمومية – مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) – مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ – سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا – السعودية والعراق والاردن وليبيا ١٣٠ قرشا صاغا – الامريكتين ٥ر٥ دولارت – فى سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

سارة

بقلم

عباس محمود العقاد

طبعة خاصة مزينة بالرسوم



سارة

أهو أنت؟

مضت خمسة اشهر قبل ان يجرؤ على عبور ذلك الشارع مشيا على قدميه

وليس الشارع مقفرا أو مخيفا ، لأنه محاط بالعمار مزدحم فى جوانبه بالسابلة والسكان

وليس هو بالبعيد عن طريقه ، لأنه يوشك أن يحتاج اليه فى ذهابه وايابه الى حيث يقيم فى ضاحية المدينة

ولكنه كان شارعا يلتقيان فيه عند ذهابهما الى دار الصور المتحركة ، ثم يلتقيان عند خروجهما منها

وكانا يجلسان اذا دخلا تلك الدار فى مكانين متجاورين ، ولكنهما لايدخلان اليها ولا يخرجان منها متجاورين . بل يرسل هو الى نافذة التذاكر من يبتاع التذكرتين لكرسيين فى مكان قلما يتغير . ثم يلقاها فى ذلك الشارع ، فتأخذ احدى التذكرتين وتسبقه الى الدار ، ويظل هو بضع دقائق فى بعض الاندية العامة ، ثم يلحق بها الى المكان المعروف

وكان من عادتها أن تقارن بينها وبين بطلة الرواية اذا أحست منه اعجابا بها أو ثناء عليها ، وتسأله فى ذلك أسئلة ذكية خبيثة لاتسهل المغالطة فى جوابها ، الا على سبيل المزاح والمداعبة

سألته مرة وقد لمحت منه اهتماما بالروايات التى تظهر فيها احدى الممثلات :

ـ اذا سمحت لك هذه الممثلة بقبلة ، أتقبلها منها ؟

فعلم أن الجواب الجد عن هذا السؤال غير سليم العواقب ، وعمد الى العبث والمراوغة

قال :

ـ وهل من الأدب ان ارفض قبلة تعرضها سيدة ؟

قالت :

ـ دعنا من حديث الأدب فما عن هذا اسأل . . . انا اسألك عن دخيلة نفسك ، أسألك عن رغبتك ، فهل ترحب بتلك القبلة اذا وجدتها ؟

فعاد ثانية الى العبث والمراوغة . وطفق يقول :

ـ أما ان كنت أمثل معها على الستار الابيض ، فأنت تعلمين أن القبلة لا غنى عنها ، تلك واجبات الفن يا صديقتى ، ولا تتم الفنون الا ببعض التضحية !

قالت :

ـ أو تضحية هى ؟

قال :

ـ نعم كل قبلة غير قبلة المراة التى يحبها الرجل هى تضحية . بل هى ـ ان شئت ـ سخرة !

فرضيت وهى تعلم أنه يغالط ويراوغ فى الجواب ، واحبت أن تشعر أنه لا يقبل تلك الممثلة الجميلة اذا أتيح له تقبيلها ، وهى تعلم أنه لا يقول صدقا ولا يعمد الى الصراحة ! وقالت وهى تضحك :

ـ لقد نجوت ! آن قبلة تتمناها لهى خيانة الضمير ،

لا فرق بين خيـــانة الضـــمير وخيـــانة الواقع الا التنفيـــذ

واذا خرجا للرياضة بعدا الفراغ من الصور المتحركة فكثيرا ماكانت تمد يدها الى مفكرته فى جيبه فتكتب فيها كلمة تناسب رواية الليلة ، أو تناسب الرياضة التى خرجا لها ان كانت لها مناسبة ملحوظة

فكتبت مرة وقد شهدا رواية المرأة المترجلة : « هل أعجبتك رواية المرأة المترجلة ؟ أما أنا فسأكون لك امرأة فقط »

وكتبت مرة أخرى وقد شهدا رواية المرأة المحتالة : « أرجو أن لا ترى المرأة المحتالة الا فى السينما. أما فى الحياة فحسبك المخلصة : فلانة »

وربما مضت سنة أو سنتان على مشاهدة الرواية وهى تذكر كل كلمة قالها فى التعليق عليها أو فى انتقادها . فاتفق يوما أنهما حضرا الصور المتحركة فى احدى الضواحى الصيفية ، حيث تعرض المشاهد القديمة بعد سـنة أو سنتين من عرضـها فى المسارح الكبيرة ، وشهدا هناك رواية هزلية عن صياد فاشل يستعيض من فشـله فى الصيد بالمبالغة فى الوصف والحكاية فكان يرفع البندقية ويطلق الطلقة الواحدة فى اتجاه واحد فيقع الطير على يمينه وشماله من جميع الجوانب ، ويظـل يتساقط من هنا وهناك الى مابعد اطلاق البندقية بلحظة غير قصيرة

فقال لها :

ـ أليس الأحسن والابرع أن يسقط هذا الطير مشويا على الاطباق ؟

فضحكت طويلا وقالت :

ـ أتذكر ؟ انك قلت هذه الكلمة بعينها عند ما شهدنا هذه الرواية في البلد للمرة الأولى !

ولا يندر أن يسمع منها اثناء التمثيل كلمات سريعة وتعليقات متبدرة تكشف بها ـ على غير قصد منها ـ عن أعمق أعماق المرأة ، وتهزأ فيها بالرياء الانثوى الذى يبدو فى خجل المرأة وامتناعها

من ذلك انهما شهدا رواية من روايات الثورات يبدو فيها طريد جريح مهدد الحياة بجراحه ومهدد الحياة بمطاردة أعدائه ، وقد لاذ بأحد البيوت فأكرمه أهل البيت وكتموا أمره وتعهدته بالعلاج فتاة دون العشرين من العمر سليمة القلب وسيمة الطلعة ممشوقة القوام . فمالت اليه شفقة ثم مالت اليه حبا ، ثم تمالك نفسه بعد طول العلاج ، حتى انفردا فى بعض الجلسات فبلغ من سرورها به وسروره بها أن نظر اليها ونظرت اليه ، وعيونهما تومض بالمحبة ، ثم اعتنقا فى قبلة طويلة جارفة . . .

وكان بين المتفرجين على مقربة منهما سيدة نصف فى نحو الأربعين من عمرها ، وفتيات ناهدات فى مثل سن الفتاة . فصاحت السيدة :

ــ انظرن الى الخائن ! انه خدعها !

فمالت صاحبتنا وهمست ساخرة :

ــ أتقول خدعها ؟

انه كافأها أحسن مكافأة يستطيعها !



وهكذا كانت دار الصور المتحركة عندهما شيئا اكثر من

ملهى الفراغ وموعد اللقاء : كانت محور حياتهما الغرامية ، وهل كانت لهما من حياة فى ذلك الحين غير الحياة الغرامية ؟ وكانت ملتقى الذكريات والعواطف ووسيلة التقارب والتفاهم فيما يشعران به وما يلاحظانه من أحوال المحبين والمحبات ، وكانت ذخيرة من المناظر التى يقترن كل منظر منها بكلمة ، أو بخاطرة ، أو بمناقشة ، أو بأمنية يملكان تحقيقها أو بأمنية يكتفيان منها بالحلم والخيال

فلما وقعت الجفوة بينهما وانقطع طريقهما الى تلك الدار كانت كل خطوة فى تلك الطريق كأنما تثقل النفس بآكام فوق آكام من الذكريات والآلام ، وكانت كل زاوية من الزوايا كأنما تخفى فيها رصدا من الشياطين الثائرة والعقبان الكاسرة ، وكان اجتناب تلك الطريق أسلم الامور وأهون المحذورات

ثم مضت الأشهر وخيل الى صاحبنا انه لم يعد يخشى أو يذكر ، فاجترأ على العبور بالطريق مرة بعد مرة ، وعبر بها ثلاث مرات أو أربعا على الأكثر ، وكانت الرابعة هى التى فوجىء بها هذه المفاجأة التى لم تكن فى الحسبان

انه لم ير صاحبته بعد اللقاء الأخير فى أثناء تلك الاشهر الموحشة . انه اجتنب الاماكن التى عساه أن يراها فيها ، ولزم بيته فى معظم الايام وقد علم أنه ما من مرتاد أو متنزه يقصد اليه الا وهو خليق أن يعاوده ببعض الذكريات ، ان لم يعاوده ببعض ما يسوؤه أن يراه

فلما عبر الشارع المهجور تلك الليلة مطرقا كعادته حين يسير على غير قصد الى مكان معلوم ــ سمع من جانبه صوتا يناديه : صوتا يعرفه بين الف صوت ، بل بين جميع ما خلق

الله من الاصوات والأصداء : صوتها هى بعينها يهتف به :

ـ أهو أنت ؟

أهو أنت ؟ سمع هاتين الكلمتين فأحس لهما صدى كانفغار الهاوية تحت السفينة فىالبحر اللجى من اثر عاصفة أو زلزال، وقبل أن يجيب ذلك السؤال الذى لا يحتاج الى جواب ، وفى أقل من رجع الصدى بل فى اقل من اللمحة الخاطفة التى انقضت بين ارتفاع رأسه اليها والتقاء نظره بنظرها ـ هجم على نفسه طوفان من الدوافع والهواجس التى لا يوجد لها اسم فى اللغات الانسانية ، لان اللغات الانسانية لا تستطيع أن تضع اسما لألوف من النقائض والمفاجآت التى يجتمع فيها الرعب والسرور والشوق والنفور والهيام والاشمئزاز ، وتريد فيها النفس أن تقف وتريد فيها القدم أن تسير ، بل تريد فيها النفس أن تقف ، لانها لاتقوى على أن تريد

ولو أنه رآها عند أول الطريق قبل أن يفاجئه من صوتها ذلك الهاتف الطارىء ـ لعله كان يعرف ما هو مقبل عليه ويستعيد فى نفسه شيئا من ذلك العزم الذى أعانه على القطيعة ، وامده بدواعى الاصرار عليها ، كلما جنح الى اللين والاغضاء والمغالطة

ولكنه أخذ على حين غرة

فوقف هنيهة لا يدرى ما يقول

ووقفت هى ايضا لا تدرى ما تقول ، وكأنما ندمت على الكلمة لأنها لم تسمع لها جوابا سريعا،ولم تزل تخشى مايجىء به ذلك الجواب . فأومأت الى مركبة قريبة واقفة بين مركبات كثيرة ،واذا بهما يسيران معا الى تلك المركبة ، فتجلس فيها

ويجلس هو الى جانبها وهى تقول :

ـ هذا خير من ان يرانا الناس مشدوهين كالصنمين !

والواقع ان الناس التفتوا فعلا وجعل بعضهم ينظر الى بعض ويتهامسون

فقال لها :

ـ صدقت ... هو خير !

ثم صاح الحوذى :

ـ الى أين يا بك ؟

فلما لم يسمع ردا من « البك » عاد يسأل :

ـ الى اين يا سيدتى ؟

فهمست صاحبتنا :

ـ ألا تقول للحوذى الى أين ؟

فأجابها وهو يوجه خطابه الى الحوذى :

ـ الى حيث تشاء !

وكأنما ندمت مرة أخرى على الركوب ، وعلى اللقاء ، وعلى السؤال لأنها كانت تنتظر من صاحبها لهفة على مكان من أماكن الرياضة المعهودة التى الفا ان يترددا عليها .. فجلست صامتة

وجلس كذلك صامتا

وطال الصمت ... لا لأنه كان يريده ، أو لأنه كان يأبى الكلام ، ولكن لانه كان يفتش من كل كلام فى الدنيا فاذا هو يهرب ... أو يستعصى ولا ينقاد

كان الكلام الذى يريده هو التواعد الى غد حيث يلتقيان فى المنزل ، وحيث يقولان ويعيدان ويتأهبان للعذر ويتأهبان للملام

ولكن هذا هو بعينه الكلام الذى كان لا يريده !

يمنعه أن يفوه به مانع الكبرياء ، ومانع الخوف من تجديد ما فات ، ومانع الشك فيمن تصاحب وفيما تضمر وفيما عسى أن تلقى به كلامه فى دخيلة نفسها من الزراية والاستخفاف

وطال الصمت ، وقالت وكأنما تناجي نفسها :

ـ يحسن بنا أن نقف هنا للنزول

واعترف هو فى طوية ضميره انه لا يريد أن تنزل قبل أن يقول لها شيئا أو يسمع منها شيئا

واعترفت هى فى طوية ضميرها أنها لا تريد أن تنجز تهديدها ولا تريد أن تبرزه فى صورة التهديد . لأنها تعلم أن جواب صاحبها الوحيد على التهديد هو التحدى ... أو هو تركها تنزل وحدها ، وان كان يود استبقاءها فى الحقيقة .

ولعلها أخطأت في حسابها هذه المرة ، فان صاحبها بعد أن جلس الى جانبها ، وبعد أن أحس حرارة جسمها ، وبعد أن لمس بضاضة معاطفها ، وبعد أن تلقى أنفاسها على صفحة خده وهى تميل اليه تنتظر كلامه ، وبعد أن غاص فى تلك الغيبوبة التى استنام اليها كما يستنيم الساهر البعيد العهد بالنوم الى أول ضجعة على الفراش ، وبعد أن أصبح هو وعزيمته شيئين منعزلين بينهما من البعد ما لا ينجع فيه دعاء ولا استحضار ... بعد هذا كله لعلها كانت لا تخاطر كثيرا اذا

هددته بالنزول من المركبة واقتضاب ذلك الصمت العقيم

ولكنها لم تهدد ولم تنزل ... بل صاحت غاضبة :

ـ ما بالك لاتنطق ؟ أمعقود اللسان وأنت لك لسان كالثعبان ؟

وربما احب أن ينفى عنه تهمة الاضطراب والحصر والضيق بالكلام فى مفاجأة اللقاء

فقال لها وهو يتلعثم :

ـ أين كنت ؟

قالت :

ـ فى السينما !

قال من حيث لا يشعر بمعنى ما يقول :

ـ مع من ؟

فأجفلت مقطبة وأجابته بلهجة فاترة ولكنها مفعمة بالتهكم والتأنيب :

ـ أولا اذهب الى السينما الا مع أحد ؟ الا تزال فى ضلالك القديم ؟

قال :

وماذا بدا لى من الهدى الجديد فأعدل عن الضلال القديم ؟ ولماذا صرفت كلامى الى ما فهمت ؟ الا يجوز أن تذهبى الى السينما مع سيدة ؟ فلماذا تستغربين السؤال ؟

قالت :

ـ لأنك غريب فى هذه الليلة . ماذا أقول ؟ لأنك غريب فى كل حين !

ثم اقتضبت على غير انتظار وهى تشيح بوجهها وتهمس بصوت مسموع :

ـ هذا شرح يطول ، ونحن نهيم فى الشوارع على غير مقصد، فأولى بنا أن نرجىء الحديث الى وقت آخر . ألا ألقاك غدا فى المنزل ؟ . . غدا فى الساعة الخامسة ، سمعت ؟

قالت ذلك وهى تستوقف الحوذى وتهم بالنزول عند محطة الترام

وأنها لتنزل من المركبة اذ تعمدت أن تدنو بوجهها من وجهه وتزم شفتيها وتغمض جفونها قليلا وهى تنظر اليه أو تنظر الى غير وجهة

فقبلها كأنه أداة كهربائية ديس على مفتاحها وشعر بالندم وشفتاه لا تزالان على شفتيها ، ولكنه شعر به وشعر بنفسه فى تلك اللحظة غريقا بعيدا كما يشعر بالجسد الغريق الهامد يراه فى أعماق الاوقيانوس الهدار . وقال وهو أيضا نادم :

ـ غدا فى المنزل !

قالت فى الساعة الخامسة موعدنا القديم

وافترقا على موعد اللقاء

موعد

فارقته على موعد اللقاء فى الساعة الخامسة «موعدنا القديم!» وكأنما كانت كلمة الموعد « القديم » وحدها طلسما ساحرا نقله من حالة الى حالة ، واخرجه من الحذر والتردد الى الراحة والاستبشار ... فاحتجبت عنه صفحة الشكوك والآلام والمنغصات ولم ير أمامه الا « الموعد القديم » بل « المواعيد القديمة » فى كل يوم ، وما كانت تحتويه من سرور ومتعة وصفاء ، وذكريات لاتزال مرتسمة فى الذهن، سارية فى الجوارح كأنها وظيفة من وظائف الاعضاء

وانطلق من المركبة خفيف الخطى موفور النشاط يكاد لا يعرف أحدا ، ويكاد لا يعرفه من كان يراه قبل ذلك بساعة او أقل من ساعة

واول ما خطر له أن يدخل فى ذلك المساء دار « الصور المتحركة » التى كانا يلتقيان فيها معظم الأوقات ، كأنها باب كان موصدا أمامه ففتح على مصراعيه ، أو فاكهة ممنوعة رفع عنها المنع والحرمان

ومن عجائب العاطفة الانسانية أنها أبدا مولعة بالمراسم والشعائر ، فلا تستولى على النفس حتى ترسم لها «طقوسا» وعادات تذكر الانسان بطقوس العقائد والعبادات .

فلما خطر له أن يقصد الى دار « الصور المتحركة » أو الى

ذلك « الحرم » الذى كان ممنوعا حتى ذلك المساء ، لم يكتف بتذكرة واحدة . بل طلب له تذكرتين اثنتين ، وهو لا ينوى أن يصطحب أحدا ، ولو جاءه أحد يصطحبه لفر منه كما يفر المرء من غريم

وقضى الوقت الباقى الى الساعة التاسعة فى قلق واشتياق كأن موعد التمثيل هو موعد اللقاء المنظور

ثم بدأ عرض الصور وهو يزعم لنفسه أنه يشهد الرواية ويتتبع الممثلين والممثلات ، وليس فى خلده من ذلك شيء الا كما يرى الناعس المهوم ما حوله من الأشباح ، أو يسمع ما حوله من الاصداء ... كل ما يثبت فى خلده منها أنها أشباح وأنها أصداء !

ثم جاءت فترة الاستراحة فاذا الفتى الذى يبيع هنـــاك بعض الحلوى والمرطبات مقبل عليه فى دهشة واستفهام يسأله:

ـ أكنت مسافرا يا بك ؟

وقبل أن يسمع الجواب أسرع فقال :

ـ أن السيدة كانت هنا فى حفلة الفروب

واذا صاحبنا يسأله وهو لا يقصد السؤال ، ولو فكر فى سؤاله قبل أن يلفظ به لكتمه وأخفاه :

ـ أكانت وحدها ؟

وخيل اليه أنه يلاحظ فى نظرات البائع ولهجته تلميحا خبيثا يقول له ما لا يريد أن يعرفه ، ولا يريد أن يجهله فى الوقت نفسه . فسلبته تلك الملاحظة كل طمأنينة الى ما سيقوله البائع من خبر مقبول أو خبر مرفوض ، وود لو أنه يسكت فلا يجيب بشيء

ولكن البائع لم يزد على أن هز رأسه وقال :

ـ لا أدرى ... كانت الى جانبها سيدة ... ولعلها كانت معها

فاندفع من صاحبنا سؤال آخر كما اندفع السؤال الاول وهو يغالط نفسه ، ويحسب أنه يتهكم أو يريد من البائع أن يحسبه متهكما غير جاد فى مطاولة الحديث :

ـ جانبها ؟ أى جانب ؟ أن للانسان جانبين لا جانبا واحدا كما تعلم

وهنا ظهر من البائع الخبيث انه فهم كل ما هنالك من الشك والاستطلاع . فقد عودته صناعته أمثال هذه المواقف وأمثال هذه الأسئلة وأمثال هذه الشكوك . فلم يفته أن « البك » يستطلع ويرتاب ... ومن يدرى ؟ فلعله كان يرى بعينيه ما يدله على أن البك جدير بالاستطلاع والارتياب !

فتمهل قليلا وقال : « كان الى جانبها الآخر هذا الممر » وأشار بيده الى احد الممرات التى بين الصفوف

فارتفع كابوس ثقيل عن صدر صاحبنا ، واحب أن يعتقد ان كلام البائع خليق أن يزيل من نفسه جميع الشكوك ، لامجرد الشك الذى خامره عن زيارة السيدة لدار الصور المتحركة فى ذلك اليوم

الا انها طمأنينة عاجلة لم تلبث أن ذهبت كما جاءت فى طرفة عين ، واذا بصاحبنا يناجى نفسه ذلك النجاء الذى كان غائبا عن خاطره منذ فترة وجيزة . ياعجبا ! انى لأجتنب هذه الدار كانها تجمع شياطين الارض كلها فى حيز واحد ، وهى تزورها ولا ترى فيما كان بيننا من القطيعة موجبا لاجتنابها . . لو كان

قلبها خاليا من هوى آخر لما استطاعت ذلك ولفعلت كما كنت افعل أنا الى هذا المساء . . والأغلب الارجح أن هذا البائع يعلم من خفية الامر اكثر مما يبوح به أو يريد ان يبوح . الا ترى الى غمزات عينيه وحركات وجهه ونغمات كلامه ؟ فماذا على المنحوس لو أفضى بما عنده وأراحنا من هذا العناء

وعاد صاحبنا يتساءل فى ضميره : ماعنده ؟ أهكذا جزمت سريعا بأن « عنده » سرا وانه يستطيع ان يبوح بأكثر مما قال ! الا يجوز أنه لم يعرف سرا على الاطلاق ، وان ماحسبته غمزات ونغمات مريبة فى صوته انما هى عادة هذه الطبقة عندما تتحدث لرجل عن امرأة ، أو عندما تتحـدث فى كل شأن بين رجال ونساء

ــ يجوز !

ــ لايجوز !

وهكذا انطلقت فى مخيلة صاحبنا أوهام واشباح لاعـداد لها فى تلك الساعة القصيرة ، ولا يقاس اليها كل ماشهدته تلك الدار من الأوهام والاشباح ومن المبكيات والمضحكات

ولم ينقذه مما استغرق فيه الا انتهاء التمثيل وزحام الخروج ولقاء بعض الأصـحاب وسهرة كثرت فيهـا الشواغل وطال الحديث

ونام تلك الليلة على اثر انفضاض السهرة وكان يقدر انه لن ينام

ولكنه لو قضى الليل كله ساهرا لما عمل فى اليقظة الا الذى عمـله وهو نائم . حلم وتفكير وهواجس وخيـالات تضطرب

وتصطخب ويتبع بعضها بعضا ، ولا تميل الى جانب الرضا لحظة حتى تعود الى جانب الوسواس والمنغصات

ثم استيقظ فى الصباح وهو يسأل نفسه كأنما يسأل مخلوقا غريبا يجهل ما عنده من نية وشعور :

ـ اتنوى أن تنتظرها فى الموعد ؟

فما هو الا أن وضح السؤال فى خاطره حتى شعر بأنه سؤال غريب يدل على ما وراءه ، وحتى بدت له الدهشة من أن تكون هناك نية معقولة غير الانتظار

وهنا دارت فى سريرة هذا الرجل ـ هذا الرجل الواحد ـ مناقشة عنيفة طويلة كأعنف ماتدور المناقشة بين رجلين مختلفين ، كلاهما مصر على عزمه وكلاهما يحاول جهده أن يخدع الآخر ويستميله الى رأيه ، وكلاهما يبذل كل ماهو قادر عليه فى هذا الحوار من أساليب الاقناع والاغراء والرياء والتصريح :

ـ كيف لاتنتظرها ؟ أتعطى سيدة موعدا ولا تنتظرها فيه ؟ أهذا يليق برجل ؟

ـ ولكنها ليست سيدة كسائر السيدات ولا زائرة من زائرات المجالس العامة اللواتى تقع بيننا وبينهن هذه التكاليف . ان هذه القيود لاحساب لها فى العلاقات التى انطلقت من جميع القيود

ـ ولكن مم عساك أن تخاف ؟ انتظرها وقل لها انك لاتريد أن تراها بعد هذا الموعد !

ـ عجبا ... أتجهل ما أخافه ؟ أتجهل تلك الآلام التى لاحيلة

فيها لمخلوق ولاتزال تبتدىء من حيث تنتهى ، وتنتهى من حيث تبتدىء ، لأنها تبتدىء وتنتهي من الشكوك ، وليس للشكوك قرار حاسم ، ولا مقطع بيقين ؟

أتجهل تلك الاشباح اللئيمة التى تطل عليك فى أطيب أوقاتك فتنغص عليك كل لذة وتكدر عليك كل صفاء ؟

ـ لكن علام كل هذه الشكوك التى ليس لها من اول ولا آخر . . اصرفها عنك مرة واحدة وافرض أسوأ الفروض ـ وقدر أنها تخونك وانك تلهو بها فى ساعات فراغك ، ولا يعنيك من شأنها بعد ذلك اخلاص ولا خداع

ـ أأنت مخلص فيما تقول ؟ وكيف تنقلب هذه المرأة التى كانت كل نساء الأرض عندى ، وكل مايخفق له قلبى ، فتصبح بين مساء وصباح وهى لهو ساعة ومتعة فراغ ؟ أهذا خداع يجوز على انسان ؟ أو تضمن اذا أنا اتخذتها لهواً ومتاعا أن لايتمكن اللهو ويطيب المتاع ، واننا لاننكفىء بعد أيام أو بعد أسابيع الى استغراقنا القديم وشكوكنا القديمة وعذابنا الأليم ؟ لا لا هذا محال باطل ، واستدراج لايستر ماوراءه وتزوير لاأرضاه

ـ لكن الفتاة مليحة مع ذلك . . تصور بضاضتها وهى جالسة الى جانبك فى المركبة ، وانفاسها وهى تهب على خدك فتسرى فى جميع أوصالك ، وقبلتها وهى ترتعش على شفتيك ، وحلاوتها وقد زادها النحول فى هذه الأشهر حلاوة على حلاوة ، ونحولها نفسه وما ينبىء عنه ويكشفه لك من المودة والحنين ، وتصور ذلك كله بين يديك فى مدى بضع ساعات وأنت مع هذا تفكر . . . تفكر فيماذا ؟ فى نبذ هذه النعمة التى تسعى اليك ، وفى الخوف والجبن والفرار !

ــ هذا حق كله . ان الفتاة المليحة ولا نكران ... ولكن !

ــ ولكن ماذا ياأخى .. ! انتظرها واله بها ولا تدعها لغيرك ينال منها مالا تنال .. ولا تستضعف عزيمتك هذا الاستضعاف المهين وأنت رجل ذو عزيمة ومضاء .. فاذا عاودتك الشكوك فأنت قادر على قطع العلاقة بينك وبينها كما قطعتها من قبلُ ، والا فأنت رابح ما استرجعت من متعة وسرور

ــ عزيمتى ؟ وأين هى عزيمتى ان كانت لا تنجدنى فى هـذا النزاع العنيف ؟

ــ انها تنجدك فى كل حين ولكنك أنت لا تريدها الآن ... لا تريد عزيمة الجفاء والقطيعة ، ومتى اردتها غدا فهى حاضرة لديك ، وهى فى كل ساعة طوع يديك .. ومع هذا الا يشوقك ان تستمع الى حديثها عن أيام القطيعة بينكما ؟ الا يجوز ان تفسر لك بعض الغوامض ، وتريك من البواطن ما ينقض الظواهر وتصف لك من حالها فى غيابها عنك مايهمك ولو من باب الدراسة والاستقصاء ؟

وتعاقبت الساعات ساعة بعد ساعة فىٰ هذا الحوار الحثيث ولا قرار

وتناول صاحبنا غداءه ولا قرار

وجاءت الساعة الرابعة ولا قرار

نعم لا قرار فيما يشعر به صاحبنا أو صاحبانا المتحاوران على اصح التعبيرين . غير أن الذى حدث بعد ذلك يدل دلالة لا شك فيهـا على ان الانسان يقرر ما ينويه وهو لا يشـعر ولا يعترف بشعوره ، بل يدل على ان صاحبينا المتحاورين لم

ينفردا بالميدان فيما شجر بينهما من عراك عنيف ، وانما كان معهما ثالث لايدريان به وهما ماضيان فى الاقناع والانكار

ففى الساعة الرابعة وبضع دقائق ـ والحوار على أشده بغير قرار ـ وجد صاحبنا أنه يلبس ملابس الخروج ويفتح باب حجرته وينحدر على الدرج الى حيث لا يعلم الا أنه خارج من المنزل وكفى . ومضى فى طريقه مهرولا كمن يمضى الى غاية معلومة يخشى أن يفوته لحاقها ، وركب سيارة لم يعرف الى أين تحمله الا بعد أن استقر فيها ، واستطاع أن يمكث حيث ذهب ساعات ثلاثا لا ساعة واحدة ولا نصف ساعة كما كان يتمنى وهو يعالج أن ينجو من الموعد المحدود

ثم ساوره القلق ودلف الى منزله بالسرعة التى فارقه بها ، واستحالت كل حيرته قبل الخروج الى حيرة أخرى ، أو شوق آخر : وهو أن يعرف ما حدث فى غيابه بجميع تفصيلاته . هل حضرت فى الساعة الخامسة ؟ أو حضرت قبلها أو بعدها ؟ وماذا قالت حين علمت بخروجه ؟ وما بدا على وجهها وهى تصدم بهذه « المقابلة » ؟ واذا كانت لم تحضر فما الذى عاقها عن موعدها ؟ ولماذا ضربت ذلك الموعد باختيارها ؟ هل ضربته وهى تنوى أن تخلفه من اللحظة الاولى ، أو طرأ الحائل بعد ذلك على الرغم منها ؟

وانه ليفتح الباب بالمفتاح الذى فى جيبه ولا ينتظر ان يدق الجرس كعادته فى الاوقات الاخرى ، اذا بالخادم يصادفه وراء الباب ، وهو يظن ـ بل يرجو ـ أن يخبره على الفور أن سيدة حضرت فى غيبته ولا تزال فى انتظاره ، ويغلو به هذا الوهم حتى يعجل بالالتفات الى حجرة الاستقبال ليلقى السيدة التى تنتظره فيها

ولم تمض فى ذلك الا لمحة خاطفة والخادم شاخص لا ينبس بحركة ولا يلوح عليه أنه يحمل خبرا من الاخبار يستحق أن يقال ، ويساوى تلك اللهفة التى تعتلج فى صدر صاحبنا

فاسرع صاحبنا سائلا :

ـ ألم تحضر الى هنا السيدة ؟ ألم تقل شيئا ؟

فقال الخادم فى فتور غريب :

ـ لا أعلم !

فانفجر صاحبنا غاضبا :

ـ كيف لا تعلم ؟ ألم تكن هنا ؟ هل هى أوصتك بأن تقول ذلك ؟

قال الخادم وفى صوته احتجاج من يستغرب ولا يفقه معنى هذا الاتهام :

ـ يا سيدى قلت لك لا أعلم ، لأنك نزلت من هنـا وأنا نزلت وراءك حسب المعتاد فى سائر الايام

فاشتعل صاحبنا غيظا ، وهم أن ينقض عليه لولا أن هرب الرجل من امامه فتبعه الى باب الخدم ، وهو يعلنه بالطرد وان لا يعود ليريه وجهه مرة اخرى . ولم يصفح عنه الا بعد ثلاثة ايام ، وبعد ان شفع له ان الرجل معذور لانه لم يأمره بالبقاء فى المنزل ، وقد انساه ان يأمره بالبقاء فيه ما كان مشغولا به من حوار



الاستاذ العقاد فى شبابه

الشكوك

من النادر جدا أن يتواعد محبان على اللقاء بعد فراق طويل ثم لايسرعان الى موعد اللقاء بلهفة شديدة واشتياق عظيم ، ان لم يكن حبا أو حنينا أو رغبة فى المتعة والسرور، فعلى الاقل من قبيل الفضول والاستطلاع والرغبة الملحة عند كل منهما فى الوقوف على أخبار صاحبه وأحواله أيام الغياب الطويل : هل أحبت غيره ؟ وهل احب غيرها ؟ وهل سلت ؟ وهل سلا ؟ وبماذا يشعران فى الحب الجديد ؟ أو ماذا بقى عندهما من الحب القديم ؟ وماذا تقول له حين تخلو به ؟ وماذا يبدر من كلامه حين يخلو بها ؟ واشباه ذلك من الاسئلة التى يلقيها كلاهما على نفسه ويحسب أنه فى أشد الحاجة الى الوقوف على جوابها . فربما كان هذا الفضول من أقوى مظاهر الحب ، ومن أوثق روابط الاتصال بين كثير من الناس محبين كانوا أو غير محبين

فاذا حدث غير ذلك واجتهد احد العاشقين أو كلاهما فى اجتناب الموعد المنتظر بعد طول العزلة والجفاء ، فلا بد أن يكون بينهما شبح قائم من الآلام والاكدار يغطى على جميع المشوقات والمرغبات ، ويعكس الفضول والاستطلاع فيستحيل الى صمم ونفور ويصبح كل شيء أهون من تجديد تلك الحالة المكروهة والعودة الى ذلك الشبح المرهوب

وهكذا كانت الشكوك التى تمثلت لصاحبنا فانساق بغير وعى ولا ارادة الى اجتناب الموعد ، والفرار من المنزل ، والهزء بكل اغراء وتشويق ينبعث فى أعماق حسه من شيطان ذلك الشغف القديم

كانت شكوكا مريرة لا تغسل مرارتها كل أنهار الارض وكل حلاوات الحياة : كانت كأنها جدران سجن مظلم ينطبق رويدا رويدا ولا يزال ينطبق وينطبق وينطبق حتى لامنفس ولا مهرب ولا قرار،وكثيرا ماينتزع ذلك السجن المظلم طبيعة الهرة اللئيمة فى مداعبة الفريسة قبل التهامها ، فينفرج وينفرج وينفرج حتى يتسع اتساع الفضاء بين الارض والسماء ، ثم ينطبق دفعة واحدة حتى لا يمتد فيه طول ولا عرض ولا مكان للتحول والانحراف : بطل المكان فلا مكان ولا أمل فى المكان ، ووجب البقاء حيث أنت فى ذلك الضيق والظلام فلا انتقال ولا رجاء فى الانتقال

وكان صاحبنا كالمشدود بين حبلين يجذبه كلاهما جذبا عنيفا بمقدار واحد وقوة واحدة ، فلا الى اليمين ولا الى اليسار، ولا الى البراءة ولا الى الاتهام .. بل يتساوى جانب البراءة وجانب الاتهام فلا تنهض الحجة هنا حتى تنهض الحجة هناك ، ولا تبطل التهمة فى هذا الجانب حتى تبطل التبرئة من ذلك الجانب . وهكذا الى غير نهاية والى غير راحة ولا استقرار

وضاعف هذه الحالة ذكاؤها من ناحية ، وطبيعة ذهنه وتفكيره من ناحية أخرى . فهى من الذكاء بحيث لا تقدم على عمل واحدا أو حركة واحدة لايختلف فيها وجهان ولا تقبل التضليل والنكران ،وهو فى تفكيره وطبيعة ذهنه يخلق

الاحتمالات الكثيرة ، فلا يجوز عنده احتمال راجح الا جاز عنده فى اللحظة نفسها احتمــال راجح فى قوته ووزنه وجوازه ، ولا يدفع هذا أو ذاك الا بدافع حاسم لا تردد فيه

ألم لا نظير له فى آلام النفوس والعقول ، وحيرة لا تضارعها حيرة فى الاحساس والتخمين ، وأقرب ما كان يشبه به هذه الحيرة حالةالابالمستريب الذى يشك أفجع الشك فى وليدمنسوب اليه : هل هو ابنه أو هو ابن غيره ؟ ومن هو ذلك الطفل الصغير الذى يتقاضاه حقوق البنوة على الآباء ؟ هل هو رمز الحب والعطف والصــدق والوفاء ، أو هو رمز الخداع والخيــانة والاستغفال والاحتقار ؟ هل هو مخدوع فى عطفه عليه ، أو هو مخدوع فى نفوره منه ؟ وكيف يفصل فى هــذين الخداعين ؟ وكيف يطيق الصبر على واحد منهما ، وكلاهما لا يطاق

بذلك كان يشبه حيرته وهو يحاول الاستمتاع بعاطفته التى هو مستغرق فيها ، ويحاول فى اللحظة بعينها أن يبترها وينساها ولا يعود اليها . ثم لا يدرى فى أى المحاولتين هو مصيب . ولابد أن يدرى ، وهيهات لا سبيل الى الدراية بحال !

واذا كان بعض الشكوك فى العشق من وساوس الاوهام ، فمما لا نزاع فيه أن العاشق أصدق الناس فى شكوكه حينما يبنيها على أسباب صحيحة وحقائق ملموســة ، لانه يعرف صاحبته معرفة لا يخفى معها عارض من عوارض التغير ، ولا لمحة من لمحات العين ، ولاهمسة من همسات الضمير : يعرف نظراتها ويعرف كلماتها ، ويعرف ماتقوله عن سجية وماتقوله بتكلف واصطناع ، ويعرف أن بعض الخشونة ادل على الحب والاخلاص من بعض المجاملة ، ويعرف نفسها وكيف تستتر

فيهـا الخفايا ، ويعرف جسـدها وكيف تختلج فيه النوازع والشهوات

وقد يسأله من يسأله كيف خامرتك الشكوك فيضحك من نفسه أن يجيبه بما يلوح له أو يطلعه على بعض تلك الاسباب، وقد يؤثر فى معظم الاحيان أن يكتمها ويموهها على أن يفضى بها الى انسان كائنا ما كان

وبعد فهل الغدر فى الحب مستحيل ؟

كلا ! ليس هو بمستحيل ولا مما يقـارب المستحيل . وليس صاحبنا بالذى يصدق ذلك ولا صاحبتنا بالتى تصدقه وتدعيه

لقد اعترفت له بعلاقتين سابقتين : احداهما متينة مستحكمة طويلة والاخرى هوجاء حامية سريعة ، واحداهما مع كهل يقارب الاربعين والاخرى مع فتى فى نحو الخامسة والعشرين . واحداهما صيدت فيها ولكن على غير كره منها ، والاخرى كانت هى فيها الصائدة وهى التى نصبت الشباك ، فوقع الصيد على عجل وأسرع الحراس الحانقون فأطاروه !

اعترفت له بما كانت تحتال به من الحيل البارعة لتلقى عشيقها الاول ، وبما كانت تعمى به على من حولها حتى لا يرتابوا فى أمرها ، واذا استرابوا لم يجدوا عليها ما يثبت الريبة ويقطع اللسان

واعترفت له بالردود المفحمة التى كانت تدبرها لترغم المتهمين على السكوت

واعترفت له بما تخجل منه المرأة المعتزة بجمالها ومكانتها ،

فقالت له انهـا لم تكن على يقين من حب عاشقها الاول ، ولم تكن تبالى أن يحبها اكتفاء بعلمها انها هى تحبه . وذهبت فى امتهان كرامتها — وهى مغرورة بفتنتها وامتيازها — الى حد من الخضوع لايحمد الا فى التدين والايمان . فقالت انهـا لمحت منه مرة أنه يطيل النظر فى مجلسها الى امرأة أخرى من صديقاتها ... فخطر لها أن تناجى نفسها سـائلة : هل يجسر يا ترى على أن يطلب منها الوساطة بينـه وبين تلك المرأة فى التقريب والتمهيـد ؟!. . قالت : « فراعنى هـذا السؤال ، ولكنى عدت فشعرت انى سـأفرح بأن أسره وأن جاء سروره من هذا الطريق المهين ! »

ثم انقطعت هذه العلاقة على الرغم منها وعلى الرغم منه ، وتمادت بها الوحدة وهى فى دهشة مخيفة ، فجعلت تلتفت الى شاب وسيم من الجيران ، ثم تمعن فى الالتفات اليه حتى أصبح انتظاره وهو عائد الى منزله فى الهزيع الاخير من الليل شغلا لها شاغلا فى اليقظة والمنام ، وأخذت تحاسبه فى طويتها على هذه السهرات وتتخيل مع من تكون وكيف تكون ..! ويزيدها ذلك لجاجة فى الولع ولجاجة فى الانتظار ، ولم يلبث هذا الالتفات منها ان أدى الى الالتفات منه ثم الى التحية ثم الى لقاء جنونى فى المنزل الذى يحيطها فيه الآل والاقربون ، وكانت هذه المغامرة العجيبة هى العلاج الباتر لذلك الجنون العجيب !

وراح صاحبنا يذكر كيف اجتمع بهـا أول مرة ، ويذكر ما تحدثت به اليه فى أول خلوة . لم يطل بهما الجلوس يومئذ حتى استأذنت فى الانصراف لانها ذاهبة الى موعد مع صديق، وأرته خطابا من ذلك الصديق يقول لها فيـه انه يشترى فى

ذلك اليوم سيارة ويحب أن يستأنس برأيهـا وبذوقها فى اختيار اللون والطراز . فأذن لها صـاحبنا وهو يقول مازحا : « هذا موعد يرشحك لصناعة مفيدة ... فلا تهمليه ... »

قالت له فى أول لقاء بعدها : « لشد ما كنت أترقب منك أن تستبقينى وتؤخرنى عن ذلك الموعد . ولو قلت لى : لاتذهبى ! لما ذهبت ... ولو مزقت الخطاب أو خطفتـه من يدى لجزيتك على صنيعك أحسن الجزاء ! »

وكانت تحب الضحك وتفطن الى الفكاهة وتضحك احيانا حتى تشرق عيناها الواسعتان بالدموع ، ولكن صاحبنا لايذكر أنها ضحكت يوما كما ضحكت امامه وهى تمثل الصـديق صاحب السيارة وتروى ما جرى بينها وبينه حين اجترأ أول مرة على اقتراح خطير ، بعد تمهيد وتحضير ، وحذر وتحذير

وما هو الاقتراح الخطير ؟

قبلة ... !

نعم قبلة ، وأكدت الكلمة وهى تروى الحكاية مرتين

قالت : « انه كان ينتظرنى فى طريق الزمالك ، فلمحت أول ما وقع نظرى عليه انه مهموم قلق يخفى على أطراف شفتيه نية من النيات ، وكان ذلك بعد أن التقينا عدة مرات وانفردنا فى الخلوات ساعات . فلم يعسر على أن أستشف تلك النية ، وراقنى أن استدرجه الى الافصاح عنها لارى كيف يتـدرج فى الكلام ، فأضجرنى كثيرا قبل أن يستجمع فى قلبه القدرة على أن يقول : يا فلانة !

قلت : نعم يافلان

قال : ان لي أمنية أحب أن افاتحك فيها وأرجو أن لاترفضيها ولا تسيئي تأويلها

قلت : انني أحب أن ارى أمانيك كلها تتحقق ، ولا سيما الاماني التي فيها لك الخير والنجاح

قال : اشكرك ... لكن هذه الامنية في يديك انت ؟

قلت كالمستغربة : في يدي انا ؟ ما علمت قبل الآن انني رئيسة عليك ، ولا انني قادرة على نفعك وتوفير ماتتمناه !

فأحجم قليلا ، وخشيت أن يعدل عن مجرى حديثه فعدت أقول : ومع هذا أسمع منك هذه الأمنية فلعلي أشير عليك بما يفيد

وبعد جهد جهيد صرح وهو يستغفر ويتلعثم بأنه يتمنى على الله أن أسمح له بقبلة !!

فسكت هنيهة لا أدري هل أضحك أو أتغاضب . وظن انني اتجهم واقطب وانني اهم ان الومه واخاطبه بما يسوؤه ، فأسرع الى الاعتذار ، وأسرعت أنا الى الكلام لئلا اضحك ، قائلة :

ــ أو هذا مما يحسن بك يا فلان ؟ لكأنني بك غدا تتمادى الى أكثر من ذاك ..

فصاح كمن مسته نار : انا ؟! أتظنين يا فلانة انني من هؤلاء ؟ معاذ الله يا فلانة . معاذ الله

لم ينس صاحبنا كيف كانت تضحك وهي تحكي له هذه الحكاية ، واستدل من ضحكها أكثر مما استدل من كلامها على مبلغ استخفافها بما يسمونه الصداقة بين النساء والرجال . فما الذي يمنعه أن يصدق أنها تستخف بالوفاء وتمضي مع أيسر الاهواء ؟

لا بل هى قد اعترفت له بما هو أدعى الى الشك والريبة من جميع ماتقدم .. فقد غضب منها وغضبت منـــه قبل الغضبة الاخيرة مرات عديدة ، بعضها يعقبه الصلح فى يومها وبعضها يتجاوز الايام وقد يتجاوز الاسابيع ، ففى احدى هذه المرات افترقا بعد عراك عنيف بالغ فى العنف والتهجم فوق ما تعودا من عراك وصدام . وسافر الى مصيفه وسافرت الى مصيفها ، ولا مطمع لهما فى لقاء ، وبلغ من يقينه بالفراق الفاصل أنه عاد من سفره وهو لا يترقب منها سلاما ولو سلام المجاملة والتكليف ، ولكنه بعد أيام قليلة تلقى غلافا فيه صور شمسية تمثلها الى جانب بعض المشاهد الخارجية التى يرحل اليها المصطافون والسـائحون ، ومضت أيام معدودات واذا بجرس التليفون يدق واذا بالمتكلم ذلك الصوت الذى لا يلتبس عليه بين ألوف الاصوات :

ـ الحمد لله على السلامة !

ـ سلمك الله وعافاك !

ـ هل لى أن ألقاك اليوم ؟

ـ نعم . تفضلى !

ـ اتفضل ؟ لا . لست اتفضل ، ولـكنى أزورك لالتمس الغفران ... هل فى وسعك أن تمثل دور الكاهن فى الديانة المسيحية ؟

قال : أخشى أن يكون دورك اذن هو دور الخاطئة ؟

قالت : هو ذاك . فالى اللقاء ... فالتليفون لا يتسع لمثل هذا الحديث

لم يشعر ذلك اليوم وهو ينتظرها بخداع ولا باستغفال ولا

احتقار . ولكنه شعر بخسارة وأسف ، وانتظرها كما ينتظر الطبيب مريضا يلجأ اليه ، واستقبلها عاطفا عليها متطلعا الى ما وراء حديثها مستعدا للتسامح فى الاصغاء اليها . فدخلت وهى تقول فى غير احتجاز ولا امتناع :

ـ لا قبلات ولا تحيات حتى تعرف قصتى واعرف رأيك

« اسمع يا فلان . اننى لا أومن بصداقة المرأة للمرأة ولا عزاء لى فى معاشرة الصديقات المزعومات على الاطلاق ، فان لم يكن الى جانبى رجل أهابه وأحبه وأعتمد على سنده فأنا فى وحشة الهالكين ، وأنا ضعيفة ضعيفة ضعيفة لا طاقة لى على دفع الغواية . وقد افترقنا يائسين ليس لك حق عندى وليس لى حق عندك ، وأنا لا احاسبك على شطحاتك فى مصيفك ان كانت لك شطحات ، ولكنى أسمح لك أن تحاسبنى على الصغيرة والكبيرة وأبوح لك بأننى زللت فى المصيف وانغمست فى صلة غرامية ليس فيها غرام فى الحقيقة ، ولم احضر اليك اليوم بل لم أرسل اليك الصور الا وقد قطعت تلك الصلة وهيأت نفسى لاستئناف مودتنا القديمة . وهاأنذا الساعة بين يديك فماذا أنت قائل ؟ هل تقبلنى ؟ »

فاستزادها من خبر تلك الصلة التى لا غرام فيها كما تقول ، واسترسلت هى فى تفصيلات لم تستر فيها سرا ولم تصبغ فيها أمرا بغير لونه ، ولم تقف دون معرة أو نقيصة كأنها تفرغ قلبها بين يدى الكاهن على حسب « انذارها » فى حديث التليفون

قال بعد أن أصغى اليها فى صمت وابهام :

ـ اننى يا فلانة لا أملك أن اجيبك هذه الليلة ، ان انا قبلتك

فلست آمن أن أندم وان أنا رفضتك فلست آمن كذلك ان أندم . ولكن دعينى بضعة أيام ريثما أروض سريرتى على عزم وثيق وأخبرك بما صحت نيتى عليه ، غير خائف من عواقب العجلة

وما انقضت تلك الايام حتى استقبلها صافحا ، وسألها ان تذكر أبدا أنه قد يفهم عذرها من الضعف ولن يفهم لها عذرا من الختل والخداع ، وحمد لها صراحتها ولكنه فى الواقع لم يسلم من الاحتراس والتوجس منذ تلك الساعة ، ولم يزل على تفاهم دخيل بينـــه وبين طواياه انه لا يأوى الى حصن حصين ، وأنه مع ذلك هو حصنه الذى لابد أن يأوى اليه !

فلما ساورته شبهات الشك توالت أمامه الدلائل من فلتات اللسان وشوارد الخاطر وعلامات الزينة والحلى والملابس وما الى ذلك من علامات هى لمن يعهدها أثبت من البراهين وأصدق من الشهود ، ورانت السآمة على كل لقاء ، وتغلغلت اللواعج والاشجان فى كل فراق وغلبت الاكدار على كل صـفاء وكل رجاء . ولم يبق الا أن يقبلها على أن يستغرق هو فى حبها ويسمح لها هى أن تفرغ لغيره وهذا مستحيل ، أو يقبلهـا على أن يلهو بها وتلهو به وهذا أيضا مستحيل ، أو يسوم نفسه قطيعتها وهذا ما قد عول عليه ، وظن انه استطاعه وقدر عليه خمسة أشهر

وانه لفى حسبانه هذا يوشك أن يودع القلق والاسر ويقبل على الطمأنينة والحرية ، اذا به يهـاجم فى الصميم ، واذا بالظواهر والبواطن كلها تضمن له وهى تتدفق عليه أنه عائد لا محالة الى ما ودع من شقاء وألم ، وليس بين تلك الظواهر

والبواطن كلها ما يضمن له أقل ضمان أن يعود الى ما ودع من ثقة ونعيم . فماذا عساه أن يصنع ؟ لا تسل فكره ولا تسل قلبه ولا تسل ضميره ، بل سل كل وشيجة من وشائج لحمه ودمه وأعصابه التى عزمت عزمها بغير اكتراث لفكره أو لقلبه أو لضميره ، واستقلت بارادتها وهى لا تترجم عن تلك الارادة الا بالعمل الواقع دون التفكير ودون التعليل ودون التفسير ، فطلبت النجاة بالبداهة المرتجلة وحملت الجسد الذى هى قوامه الى خارج المنزل وهى لا تعى ولا تفقه الى أين تسير ولا لوم على من يطلب النجاة ، فانما هكذا تطلب النجاة !



علاج الشك

مواجهة الحقيقة من أصعب المصاعب فى هذه الدنيا

« أولا » لاننا فى الغالب لانعرف ماهى الحقيقة

و « ثانيا » لاننا فى الغالب لانحب أن نعرفها الا مضطرين ، حين نيأس من قدرتنا على جهلها ونشك ثم نشك ثم نرى آخر الامرأن الشك أصعب وأقسى من مواجهة الحقيقة والصبرعليها

و « ثالثا » لاننا اذا عرفناها ففى الغالب — أيضا — أنها تكلفنا تغيير عادة من العادات ، وليس أصعب على النفس من تغيير ما اعتادت . . . فالموت نفسه لا صعوبة فيه لولا انه يغير ما تعودناه ، وفراق الموتى لا يحزننا لولا أنه تغيير عادة أو عادات كثيرة

وقد كانت الحقيقة أنهما — أى صاحبنا وصاحبتنا — قد تغيرا كثيرا بعد أن مضت على صحبتهما برهة من الزمن ، ولكنهما لبثا برهة أخرى من الزمن وهما لايريدان ان يعترفا بهذا التغيير

تغيرا فلا سرور لهما فى اللقاء ، وقد كان اللقاء عندهما أكبر سرور يشعر به الانسان

ولكنهما لم يزالا يتلاقيان



تغيرا واشتد بهما التغيير وهما لا يجسران على مواجهة

الحقيقة ... فلو سأل نفسه هل يريد اللقاء حقـا أو يريد الفراق لما اسـتطاع الجواب ، أو لقال فى نفس واحد انه يريد اللقاء ويريد الفراق

ولو سألت هى نفسها هذا السؤال لكان جوابها أنها لاتعلم لمـاذا تحضر فى الموعد كل يوم ، ولمـاذا لا تفضـل الانقطاع على الحضور

هو لم يجزم بخيانتها كل الجزم فلماذا يتركها ؟...ولكنه لا يسر بلقائها فلماذا يلقاها ؟

وهى لم تيأس من صلاح شأنه معها ، أو لعلها لم تيأس من قدرتها على خداعه ويعز عليها ان تتهم نفسها بهـذا العجز وهى تفخر بذكائها ، فلماذا تفقد الثقة بحيلتها وبراعتهـا واقتدارها ؟ ولمـاذا لا تجرب كياستهـا مرة بعد مرة حتى تنجح أو يستوى لديها الفشل والنجاح ؟

وهكذا ظلا أشهرا عديدة يمثلان سعادتهما الاولى ويخرجان من مسرح التمثيل كل يوم راضيين أو ساخطين ، وخير ماوصلا اليه فى تلك الفترة الطويلة أن يظفرا بالتصفيق من المتفرجين ... وهما وحدهما المتفرجان والممثلان !

وكلما حان موعد اللقاء ذهبا اليه كما يذهب الممثل الى حضور تجربة جديدة بعد أن فشلت تجربته السابقة ، ولابد له من الذهاب ، ولا سرور له فى القعود والاحجام والتسليم بينـه وبين ضميره أن الذهاب لا يفيد

لقد كانا يحضران الى الموعد بحكم العادة التى لم يجسرا بعد على تغييرها ، لانهما كانا يخافان من التفكير فى التغيير ، ويخافان من التفكير فى ذلك الخواء الموحش الذى يسـتولى

عليهما لا محالة بعد ذلك التغيير

فهما يحضران لانهما خائفان من الغياب ، لا لانهما راغبان في الحضور

أما قبل ذلك فما أبعد الفرق وما أهول الاختـلاف وما أحب اللقاء بعد طول الانتظار ، وان أطول أمد لهذا الانتظار ما كان ليزيد على يوم واحد أو بعض يوم في معظم الاوقات

كانت الساعة الخامسة كأنها علامة موسومة في مدار الفلك بالشهب والكواكب والهالات ، وكان صـاحبنا يتعجل الوقت قبل حلولها بربع ساعة فيلتزم مكانه وراء النافذة لينظر من ثقوبها الى منعطف الطريق حيث يلوح القادم أول ما يقبـل على الدار ، وكثيرا ما كانت الغيـوم تـكفهر والغيوث تنهمر والهواء يعصف باردا قارسا في صبارة الشتاء ، وصـاحبنا واقف وراء النافذة قبل الموعد بربع ساعة يوشك وهو وجل منقبض الصدر غائم الخاطر إن ييأس من وصول صاحبتنا في موعدها ، ولها العذر كل العذر اذا هي تأخرت سـاعات أو عدلت عن الخروج طوال ذلك اليوم ، ولا يزال في مرقبه نهبا لهـذا الوسواس لمحة بعد لمحة كأن الزمن قد استحـال الى أجزاء تمد بالملايين وملايين الملايين لابستين دقيقة في الساعة وستين ثانية في الدقيقة !! وكلما تقدم جزء من هذه الملايين تضاعف الوجل وتفاقم الحذر واختلجت الهواجس المثيرة كما تختلج الذرات في قارورة يرجها الشلال الدافق أعنف ارتجاج. وبعد مليون جزء من أجزاء الزمن تقترب الساعة الخامسة فاذا هي الساعة الخامسة الا عشر دقائق ! وبعد مليون آخر ثم مليون ثم مليون تقترب ثم تقترب فاذا هي الساعة الخامسة

بالدقيقة والثانية ... والويل له اذا تجاوزت هذا الحد ولو الى دقائق معدودات ، لان الدقائق المعدودات لابد أن تترجم فى لغة الانتظار والهواجس بالملايين بعد الملايين التى لايجمعها الحصر والاحصاء ، وانه ليطيل النظر الى الطريق حتى يعتريه شبه غيبوبة لا يحقق الناظر فيها ما يراه تحت عينيه ، فما رآها مرة بعد هذا الانتظار تهل من مطلع الطريق الا كما يرجع الى النائم صحوه أو كما يرجع الى المذهول رشاده ، وتتقدم وهى تتهادى فى خطواتها التى كأنما تتهيأ كل خطوة منها لعناق مشوق ، وينفتح الباب وينقسم العالم الى قسمين اثنين لا ثالث لهما فى الذهن ولا فى الخيال : قسم فيه كل شيء وقسم ليس فيه من شيء ... أو قسم موجود وقسم ليس له وجود ، والبيت هو القسم العامر الزاخر الحافل الوهاج ، والدنيا هى القسم المهجور الذى لا تتسع قاراته وبحاره ومن فيها وما فيها من السكان لاوسع من مكانها فى خرائط الاطفال

والذى يحدث فى الشتاء قد كان يحدث مثله فى الصيف أيام السموم والحرور . فلا تأخير ولا اعتذار ، ولا سلامة مع ذلك من قلق الانتظار ، حتى يحين الموعد ويستقر القرار

فى تلك الايام كانت كل هنيهة لها شعورها المحبوب المتجدد البهيج : اذا انفتح الباب للقاء فذلك شعور القائد الذى يفتح باب حصنه ليتلقى نجدة الامان والاطمئنان الى زمن طويل وليطرد المخاوف من وراء ذلك الباب الى مهرب سحيق ، واذا انفتح الباب للوداع فذلك شعور الشارب الذى استوفى نصيبه من العقار وبقى له نصيبه من النشوة والتذكار ونصيبه من الشوق فى الغد الى مثل هذا اللقاء ومثل هذا الوداع ومثل

هذا الانتظار ، وبين لقاء كل يوم ووداعه ألف لقـــاء ووداع وألف انتقال من حال الى حال ، وألف سكينة وألف ابتدار

تلك أيام !

ثم جاءت بعدها أيام

وشتان أيام وأيام

نعم شتان حقيقة وتمثيل... وأى تمثيل ؟! تمثيل اللاعب الذى يساق الى دوره سوقا لانه يخشى الفشل لا لانه يأمل النجاح

واستمرت المواعيد ، واستمر اللقاء ، واستمرت السآمة ، واستمر الشقاق ، واستمرت مع كل ذلك محاولات عقيمة مستميتة أن يعود مالا سبيل الى أن يعود

وكانت هى تقلد نفسها فى أيام الصفاء فتمد يدها الى جيبه بعد عاصفة من اللوم الجارح والملاحاة الموجعة كما كانت تمدها الى جيبه بعد ســـاعات الرضا والدلال لتخرج منـه المفكرة المعهودة وتكتب فيها أسطرا أو كلمات تسجل بها ما كان فى ذلك اليوم ، فكتبت يوما بعد مقابلة لم يسمع فيها الا جدال ومحال أو سكوت هو أثقل من الجدال والمحال : « نزهـــة رسمية فى عربة . ثم مناقشة جدية . ثم مصافحة وتقبيل ، ولا عجب فى ذلك ... فان الحب يسهر ! »

نعم يسهر من الارق لا من العناية !

وسهر الحب الى اليوم التالى فالتقيا وتراضـيا وتناولت هى المفكرة وكتبت فيهـا خمس كلمات : « سامحت من غير سبب . أحبك »

ولكنها كانت آخر ما كتبت فى مفكرة ذلك العام ، وفيما بعده من أعوام

ومن الناس من يستطيب أمثال هذه المقابلات ولو لم يكن فيها الا تمثيل ناجح أو تمثيل فاشل ، وصاحبنا خليق أن يكون واحداً من هؤلاء النـــاس لو اقتصر الامر على الفتور والتكلف والمناقشة والملال ، ولـكن الشيء الذى لا يطاق هو أن تشك ثم لاتستطيع أن تصل الى الحقيقة ، ولا أن تكشف عن الشك ولا أن تستقر عليه ، فانها حالة لايطاق لهـا دوام ولابد لها من انتهاء

فكيف هذا الانتهاء ؟

أول ما اتفقا عليه أن يتفاهما على الفراق اســبوعا أو أسبوعين ريثما يعرفان كيف يكون صبرهما على هذا الفراق القصير ، ويعرفان من ثم كيف يكون صــبرهما على الفراق الحاسم الذى لا لقــاء بعده . فان هان عليهما بعــد هذه المحاولة أن ينفصلا بسلام فلينفصلا اذن بغير ندم ولا خصام ، وان عزت عليهما القطيعة فعسى أن يكون الاشتياق الى اللقاء فاتحة الرغبة الصادقة من جديد ، وعسى أن يفهم كلاهما من مكان صاحبه عنده ماينهاه عن مطاوعــة الهواجس ومجاراة الشكوك

وقد استفادا من هذه المحاولة العسيرة فائدة لايحتقرانها بعد طول السآمة وطول النزاع ، فانّ اللهفة الصــادقة التى طفت عليهما يوم عادا الى اللقاء قد عادت بهما الى حنين شبيه بالحنين القديم ، ونعما فى ذلك اليوم بمتعة هنيئة لم ينعما بها منذ عهد طويل

ولما شيعها الى الباب وهو يقول الى اللقاء فى الغد قالت : لا ... ان اللقاء بعد يومين او ثلاثة امتع واشهى ... وسأخبرك أو تخبرنى عن الموعد متى طلبناه ... ولا نتفق عليه الآن !

واستحسن منها هذا التسويف كما كان من قبل يستحسن منها نشاطها فى تعجيل المواعيد ، وود فى خلده لو يتأجل اللقاء خمسة أيام أو ستة لا يوما أو يومين . ففى ذلك فطام للهوى وشحذ للشوق والرغبة ، وامتحان لقوى النفس يسبر غورها ويلذ فيه حب الاستطلاع

الا انها محاولة قصيرة لم يكتب لها العمر المديد

فما هو الا موعد او موعدان حتى أحس كما يحس كل رجل يفهم طباع المرأة التى يهواها انها لم تحافظ على وفائها ولم تعصم جسدها أيام الغياب ، وأنها أصبحت ترحب بالتسويف لانها تريده وتستريح اليه ... ورجع الى ذاكرته يفتش لعله يذكر هل هى التى اقترحت فى بادىء الامر أن يعالج الشك بالتسويف والمباعدة بين المواعيد أو هو الذى بدأ بالاقتراح ، فتذكر انها كانت تحوم حول الاقتراح وتوحيه اليه وتهتم بأن توقع فى ذهنه أنه هو صاحبه وموحيه ... فقال لها متهكما :

ارى أن الحل الاخير الذى اهتدينا اليه يرضى أكثر من اثنين !

قالت : ماذا تعنى ؟

قال : أعنى أنه ربما أرضى ثلاثة بدلا من اثنين ، وربما أربعة ... من يدرى ؟

قالت متهكمة : وربما خمسة أو ستة ... زيادة خير ... ولماذا تكره الرضا لعباد الله ! ؟

وتلا هذه المحاورة منظر من مناظر المسابقـــة فى الايلام والتبكيت والغضب والاغضاب . قال فيه وقالت ، وتمادى فيه وتمادت ، وباح فيه وباحت ، وخرجت من المنزل حانقة لا تودع ولا تسلم ولا تعد بلقاء مؤجل ولا بلقاء سريع



وانقضت مدة لا يسمع منها ولا تسمع منه ولا يسعى اليها ولا تسعى اليه . ونازعته أهواؤه مرات فى أثناء هذه المدة أن يراها وأن يتحدث اليها فنفر أشد نفور وكظم هذه الرغبـــة بجهد أليم . وبينما هو يحسب نفسه غاضـــبا نافرا اذا به يتحول رويدا رويدا الى مشفق حزين ، واذا باشفاقه الحزين أقرب الى اشفاق الابوة الرحيمـــة منه الى اشـــفاق الغرام اللجوج ، واذا به فى ساعة من الساعات يكتب اليها هـــذا الخطاب :

أيتها الصديقة :

أيا كان رأيى فيك أو رأيك فى فلا ضير فى ارسال هـــذه الكلمة اليك ، ولا خسارة على ان ضاعت عندك أو صادفت نصيبا من الاصغاء ... ان مسحة من الالم ألمحها على وجهك تخيل الى أننى أخاطب منك مستمعا ، وان موضعا حيـــا فى ضميرك لا يزال مفتوحا لهذا الخطاب

لا حاجة الى البحث فى تفاصيل حياتك القـــديم منها أو الجديد ، فحسبى ما سمعته من لســـانك ، وحسبى أنـــك

تعترفين لى أنا بعلاقات ماضية مع أكثر من رجل واحد ، وفى هذا كفاية وفوق الكفاية !

فلو قيل لى اننى سأسمع هذا الخبر من انسان لما خطر لى قط اننى أسمعه منك أنت باختيارك . ولو جاز أن تبوحى به لكل اذن لكانت أذنى هى الاذن الوحيدة التى يجمل بك أن تكتمى السر عنها ، لاننى أنا الرجل الوحيد الذى يرى لك كرامة غير كرامة جسدك ويحب أن يعرف لك قيمة أكبر من هذه القيمة

ومع هذا بأية بساطة كنت تتحدثين عن علاقاتك بالرجال وخلوتهم بك هنا وهناك ... لكانما كنت تفخرين . أو كانما كنت تشفقين من كتمان هذا الحظ السعيد ... فياصديقتى لشد ما ضللك الشقاء حتى جهلت ماتعرفه المرأة بالفطرة بغير حاجة الى تعليم وتلقين ، وحتى نسيت أن المرأة تستطيع ان تكون لهذا ولذاك ولكنها لاتستطيع أن تفخر بشىء لم تعجز عنه امرأة بين النساء . فهل أصدق حقا انك أنت تلك المرأة التى لم يبق لها الا هذا الفخر المخجل الاليم ؟ وهل أنت حقا تلك المرأة التى تجد سعادتها فى هذا المجال ؟!

أظن — وأرجو أن يكون ظنى صحيحا — انك تخدعين نفسك يا صديقتى الخادعة المخدوعة

لست أنت التى تشعرين بالسعادة فى هذه العيشة الاسيفة

غيرك من النساء تنعم بها وتستطيبها ولكن شقاءك أنت بها لا يعدله شقاء

انظرى الى وجهك فى المرآة . انظرى الى ألم ضميرك الذى يبكيك كثيرا ولا ريب فى ساعات الوحدة والانفراد

ثم اسألي نفسك : ما نهاية كل هذا وما العاقبة وما المصير ؟ لو بقيت على هذه الحالة سنة واحدة لفقدت جمالك فى عنفوان شبابك وفقدت كل ثقتك بنفسك واحترامك لشعور الانوثة الذى لا سعادة لامرأة بغيره . وماذا فى الحياة بعد فقد الثقة وفقد احترام الشعور ؟ أنت فى تلك الحالة بين اثنتين : اما أن تألفى العيشة التى تؤلمك الآن وهذا هو موت النفس الذى يموت به كل سرور صحيح

واما أن تتعذبى بها أبدا بغير عزاء يهون عليك فقد الصحة والنضارة ، وأنت انما تفرين من العذاب وتطلبين الراحة والاطمئنان

أنت تتألمين ولكنك تجهلين ما يدفع عنك هذا الالم المخيف ... فاذكرى نوبات الحيرة وتبكيت الضمير التى كانت تساورك حين تحضرين الى ، واذكرى كيف كنا نفترق وقد هدأت نفسك بعض الهدوء واستراح ضميرك بعض الراحة .. كان اهتمامى بك حتى بالغضب عليك يفرج شيئا من الضيق الذى يسد عليك منافذ الامل ، لانه يعطيك فكرة عالية فى نفسك ، فيعزيك ويقويك ويرفع عنك ذلك الصغار الذى يسمم كل شعور وينغص كل نعيم

اذكرى كيف كان وجهك يشرق بالبشاشة من عهد قريب وكيف ظهر ذلك على صحتك وملامحك فسألتنى فى يوم من الايام بين الجد والمزاح : أصحيح : أصحيح أن وجهى يمتلىء ويحلو ؟ كان ذلك وأنت تشعرين الى جانبك بنفس انسانية تحنو عليك وتفكر فيك وتجتهد فى عذرك مااستطاعت ، وترعاك فى الغيبة والحضور ، وهذا أحوج ما تحتاج اليه المرأة خاصة فى هذه الحياة

فكل امراة ــ كل امراة بلا استثناء ــ فى وسعها ان تجد رجلا يأخذها جسدا ويطرحها سائما بعد حين بلا أسف ولا شكر ولا احترام

ولكن ليست كل امراة واجدة تلك النفس العطوف التى تفهم الدنيا وتفهمها وتحب لها الخير لغير غاية وتهتم بها وحدها بين جميع الناس وتراها أهلا للرضا والغضب والشكر والملام ..

انت أم فاذكرى ذلك جيدا

انت فتاة ذكية متعلمة حساسة يقل بين الفتيات مثلك فى هذه الصفات ، فلاتنسى عزتك التى تليق بك ولاتنزلى قدرك منزلا لا ترضاه لقدرها كل فتاة ، واسالى نفسك مرة أخرى : هل وصلت امراة الى العاقبة المخيفة ــ الى المرض والهوان ــ من غير هذه البداية ؟ وهل وصلت امراة الى تلك العاقبة وهى تظن أنها واصلة اليها أو أنها قريبة منها ؟ كلا ! ... كلهن يا صديقتى يحسبن ان النهاية بعيدة وأن الاحتراس كاف للأمان الدائم والنجاة من عاقبة غيرهن . والعاقبة واحدة على كل حال !

ولست أنت لسوء حظك كأولئك النساء اللوائى تحوطهن حمايات كثيرة وقرابات مشتبكة تستر العيوب وتضلل الشبهات

فأنت فى حياة التجرد والانفراد عرضة لكل شىء وفريسة رخيصة لكل واش اثيم ، وكم جنى عليك حرمانك من انس القرابة الشفيقة وحنان الام الرءوم ومعيشة الزوجية الهانئة ، فخسرت السعادة وافسد عليك اليأس عاطفة الرحمة والاخلاص

ولكن هل من الضرورى لك أن تجنى أنت أيضا على نفسك بيديك فتسلبيها حتى سلوة الالم الشريف واباء الحرمان العفيف ؟ وهل يبقى حرمان فوق حرمان المرأة التى لا تعرف السعادة ولا تعرف الالم الذى تحترمه هى ويحترمه الناس ؟

أنا لا أيأس على الرغم من كل شيء ..... بى من عطف عليك وعلم بحقيقة نفسك الضعيفة الطيبة و « ظروفك » السيئة مايمنعنى أن أنظر اليك نظرة قاسية

وماتمنيت ولاأتمنى شيئا كماأتمنى أن أراك بعين الاعجاب والفخر والمحبة . ولكنى أقول لك وأنا آسف : أن فقدك لم يكن هينا على فى وقت من الاوقات كما هو هين على الآن . فاذا كتبت اليك هذه الكلمة فانما هى كلمة صديق يريح ضميره وواجب أخير لابد من أدائه ، واذا أبيت الا أن تفهمى لها معنى من معانى الانانية فافهمى اذن انها كلمة انسان يذكر برهة من حياته ويود ان يحتفظ بهذه الذكرى نظيفة شريفة الى آخر أيام الحياة

والوداع ، والسلام

الرقابة

لماذا كتب ذلك الخطاب ؟

انه لم يستوضح نفسه سببا لكتابة ذلك الخطاب وهو يفكر فى كتابته ، ولا استوضحها السبب وهو يكتبه ويسلمه الى الرسول الذى تعود أن يسفر بينهما بالرسائل . ولكنه جلس بعد كتابته يسأل ويعجب : اى خاطر ذلك الخاطر الذى ورد على باله وهو يحسب أنه واصل الى نتيجة ترضيه من كتابة هذه المواعظ ؟ أيظن أن خطابا كهذا قد يثوب بها الى الوفاء والاخلاص ان كانت تخون وتخدع ؟ أيزعم ولو على سبيل الوهم البعيد أنها تتعظ وتندم لانها تقرأ كلاما كهذا الكلام وتروىء النظر فى مصير كذلك المصير ؟

آخر مايطمع فيه العاقل ان يظفر بهذه النتيجة من امرأة يميل بها الهوى ويوسوس لها شيطان الخداع ! فكيف بصاحبتنا التى يعرفها حق عرفانها ويعرف ان الكلام لا يستحق عندها الهزء والتحدى بمزية أفضل من مزية الوعظ والتذكير ... انها تريد أن تثور وتجمح ، ولاشىء أقمن بأشباع شهوة الثورة والجماح من مخاطبة الانسان بكلام يصدر عن العقل ويلبس ثوب النصيحة والهداية ! وان الرجل من رجال الدين ليستحق عندها كل اكبار وتبجيل لأنه يخالف فى حياته الخاصة مايعظ به الناس فى حياته العامة ، وقد خاضا فى حديث بعض «الائمة

النساك » مرة فقال لها : لست على يقين أن مولانا هذا يحب السماء والآخرة . ولكنى على يقين من حبه الأرض والدنيا . . . ألا تعلمين ذلك ؟ . . قالت أعلم كل العلم . بل أعلم أنه يحب فلانة وفلانة وفلانة . . . غلطان أنت يا صديقى ان حسبت أنك تغض من « مولانا » بما اتهمته . ان خفاياه تلك لهى التى تعجبنى منه وتكبره فى نظرى وتحملنى على تقبيل يديه ، واننى ما سمعت عظاته يوما الا استعظمت منه انه قادر على مخالفتها . ثم راحت تقول مازحة ـ وكانت كلمة غلطان يا صديقى من لوازمها فى الحديث : ـ غلطان أنت يا صديقى ان حسبت أن المرأة تنقم على رجل الدين أنه يدع السماء من أجلها !

قال : وما رأيك فى الراهبة التى تترك السماء من أجل رجل؟ ألها عندك مثل هذا المكان من الاعجاب ؟

قالت : ان الراهبات لا يعظن أحدا ، واللعبة تفقد كثيرا من بهجتها بهذا الدور البسيط الذى تمثله الراهبة الغاوية : وأعنى به دور الوجه الوحيد !!



اذن ما أضيع الوعظ عند صاحبتنا التى لا تعجب من الوعاظ الا بقدرتهم على الوعظ وقدرتهم بعد ذلك على نقض المواعظ

نعم انها تتذوق الكلام وتعطيه « درجته » العادلة من التقريظ والتأثر ، ولا يبعد أن تبكى اذا كان فيـــه ما يحرك الشـــجن ويستدر الدمع ، ولكنها لن تزيد على ذلك ، ولن تخلط بين التقدير الفنى والنتائج العملية ! ولو كانت فى موضع السلطان العثمانى سليم الأول لبكت من قصيدة الشاعر الذى تشفع لديه بالشعر البليغ ليعفو عنه ، ثم أمرت كما أمر بسوقه الى

ساحة الموت عقيب انشاده القصيدة : لأن الفن شيء والسياسة شيء آخر ! !

أم ان صاحبنا ـ وليكن اسمه هماما وليكن اسمها منذ الآن « سارة » لتيسير الكلام عنهما . . .

أم أن صاحبنا هماما قد شاقته الفتاة بعد الفراق القصير ولم يشأ أن يعترف بشوقه ولا أن يستدعيها اليه صراحة فعمد الى كتابة الخطاب ليفتح باب الحديث فاللقاء . . . ؟ !

لا . ولا كل هذا

ان هماما لم يكن من دأبه أن يقصر فى مراجعة نياته ودسائس طبعه ، ولقد يغلو فى ذلك حتى يعزو الى نفسه من المقاصد ما ليس فى حسبانه ، ولكنه ـ غلا أو لم يغل ـ ما كان فى وسعه أن يزعم انه بحاجة الى تلك الحيلة لتدبير اللقاء دون استدعاء . فاللقاء لم يكن بالشيء العسير ، ولم يكن بينهما بعد من القطيعة ما يلجىء الى الحيلة والمناورة ، ولعل انتظاره الهداية من توجيه ذلك الخطاب أقرب الى التصديق من التذرع به الى تدبير لقاء .

السبب فى الحقيقة انه لا سبب هناك

السبب هو الحيرة الملحاح التى تستحثنا الى كل عمل مستطاع دون أن نستوضح أنفسنا عن علة معقولة أو نتيجة مأمولة . وكل من حار هذه الحيرة يوما يذكر انه فعل شيئا لا علة له ، ولا هو يقبل التعليل :

كذلك يفعل الاب الذى يرى بين يديه ولدا مريضا ميئوسا

من شفائه وهو لايستقر الى التسليم ، وكذلك يفعل المحرج الذى يرى أن العمل واجب لأنه خير من سكون لا صبر له عليه ، وكذلك يفعل الذى لابد أن يفعل ، لأنه بالفعل يستريح . أما بالسكون فلا راحة ولا أمل فى الراحة

واتبع وصول الخطاب حديث بالتليفون

لم يكن هذا الحديث بالمقصود ، ولكنه لم يكن كذلك بالمكروه ولا بالمرفوض

واتبع الحديث موعد وزيارة

وجاءت فى الموعد وهى تبدو بتلك الطلعة التى يعهدها منها بعد كل مغاضبة وقبل كل مصالحة : طلعة السفير الذى يدخل المملكة الغريبة ولا يدرى أحرب أم سلام ، فهو لا يبرز القوة ولكنه يتقى أن يبرز الضعف ، ولا يحمل غصن الزيتون ولكنه مستعد به فى الحقيبة المغلقة ، ولا يتجهم ، ولكنه لا يتطلق ويتبسط فلم تتهيأ للموعد بزينتها التى تعلم أنها تروقه وتستجلب هواه ، ولكنها لم تهمل زينتها اهمال المعرض قليل الاكتراث ، فهى زينة صالحة مع قليل من الاعتذار ، واذا وصل الأمر الى هذا فأى اعتذار لا يغنى غناه ولو جاء عفو الساعة ؟ !

وكان من دأبها أن تختلس رضاه وتحطم الحواجز بينها وبينه بسلاح من سلاحين : بالدعابة والتهكم ، أو بالاسى والتضعضع . فأما فى هذه المرة فسلاح الأسى والتماس الشفقة لن يلائم مظهر السفارة التى تتردد بين الحرب والسلام . فدخلت من الباب وهى تشهر سلاح التهكم والمناوشة ، والتفتت وهى داخلة

كمن ضل الطريق وأفضى به السير الى غير المكان المتوقع ، فقالت وهى تلقى بقبعتها :

من اكبر العجب أننى وصلت الى هنا ولم أصل الى المعبد !

قال همام فى سره : ويحك ! هذه تحية وعظك ! ثم اجابها من نمط تحيتها قائلا :

معبد ؟ استغفرى الله يا أمة الله !! وهل تستطيع قدماك أن تحملاكِ الى المعبد ولو قادك اليه ألف دليل ؟

قالت ولم تتريث : انه لتقريظ حسن لبيتك أن يكون هو المكان الوحيد الذى تحملنى اليه قدماى ! !

قال : وهل تحسبيننى أغتبط بهذا التقريظ ؟

قالت : معاذ الله ، ولاسيما وأنت بخطابك صاحب دعوى فى الهداية والارشاد لا تقل عن دعوى أهل الصـــناعة .... ومع ذلك لا أظنك آسفا لهذه الغلطة

وبدأت فى نغمة الدلال بعد ما أنست من لهجـــة الحوار أن الساعة ساعة غصن الزيتون لا ساعة السيف . ثم دنت منه تقبله فقبلها وضمها واجلسها وجلس الى جانبها وهو يغمغم متخاذلا : لو أنها غلطة قدمين يا سارة ؟ !

قالت : غلطة قدمين أو غلطة يدين ، ألا تستطيع أن تتعلم « الربوبية » ساعة وتغفر الزلات ؟

وضحكت ضحكة حلوة خبيثة مسترسلة ليس لها معنى الا انها تقول فيها : أنا أعرف كيف ارضيك ؟ اليس كذلك ؟

فجاراها فى الضحك وقال لها بلهجة المستظرف والعاشق

معا : وهل أحرص عليك يا ملعونة الا لهذه الحذلقة ؟ متى علمت أن ربا من أرباب الاساطير غفر الزلات لشريكة قلبه !انما يغفرون للمخلوقات التي تخون المخلوقات من أمثالها ، أما « الخيانة العظمى » فأين هم الارباب الذين يغفرونها ؟

واطمأنت الى مكانها ، وشعرت انها فى بيتها .. نعم فى بيتها لا فى « سفارة » تقبل عليها غريبة وتخرج منها مقبولة أو مريبة، فوثبت من جانبه كما يثب الطائر بلا تنبيه ولا انتباه . الى أين ؟ الى « الرشاش » كعادتها فى كل زيارة بلا اختلاف بين صبح ومساء وصيف وشتاء ، لانها لا تميز الفصول كما تقول الا بالتقويم وجريدة الازياء !

أفى هذه تريد التفريط ياهمام وهى فى قبضة يديك ؟ لا ياصاح ! لست معك فى هذا ... انما التفريط فيما يعوض ويستبدل فأما الذى لا عوض عنه ولا بديل له فان احتمال الأذى فيه لخير من احتمال ضياعه واللهفة عليه

وانه لفى هذه المناجاة اذا هى تتهادى وتنفض شعرها كما تنفض الفرس الكريمة عرفها ، واذا هى أمام المرآة مصقولة ندية كالثمرة الناضجة فى شعاع الفجر البليل ... وكالشيطان !

منذ الازل وقفت هذه الفتنة الى جانب ووقف الى الجانب المقابل لها حكماء الارض وهداتها ومشترعوها وأصحاب النظم والدساتير فيها ، وقالت هذه الفتنة كلمتها وقال الحكماء والهداة كلمتهم ، ونظرت ونظروا ، ووعدت وأوعدت ووعدوا وأوعدوا . وأمامك الناس جميعا فاسألهم واحدا واحدا : كم مرة سمعتم

هذه وكم مرة سمعتم هؤلاء ، وأنا الضمين لك ان فى تاريخ كل انسان مرة واحدة على الاقل سمع فيها لهذه الفتنة ولم يسمع معها لحكمة الحكماء ولا لشىء من الاشياء

ليست هى المرأة المسموعة هنا ولكنها هى الطبيعة .

والمرأة والرجل والحكماء والحـــكمة العوبة الطبيعة التى لا تسام اللعب ولا تعرف الجد لأنها لا تعرف التعب . وربما كانت المرأة أضعف هذه الألاعيب كما يكون الطعم أضعف من السمكة التى تأكله ، وان كان الطعم ليقودن السمكة الى الهلاك

ومن القاضى الفاصل بين الطبيعة والحكمة ؟ انما القضاء لمن ينتظر منهما الحجة الاخيرة والنتيجة الخاتمة .

ولكن ليس للطبيعة انتهاء

فهى فى جميع الازمان صاحبة القول الاخير

فى ملحمة الصراع بين الفتنة والحجى ينسى الانسان ما لا ينسى ، ويخطر له الاغضاء عما يشهده بعينيه ويثبته ببرهانه، ولقد خطر هذا لهمام فى تلك اللحظة ووسوس له الهوى ان ينزل بتلك المرأة الماثلة أمامه الى حيث ينسى خيانتها ولا يذكر الا متعتها . فتمنى فى تلك اللحظة أمنية غريبة : تمنى لو كان حبه لها أقل ، وماضيه معها أقصر ، وشرطه عليها أقرب وأيسر . اذن لاكتفى منها بما تعطيه ، واستبقاها على شرطها ومرامها لا على شرطه ومرامه .

ان الرجل الذى يهب للمرأة ساعة من يومه يكتفى منها بساعة من يومها ، ولكن هل يكتفى منها بتلك الساعة وهو يهب

لهاساعاتهوأيامه وينسج حولها ماضيه وحاضره، ويحجببيديه ضياء المستقبل الذى يطلع عليهما مفترقين كأنه يطمعمنالدنيا فى غرام بغير فراق ؟

ان الابن لن يكون ابنا أو نصف ابن . وان التحفة النفيسة لن تكون صحيحة أو نصف زائفة ، فهى اما صنعة الفنان المنسوبة اليه والفترة المردودة اليها أو هى ليست بصنعته على الاطلاق

فلا تقريب ولا توسط فى هذه الامور

وهذه المرأة ، بل هذا العالم الحاشد منالنساء لأن كللحظة من لحظاته معها تمده بنسخة منها قلما تختلط بأخواتها ، هذه المرأة التى لامرأة غيرها كيف يرضاها ولديها رجل غيره فى ابان هواها ؟

ليست الحكمة هى التى تتكلم هنا ولكنها هى الطبيعة ، ومن ذا يقاوم الطبيعة فى غوايتها غير الطبيعة فى ثورتها ؟ ان الصراع هنا لبين ندين متكافئين ، والويل للفريسة المطرودة بين الندين

لا ! سأحتفظ بهذه التحفة وأصونها جهد ما فى وسعى من احتفاظ وصيانة ، ولكننى لن احتفظ بها الا تحفة نفيسة .. فاذا بعتها فلن أبيعها الا وقد أيقنت أننى غير مغبون فيها ولا نادم عليها

تحفة بين يدى لا شك فيها

أقول حينا أنها تحفة نفيسة فليس فىكنوز الارضمايعدلها ويقوم بثمنها

وأقول حينا أنها تحفة زائفة فلو بعتها بدرهم لما كنت بخاسر

وهذه هي الحيرة • فقولى يا حكمة الحكماء ويا هداية الهداة، وقولوا لى يا صيارفة هذه الجواهر ويا دهاقين هذه المعادن ، ويامن يستطيعون ان يضعوا المنظار لحظة واحدة وراء هذه العين اللامعة فيلمحوا هنالك الفارق الهائل بين مايباع بدرهم وما ليس يباع بكنوز الارض وذخائر البحار

لا ! لن أبيعها الا بدرهم • فان كانت الاخرى فلا بيع ولا شراء :

« لما غلا ثمنى عدمت المشترى »

نعم وعدمت البائع ايضا ...

هذه هى الحيرة فكيف الخروج منها ؟ لا حاجة الى أكثر من نظرة واحدة لتسويم هذه الجوهرة • فمن ذاك الذى تتاح له تلك النظرة ؟

كان همام فى تلك الأيام يقرا رواية « سيدة الاكاذيب » للكاتب الفرنسى الكبير بول بورجيه ، ولعله قرأها لعنوانها وما يرجو أن يطلع عليه من أكاذيب سيدتها ••• وفى الرواية امرأة لعوب من نساء الأسر المترفات ، وزوج متغافل وعاشق كهل يبذل المال والحلى والهدايا ، وعاشق ناشىء يبذل شبابه وجماله وطرافة هواه ، وكل من هؤلاء راض بنصيبه الا العاشق الفتى الذى يتنطس ويتوجس ويلح فى كشف الاسرار فيعمد الى الرقابة ولا يلبث ان يخلص الى الحقيقة

فما الرأى اذن فى الرقابة ؟

ان نظرة من رقيب أمين لتغنى عن كل صيارفة الجواهر الذين يسومون معادن الوفاء وليس لهم معيار واحد يبطل فيه الخلاف ... فان لم يكن من الرقابة بد فلتكن الرقابة ، ولكل شىء من جنسه آفة !

وأثلجت تلك الخاطرة صدر همام وان كانت قد غضت من سروره باللحظة التي هو فيها ، ومن أين يخلص السرور وبينك وبينه رقيب ؟

تتابعت الخواطر عدوا دراكا فى رأس همام وهو يتأمل الفتنة الماثلة أمام المرآة ويتنامى شغفه بها كلما تمادى فى تفتيشها واستقصائها ، ولم تستغرق كل هاتيك الخواطر منه الا ريثما فرغت « سارة » من تسريح شعرها وتجفيف أهابها ، لأنه كان يستعرض هاتيك الخواطر كما يستعرض صفحة مفتوحة بين يديه يحيط بها فى نظرة واحدة ، ولم تكن خواطره لتشغله عن كلمة من هنا وتعليق من هناك جوابا لما كانت تعابثه به من الملاحظات والمناوشات . غير أنها فطنت لما يجول فى خلده وأدركت أنه ليس معها بجميع قلبه ولسانه، وأشفقت أن يستطرد ويستطرد فتتسع المسافة بينهما . فاستدارت اليه من المرآة متفترة متكسرة ، ومدت جيدها وثنت أعطافها وقالت : أراني متعبة . أريد أن أذهب ... أو أريد أن أنام



وانقضى اليوم بسلام ، ونسيا أو تناسيا خطاب « الوعظ »

بعد ما كان من عبث التحية الاولى، ونزلت سارة وهي مستريحة مستبشرة خفيفة القلب والطوية لا يبدو عليها أثر من التكلف والرياء ، ومن دأب المرأة اذا انتعشت حواسها أن تخف وتنشط ولا يثقل على ضميرها عبء من الاعباء ، وهذا الذى يلوح للرجل فى صورة البراءة فينخدع ، أو هذا الذى يسمونه أحيانا بعمق المرأة وقدرتها على اجادة الرياء واخفاء ما فى الطوية ، وانما هى فى خفتها كالطفل الذى تأخذه حماسة اللعب فلا تحضره الشواغل ولاتثقله الدخائل ، وقد ود «همام» لو يستطيع أن يخلط بين هذه الخفة وخفة البراءة ، وما هو بمستطيع . فليرجع الى الرقابة فهى مرجع الانصاف ومقطع الخلاف ، وفيها وحدها تسويم لتلك المتعة بكنوز الارض وذخائر البحار ، أو بدرهم لا يندم عليه ملقيه فى التراب



وكيف الرقابة ؟

صحت النية على الرقابة فلا مناص منها

وبقي أمر الرقيب والعثور عليه

فمن يكون هذا الرقيب ؟

لم يشرع همام فى بحث هذه المسألة حتى وضح له أنهـا مشكلة كثيرة الشعاب

فخطر له فى بداية الامر أن يستعين برجل يؤدى هـذه المهمة وينقده على ذلك أجرا يرضيه

ثم قلب الامر على وجوهه فرأى أن هـذا الرجل المستأجر يحتاج الى رقيب عليه لضمان اخلاصـه وجده وحسن التبصر فى عمله . فاذا ترك بغير رقيب فأغلب الظن أنه يأتى فى آخر كل نهار ومعه كشف طويل عريض بأجورالسيارات والجلوس على القهوات ورشـوة الخدم والبوابين ، ولا فائدة من جميـع ذلك غير التضليل والمراوغة والتشـويق لاسـتطالة الرقابة واغتنام الاجور

ثم تنقضى الايام وهو لم يعرف شـيئا ولا أعان على معرفة شيء

وهبه عرف بعض الحقيقة-أو عرف الحقيقة كلهـا فهذا أخطر وأخسر . . . لأنه يستغل معرفته كلما احتاج الى المال لابتزاز الاتاوات والانذار بكشف الاسرار ، فيوما يهدد السيدة ويوما

يهدد السيد ويوما يقارب الاقرباء والأولياء ويلوح لهم بما وراء الغطاء • ولعله يختصر الطريق من أوله فيطلع السيدة على مهمته ويفسد الامر فسادا لاصلاح بعده

رقيب أجير لا ينفع فى هذه المواقف

ولن ينفع فيها الا الصديق الصدوق

نعم لا ينفع فيها الا رجل يعنيه أن يعرف الحقيقة ويؤمن قبل ذلك بأنها حقيقة تستحق عناءها ! فكم عندك يا همام من أمثال هذا الصديق ؟ مئات ؟ عشرات ؟ آحاد ؟

ان الناس يحسبون «الضيق» محك الصداقة الذى لا يكذب ولا يخيب

والناس فى ذلك مخطئون

لأن الصديق الذى ينجد صديقه فى الضيق قد يتخلى عنه وينقلب عليه فى أعماق السريرة

وليست المعونة الصادقة هى المعونة التى تدخل فى رقابة العرف أو فى رقابتك أنت بينك وبين صديقك ، ولكنها المعونة التى لا حسيب عليها غير الضمير ، ولا باعث لها غير اتفاق الهوى وامتزاج الشعور

كثير من الاصدقاء يعينون أصدقاءهم فى الضيق لأن العرف يحمد لهم هذه المعونة ويتخذهم مثالا للامانة والوفاء وجميل الفداء

وكثير من الاصدقاء يعينون المرء على الشئون التى يشعر هو بمعونتهم أو بتقصيرهم فيها ، لأنه يحمد لهم ما صنعوا

ويجزيهم بما أسلفوا ويرد لهم ما أقرضوا

أما الشئون التى لا رقابة عليها للمرء ولا للعرف فالمعينون عليها اقل من القليل ، وهمام ـ أو غير همام ـ سعداء ان ظفروا من كل ألف صاحب بواحد فذ من هؤلاء الاعوان

فى هذه الشئون يستطيع الصديق أن يقصر وأنت لاتشعر بتقصيره ، وربما قصر ولم يؤمن هو بأنه مقصر ملوم ، لأنه لا يؤمن بجنون العاطفة ونزوات الهوى .. فكيف يتقى مغبة التقصير ويصبر فى سبيل ذلك على الجهد العسير او اليسير ؟

واذا انكشف تقصيره فمن ذا الذى يلومه ؟ لعله يلقى يومئذ من المعذرة والثناء أضعاف ما يخشاه من العذل والمذمة

ذلك كله على أهون الفروض

أما أصعب الفروض فهو أن تنقلب الرقابة الى مطاردة والمطاردة الى اقتناص .. وليس أصعب الفروض دائما بأبعدها وأندرها فى الوقوع !

حيرة جديدة « نجا » اليها همام من الحيرة الاولى .. والحيرة الاولى باقية كما كانت فى موضعها القديم

وان هماما ليضرب اخماسه لأسداسه ويبرح فى ضربه وايجاعه اذا بالقدر يحل له المشكلة العصية أسهل حل مستطاع، واذا بالسماء تنفتح على حين غرة ويهبط منها الرقيب المنشود !

ـ ماذا جاء بك يا أمين ؟

ـ جاءت بى أجازة أيام

ـ ويحك ! أنت طول عمرك تفصل من أعمالك بغير داع .

أفما كان فى وسعك هذه النوبة أن تنفصل فصلا نهائيا يا لئيم !

قال أمين وقد فوجىء : لماذآ هذا الاستعجال على الفصل ؟ ما الخبر ؟

قال همام : الخبر أنك لازم لنا مدة طويلة ٠٠ أطول من أيام ٠٠٠ ولعلها أطول من أسابيع

وسردله المسألة بأقصى مارآه صالحا من التفصيل والاسهاب، فلم يكذبه حدسه ، وأسرع أمين بالاجابة والموافقة ، وأوشك أن يسرع بالشكر والتهلل كأنه كان يتمنى ما اقترح عليه ، ووعد أن يأتي بقصارى جهده في هذه الايام القليلة ولا حاجة الى الفصل المألوف!

لم يكن همام قد نسى أمينا فى مشكلة الرقابة ، وليس أمين بالصديق الذى ينسى فى مشكلة من قبيلها ، لأنه يؤمن بالواجبات الشعرية أشد من ايمانه بجميع الواجبات الانسانية وهو ذو أريحية ومروءة وصدق لسان وصراحة شيمة، ويحسب أن خيانة الصديق فى العشق لا تقل عن الخيانة فى أقدس الحرمات ، وبينه وبين المطاردة والاقتناص هذا الخلق المستقيم الجميل وشىء آخر غير مستقيم ولا جميل ! وهو أسنان عوجاء مثرمة ووجه كثير التجاعيد والغضون ٠٠ فالى أن يمسخ طبعه وتنصلح أسنانه ووجهه هو ولا ريب وفاق الشرائط من وجوه كثيرة ، وأحق من الصحب قاطبة بالتذكر والاعتماد

الا أن هماما تخطاه بادىء الامر لسببين : أحدهما أن أمينا

كان يومئذ يعمل بقرية بينها وبين القاهرة مسيرة ساعات على جميع وسائل المواصلات : على القدم وعلى المطية وعلى السفينة وعلى القطار أو السيارة

وثانيهما ــ وأخطرهما ــ سهوات الذكاء التى اشتهر بهـــا أمين ويالها من سهوات ! فهى كعيب ذلك الزنجى الذى يكذب فى السنة أكذوبة واحدة ··· وفى هــذه الاكذوبة الواحــدة قاصمة الظهور

فيجوز أن يكون اخلاصــه هو كل المطلوب فى هذه المواقف، ويجوز أيضا أن يكون هو كل المحذور ، وهمام وحظه ونصيبه بين الجوازين ! واليك المثال :

كان السيد أمين فى احــدى أجازاته القصــيرة ينزل بمنزل همام ، ودق التليفون عصــارى يوم فى مســألة عاجلة فخف همام الى الخارج وأوصى أمينا أن ينتظره ريثما يعود بعد نصف ساعة ، وأن يستقبل ضيوفا قادمين فى هذه الآونة ويعتــذر اليهم بعذر همام المفــاجىء ، ويبغلهم أنه سيرجع بعد هنيهة ليقضى معهم الاصيل حسب الموعد · وقد عاد همام بعد نصف الساعة المقدور فلا أمينا ولا ضيوفا وجـــد فى المنزل ! وكل ما وجده بطاقات الضيوف فى عقب الباب عليها كلمات موجزة تشف عن الاسف والاستغراب

ولبث همام يقدر فى ذهنه ماتوهمه الضيوف من أســباب مغيبه المعتمد ولا مراء . فانه لا يخرج فى هذه الساعة ، وليس للضيوف الا أن يعتقــدوا كل الاعتقــاد أنه رآغ عن الموعد أو

أخفى نفسه وتركهم يرجعون على أعقابهم مسافة ليست بالهينة ولا بالقصيرة

وبينا همام يستغرب خروج أمين ولا يدرى ماذا أخرجه خاصة فى هذا اليوم الذى سئل فيه الانتظار ـ أقبل السيد أمين يحمل فى يديه قازوزتين وقليلا من الفاكهة والحلوى وهو راض عن نفسه رضا الرجل الضليع بمهام الامور

قال أمين وهو يخفى اعتزازه واغتباطه بحسن تدبيره وعرفانه بالواجبات التى ينساها الغافلون :

انك ياصاح قد نسيت أن الثلاجة خالية وأن الضيوف قادمون ، وقد ذهبت احضر لهم بعض الشىء فعسى أن يستطيبوه !

فضحك همام غيظا وعجبا من اهتداء صديقه الى العمل الوحيد الذى لاينبغى أن يعمل واعتقاده مع ذلك أنه هو الواجب الذى ينبغى دون سواه . وربت على كتف الصديق قائلا : أحسنت أحسنت يامولانا ، وما عليك الآن الا أن تعدو بالقازوزة والفاكهة فى أثر الضيوف فلا شك أنهم منتظروها فى الطريق ! وأراه البطاقات وما هو مكتوب عليها فما زاد على أن فغر فاه ونطق بحكمته المأثورة كلما أدرك خطأه : « مدهش ! حضروا وعادوا ؟ ليس لهم حق ! . . . ما كان يصح أن ينتظروا ؟ »

نعم كان يصح أن ينتظروا . أما هو فلا يصح أن ينتظرهم فى البيت .

وكان أمين وبعض صحابه يجلسون الى منتدى على مقربة

من مكتب « جماعة المواساة » وكلهم من شراة نصيبها المكثرين ، فارتفعت الجلبة والصياح من جانب المكتب ونهض أمين يستطلع الخبر ، وعاد بعد دقائق فجلس وعلى سيماه قلة الاكتراث وهو يقول : انما هى النمر الأربع الكبيرة !

فانفجر الصحاب ضاحكين وأطالوا فى الضحك ، وأمين لايدرى مم يضحكون . حتى سأله أحدهم : أو اطلعت على النمر ؟

فأخذ يفطن لسهوته البارعة . وحاول أن يصلحها كعادته فقال : أو كنتم تريدون الوقوف عليها ؟

فزادوا ضحكا وركبوه بالعبث من جميع نواحيه ، وجعل هذا يقول له : « لا . معاذ الله . وهل يليق أن نربح الا الجنيه والجنيهين ؟ » وذاك يجذبه من كسائه ويصيح به : « يمينا لو ربحنا النمرة الكبيرة لنقذفن بها فى التراب . وهل ثمانيةعشر ألف جنيه مما يساوى عناء السؤال ؟ » ... وذلك يناديه : اقعد ياشيخ أقعد . لا كانت النمرة الكبيرة ولا كان من يسأل عنها . انما القناعة كنز لا يفنى وانما المعول على الدراهم والملاليم ! » ... وآخر يصطنع الجد ويقول وصاحبنا يتوقع منه الانصاف : « لا . لا يا اخوان . أنا أعرف ما ينتظر أمين ... انه ينتظر كشف الخسائر والغرامات ! »

فلم يجد الرجل مخلصا من هذه الحملة المتداركة الا أن يلوذ هربا بمكتب المواساة ويرجع اليهم بأرقام النمر الكبيرة ويقتحم فى سبيل ذلك زحام المزدحمين الذين تلاحقوا من كل صوب فى

تلك اللحظة ، وتكوفوا حتى اغلقوا مسالك المكتب ... وعناء على كل حال أخف من عناء

وأفلح الرجل ، ووصل الى الكشف ، وكتب الارقام الاربعة

ورجع بها ليقرأها على أولئك المشاغبين الذين لايرحمون ، ولم يبق الا شيء يسير جدا هو الذى فاته أن يحسب حسابه ، وهو قراءة الارقام

فان الارقام الملعونة تآمــرت عليه مع المتـآمرين وأبت أن تنقرىء لامن اليمين ولا من الشــمال ولا من الاعلى ولا من الاسفل ... وراح المسكين يجاهد ويعالج وراحت هى تأبى وتصر على الاباء ... ويحمر وجهه ولا فائدة ! ويحملق ولا فائدة ! ويحاول أن يفسر عجزه ولا فائدة ! حتى رحمه أحــد الصحب فانتزع منه الورقة فاذا هى تذكرة ترام ، واذا بالأرقام مكتوبة على صفحة التذكرة التى تمتلىء بالكتابة ، ومن ورائها صفحة أخرى يوشك أن تكون فارغة لم يلتفت اليها أمين لانها ــ لامر ما لايعلمه هو ولا يعلمه أحــد ــ غير جديرة بالالتفات !

لقد كانت الحملة الاولى رحمة سماوية بالقياس الى الحملة الاخيرة : فأينما تحول ببصره فثمة لسان بارز أو تحية ساخرة أو تبويخة حاضرة ، وهو صامت يغوص فى أعماق القريحة عن المعاذير والمسوغات ولا تطمئن عزيمته الماضــية الى التسليم والاعتراف

ومن عادته اذا اعتذر أن يجيء بطرفة اطرف من الاضحوكة الاصيلة التى أثارت الضحك والمشاغبة ، وعرف أصحابه ذلك

منه فطفقوا يحرضونه على الكلام كلما بدرت منه تحفة من تحفه المأثورات ، وبالغوا فى الالحاح يومئذ لينظروا بماذا يتجلى عليه السهو المبارك بعد تلك السهوات الالمعيات ، فلم يخلف ظنونهم آخر الامر فتكلم ، وكان ما قال بيت القصيد وآية الآيات فى ذلك اليوم الخصيب

انقلب من الدفاع الى الهجوم وقال لهم مستجمعا سكينته واعتداده : تترقبون ألوف الجنيهات ! تريدون أن تكسبوا . . ! وهل أنتم وجه مكسب ؟ الله لايكسبكم !! اننى تعمدت ان لا أجيئكم بالارقام ، واكتفيت بما أذكر من أرقام الاستاذ همام وأرقامى ولم أحفل بما عدا ذلك ! وهل كنتم من البلاهة والغفلة بحيث تحسبون أننى أراجع لكم أرقامكم ومكاسبكم لاكسب منكم هذا الهراء الذى لاتفلحون فى غيره !

ويلاحظ أنه لم يختلق هذه المعذرة الا بعد ماحصل الصحاب على الكشف وراجعوا الارقام ويئسوا جميعا من الارباح ، ولم يختلقها قبل ذلك مخافة أن يكذبه الواقع عند مراجعة الكشف فيسقط فى يديه

الا أنهم لم يتركوه ينعم بأكذوبته المهلهلة التى ساقه اليها الحرج والنكاية والمزاح وراحوا يقولون له بعد ما أوسعوه سخرا وأشبعوه هذرا : يامكابر ! أتذكر سبعين نمرة بين كبيرة وصغيرة قرأتها منذ أيام ولا تذكر نمرا أربعا قرأتها منذ دقائق ؟! طيب . . . هانحن أولاء معك . أعد علينا النمر الاربع ولك عن كل واحدة جنيه !

فحار وابلس ، وابتأس وعبس ، والقى يد السلم واستسلم ، وزادت تجعيدة حديثة الى جانب كل تجعيدة قديمة فى ذلك الوجه المشدوه

تلك نماذج غير منتقاة من سهوات السيد أمين حديثها وقديمها ، نضعها الى جانب اخلاصه واستقامة طبعه فنفهم المركب الذى ركبه همام من تفويض الرقابة اليه ، واصدق مايوصف به أنه كالسفينة التى لها شق متين يكافح الامواج والرياح وشق هزيل محلول الدسر والالواح ، ولا مناص من السفر عليها ولا أمان فى البقاء على الساحل

فأما الرقابة فلا حيلة غيرها

واما الرقيب فغير أمين لايوجد

وكل مايملك همام من اختيار فهو الاكثار من التوصية والالحاف فى التحذير والمعاودة بالتنبيه . وقد فعل جهده ثم أغمض عينيه ، وأوى الى السفينة وهو يترقب الغور كمايترقب ساهل النجاة

مضحكات الرقابة

ترى لو شهدنا حوادث الحياة كلها دفعة واحدة هل تصعب او تهون ؟ وهل يقع أثرها فى النفس فاجعا مرهقا أو مضحكا سخيفا مغريا بالهزء والابتسام ؟

تشغلنا الحادثة أياما وشهورا فلا نفكر الا فيها ولا نحسب أن فى الدنيا أمرا جديرا بالتفكير والاهتمام غيرها ، ولا نظن اننا نطيق العيش ونصبر على البقاء لو تحقق مانحذره منهـا ، ولا نرضى من احد أن يستخف بها ويستكثر ما نعيره اياها من الهم والقلق والاهبة ، ثم تمضى الحادثة وتتبعها العاقبة بعـد العاقبة فتصبح عندنا ـ نحن لا غيرنا ـ تسلية نرويهاونضحك منها ونتفرج بها كما نتفرج برؤية المشاهد الفنية التى تقـع لشخوص المسارح الخيالية !

ترى لو رأينا الحادثة وعاقبتها أو الحوادث وعواقبها دفعة واحدة هل تكون كلها فاجعة كما نراها فى حينها ؟ أو تـكون كلها خفيفة مسلية كما نراها بعد فواتها ؟ وهل يكون اجتماع الحوادث بمثابة الفاجعة تضيفها الى الفاجعة فلا تقوى النفس على احتمالها ؟ او تكون بمثابة الشيء يلغيه مابعده فيطفىءبردها حرها ، ويذهب قيظها بشتائها ؟

سواء كان هذا أو ذاك يخطىء من يظن أن عبرة الايام تعلمنا الاستخفاف بالحاضر كما نستخف بالماضى . فانما هى تعلمنا الاستخفاف بالماضى ولا زيادة ، ولو علمتنا أن ننظر الى حوادث

اليوم كما ننظر الى حوادث الامس لحلت نسج الحياة وفكت خيوطها ومسحت أصباغها وتركتنا أمام حياة لا لون لها ولا مادة ! كما تجتمع ألوان الصورة الزيتية مرة واحدة بدلا من أن تتفرق فى مواضعها ، فلا ملامح اذا اجتمعت ولا أشكال ولا ألوان !

ان خير ما يتاح لابناء الفناء أن يقلقوا ويضحكوا من القلق بعد فواته فيأخذوا الدنيا طبيعية فنية على هذا المنوال : طبيعية حين يعيشونها ويقلقون بشواغلها ، وفنية حين ينظرون اليها على البعد بعد ذلك كما ينظرون الى روايات الخيال

بدات الرقابة وفاقا لما كان منظورا منها بغير اختلال : أمانة بالغة وشدة لا هوادة فيها ، ثم مضحكات لا تنقطع يوما الاريثما تعود على مثال أغرب وأبعد عن الحسبان ، وهى مضحكات حين تنقضى عليها ثلاثة أو أربعة أعوام ، أما فى اوانها فأيسر ما فيها يغيظ غيظ الجنون

ومن اليوم التالى ظهرت أمانة الرقيب حرفا حرفا فى كل جليلة ودقيقة ، فطابقت رواياته كل ماكان يعلمه همام من أخبار سارة التى تحكيها له طواعية أو التى يتحرى سؤالها عنها فى ثنايا الحديث ، وما كان همام يطلع أمينا على مواعيده مع سارة ولا على الساعة ولا على الجهة التى ينويان اللقاء فيها ، فكانت مطابقة الاخبار لهذه المواعيد وما يلحق بها من الحواشى والملابسات مؤكدة لهمام ماكان يعتقده من صدق امين وصواب الاعتماد عليه

وجاء أثناء الرقابة يوم شات من أيام الزمهرير عاصف قارس مطير ، فأشفق همام أن يتصرف أمين فيستبيح لنفسه اهمال الرقابة فى ذلك اليوم ولا لوم عليه . اذ أين هى السيدة الرشيقة الانيقة التى تغادر دارها بين أوحال الارض وسيول السماء ؟

ان امينا لمعذور اذا هو استباح الاغضاء والهوادة فى مثل ذلك اليوم المكفهر العبوس ، ولكن الذى يعرف سارة لايعرف يوما هو أحق بتشديد الرقابة من ذلك اليوم ، لان هذه الاوقات هى أوقاتها المختارة للتسلل والروغان ، وفرق عشرين درجة فى ميزان الحرارة الجوية لايقابله فرق مثله فى حرارة جسمها الفتى المنيع ، لانها لم تعرف قط ماهو مدلول كلمة الزكام فى الآناف والاجسام

اشفق همام من ذاك فهبط من داره ملتفا فى دثاره ، وركب ساعة ليبلغ الى المكان الذى يتربص فيه أمين . فألفاه متربصا حيث يقيم كل يوم

لا خوف اذن من هذه الناحية

ولا غبار على نتيجة الرقابة فى اليوم كله . فقد خرجت سارة فعلا قبيل العصر وعادت الى منزلها قبيل المغرب ، ولم تذهب فيما بين ذلك الا الى منزل صديقة عزيزة لها كانت تناجيها بأشجانها وتطلعها على أسرارها ، فلم يشأ همام أن يكون مفرطا فى التوجس والافتراض . ولم يلاحظ الا ان الخروج فى اليوم المطير لزيارة صديقة أمر غريب مريب ، واكتفى بتفسير هذه الغرابة بأنها واحدة من غرابات «سارة»

وبدواتها التى لاتتقيد بالعرف والاصطلاح .. ولو اتيح له ان يعلم يومئذ ــ كما علم بعد شهور ــ أن الصديقة العزيزة لم تكن اذ ذاك فى المنزل ولا فى القاهرة لما كبح ظنونه عن الافراط فى التوجس والافتراض

وأخلص أمين لطبعه كما أخلص لصديقه . فلم ينس حق السهوات عليه وبالغ فى أفانينها ومعجزاتها بمقدار ماكان يبالغ فى اجتنابها والاحتراس منها

وكان الرسم المتفق عليه بين همام وأمين أن يقص أمين كل مايراه ويسمعه منذ خروج سارة من منزلها الى عودتها كائنا ماكان شأنه من التفاهة وقلة الدلالة فى نظره . فلا يسقط شيئا ولا يستهين بشىء وان هان ، وضرب همام مثلا لذلك لون الرداء وزى الملابس فهو شىء لا يختلف مدلوله فى رأى أمين ولكنه يدل على الكثير فى رأى همام ، وضرب مثلا آخر أن تركب السيدة الترام فتتخطى مقصورة السيدات الى مقصورة الرجال ، أو تتخطى هذه وتلك الى كراسى الدرجة الثانية . فلا يمكن أن يكون ذلك بغير دلالة تقترن بدلالة أخرى فتعين على جلاء الحقيقة ، وهكذا من أمثال هذه الطفائف والقرائن التى لا غنى عنها للوصول الى نتيجة من وراء الملاحقة والرقابة

ولم يكن فى سرد هذه المشاهدات صعوبة على أمين لانه كان مطبوعا على التقاط ما يبصر ويسمع ومحاكاة ما يلتفت اليه من اللهجات والحركات والاشارات . فجاء يوما بعد مراقبة

نهار كامل بحكاية ماشك همام وهو يسمع أوائلها انه لن ينتهى الى أواخرها حتى يضع يده على لباب الحقيقة ويتطرق منها الى النبأ اليقين

قال : لقد خرجت السيدة عصرا تلبس رداء عنابيا ومعها طفل صغير ، فذهبت الى بيت صعدت الى دوره الاعلى ثم نزلت ومعها سيدة تكبرها بعدة سنوات ، ومضتا الى دار من دور الصور المتحركة فى شارع عماد الدين فجلست أنتظـرها على القهوة الملحقة بالدار ، ولم يمض نصف ساعة حتى خرجت وحدها وليس معها الطفل ولا السيدة ! . .

ماشك همام حين وصل أمين الى هذه المرحلة من حـكايته أن فى الامر شيئا وانه يتعقب الاثر الصحيح الى النتيجـــة الصحيحة

نعم ان أمينا أخطأ اذ لم يدخل معها الى قاعـة الصـــور المتحركة ولكن خروجها بعد ذلك قد أصلح ذلك الخطأ وعفى عليه .. وما يراه بعد الخروج هو المهم ، وليس ما يراه فى القاعة ان رأى هناك مايستحق الالتفات .. والا فلماذا تخرج بعد نصف ساعة ؟ ولماذا تخرج وحدها ؟ وذلك الثوب العنابى أليس هو الثوب الذى تحب أن تتزين به لخلوتها وتحسبه اجمل عليها من سائر ثيابها ؟؟

فالحقيقة اذن على مدى خطوتين ، ويستر الله فلا يعثر أمين باحدى سهواته فى احدى هاتين الخطوتين . وماذا عسى أن يعثره بعد هذا المدى ؟ وكيف يعثر يا ترى ؟ ذلك بعيد ...

واغلب الظن أن الامر سينكشف وأن الغاشية ستنجلى ، وأن ليل الشكوك والهواجس المضطربة سيسفر بعد لحظة عن فجر صادق بين

ــ ثم ماذا يا أمين ؟

ثم سهوة من تلك السهوات التى تنقض فى صدمة المباغتة ، والتى لا ترد على البال ولا تقع فى الاوهام ، والتى يخيل اليك أن أميننا لم يعثر بها الا لانه تعمد ان يعثر بها واصر على تدبيرها ، لان ما صنعه هو الشىء الوحيد الذى لا ينتظر أن يكون

اعتدل أمين فى مجلسه واتكأ على عصاه ، وقال فى راحة الذى لم يضيع أقل فرصة وأقصى احتمال :

ــ ان السيدة لم تعد بعد خروجها من دار الصور المتحركة!

ــ ويحك ! والى اين ذهبت

ــ لا أدرى

ــ كيف لا تدرى ؟ ألم تتبعها ؟

ــ لا . لاننى ما شككت فى أنها خرجت لحاجة لها ثم تعود . . ولا يليق أن أتبعها

فانتفض همام وهو يغالب غيظه وسخطه وصاح به : يا أخرق ! أليس فى دار الصور مايغنى سيدة مهذبة عن الخروج الى منعطفات الطريق ؟

ففطن أمين ساعتئذ لسهوته « الجبارة » . . وأخذ فى تحمل الاعذار والمسوغات ، وهو ــ على صدقه ــ لا يتورع فى هذه

الازمات المحرجات عن أكذوبة صغيرة يتقى بها التهرئة والتسخيف اشد من اتقائه الملامة والتعنيف ، وقال : الواقع اننى صادفت والدى عابرا فحيانى وجلس معى وخشيت ان أنا تبعت السيدة فجأة أن يستريب ويتكدر . فلبثت فى مكانى على رجاء أن تعود

ومن الجائز حقا ان تكون السيدة قد ذهبت، ولم تعد لانها واعدت صاحبتها ان تلقاها فى مكان اتفقتا عليه . ولكن الى أين ذهبت ؟ ولماذا ذهبت ؟

هنا الحيرة التى لا تدع للذهن أن يتجه خطوة الى اليمين حتى يرجع فيتجه خطوة مثلها الى الشمال . ثم يتبلد حائرا فى موقفه لا الى هنا ولا الى هناك

فى الحى الذى قصدت اليه بيوت فيها مخادع محجوزة لطلاب الغواية ، وفيه أسرتان بينهما وبين سارة ولاء وثيق ، وبعض الاطفال فى احدى الاسرتين مريض . ويجوز أن تكون سارة قد ذهبت الى مخدع من مخادع الغواية كما يجوز أنها ذهبت للسؤال عن الطفل ولم تصطحب طفلها خوفا عليه من العدوى ، وماعدا ذلك من الاحتمالات يتقابل ويتوازن بحيث لا ترجح كفة على كفة ، وان رجحت احدى الكفتين فانما ترجح بالتخمين والتقدير ، وليست الرقابة للتخمين بل لليقين القاطع المفصل الذى لا لبس فيه

ويجىء أمين فى يوم آخر بنبأ من هذه الانباء التى تدنو بهمام الى مدى خطوتين من الشاطىء ثم تقذف به فى لمحة عين كما

يقذف الموج الغريق الى مدى آباد لا تعبر ، وقد حدث نفسه بالنجـــاة

ذهبت السيدة الى دار الصور المتحركة ولقيها شاب مديد القامة ، فحمل الطفل وقبله ودخل معها الى الدار وودعها بعد الانصراف الى أن ركبت الترام الذى يصل بها الى المنزل . فتبعهــا أمين ولم يتبع الشاب الذى هو موضــع البحث والسؤال ! !

وتضاربت الظنون فى وهم همام حتى كانا بعد يومين يسيران هو وأمين فى الطريق فأوشك أمين أن يقفز من جانبه ويعدو وراء شاب مقبع (١) طويل وقد صاح فى صوت مسموع :هذا هو الشاب !

فلم يمنعه همام أن يستمر فى صياحه وعدوه الا بمشقة ، وأدرك الشاب وتبينه فمن ذا رأى أمامه ؟.. اخاها !

ولا ذنب لسهوات أمين فى هذه القصة الا فى غفلته عن متابعة الشاب وايثاره أن يتابع السيدة بعد ركوبها الترام .. كأنما المقصود أن يعرف منزلها لا أن يعرف من كان معها ، أما البقية فالذنب فيها ذنب همام لانه كتم عن صاحبه كل ما يتعلــق بسارة غير شــخصها ومسكنها . حذرا من سهواته لا حذرا من نياته



ولزمت سارة مسكنها يوما لا تريمــه الى زيارة ولا الى

(١) يلبس القبعة

مسرح ، وتلك نادرة لم تتكرر فيما عدا أيام حفلاتها وولائمها غير مرات معدودات . فليس لسارة عالم تعيش فيه غير عالم الدنيا الواسعة ، وعالم الحب والمحبين

أما عالم الضمير الذى يروده الانسان وحده ويأنس فيه الى التفرد والوحشة فذلك أبغض العوالم اليها وأثقلها وطأة عليها . لاتمكث فيه هنيهة الا باغراء كتاب ، وقلما يكون الكتاب عندها الا منفذا الى الدنيا الواسعة ، ودنيا الحب والمحبين

فسنحت لهمام خاطرة ان يجرب الرقابة داخل المنزل لعل هناك احدا تحوم حوله شبهة ويصلح لاتجاه المظنة ، ولما سأل أمينا عن النور فى جناح سارة من أين كان مصدره فى ذلك اليوم علم أنه كان يصدر فيما بين الساعة السابعة والساعة الثامنة من الحجرة التى يعلم همام أنها حجرة النوم ، وهى حجرة لا تأوى اليها سارة الا لتنام ، ولم تتعود ان تستقبل زوارها ولا أن تقرأ فى غير حجرة الاستقبال ، ولم تختل تلك الوتيرة سنوات كان همام يجاورها فيها ويلم بجميع عاداتها وحركاتها فى منزلها . فلماذا تختل فى ذلك الموعد من المساء ؟ لماذا تختل القاعدة فى الموعد الذى تكون فيه على انفراد بعد نوم الطفل وانصراف الخادمة ؟

ربما كانت الرقابة داخل المنزل الزم وأجدى من الرقابة خارجه ولو يوما من الايام . وقد أدى أمين رسالته فى هذه الرقابة الجديدة وخاب كما خاب فى غيرها ، لولا أن الخيبة هنا كانت مشفوعة بخطر الضرب المبرح والفضيحة الشنيعة ، فما

سلم منه الا بأعجوبة من أعاجيب السياسة !

ذلك أنه ولج المنزل متسللا وصعد السلم متلكئا ليقـــرأ الاسماء التى على الابواب . ولمحه فتى يهبط من أعلى المنزل فظن أنه يتلصص أو يتجسس ، وليس التجسس ببدع فى ذلك الحين

فانتهره الفتى مزدريا ، وناداه متأففا : مالك تتسكع على الابواب ياهذا ؟ ماذا تريد ؟

ولم يكن أمين بالذى يتراجع اذا هوجم ، ولابالذى يلين اذا خوشن . وقد تملكه الربكة اذا خوطب فى رفق وأدب واضطر الى تدبير الجواب وتحضير المعاذير . فأما اذا قوبل بالتوقــح والاهانة فلا ربكة ولاعناء .. انما هى دقة بدقة وصيحة بصيحة ، وصفعة بصفعة ، اذا استطرد اللجاج الى هذه النهاية

فما حفل أمين بالفتى ولا زاد على أن نظــر اليه متجهمــا متجعدا وقال : امض فى سبيلك . فليس هذا من شأنك ! !

ولقد دهش الفتى والتفت اليه مذهولا وهو يتمتم : ليس من شأنى ؟ كيف ؟ اننى أسكن هنا .. ان فى المنزل آلى وحرمى! يالها من أعاجيب ! يالها من صفاقة ؟

ولكنه مع ذلك نزل . وسمعه أمين ينادى على البواب من أقصى الطريق ويقول له : أين أنت ؟ وماذا عساك أن تصنع اذا كنت تســمح لهذا الجاسوس أن يقتحم البيت ويتسمع على الابواب ؟

جاسوس ؟

لقد سلم أمين بفضل الجاسوسية والخوف من الجاسوسية، ومن ذا يضرب الجواسيس ووراءهم قوة الشرطة وقوة الدولة وكل قوة تخاف فى تلك الايام ؟

سلم أمين من الضرب وهبط السلم يتهادى غير هياب ولا وجل ! ! وألهمه الله أن يشمخ بأنفه ويزجر البواب قائلا : انتم تأكلون بغير عمل . أنتم لا تستحقون أجوركم . . لقد صفقت وناديت فما أجابنى احد . ولقد حاولت أن أراك لاسألك عن جناح خال فما اهتديت لك الى شبح ، ولو سكنت فى هـذا البيت لما أبقيت عليك !

فقبع البواب واستخذى ، ولاح له أنه غانم سالم اذا انجاب هذا الرجل السليط سواء كان جاسوسا أو باحثا عن مسكن ، وتركه ينفتل لطيته وهو يتبعه بقوله : معذرة يابك ! لا بأس يابك ! حقك علينا يابك !

وافترقا وكلاهما يحمد الله على النجاة

الا أن أمينا قضى منذ تلك الساعة على مستقبله فى الرقابة مضروبا أو غير مضروب ونأجيا أو غير ناج ! ! فما كان فى وسعه أن يتراءى وهو آمن على جلده « حول مكان الواقعة » كما يقولون فى لغة الشرطة قبل أن تنصرم ايام وايام . . . وشاءت المصادفات أن لاتكون الخسارة عظيمة . فان عناء الرقابة قد ضاع بغير جدوى ، وأن أيام الاجازة قد قاربت الانتهاء

القطيعة

حصلت القطيعة ولما تسفر الرقابة عن نتيجة

حصلت ولم يردها أحد ، ولم يغتبط بها أحد ، كأنها مخلوق قائم بمعزل عن أبويه : تريد له بنيته المستقلة ما تريد ولا يريد لنفسه أو يريد له أبواه : يمرض وينحل ويموت وهو لا يريد الموت ولا يريده له القوامون عليه . بل كأنه الجنين الذى استوفى حمله فلا بد له من الظهور ولو ماتت أمه وانفطر قلب أبيه

أولم يقل همام انه لن يفرط فى هوى سارة ولن ينفصل عنها الا وهو واثق كل الوثوق من خيانتها ، وعاجز كل العجز عن صيانتها ؟

أو لم يقل أنها حلية مونقة ان غلت سومت بكنوز الارض وذخائر البحار ، وان رخصت هانت عن السوام والصيان ؟

أولم يقل ذلك ويعتزم العزم كله ويستجمع النية كلها على أن لا فراق ولا قطيعة الا وقد عرف ما تساويه من قيمة وما تستحقه من غيرة وضنانة

بلى ! قال كل ذلك ، ونوى كل ذلك ، ولكن الحب الذى أوحى اليه كل ذلك قد فسد وانحل ومات ، ولم يبق الا أن يدفن ! وأن يحمله الى الدفن أبواه ! وهما آخر من يود له الموت ، ويخف به الى ذلك المصير

لو كانت المسألة قضية تنظر وحكما يصدر بعد نظرها لكان

عجيبا أن تثبت القطيعة قبل ثبوت الخيانة ، وأن تقع العقوبة قبل وضوح الجناية

ولكن من هو القاضى هنا ؟ ومن الجانى ؟ ومن الفريسة ! ومن صاحب الفصل وشارع القانون ؟

هنا قضية لا تلمح فيها قاضياحتى تراه جانيا وتراه فريسة وتراه مقضيا عليه ، فلا حكم ولا براهين ولا شريعة ! بل حادث من حوادث القدر ينقض كما تنقض الصاعقة أو يشتعل كما تشتعل النار

هنا عناصر طبيعية لا تسأل فيها ماذآ تنوى وماذا تريد ؟ بل تسأل فيها ماذا عملت بعد أن تعمل . كالذى يهرب من السيل ليقع فى الهاوية ، وكالذى يهرب من البركان ليقع فى اللجة الزاخرة ، وكالذى يهرب من النمر ليبتلعه التمساح ، وكالذى يهرب من الرصاص لتنوشه الرماح . كل ما أنت قادر أن تجزم به هنا أنه لن يستطيع البقاء حيث كان ..وهل يستطيع البقاء حيث صار ؟ كلا ! ولا هنالك يستطيع البقاء

فاذا سألت لماذا اعتزم همام القطيعة بعد أن كان يعتزم التربص والمطاولة ــ فليس سبيلك أن تعلم أنه آثر القطيعة وحمد مغبتها واستمرأ مذاقها ، وانما سبيلك أن تعلم أنه لا قرار له على ما كان فيه ، وانه مدفوع الى الهرب منه كما يندفع الهارب من النمر الى التمساح



فى أيام الرقابة وبعدها بأسابيع قليلة تكررت الزيارات

وتسابق همام وسارة فى الاستزادة منها وهما يتكلفان ، ولا يجهلان أنهما يتكلفان

اجل ما كانا يتمليانه من سـويعات الهـوى فى تلك الايام انما كان بالقياس الى هواهما الخصيب المطواع كالثمار المحفوظة فى العلب بالقيـاس الى الثمـار على أشـجارها بين غياضها وأنهارها

ولم يكن همام يصـور لحدسه كيف تشـعر سـارة بتلك السويعات المصطنعة . ولكنه هو كان يشعر شعورا لا يزال يعاوده ويبرز أمامه كلما جهد فى تبديله والاشاحة عنه بخياله: كان يشعر كمن يلهو ويتلاهى على مقربة من جنازة وفى جوار مقبرة ، فمن حيثما أقبل أو اعرض فهنالك ظلام الموت ،وكآبة الفناء ، وسوانح الاحزان

ومن أعجب ما كان يتمثله وهو يداعبها ويعانقها ذات يوم - سرير شيخ محتضر يتابع التدخين ولا يلقى بلفيفة الا اومأ الى من حوله فى طلب لفيفة أخرى

وما كان الشيخ يصنع ذلك قبـل ان يثقل عليـه السقام ويتدانى منه شبح الحمام • ولكنه كان يدخن مرة فدخل عليه همام عائدا ، واستبشر قائلا : بركة يا عماه ! ان الذى يتطعم الدخان يتطعم العافية ، وأراك تتقدم الى الشفاء ان شاء الله

ومن تلك الساعة لم تعد للشيخ من وسيلة يحاذر بها وهم الموت غير التدخين كلما شارف اليقين • فهو يتبع اللفيفة بأختها ليقنع نفسه بأنه يشتهيها ، وانه ما دام يشتهيها فهو على رجاء فى العافية والبقاء

لقد كان يدخن ويبالغ فى طلب التبغ خوفاً من خيال الموت لا سرورا بموالاة التدخين • وما أقرب هذه الصورة الفاجعة مما كانت فيه سارة وهمام ؟

لقد كانا يحرقان من لفائف الحب أضعاف ما أحرقا فى عنفوانه وانطلاق طوفانه • ولكنهما يفرطان فى الحب ويتكلفان الافراط لشعورهما بقنوطه لا لشعورهما برجائه ، ولاقبالهما على شتائه الاجدب لا لاقبالهما على ربيع بهجته وروائه

وكانا فى عنفوان الهوى يتشاجران ولا يباليان الشجار ، ويتغاضبان ولا يجفلان من الغضب ، ويختلفان ويلحان فى الخلاف ولا يتحرزان من الخلاف والالحاح : جسم فتى قوى فماذا تضيره هبة من عاصفة أو لفحة من هجير

فلما شاخ الحب أجفلا من الغضب والخلاف ، كما يجفل الشيخ الهرم من غضبة تنذر بالقضاء عليه • فلا هما هانئان بوئام ولا هما قادران على خصام

سرورك مشكوك فيه ، وان غاب عنه الشك فهو هزيل

وألم حق لا شك فيه ، ثم يتلو اللقاء اللقاء فيزيد هماما علامة من علامات الخيانة التى ليس بعدها من اقناع عنده غير يقين اللمس والعيان

وانهما ليدافعان الغضب والخلاف ويطاولان المغالطة والمراء اذا بالغضب يدفعهما فى شلاله بين صخوره وأوحاله فيندفعان ويندفعان كأبشع ما يكون الهياج والثوران ، وكأنما هما نادمان على ما كان من مصانعة وبهتان

كلا ! لاجدوى من المراء . لابقاء لهذه الحال . لا مناص من الفراق ان كان لا مناص منه .. ولا مناص !

كانا يتلاقيان ـ اذا لم يتلاقيا في المنزل ـ عند مفترق طريق في الضاحية ينشعب يمينا الى ناحية الصحراء ، ويسارا الى ناحية الاندية ودور الصور المتحركة ، وكانت تلمحه مقبلا فتسبقه خطوات الى حيث تواعدا من قبل : فاما في الصحراء أو في بعض الاندية يدخلانها على انفراد

وقد تواعدا ـ بعد أسبوع من تلك الغضبة الثائرة ـ على اللقاء عند ذلك المفترق من الطريق • ليعطيها أوراقها وصورها وذكرياتها ويسترد منها أوراقه وصوره وذكرياته ، ثم يفترق كل منهما في طريقه الى حيث يختفي من حياتها وتختفي من حياته .

وقبل الموعد بساعة أخذ في جمع تلك الاوراق ومراجعتها ليعلم منها ما هو مطلوب وذو بال وما هو مهمل ومطروح فيا لله كم تبلغ الورقة الخفيفة من وقر وفداحة ! وكم تختلف المعايير والاحجام في موازين الاكف والاذهان : لقد كانت الرسائل والصور والهدايا كلها لا تملأ حقيبة صغيرة تحملها اليد الواحدة ، ولكنه كان يحمل الورقة منها وكأنما يزحزح جبلا راسخا يشل السواعد والاقدام دون صخرة واحدة من صخوره .

ومشى الى الموعد مشية لا اختيار فيها ولا اكراه ! مشية الرجل الذى يسعى بقدميه الى غرفة الجراحة ليبتر عضوا من

أعضائه غير آمن أن يكون فى بتره الموت ، أو مشية الامهات اللائى كن فيما مضى يحملن فلذات أكبادهن الى مذبح الارباب ، قربانا غير رخيص ولا مزهود فيه

وسبقها الى الموعد فانتظرها دقائق معدودات لاحت له كأنها آباد ، ولكنه فى الواقع كان لا يتمنى لها الفوات

ثم أقبلت فى ثوبها العنابى وطرتها المشتهاة ! ونظرت اليه وهمت أن تنحرف الى ناحية الصحراء ... لم ؟ انهما اتفقا على اللقاء لحظة فى مفترق الطريق يأخذ منها ويعطيها ولا حاجة بهما الى مراجعة . وكانت الطريق فى تلك الساعة خالية الا من عابر بعيد او عابرة بعيدة . ففيم انحرفت الى ناحية الصحراء ولو شاءا المراجعة هنالك لما أعانهما غبش المساء؟ انه حكم العادة على ما يظهر . أما هو فكل ما ساوره فى تلك اللحظة خشية الانفراد والامن من الانظار ، وخشية ما يزجيه الموقف المنفرد من كلمة أو عبرة أو نظرة وجيعة ، وخشية الوهن والتردد والارجاء ، وخشية العودة من البداية الى التيه المفزع الذى أشرف فى تلك اللحظة على النهاية . وتلك جرعات لا يطيب للفم أن يترشف منها كل يوم

أخذ منها وأعطاها . وسلم ولم تجبه أو سلمت ولم يجبها ، أو نسيا السلام والوداع معا . لا يذكر ، وافترقا فى طريقين متدابرين

لو كان همام فى غير ذلك الموقف لتذكر وقال وتدبر : تذكر مفترق الطريق بالامس وتذكر مفترق الطريق فى هذا المساء ،

وقارن بين لقاء قلما يضن فيه بشيء ولقاء قلما يجاد فيه بسلام الوداع الاخير . ولكنه كان مغمور الفؤاد فى جو من الغم واليأس كجو الضباب الكثيف : لا تسترسل فيه العين الى مدى بعيد ولا ترى ما حولها الا فى غلاف من نسيج الاطياف، وكل ما يذكره بعد ما افترقا أن جسما غاب عن النظر ولم يشيعه وهو يغيب

وسار فى وجهة المنزل وكأنه يريد أن يبتعد منه لا أن يدنو اليه بخطاه ، وفى يده حقيبة صغيرة لا يدرى ماذا يصنع بها ، ويزعم أنه يود لو ألقاها فى عرض الصحراء لولا ما فيها من حديث يصونه عن الافشاء ... يزعم ذلك ويفهم من حيث لا يشعر أن ساطيا لو سطا على الحقيبة فى تلك اللحظة ليمزقها ويحرقها لذاده عنها كما يذود الشحيح عن بقية ما لديه من حطام

ثم دخل المنزل وتهافت على أقرب كرسى فى أقرب حجرة ، فلو شهده شاهد يجهل ما كان فيه لخاله قادما من مسيرة أيام لا مسيرة لحظات ...

وكان فى المنزل عشير قديم يعلم أين ذهب ومن أين عاد . فلما طال سكوت همام وعزوفه قال له صاحبه يمازحه ويسليه: علام أنت آسف يا صاح ؟؟ هل تركت فيها من بقية وطر تشتهيها ؟ هل عندها من متعة لم تستوف شبعك منها ؟ فما بالك تأسى وتكتئب وقد أراحك الله من رفاتها بعد أن نعمت بروحها ولبابها ؟

عزاء حسن حين تكون المرأة التى تفقدها مائدة تفرغ منها وقد أتيت على آخر لقمة فيها . أما حين تكون جزءا من الحياة لا تنفصل الا فصلت معها شطرا من لحمها ودمها وظاهرها وباطنها فذلك أضعف العزاء ، بل هو نقيض العزاء

انما يعزيك الزميل الذى تحسنه قريبا منك بشعور مثـل شعورك ، ولقد يغنيك من عزائه احساسك بقربه ساعتئذ وهو صامت واجم ، دون كلام ولا ايماء

أما الكلام الذى سمعه همام من صاحبه وهو فى جواره فقد تركه يصغى اليه وكأنه يتسمع ألفاظا مغلقة من هاتف لا يراه



من هي ؟

من هى سارة ؟

من هى الفتاة التى مشينا معها هـذا الشوط ولا نعرفها ، والتى رأينا منها خطوطا ولم نر منها صورة ، والتى قرأنا عنها كلمات كثيرة ولكنها كلمات بينها كثير من الفواصل ، وحروفا كثيرة ولكنها حروف يعوزها كثير من الاعجام (١)

هى شىء يعرف ولا يعرف ..

أتتكلم بلسان الصوفية ؟ كلا . بل بلسان العرف المقـرر والمشاهدات اليومية ، فان سارة بنت من بنـات الواقع الحى الملموس ... وبنـات الواقع هن اللواتى نعرفهن جيـدا ولا نعرفهن جيدا ، ولو كانت من بنات الخيال لما بقى منهـا شىء مجهول .

وليس بالنافع أن نصفها كماكان يراها همام فى أيام صفوه وهيامه ، أو نصفها كما كان يراها فى أيام نفوره واشمئزازه ، أو نصفها كما كان يراها وهو على القرب سائم ، أو كما كان يراها وهو على البعد مشوق ، ولكننـا قد نصفها مزيجا من جميع هؤلاء فنخلص من وصفها الى صورة تشبه «سارة» التى خلقها الله ، وتشبه سارة التى يذكرها همام بعد زوال الغاشية وانقضاء السنوات .

---

(١) اعجم الكتابة وضع نقطها وحركاتها .

هى جميلة : جميله لامراء ، ليست أجمل من رأى همام فى حياته ولا أجمل من رأى فى أيام فتنته وشغفه ، ولكنها جميلة جمالا لا يحتفظ بغيره فى ملامح النساء . فلو عمدت الى ترتيب الف امراة هى منهن لنظمتهن واحدة بعد واحـــدة فى مراتب الجمال المألوف ، ونحيت سارة عن الصف وحـدها ... وان كنت لا تنكر ـ ولا تبالى أن تنكر ـ أنها تأتى بعد مئات

لونها كلون الشهد المصفى يأخذ من محاسن الالوان البيضاء والسمراء والحمراء والصفراء فى مسحة واحدة

وعيناها نجلاوان ، وطفاوان ، تخفيان الاسرار ولا تخفيان النزغات : فيهما خطفة الصقر ودعة الحمامة

وفمها فم الطفل الرضيع لولا ثنايا تخجل العقد النضيد فى تناسق وانتظـام ، ولهـا ذقن كطرف الـكمثرى الصغيرة ، واستدارة وجه وبضاضة جسم لا تفترقان عن سمات الطفولة فى لمحة الناظر . وبين وجهها النضير وجسمها الغضير جيد كأنه الحلية الفنية سبكت لتنســجم بينهما وفاقا لتمام الحسن من كليهما . فليس هو جيدا كأى جيد . ولكنه الجيد الذى يوائم بين ذلك الوجه وذلك القوام

يتخطاها من يراها على عجل ، ثم يعود مدركا أنه قد تخطى شيئا لا يفات ، فليست من الروعة بحيث تقسرك على التحديق اليها ، وليست من سهولة المرأى بحيث ترسلك ناجيــا فى سبيلك ... قوم بين هذا وذاك ، أو طراز آخر غير هذا وذاك

لو تكفل بها مدير معهد من معاهد التجميل الحـديث لخفف

شيئا من قوامها الرداح بين الربعة والطويل ، قبل أن يبرزها في معرض الرقص والرشاقة

ولو تكفل بها قهرمان القصر عند كسرى أو عبد الحميد لما ضاره أن يزيد فيها حيث ينقص زميله الحديث ، قبل ان يزفها الى الشاهنشاه

حزمة من أعصاب تسمى امرأة

وهيهات أن تسمى شيئا غير امرأة

استغرقتها الأنوثة فليس فيها الا انوثة. ولعلها أنثى ونصف أنثى ، لانها أكثر من امرأة واحدة فى فضائل الجنس وعيوبه ، لا لأنها أضعف من امرأة واحدة

ولقد يخيل الى الانسان فى أحايين أن يتمم مخلوقا ببضعة من مخلوق ، وأن يسوى تكوينا بتكوين ، ويمزج عنصرا من الابدان بعنصر ، فامرأة يتممها رجل ، وآدمى يتممه حيوان ، وطلعة فتاة يتممها قوام فتى ، وأبوة أحرى أن تنتقل الى أمومة، وأشباه ذلك من أخيلة المزج والتركيب

أما هذه المخلوقة فلو انتقل عصب منها الى تكوين ليث غضنفر لبقى هنالك عصب أنثى بين جميع ما حوله من ألواح وأمشاج . ولو بقى ألف سنة

ولو أنها تفرقت بين أجسام شتى لكانت فيها خميرة أنوثة يوشك أن تطغى على جميع تلك الاجسام

شغلتها جواذب الجسد قبل أن تفقه معناها وتسمع باسمها ومسماها . فلما كانت بنية دارجة فى المدرسة ذهبت يوما الى

كرسى الاعتراف تستغفر الكاهن عن مخالفة وصية من الوصايا العشر التى حفظتها ، وتتوب من مقـارفة الخطيئة التى دعوها فى المدرسة « ترفا » على سبيل الكنـاية ! فذعر الكاهن ولم يصدق ما يسمع • واستعادها مرة بعد مرة وهى آخذة فى ذعر كذعر الكاهن من مس العدوى ورهبة الصوت ... ماذا ؟ فيما دون العاشرة وبين جدران مدرسة ليس فيها الا البنـات تزل بنيـة لم يكعب ثدياها وتقترف أم الخطايا التى يقترفهـا النساء والرجال ؟

وما سكنت بلابل الكاهن المذعور حتى بدا له من لهجتها أنها لا تفقه ما تقول ، وأنها تلهو بمحاكاة المعترفات لانها أحبت أن تصنع مثل ما يصنعن ، وبحثت عما تعترف به فلم تجد غيرهذه الخطيئة التى تجهلها . وقد نجت الخاطئة الصغيرة بعركة أذن وجيعة ، ثم ذهبت تسائل الزميلات ما هذا الذي ذعر منـه الكاهن ذلك الذعر الشديد ؟ فلا تفوز بغير ضحكات وغمزات

قال لها همام وهى تحكى له حكايتها : لقدحسب لك اعترافك قبل أوانه •• ولئن اعترفت بالامس وما أخطأت فلأنت اليوم تخطئين وما تعترفين

وعاشت بعد ذلك تنظر الى خطايا الاديان نظرة المرأة الوثنية التى نشأت قبل أن ينشأ الانبياء . فهى ليست كالمتدينة التى خامرها الشك فى دينها ، ولكنها كالمرأة التى لم تتدين قط ولا قبل لها بالتدين ، عن نزعة طبيعيـة فيها لا عن بحث ونقاش واطلاع ، ومثلها كمثل الطفل يأكل الحلوى خلسة ان لم يأكلها

جهرة ، وآباؤه مع ذلك هم الملومون لانهم منعوه ، وليس هو بالملوم لانه اختلس ما لابد له من اختلاسه !

ليست غواية الجسم عندها كجوع الحيوان يشبعه العلف ، ولا كضجر المدمن يخدره العقار ، ولكنها كرعدة الحمى وصرعة الفرح الجموح ، يتبعها النشاط والمراح كما يتبعها الاعياء والبكاء

لها فراسة نفاذة فى كل ما بين الجنسين من عـــلاقة ، لو حصلتها بالتعليم والتلقين لاستغرقت أعمارا الى جانب عمرها فى القراءة . ولكنها تفطن لما فى نفس المرأة لانها امرأة وتفطن لما فى نفس الرجل لانها امرأة ، ويعينها ذكاء موصول بالفطرة، وتعبير يتضح فى ذهنها وان لم يتضح بعض الاحايين على لسانها

والحق أن هذه الفتاة كانت فى معرفتها بطبيعتها الانثوية اعجوبة ، وكان همام يسمع منها ماقل أن تفهمه امرأة وان شعرت به ، وقل أن تقوله وان فهمته ، وقل أن تحسن التعبير عنه وان أرادت أن تقوله . اذ المعهود فى المرأة انها تشعر ولا تفهم شعورها ، أو أنها تفهمه ولا تعمد الى الصراحة فيه ، أو أنها تعمد الى الصراحة ولكن لا تحسن التعبير . أما هذه الفتاة فعلم الانوثة عنـــدها كعلم الحســـاب عند بعض الاطفال الذين يجمعـــون ويضربون عشرات الارقام بغير تدوين ولا مراجعة : مسألة بداهة سهلة لا اجهاد فيها للفكر ولا اعتساف ولا تعليم !

فى سهرة من سهرات الصور المتحركة شـــاهدا رواية من روايات الغرام بين الكهول بطلها « ادولف منجو » الممثـــل المشهور بتمثيل هذه الادوار ، أو المشهور بقدرته على غزو قلوب النساء الناضجات .

وكان « منجو » بغيضا الى همام كما هو بغيض الى كثير من النظارة فى دور الصور . فأراد همام ان يناوىء صاحبته وقال لها : أما والله ان النساء لسخيفات ان كان لمثل هذا الرجل هذه الحظوة عندهن ؟

فأجابته متحدية : ولم لا تكون له هذه الحظوة عند النساء ؟ الا تعجب المرأة الا بفتى صبوح أو بفتى متين الاركان ؟ هـــذا خطؤكم معشر الرجال · ان الفتيان الحسان الاشداء قد يفتنون المرأة ، وقد يخلبونها ، وقد يهيجون نفسها ولكنهم لايقربونها اليهم ولا الى نفسها . ان أحدهم لينظر اليها كأنه غريب يمشى فى بلد غريب يخشى أن يتقدم أو يتأخر ، متهيبا يعديها بالتهيب ، فتقوم بينهما الحواجز والسدود ولا يسهل التقريب بينهما بعد ذلك

أو ينظر اليها نظرة القانص الفاتك فيربكها ويزعزع شعورها ويوقع الهزيمة فى سريرتها

أما الرجل الخبير بالنساء من أمثـال « أدولف منجو » فانه ينظر اليها بعد أن نظر الى مئات من قبلها فاذا به يعرفها مكشوفة معراة من كل ستر ومن كل طلاء، واذا بها تحس كل الاحساس أنه يعرفها كما تعرف نفسها فى مخدعها ، واذا هى قريبة منه لا تحتاج الى تقريب ، بل قريبة منه بوحى لا تدركه ولا تلتفت اليه ، قريبة منه كما يكون الرجل والمرأة فى الخلود بعد عشرة أعوام

والرجل الخبير بالنساء يشبع منهن فيزهد فيهن ولا يتهالك

عليهن ، فاذا أحست المرأة بالفتور منـــه فى الطلب والمغازلة خشيت أن تكون هى المعيبة المجفوة فى نظره بالقياس الى من عرف من النساء ، ولم تتهمه فى ذوقه بل اتهمت نفســها فى جمالها و« جاذبيتها » كما هو دأب المرأة من سوء الظن بنفسها أمام هؤلاء الرجال ، ونشأت عندها الرغبـــــة فى اجتـــذابه واستطلاع رأيه ، واستسلمت له فى سهولة وطواعية ، لعلمها أن الحيلة معه لا تخفى عليه • بعد ما شهد الكثير من حيل النساء

هل بحثت سارة هذا الموضوع بحث الفلاسفة ؟ هل قرأته فى كتاب من كتب الصور المتحركة ؟ يجوز ! ولــكن فطنتها وحسن روايتها لما قرأت لا تزالان عجيبتين بين شبيهاتها من الفتيات

وتمييزها لملامح الرجولة ومظـاهرها تمييز لا يخطىء لانه أشبه بالغريزة التى لم تعرف غير الصواب لانها لم تعرف غير صواب واحد . كصواب النحلة فى بناء الخلايا.

فالرجال الذين يشبهون النساء لا يستحقون منها حتى نظرة الزراية لانها لا تشعر لهم بوجود ، وما عدا هؤلاء من رجال فهم نماذج عدة تبلغ المئات ولكنهم مشمولون جميعا فى رجـــولة واحدة خلاصتها القوة والثقة والبروز ، والطغيان القابل للرحمة والحنان ، وقبس من أريحية الخيال ، ونفحة من حماسة الروح تحسبان فى الزينة عرضا ولا تضمنان الرجحان فى الميزان

ولهـــذا تضل بعض الطريق الذى تسلكه مع من تهواه ولو سلكته مرات فى النهار ، لانها تلقى كل اعتمادها على صاحبها

حتى لتكاد تنظر بعينيه وتمشى بقدميه ، وأبغض من تبغض ـ وهى قارئة حصيفة ـ أولئك النسوة الثـــائرات على الرجال المطالبات بما يسمينه حقوق الحرية ، فهى تقول انها لو سئلت أن تكون رجلا ما قبلت ، وأنها لوكانت تثور لثارت على الرجال لانهم يستمعون الى هذا الهراء

ومن لوازمها التى لا تفارقها أنها ما حضرت قط رواية فيها نزاع بين رجل وامرأة وعاشق وعاشقة الا كان عطفها فى جانب الرجل وان غدر وان خان ، ويشق عليها منظر العاشق الموله المغموم فتهتف من قلبها لا من لسانها وحده : ما من امرأة تستحق هذا العذاب !

تحب التدليل كما تحبه كل بنت من بنات حواء ، ولكنها تكره التدليل السخى الفياض كما تكره التدليل المعســـول الناصع الحلاوة ، وانما تحب أن يقطر لها التدليل تقطيرا وأن يشاب لها أبدا ببعض التوابل والافاويه

سألت صديقها وقد صفت واستسلمت لعطفه عليها :

أتحزن على اذا مت ؟

فلم يدر كيف يجيبها ، ولكنه قال : هذا سؤال ســـابق لأوانه يا بنية ؟

قالت : ستبكى ولا شك . لا أسألك فى ذلك ... ولكن كم عبرة يا ترى تميزنى بها على من بكيتهم ؟

قال وهو لا يظهر المرح ولايحاول أنيكتمه : أراجع ماعندى من « رصيد » العبرات وأجيبك قبل الوقت المناسب بقليل !!

قالت : أنت لا تريح !

قال : ولكنى أراك مرتاحة ··· أأنت تموتين ! ومن الذى يأذن لك أن تموتى !

وكانت مرتاحة حقا لما سمعت ، ولو أنه أسمعها غيرذلك من حسرات التفجع والتعوذ ومواعيد الحزن القاتل وعهود الوفاء الدائم لفترت وملت وانقلبت عليـــه ، ولكنه اذا ضمها وربت عليها وضن بعد ذلك بالكلام فقد وفاها من التدليل غاية مناها، وضمن أن لا تفسد عليه صفاء الساعة التى هى فيها

وكان همام يمتحن معارفها الغرامية كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر مرة على أبعد تقدير ، ويرشحها على أثر كل امتحان لوظيفة من الوظائف التى « تؤهلها » لها تلك المعارف الكثيرة·· الا انه استقر آخر الامر على انها أصلح ما تكون مديرة للاضاءة فى مسرح تمثيل

لانها تعلم مواقع الرؤية علما لا خطأ فيه ،.وربما وقفت فى المكان المكشوف والنوافذ مطلة عليه من جوانب شتى، ثم لاتبالى أن تمازح صـــاحبها وتغريه بمزاحها وتجميشها · فاذا أحجم وتردد ضحكت منه ساخرة ، وأولعت بتعييره والتهكم عليــه ، لانه لم يفهم لاول وهلة كما فهمت هى أن الاشعة المردودة عن زجاج النوافذ هناك تحجب النظر من ورائها !!

تعلمت وهامت بأوربا فأوربا عندها نبى معصوم : كل شىء فيها خير من كل شىء فى غيرها، وهذه التى تغفل عن الاديان حتى يخيل اليك انها لم تسمع قط بمكة وبيت المقدس وطور سيناء

ـ هذه الوثنية فى عالم الدين تراها فى عالم الأزياء فتعلم لاول وهلة أنهـا لا تغفل لحظة واحدة عن وحى باريس ومناسك الازياء فى آلعالم الاوربى بأسره،لأنها تتحرج من وضع شريط فى غير موضعه أو لبس زى فى غير موعده تحرج الزاهد الصالح من ذنب ينفيه عن رحمة الله ويخلده فى جحيم عذابه

وكان صاحبها همام على نقيضها يهزأ بالعـرف وقد يتعمد الخروج عليه ولو فى المجامع العامة . لحق بها ليلة بدار الاوبرا وهو فى ملابسـه الصباحية فكادت حين رأته الى جانبها تجن من الغيظ وتتجاهل معرفتها به ومصاحبتها اياه ، وجعلت تنظر اليه نظرات فيها من الاستغراب والاستهوال والاكبار لهذه الجرأة أو لهذا التهور بمقدار ما فيها من الاسف والحنق والاستنكار ، ومالت اليه تقول : ماذا يظن هؤلاء الناس ؟ انهم لن يقولوا الا أن هذه الفتاة مسكينة مع هذا الرجل ! قال متظاهرا بالاعتذار وقد علم أن المعابثة أنفع أساليب الاعتذار معها فى هذه الحالة : لا عليك أيتها الفتاة المسكينة . فى المرة التالية سـأحمل فى يدى كسوة السهرة لأدفع عنك هـذه المسبة . . . الا أنهما ـ حين خرجا من الدار ـ غلب عليها حب التحدى على الرغم من رغبتها فى التستر والمداراة ، فخرجت وهى آخذة بذراعه كأنما تغيظه هو أو تغيظ المتفرجين !

وتقرأ أوربا كما تعبد أزياءها ولكن ماذا تقرأ ؟ ان شئت فلا مانع من بيرون وشوبنهور ، على شريطة أن يوصيها بقراءتهما رجل يفهمها وتفهمه ، وأن تقرأ فى ديوان بيرون قصة دون جوان،

وان تقرأ فى القصة أنباء خلاعته وعبثه بين مخادع الجوارى الحسان فى قصر السلطان ، أما شوبنهور فيجب أن يكون كله على وتيرة مقاله فى الحب والشهوة بين الذكر والأنثى ، وليتشاءم بعد ذلك ما استطاع !!

عاطفتها حية غير أنها مشغولة بشاغل واحد ، فلا تهمها الشفقة على المظلومين والمنكوبين ولا تهمها المظالم والنكبات ، لا لأنها قاسية ولا لأنها مغلقة جاسية ، ولكن لان مكان الشفقة مشغول مستغرق ، فلو خلا جانب منه برهة لما استعصى على الشفقة أن تنفذ اليه أو تطغى عليه

وكأن الطيارة المحلقة وكأن نزواتها هى القوة الدافعة لها فى الفضاء . فاذا دفعتها فهى ناهيك من حركة وصعود وهبوط ، وان وقفت لحظة فهى حجر ملقى على التراب ، ولسان حالها فى العواطف الانسانية أن تقول لرجلها : أشفق أنت وتمرد على الظالم وأعن بما تشاء ، وانا وراءك حيث تقودك قدماك

وهى وثنية فى مقاييس الأخلاق كما هى وثنية فى التدين ، لا تؤمن بالعصمة الانسانية فى احد ولا فى صفة ، وشديدة الايمان بضعف الانسان مع أضعف المغريات ... استطرد الحديث يوما الى جان دارك فقالت هازئة :

ـ كم رجلا يا ترى عرف انها عذراء ؟!

فقال لها همام :

ـ انها عذراء بشهادة الطب وشهادة الخواتين الموقرات

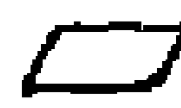
فقالت : لقد شهد لها أضعاف هؤلاء بالمعجزات ، فهل تصدق معجزاتها ؟

وكان من دأبها أن تحب الغلبة فى المناقشة على طريقة كل أنثى مع تنوع الأسلوب والعبارة ، فاذا عز عليها الجواب راغت منه وغيرت مجرى الحديث ، أو تقول حينا : أسكتنى وما أقنعتنى ! وحينا آخر : ناقشنى يا أخى ناقشنى . ولكن بحق السماء والارض عليك لاتكتفنى ! دع لى يا أخى حرية الكلام!! فهى تريد جوابا يروقها أو يترك لها باب الكلام مفتوحا بغير انتهاء

فلما سألته : هل تصدق معجزاتها ؟ قال : نعم ... أصدق أنها صنعت المعجزات ، وجاءت بخوارق العادات ، ولكنها معجزات انسانية لها أسباب انسانية ، وان تضاربت فيها أقوال المفسرين من المؤمنين وغير المؤمنين

ثم قال : والفرق بعيد مع هذا بين شاهد يقص ما تراه العين وشاهد يقص ما يخيله له الايمان ... فشاهد العين مصدق ، وشاهد الايمان لا يلزمنا تصديقه الا اذا جاريناه فى أيمانه

قالت : هذا قميص الكتاف يا أخى ! هذا قميص الكتاف !



ومن الصعب أن تفهم مايرضيها اذا اتهمت أمامك أخلاق الناس جميعا وراحت تقدح فى دعاوى الصداقة والوفاءوالفداء، فليس يرضيها أن تكون على رأيها لأنها تحب الرجل أريحيا ذا نخوة وحماسة وطموح الى عظائم الآمال والرغائب ، وتصديق بالوفاء والفداء

وليس يرضيها أن تناقضها وتضطرها الى التسليم ، لأن الاكراه مكروه على كل حال

ولكنها اذا كانت تجارى طبيعة المرأة فى حب الجدل والثرثرة والعناد فهى تجارى طبيعة المرأة أيضا فى اعجابها بطموح الرجل وصلابته وأحلامه ، وربما استراحت الى الشعور بقوة عقله كما تستريح الى الشعور بكل بأس فيه ، فما كان يدرى همام هل يناقضها أو يجاريها فيما تقول ... وتلك حيرة يعالجها كل من عالج النساء

قصت عليه مرة قصة صديق لزوجها أرسله اليها « وسطاء الخير » ليسفر فى الصلح بينها وبينه

قالت : فهل تدرى ما صنع ؟ انه جاء يغازلنى وينفخ فى جمرة الغضب بينى وبين زوجى !

ثم قالت : ما أكذب الصداقة فى هذه الدنيا !

قال همام وقد أراد أن يعابثها ويسليها : ان صاحبنا لمعذور . وان الاغراء بالخيانة لعظيم .. فليت جميع الاصدقاء لا يخونون الا باغراء كهذا الاغرء

ثم ضحك ، وضحكت ، وتماجنت فى الضحك وراحت تقول له : أراك ضننت على بقميص الكتاف اليوم ؟ لا . لا . انني أريد اليوم قميص الكتاف ... قل . قل أليست كل صداقة فى هذه الدنيا لفرض ؟ هل يصادق الناس أحدا الا لمـال او جمال أو سلطان أو نحو ذلك من الذرائع واللبانات ؟

قال همام : ومن لم يكن له مال ولاجمال ولا سلطان ولامزية

من المزايا فهل هو انسان يستحق صداقة انسان ؟

فوثبت وصفقت كما يصفق الطفل الارعن قد ظفر بالامنية الممنوعة ، وجعلت تقول : ها هو ذا قميص الكتاف . ها انت اذا أخيرا يا بنى ! وأقبلت عليه تقبله وتناوشه ، وتبذل له ذخيرة من السرور ، كأنها فاكهة مترعة برحيقها ليس لها قشر ولا بذور

وهى على ولعها بحديث الأكاذيب الشائعة فى أخلاق الناس وعودتها اليه آونة بعد آونة لم تنع على الناس أكاذيبهم قط بمرارة الناقم واستخفاف المتشائم ، وانما تتحدث بها كما تتحدث بصفحة من الطعام الشهى لم يتقنها الطاهى .. ولا حرج أن تمضى فى حديث انتقادها بعد ازدرادها

فهى لهذا يصح أن تسمى «وثنية» فى تقويم مقاييس الأخلاق ولا يصح أن تسمى متشائمة أو ناقمة على الناس

أما مذهبها فى «الكرامة» فمذهب خليق أن يخيف من يحب لها الكرامة ، ويود أن يأوى من كرامتها الى حصن منيع على الطراق

وأحسن ما توصف به الكرامة على مذهبها انها « كسوة اجتماعية » لا يخلعها المرء فى المجالس ولا يلبسها ممزقة أو مرقعة أو موصومة . فعيوب الكرامة وعيوب الكساء سواء فى هذا القياس !

اذا قيل أمامها ان فلانة اباحت نفسها لخادمها قالت ــ وهى تزعم المناقشة حبا للمناقشة ــ : ان المرأة قد تهفو هذه

الهفوة وهى لا تنظر الى مثل ذلك الرجل الاكما تنظر الى حذاء. وليس كل رجل يصل الى فراش المرأة يسودها . بل هو قد يكون خادمها فى ذلك الفراش

واذا قيل لها ان فلانا ضرب حبيبته قالت : وهل ضربها الا لأنه يحبها ؟ ان المرءليضرب نفسه فى الحائط اذا بلغ به الغيظ ذلك المبلغ ، لو كان ضرب النفس يشفى غلة المغيظ !

واذا قيل لها ان امرأة فى التاريخ او فى قيد الحياة تهالكت على اللذات قالت ان المرأة لا تتهالك على اللذات الا أن تفقد الرجل الذى يفوق اللذة فى روعها . فتحب الرجل لأجل اللذة بدلا من ان تحب اللذة لأجل الرجل الذى تهواه وتستكين اليه

وما نفرت قط من مذمة خبيثة عن مبدأ وعقيدة ، وانما تنفر من جميع الاشياء التى تأباها كما ينفر المرء من طعام يعافه : فهى مسألة ذوق ورغبة وليست مسألة شرف واعتقاد

ومثل هذه الكرامة لن تعصم صاحبها أن يقارف أخبث المنكرات ، كلما حلت له وغفلت عنه عين الرقيب

ويحار طبيب الأخلاق كما يحار طبيب الأبدان فى ايواء هذا المزاج الى مأواه من الصحة والداء . أفمن كانت كذلك فى نزغاتها وخلجاتها أتكون فى رأى الطب امرأة سليمة مستقيمة على سواء الطبيعة ؟ ان الاغراق يستلزم الزيغ والاختلال فى التركيب .. ولكن اى اختلال عسى ان يكون فى تركيب الجسم الذى يندمل جرحه بعد يوم ويقضى النهار والليل فى صبارة الشتاء بلباس الصيف ولا يدرى ما الزكام ؟ كل اختلال يجاور هذه المناعة

هو اختلال عجيب الجوار عميق القرار

أكبر الظن أن الفتاة على ما بها من جموح وشطط كانت وشيكة ان تستقيم وتتزن لو رزقت زوجا يوائم شوقها الى الرجولة ويغلق عليها منافذ الغواية . ولكنها خابت فى الزواج فشقيت ، ولجت بها الشقاوة حين كفرت بصداقة الصديقات ومؤاساة الشقيقات ، فعاشت فى عالم قد أقفر من جنس حواء الا أن تكون منافسة مريبة أو عاذلة رقيبة ، ولم يبق فيه الا رجال !



وجوه

ذو الوجهين منافق ، وذو الوجه الواحد ميت !

يعيب الانسان أن يصنع له نفسا غير نفسه ووجها غير وجهه ، وأن يبدو للناس بوجهين يلعن أحدهما الآخر ، ويعلم هو انهما ــ كليهما ــ ملعونان

ولا يعيبه أن يكون له مائة وجه ينم كل منها على سمة من سماته ومعنى من معانيه ، ويعرض لنا من ذهنه وسليقته وقلبه فى ساعة ما ليس يعرضه فى ساعة أخرى . لأن كل وجه من هذه الوجوه حق وليس بكذب ، وجوهر وليس بطلاء ، وصفحة من كتاب لا تتم قراءته الا باستعراض جميع الصفحات

ذو الوجهين فى كل وجه من وجهيه كذب وطلاء

وذو الوجوه المنوعة السمات ، المعددة الملامح ، المفرقة المعانى ، راوية صادق الخبر يرينا كل يوم بينة جديدة على صدقه ، ولونا جديدا من تمامه ونقصه ، ونفسا جديدة فى تعبير جديد

والرجل الذى لا تختلف له صورة من صورة ولا تمثال من تمثال هو جماد يختلس عنوان الحياة

والوجه الذى يصوره مائة مصور فيخرجون جميعا بطابع واحد لا يتبدل هو جدار فى هيئة انسان ، ولكنه جدار لا تختلف عليه الظلال والألوان

لنابليون بونابرت مئات من الصور الشمسية والزيتية ، ولا نذكر الا صورة واحدة منها تقول لنا حين نبصرها لأول وهلة : هذا وجه ايطالى لا مراء .. ! فلولا أننا نعلم أن نابليون ايطالى من شعبة ايطالية لقلنا ان الصورة كاذبة ، أو أن فراستنا هى التى كذبتنا ما رأيناه ، ولكننا نعلم أنه ايطالى من شعبة ايطالية فالصورة اذن أصدق من جميع الصور التى خفيت فيها ملامحه الايطالية ولم تبرز لنا هذا البروز

وجمال الدين الأفغانى يختلف المترجمون فيه هل هو من الفرس أو من الأفغان ؟ ولكن صورة من صوره التى ترتسم فيها عيناه القلقتان الوامضتان وصدغاه الناتئان وشفتاه العصبيتان تفض الجدال وتقول فيه أصدق مقال : أن هذا الوجه لأفغانى ولو ولد فى البلاد الفارسية ، وانه لأفغانى ولو نماه اليهم قوم من الفرس ، ونفاه عنهم قوم من الأفغان

وليس منا الا من يعرف صاحبا يحاول أن يخفى بعض مثالبه أو بعض سيئاته ثم يلتقطه المصور التقاطا فاذا هو حاسر الطبيعة بغير نقاب ، على كره منه وعلى كره من المصور . ولعله هو نفسه يرى الصورة فلا يفطن لما كشفت من أمره ، لأنه يفهم افشاء الكلام ولا يفهم افشاء السمات والقسمات

وليس من اللازم اللازب ان يطول الزمن بين الصورتين المختلفتين للوجه الواحد ، فانى لأذكر انى رأيت صورا ثلاثا لطفل واحد فى السنة الاولى من عمره أخذت فى ساعة واحدة فى مكان واحد تذكارا ليوم ميلاده : ترى احداها فلا تملك أن

تقول : ما أشبه هذا الطفل بأبيه ، وترى الثانية فلا تملك أن تقول ما أشبه هذا الطفل بأ مه ، وترى الثالثة فتستطيع ان تقول انه ليشبه أمه كما تستطيع أن تقول انه ليشبه أباه

ويصدق هذا على كبار السن كما يصدق على صغارها . فلا يندر أن يلتفت الانسان التفاتة خاطفة على غير قصد منه امام المرآة فيلوح له شبه من عمومته أو شبه من خؤولته لم يكن قبل ذلك يلمحه فى صفحة وجهه ، وقد تنصرم السنون ولا يلمحه مرة أخرى الا فى مثل تلك اللفتة الخاطفة

وأعرف أبا مشهورا له خمسة من الأبناء الذكور يجلس كل منهم الى جانبه فلا تخفى المشابهة بينهما أقل خفاء ، ولا يحتاج الناظر الى فراسة ثاقبة ليعلم من فوره انهما ابن وأبوه . ثم يجتمع الاخوة الخمسة فلايبدو بينهم هذا التشابه الا بفراسة المتأمل ، لتقارب الأصل وفروعه وتباعد الفروع متفرقات

ومما لا ريب فيه أن سمات الاخلاق والافهام شيء يستكن فى النفس قبل ان يبدو على أسارير الوجوه ، وأنها شيء لا يزول من النفس وان زال أثره الظاهر فى بعض الاحيان ، وأنه على قدر معانى النفس يكون تعدد الملامح وتعدد الوجوه ، وعلى قدر تعدد الوجوه يكون الانس بالمنظر المتجدد والمحضر المتعدد ، ويقل السأم ويعظم الشوق والنشاط الى اللقاء

وسارة كانت من ذوات الملامح والوجوه اللوائى لا يطالعنك بمنظر واحد فى محضرين متواليين : تراها مرة فأنت مع طفلة لاهية تفتح عينيها البريئتين فى دهشة الطفولة وسذاجة الفطرة

بغير كلفة ولا رياء ، وتراها بعد حين ـ وقد تراها فى يومها ـ فانت مع عجوز ماكرة أفنت حياتها فى مراس كيد النساء ودهاء الرجال . وتضحك ضحكة فتعرض لك وجها لا يصلح لغير الشهوات ، وضحكة أخرى ــ وقد تكون على أثر الاولى ــ فذاك عقل يضحك ولب يسخر ، كما تسخر عقول الفلاسفة وألباب الشيوخ المحنكين

هى تارة أم رؤوم تفيض بحنان الامهات حتى ليوشك أن تسع به أطفال العالمين ، وحسبك أن ترسمها هكذا ولا تضع فى أحضانها طفلا يرضع ولا الى جانبها طفلا يدرج ، لتستحق الصورة عنوان الأمومة

وهى تارة أخرى شريدة بوهيمية لم تستقر قط فى دار ولا وطن ، وما استقرت قط مع عشيق

لها صورة الى جانب سرير لو نحيت عنها السرير جانبا لمثلت لك راهبة خاشعة تهم بالصلاة ، أو ضحية من ضحايا الآلهة تساق الى محراب القربان

ولها صورة على سفح الهرم لو أخفيت منها الهرم لخلتها حورية مخمورة فى أرض يونان القديمة تهم بالرقص فى كروم باخوس

وكان همام يراقب هذه الشخوص ويتصفح هذه الوجوه وهو مغتبط تارة ومشفق تارة أخرى ، ويعزو تقلبها واطرادها الى الفتوة الحية التى لم تحبس فى محابس الافكار والعادات والتقاليد ، فهى أبدا فى أيدى العواطف والنوازع كعجينة الخلق

المهيأة للصوغ والتركيب فى كل ساعة

وخطر له أن ينشىء حولها رواية مسرحية هى جميع ابطالها وهى البطل الوحيد فيها ، تدور محاوراتها على المثال الآتى :

سارة : انى لا أرضى أن أصاحبك فى الطريق وانت فى هذه الثياب الفاضحة

سارة : وهل تحسبين أننى آسر بمصاحبتك وأنت بهذه السحنة العابسة وهذه المسوح المحزنة وهذا الزى الذى يشبه زى الحداد

سارة : على رسلكما أيتها الصديقتان ، لا تتخاصما ولا تشرعا فى تمزيق ما عليكما من ثياب . انها تستركما على كل حال ، وأنتما ضيفتاى غدا ... فهل تحضران الى وليمتى وقد شحذت كل منكما أظافرها لصاحبتها ؟ لا عليكما من المصاحبة فى الطريق ... احضرا من طريقين مختلفين ولتكن كل منكما فى الثياب التى تروقها ، فأنتما تعلمان أننى أحبكما ، ولا أنكر منك يا سارة شفوف الخلاعة ، ولا منك يا سارة مسوح الرهبانية !

سارة : وهل عندك وليمة غدا ؟ من دعوت اليها غيرنا من السيدات ؟

سارة : دعوت سارة و ..

سارة : سارة ! أخشى أن تكون تلك الفتاة التى لا تتحدث أبدا الا عن زينتها وجواهرها وحلاقها ومواشطها

سارة : لا بل هى سارة التى لا تتحدث أبدا الا عن وليدها

سارة : هأنذا قد حضرت فى غير الموعد الملائم على ما يظهر..

وآسف لأنى قطعت عليكن لذة الاغتياب . فالغيبة لذيذة . ولا سيما غيبة الصديقات

سارة : لم نقل عنك شيئا . وانما أردنا تعريفك فقلنا انها هى سارة التى تحب وليدها العزيز ولا تفتأ تتحدث عنه

سارة : واى عجب فى ذلك . الا تحب الأم وليدها ؟ وهل للمرأة فخر أشرف وأشهى من الأمومة ؟

سارة : أخطأت يا صديقتى . ان فخر المرأة جمالها

سارة : بل فخر المرأة ذكاؤها

سارة : بل فخر المرأة من تحبه ويحبها .. ويحىويحى!..

لقد كانت المشاجرة بين اثنتين فما زلنا حتى جعلناها بين أربع

سارة : وان شئتن فلتكن بين خمس .. علام تختلفن ؟ الا تسمحن لى بنصيب فى هذا الخلاف ؟

سارة : أهلا بك سارة ... ! أخشى ان لا تكون لك فرصة باقية لخلاف

لقد استنفدنا جميع الفرص بين قائلة أن فخر المرأة أمومتها وقائلة أن فخر المرأة جمالها وقائلة بل فخرها ذكاؤها ، وقائلة لا هذا ولا ذاك ولا ذلك . بل فخرها حبها وغرامها .. فماذا انت قائلة بعد ما قيل . لقد ضيعت الفرصة يا مسكينة

سارة . كلا يا صاحبتى ! لا تتعجلى بالرثاء لحالى . فقد نسيتن فخرا للمرأة لا ينقطع عن الأمومة ولا الذكاء ولا الجمال ولا الغرام . ولا أدرى كيف نسيتنه هذا النسيان ؟ فخر المرأة عذابها يا اخوات

سارة : صدقت يا صديقة !

سارة : ماذا تقولين ؟ صدقت ؟ ياللعار . هذا كلام العجائز ، هذا حديث خرافة . هذا مذهب عتيق أقدم من حواء والحية . انما خلقنا للسرور نأخذه ونعطيه . فمن نذر المرأة للعذاب لا أصاب فى الدنيا غير العذاب !

سارة : ليسقط التمرد !

سارة : ليحى التمرد



ثم يتقاربن ويتلاحمن ، ويتسربن كلهن فى شخص واحد ، يبقى على المسرح فى ثياب الشرطة ! ويصيح : أين المشاجرة وأين المتشاجرات . .



وقد تلا همام على سارة هذا الفصيل الصغير فاستملحت الفكرة وصفقت لها طويلا

قال همام : كفاية . لقد ظفرنا بتصفيق الممثلة الوحيدة للرواية



ولم تكن هى فى بادىء الأمر تفطن لهذا الذى يلاحظه همام من غرائب شخصها وطرائف ملامحها : انما كانت تعرف كيف تبدى بضاضتها فى الثياب البيضاء ، وكيف تخيل لك النحافة فى الثياب الدكناء أو السوداء ، وكيف تصفف طرتها بما يظهر من وجهها سمات الطفولة ، وكيف تصففها بما يكشف

منها جانب الذكاء ويزين القسمات باشراف جبينها الوضاء ، وتلك صناعة تحذقها كل امرأة تلتفت الى محاسنها وتسمع رأى الرجال والنساء فيما يعجبهم من مرآها . لكنها لم تكن تلتفت الى ما وراء ذلك من تقلب المعانى وتعدد الشخوص

فانهما لفى يوم رائق صاف جميل الاصيل وهمام يتأمل وجهها الذى تبدل الاشعة والظلال من معانيه كل لحظة ، وتبدل العواطف والخلجات من ملامحه كل فترة ، اذا به يهتف فجأة بكلمات لا مقدمة لها ولا سابقة لتفسيرها .

كم لك من وجوه يا سارة

فانتفضت فى ذراعه ، وحسبت أنها مقدمة لاتهام وملاحاة ، وهما يستمرئان نعيم ذلك اليوم الرائق الصافى الجميل ، وقالت :

ماذا تعنى ؟

قال : هدئى من روعك . انما ثناء اردت لا ملامة ، واخذ يشرح لها ما يعنيه كأنه يحدثها عن امرأة غائبة أو عن شخص من شخوص الروايات ، وهى تصغى اليه مسبوتة، ثم مستريحة، ثم مبتسمة ، ثم طروبا متهللة ، وهو يرى فيما يرى مصداق ما يلاحظه عليها ويحدثها عنه ، حتى كان ختام الحديث اقتراب الشفاه بداهة وطواعية .. ثم نكتة من نكاتها التى لا تخذلها فى أمثال هذه المواقف ، ألقتها اليه وهى تتناءى عنه مرحة ضاحكة :

احمد ربك . عندك من سارة المظلومة حريم كامل ، فلا تشكر نفسك كثيرا على الوفاء !

كيف عرفها؟

ترتيب الحوادث أن تنتهى ثم نكر راجعين للسؤال عن بدايتها .

وسبيل التواريخ أن تنطوى السير وتنصرم الدول ثم نتقصى مناشئها وأسباب ظهورها

فنحن لا نحيد عن مجرى الزمان حين نعرف الساعة كيف تلاقت سارة وهمام ، بعد أن عرفنا منذ برهة كيف كانت القطيعة وكيف كان اللقاء الاخير

لم يقصد همام أن يلتقى بسارة ولم تقصد سارة أن تلتقى بهمام ... وانما جاء اللقاء كما تجيء معظم الحوادث الكبرى فى معظم التواريخ والسير : من زواج وفراق ورحلة واختيار مساع واقتحام غيوب ، مصادفة لا يسبقها عمد ، وعرضا لا يمهد له بتفكير .

خرج همام يتمشى فى الخلاء ضحوة من ضحوات الخريف التى تبتهج فيها الشمس فى هدوء ، ويرقص فيها الهواء فى حنين ، ويرق فيها الجو فى تشوف وارتقاب ، وتطرح فيها النفس أعباءها كما تطرح القافلة أحمالها عند مشارفة الواحة المبشرة بالماء الغزير والظل الظليل : ريثما تنهض بالعبء من جديد

ماذا عسى أن يكون العبء المنظور ؟ .

لا تقول الشمس ، ولايجيب الهواء ، ولا يشف عنه الجو .

ولا تحفل النفس ما يكون ، حتى يكون ... ان كان !

ويعود همام من رحلته وقد علق جميع همومه وأجل جميع نياته ، وأصبح جزءا من الشمس والهواء والجو ، ولم يعد جزءا من عالم الانسان .

والفى نفسه وهو عائد الى منزله على مقربة من مسكن صاحبه الاستاذ زاهر ، وهو رجل ظريف طيب النحيزة من أولئك الذين يرضون فيسلون ويطربون ، ويسخطون فيكونون أدنى الى التسلية والطرب ، لطرافة مايرتجله فى هذه الحالة من مفارقات اللذع والتنديد

وكان يومئذ يسكن فى بيت من بيوت الحجرات المفروشة تديره خائطة فرنسية ليكن اسمها « ماريانا » ... فدلف همام الى المنزل يزور صاحبه ويقضى معه فترة يقفزان فيها بين معارض الحديث التىلا وصلة بينهما، ويضحكان ضحكا كثيرا، ان لم تكن فيه فكاهة عالية ففيه ولا شك تمرين نافع للرئتين

ووجد « ماريانا » فى فناء الدار تطعم الديكة الرومية التى عندها صفحة من « المكرونة » البائتة ، وعندها فتاة مليحة يصعب تقدير سنها ، لانها تصلح للعشرين كما تصلح للخامسة والعشرين ، وتسمى آنسة ، كما تسمى سيدة ، وهى مشغولة بكساء تقلبه وتمعن النظر فيه

قال همام : أسعد الله الصباح . أين زاهر يا مدام ؟

فردت تحيته بمثلها ، وقالت : أولا نراك الا زائرا لزاهر ؟ انه خرج منذ هنيهة على أن يعود بعد قليل

والتفت همام الى صفحة المكرونة قائلا : أرى أن الديكة اليوم ايطالية وليست رومية !

فلم تجب ماريانا بغير ابتسامة عريضة ، وانما أجابت الفتاة قائلة : ان كان الجنس بالطعام فالديكة هنا عالمية لا تدين بجنس من الاجناس : مصرية ان أكلت الفول المدمس ، وانجليزية ان اكلت البطاطس ، وهندية ان صبرت على الصيام الطويل

فنظرت اليها « ماريانا » نظرة العتب المصطنع ، واستظرف همام جوابها واستغرب مشاركتها فى الحديث فى وقت واحد ، ورحب مع ذلك بهذه المشاركة التى أحس لتوها انها وافقت هواه وانه كان يسوق الحديث اليها أن أبطأ المساق

قال همام : ان الآنسة تعـــرف كل شيء عن ديكة البيت وتذبذبها فيالوطنية ، ولكنى لاأذكر أننى رأيتك هنا يا آنسة قبل الآن

ماذا يقول ؟ أيقول لا أذكر أننى رأيتك ؟ أكان من الجائز اذن أن يراها ويهملها وينسى أنه رآها ؟

أحس همامأيضا أن الكلمة لم توافقهواها ، وسمعهاتجيب بشيء من الامتعاض المكتوم كأنها تخاطب نفسها :

ولماذا تدعونى يا آنسة ! أتستصغرنى ؟ اننى ربة بيت ، وأم!



يا للمرأة ! أتريد أن يفهم أنها غضبت لأنه دعاها يا آنسة ؟ لا والله ! لقد كان بريق الرضا بهذه التسمية يومض فىعينيها ... انما عز عليها أنه جعلها شيئا مهملا يجوز أن يراه مرة أو

مرات ثم ينساه ، فأسفرت عن الغضب وسترت السبب ، وتوارت وراء حجاب المجاملات والالقاب

فأحب ان يغيظهـا قليلا وعاد يقول : ولـكن السيدات يا آنسة . . يلبسن فى أصابعهن علامة تسمى خاتم الزواج . فأين هذه العلامة ؟

قالت : لذلك شرح يطول

قال : عسى أن أسمعه في وقت قريب

ثم اقتضب الحديث والتفت الى شيخ متهدم يعبر الفناء ، فسأل الخائطة : أهذا ضيف جديد عندك يا مدام ؟

فزمت شفتيها لا يدرى أهى مشمئزة من الرجل أم راثية لحاله ، وقالت : ضيف ولكن لا اظنه طويل المقام . الا تراه يتعثر بقدميه ؟ وفى أقل من دقائق لا تتجـاوز الخمس عرف همام والفتاة كل ما تعـرفه « ماريانا » عن الرجل وعاداته وأطواره ، وثروته التى تربى على الألوف ، ولا وارث له ولا قريب ولا قريبة تلوذ به فى شيخوخته الكئيبة

قال همام : وما حاجته الى البحث عن وارث ؟ ان الورثة يبحثون عنه ولا يقصرون « عند اللزوم »

قالت : الا يحتاج الى من يعوله ويواسيه ويحف به وهو يودع دنياه ؟

قال همام : ان كنت يا ماريانا حريصة على خروجه من حجراتك فانصحى له بكتابة اعلان فى الصحف السيارة، يقول فيه أنه يملك كذا من الالوف ويحتاج الى كذا من الاخوان

وأولاد الاعمام وأولاد الاخوال ، وانظـرى كيف يضيق بيتك عن الطالبين والطالبات ممن « آنسوا فى نفوســـــهم الوفاء بالشروط »

فنسيت الفتاة غضبتها الصغيرة واندفعت ضاحكة، ومازالت حتى اجبرت هماما ــ وهو فى غنى عن الاجبار ــ أن يحــول الحديث اليها . فسألها قائلا :

وانت ياسيدة . نعم أنت ياسيدة فى هذه المرة : لأية قرابة ترشحين نفسك اذا أعلن الرجل اعلانه ؟

فهزت رأسها تفكر . ثم قالت : أوفرها نصيبا فى الميراث ؟

قال : لا تكونين اذن الا زوجة ؟

قالت ما معناه : فأل الله ولا فألك ٠ أى غرام غرامك هـذا بذكر الزواج والزوجات والازواج ؟ .. ثم رفعت راســـها متأففة كأنها تطوى حديثا لا تحب أن يجرى لها على لسان ، وهى فى الواقع تود لو أفـــرغت كل مافى جعبتهـــا من ذلك الحديث ، أول ما تسعف المناسبة وتبدر من همام بادرة اغراء

قال همام : لا تؤاخذينى أن ذكرت الزواج مرة أو مرتين ، فاننى لم أتزوج قط ولا خبرة لى بهذا الجانب من مزعجـــات الدنيا ..

قالت : أصحيح ؟ .. لقد أراحك الله . فبـــأى جانب من مزعجات الدنيا أنت خبير ؟

فأسرع همام قائلا : لذلك شرح يطول !

قالت : يالك من منتقم .. على انك تستطيع ان تطمئن كل

الاطمئنان ، فانني لا أكلفك عناء هذا الشرح ولا استطلع دخائل شأنك .. لست فضولية بحمد الله

قال : واذا كنت أنا فضوليا ؟

قالت : اذن يختلف الامر

قال : كيف يختلف ؟

قالت : يلوح لى انك كما وصفت نفسك : أنت فضـــولى ولا فخر

قال : ليس مع كل الناس

قالت : تحيات وغزل .. ! وعما قريب : عيناك ووجنتاك واهواك ولا أنساك ، الى آخر هذا الموال المحفوظ

قال : ولماذا عما قريب !.. الآن !

قالت : أنت عجول ، وأنت جرىء أيضا

قال : ان وعدتنى أن أجنى للصبر ثمرة . فأنا أصـــبر من أيوب ، قوليها كلمة واحدة وانا لا أتعجلك شيئا ، وانصرف الآن !

قالت : وصاحبك الذى تسأل عنه ؟

قال : ها ... يلوح لى أننى اعجبتك ! وانك تسبقيننى !

قالت : لولا أنك تمزح لقلت أنك مغـرور غروركم كلـكم معشر الرجال . لا تتكلم الواحدة كلمتين مع واحد منكم حتى يحسبها مجنونة بهواه

قال : أو يحسب أنه مجنون بهواها !

قالت : طيب والله لقد قطعنا شوطا بعيدا جدا فى نصف

ساعة ولا أدرى ما خطب « ماريانا » سامحها الله ؟ أين ذهبت وتركتنا ؟ العلك على اتفاق معها أن تهيىء هذا اللقاء ؟ .. ما فى ذلك من عجب ، فهكذا تصنع الخائطات فيما يقال

وسمعت « ماريانا » اسمها فعادت تهرول وتتساءل : ماذا تقولين عنى يا سارة ؟

قال همام : انها تتهمك بأنك تدبرين عن عمد خلوة غرامية بين هذه الديكة وهذه الدجاج !

قالت ماريانا : أنا أعلم على الاقل أن الدجاج لا تحتاج الى من يدبر لها الخلوة مع الديكة !

قالت الفتاة : قاتلك الله يا عجوز السوء . لماذا تنصلين عن التهمة ؟ أما كان الاولى أن تتمهلى لمحة لعلى كنت أنوى أن أشكرك على ماصنعت ؟

فطاش الفرح بهمام ، وأوشك قلبه أن يفلت من نياطه ، وانتشى نشوة خمسين كأسا فى رشفة واحدة ، وقال وهو يهجم على « ماريانا » : بل دعى لى أنا أن أشكرها . اننى أقبل وجنتيها ، اننى ألثم فاها .. وصنع ما يقوله قبل أن تفيق « ماريانا » من دهشتها وقهقهتها . ومال الى الفتاة قبل أن تدرى ما هو صانع قائلا وأقبلك أنت أيضا اكراما ... لماريانا . وقبلها !

ثم جلس مأخوذا بما حدث يتوقع ماذا تكون الكلمة الاولى التى تلفظها الفتاة : أتشتم ؟ أتصطنع الغضب ؟ أتنطلق من المنزل ؟

وكأنما كان التوقع هو شغله الشاغل فى حينهادون مايتبعه من ثورة أو مسامحة ، فاستطال الامد وما انقضت غير ثوان فى توقع ما يكون . وزاده فرحا على فرح أن شيئا مما توقعه لم يحدث ، وأن كل ما حدث أن الفتاة بهتت وراحت تقول شيئا لابد أن يقال ، فقالت فى صوت خافت :

لقد آذانى شاربك الطويل !



وتم التعارف بالاسماء

واسترسل الحديث أصداء لا يقصدها القائل ولا يصغى اليها السامع ، لحظة يسيرة ثم انقلب الفرح غما ثقيلابغير منفذ وبغير دلالة . فان الفتاة لبثت تتكلم ويبدو من عينيها أنهاتفكر فى غير ما تتكلم . ثم خرجت ساهمة بغير استئذان الا حين قاربت الباب ، فقد انثنت تحيى هماما تحية من يؤدى «واجب اللياقة » لا تحية من يجامل فى وداع

قال همام : ما معنى هذا ؟

قالت « ماريانا » : لا عليك منها . انها ستعود يوما لا محالة

قال : لست عن هذا أسأل ؟ فهل هى غاضبة ؟

قالت : مم تغضب ؟ أمن القبلة ؟ فلم لم أغضب أنا !؟

قال : خيبة الله عليك يا عزيزتى ماريانا ... دعينا من غضبك أنت ورضاك ، فانها هى القبلة الاولى والاخيرة بغير مراء ! ولئن رضيت عنها فما أنا براض .. ولكن الذى يعنينى

أن لا تكون قبلتها هى القبلة الاولى والاخيرة . فما رأيك ؟

قالت : ابغ لك مستشارا غيرى . اننى أعرف كيف أوفق بين الكسوة وصاحبتها . ولا معرفة لى بالتوفيق بين رجل وامرأة !

فلم يشأ همام أن يطيل الكلام ، ولم ينتظر صاحبه الذى لم يعد ولم يكن يبالى فى تلك الساعة أن يعود . وخرج منقبضا متحاملا يلوم نفسه على خروج الفتاة ولا يلوم نفسه على تقبيلها . كأنما كان يستطيع الفصل بين الامرين !.. وعادت القبلة الى شفتيه كأنها طيف يرف على مهادة الاول . حتى لقد أوشك أن يضم شفتيه ليلامس ذلك الثغر الذى لاح له أنه ينضغط وينضغط من لينه وطراوته الى غير نهاية ، وسرت لذعته الباردة كلذعة النعناع الذى هدأت سورته وبقيت ذكراه ، فازداد غما على غم . ولعن ذلك الشيطان الكامن فى أعماق كل نفس يثير لواعجها وينكأ جراحها ، فى حيثما احتاجت الى التهوين والنسيان

وذهب الى المكتب فتلقاه الخادم قائلا : ان سيدة سألت عنك بالتليفون.

فلم يعره كبير التفات

وعاد الخادم بعد فترة يقول : ان سيدة على التليفون تسأل عنك ، وأظنها السيدة الاولى

فنهض همام الى التليفون وآخر ما فى ذهنه أن المتكلمة هى فتاة ذلك الصباح ، وقال بغير اكتراث : من المتكلم ؟

قال صوت كصـوت الفتـاة بعد التحريف المعهـود فى أداة التليفون : الا تعرفنى ؟

قال : عرفتك الآن • أنت سارة ولا ريب !

ولم يلاحظ هو ولا لاحظت هى أنه حـذف اللقب وخاطبها باسمها كما يتخاطب الاصدقاء الاقدمون !

قالت : أوكنت تنتظر هذه المحادثة ؟

قال : لا أزعم أننى كنت أنتظرها ، ولـكنى أحسب أننى كنت أتمناها !

قالت : اذن هل تحب أنأراك الليلة فى دار الصورالمتحركة

قال : بل أحب أن نلتقى على انفراد • فذلك أروح وأسلم

قالت : انما عنيت أن تشهد الرواية لأنها تشبه قصـتى تمام المشابهة • ويجوز أن تكون القصة مما يعنيك

قال : لأن أسمعها من لسانك خير من أنأشهدها مع مئات

قالت : فأين اذن ؟

قال : ما رأيك فى حديقة الاهرام ؟ انها مكان قلمـا يغشاه أحد فى هذه الآونة ، وسنلتقى فى زاوية من الطريق ونستقل سيارة من هناك الى الحديقة ، وأسـمع منك أو أقول لك كل ما تحبين



كان أول ما فاهت به وهى تجلس الى جانبه فىالسيارة أن قالت :

لابد أنك حسبتني مجنونة وقلت فى خلدك : ما هــــذه الرعناء التى تقبــل التقبيل ، ثم تخرج مغضبــــة ، ثم تتكلم بالتليفون ، ثم تحضر الى الموعد طائعة ، فماذا حسبتنى بربك ؟ قل لى ولا تكذب !

قال : على كل حال لست بآسف لجنونك !

قالت وأنت يا حضرة العاقل اللبيب الرشيد أما حاولت أن تفهم لماذا كان خروجى بهذه المفاجأة قبل أن ترمينى بالجنون ؟

قال : مستفهما : أللأمر علاقة بماريانا ؟

قالت : هو ذاك . فلو اننى أطلت المكث لباخ الغضب بعــد ذلك . ولو أننا تواعدنا أمامها لوقعت فى براثنها بلا رحمة ، فاما أن أطيعها فى كل ما يعن لها ، وأما التهديد والانذار

فربت على خدها كأنها طفلة أجادت درسها . وقال : انك لحصيفة يا هذه التى تتطلع منى الى تهمــة الجنــون . ولكنها حصافة مخيفة

ثم حكى لها ما قالته ماريانا بعد انصرافها ، وكيف انها لم تغضب حين قبلها ! فكيف تغضب الفتيــات الماجنــات ؟... فأخذت تضحك حتى اغرورقت عيناها بالدموع . وثابت الى الحصافة فأوصته أن يزور « ماريانا » فى آليوم التالى ويثابر على سؤالها بضعة أيام . ثم ينسى المسألة كأنه ألقى بها فى ذمة المصادفات

وانطوت المسافة الى حديقة الاهرام بمثل لمح البصر ، وزعم همام وهو يناول السائق أجره أن سيارته أسرع ما أنجبته

المصانع الحديثة ، وأنه حرام عليه أن لا يشترك بها فى سباق السيارات

وخف كل شىء فى الدنيا حتى أشفقا أن يذهل قانون الجاذبية عن واجبه المرسوم ، وشعرا بهذه الخفة من حولهما ولا سيما حين بصرا بالمكان خاليا من كل انسان . فانطلق الكلام كأنه ثرثرة الاطفال ، وانبعثا معا فى خلق جديد

وطلبا الطعام فظهر لهمام أن صاحبته من صاحبات النظام المتحذرات من كل ما يجلب السمنة فى طعام وشراب . فصدفت عن كل ما اقترحه عليها الا صحفة شواء لا تشبع : فأراد أن يحذرها من القسوة على جسدها ، وقال لها ان بعض الاجسام اذا خف لم تكن خفته على استواء واحد . فيخف هنا ويسمن هناك ويشوه من حيث يراد له حسن الهندام ، ولا ينال أصحابه الا الجوع والندم !

فنظرت اليه بعينى طفلة تخاف ، وسألته مستوثقة : أحق ما تقول ؟

قال : حق كل الحق . وسأريك اذا زرتنى فى المنزل صور التماثيل التى يعدونها فى العالم بأسره نماذج لجمال الانوثة ، فان تماثيل الزهرة التى صنعتها اليونان — وهم أساتذة الذوق السليم — ليست على نحافة ولا دقة فى الخصور والاطراف ، ولكنها مثال الجسم المتين المنسوق . وسيفسد علينا سماسرة البدع الحديثة تنويع الجمال فى بنات حواء .. فأين نرى البضاضة والسموق اذ أصبح النساء وكلهن نحيفات هزيلات؟

وكيف تتعدد القوالب اذا كانت المرأة لا تخلق لنا الا فى قالب واحد ؟

وسرها ما سمعت فسألته عفوا :

أيعجبك اذن هندام جسمى على ما هو عليه ؟

قال متماجنا : ومن أين لى أن أحكم ؟

ثم أحجم عن التمادى فى هذه النغمة ، وأيقن أنهما فى هذه الخفة التى يشعران بها ليستطيعان أن يتحدثا عن الموت كما يتحدثان عن الرقص واللهو والمجانة ، وأحب أن يتحول الحديث الى قصة الزواج التى وعدته أن تقصها عليه ، والتى يتوقف على فهمه اياها أن يفهم مدى العلاقة التى ستجمعه بهذه الفتاة الجالسة فى تلك الساعة أمامه • فقال وهو لايحذر من تنغيصها باستطراده :

ان كنت لا ترضين زوجا بالتماس النحافة فعلام كل هذا العناء ؟ أهناك رجل آخر ؟

وصح ما قدره همام ، فكان جوابها على نغمة الخفة التى شملت فى تلك الساعة كل شىء ، وقالت : أو تحسب أن المرأة لا تتزين الا لزوج أو حبيب ؟ انها لتتزين لنفسها • وانها لتتزين للرجل الذى فى عالم الخيال ، ولو لم يكن له فى عالم الواقع وجود

واسترسلت تتهكم كأنما سألت نفسها وهى تسأله : أأرضى زوجا ؟ ألا ليت هذا كل ما يعنينى !••• اذن لأكلت قنطاراً من الارز والزبدة كل يوم !

واجتازت النقلة بين أرضاء الزوج وقصة الزواج فى جملة أو جملتين . ثم انقضى نصف ساعة علم فيهـا همـام صفوة ما أرادت أن يعلم . فلو سأله سائل : أصدقها فى جميع قولها ؟ أعذرها فى جميع فعلها ؟ لـكان من الصعب عليـه أن يجيب بالايجاب

بيد أنه أدرك مما سمع أنها طفلة فقـدت رحمـة الامومة . ونمت وهى لا تعرف الا جماح الحيوية العارمة التى لا تمسكها هداية أم ولا تقوى على حبسها آلتقاليـد الضـعاف ، مع ذلك الذكاء الوقاد الذى لاتخفى عليه خافية الموانع والمحظورات ، وانها لو سيقت الى زوج « يملأ عينها » ويحقق معنى الرجولة فى رأيها وعاطفتها لاستقرت بعض الاسـتقرار وقنعت بعض القنوع . ولكنها أخطأت حظها من الزواج وبرمت بفراغ قلبها فلم تعذر الدنيا ، والتمست لقلبها وحده جميع الاعذار

قالت وقد سردت له قصتها :

أصغرت الآن فى نظرك ؟

قال : أمنى تطلبين الحـكم ؟ أنا حاكـم مغرض فلا تنفعـك الشهادة منى ، غير أنى أقول ان الذين ينصـفونك فى الدنيا قليلون

قالت : لا حاجة بى الى آنصاف الدنيا . فلتحفظه لمن يطلبونه



ولقد رجعا من الحديقة الى الجيزة مشيا على الاقدام ، لم يتعبا ولم يشكوا طول الطريق . وجاء الترام فركبت فى مقصورة النساء وركب مع الرجال

وكان الموعد الثانى فى بيت همام

أيام

أجل هى فتاتى لا مراء فيها

ولئن خشيت حبا فانما هذه الفتاة التى يحق لى أن أخشى حبها وأخشاها

سنحت هذه الخاطرة فى حدس همام مع سنوح سارة فى أول الطريق طفرة واحدة

وكان همام ممن يقيسون ارتقاء المرأة بسلوكها فى مسألة المواعيد • فأبغض النساء اليه المرأة التى تحسب سرورالرجل بلقياها سببا كافيا لتنكيده بالانتظار وتكديره بالابطاء فى الحضور الى الموعد ، ولو كان فى وسعها أن تسبقه اليه ... وعندها أنه ما دام راغبا فى لقائها فلا يصح أن يهنأ بهذه الرغبة خالصة ويسعد بهذه المتعة صافية ، وعليه أن يبذل ثمنهانكدا لا ضرورة له وغصة لا حاجة اليها ، وهو صاغر راغم يحرق الارم ولا يعرف له حيلة غير الانابة والتسليم . والا فماذا هو صانع ؟

وجواب « ماذا هو صانع ؟ » هذه يختلف باختلاف الرجال واختلاف أنواع الهوى . أما جوابها عند همام فهو الانتظار خمس عشرة دقيقة على الاكثر ريثما ينقضى أقصى المدى المفروض لاختلاف الساعات فى التقديم والتقدير . ثم ينصرف ولا يسأل عن العاقبة ، الا اذا اتضح له بعد ذلك أن العذر مقبول

فلما رأى سارة ـ وهو يراقب الطريق من وراء النافذة ـ قد أقبلت فى أول الطريق قبل الموعـــد بدقيقتين أو ثلاث ، ولاحظ للمرة الثانية أنها تتحرى الدقـــة فى رعاية المواعيد ، فرح بمعرفتها ورحب بالعلاقةبينه وبينها . وأوجس فىحينها أن تنشب هذه العلاقة جذورها فى فؤاده فيتبعها ما لابد ان يتبعها من لواعج ونكبات وفواجع ، وأيقن أن هذه الفتاة تفهم كثيرا جدا • لأن الفتاة التى تفهم أن لها قيمة غير قيمة الدلال المصطنع ، وأن العاطفة أنفس من أن تشاب بالتنكيد والتكدير لغير داع ، لهى صاحبة ذكاء مطبوع يفقه قيمة الزمن وقيمـــة الشـــعور وقيمـــة السرور ، ولا يقتصر ذكاؤها على النظر الى عقربى الساعة لادراك الميعاد !

وفى الحق أن سارة قد بهرت هماما بأشياء كثيرة فى أول زياراتها لمنزله غير رعايتها للمواعيد

فلو كانت تعرف ما يروقه ويســتهويه من النســـاء معرفة تفصيل وتدقيق لحسب أنها تجوز امتحانا عسيرا وتتعمد أن تخرج منه بالتزكية التى ليس بعدها تزكية ، والشهادة التى ليس فوقها شهادة

هو قليل المرح فيروقه من المرأة أن تكون مرحة بغير تكلف ولا مبالغة ، ويسمى المرح الذى يزين المرأة ويشوق الرجل مرحا « موقعا » تشبيها له بالغناء الذىينطلق انطلاقا وينبعث انبعاثا ولكنه يقف حينما يحسن به الوقوف • ويسكن حينما يطيب منه السكون : يقف ويسكن لا على اقتضاب موحش

وانقطاع ناشز ، ولكن على نغمة تفصل اللحن من اللحن أو على قافية تختم البيت بعد البيت ، فهو الوقوف الذى يريح ويشوق ويزيد لذة الايقاع وطرافة السماع

وهو يحب من المرأة الزينة التى تغرى من يبصرها اغراء لا يخفى ، ولكنها لو أنكرته وزعمت أنها لم تتعمده ولم تفكر فيه لما استطاع أحد تكذيبها ببرهان

وهو يحب المرأة التى تدرك الفكاهة ويكره التى تتخذ من فكاهتها صناعة أو معرضا مفتوحا فى كل ساعة ، وأقرب دليل عنده على اتفاق المزاجين هو دليل « نيتشه » الذى يقول ان الضحك من نكتة واحدة هو العنوان الواضح على تقارب الضاحكين فى المزاج والتفكير ، وما انفصل اثنان بفاصل هو أبعد من ابتعادهما فى تمييز النكات

وهو يحب ربة البيت التى تكون أول خادمة فيه لانها سيدته الوحيدة ، ويحتقر المرأة التى تأنف من تلويث يديها فى مطبخها كما يحتقر الرجل الذى يأنف من تلويث يديه فى حقله أو حديقة داره

وهو يحب المرأة التى تستطيع ان تكون «انسانا» فى بعض الاوقات بمعزل عن الانوثة والذكورة ، فلا تكون الانوثة الحيوانية هى كل وظيفتها فى الحياة

ولقد تجلى له كل أولئك من سارة فى أقل من ساعة ، يوم جاءته فى أول زيارة

جاءته فى زينة تلفت العين الى كل مزية فى جسدها ، ولا

تلفت النظر الى عيب فى نفسها

ولم يكد يستقر بها المجلس حتى نهضت الى أثاث الحجرة تضعه فى مواضعه التى تهواها ، والى جوانب البيت تعيد تنظيمه على النحو الذى تود أن تراه ، والى المطبخ تجول فيه بنظرة فاحصة تدرك لاول وهلة كيف طهيت كل صفحة ، وكيف أعدت كل طبخة ، وكيف لوحظت النظافة فى التحضير والغسل والتجفيف

وحان وقت المائدة فقدم لها «الديك» قائلا : هذا اعتراف بفضل الديك فى تعارفنا ، وتمهيد محادثتنا الاولى

فما أسرع ما قالها حتى بادرته متهاتفة : لا أحب ياصاحبى أن تعرف لى فضلا على هذه الطريقة !

فطرب للنكتة ووجم فى وقت واحد ، ولو كان يتوقع عند فتاة صغيرة هذه الفكاهة الماضية لاحترس بعض الاحتراس ، ولكنها فاجأته بها فوجم ولم يسعه الا أن ينفذ نفسه وهو يردد فى شىء من التلعثم : ان كنت لا تأبين أن امزجك بدمى ولحمى وأن أجعلك جزءا منى فالطريقة لا تهم ، وأنت أكلة شهية تطيب لى بغير حاجة الى السكاكين والقدور !

وكان حديثها على المائدة ـ وقد استغرقت ساعتين ـ على هذه الوتيرة من أمتع وأفكه ماتكون أحاديث الموائد

لاحظت أنه لا يأكل من صدر الديك ويقصر اختياره على الجناحين والوركين . فقالت : كان من حقنا أن نتزوج ، فنحن زوجان طبيعيان : أنت لا تأكل الصدر وأنا لا آكل غيره ، فلا يشجر بيننا نزاع

قال عفو الخاطر غير عامد لما يقول : هـــذا مذهب شوبنهور منقولا الى المطبخ !

واحس أنه أقحم اسم شوبنهور فى غير مقحم : أعلى المائدة ومع فتاة يدار ذكر هذا الفيلسوف المتشائم عدو النساء ؟

وانه ليهم بتوبيخ لسانه والتراجع الى موضوع غير هـــذا الموضوع الذى أثاره ، وانه ليريد أن يأخذ عليها سبيل السؤال عن شوبنهور ومذهب شوبنهور اذا هى تلاحقه قائلة :

نعم ، القصـــــير يطلب الطويلة والابيض يطلب السمراء ، والبدين يطلب النحيفة ، ومن يأكل جناح الدجاجة يطلب من لا تأكل الجناح ... هذا تطبيق صحيح لمذهب الفيلسوف

فراعه تعقيبها وسرعة التفاتها الى « محل الشاهد » كما يقولون أضعاف ماراعته نكاتها ، ولمحت هى دهشته فاستطردت تقول : على رسلك ! لا تخف ولا تجفل ! فلست بحمـد الله فيلسوفة ، وما قرأت شوبنهور الا لان « أحدا » أرادنى على قراءته ، ولأن تفهيمه اياى كان ذريعة اللقـاء بيننا ، وما كان بالجائز أن يحضر الى ليفهمنى رواية أو مقالة ممتعة ... فلم يعد لنا بد من الفلسفة وأمرنا الى الله !! فأغرب همـــام فى الضحك ، لانه تخيل شوبنهور العظيم بوجهه العبوس وعينيه الظريفتين تبرقان من الحرد والسخرية وهو يسمع بأذنيــه كيف انتقمت منه امرأة وهزئت به ، وسخرت فلسفته لغرامها

واثنى همام على صراحة سارة وقلة دعواها ، واطمأن الى سياق الفلاسفة والشـــعراء فقال : الآن آمنت مرة أخـرى أن

صديقى « هينى » خبير بالنساء فى جده ومزاحه ..

قالت : ومن صديقك هذا هينى ؟

قال : لا تتهيبى . فليس هو بفيلسوف مغلق ، ولا هو بالكاتب الذى يحوجك الى ترجمان أو مفسر ، أن حلا لك أن تقرئيه وحدك فهو شاعر سلس سائغ ، وما أحسب له نظيرا فى الدعابة وخفة الروح

قالت : أصحيح ؟ وماذا قال عنا معشر النساء هذا الشاعر الظريف ؟

قال : انه ضجر من سيدة دعية لها عين واحدة تتطفل على الادب فكتب عنها يقول : كل امراة تكتب فانما تتجه باحدى عينيها الى القرطاس وبالعين الثانية الى رجل ... ما عدا فلانة طبعا ... فان لها عينا واحدة كما يعلم القراء !

فراقتها غمزة الشاعر للمرأةالدعية ، وقالت : أما من جهتى أنا فانى لأقر وأقسم بين يديك وبين يدى الله أن هينى لظريف وأنه لصادق ، فما تقرأ المرأة الا عن رجل أو بسبب رجل ، وكل ماعدا ذلك كذب وادعاء

وتشعب الحديث ، وتفتحت مغاليق الاسرار من الجانبين ، وفى غير مناسبة ظاهرة سألته وفى عينيها خبث كخبث الاطفال المناوئين :

كم عمرك يا همام ؟

قال همام : دعى هذه المحرجات يا بنية . فان أبيت الا الالحاح فسأخبرك على شريطة واحدة ، وهى أن تخبرينى أنت — بداءة — لماذا تسألين ؟

قالت : ولم ؟ أيتغير عمرك بتغير أسباب السؤال ؟ على انني لا أنوى أن أدعك تطيل التخمين ، واريد أن أفرض لك اثنتين وثلاثين سنة اذا كنا متفقين فى نسبة السن كما اتفقنا فى غيرها من المقارنات ... فانني أنا فى الثالثة والعشرين ، وينبغى أن يكون عمر المرأة نصف عمر الرجل مضافا اليه سبع سنوات

قال : بل تسمحين أن يكون عمرك خمسا وعشرين ليتفق الحساب من الطرفين ، وأقسم لك انني ما أسقطت يوما واحدا ، وانك أسقطت السنتين الناقصتين !!



من الواجب أن نعرف لأيام النعيم وداعا غير وداع الاسى والأنين الذى اصطلح عليه شعراء الاصطلاح فى بعض العصور العربية

فمن الخيانة للسرور عند هؤلاء الناس أن تلوح له ساعة وداعه بمنديل غير مبلول ، وأن تفرغ منه شبعان راضيا عن الشبع شاكرا للزاد ، خاليا بذكرياته للتملى به والتأمل فيه

وشعراء الاصطلاح جهلاء بالانسان لا يدرون ما الاسى ولا يدرون ما السرور . فالواقع ان الانسان ليرحب بالشبع من النعيم وهو شاكر كما يرحب بالشبع من المائدة وهو شاكر ، وترتفع المائدة فلا يحزنه أن ترتفع بعدما استوفى صنوفها وروى احشاءه من طعامها وشرابها وهنأ حواسه جميعا بما استطاع ان يلتهم من دسمها وحلواها ، ومن شبع من الروضة

زهرا ولونا وأريجا وظلا فلابد أن يشوقه أن يغمض عينيه ليشبع منها خيالا ومراجعة ويضع لها صورة مجملة يتأملها ويستبقيها ، ويفسح لها مكانا من متحف النفس تأوى اليه أبد الآبدين بنجوة عن الواقع وطوارق الاحداث : انتهى السرور الظاهر فليبدأ السرور الباطن ، وذهب السرور العابر فليبق السرور الدائم ، وتم السرور الذى يملكنا ويؤثر فينا فلننظر فى السرور الذى نملكه ونؤثر فيه

وهكذا ودع همام يومه شبعان جد الشبع ، قانعا اوفى ما تكون القناعة فى تركيب أبناء الفناء ، مستريحا الى الوداع كما يستريح الشاكر المكتفى لا كما يستريح السائم الملول ، واغمض عينيه على فراشه تلك الليلة يستعيد ويستجمع ويستمرىء ويتحدى النوم وهو مقبل اليه :

أيها النوم أتحدى احلامك ان تعطينى فوق ما أخذت اليوم فى صحو اليقظة ... وأنا كاسب الرهان على الحالين ...



وتوالت المواعيد بعد الزيارة الاولى على تباعد بينهما فى مبدأ الامر ، ثم على تقارب يوشك ان يكون بلا انقطاع

الا انهما اتفقا على أن ينذرا سحابة يوم الجمعة لخلوة كاملة لا مشاركة فيها ولا يعوقهما عنها عائق

فيوما على رمال الهرم ، لانها تريد أن توقظ الفراعنة !

ويوما على القناطر الخيرية ، لانها تريد أن تحاسب النيل العتيق على عرائسه الغريقات

ويوما على زورق بين روض الفرج والروضة ، ويوما فى حلوان ويوما عند آثار صقارة ، ويوما فى صحراء الماظة ، ويوما فى جوار عين شمس والمطرية . فان لم تكن رياضة خلاء فعكوف فى المنزل من الصباح الى المساء ، وذلك أمتع الايام

يخلو المنزل نهارها فلا طاهى فيه ولا خادم ولا نزيل غير سارة وهمام ، وقد جعلا خدمة المنزل فى ذلك اليوم شعائر مقدسة كالشعائر التى يتولاها الكهان ، فهما يتبركان بها ولا يخجلان منها : هى فى يدها المكنسة وهو فى يده سكينة التخريط ... أو هى تمزج الحلوى وهو يقلب الآنية على النار ... أو هى تملأ الاطباق وهو ينقلها الى المائدة . حتى اذا حان وقت الطعام مثلت الى جانب المائدة فى وقار وخشوع وقالت : انتهى دور الخدمة . فتفضلوا أيها السادة

وتتسرب الى المنزل أنباء الاصيل بالاستقراء لا بالمشاهدة فى معظم الايام ، فيقرآن أو يسمعان بعض الاغانى ، أو يلعبان « الدومينة » قليلا وهى لعبة تحذقها سارة ويعتقد همام انها أصح الالعاب وأشدها مطابقة للحياة

فالشطرنج والضامة يعولان على الحيلة وكل شىء فيهما مكشوف بعد ذلك ، والنرد يعول على المصادفة والذكاء وكل شىء فيه مكشوف بعد ذلك ، والورق اما مصادفة واما صراع قلما يشبه صراع الحياة

أما « الدومينة » ففيها حساب للمصادفة وفيها حساب للتدبير وفيها حساب لليقين وفيها حساب للظنون ، وفيها

حساب للغيب الذى تجهله أنت وخصمك وللغيب الذى تجهله أنت ويعرفه خصمك أو يجهله هو وتعرفه انت ، وللعيـــان الذى يعرفه كل من يشاء ، ولها قوانين تمنعك أن تتحرك على هواك ، ولها حرية تمنحك الخيار بين مافى يديك

قالت سارة يوما بعد ما استعادته شرح « فلسفة الدومينة» للمرة الخامسة أو السادسة أو السابعة : أو لا تستمتع بشىء الا أن تكون له فلسفة ؟

قال : لا . بل أنا أستمتع بالشىء ثم أبحث عن فلسفته ، واننى لابحث عن فلسفته كما يجيل الشارب الكأس فى جميع جوانب فمه ولهواته ، كى لا يبقى جانب من النفس لا يأخذ نصيبه من متـاعه . فأحســه وأعمله وأذكره وأفكر فيـــه واستقصى معناه !

وامثال هذه الاسئلة كانت تصدر منها كما يسأل الصبى أباه الشيخ فى دالة ومحبة ، أو كما يفتش المالك منزلا دخله واستولى عليه فراح يسأل عن كل صغيرة وكبيرة فيه ، فما كان فى تلك الاسئلة فضـــول غريب ولا تهجم واغل ، ولكن السائل والمسؤول عنه هما جزء من مكان واحد تدور عليهما أسواره وتحتويهما جدرانه ، ويتفقد فيه من يشاء ما يشاء ، ولا فضول ولا اقتحام

لماذا هام بها؟

حواء أخرجت من جنة ، وبنـــــاتها كل يوم يخرجن من جنات ... فهل المرأة ضرة الجنة تغار منها غيرة الضرائر ؟ لا ندرى . ولكنها هى المرأة ابدا لا تريد للرجل أن ينعم بغير نعيمها ، أو يسعد بغير سعادتها . وليس يعنيها أن تفرح معه كما يعنيها أن تكون سبب فرحه وينبوع ســعادته دون كل ينبوع . وربما أرضاها أن تكون سبب ألمه والمها ، ولم يرضها أن تشاركه السعادة الوافية ، ان كان للسعادة سبب سواها

كان همام قانعا بالمودة الهنيئة الوادعة بينه وبين سارة : ان حضرت سره حضورها ، وان غابت لم يغضبه غيـابها ، لا يفرض عليها حقا ولا يحسب انها تفـــــرض حقا عليه ، ويتصلان وينفصلان ولاقلق فى الامر ولااستطلاع ولااستكراه : لها وقتها كله وله وقته كله ، الا ما يشتركان فيه من الوقت فهو لهما على السواء ، بلا اقتسام ولا جور ولا اعتداء

غير أن « سارة » لم يعجبها هذا الجدول المترقرق المنساب وأبت الا أن تراهشلالا يعجويثور ، ويضطربويمور ، فنصبت فيه الحواجز واقامت فيه الصخور

كان يسألها فى مبدأ العلاقة بينهما عن الموعد المقبل فتــذكر له يوما ويذكر هو أن ذلك اليوم يوم زيارة صـــــديق أو يوم شهود احتفال أو يوم عمل من الاعمال التى تشغله عن اللقاء ، ويرجوها أن تنظر فى تأجيل الموعد ، فلا يعجبها ذلك

وكانت تستعجل الانصراف فى بعض زياراتها وتعتذر اليه بموعد أو بمصلحة أو بما شابه هذه المعاذير ، فيأذن لها ولا يمسكها ، فلا يعجبها ذلك !

وقالت له يوما بعبارة صريحة انه لو « أمرها » بالبقاء لبقيت وهي مسرورة

وقالت له أياما أنه لو فضل موعدها على كل موعد غيره لفهمت أنها أثيرة عنده وأن لقاءها محبب اليه مفضل لديه ، فلما قال لها انه يفضل لقاءها على غيره اذا كان حرا فى الارتباط بهذا أو بذاك قالت هذه حجج يحتج بها الرجال حين لايريدون وينبذونها حين يريدون ، وانه لو ترك من اجلها ميعادا لتركت من أجله مواعيد

واستباحت لنفسها رويدا رويدا أن تفتش فى أوراقه الخاصة وهو لا يمنعها . فعثرت فيها مرة بصورة فتاة هيفاء ممشوقة القوام فى غلالة تنم على محاسن بدنها وانسجام أوصالها . فصاحت به عابسة : ما هذه ؟

وكان همام قد نسى الصورة ونسى أنها هناك . فنظر اليها وقال بغير اكتراث : فتاة راقصة

غير انه لاحظ أن سارة لم تؤخذ بجمال الفتاة كما أخذت بنوع جمالها ، فلو كانت أجمل مما هى مائة مرة وكانت تشبه سارة فى بضاضتها لما راعها أن تعثر بصورتها هناك تلك الروعة التى بدرت منها فى صيحتها العابسة . لكن الفتاة هيفاء ، جميلة الهيف ، وليس فيها ما يعيب بعض النحيفات من هزال

وقلة اعتدال ، وطلعتها مع ذلك طلعة راقصة كسائر أوصالها تكاد تنضح بالخفة والنغم

وقدكانت نوبة النحافة والتنحيف يومئذ فى بدايتها وفى ابانها ، وكانت سارة تروض بدنها رياضة قاسية لتخف وتستوى على طراز الجمال الحديث ، فكان هذا جميعه مما ضاعف اهتمامها بالفتاة وألهب فضولها

قالت : وفيم تحتفظ بها ؟

قال : صورة فنية جميلة ، كأنها تمثال ، كأنها تحفة

قالت وهى تنظر الى توقيع الفتاة وخطها الركيك . ولماذا هذا التوقيع ؟ ولماذا لم تقرنها بثانية وثالثة ورابعة ؟ أهى الراقصة الوحيدة التى راقك جمالها ؟

قال : ان كان لا يقنعك الا مجموعة كاملة من صور الراقصات فليس فى الامر صعوبة ... ثم قال : لو علمت يا خبيثة مقدار ما وهبك الله من حدة الذكاء لأنفت أن تغارى من صاحبة هذه الصورة وأنت ترين « أميتها » ماثلة فى خطها

قالت : أو تظن أننى أبتهج بأن تحبنى لحدة ذكائى وتحب هذه الراقصة لما ... لما لست أدرى ما أنت واجد فيها ؟

قال : أنا لا أحبها ..

قالت : أصحيح ؟ اذن هل أنا فى حل من تمزيق الصورة ؟

قال : لا أمنعك ولكنها خسارة

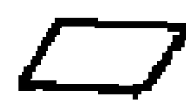
قالت : أهى خسارة أم تخشى أن تسألك عنها صاحبتها ! اننى لا أنافس الراقصات ياسيدى ! فاحتفظ بالصورة كما

تهوى ، ولكن أرجوك أن ترد الى صورتى . فلست أختار لها أن تقيم هنا وأمثال هذه الصور فى مكان واحد .

فكبر الامر على همام ، وأحس لأول مرة أن فراق سارة يثقل عليه ، فقال لها : ان كان لايريحك الا أن تمزقى الصورة فمزقيها ...

فما أمهلته أن يتم الجملة حتى قبضت على الصورة تمزقها كل ممزق كأنها تضمر لصاحبتها ضغينة وهى لم ترها ولم تسمع باسمها ، ولا يذكر همام أنه بصر بامرأة تفرح هذا الفرح بتمزيق ورقة الا امرأة جاهلة أسلمها الساحر المشعوذ لفة من الورق زعم انها هى الرقية التى كتبتها لها الضرائر ليبتلينها بالسقم فى جسمها والنكد فى عيشها . فمزقتها وكأنها تود أن يصير جسمها كله ايديا تشترك فى تمزيقها

وهكذا أخذت تحاسبه واخذ يحاسبها ، وشعر بالتضييق عليه ولكنه لم يضجر منه ولم يتبرم بالباعث اليه ، وأنشأ يتعود أن يفكر فيما تصنعه وفيمن تلقاه أثناء غيابها ، ويتعود أن يسألها وان يتحرى حركاتها ... وفرغ لها فوقع فى روعه أن لايقنع منها بما دون الاستئثار والتفرد ، وانقلب الجدول الهادىء المنساب رويدا رويدا فغاب فيه الحمل الوديع وبرز منه الاسد المتحفز ، ولو ظل كما كان جدولا وديعا لصفا واسترسل . أو لانتهى كما ينتهى النهر الى مصبه فى رفق وسخاوة



ذلك سبب من أسباب الهيام وقلما يكون الهيام لسبب واحد

ومن أسبابه الكثيرة لذة الاستكشاف الدائم المصحوب بالتجديد والتنويع ، فان الرجل ليسره أن يستكشف المرأة ، ويسره أن لايزال واجدا فيهاكل حين ميداناجديدا للاستكشاف، ويسره أن يراقب المراة وهى تستكشفه وتتخذ لها منسربا الى عواطفه ، وترفع من دخائله حجابا وراء حجاب ، ويسره أن يستكشفا الدنيا معا والناس معا والطبيعة معا بروح مركبة من روحين وجسد مؤلف من جسدين ، وضياء كله شفوف وتجديد وآفاق تنساح الى آفاق

فان وقف الاستكشاف ولم يتجدد من جانب الرجل ومن جانب المرأة فقد يكون سببا للسآمة والعزوف لا سببا للشغف والهيام

ان المرأة فى استكشافها الرجل لكمن يجوس خلال الغابة المرهوبة ليهتدى أولا وآخرا الى موطن الرهبة منها ووسيلة الطمأنينة الى تلك الرهبة ، ثم يرتع فى صيدها وثمرها ويشبع من مظاهر العظمة والفخامة فيها

وان الرجل فى استكشافه المراة لكمن يجوس خلال الروضة الأريضة ليهتدى الى مجتمع الظل والراحة والمتعة والحلاوة بين الفافها وثناياها . فهو يستكشفها ليعرف أحلى ما فيها وهى تستكشفه لتعرف أرهب ما فيه . ثم تصبح الروضة روضة وغابة ، وتصبح الغابة غابة وروضة ، ويقوم حواليهما سور واحد يشعران به اذا خرجا الى الدنيا ، ولا يشعران به وهما بنجوة منها

وكان همام وسارة يتكاشفان كل يوم ولا يخفيان انهمـــا يتكاشفان ، بل يتحدثان بما يعن لهما من شأنها وشأنه كأنهما رحالتان فى نزهة طويلة ، يشتركان فى مراجعـة عمل النهار كلما سكنا الى ظلال الخيمة فى ظلام المساء

كان يراقبها فى نفسها ويراقبها فى نفسه : كان يرى المرأة المرحة الطروب وهى تلهو وتعبث ، ويرى المرأة الكســـيرة المطواع وهى تلتمس الامان والعزاء ، ويرى الانسانة الفطرية وهى تطيع الغريزة وتلبس « دورها » على مسرح الطبيعة بين نباتها وحيوانها ومكانها وأهوائها ، ويرى المرأة الذكية وهى تقرأ النثر والشعر وتنتقد الصور المتحركة،ويرى المرأةالعصرية وهى تتغلب على امرأة الجيل الغابر فى ميدان ، وتخضـع لها وتنهزم أمامها فى ميدان ، ويرى من وراء ذلك جميعه وفى خلال ذلك جميعه المرأة الخالدة التى لاتتحول ولا تتبدل ، والانثى السرمدية التى يهمها من « الذكر » الحماية والجاه قبل كل شىء وبعد كل شىء . ولا يهمها العقل والرجحان والفضـــائل والمناقب الا لانها وجه من وجوه الحماية والجاه

لقد أكبرته كثيرا وهى تسمع الثناء عليه فى مجالس اناس من علية الناس لا يعلمون ما بينهما من صلة ، ولا يستريحون اليها لو علموها

ولقد أكبرته كثيرا وهى تقرأ له أسفار النوابغ من أساطين الاقدمين وفحول المحدثين الغربيين ، وهو يعقب على ما يسمع بكلمة هنا وكلمة هناك ، ويناقش لها ما يبـــدو انه حقيق

بالمناقشة . وليست هى من الجهل بحيث يخفى عليها سداد مناقشاته ، وليست هى من قلة الثقة به بحيث تغلق المنافذ على ذهنها مكابرة وتقليدا كما يفعل العامة الجامدون ، وليست هى من العلم بحيث تفهم أن نوابغ الغرب كائنة ما كانت أقدارهم وبالغا ما بلغ صيتهم واشتهارهم خاضعون للنقد قابلون للتشريح والتصحيح ، بل هى قد نشأت نشأتها الاولى على تقديس هؤلاء النوابغ والعلو بهم الى مرتبة العصمة والتأليه ، فاذا بدهتها الملاحظة ولم تجهل سدادها فغرت فاها الصغير وحملقت بعينيها الواسعتين كما تفعل الطفلة وهى تتفرج على منظر طريف . وجال فى قلبها أكبار تعبر عنه بكل ما تستطيع من علامات التحبب والتدليل

الا أن شيئا من ذلك ـ فى مدى السنوات الطوال ـ لم ينعشها ولم يلمس كوامن أنوثتها ولم يقدح (١) من سرورها به وحنينها الى جواره مثل ما نعشها وسرى فيها وتجلى عليها فى حادثة عرضية حدثت ذات مساء فى مركبة من مركبات الاجرة بين الزمالك والجزيرة :

كانت المركبة تسير على مهل والحوذى قد غفل عن اشعال مصابيحها بعد مغيب الشمس ، فصدمت واحدا من ثلاثة أو أربعة من رجال الضبط كانوا يتمشون على ساحل النيل فى محاذاة العوامات والذهبيات ، وذلك جرم من الحوذى تضيق عنه رحمة الله ! فان كل شيء ليجوز للحوذى الغافل الا أن

---

(١) قدحه : اخرج ناره

يصدم السادة « رجال الضبط » وهم هم أصحاب الحول والطول والقول الفصل في الخيل والمركبات والسيارات والحوذية والساقة ومايحملون ومن يحملون !.. فاذا كان ذلك فى أثناء « تأدية وظيفة » كما يسهل القول والاثبات فويل يومئذ للمسكين ! ثم ويل يومئذ للمسكين ... انه لذاهب من الدار الى النار وماله من شفيع

وقد كان أصاب الغافل الاثيم جزاءه اليسير فى سرعة لا تليق بمركبات الخيل ولو كان لها مائة حصان ، فجذبه « رجال الامن » من مقعده الرفيع وصافحوا صدغيه بكل ما وسعته الكفوف من مران على هذا الضرب من المصافحات ، وجعل الرجل يستغيث ويعتذر ويتوسل ولا جواب له الا ضربات متداركات تتبارى فيها الألسنة والكفوف

وطال الخصام ولاح لهمام أنه لا يؤذن بختام ... فلم يجد مناصا من النزول والسعى فى الاصلاح . ولم يغب عن باله أن اللجاجة قد تفضى برجل الضبط « المعتدى عليه » الى كتابة محضر واستدعاء شهود ، وانه سيكون لا محالة واحدا من هؤلاء الشهود . فاذا أفضى الامر الى ذلك فقد كان ينوى أن يعطيهم عنوانه ان قنعوا به ، أو يصاحبهم بعد أن يحتال فى صرف سارة وابعادها عن القضية ما استطاع

على أن المسألة لم تلجىء الى شيء من ذاك ، ولم تستغرق أكثر من دقيقة أو دقيقتين ، فقد كان «رجال الضبط» ظرفاء رقاق الحاشية يعرفون هماما بالرؤية والسماع وان لم تجمعهم

به صداقة . فتلطف أكبرهم وحيى هماما بلقبه دون اسمه ، واتجه الى الحوذى بعد أن صفعه الصفعة الاخيرة . . . واسلمه الرخصة المنزوعة . . . وهو يهنئه بالسلامة . اكراما للرجل الذى معه لا اكراما لامه وأبيه اللذين من صفاتهما كيت وكيت ، كما علم قبل ذلك على ما يظهر

لم تكن سارة من السذاجة بحيث تفرق من محذور هذه الحادثة ، ولم تكن من قلة الحيلة بحيث تعيى بتدبيرها ان ساءت الجريرة وقد أفهمها همام قبل نزوله من المركبة أن اتقاء المحذور سهل من « الوجهة الرسمية » . . . وقد سبق لهما أن تعرضا معا لمهاجمة بعض العاطلين الذين يأخذون الطرقات على المارة فى الضواحى البعيدة رجاء المساومة على ما يحسبونه من الفضائح الغرامية . فنظرت اليهم غير حافلة وتركت هماما يزجرهم وينهرهم ليعلموا أن لا رجاء فى مساومة ولا خوف من فضيحة . فلم يكن سرورها بصاحبها تلك الليلة سرور النجاة من مأزق مخيف والفزع من عاقبة محذورة ، وانما كان سرور المرأة بالحماية والثقة والاستسلام وهى مغمضة العينين

فلما عاد همام الى المركبة واستوى فى مكانه فيها لم تزد على ان زحفت الى جانبه واستكانت الى جواره وتطامنت فى حضنه تطامن الفرخ فى حضن أبيه ، وهمست تحت أذنه وهى تمسح خدها بخده ما أسعدنى بجوارك سيدى ومولاى . . . وكانت تلك أول مرة دعته فيها تلك الدعوة ، وكان ذلك كل

مافاهت به من تعبير عن سرورها وما كانت فى حاجة الى أن تزيد ... فقد كان شعور همام بسرورها النـــاعم المرفرف الشكور غنيا عن كل كلام

وعرف همام انها استكشفته وطبعته فى صفحة المحاكاة عندها بعد فترة وجيزة ، فجعلت تحكيه وتمثـــله فى ضحكه وحديثه وتأمينه الصامت ، واعتراضه بالاشارة ، وردوده وهو مشغول ، وردوده وهو حاضر القريحة . وتعقد أحيـــانا محادثة طويلة بينها وبين نفسها . تتكلم فيها مرة بصـــوتها واسلوبها ومرة بصوت همام وأسلوبه ، فتجيـــد المحاكاة فى اللهجة والتفكير اجادة لا يعيبها الفرق بين الصوتين والجسمين والهيئتين ، بل يزيدها ملاحة على ملاحة

وانها لقد عرفت منه بزكانة المراة فى شهر واحد ما لم يعرفه أصدقاؤه وخلطاؤه فى أعوام . فتقول له ان الزوبعـــة منك لا تخيف ولا تطول بمقدار ما يخيف الاستقرار الذى بطل فيه التردد وخلا من كل هياج وكل ثورة ، وتقـــول له : اننى اذا أردت أن اهزمك لم ابرز لك بسلاح ولم البس لك شـــكة الحرب ، فأقودك من اذنيك



وما زالا يتكاشـــفان ويتكاشـــفان حتى علما أنهما مكشوفان لا يتواريان فى جنة لا ينبت فيها ورق التين . فكان هـــذا التكاشف سببا ثانيا من أسباب هيام همام ، وقلما ينحصر الهيام فى سببين اثنين !

نعم . فقد كانت لهيامه بها أسباب مختلفات ، بعضها محدود واضح المعالم وبعضها مزيج من شتى أسباب لا تتضح لها حدود

فمن تلك الاسباب الواضحة انه كان يحس احساسا شديدا ان توديع هذه العاطفة قد يرادف فى معناه توديع الحياة

لأنه تعلق بها وهو فى العقد الرابع من عمره . فاذا انقطع ما بينه وبينها فمن له بفتاة تخلفها فى مثل ذكائها ونضارتها وموافقتها ؟ واذا وجد الفتاة فمن له بالقلب الذى يلبى دواعى الصبا وينزع منازع الفتوة ويتقد ويخبو على حسب المشيئة ، ويغامر اليوم فى عاطفة مرجوة وقد كان بالامس فى عاطفة يائسة مضيعة ؟

ان خبت هذه العاطفة فهى جذوة الغرام الاخيرة ، وعليه أن يذكيها ويرعاها كما كان الاقدمون يرعون الشعلة المقدسة مخافة أن تنطفىء فلا يستعيدوها ، قبل أن يحذقوا صناعة الزناد والثقاب

ومن أسباب هيامه بها ألفة متغلغلة فى أنحاء النفس والجسد كألفة المدمن للعقار المخدر : من شاء أن يسميها حبا فهو صادق ، ومن شاء أن يسميها بغضا فهو صادق ، ولمن شاء أن يزعم أن المدمن يتعاطى عقاره وهو راغب فيه . ولمن شاء أن يزعم أنه يتعاطاه وهو ساخط عليه . فقصارى القول أنه يتعاطاه ، وان الاقلاع عنه يكلفه جهد الطاقة وغاية المشقة

ومن الحق ان نذكر هنا أن الرجل يعشق الانثى فى مبـدأ الامر لانها امرأة بعينها : امراة بصفاتها الشخصية وخلالهاالتى تتميز بهابين سائر النساء، ولكنه اذا أوغل فى عشقهاوانغمس فيه أحبها لانها «المرأة» كلهاأو المراة التى تتمثل فيها الانوثة بحذافيرها وتجتمع فيها صفات حواء وجميع بناتها ، فهي تثير فيه كل ما تثيره الانوثة من شعور الحياة . وأى شعور هو بعيد من نفس الانسان فى هذه الحالة ؟ ان الانوثة لتثير فيه شعور القوة ، وشعور الجمال ، وشعور اللذة ، وشعور الألم ، وشعور الجموح والانطلاق من قيود المنطق والحكمة ، وشعور الانسان كله ، وشعور الحيوان كله ، بل تثير فيه حتى الشعور بما وراء الطبيعة من اسرار مرهوبة ومن اغوار لا يسبر مداها فى النور والظلام: لأن المرأة حين تمثل الأنوثة هى مناط الخلق والتكوين، وأداة التوليد والدوام والخلود ، وهى مظهر القوة التى بيديها كل شىء فى الوجود وكل شىء فى الانسان



وكذلك تجمعت اسباب الهيام من ألفة الى متعة الى تفاهم الى اتفاق فى أمور ، الى اختلاف فى امور غيرها ،حتى استحكمت أواصر الملازمة ، وتلاحمت وشائج الفتنة . فلما انشأ يحاسبها على حقوق الوفاء ، ويتقاضاها أمانة الاخلاص ، لم يكن ذلك غلوا منه فى تنزيه العصمة الانسانية ولا غلوا منه فى تنزيه عصمتها ، ولكنه حاسبها ذلك الحساب لانه حتم لا مندوحة له عنه ، ولأن السكوت عنها كان أشق عليه من حسابها

والا فماذا هو صانع ! ايفارقها ؟ ذلك عسير !

أيستبقيها على أن يكون لها وحدها ولا تكون له وحـده ؟ ليس ذلك بيسير !

وهكذا يتفق أن يحاسب الرجل المرأة بميزان الملائكة ، وهو لا يستبعد منها غدر الشياطين .



حبان

. اذا ميز الرجل المرأة بين جميع النساء ، فذلك هو الحب

اذا أصبح النساء جميعا لا يغنين الرجل ما تغنيه امرأة واحدة ، فذلك هو الحب

اذا ميز الرجل المرأة لا لأنها أجمل النساء ، ، ولا لأنها أذكى النساء ، ولا لأنها أوفى النساء ولا لأنها أولى النساء بالحب ، ولكن لأنها هى هى بمحاسنها وعيوبها ، فذلك هو الحب

وقد يميز الرجل امرأتين فى وقت واحد · لكن لابد من اختلاف بين الحبين فى النوع ، أو فى الدرجة ، أو فى الرجاء

فيكون أحد الحبين خالصا للروح والوجدان ، ويكون الحب الآخر مستغرقا شاملا للروحين والجسدين

أو يكون أحد الحبين مقبلا صاعدا ، والحب الآخر آخذا فى الادبار والهبوط

أو يكون أحد الحبين مقبلا صاعدا ، والحب الآخر مشوبا باليأس والريبة

أما أن يجتمع حبان قويان من نوع واحد فى وقت واحد فذلك ازدواج غير معهود فى الطباع · لأن العاطفة لا تقف دون المدى ولا تعرف الحدود ، واذا بلغت العاطفة مداها جبت ما سواها !

وقد كان همام يحب امرأة أخرى حين التقى بسارة فى بيت ماريانا : يحبها الحب الذى جعله ينتظر الرسالة أو حديث التليفون كما ينتظر العاشق موعد اللقاء ، وكانا كثيرا مايتراسلان أو يتحدثان ، وكثيرا ما يتباعدان ويلتزمان الصمت الطويل ايثارا للتقية واجتنابا للقال والقيل وتهدئة من جماح العاطفة اذا خافا عليها الانقطاع . ولكنهما فى جميع ذلك كانا أشبه بالشجرتين منهما بالانسانين ، يتلاقيان وكلاهما على جذوره ، ويتلامسان بأهداب الاغصان ، أو بنفحات النسيم العابر من هذه الاوراق الى تلك الاوراق ..

كانا يتناولان من الحب كل ما يتناوله العاشقان على مسرح التمثيل ، ولا يزيدان

وكان يغازلها فتومىء اليه بأصبعها كالمنذرة المتوعدة ، فاذا نظر الى عينيها لم يدر أتستزيده أم تنهاه ، ولكنه يدرى أن الزيادة ترتفع بالنغمة الى مقام النشوز

وكان يكتب اليها فيفيض ويسترسل ، ويذكر الشوق والوجد والامل ، فاذا لقيها بعد ذلك لم ير منها ما ينم على استياء ، ولم يسمع منها ما يدل على وصول الخطاب ، وانما يسمع الجواب باللحن والايماء دون الاعراب والافصاح

وربما تواعدا الى جلسة من جلسات الصور المتحركة فى مكان لا غبار عليه ، فيتحدثان بلسان بطل الرواية وبطلتها ، ويسهبان ما احتملت الكناية الاسهاب . ثم يغيران سياق الحديث فى غير اقتضاب ولا ابتسار

وكانا أشبه بالنجمين السيارين فى المنظومة الواحـــدة ، لا يزالان يحومان في نطاق واحد ، ويتجاذبان حولمحور واحد، ولكنهما يحذران التقارب . . . لأنه اصطدام !

ولم تكن هند ـ وليكن اسمها هندا ـ لتعتقد الرهبانية فى همام ، ولا لتزعم بينها وبين وجـــدانها أنه معزول عن عالم النساء ٠ غير أنها لم تكن تحفل اتصاله بالنساء ما داماسمهن نساء لا يلوح من بينهن اسم امرأة واحدة،وشبحغرام واحد . فان اسم النساء في هذه الحالة لا يدل على معنى ، ولا انتقاص فيه لما بينهما من رعاية واستئثار

فلما شعرت بأن النساء تحولن عنده الى امرأة لها شأن غير شؤون أخواتها من بنات حواء زارته على حين غـرة فى مكتب عمله ، وهى الزيارة الاولى والاخيرة من قبيلها ، ولم يكن لهـا مسوغ من طول الغيبة ولا امتناع الحديث فى التليفون ٠ فما شك لحظة فى غرض الزيارة ولا فى باعثهـا ، وتوقع منها عتبا عنيفا على أسلوبها فى التعبير الصامت المبين ، ولكنه علمسلفا أنها غير منصفة فى عتبها ، لأنه لم يختلس منها شيئا هومن حقها عليه . فرحب بها وأبدى لها استغرابه لزيارتها وابتهاجه بسؤالها عنه ، وأنصت مترقبا ٠٠٠ فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج :

ـ لست زائرة ولا سائلة !

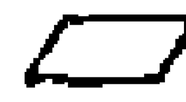
قال : اذن . . .

ولم يتمها لانها نظـرت اليـه كمن يستحلفـه أن لا يتكلم . وانحدرت من عينيها دمعتان

فما تمالك نفسه أن تناول يدها ورفعها الى فمه يقبلهاويعيد تقبيلها ، فمانعته ولم تكفف عن النظر اليه • ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة : وهى تتمتم هامسة : دع يدى • ودعنى ! ثم انصرفت بعد أن سكن جأشها وزال من صفحة وجهها أثر الدموع .

لو جاءت هذه الزيارة وهمام فى بداية العلاقة بسارة لما كان بعيدا أن تقضى على تلك العلاقة ، وأن ترد سارة اسما مغمورا فى عامة عنوان النساء

بيدأنها جاءت وقدأوغلت العلاقة بينهما ايغالها الذىلاتراجع فيه،وصمدت على طريقها تعدو مع الايام عدوا لاتنظر فيه الى الوراء • وفسح لها الطريق ان هماما لم يكن يوغل فيها مثقلا بتبكيت ضمير • لانه لم يخن هندا ولم يقصر فى حقها عليه ، ولا وهم أنها تغضب من أمر لا عهد بينه وبينها فيه



ولقد كانت سارة وهند على مثالين من الانوثة متناقضين : كلتاهما أنثى حقا لا تخرج عن نطاق جنسها ، غير أنهما من التباين والتنافر بحيث لا تتمنى احداهما أنتحل محل الثانية، ويوشك أن تزدريها

ماذا أقول ؟ بل لعلهما من التباين والتنافر بحيث تتمنى كلتاهما قبسا من طبيعة الاخرى ، لولا أنها تنكر الاعتراف بذلك بينها وبين نفسها ، فتسمح للتمنى أن يستحيل الى نفور

فاذا كانت سارة قد خلقت وثنية فى ساحة الطبيعة فهند قد

خلقت راهبة فى دير ، من غير حاجة الى الدير !!

تلك مشغولة بأن تحطم من القيود أكثر ما استطاعت،وهذه مشغولة بأن تصوغ حولها أكثر ما اســتطاعت من قيود ، ثم توشيها بطلاء الذهب ، وترصعها بفرائد الجوهر

الحزن الرفيع والالم العزيز شفاعة عند هند مقبولة اذا لم تكن هى وحدها الشفاعة المقبولة • أما عند ســـارة فالشفاعة الاولى بل الشفاعة العليا هى النعيم والسرور

تلك يومها جمعة الآلام ، وهذه يومها شم النسيم

تلك تشكو ويخيل اليك أنهـــا ذات أرب فى بقاء الشرور تستديم بها معاذير الشكوى ، وهذه تشكو كما يبــكى الطفل لينال نصيبا فوق نصيبه من الحلوى

تلك مولعة بمداراة نقائصها لتبــدو كما تتمنى أن تــكون ، وهذه مولعة بكشف نقائصها لتمسح عنها وضرالخجل والمسبة، وتعرضها فى معرض الزينة والمباهاة

تلك لها عدة المتانة والمجاملة ، وهذه لها عدة الرخاصـــة والبساطة

لو عملت تلك عمل الرجال لانتظمت فى السلك السياسى ، ولو عملت هذه عمل الرجال لانتظمت نديما فى حاشــية أمير مفراح

كلتاهما جميلة ، ولكن الجمال فى هند كالحصن الذى يحيط به الخندق . أما الجمال فى سارة فكالبســتان الذى يحيط به جــدول من المـــاء النمير ، هو جزء من البسـتان لا حاجز دون

البستان ، وهو للعبور أكثر مما يكون للصد والنفور

تلك ذات طموح وهمم ، وهذه تحسب الواقع الذى يوائمها خيرا وأشهى من كل مطمع ومن كل همة

تلك تعطيك خير ما أعطت على البعد والحيطة ، وهذه تعطيك خير ما أعطت على القرب والسرف

كلتاهما ذات ثقافة وألمعية ، لكن ثقافة هند الى المعرفة ، وثقافة سارة الى الفطرة

ولو نسينا العرف والاصطلاح لحار الانسان أيهما اقوم فى السجايا والاخلاق . ولكن الذى لا ريب فيه ولا حيرة فيه أن سارة أرجح وأصلح قبل أن ينزل التكليف على أبناء آدم وحواء، وأن هندا أرجح وأصلح حيثما نزل تكليف ... أى تكليف !



وما زالت الصور النسائية تتوارى وتتهافت فى بديهة همام حتى احتجبت كل صورة الا هاتين الصورتين المتقابلتين : احداهما قائمة فى محراب ، والاخرى باثقة كالزهرة من زبد العباب ..! وتعاقبت الايام فأصبحت احداهما صورة فنية نفيسة لا تقوم بمال ومثلت الاخرى كما كانت تمثالا من لحم ودم



وكانت سارة لا تعلم من شأن هند الا أن هماما يعرفها ويكبرها ويزورها حينا بعد حين . فكانت تتبرم بهذه الزيارات، ثم كانت تتوخى أن تغويه وتشغله فى اليوم الذى يختاره لزيارة هند ... فيؤجل الموعد لانه لم يكن فى الحقيقة بموعد ، ولان

البعد يمنع الاتصال بسارة وما عندها من سرور ، ولكنه لايمنع الاتصال بهند فى ذلك اليوم ، وفى كل يوم



وراح همام ينسرق من نفسه وهو يدرى تارة ولا يدرى تارة أخرى ، حتى ابتلعته اللجة وشغلته سارة عن كل شاغل ، أو أصبحت على الاصح ممزوجة بكل شاغل • فبعد أن كانت فى بداية التعارف بينهما واحدة من ألوف وملايين يشملهن عنوان النساء مفضلة ان حضرت ، وتغيب فيغنى عنهـا من حضر ـ عادت وهى الواحدة وحدها لا يغنى عنها سواها . وعاد همام ينظر الى النساء فى الطرقات ويوشك أن يسأل جدا وصدقا : ما بال هؤلاء ؟ ولماذا خلقن ؟ ومن ذا الذى ينظر اليهن ؟



لماذا أشك فيها؟

اثنان لا يشكان فى المرأة التى يحبانها ، وباب الشك فيها مغلق عندهما :

شاب فى مقتبل أيامه ، مخدوع فى أحلامه ، مؤمن بقداسة الحبيبة على منـوال عصـور الفروسية . يرتفع بها الى سماء الطهر ، ويكبرها أن تخون ويكبر نفسـه فى الحقيقة أن يخـان ! ويسمع منها انها تمحضه الحب وتخلص له الولاء فلا يدور بخلده أنه يسمع كلاما يحتمل الصدق والكذب ، ويجوز فيـه الغلو والتزويق . ويتعاهدان على دوام الصفاء بقيـة العمر كله فلا يخيل اليه أنهما يتعاهدان على مسـتحيل . لانه يتمنى ، ولا يفرق بين ما سيكون وبين ما يتمنى أن يكون

والآخر رجل مطموس البصـيرة مملوء الخياشيم بالغـرور والدعوى ، يؤتى اليه انه حسب المرأة من أمنية ومطمع ، فلا منصرف لها عنه ، ولا معدى لها الى غيره . والا فماذا عساها أن تبغى عند غيره ؟ انه رضى النساء من جمال واعتدال وقوة ومال . فاذا قنعت به فما هى بمظلومة ، وان لم تقنع به انها اذن لظالمة !

حسن ! ولكن ألا يحدث فى الدنيا أن تكون المرأة ظالمة ؟

كلا !! لان ذلك لا يسره !! وكفى أن لا يسره شىء من الاشياء حتى لا يكون ولا يجوز أن يكون !

ولم يكن همام بهذا ولا بذاك

لم يكن شابا فى مقتبـــل أيامه ، لانه جاوز الثلاثين وأوشك أن يصعد الى الاربعين

ولم يكن مخدوعا بهذا الضرب من الغرور ، لانه موكول الى ضروب أخرى من غرور النفوس ، مطبوع على أن لا يعلق قيمته فى معارض الفخر والمباهاة على رأى انسان من النساء ، أو من الرجال

وكان قد خبر من أحوال المرأة والرجل ماأقنعه أن الخيانة بينهما ليست من الصعوبة والامتناع بحيث يتوهمان • فما من رجل كبر أو صغر الا والمرأة واجدة بديلا منه يغنيها عنه فى جميع نواحيه أو بعض نواحيه : ان كان محبوبا ففى الرجال من هو أحب ، وان كان مهيبا ففى الرجال من هو أهيب ، وان كان جميلا أو سريا أو قويا ففى الرجال من هو أجمل وأسرى وأقوى • ولقد تستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، فليس من الضرورى أن تفاضل المرأة بين الحسن والأحسن والصـــالح والاصلح ، وليس من الضرورى – ان هى فاضلت – أن تكون مختارة مفتوحة العينين فيما تدع وفيما تأخذ • فقد تكون مخدوعة مسوقة ثم تستنيم الى الخديعة ، وقد تؤثر الرجل على الرجل شهوة طريق ، كما يذهب الانســـان الى غدائه فيلقـــاه مطعم يفغم أنفه ببعض روائحه فيميل اليه ، وقد يعافه فى غير تلك الساعة

وكان همام يعتقد أن الغش عند المرأة كالعظمة عند فصائل الكلاب ، يعضعضها الكلب المدلل ويدخرها حيث يعود اليها وان شبع جوفه من اللبن واللحم والاغذية المشتهاة • لان الوفا

من السنين قد ربت أسنانه وفكيه على قضم العظام وعرقها ، فهو يطلبها ليجهد أسنانه وفكيه فى القضم والعرق ولو لم تكن به حاجة الى أكلها

وألوف من السنين قد غبرت على المرأة وهى تخاف وتحتال وتراوغ وترائى وتلعب بمواطن الضعف فى الرجل حتى أصبح بعض النساء ممن قويت فيهن عناصر الوراثة وبرزت فى طباعهن عقابيل الرجعة ينشدن الغش التذاذا به وشحذا للاسنان القديمة التى نبتت عليه • ويسرهن أن يصنعن الشىء ويخفيهن ولو لم تكن بهن حاجة الى صنعه ولا اخفائه • لان المرأة من هؤلاء تشتهى العظمة بجوع عشرين ألف سنة ، وتشتهى اللحم واللبن بجوع ساعات .

ولقد عرف همام سارة فلماذا لا يعرفها غيره ؟ ولم يصعب عليه أن ينال عطفها فلماذا يصعب على غيره أن يناله ؟

انه لم يكن يستبعد الغش والخيانة ، وليس بين الشىء الذى لا يستبعد والشىء الذى يتوقع الا خطوة وعلامة محسوسة

على أن الانسان قد يتوقع الغش لفرط اشفاقه من الفقد والخسارة لا لفرط اتهامه وسوء ظنه

فالخزانة التى تتركها فارغة هى بعينها الخزانة التى تملؤها بالذهب والفضة والجواهر الثمينة ، لكنك تخشى على متانتها وهى حافلة عامرة ولا تخشى على متانتها وهى فارغة منسية

وربما خرج الرجل الواحد من المنزل تنتظره فيه أم حنون وزوجة قالية ، فاذا تأخر عن موعد الاياب فأول ما يخطر على

بال الأم ان ابنها قد أصابه مكروه ، وأول ما يخطر على بال الزوجة أن زوجها يعبث ويعربد ، ولا يمكن أن يكون الرجل الواحد رجلين فى الرشد والحصافة والقدرة على دفع الاخطار ، وانما اختلف التوقع باختلاف الشعور والخشية . فتتوقع الام المكروه لانها تخشى المكروه ولا تبالى سواه ، وتتوقع الزوجة العربدة لانها تخشى العربدة ولا تبالى سواها ، ولا يسوؤها أن يصاب زوجها البغيض كما يسوؤها أن يصيبها فى غيرتها وكرامتها الزوجية

لهذا أصبح همام يحذر الخيانة حين أصبحت هذه الخيانة شيئا يهمه ويشغل باله ، ولم يتأهب لنفيها كما تأهب لقبولها، ولم يكبح خواطره عن التمادى فى الظلم لانه علم أن ضمان العدل موجود لا يغفل !! وضمان العدل أن سارة عزيزة عليه ، فما هو بمستعد للتفريط فيها تجنيا عليها ومطاوعة لوهم عارض أو شبهة طفيفة ، وما هو بقادر على التفريط الا وقد أصبح وأمسى وليس له عن التفريط محيد .



خذوا أسرارهم من صغارهم ... وسر « سارة » انما طرق مسامع همام ـ أول ما طرقها ـ من لسان طفلها الصغير

كانا يتنزهان يوما فى أرباض القاهرة ومعهما طفلها الصغير ، فلعب الطفل ومرح وعدا وطفر ما شاء له مرح الطفولة ومرح المكان ... ثم اتجه ـ طفرة أيضا ـ نحو أمه وهو لا يدرى ماذا يصنع ، فاتخذ منها موقف العاشق المدله وجعل يفوه بألفاظ

من عبارات المناجاة والغزل والتحبب والتدليل لا تسمع الا بين عاشقين فى خلوة غرام ، وانطلق يرصها رصا كأنما يتلقاها من ملقن أو يتلوها من كتاب ، فصحا همام من حلمه الذى كان سادرا فيه على مهل وتكاسل كأنه لم يتبين بعدمعنى ما يسمع. وأسرعت هى فانتهرت الطفل انتهاراً شديدا وعنفت عليه وهى تبالغ فى نهيه أن يسترسل فى تمثيل دوره ، وأرادت أن توقع فى روع همام بغير اكتراث ظاهر أنها انما تزجر الطفل لبذاءة الكلام الذى يسرده لا لانها تكتم سرا يوشك أن يفضحه بثرثرته وهذره . فقالت : تلك مصيبة العشرة السيئة والقدوة المرذولة ... ما أدرى والله ماذا أصنع بهذا الطفل فى سنه الصغيرة ، فلا هو يصلح للمدرسة ولا هو يطيق الحبس والعزلة عن انداده وأترابه ، ولا هو يسلم من معاشرة هؤلاء الانداد والاتراب !

قال همام : ولكنك تعرفين أنداده وأترابه ، فمن منهم تحسبينه خليقا أن يعيد على مسمعه تلك العبارات ؟

قالت : ومن أين لى أن أعلم ؟ فقد يسمعونه من خادمة أو خادم فى أكنان الحدائق وزوايا الطريق

قال : أو هذا كلام خدم ؟ ان الخدم لا يصطنعون التدليل والغزل على هذا المنوال !

فسكتت وسكت ، وما فى ذهنه ذرة من الشك فى أن بعضا من ذلك الكلام الذى لغط به الطفل قد صدر من أمه ... لانه كلامها ، فكيف تسرب اليه ؟ ومن أين ؟

أن هماما ليذكر جد الذكر انهما لا يتخاطبان فى محضر الطفل

الا كما يتخاطب الرجل والمرأة فى المجلس المشهود ، وليس لسارة زوج يعيش معها ، وليس من عادة الازواج مع هذا أن يتغازلوا على هذا المنوال بمسمع الاطفال الصغار ، فمن أين تسربت اليه المناجاة بطرفيها ؟ من أين ؟ نعم من أين ؟!

واقترنت تلك الظاهرة فى حينها بظواهر مريبة مثلها . . . « فمارييانا » التى كانت لا تؤتمن على سر المعرفة بينهما ما بالها اليوم قد أصبحت مأمونة الجانب مغشية الدار حتى لا حذر من التواعد لديها على غير ضرورة ؟ وتلك الزينة المعهودة بعطرها وشياتها ما بال سارة تحتفل بها فى غير أيامها ؟ ونوازع الغرائز التى لا سلطان عليها للمرأة ما بالها تتبدل ؟ ووسائل الحيطة الخفية ما بالها تتعدد ؟ وذلك التلطف المريب تلطف الآثم الذى يمسح حوبته بفرط المجاملة ويكفر عن خيانته الباطنة بفرط المصالحة الظاهرة ماذا وراءها وماذا فى أطوائها ؟

علامات وقرائن لا يأخذ بها القاضى فى قضائه بالادانة ولكنها كافية للتشكيك فى خلوص النية

والقضاء بعد مطالب باقناع غيره محظور عليه أن يكتفى باقناع نفسه ... أما الرجل الذى ينشد الطمأنينة مع المرأة فلمن يحكم ان لم يحكم لنفسه ؟ وبأى اقتناع يدين ان لم يدن باقتناعه ؟

وراء الأكمة ما وراءها ... تلك حقيقة لا ريب فيها ، ولكن ماذا وراءها ؟ قد يجهل الرجل ذلك على التحقيق والتفصيل ، ولكن ألا يكفى أن تكون هناك أكمة وأن يكون هناك شىء مجهول وراءها ليقوم الحائل بين القلبين ، ويكدر الجو بين الصفيين ؟

وجائز عند همام ان تنصرف عنه سارة الى غيره . ولكن ليس بالجائز عنده أن تستغفله لانها تتوهم فى دهائها القدرة على الجمع بينه وبين غيره !

جائز أن يكون هو وهى ألعوبة واحدة فى يد الطبيعة التى تسوقه وتسوقها ، ولكن ليس بالجائز أن يكون هو ألعوبة فى يدها وأن تكون هى اللاعبة بلبه وولائه !

وقد نصب لقلبها الميزان الذى نصبه لقلبه فى السروالعلانية وأخذ عليها شبهات كثيرة ولم تأخذ عليه شبهة واحدة ،واتهمها فلم يشاهد عليها عذاب المرأة التى تفجع فى حب تقابله بحب مثله بل كان كل ما شاهده عليها محال المتهم الذى يجهد فى تفنيد تهمة ، ويود لو فاز بالغلبة ووقع على الأدلة الدامغة

هل ظلمها ؟

يجوز ...!

وكلما أعاد همام هذا السؤال وأعاد معه هذا الجواب لمس به أغوار فتنتها واعتقد انه يخدع عقله باختياره ، ويساعدها على تضليل حسه ورأيه ، وأنه لم يظلمها ولا افترى عليها ! ولولا ذلك لقد كانت شبهة أهون من هاتيك الشبهات كافية كل الكفاية للبت فى أمرها وطى السؤال والجواب عنها

وخير له أن يفارقها بغير جريرة قادرا على آلام فراقها صائما عن مسراتها ، من أن يعاشرها عاجزا عن فراقها ، باذلا كل ما عنده من اهتمام،مستحقاكل ما عندها من احتقار واستغفال

لقد سلبته الطمأنينة وكفى !

جلاء الحقيقة

انتهت مهمتى !

أى نعم • انتهت المهمة ، وبطلت الرقابة ، واستراح الرقيب!

وكان « أمين » موفقا فى هذه المرة كل التوفيق ، لانه زود هماما بالحجة القاطعة التى يواجه بها غوايته ويقمع بها نكسات ضعفه ، كلما ساوره الندم وعزت عليه السلوى

ولم تأت هذه الحجة الا بعد استئناف الرقابة بزمن غير قصير، وجهد غير قليل

ولكن علام الرقابة بعد القطيعة ؟ الم ينحسم كل ما بين ذلك الرجل وتلك المرأة من علاقة ؟ ألم يقصر همام عن ذكر سارة ووفاء سارة وخداع سارة ؟ ألم يعول كل التعويل على أن يظن أسوأ الظنون . ويفرض اشنع الفروض ، ويوطن عزيمته على خيانتها ولا يغالط وهمه فى شأنها ولو تفتحت له أبواب المغالطة ؟

بلى كان ذلك !

غير أنها كانت أحلاما ، ولم تصح الاحلام الا بضعة أيام

وقد صحت الاحلام فى الايام الاولى بعد القطيعة حتى ظن همام أنه قد سلا ، واستقر على السلوى ، فما يبالى بعدها من خان ووفى ومن ضل وغوى

على أنها كانت راحة موقوتة أشبه براحة اللديغ الساهد حين

ينقلب من جنب الى جنب ، وما به من نوم ولا غفوة على هـذا الجنب ولا على ذاك

ثم خرج همام من هذه الراحة الموقوتة الى شيء آخر : الى شيء غير الراحة وغير السلوى ، الى الشعور القاصم بالفراغ ، والحرج والضيق ونفاد الحيلة كلها في ذلك الفراغ

كل حاسة من حواسه فقدت شيئا ، وكل لحظة من لحظاته فقدت شيئا ، وكل مكان يغشاه فقد شيئا ، وكل سرور من مسراته أو كل ألم من آلامه فقد معناه وغايته ولبابه ، وماذا عوضها جميعا ؟!.. عوضها نقيضها الذى يلغيها ولاينوب عنها، فأما غم محبوس كظيم ، واما حيرة عمياء ليس لها اتجاه ، واما سكون موحش بعد حركة وجيعة ، وكل أولئك في فراغ فارغ لا مبدأ له ولا نهاية ولا مهرب فيه ولا قرار

خوى الجحيم الحى وهبط فى مكانه الزمهرير الميت ، وبئس هذا الموت وبئست تلك الحياة

زمهرير لا يعيش فيه الاحياء ، ولكنما هو زمهرير خاص للتعذيب لا لمأرب غير التعذيب ، فلهذا يعيش فيه من يعيش من الاحياء !

وجرب السلوى ، وما خامره الشك فى أنها علاج مطلوب ، وانها علاج مستطاع

ولم لا يكون مستطاعا أن يسلو الرجل امرأة بامرأة مثلها أو أفضل منها ؟ الا يسلو الجائع عن صفحة من الطعام بصفحة مثلها أو أشهى منها ؟ فلماذا يعييه أن يسلو عن هذه المرأة بغيرها من بنات حواء ؟

ونسى همام انه ليس بجائع وانما هوعليل مسلوب الاشتهاء ... فمن حاجته قبل أن ينظر في انتقاء طعامه أن يعيد ذوقه الى اعتداله وأن يجد اللذة فيما يشتهيه ، ويستوى عنده قبل ذلك أطيب الطعام وأخبث الطعام ، كما يستوى الاكل والصيام

بل نسى أن الرجل حين يحب المـرأة فانما يريدها هى ولا يريد ماهو أجمل منها ، وانما يحسها ويحس بها لانها هى هى لا لانها امرأة لا فارق بينها وبين سائر النساء

وكالنظارة التى تجلو العين لانها نظارتها تكون المعشـوقة للعاشق الذى عاشرها وألف محاسنها وعيوبها ، وتمثل كل صفة من صفاتها كأنها شخص مستقل «مخصوص» لا مشابهة بينه وبين الصفات عامة . فلا النظارةالتى هىأبعد أمدا وأنفس زجاجا تغنى العين التى تنظر بما دونها ، ولا المـرأة التى هى أجمل طلعة وأكرم سليقة تغنى القلب الذى تعود أن يخفق لها أو يخفق معها

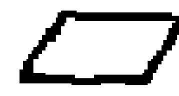
لا بل تكون التسلية هنا أحجى بأن تنكأ الجرح وتضـاعف الحسرة وتضرم لوعة الفقد والغيبة ، فالمرأة المجهولة تغنى عن المرأة المجهولة لانك لا تعرف لها صفة تنكرها عند أختها ... أما المـرأة التي « تشخصت »فى حسك كل صفة منصفاتها فكيف ترى امرأة غيرها دون أن تشعر فى كل لمحة وكل لمسـة أن لها وجها غير وجه فلانة ، وعينا غير عينها ، وصـوتا غير صوتها ، وقواما غير قوامها ، وأعطافا غيرأعطافها ، وروحا غير روحها وكلاما غير كلامها ؟

وكيف تشعر بذلك دون أن تنقلب التسلية غصة ، ودون أن ينقلب العوض المنشود ذريعة من ذرائع الفقد الدائم والحرمان المتجدد ؟

كلا ! لا تسلية عن « النظارة » المضبوطة بنظارة أنفس منها وأقدر على التقريب والتوضيح

ولا تسلية عن الابن الضائع بابن من صلب غيرك ولا من صلبك ، ولو كان أبر الابناء الذين ولد الآباء ، ولا تسلية عن المرأة المعشوقة بامرأة تفوقها ملاحة وتبرعها ذكاء ، وتبذها عندك وعند غيرك فى بعض الخصال ولا فى جميع الخصال

وفى الحب كثير من بقايا الطفولة وتراث الغريزة ، فلا بد للقلب من فترة طويلة أو قصيرة يعاف فيها كل هوى غير هواه ، كما يعاف الطفل كل ثدى غير ثديه ، أو يعاف الطير كل أليف غير أليفه ، أو يعاف الحيوان كل سكن غير سكنه بين أمه وأبيه



فى هذه الفترة عاد « أمين » الى القاهرة فى اجازة طويلة . ورأى من الأمسية الاولى التى قضاها مع همام أين تقف الامور كما يقول ، بغير حاجة الى افاضة شرح واطالة سؤال

الحقيقة غير معروفة والسلوى غير ميسورة ، والوقت ثقيل كسيح لا يخف ولا يتحرك ! وكل وسيلة يقطعانه بها لا تلبث أن تمسه قليلا حتى تتثلم وتكل وترتد عن صفحته الكثيفة وجلده الصفيق ، فالقراءة لا تنفع ، واللعب لا يمنع الذهن أن يشرد ويتيه ، والسماع لا يطاق ، والرياضة مطلوبة مستحبة

على أن تكون في غير الاماكن التى كان يطرقها همام وسارة • وهل من مكان لم يطرقاه ؟

وكثر التحدث عن الجنون والمجانين وبوادر الهوى التى تصيب العقلاء من حيث لا يعلمون ولا يعلم أصحابهم المقربون . فكان همام يقول : ما أحسب الا أنني سأكون بين الناس فى بعض الايام فأخلط بالحديث عن سارة وظنون سارة ! ثم يسأل أمينا: ترى كيف تقع هذه المفاجأة فى فلان وفلان ؟ وكيف يكون هذا الخلط لو كان ؟

ثم يأخذان فى التمثيل والمحاكاة كأنهما يتلهيان ويتفكهان ، وانهما لفى مرارة سقيمة تفسد جميع الطعوم !

هذا أو يعمد أمين الى فنون من الالاعيب الصبيانية ينفى بها الملل ويموه بها الكآبة • فيدق التليفون ويجيبه الرجل المقصود أو غير المقصود • فيجرى بينهما حديث كهذا الحديث :

ـ هل أنت فلان ؟

ـ نعم أنا هو

ـ أواثق أنت مما تقول ؟

ـ عجبا • ما معنى هذا السؤال ؟

ـ عفوا يا سيدى عفوا . . . انما أردت أن أتحقق من صواب عاملات التليفون • فهل عندك الرقم المطلوب بعينه ؟

ـ نعم يا سيدى • هل من خدمة ؟

ـ بل سؤال صغير ان سمحت !

ـ تفضل

ـ أرجو أن تجيبنى ولا تستغرب · هل قرأت صهاريج اللؤلؤ ؟

ـ صهاريج اللؤلؤ ؟ ما هذا ؟

ـ أى نعم صهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكرى·ظننتك قد سمعت به ··· أما سمعت به ؟ أما قرأته ؟

ـ بلى قرأته · فما هذه الاسئلة العجيبة ؟

ـ اذن تقرؤه مرة ثانية !

ثم يلقى السماعة ، ويمضى فى تخيل فلان هذا وهو يغضب ويصخب ، وينعى على مصروالمصريين‌هذه الفصول التى لاتحدث فى باريس ولا لندن ولا برلين !

صبيانيات من‌هذا القبيل تشغل‌الوقت ويندر جدا أن‌تغصب هماما على ضحكة أو ابتسامة ، الى أن كانت ليلة من هذه‌الليالى المتشابهات طال فيهاالسأم ونزر فيها الكلامورانت فيها الكآبة فقال أمين : ما الرأى فى استئناف الرقابة !

ولعله قالها لفتح باب من أبواب السمر ، أو لعله قالها لدفع السآمة ، أو لعله قالها شوقا الى اتمام عمل بدأ فيه وكبر عليه أن يتركه بغير نتيجة ··· الا أن هماما رحب باقتراحه وحاول أن يجد فى معارضته كى يمهد لامين طريق التراجع ان كان قد تعجل أو بدر منه ذلك الاقتراح تزجية للوقت وجذبا لاطـراف الحديث ، فلم تسعفه أسباب المعارضة ولم يسعه الا الموافقة ، وهو لا يدرى من فائدة لاستئناف الرقابة الأأنه عمل لن‌يزيده تعبا على تعبه ، وقد يريح

وبدأت الرقابة بكرة وقد تدرب عليها أمين من جهة وتهيأت دواعيها من جهة أخرى ، وعاونتها المصادفات من جهـة ثالثة فنجحت بعد محاولة طويلة نجاحا كان جديرا بعناء المحاولة، لانه أراح هماما وأراح أمينـــا وصوب الضربة الى رأس الاوهام واللواعج والمعاذير فقضى عليها

عاد أمين من رحلته ذات يوم متهللا مسرعا يتكلف الحـــزن والاسف تكلف الناعى الذى ينقل أخبار الوفاة الى وارث مدين يتنازعه الحزن والسرور

قال همام : خير

قال أمين : خير ، كل الخير

ولولا احتراسه أن يصدم صديقه بالنبأ السـعيد المشئوم لصاح صيحة « ارخميد » ... : وجدتها . وجدتها !!.. وحق له أن يصيح ، فقـد كان يمتحن زيفا دقيقا لا يقل عن الزيف الذى امتحنه الرياضى العظيم !

وسرد القصة بتفصيلاتها عملا بالوصية الاولى ، وان لم يكن همام بالحريص فى هذه المرة على التفصيلات ، بعد أن نجحت الرقابة وظهرت النتيجة

وفحوى القصة أنه تبع سارة من منزلها حتى نزلت فى ميدان باب الحديد . فمشت أمام ومشت وراء ، ودارت بعينيها فيمـــا حولها تروز الطريق وتتوقى الانظار ، فأطل رجل من سـيارة كانت واقفة بالانتظار وأشـار اليها . فانفتلت الى السيارة فى سرعة البرق ، وتبين أمين الرجل بثيابه وسيماه

قال همام : وهل تبعت السيارة ؟

قال أمين : لا • فقد غابت عن النظر قبل أن أدركها بسيارة أخرى

قال همام مستضحكا جذلا ليصرف عنه أسفه المصطنع ويسرى عنه ندامة هذا الفشل الصغير ، ويسره بنتيجة تعبه :

ـ أحسنت يا سيد أمين ، أحسنت ! قد وصلنا • وصلنا وان لم نصل الى باب الدار • فاستمر على بركة كيوبيد

وانقضت أيام فى مثـــل حالة المفجوعين الذين اطمأنوا الى موت فقيدهم فى ديار الغربة ولم يبق الا أن تصل الجثـة الى مقرها الاخير بعد سنوات من وقوع المصاب : لا حدة ولا حداد ولا حرارة فى الانتظار • بل مسايرة للايام والحـــوادث الى أن تنتهى حيث يروقها الانتهاء

ففى بعض هذه الايام كان همام يركب الترام قبل الموعـد بنحو الساعة الى حيث يلقى أمينا ـ عشاء كل يوم ـ بعد رحلته اليومية المعهودة • فاذا بأمين يقفز الى جانبه والترام سائر على أقصى سرعة

فنسى همام ما كانا فيه ولم يذكر الا نوادر أمين فى الخوف من ركوب الترام والنزول منه وهو سائر • فليس أظـرف من سهواته المحفوظة الا نوادره فى خوف الترام والمركبات والزوارق وكل ما يسير ويخشى من سيره الهلاك • فقـد ولع به أصحابه من جراء ذلك وتعقبوه بالمناوأة والمحاورة عسى أن يقلع عن خوفه

فما أقلع ••• وآخر نوادره فى هذا الباب كان فى خلال ذلك الاسبوع ، وكان هو وأصحابه يغادرون حديقة الحيـوان وهم يوهمونه انهم سيركبون الترام الذى يهم بالمسير ، ويتباطؤون لقلة اكتراثهم أن يركبوه وهو سائر • فأسرع قبلهم ليـدركه قبل أن يتحرك • فتركوه ووقفوا ينظرون اليه وينظر اليهم وهو لا يجسر على النزول !

وأبى أمين أن يقنع بهذا فى أضاحيك يوم، فزاد عليه أضحوكة أخرى من سهواته وبدواته : مضى مع الترام الى آخر الخط ثم قضى فى البحث عن أصحابه بقية الظهيرة ، وقد كان فى وسعه أن ينزل فى المحطة التالية ويركب معهم القطار الذى ركبوه •• ولكن الرجل سخى بسهواته ومخاوفه لا ينفق منها بحساب !

ذكر همام هذا حين رأى المعجزة التى ما رآها قط ولا توقعها ••• وعلم أن أمرا خطيرا لابد قد جرى فى الدنيا وقفز بأمين تلك القفزة النادرة ، بل تلك القفزة المقطوعة النظير ! ولا شك أن الضحك الذى سرى تلك الساعة الى خاطر همام قد كان بطانة ناعمة وثيرة نسجتها المقادير ليتاقى عليها الخبر المشئوم الميمون، المترقب بنافد الصـــبر ونافد الحيلة منذ شهور ، وقد كان له شأن أى شأن فى تهوين المسألة كلها وتلطيفهـا وافراغهـا فى مرحلتها الاخيرة فى قالب السخر والفكاهة

فلما جلس أمين الى جانب همام لم ينتظر ســـؤالا ولم يأبه للضحك الذى كان يلوح على عينى همام، وقال فى رصانة وتؤدة:
انتهت مهمتى

قال همام : لا ريب في ذلك · فان قفزتك وحدها لدليـــل أقوى من كل دليـــل · فأوجز يا صاح · أوجز ولا ضرورة للتفصيل

قال أمين : الآن هى فى مخدع مريب فى بيت قريب ، تبعتها اليه وعرفته وعرفت اسم صاحبهالذى يستأجره ، وعرفت أنها تغشاه من حين الى حين

فلم يزد همام على أن أغمض عينيه هنيهة · أغمضهما كأنه يتحاشى النظر الى سبةشائنة ، أو كأنه يتهيأ للراحة بعد سهاد طويل فى ارتقاب خبر مكتوم مضنون به عليـــه · ثم أسرع فصافح أمينا وهز يده هزة الشكر والرضى والابتهاج ، وقال له : صدقت صدقت،لقد انتهت المهمة ، فهلم نحتفلبتشييعها!

ونشط كلاهمـــا نشاطا لم يدريا ماذا يصنعان به وكيف يجريانه فى مجراه ، فانطلقا الى أطراف المدينـة يمشيان بل يغذان السير على غير هدى ، وطفقا يطوفان ويعودان الى حيث كانا حتى صادفا اثنين من أصحابهما الادباء يلتمســان السهر ولا يتفقان على مكان ، فانســـاقوا جميعـا الى ناد متطرف على هامش الصحراء ، وكانت الليلة مقمرة والجو رآئقا والسيارات ذاهبة آيبة فى خفة وطرب واشتياق

ويتم التوفيق فيكون أحد الاديبين صاحبنا الذى كان أمين يختلق له الاسئلة فى التليفون ، ويتم التوفيق مرة أخـــرى فيجرى الحديث فى الادب وفى النثر البليغ وفى صهاريج اللؤلؤ أى نعم فى صهاريج اللؤلؤ بعينها ، ويقول صاحبنا : لقـد

قرأته مرتين ! ويوشك أمين وهمام أن يسألا : أكان ذلك بعد نصيحة التليفون ؟ ولكنهما يكتفيان بالايماء ويحبسان الضحك، ويضيفانه الى حساب السرور الخفى الذى يحتويانه منفردين

فيم كان ذلك السرور ؟

لعله كان سرورا بتقليم مخالب العذاب التى كانت تنوشه من كل جانب وهو ملقى بينها عاجز عن النجاة منها

لعله كان سرور الرضى بتحقيق الظنون وانقطاع الشكوك

ولعله كان سرور القدرة على التفريط فى سارة بغير لاعجة من حسرة ولا خالجة من ندم ·· أو لم تعد امرأة من النساء بعد أن كانت ، المرأة « المخصوصة » بعاشق واحد دون سائر الرجال ؟ ألم تنقشع عنها سرابيل الحب الأثير التى كانت تغليها وتعلو بها فى ضمير همام ؟ ألم يسقط عنها «سحر» الانفراد الذى جعلها محبوبة لا تغنى عنها واحدة ممن يحملن عنوان النساء ؟

بلى ! كان ذلك أكبر ما سر هماما فى تلك الليلة بما سمع من « بشارة » أمين ، وظل على سروره هذا أياما يترشفه ويكرع منه ولا يروى منه بالجرعة والجرعتين ، وصفا له شعور الراحة والسكينة برهة لا ينساها بقية أيامه ، فلم يرنقها عليه كدر ولا ألم من نكسات الداء القديم ، ولم يكد يشعر أن للداء القديم رسيسا باقيا الا حين انقضت اجازة أمين وودعه صباح يوم للذهاب الى عمله ، فقد كانا معا كالسائحين فى طريق واحد معروف المعالم والانحاء لهما على السواء ، فلما افترقا أحس همام

كأنه قد ضل الطريق ، وألح عليه هذا الاحساس المبهم بضعة أيام ، ثم تراجع رويدا رويدا الى رضوان صحيح ، أو رضوان يقنع نفسه بأنه صحيح

الا أن كيوبيـــد شيطان مريد له لؤم الشـــياطين ونزغاتهم ومكائدهم وكراهتهم أن يتركوا النـــاس هادئين وادعين ، فمن حين الى حين كان همام يسمعه يهجس له ويوسوس في صدره ليسلبه ارتياحه الى فراق سارة وقدرته على تناسيها ، فلا يفتأ يعاوده أبدا بهذا السؤال :

أليس من الجائز أنها وفت لك فى أيام عشرتها واستحقت وفاءك لها وصيانتك اياها وغيرتك عليها ؟ أليس من الجائز أنها يئست منك فزلت بعد الفراق ؟!...



محتويات الكتاب

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢ (الاعداد ترسل بالطائرة)

العراق : السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصريه ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد

البرازيل : Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Colegio N° 3
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

غانا : Mr. Joseph Hassan,
The Cine Travel Co,
P.O Box 1833,
ACCRA, GHANA

هذا الكتاب

الحب من العواطف الانسانية النبيلة التى تناولها الكتاب على مر العصور ، وهو موضوع دائم الجدة ، مادامت الطبيعة الانسانية دائمة الجدة . وفى هذه القصة يعالج الكاتب موضوع الحب من نواح نفسية وأدبية ، ويسبح بالقارىء فى آفاق العواطف الانسانية المتلاطمة ، ويصور صراعها ، ويبرز الغيرة والشك ـ وهما العاطفتين اللتين تتربصان بالحب ـ فى اطار جديد فريد . فهذه فى الواقع ليست مجرد قصة ، وانما هى دراسة فلسفية واجتماعية وعاطفية للحب

ويسر سلسلة ((كتاب الهلال)) أن تقدم لقرائها هذه التحفة الفريدة ((سارة)) بقلم الكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد ، فى طبعة جديدة انيقة ، تضم ـ لاول مرة ـ صورة بديعة رائعة لبطلة هذه القصة الفريدة

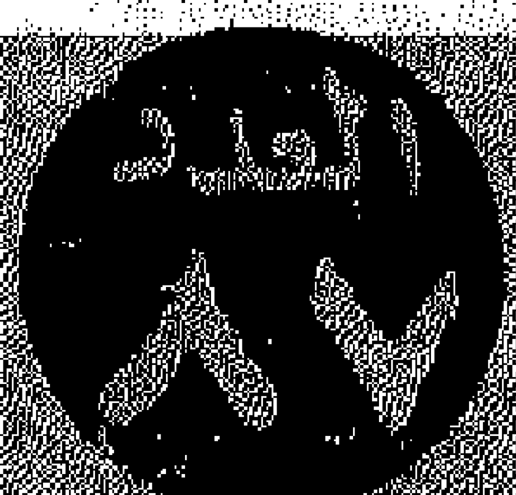
كتاب الهلال

صلاح الدين الأيوبى

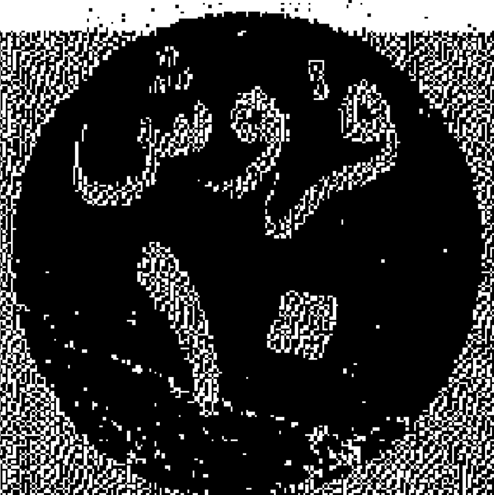
البطل الذى انتصر على الغرب

تأليف

محمد فريد أبو حديد



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٨٧ – ذو القعدة ١٣٧٧ – يونية ١٩٥٨

No. 87 — Juin 1958

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

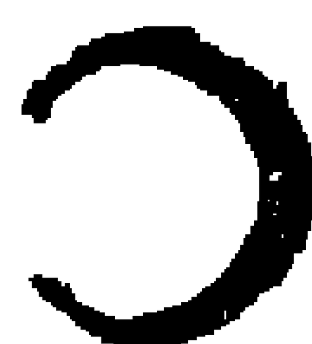
كتاب الهلال – بوستة مصر العمومية – مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) – مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ – سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا – السعودية والعراق والاردن وليبيا ١٣٠ قرشا صاغا – الامريكتان ٥ر٥ دولارات – فى سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

صلاح الدين الأيوبي

البطل الذي انتصر على الغرب

تأليف

محمد فريد أبو حديد

طبعة مزدانه بالخرائط والصور



صلاح الدين الايوبى

مقـــدمة

منذ حوالى ثلاثين سنة رات لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ جريا على سنتها فى خدمة الثقافة القومية ـ أن تصـــدر سلسلة من الكتب بعنوان « سلسلة المعارف العامة » وعهدت الى بتأليف حلقة من حلقاتها

فاستعرضت الموضوعات لاختار أقربها الى نفسى ،وأجدرها بتحقيق غرض اللجنة من اصدار تلك السلسلة ، فلم أجـد خيرا من ذكرى صلاح الدين الايوبى

وانه ليطيب لى بمناسبة طبعه للمرة الثانية ، بعد هذه الحقبة الطويلة ، أن اقف حينا لألقى نظرة الى ماورائى ، لاتأمل تلك الايام التى مرت بنا ، وما كان فيها من آمال وآلام ، وما سبحنا فيه خلالها من الأحلام ، حين كنا لا نجد لانفسنا تعلة نرفه بها عنها ، الا أن ننتقل بها الى مسارح الرؤى فى الماضى ، أو عوالم الرجاء فى المستقبل . ذلك لأن الحاضر كان يحيط بنا كأنه قطع الظلام ، ونحن فى قاع موجة هائلة أثارها أعصار الاستعمار المدمر ، ومن حولنا أمواج كالجبال ـ ظلمات بعضها فوق بعض من أخرج فيها يده لم يكد يراها . كانت سبحاتنا

فى أحلامنا تبعث الينا بشعاع خافت من الأمل ، كأنه وميض نجم فى ثنايا السحب المتراكمة

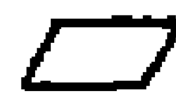
كنا نرى عالمنا العربى والاسلامى ، وقد تقاسمته قوى الاستعمار كما تتقاسم النمور فرائسها ، فيكاد اليأس يستولى على نفوسنا ، اولا ماكنا نقوى به أنفسنا ، اذ نستعرض مامر بالامة العربية والاسلامية من محن طاحنة ، وكوارث فادحة ، وكيف خرجت من ذلك كله وهى قوية سليمة ، بفضل ايمانها وثقتها بنفسها . فكنا نتمنى ...

كنا نتمنى أن يتمخض المستقبل يوما عن مثل ما تمخض به الماضى ، وأن ينجب من الأبطال المخلصين الاقوياء مثل أولئك الذين واجهوا المحن ، وخرجوا بالامة من غمارها ، وهى قوية سليمة

فاختيار موضوع صلاح الدين لم يكن سوى أثر من هذه الحالة النفسية التى كنا نتعلل فيها بالآمال ، ونستلهم الاحلام، عسى الله أن يبعث من هذه الامة فى يوم من الايام مثل ذلك الرجل العظيم الذى ظهر فى الأمة العربية والاسلامية منذ نيف وثمانية قرون ، فى عهد مظلم ملىء بالكوارث مثل عصرنا الذى كنا نعيش فيه . فقد جاء صلاح الدين فى وقت طغت فيه على الامة العربية والاسلامية موجة من موجات الاعتداء تشبه موجة الاستعمار التى كانت تعصف بنا . وكانت ظروف الامة العربية والاسلامية فى عهد صلاح الدين هى الظروف التى كنا نضيق بها ونحس الذلة والحنق منها . كانت طائفة من الملوك والامراء

تتنازع فيما بينها على السيادة ولا تتردد أن تمد يدها الى الاجنبى ليستعين به كل فـرد منهم على تحقيـق مطامعه الشخصية الصغيرة ، على حين كان الاجنبى لا يقصد الى شىء غير اذلال العرب والمسلمين جميعا

وكانت طائفـة أخـرى من الاعيـان تبتز أموال الشعوب المطحونة ، كى تنفقها على حياة ترف دنىء يستل قوة الحيوية ولا يدع للمترف من همة الا التنافس على السيادة المزيفة . فكانوا وهم يحتلون مقاعد السيادة المزيفة لا يشعرون بمذلة اذا هم خضعوا تحت أقدام الاجنبى مادام يسمح لهـم أن يدوسوا شعوبهم المسكينة ويمتصوا دماءها



كان هذا شأن الملوك والأمراء فى عهد صلاح الدين ، كمـا كان فى مطالع القرن العشرين ، على حين كان للشعوب فى الحالين شأن آخر . كانت الشعوب العربية والاسلامية دائما تبـذل ما أبقى السادة المزيفون لهم من دماء وأموال وهم اسخياء ، فى سبيل الدفاع عن عروبتهم وعن اسلامهم . ولهذا كان من الطبيعى أن أختار موضوع صلاح الدين فى تلك الآونة ، وفى قرارة نفسى أمنية غامضة : أن تجود الأيام مرة أخرى بمن يثور على ذلك الحاضر الذى كنا نعيش فيه ويرد عنه الموجة المظلمـة الثانية كما رد صـلاح الدين تلك الموجة المظلمـة الاولى !

وها هى ذى الاحلام والامانى تلتقى بالحقائق ، كأنها كيان

واحد بعد مرور هذه الحقبة بين طبع هذا الكتاب للمرة الاولى وطبعه للمرة الثانية ، وكان الزمان الذى يفصل بين الموقفين قد تضاءل أو انمحى

هذه هى الأمة العربية تنبض بالحياة وتهب من رقدتها ، وهذا هو ظل الاستعمار ينحسر عن ارضها فى موجة هائلة تشبه الموجة التى انحدر بها عليها . ثم هذا بطل بل ابطال ينهضون فى صفوف الأمة العربية ـ جمال وصحبه فى مصر والقوتلى وصحبه فى سوريا ، ليكتبوا فى التاريخ صفحة جديدة لا تقل روعة ولا مجدا عن الصفحة التى كتبها صلاح الدين من قبل

نقول ان التاريخ أعاد نفسه ! قد يكون هذا صحيحا اذا نحن نظرنا اليه من ناحية الجوهر وأبعدنا عن الصورة حواشيها وأغراضها ، فنحن اليوم حيال حركة جهاد حديثة تشبه فى جملتها حركة الجهاد القديمة . غير ان العصر الحاضر يختلف فى أوضاعه وفى مفهوماته عن القرن الثانى عشر الذى أنجب صلاح الدين

كان الملوك والامراء عند ذلك يستطيعون أن يعملوا لانهم كانوا أصحاب القوة ومصدر السيادة . كانوا يستطيعون أن أن يعملوا للخير أو للشر على حد سواء . وكانوا يحققون أغراضهم مستعينين بالجنود المرتزقة أو المماليك . واذا كان الاخيار منهم يستندون الى تعضيد عواطف الأمة كما فعل صلاح الدين ، فان العصر لم يكن يعرف ان الشعوب هى

مصدر السيادة والسلطان



من اجل هذا وجد صلاح الدين نفسه حيال ملوك وامراء يحولون بينه وبين تحقيق ارادة الشعوب التى كانت تتوق الى الوحدة ، وتتوثب من أجل المشاركة فى الجهاد . وكان هؤلاء الامراء لا يترددون فى أى شىء حتى الخيانة للاسلام والعروبة ، اذا كان ذلك يحقق لهم المحافظة على مصالحهم الخاصة وسيادتهم . فلم يجد صلاح الدين بدا من أن يلجأ الى تحقيق الوحدة عن طريق السيف حتى يجمع الامة العربية والاسلامية كلها فى صف واحد من أجل الجهاد . فبحد السيف وحد صلاح الدين سوريا ومصر ، وبحد السيف تمت على يديه الوحدة بين الشرق والغرب الاسلاميين . ولكن العصر الذى نعيش فيه اليوم يعترف اعترافا صريحا لا لبس فيه ، بأن الشعوب مصادر السلطان وان ارادة الشعوب هى مادة القانون الذى تسير عليه الدول . ومن أجل هذا كان توحيد مصر وسوريا وليد رغبة الشعبين ، ومن أجل هذا أيضا ستمضى الشعوب العربية جميعا فى تحقيق وحدتها لانها لا تستطيع أن تتنازل عن تحقيق سيادتها وسلطانها

وانه ليحق لى ، كما يحق لأبناء جيلى الذين شهدوا ما كانت عليه حال الامة العربية فى مطالع هذا القرن العشرين ، والذين كانوا يرفهون عن مشاعرهم المكدودة بأحلام الماضى ورؤى المستقبل ، يحق لهؤلاء ان يكونوا سعداء اذ كان من حظهم أن

يشهدوا الصورة ماثلة فى الحقيقةبعدأنكانوا يلتمسون ايناسها ومواساتها فى مسارح الخيال

محمد فريد ابو حديد

ابريل سنة ١٩٥٨



الفصل الأول

مباحث تمهيدية

لتاريخ صلاح الدين وعصره

دعوة الاسلام ونضاله مع الامم

قام دين الاسلام فى صحراء العرب ثم نما وزاد حتى شمل كل الجزيرة فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وجعل ينشر جناحيه كى يظل بهما ما يليه من أمم الارض من قبل المشرق والمغرب

وقد وجد الاسلام من العرب عدة واستعدادا، فجعل سيلهم يتدفق على ما جاوره من البلاد ، فاجتاح فارس وهبط على ما يليه من بلاد الروم حتى أقام دولة فتية لم يشهد مثلها التاريخ الا قليلا ، فبلغت فى نحو تسعين سنة اتساعا لم تبلغه دولة الروم فى قرون طويلة . وكان من أسباب انتصار هذه الدولة الفتية تلك الحماسة الدينية العجيبة التى لم يذكر مثلها التاريخ لشعب آخر من الشعوب ، حماسة قائمة على عقيدة كالصخرة لا يدخل اليها شك ولا يضعف من سورتها ظلم ، بل كانت عقيدة حرة ثابتة . فشهد العالم نوعا جديدا من أنواع الدولة يقوم على الجهاد فى سبيل العقيدة الدينية ، فلا تقوى دولة من دول الارض على الوقوف فى وجهها . وكان ذلك أول عهد جديد طلع على العالم المعروف

وسارت دولة الاسلام بعد ذلك قدما فى سبيلها فهدأ تيار

الفتح بعد حين وجعلت أمورها تستقر وأخذت تلتمس المدنيه من وجوهها ، فنقلت مانقلت عن دول سبقتها مثل فارس ومصر وأنشأت لنفسها فوق ذلك مدنية طريفة صبغتها بصبغتها . حتى اذا كان أواخر القرن السابع بعد الميلاد (النصف الاخير من القرن الاول للهجرة) صارت دولة الاسلام (دولة بنى أمية) هى دولة العالم الكبرى ، وكان الى جوارها فى أوروبا دولة الروم الشرقية من قبل آسيا الصغرى

وكانت أوروبا فى هذا الوقت قد طرأ عليهـا تغير كبير من حوادث ذات بال وقعت بها منذ أواخر القرن الخامس للميلاد ـ قبل الهجرة بنحو قرن ونصف ـ وذلك أن دولة الروم العظيمة الغربية بلغت شيخوختها وضعفت، وجعلت أمم من المتوحشين تغير عليها من سهوب الشرق المجاورة لبحر قزوين وما اليه ، فما زالت تلك القبائل الهمجية تصدعها حتى تصدعت وتفككت وسقطت وآلت رومة العظيمة عاصمة العالم الى يد الفاتحين من قبائل القوط . ومن ذلك الوقت ضاع أمر دولة الروم الغربية وتقسمت أرضها بين المغيرين فأخذت قبائل الفرنج (الفرنك) بلاد غالة (فرنسا الحالية) ، وهبط (الوندال) ثم قبـــائل القوط الغربية فى اسبانيا حيث ظل حكمهم أكثر من قرنين الى أن أتى العرب فقاموا على أنقاض دولتهم هناك . ثم اســتقرت دولة القوط الشرقية فى ايطاليا ، وبذلك صارت مدنية الدولة الرومانية الى تلك الايدى الخشـــنة فما لبثت أن ذهب رواؤها وأصبحت أثرا بعد عين

على أن العالم الغربي قدكسب شيئا وان فقد مدنيةالرومان، وذلك أن الشعب الروماني القديمكان قد بلغ مرتبة الشيخوخة والضعف وكان لابد له من الفناء فى نضال البقاء ، فلما غلبت عليه تلك القبائل المتوحشة واختلطت به دخلت فىدين المسيح وأدخلت على شيخوخة الشعب الرومانى فتوتهـــا وخشونتها وبداوتها . فدخل دم الشباب من هذهالقبائلالىالشعبالقديم وعادت اليه قوة حيوية كبرى وبقيت المدنيـــــة القديمة محلا للتقديس ولو أنها كانت غير مفهومة ولا مدركة ، وكان الدين المسيحى الذى اشترك فيه الشعبان القديموالحديث علاقةمتينة زالت بواسطتها الفوارق تدريجا حتى اذا ما أتى القرن الثامن بعد الميلاد (القرن الثانى للهجرة) كانت عوامل الاختلاط قد أتت بنتائجها وأصبح الشعب القديم غير ظاهر وحده بل صار النـــاس خليطـــا من الشعب القـــديم والشـــعوب الهمجية ، وبدأت كل جهة تمتاز عن الاخرى لهجة وعادات وطبائعبحسب السنة الطبيعية لاختلاف البيئات ولهجات القبـــائل المختلفة ، وبذلك وضع أساس أمم أوروبا الجديدة



عظمت بعد ذلك دولة العرب فى مدة العباسيين حتى صارت أعظم دولة فى العالم مجدا ومدنية وقوة ، ولكن انفصلت عنهـــا أجزاء قامت منها دول فتية أخرىأكبرها دولةالامويينبالاندلس يحكمها أبناء عبد الرحمن الأموى الذى هرب من العباسيينالى الغرب ، وعبرالبحر وكوندولة مستقلة فىشبهجزيرة الاندلس

ينافس بها أعداء أسرته العباسيين ، وعلى هذا كان للعالم المسيحى فى القرن الثامن للميلاد جبهتان يتقابل فيهما بدول الاسلام :

١ ـ الجبهة الاولى الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها فى القسطنطينية ، وهى تتاخم دولة العباسيين عند آسيا الصغرى

٢ ـ والجبهة الثانية حطام الدولة الرومانية الغربيـــة التى استولى الهمج على أنحائها وكونوا فيها الدول الجديدة البدوية، وكانت الدولة الاسلامية القريبة من تلك الجبهة دولة الاندلس

على أنه قد بدأت فى أوروبا فى القرن الثامن للميلاد حركة ترمى الى توحيد الدول المسيحية ، واعادة انشاء دولة واحدة عظيمة شبيهة بدولة الروم الغربية القديمة

وكان قوام تلك الدولة الجديدة شعب الفرنج تقوده أسرة من نسل القائد الفرنجى شارل مارتل صاحب الانتصار على العرب فى وقعة « تور » سنة ٧٣٢ بعد الميلاد، وهو الذى تعده أوروبا الغربية حاميا لها من سيل العرب الجارف الذى كان يهــددها من الاندلس

بلغت تلك الدولة شأوا كبيرا فى أيام الملك شارلمان أو شارل الكبير حفيد شارل مارتل ، ويمكن أن تعتبر دولته اعادة لسيرة الدولة الرومانية القديمة مع فارق عظيم يجب ألا ينسى وهو أن تلك الدولة الجديدة كانت فى الواقع دولة فرنجية أى أن قوامها كان من الفرنج سلالة الهمج الذين اشتركوا فى هــدم الدولة الرومانية الغربية منذ ثلاثة قرون ، فكانت دولة متسعة عــلى رأسها حكومة واحدة ويحاول ملكها العظيم أن يجعلها شبيهة

بالدولة الجليلة القديمة فى نظامها وان كان لا يستطيع ان يعيد ذلك النور الذى انطفأ على يد أجداده الغزاة الاوائل

فبعد قرون ثلاثة من سقوط رومة استقر العـــالم على حال جديدة ، وأصبح فيه دول ثلاث او أربع الا وهى دولة المسلمين ودولة الفرنجة (الامبراطورية الغربية) والدولة الرومانيـــة الشرقية

نقول دول ثلاث أو أربع لأن دولة المسلمين فى ذلك الوقت كانت كما قدمنا غير متحدة ، فقد انفصلت بعض أطرافها فكانت دولا مستقلة أكبرها دولة الاندلس ، ولهذا كانت دولة المسلمين فى الواقع دولتين كبيرتين : دولة العباسيين المشارقة ، ودولة المغاربة بنى أمية بالاندلس



علاقة الاسلام بأمم أوربا منذ القرن التاسع

استقرت تلك الدول بعد ذلك الاضطراب الطويل الذى غير وجه العالم وصارت لها فيما بينها علاقات وروابط • وتبدلت وجهة ما بينها من العلاقة الى ما يكون عادة بين المتجاورين من علاقات معاملة ومنافسة ومنازعة ، ولعل من أكبر ما يسترعى النظر فى حروب المسلمين مع من جاورهم أن لفظ الجهاد كان لا يزال مستعملا • فلا نزال نسمع ذلك الاسم (الجهاد) يعبر به المؤرخ الاسلامى عن حروب العباسيين أمثال هرون الرشيد والمعتصم مع الدولة الرومانية الشرقية ، وكذلك يتردد ذلك الاسم وهو الجهاد فى وصف حروب عبد الرحمن الاوسط مع جيرانه ملوك الفرنج وأمراء القوط بجبال الاندلس

والحق أن ذلك اللفظ وهو الجهاد يجب أن يقصر على العصر الاول من غزوات المسلمين أيام كان القصد الاول من الحروب بث الدعوة الاسلامية فى أنحاء الارض ، فقد كان المسلمون اذ ذاك أصحاب مبدأ جديد وفكرة يريدون أن تسود العالم ، فكان أول شيء فى نظرهم ابلاغ الناس ما عندهم من الدعوة والعمل على أخذهم بها ولو كلفهم ذلك مهجهم • فما كانوا يعبأون

أيحاربون فى صحارى قاحلة أم فى وديان خصبة ، ولا يبالون أنالهم بأس البرد أم حر القيظ فى سبيل ما يدعون اليه . وكان العدو بعد الانتصار يصير صاحبا ، له ما لهم وعليه ما عليهم اذا هو قبل دعوتهم

وما كان لهؤلاء المجاهدين الاولين أن يفرقوا بين جنس وجنس أو بين لون من الناس ولون ، بل انهم كانوا يغلبون العدو وهم يرون أنهم يؤدون له أكبر خدمة بابلاغه الدعوة وتمهيد السبيل أمامه الى السعادة الاخروية . فكان شأنهم فى ذلك شأن كل أصحاب الدعوات والمبادىء ، ولكن لقد كان للجهاد عصره ثم انقضت الروح التى كانت تدفع اليه . ثم دخلت دولة الاسلام فى دور حياة مدنية وحلت فى بلاد ذات مجد قديم وسارت فى مواطىء أقدام الأمم الغابرة وأخذت بمدنياتها تدريجا وتكونت فيها حكومات منظمة سلكت فى معاملاتها مع جيرانها سلوك من تقدمها من الدول ، فحلت العلاقات السياسية محل الحماسة الى الدعوة الاسلامية حتى لنجد هرون الرشيد خليفة المسـلمين يراسل امبراطور دولة الفرنج ويهاديه ، ولعل ذلك كان التماسا لصداقته نكاية للدولة المتاخمة لدولته نعنى دولة الروم الشرقية . على حين نجد عبد الرحمن الاوسط بالاندلس يراسل امبراطور الدولة الرومانية الشرقية ويهاديه ، التماسا لصداقته ونكاية للدولة المتاخمة له وهى دولة الفرنجة . فهل اذا حارب الرشيد دولة الروم الشرقية أمكن أن نصف تلك الحرب بأنها جهاد من أجل الفكرة الدينية ؟ وهل اذا حارب عبـد الرحمن الاوسط

دولة الفرنجة أمكن أن نعد ذلك جهادا بالمعنى الصحيح ونعنى به نشر دعوة الاسلام ؟

الحق أن الدول الاسلامية عندما تكونت واستقرت أصبحت فى تعاملها مع من جاورها من الدول دولة دنيوية لها علاقات ودية فى جانب وعدائية فى جانب آخـــر بحسب ما تقضى به مصلحتها واصبحت فكرة الجهاد المجرد غير حقيقية ، وانمابقى اسم الجهاد مستعملا فى وصف الحروب مع العالم المسيحى سيرا على التقاليد الاولى واعلاء من شأن الدولة بوضعهـــا فى مكان السائر على سنن أهل الدعوة الاوائل الأجلاء ، وتبريرا للحرب واستنهاضا لهمة الناس كى يبذلوا ما يرغب منهم بذله راضين شاكرين . أما من جهة المسيحيين فانهم كانوا فى حروبهم مع المسلمين الى القرن العاشر لا يحاربون لأجل نشر مبدأ دينى بل كانوا يعتقدون انهم أصحاب بلاد يحاولون الدفاع عنها ، وعلى ذلك لايمكن أن تسمى حروبهم الى ذلك الوقت حروبا دينية اذ لم يكن لهم قصد من بث دعوة دينية . حقا لقد كان الفرنجة المسيحيون أحيانا يقومون بحروب دينية ، ومثل تلك الحروب ما شـــنه شارل الكبير على ما جاور بلاده من سكسونيا الوثنية فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع للميلاد ، ولكن تلك الحروب كانت محلية قليلة الشأن . ويمكن نا نقول بوجه الاجمال ان العالم المسيحى قبل القرن الحادى عشر لم يعرف الحرب الدينية بالمعنى الصحيح ، أو بقول آخر لم يقم بحـــروب صليبية لبث دعوة المسيح فى أنحاء الارض بثا منظما فى دائرة واسعة كما فعـل

العالم الاسلامى أيام الجهاد الاول ، فاذا نحن جئنا بعد ذلك الى القرن الحادى عشر ورأينا اسم الجهاد يتردد فى أنحاء العالم الاسلامى من نهر دجلة فى العراق الى نهر دورو فى الاندلس والى جانب ذلك يتردد اسم الصليب على طول خط الحدود الفاصلة بين العالمين : العالم الاسلامى والعالم المسيحى ، اذا رأينا هذا عرفنا أن هناك شيئا جديدا وأن عاصفة قد ثارت فأعادت اسم الجهاد يهتف به من جانب المسلمين ،وأثارت اسم الحرب الصليبية يهتف به من جانبالمسيحيين ، فما الذى أثار تلك العاصفة ؟



صريخ القسطنطينية

فى أواخر القرن الحادى عشر وجه امبراطور الدولة الرومانية الشرقية دعوة الى البابا ليدعو أمم الغرب من فرنجة وألمان وانجليز الى نصرة الصليب وتخليص بيت المقدس من أعدائه المسلمين،فوجه البابا دعوته الى أوروبا فسارت فى الشعوب كما تسير النيران فى الهشيم ، وقامت أوروبا كرجل واحد الى الغرض الذى دعى اليه البابا ، فكانت حروب دموية بين الشرق والغرب استمرت ثائرة مدة قرن ثم خبا لهيبها تدريجا بعد ذلك ولو لم تنطفىء ناره جملة . فما الذى جعل امبراطور القسطنطينية يرسل تلك الدعوة ؟ وما الذى جعل البابا يقبلها رغم الحفيظة التى كانت فى قلبه على الكنيسة الشرقية ؟ وما الذى جعل أوروبا تجيب دعوة البابا بهذه الحماسة العجيبة التى بدت منها ؟

لقد كان بين القسطنطينية وروما منذ قرون منافسة ومشاحنة (١) وها نحن نجد القسطنطينية تتناسى تلك الاحن

(١) عندما دب الضعف فى الدولة الرومانية شعر اباطرتها منذ القرن الثالث للميلاد بضرورة تقسيم الدولة الى اقسام لغرض حمايتها من غارات المغيرين فتقسمت الدولة فى أيام دقلديانوس الى اقسام أربعة ثم عادت بعده الى وحدتها » فلما كانت أيام الامبراطور قسطنطين شعر بالحاجة الى تحصين=

القديمة وها نحن نرى آوروبا تدوس تلك المنافسة تحت أقدامها وسنابك خيولها ، ويتصافح المسيحيون من الشرق والغرب ويتحالفون على الاسلام

لقد كان الخلاف الذى بين شقى العالم المسيحى خلافا يكاد يمس أساس العقيدة ، فكان المسيحيون فى الشرق يعتبرون المذهب الغربى* خرافة على حين كان خليفة القديس بطرس فى روما (البابا) ينظر الى الشرق أنه منشق عنه خارج عليه ، ولكم كان بين الاثنين مواقف عاصفة وتراشق بالالقاب ، بل لقد كان بينهما تنافس حربى ومثل ذلك أن بوهمند (بيمند) ابن روبير جيكار الملك النرماندى على جنوب ايطاليا وصقلية

= الشرق ببناء العاصمة الكبرى التى تشرف على البوسفور فبنى مدينته القسطنطينية فى مكان قرية قديمة اسمها « بوزنطة » وجعل اقامته فيها ، وكان قسطنطين أول امبراطور مسيحى للدولة الرومانية ، ولعل مقامه فى القسطنطينية كان مقصودا به البعد عن رومة العاصمة القديمة ومركز الوثنية وهناك فى القسطنطينية نشأ مركز جديد قوامه الشعب اليونانى والمدنية اليونانية واللغة اليونانية . وعلى مر الايام صارت العاصمة الجديدة تنافس العاصمة القديمة فى كل شىء ، وقد زادت تلك المنافسة عندما تقسمت الدولة الرومانية نهائيا الى قسمين : الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية ، والدولة الرومانية الغربية وعاصمتها رومة وزاد التنافس شدة عندما سقطت رومة فى يد البرابرة فى القرن الخامس للميلاد ، ولم يبق فيها ما يربط الشرق بالغرب ، وعند هذا بدأ البابا يظهر بنفوذه الدينى اذ أصبح هو الممثل الوحيد للمدنية القديمة والشعب الرومانى واصبح معدودا خليفة القديس بطرس الرومانى ولم يكن خاضعا لسلطة امبراطور الشرق فبدأت الكنيسة الرومانية تقف موقف التحدى والكبرياء أمام كنيسة قسطنطينية وسلطة الامبراطور الشرقى ، ثم انقلب الامر الى خلاف وشقاق وما زال الخلاف ينمو حتى كانت بين البابا والامبراطور فى القرون السادس والسابع والثامن مواقف عاصفة على أثر خلاف فى الجدل المذهبى فكان يخيل الى من يرى ذلك أن الدين المسيحى قد شطر شطرين لا يمكن التئامهما .

عبر البحر الادرياتى ، وجعل يغزو أرض الدولة الشرقية بتحريض سيده البابا صاحب ولائه

ولكن تلك الفروق وتلك المنازعات لم تقف أمام التيار الجارف الذى اجتاح أوروبا ، فنسيت كل العداوات القديمة وسويت الحزون وتعانق أبناء المذهبين حتى أن بوهمند ذلك الامير الذى غزا أرض الدولة الرومانية الشرقية صار أحدالقواد الكبار الذين ذهبوا الى القسطنطينية لنصرة كلمة المسيح

اما هذا الانقلاب الذى طرأ على سياسة الدولة الشرقية وجعلها تطلب مساعدة البابا فيمكن كشفه من تتبع علاقة تلك الدولة بالدول الاسلامية اجمالا منذ القرن الثامن للميلاد. فقد كانت الدولة العباسية فى القرن الثامن للميلاد فى عنفوانها فسلبت جارتها الرومانية كثيرا من أملاكها ، فلما انشغل العباسيون بمشاكلهم الداخلية أمكن دولة الروم أن تبقى ثابتة الحدود عند شرق آسيا الصغرى ، ثم مضت قوة الدولة العباسية وذهب أمثال المهدى والرشيد والمأمون وتلا ذلك استبداد جنود الاتراك بالخلافة العباسية فأخذت الدولةتضعف فى نضالها الخارجى،وزادها ضعفا أنانفصل عنهاكثيرمن البلاد التى بدأت تستقل كالاغالبة والادارسة فىأفريقية،واخيراجاءت الضربة القاسية وهى استبداد بنى بويه الشيعيين بأمر الخلافة، فأصبحوا وزراء فى الاسم ولكنهم كانوا المسيطرين على الامر كله. وكانالخليفةأحيانا يحاول انيثبت لنفسهأمرا فكانيحدث من وراء ذلك تشاحن وتنازع بينه وبين الوزير ، فاضطربت

أمور الدولة الاسلامية وتفرقت كلمتها وانفجر جثمانها فصار أجزاء متناثرة من امارات في فارس وخراسان واخرى في الشام وسواها في مصر . وهكذا وجدت الدولة الرومانية دونهـــا فرصة سانحة فانتهزتها وأثار أباطرتها حربا طاحنـة لاسيما أيام نقفور (نيقفراس فوكاس) و (حنـــــازيمس) (جون سيميسز) بين عامي (٩٦٠ ـ ٩٧٥) بعد ميلاد المسيح ، فلم يستطع أمراء الحمدانيين الذين كانوا على حدود دولة الروم أن يثبتوا في ذلك النضال ، بل أخذتهم كتائب الدولة الرومانية بما لا قبل لهم به ، ثم فتحت سواحل الشام وعبرت جنـــود الروم نهر الفرات وكانت على طريق بغداد ، وذعر الخليفةالمطيع حتى لقد باع عليه الامير البويهي أثاث قصره ليستعد بثمنـــه للحرب.ولكن لحسن حظ دولة الاسلام رجعت عند ذلك جيوش الروم وانقضت تلك الموجة ولم تحطمها . كان هذا في القرن العاشر ثم طلع القرن الحادي عشر بحظ غير هذا ، وكان الامر ككفتي ميزان اذا رجحت كفة شالت الاخرى

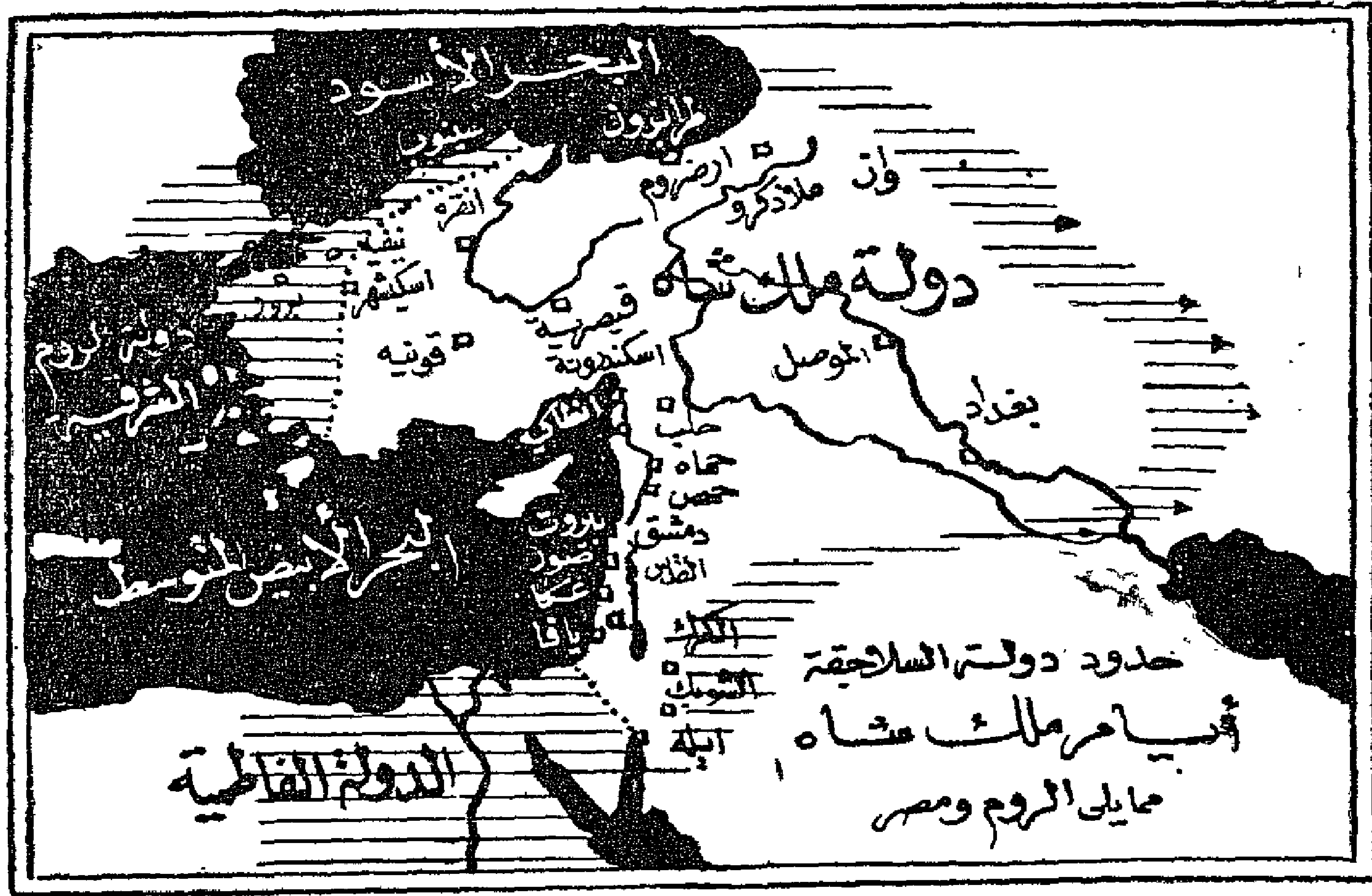


في القرن الحادي عشر استولى على بغـــداد قوم من الترك ، وهم السلاجقة وكان أميرهم طغرل بك رجلا من أهل الســـنة شجاعا ، غير مأخوذ بالالقاب ، كما كان ملوك البويهيين،فحفظ على الخليفة جلاله وهيبته ظاهرا وأخذ في يده أمر الدنيا يتحكم فيها بسيفه وارادته فعلا وباستيلاء السلاجقة على بغداد ســـنة ١٠٥٥ بعد الميلاد (٤٤٧ للهجرة) دخلت الدولة الاسلامية في

دور غير الدور الذى مر بها فى أواخر القرن العاشر

فقد استعادت على يدهم قوة شبابها ، أو ان لم يكن ذلك فقد عاد جيشها على الاقل الى سيرة الفتح والانتصار الذى نسيته الدولة فى آخر أيام بنى بويه ، وقد توالى على أمر الدولة العباسية ملوك ثلاثة عظام من السلاجقة وهم طغرل بك وألب أرسلان وملك شاه ما بين سنتى ١٠٥٥ و ١٠٩٢ (٤٤٧ ــ ٤٨٥ هجرية) ، وكانوا فى سياستهم الداخلية مع الخلافة قانعين بالسلطان الدنيوى الفعلى تاركين كل مظاهر الرياسة والسيادة الاسمية للخلفاء من البيت المبجل الذى له المكانة السامية فى قلوب المسلمين وهو بيت بنى العباس

وأما فى سياستهم الخارجية مع من جاورهم ، ولاسيما دولة الروم الشرقية ، فقد كانوا لا يقنعون بسوى السيطرة والغلبة فبدأت جيوشهم من جبال طوروس وأرضروم، وما زالت تنحدر الى الغرب فى وديان آسيا الصغرى وهضابها ، وهناك شهدت مدينة قيصرية جيوشهم الغالبة، ثم خضعت بلاد أرمينية والقوقاز بعد دفاع لم تستطع الثبات عليه ، ثم كانت بعد ذلك موقعة (ملاذ كرد) بين أرضروم و (وان) سنة ١٠٧٢ وكان هناك الانتصار الذى لا يزال يذكر للسلطان آلب أرسلان ، وأخذ الامبراطور الشرقى (رومانوس) أسيرا وهو جريح بعد دفاع بطل مستميت ، وقد سار ملك شاه بن ألب أرسلان على سنة أبيه بعد مقتله وزاد على الحرب مع الروم حروبا أخرى مع ما يليه من البلاد ، وكان من بينها بلاد الشام التى كانت لا تزال فيها



خريطة دولة ملك شاه

بقية من حكم الفواطم وما كان عام ١٠٩٠ حتى كان ملك شاه يطأ بحدوده الشرقية أكناف الصين ويدوس بحدوده الغربية عواصم الفواطم والرومان من قبل الشـــام وآسـيا الصغرى وتكونت دولة السلاجقة فى أحشاء هضبة الاناضول وأملى ملك شاه ارادته على من يليه ، وكان من بين من يرتجفون من خوفه الامبراطور الكسيوس امبراطور الدولة الرومانية الشرقية

وكانت تلك الحروب ولا شك حروبا لا يقصـــد بها سوى مد السلطان والغلبة ـ فان السلاجقة كانوا قوما محاربين أتوا من أواسط آسيا فما زالوا يحاربون أمراء المسلمين الى ان دانت لهم بغداد، ثم مازالوا يحاربون بعد ذلك من أجل فتح سائر ما يليهم من الاقاليم وكانت تلك الاقاليم التى تليهم فى أيدى الرومان على الاكثر ولو أنها كانت فى أيدى سواهم لحاربوهم ولو كانوا من أمراء المسلمين

وقد سببت تلك الحروب كما تسبب الحـروب فى كل عصر عداوة بين الجانبين المتحاربين فحدثت حوادث لا يخلو من مثلها وقت مضطرب مثل ذاك الوقت، وما كانت تلك العداوة ومانشأ عنها من الحوادث لتأخذ صورة خاصة فى التاريخ لولا ما وقع بعدها من الحوادث الجليلة التى هزت العالم أجمع

بينما كان الكسيوس يفكر فى طريق يخرجه من حرج موقفه أمام ملك شاه اذا بالموت عدا على عدوه المخيف وتمزقت بموته دولة السلاجقة التى بناها ثلاثة من ملوكهم العظـــام ، وهناك تنفس الامبراطور وكان رجلا من رجال الدهاء والاحتيال فرأى أن ينتهز فرصة انثلام ذلك الهيكل العظيم الذى الى شرق بلاده

فيحطمه ليأمن غائلته فأرسل الى فتية فى اوروبا معودين الحرب كى يأتوا ليعيدوا له ما فقدته دولته متناسيا ما كان بين الغرب والشرق فى العالم المسيحى من منافسة وخلاف وكانت الظروف مساعدة له فرأى أن يلبس الحقائق لباسا يجعله يستفيد منها،

فصور المسلمين أنهم قوم أتوا الى بلاده لا يقصدون الا حربا دينية يهدمون بها ديانة المسيح. وعزا ما ارتكبه الجنود السلاجقة من الاعتداء على المسيحيين فى الشام وآسيا الصغرى الى رغبة كمينة فى نفوسهم فى أذى النصارى ، وساعد على اذاعة أمثال هذه المزاعم جماعة من المتحمسين أمثال بطرس الراهب الذى ثارت نفسه عند ما رأى قبر المسيح فى يد السلاجقة الظافرين وهم حديثو العهد بظفرهم. وهكذا سمعت أوروبا نغمة لم تطرق أذنها من قبل : دعوة الى نصرة المسيح على المعتدين المسلمين . وما هو الا أن صرخ الكسيوس حتى أجيبت الدعوة بثورة هزت أرجاء العالم فلقد أرسل الى البابا (اربانوس الثانى) وهو فى مجلس دينى فى (كليرمون) سنة ١٠٩٥ يدعوه الى نصرة المسيح واسترداد بيت المقدس من السلاجقة فما انفض ذلك المجلس حتى نادى البابا نداءه التاريخى الذى دوى فى أنحاء أوروبا . وانطلق المتحمسون فى أنحاء البلاد يصورون الاسلام ظالما عاتيا مغيرا ولم تكن حكايتهم خالية من الحقيقة ولكنها كما قدمنا كانت حوادث طبيعية فى عصر ثارت فيه ثائرة الحروب بين متنافسين قديمين ، على أنه لم يكن احد ليمحص تلك الحجج التى أوردها أمثال بطرس الراهب فثـــارت العاصفة هوجاء تخبط خبط عشواء

لماذا لبت أوربا الدعوة ؟

اذا كان الكسيوس قد تناسى ماكان بين دولته وبين الغربيين، فأعجب من ذلك أن يأتى الغرب الى مساعدته بتلك الحماسة العظيمة ، فالحق أن أوروبا فى هذا الوقت كانت مستعدة إعظم استعداد لايقاد النيران وكان البابا والكنيسة هما الطريقان الوحيدان الى اثارة تلك النيران وقد عرف الكسيوس أن يلمس المكان الذى فيه سر الانفجار

كان الدين فى القرن الحادى عشر سيد أوروبا ، وكان رجال الدين وعلى رأسهم البابا فى ذلك القرن أصحاب عواطف أهل أوروبا ، وكان فى أوروبا فى ذلك الوقت رجال يحبون الحرب ويعيشون له ولا يسعهم الا تلبية الداعى اليه ولا سيما اذا كان لنصرة الدين . وذلك كله يرجع الى أسباب لابد من بيانها موجزة فى الفقرتين الآتيتين :

(١) الانقلاب فى نظام أوروبا

حدث انقلاب عظيم فى نظام الدولة الفرنجية فى أواخر القرن التاسع للميلاد ، وذلك أن شارل الكبير كان قد أقام دولة عظمى تشمل أكثر بلاد الدولة الرومانية القديمة ثم خلع البابا عليه لقب الاباطرة وأصبح لقبه امبراطور الدولة الرومانية الغربية ،

وقد حاول شارل أن يجعل دولته على نظام شبيه بنظام الدولة الرومانية القديمة وأكبر ما كان يرمى اليه جعلها دولة واحدة وان يكون هو على رأسها ومركزها . ولقد كان تحته طائفة من الحكام والرؤساء ، ولكنه عمل على أن يكونوا عمالا له مؤتمرين بأمر الحكومة المركزية ثم سار ابنه (لويس التقى) على مثل ذلك بما استطاع ، لكنه لم يكن كأبيه دراية وكياسة وقوة ، فما هو الا ان مات لويس حتى تقسمت الدولة الرومانية الغربية الى أقسام ثلاثة بين أولاده ، وبدأت بذلك أول حلقة من سلسلة تقسم لبث يحطم تلك الدولة الى آخر القرن التاسع للميلاد

وقد كانت أوروبا فى ذلك القرن التاسع مهددة بأخطار جسيمة من تجدد اغارات القبائل المتوحشة وأكبرها عند ذلك قبائل النرمانديين والمجريين زيادة على ما كان يصيبها من غزو العرب فى الاندلس وصقلية وجنوب ايطاليا برا وبحرا ، وقدكان لهذه الغزوات أثر بعيد المدى

كان النرمانديون يغيرون على الدولة الرومانية فى خفاف السفن من مصبات الانهار لانهم كانوا قوما من بلاد الشمال وشواطىء البحار لهم جراءة على المحيط ودراية بتسيير السفن وكانت اغاراتهم للسلب والتدمير ولا تستطيع دولة الرومان الغربية أن تدفعهم عن نفسها اذ لم يكن فيها مدن حصينة ولا كتائب سريعة ، وكان المجريون فى اغاراتهم فرسانا يجتاحون البلاد ثم يعودون بعد أن يسلبوا ما شاءوا ولا تردهم

حصون ولا أسوار،ولم يكن دونهم عند الفرنج كتائب ذات دراية بحركات الفرسان ، ولهذا استقر رأى أمراء الدولة الرومانية الغربية على أن يعنوا بأمرين لا غنى للدولة عنهما اذا شاءت حماية نفسها من اعدائها ، وذانك هما : بناء الحصون الكثيرة والاسوار على المدائن من جهة ، ومن جهة أخرى تكوين كتائب للفرسان معودة الكر والفر على أسلوب سريع كى يستطيعوا دفع عادية المغيرين السريعين . وبذلك وجد أمراء الدولة أنفسهم بعد حين ولهم حصون وأسوار تحميها كتائب من الفرسان مدربة خاضعة فكان لكل منهم بذلك دائرة خاصة به عليه حمايتها وله بطبيعة الامر ادارتها فنما نظام جديد عرف فيما بعد فى القرن العاشر وما يليه بنظام الاقطاع



أحدث نظام الاقطاع نقضا فى أساس الحكومة القديمة التى كانت فى أوروبا منذ أيام الدولة الرومانية الأولى وذلك أن الحكومة المركزية أصبحت صورة لا حقيقة واصبح الامراء هم أصحاب الحكم فى جميع الانحاء ، وصارت العلاقة الجديدة بين طبقات المجتمع قائمة على أساس التعاقد بعد أن كانت قائمة على أساس السلطة والسيادة يعنى أنه أصبح بين الامراء من جانب وبين الحكومة المركزية من جانب آخر عقد يتعهد فيه كلا الجانبين تعهدات يقوم بأدائها نظير حقوق يكتسبها وكانت أكبر واجبات الامراء الاشتراك فى حروب الدولة بانفسهم وفرسانهم وامداد الحكومة المركزية بشىء من الاموال . وكانت أكبر

حقوقهم أن يكونوا حكاما يخضـــع لهم من دونهم من الامراء ويدفعون لهم الضرائب ويشتركون فيمـــا يكلفهم به صاحب ولائهم من الاعمال ، وكان كبار الامراء متعاقدين مع صغارهم على شروط شبيهة بتلك ، وهكذا كان هؤلاء مع من يليهم فكان نظام الاقطاع أشبه شيء بالهرم رأسه الحكومة المركزية وقاعدته صغار الامراء والفرسان ثم الشعب ، وكان الشعب العـــام مرتبطا بواجبات نحو الامير الذى يحكم بلاده فيدفع الاموال اليه ويخضع لقضائه ويهب له مقدارا معينا من العمل فى أرضه فى نظير حماية الامير له من اعتداء الغير وصد غارات المتوحشين عنه

على هذا انقسمت أوروبا الى أقسام صغيرة من الاقطاعات وكانت الحكومات المركزية فى الواقع لا علاقة لها بالافراد بل كانت علاقتها بكبار الامراء تارة على سلم وتارة على حرب



مضى القرن العاشر وفى أوروبا دول ثلاث كبرى كل منهـا مقسم بحسب ذلك النظام الاقطاعى وتلك هى ألمانيا ويحكمها حكام من أمرائها بعد انقراض أسرة الفرنجة من نسل شارلمان وكانت دولتهم مكونة من ألمانيا وايطاليا واسمها الدولة الرومانية المقدسة ، ثم فرنسا ، ثم انجلترا

ولم تكن تلك الدول دولا بالمعنى الحقيقى اذ كان الحكام السياسيون لا يتعدى حكمهم اقطاعاتهم وكثيرا ما كان الامير اذا لم يجد ميدانا للحرب يصـــد فيه غارات الاجانب أو

المتوحشين يغير على من يليه من جيرانه ولهذا كانت أوروبا فى ذلك الوقت وما بعده مجالا لحروب لا عد لها ولا حصر بين بعض الامراء وبعض ، ولم تخل الحكومات المركزية من مناوأة أمرائها بل كانت تدخل فى ميادين حروبهم مؤلبة جماعة على أخرى تنتصر تارة وتنهزم أخرى

وهكذا عاد نظام الاقطاع على أوروبا بمنافع واضرار فقد رد عنها غارات المجر والنرمان وأمثالهم ولكنه نزع أمنها واطمئنانها فى الداخل وجعلها بؤرة حروب دائمة

فى ذلك الوقت أتت دعوة الدولة الشرقية فما كان أسرع أمراء أوروبا وفرسانها الى الاجابة ملتمسين هناك ميدانا جديدا للحروب

(ب) روح العصر فى أوروبا

كان عهد الاقطاع بطبيعة ظروفه عهد الفروسية وما يتبع هذه الصفة من مميزات فكان الامير بحكم تعاقده حاميا لمن فى كنفه يرى نفسه سيدهم المسئول عن سلامتهم ولو كلفه ذلك بذل نفسه . وقد جرت العادة مدة طوال السنين على تقاليد صارت على مضى الزمن مبادىء يجب على الشريف أن يسير على مقتضاها ، فكان من مجموع ذلك قانون به تفاصيل مايحل للشريف أن يعمل وما يحرم عليه وكانت تلك المبادىء ترمى الى حماية الضعفاء ونصرة الدين واجلال الجمال والوداعة وسوى ذلك من صفات الحسن الذى يتجلى فى المرأة، فكانت الشجاعة أولى صفات الشريف لا تقوم عنها صفة أخرى ، وكان استخدام



محارب من القرون الوسطى

(عن كتاب ستانلي لين بول)

السيف من أول ما يجب عليه اتقانه الى جانب المهارة فى ركوب الخيل واما الرماية بالقوس والسهام فكانت مما يترك للمحاربين فى المحل الادنى

وقد شهد القرن العاشر تغيرا جديرا بالذكر فى عقول أوروبا اذ قد مضت أظلم القرون مع القرن التاسع وبدأت حيـــاة جديدة تدب الى النفوس ولو انها لم تكن تلك الحياة الفياضـــة التى تمشت فى العروق منذ القرن الثالث عشر . وقد بدأ دبيب تلك الحياة يظهر بشىء من الجلاء فى القرن الحادى عشر وكانت أولى علاماتها تلوح هنا وهناك اما فى بلاط ملك واما فى حنايا دير

بدأت الامم الفتية تتطلع الى الماضى وترى أنفسها حفـــدة الرومان أصحاب المدنية القديمة فجعلت تلتمس العلم من بقايا مخلفاتها ووجـــدت معلمين لها من رجال الـــدين الذين كانوا لا يزالون يحتفظون ببعض علم القدماء فانصبغت تلك النهضة الصغيرة بصبغة رجال الدين . ولما تفتحت العقول أول ماتفتحت للمعارف وجدت الميدان الذى فتح دونها مصبوغا بصـــبغة الدين ، فكانت حماستها الشبيهة بحماسة الطفولة تدفعهـــا الى الاهتمام بكل ما يمس الدين حتى لقد ظهر أثر هذا فى آداب العصر الذى يتكون من قصص العهد القديم والحـديث ممثلة فى قالب روائى وكان الممثلون فى الغالب من القسس

ولعل تسلط الكنيسة فى ذلك العصر كان قصارى ماوصلت اليه من التسلط على قلوب الناس ولما يحرفهم عن عقيدتهم شىء من

زيغ العلم أو شك الفلسفة حتى لكان اكبر عقاب يقع على الفرد حرمانه من الكنيسة واخراجه من دائرة الايمان والمؤمنين وهو عقاب أذل أكبر رأس فى العالم اذ ذاك وهو الامبراطور نفسه. وكان ذلك الحرمان اذا وقع على اقليم تعطلت شعائر الدين فيه فلم يجد الناس من يأخذ اعتراف الميت ولا من يقرأ عليه الصلوات التى توصله الى الآخرة، وكان مثل ذلك العقاب كافيا لارغام اكثر الامراء عنادا واذلال احدهم شوكة . وكانت الكنيسة اذا فرضت على الناس فرضا يكفرون به عن ذنوبهم لم يسعهم الا الاذعان ، فيصوم الفرد أو يضرب أو يذل نفسه بالسؤال أو يشهر به ويخرج من بلده فى زى النادم « قبعة خاصة وعصا طويلة واقدام عارية » فيذهب الى بيت المقدس او الى روما ليمحو ذنوبه

وقد كانت الكنيسة عاملا من العوامل الفعالة طوال القرون الوسطى (١) وزاد نفوذها فى العصر الاقطاعى اذ كانت هى المحكمة فى منازعات المتنازعين ، ترأب الصدوع وتداوى الجروح وتجعل للناس قواعد لحرامهم وحلالهم فى الحرب ، تحاول بذلك تخفيف ويلاتها . وكانت سلطتها لا تقف عند حد اقطاعى ولا دولة معينة بل تشمل جميع أتباع المسيح المؤمنين بها فى وقت لم يكن هناك مركز سياسى قوى لانفراد كل أمير باقطاعيته

---

(١) القرون الوسطى اصطلاح تاريخى يقصد به الفترة بين سقوط مدينة روما فى أيدى البرابرة سنة ٤٧٦ للميلاد وبين بدء التاريخ الحديث الذى يوضع حده عند سقوط القسطنطينية فى يد الاتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ للميلاد

مستقلا بأمره ــ وعلى ذلك كان سلطان الكنيسة هو السلطان العام الوحيد الذى يشمل جميع انحاء أوروبا

وقد اتفق فى أواخر القرن الحادى عشر حدوث نضال كبير بين الامبراطورية (السلطة الدنيوية) وبين الكنيسة (السلطة الدينية) وكانت نتيجة ذلك النضال انتصارا باهرا للبابا، وذهب الامبراطور العظيم وهو اذ ذاك « هنرى الرابع » الى البابا « جريجوار السابع » فى قرية « كانوسا » بايطاليا وهناك وقف حاكم الدنيا أياما ثلاثة عند باب رئيس الكنيسة عارى الرأس حافى القدمين يطلب العفو والصلح

وعقب ذلك بسنين قليلة كان البابا « أربانوس » فى مجمع من رجال الكنيسة فى « كلرمون » فأتاه صريخ امبراطور الدولة الشرقية يدعوه للمساعدة فى حرب المسلمين . فما انفض ذلك المجلس سنة ١٠٩٥ م حتى كان البابا قد أعلن حربا لنصرة المسيح والصليب على المسلمين واستنقاذ بيت المقدس منهم ، فأية صيحة تكون صيحة البابا فى مثل هذا العصر ؟ لقد كانت صيحة ترددت كالرعد القاصف وسارع الى تلبيتها شعب مؤمن مطيع على رأسه طائفة من الامراء الذين لهم دراية بالحروب وبهم غيرة على الدين ورغبة فى نصرته

انتصار الصليبيين

بدأت الحرب الصليبية فذهبت جموع بعد جموع فى سنة ١٠٩٦ (٤٨٩ هجرية) ولـكنها لم تتم شيئا ثم تبعتهـــا جموع اخرى فى سنة ١٠٩٧ بقيادة أربعة من كبار امراء أوربا وهم (جودفرى) حاكم بولونى و (ريمون كونت طولوشه) و (بالدوين) أخو (جودفرى) و (بوهمند) ابن (روبير جيكار) النرماندى حاكم جنوب ايطاليـــا وصقلية . وكان يساعدهم آخرون من الاشراف والفرسان ، فلما بلغت الحملة القسطنطينية استوثق الامبراطور الـكسيوس من حلفـــائه أنهم يردون اليه ماسلبه الاسلام من بلاده ، ثم سمح لهم أن يجتازوا بأرضه فساروا وعبروا المضائق وهزموا المسلمين فى الاناضول وكانوا أشتاتا بعد ذهاب ملوكهم الكبار ، وكان أكبر انتصار للصليبيين عنـــد (دور يليوم) أو (اسكيشير) فى غرب آسيا الصغرى . ثم مازال النصر لهم الى أن اتموا السير وبلغوا الشام وأقاموا دولا أربعة اقتطعوها من أرض الاسلام وهى (الرها) و (انطاكية) و (طرابلس) و (بيت المقدس) وجعلوا الملك فى يد حاكم بيت المقدس وهو (جودفرى) وقنع الباقون من الامراء بالولاء له حسب النظام الاقطاعى فى أوروبا

وجعلوا نظام الحكم فى تلك البلاد على الاسلوب الاقطاعى . وتم ما أرادته أوروبا ، وردت موجة الفتــح الاسلامى عن أسوار القسطنطينية بتلك الضربة الشديدة ، ولم تعد الدول الاسلامية الى محاولة فتحها من جديد الا بعد أن تفيق منها وذلك بعد نيف وثلاثة قرون على يد الاتراك العثمانيين



الفصل الثاني

ظهور صلاح الدين

العالم الاسلامى يستجمع قوته للدفاع

كان العالم الاسلامى فىذلك العصر اى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر يشمل أقساما ثلاثة كبرى ولكل منها فروع وأجزاء ففى طرفه الغربى كانت دولة الاندلس وقد عبرت اليها جموع المرابطين من أفريقيا ، فهزمت المسيحيين الاندلسيين وأعادت اليها شيئا يشبه ما كانت عليه من القوة أيام دولة بنى أمية . وبعد المرابطين يأتى اليها الموحدون من أفريقيا فيرفعون علمها الى أواخر القرن الثانى عشر ثم تتحطم تلك الدولة حتى لايبقى منها الا غرناطة لتشهد تاريخ القرون التالية

وكان فى أفريقيا الشمالية من الغرب دول يرتبط تاريخها بتاريخ دولتى المرابطين والموحدين . وأما فى الشرق فكانت دولة العبيديين أو الفاطميين وقد بقيت هناك الى أواخر القرن الثانى عشر حتى قضى عليها البطل الكبير يوسف بن أيوب صلاح الدين كما سيأتى . وكان فى شرق هذه البلاد رقعة الدولة العباسية مقسمة بين أمراء السلاجقة بعضهم من نسل ملك شاه وبعضهم من نسل قواده ورجاله ، وكان للخلافة على هؤلاء سيادة اسمية لاتكاد تعدو السكة (النقود)

والخطبة فى المساجد،ولم تكن بين دول الاسلام رابطة متينة بل ان اثنتين منها كانت على خلاف ومنافسة بل على عداء وهاتان هما الدولة العباسية والدولة الفاطمية ، فان الاولى كانت دولة سنية والاخيرة كانت شيعية ولكل من الدولتين خليفة يرى نفسه أحق بأن يدعى له على المنابر جميعها، فكان من الطبيعى أن العالم الاسلامى عندما صدمته الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر لم يكن متماسكا بل كان مقسما الى دول متنافسة ، ولم تكن الدولة العباسية فى ذاتها دولة بالمعنى الصحيح بل كانت مقسمة الى امارات كل منها مستقل بأمره لاتربط بينهـا الا جامعة اسمية لا حقيقة لها . وكانت الدولة العباسية هى التى قابلت الصدمة فلم تقو على احتمالها ثابتة بل تصدعت وتداعت وخيل للناس أن قد هوت وضاع أمرها ، ولم تجد لها نصيرا من داخلها اذ كانت كلمتها مفرقة ، ولا من خارجها اذ كان الفواطم أقرب الى الشماتة بها . وكان أهل أفريقيا والاندلس فى شغل بأمرهم عن أن يمدوا مساعدة لاحد آخر ، وزد على ذلك بعد الشقة وقلة الارتباط . ولكن ذلك التصدع لم يكن ظاهرا فان الدولة الاسلامية مالت أمام الموجة القوية ولم تكن هزيمتها انكسارا . بل ان العقيدة لم تتزعزع فى وقت من أوقات تلك المحنة ولم يكن فى الناس شك من أمرهم بل ظل فى نفوسهم ايمان صادق ان مآل تلك الموجة التى أتت من وراء البحر الى الضعف وانه لابد

مملكة الروم السلجوقية
قونية
الرها
دولة الروم الشرقية
حلب
انطاكية
قبرص
حماه
حمص
امارات السلجوقيين
طرابلس
بيروت
صيدا
دمشق
صور
عكا
طبرية
الامارات الصليبية
وما جاورها
يافا
القدس
عسقلان
الكرك
الشوبك
الدولة الفاطمية

خريطة الامارات الصليبية

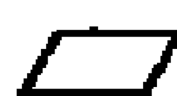
من الانتصار عليها وردها من حيث جاءت بعد حين . وقد ظهرت هذه العقيدة فى كثير من الوجوه فما كادت الامة تفيق من الصدمة الاولى حتى أخذ رجالها يعملون على اظهار تلك العقيدة الكامنة . وكان أول من أظهرها أتابك عماد الدين زنكى صاحب الموصل (١) اذ استولى على أمارة (الرها) فى عام ١١٤٤ م — ٥٣٩ هـ . بعد أن هزم الصليبيين

فزعت أوروبا عند ذلك،وجردت الكتائب لاسترداد مافقده الصليب ولكن الذى ينعم النظر فى تلك الحرب الثانية لايسعه الا أن يلاحظ أن الحماسة الدينية قد خبت قليلا فى قلوب أهل أوروبا . وقد عجزت كتائب المسيحيين عن استرداد الرها مع اشتراك اثنين من كبار الملوك المسيحيين فى الحرب وهما الامبراطور كنراد الثالث عاهل الدولة الرومانية المقدسة ولويس السابع ملك فرنسا ، وقد استمرت الدولة

---

(١) هو ابن أحد أمراء العسكر تحت قيادةملكشاه وهوآقسنقر . وقدأظهر عماد الدين بعد موت أبيه شيئا كثيرا من الشجاعة والاقدام حتى أن السلطان محمود السلجوقى أقطعه واسط (سنة ١١٢٢ م الموافقة لسنة ٥١٦ هـ) ثم اقطعه الموصل والجزيرة ومنحه لقب « اتابك » ومعناه الامير الحاكم وكانت أيامه كلها اضطراب من جميع النواحى لضعف الحكومة العباسية واضمحلال أمر حماتهم سلاطين السلاجقة ولهذا كان نفوذ أمراء النواحى بالغا أعظمه وكانت نتيجة هذا أن زاد أمر الصليبيين وعظم بلاؤهم فيما يليهم من بلاد الاسلام فتجرد عماد الدين الى اعداد العدة لحربهم وكان أول نصر أعلى من شأنه فتح حلب وقد تحاشى الدخول فى المنازعات الكثيرة التى كانت لا تنقطع فيما بين أمراء السلاجقة من جهة وبين السلاجقة والخليفة من جهة أخرى . بل جعل كل همه مكافحة الفرنج بالشام ففتح منهم فتوحا ثم توج كل أعماله بفتح الرها (اذاسه) (١١٤٤ م — ٥٣٩ هـ .) وكان لسقوطها فى يده دوى عظيم فى أوروبا اهتزت له شعوبها وجهزت عقب ذلك حملة كبرى تعرف بالحملة الصليبية الثانية

الاسلامية على محاولتها الاولى تسـعى للخـلاص من الاغراب الذين أخذوا بعض بلادها الى أن ظهر رجل الجهـاد الاكبر وهو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى فجعل حيـاته لاظهار عقيدة الامة الاسلامية فى النصر ظهورا واضحا (١)



وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب أحد رجال هذا الامير العظيم وسيفا من سيوفه . وليس بعجيب أن ينشـأ رجل تابعا لعظيم ثم يعلو شأنه ويظهر أمره حتى يغطى ذكره على ذكر سيده ويصبح المجد والعظمة للتابع دون المتبوع

---

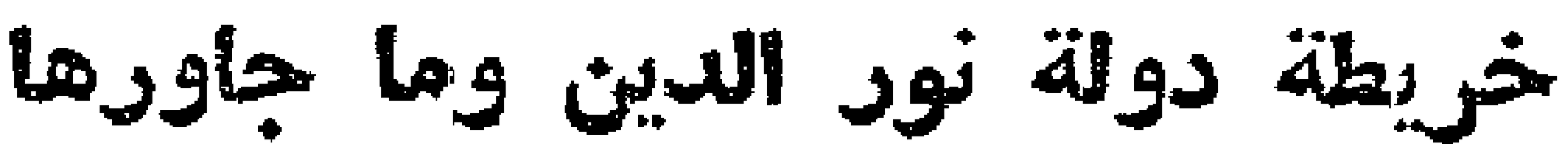
(١) مات عماد الدين زنكى شهيدا بعد أن فتح كثيرا من بلاد الفرنج وذلك انه قتل فى نومه ـ قتله جماعة من مماليكه بتحريض أعدائه وكان من خـير أمراء المسلمين سيرة وعدلا وأصلاحا لموارد الثروة والتماس سبل الخير للناس، هذا عدا تعضيده للعلم والادب . فلما توفى ترك اولادا اربعة أكبرهم سيف الدين غازى . وثانيهم نور الدين محمود وقد استولى الاول على الموصـل والجزيرة وورث الثانى امارة حلب . وكان ابنه نور الدين جنديا شجاعا وهو فى الوقت نفسه فقيها عالما وكان بحكم وجوده فى حلب أقرب الى حـدود الفرنج ولهذا كان هو صاحب حروبهم . وقد قابل نور الدين صدمة الحرب الثانية التى أثارتها أوروبا لاسترداد أذاسة حتى اذا ما انقضت موجتها وخبت نارها عاد الى سيرة أبيه فبدأ يغير على الامارات الصليبية وكانت وطأته فى حروبه أشد من وطأة أبيه ونصره أكثر اطرادا . وقد فكر فى أخذ دمشق لكى يضمها الى دولته فتكون قوة له فى حربه ضد الفرنج وحانت له فرصة رضى أهلها بالانضمام الى دولته فدخلها بغير حرب وسط تهليل النـاس واعطاه الخليفة لقب (الملك العادل) عقب ذلك الفتح (سـنة ١١٥٤ م ـ ٥٤٩ هـ) وما زال أمره بعد ذلك فى نمو حتى أرسل الحمـلة الى مصر (سنة ١١٦٤ ـ ٥٥٩ هـ) .

الدول الاسلامية بالشام والجزيرة

(١) الشام والجزيرة

قتل عماد الدين زنكى وهو فى ميدان الحرب وبعد مقتله تقسمت دولته بين ابنيه وأولهما سيف الدولة غازى الذى استولى على الشرق وجعل مقره الموصل . وثانيهما نور الدين محمود الذى استولى على الغرب وجعل مقره حلب ، على أن نور الدين هو الذى سار على سنة أبيه وقد عاش مدة أطول من أخيه ، ولهذا تمكن من بسط سلطانه على البلاد التى ورثها أبوه الشهيد عماد الدين واستولى على غيرها مما فتحه من أملاك المسلمين المستقلين أمثال دمشق وبعلبك ومما فتحه من أملاك المسيحيين بعد أن فشلوا فى حملتهم الثانية التى اشترك فيها كنراد الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، ولويس السابع ملك فرنسا

وقد كانت سياسة نور الدين فى فتح البلاد التى بيد أمراء من المسلمين أن يقنع بدخول الاقليم فى دائرة دولته – لايريد من وراء ذلك زيادة فى الملك والثروة بل كان كل قصده أن يجعل تحت سلطته دولة قوية يستطيع أن يصدم بها الصليبيين صدمة قوية تصدع أركان دولتهم ، فانه قد



خريطة دولة نور الدين وما جاورها

جعل قصد حياته الجهاد واخراج المسيحيين من بلاد الشام . وكان قوى الايمان بما هو فيه من عمل ينظر الى حروبه نظرة شبيهة بنظرة المسلمين السابقين فى أول الاسلام الى حروبهم مع اعدائهم ، ولا ادل على ذلك من ان أخا له فقد عينا له فى موقعة اذ أصابه فيها سهم ، فقال له معزيا : « لو كشف لك عن الاجر الذى أعد لك لتمنيت ذهاب الاخرى ». فكان ذلك الرجل المجاهد لا يتطلع الا الى جمع الدولة الاسلامية تحت يده لتكون له قوة على الجهاد . فكان اذا فتح حصنا اسلاميا سلك أحد مسلكين : فاما أقر عليه حاكمه الاول اذا اطمأن اليه وعرف أنه يقدر على الدفاع عنه والبقاء الى جانبه ، واما أن يقطع ذلك الحاكم أرضا بدلا من حصنه ويضمه الى بلاده . وقد كان اذا أعطى بدلا أجزل فى عطائه كيما يرضى المحروم وأمثلة هذا كثيرة ، منها أنه عندما استولى على قلعة (جعبر) وهى حصن منيع على الشاطىء الشرقى للفرات الاعلى أعطى صاحبها شهاب الدين العقيلى اقطاعا عظيما بدلها قرب (حلب) ومقدارا من المال (نحو عشرين ألف دينار) وما كان فى تلك القلعة من غنى ينتظره أو مال يحصله الا انها موقع حربى ينفعه فى غرضه .

ويمكن أن نصف دولة نور الدين بأنها كانت دولة اقطاعية على نسق الاقطاع فى أوروبا فقد كان العصر عصر اقطاع فى الشرق والغرب على السواء ، وكان هو رئيس تلك الدولة الاعلى وتحت أمره عدد كبير من الامراء كل فى جهته يحكم

مستقلا على أن يكون هو وجنوده فى حروبه . ومما يسترعى النظر فى تلك الدولة كثرة القلاع الحصينة والقصور المنيعة المبعثرة فى السهل وعلى قمم الجبال . ولعل الاسباب التى دعت الى بناء تلك القلاع فى الغرب فى أوروبا ، هى نفسها التى دعت الى بناء مثلها فى الشرق الاسلامى . فقد كانت الحكومات المركزية فى ذلك الوقت مزعزعة ، وكانت الاغارات كثيرة لا حصر لها بين ترك يغيرون من الشرق ومسيحيين يغيرون من الغرب وفرق دينية (كالشيعة الاسماعيلية) (١)

---

(١) مذهب الشيعة فى أصله مذهب سياسى يرمى الى تفضيل بيت الرسول فى وراثة الدولة الاسلامية واذا قيل بيت الرسول فانما يقصد به نسل على من فاطمة زوجه ابنة النبى عليه الصلاة والسلام ــ ولكن الشيعة ساروا على مناهج خاصة فيما بعد فى تعبدهم حتى لقد اتخذت مذهبا دينيا خاصا وبذلك صارت الشيعة فرقة دينية سياسية فى آن واحد . ثم غلا اصحاب هذا المبدأ فأدخلوا فى مناهجهم كثيرا من البدع والرسوم من مذاهب غير المسلمين واتخذ جماعة من الثوار على الدولة الاسلامية مذهب الشيعة وفكرتها وسيلة يصلون بها الى أغراضهم فى الهدم ومن هؤلاء مؤسس فرقة الاسماعيلية وهو الحسن بن صباح (والاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق أحد الائمة من نسل على) كان الحسن بن صباح رفيقا فى الصبا لنظام الملك الذى صار وزير السلطان السلجوقى العظيم ملك شاه . وقد عجز عن أن يبلغ مأربه من السيادة فى تلك الدولة فلجأ الى الهدم فأسس فرقة غرضها القتل والفوضى وكان أفرادها يدعون لمذهب الشيعة ــ وقد اتصل بالفاطميين بمصر وهم من الشيعة الاسماعيلية كذلك وجعل يدعو لهم بنفسه ورجاله الذين انضموا اليه وكان من بينهم جماعة يطيعونه طاعة عمياء ويسمون الفدائيين وهم الذين يقومون بأعمال القتل التى يأمر بها رئيسهم وكانوا يلقبونه « بالسيد » و « سيدنا » و « شيخ الجبل » وكان نظام هذه الطائفة سريا عجيبا نسجت على منواله الجمعيات السرية فى بلاد أوروبا وآسيا ، وقد نجح ابن صباح فى الاستيلاء على قلعة (الموت) الحصينة . ويطلق عليها « وكر العقاب » فى جبال مازندران بفارس . وهذه الجمعية هى التى قتلت نظام الملك . رفيق ابن صباح القديم ، وكان لها أثر كبير فى تلك العصور اذ قتل على يد الفدائيين عدد كبير من أماثل الرجال وعجز عن القضاء عليها كبار القواد مثل ملك شاه وصلاح الدين فبقيت الى أن قضى عليها أخيرا سيل التتار الجارف

تهبط بين حين وحين كالعاصفة المخربة ـ ولهذا كانت حاجة الشرق الى القلاع والفرسان مثل حاجة الغرب على السواء. ونشأ من هذه الحـــاجة نظام اقطاعى كما نشـــأ فى أوروبا لنفس الاسباب

(ب) مصر

أما فى مصر فكانت دولة أخـرى تخالف ما فى الشـــام والجزيرة فى وجوه كثيرة ـ فقد كانت دولة الفواطم وهم شيعة علويون لهم خليفة غـير خليفة السنيين وحـكومة مســتقلة موحدة ، ومدنية تالدة خلفها مؤسسوا الدولة منذ قرنين

وكانت مصر فى القرن الثانى عشر ميـدانا لحوادث عظيمـة كان لها أثر كبير فى مصير العالم الاسلامى • كان شعب مصر الهادىء المنصرف الى أعماله تاركا الحكم الى حكامه الذين استولوا على البلاد عنوة منذ أيام المعز لدين الله فى أواخر القرن العاشر للميلاد • وكان المصريون من أهل السنة ولكنهم خضعوا لتلك الدولة الشيعية وانصرفوا الى أعمالهم لا يهتمون بشىء من أمر الدولة اذ كانت الحكومة على وجه الاجمال لا تتدخل كثيرا فى عقائدهم

وقد حدث على مر الايام شىء عظيم من التفاهـم بين الحاكم والمحكوم حتى كادت الشيعة المصرية تكون سنية الا فى بعض المظاهر والرسوم • ولكن هدوء تلك البلاد لم يبق كمـا كان بل حدث تغير فى القرن الثانى عشر عنـــد ما ذهبت أجيال الخلفاء العظام من الفواطم ووقع الامر الى سـلسلة متأخرة من .

خلفاء لا حول لهم ولا قوة فصار الحكم الى قواد الجيش والوزراء من عز منهم غلب واستولى على الخليفة . وكان الخليفة فى العادة يختار طفلا من البيت الفاطمى، فكان بعضهم لايعدو سن الرابعة كالفائز بنصر الله الذى حكم بين سنتى (١١٥٤ ـ ١١٦٠) من الميلاد (٥٤٩هـ ـ ٥٥٥هـ) وجاء بعده العاضد لدين الله، وكان فى التاسعة من عمره عندما صار خليفة بمصر

فى أثناء ذلك العصر كان نور الدين قد هزم الفرنج ووحد دولة عظيمة فى الشام والجزيرة . وكان من بين الوزراء بمصر من طمع فى أن يجعل صلة بين دولة نور الدين ، وبين مصر ، وذلك هو الرجل العاقل الصالح ابن رزيك لولا أن اختلاف المذهب الدينى كان حائلا لا يمكن تجاوزه

وكان الصليبيون يعرفون أن مصر بلاد غنية وأنها أسهل فتحا من قلاع الشام وليس بها أمثال نور الدين وجنوده . وكانوا يتطلعون الى أن يقيموا ضعفهم بضمها الى ملكهم، ولولا خشية نور الدين أن يهوى على بلادهم فى أثناء محاولتهم ذلك الفتح لبدءوا به منذ أخفقوا فى الاستيلاء على دمشق واسترجاع الرها فى حربهم الثانية فى منتصف القرن الثانى عشر

ولقد جرت بمصر حوادث وأراد القائمون بها الانتفاع بالموقف السياسى الذى حولهم ، فكانت النتيجة الطبيعية تنافسا بين الدولتين المجاورتين على أيهما تدخل تلك البلاد وتسود فيها هاتان الدولتان هما : دولة نور الدين ، ودولة الصليبيين

ساد على مصر فى سنة ١١٦٤ (٥٦١هـ) رجل من العرب

اسمه شاور ، واستبد بأمرها بعد أن قتل العادل رزيك بن الصالح رزيك الوزير الكبير • وقد نازعه فى الامر أمير عربى آخر من قبيلة لخم من بلاد الصعيد واسمه ضرغام ، وكان آخر النضال بين الزعيمين أن هرب شاور يلتمس مساعدة من الخارج على خصمه ، فذهب الى نور الدين وعرض عليه شروطا مغرية اذا هو أعانه على استرجاع أمره بمصر ، وكان نور الدين يتطلع الى التدخل فى تلك البلاد فسنحت له تلك الفرصة • وكانت شروط شاور أن يعطى لنور الدين نفقات الحملة وثلث ايراد مصر جزية سنوية • وقد ساعدت الظروف على أن يسرع نور الدين باجابة شاور الى ما سأل لأن ضرغام منذ أحس بسعى شاور أخذ هو من جانبه طريقا آخر يزعم فيه سلامته فأرسل يستعين بالدولة الاخرى دولة الفرنج بالشام ، فلم يتردد نور الدين بعد ذلك بل أرسل جيشا مع شاور ، وجعل عليه مقدم جيشه أسد الدين شيركوه بن شادى ، وجعل معه الشاب الممتاز يوسف بن أخيه أيوب بن شادى

الفصل الثالث

العصر الأول
من حياة صلاح الدين

منشؤه وشبابه

يحيط جو من الابهام حول نشأة يوسف بن أيوب ونسبه وذلك شأنه شأن كل رجل ينبغ من صفوف العامة فيبلغ أقصى ذرى العظمة. وقد حاول بعض من كتبوا عنه أن ينسبوه الى اسرة عريقة وعرق شريف ، ولا يسع الانسان الان يبتسم عندما يرى أمثال هؤلاء المتحمسين من الكتاب يوصلون نسبه الى معد بن عدنان بل الى آدم عليه السلام

على أنه لا يغض من قدره أننا لا نستطيع أن نتعدى فى نسبته الجد الاول فهو يوسف بن أيوب بن شادى ، وليس بعد شادى من الاسماء ما نقدر على التثبت منه

كان أبوه وأهله من قرية (دوين) فى شرق أذربيجان ، وهم من بطن (الروادية) من قبيلة (الهذانية) وهى قبيلة كبيرة من قبائل الاكراد ، ويظهر أن جده شادى نزح بولديه أيوب (نجم الدين) وشيركوه (أسد الدين) الى بغداد ثم نزل بتكريت حيث مات شادى . وقد نشأ الاخوان بعد ذلك والتحقا فى خدمة متولى الشحنة بالعراق (مجاهد الدين بهروز) الذى كان متوليا من قبل السلطان مسعود بن غياث الدين

محمد بن ملك شاه السلجوقى . ثم انتقل نجم الدين أيوب الى خدمة عماد الدين زنكى صاحب الموصل وصار « حافظ قلعة بعلبك » أو (دزدارها) . فلما قتل زنكى انتقل نجم الدين الى خدمة صاحب دمشق والتحق أسد الدين أخوه بخدمة نورالدين محمود ابن عماد الدين زنكى، وهو اذ ذاك صاحب حلب ورثها من دولة أبيه بعد موته . وكان له أخ ورث الموصل وما يليها ، وهو سيف الدين غازى بن زنكى . وفى أثناء تلك الحوادث ولد لنجم الدين ولد سماه يوسف ولعل ولادته كانت فى ليلة خروج أبيه من تكريت الى خدمة عماد الدين زنكى وذلك حوالى ١١٣٨ للميلاد (٥٣٢هـ) . وقد نشأ فى كنف أبيه بدمشق ، وظل أبوه هناك الى أن أوغل نور الدين بفتوحه الى الجنوب واستولى على دمشق فانضم الى خدمته، وكان اذ ذاك يوسف قد ترعرع وصار فتى فى السادسة عشرة من عمره فدخل فى خدمة نور الدين مع أبيه وعمه . وكانت مخايل النجابة ظاهرة عليه ، فكان نور الدين يؤثره ويقربه ، ويلوح أن الفتى كان حاد الذكاء ، له عقل ناقد فأدرك ما فى طبع سيده من كرم وعلو وشهامة وجعل يأخذ نفسه بما اعجبه من صفاته

على أننا لا ننكر أننا لسنا نقدر أن نعرف عن شباب صلاح الدين شيئا كثيرا ، ولا غرابة فى ذلك فقد كان أحد صغار الملحقين بالجيش فلم يكن دونه مجال للعمل والظهور الى جانب الكبار من قواد الجيش وشجعانه . وكان جيش نور الدين فى



صورة صلاح الدين الايوبى (خياليه)

هذا الوقت يحوى جماعة كبيرة من المبرزين الشجعان ٠وليس يذكر لنا صلاح الدين شيئا عن شبابه الا أنه كان يترحم عليه ويحن اليه وذلك أمر طبيعى لكل كبير السن اذا نظر الى الشيب وعجزه • وأما غير ذلك فلا نسمع السلطان فيما بعد يذكر عن أعماله شيئا فى وقت صغره ، ويمكن أن نعزو هــذا الى حسن بصره وتواضعه فأكبر الظن أنه يأبى أن يذكر لنفسه شــيئا فى وقت كان فيه صــغيرا بين كبار يجلهم ويعرف لهم فضلهم

ولا نملك النفس عن ذكر حقيقة نراها قد تســاعد على أن تظهر الينا صورة ذلك الرجل قريبة من الوضوح ، وذلك أنه قد كان فى شبابه يرتاد مسارح اللهو حيث يرتاد أمثــاله من الفتيان • فانه تاب عن الخمر وغير ذلك من اللهو وهو فى مصر بعد أن حمل عبء الوزارة وصار من رجال الامر فخلع عنه ما لا يليق به فى مكانته الجديدة وهل من الغريب ألا يكون الشباب معصوما ؟ وهل ينقص من الرجل أنه كان يتذوق اللهو حلوا فى جهله وسورة شبابه فاذا هو شعر بالواجب وثقله رمى عن نفسه لهوها وفرغ الى واجبه يتذوق حلاوة القيام به بنفس الهزة التى كان يشعر بها فى لهوه ؟ على أنه بقى الى آخر حياته محتفظا بالميل الى لذات أخرى لا عار من أن يصيبها الرجل فقد كان منذ شبابه مغرما بصــيد الظباء فى الصحراء وسماع الادب الطريف فى المجالس الحافلة بالاصدقاء أو بالعلماء وأهل الفضل

وكان أول عهده بالعمل الجدى خروجه الى مصر فى صحبة عمه أسد الدين شيركوه فى سنة ١١٦٤ للميلاد (٥٥٩ هـ) وسنه نحو ست وعشرين سنة

الحملات الى مصر

ذهبت الحملة الاولى الى مصر لمساعدة شاور فى ابريل سنة ١١٦٤ م (٥٥٩ هـ) وهزم الجنود الاتراك الذين مع شيركوه جيش ضرغام عند بلبيس وسارت الجنود المنصورة الى القاهرة وهناك وجد ضرغام نفسه مخذولا وليس حوله من يثق به أو يركن اليه، وتخلى عنه الخليفة الذى كان لا يثبت فى جانب وزير مقهور وله فى ذلك العذر اذ كان الوزراء أيام قدرتهم لا يرعون له حقا بل يجعلونه أشبه بالاسير فى قصره . وكانت آخرة ضرغام على يد شعب القاهرة حين ثار به فاحتز رأسه قرب مشهد السيدة نفيسة ، وتم النصر لشاور منافسه

على أن شاور بعد ذلك رأى الامر قد تم كما أحب فلم تعد به حاجة الى حلفائه شيركوه ومن معه، وكان قد احتاط لنفسه فجعل جيش شيركوه خارج القاهرة قرب النيل - ولم يتحرك الى الوفاء بما كان قد تعهد به لنور الدين فبدأت مشادة بينه وبين حلفائه السابقين أدت الى أن أنفذ شيركوه ابن أخيه صلاح الدين الى بلبيس كى ينزعها لتكون هى واقليم الشرقية فى يده رهنا. فأرسل شاور الى (امرى) ملك بيت المقدس (املريك)

يطلب مساعدته على جيش نور الدين ، وكان (امرى)لايستطيع أن يرفض ذلك الطلب اذ كان يتطلع الى امتلاك مصر لا يمنعه الا خوفه من نور الدين ، فلما بلغته دعوة شاور ضمن أن يكون المصريون الى جانبه فأقدم • وهكذا كان شاور يلعب بالنار التى ستحرقه

بقى الجيشان الاجنبيان يتطاحنان قرب بلبيس وكان نور الدين فى أثناء ذلك يهوى بجنوده على أملاك الصليبيين بالشام ، ففتح قلعة (حارم) الى غرب (حلب) وبهذا صارت انطاكية مهددة باغاراته ، ثم جد فى حصار حصن (بانياس) بقرب دمشق فكان على (املريك) أن يعود قبل أن يتسع الخرق . وكان شيركوه لايعلم بذلك الانتصار الذى أحرزه نور الدين وكانت جيوشه تحارب على قلة من المؤونة ولم يكن له عند بلبيس حلفاء يساعدونه ولا حصن يمتنع فيه ، ولهذا سره أن يفاتحه الفرنج بالصلح على أن يخرج هو وهم جميعا من مصر وكان منظر خروج جيش شيركوه من بلبيس فى أكتوبر سنة ١١٦٤ م (٥٥٩ هـ) أشبه شىء بالنصر ، وذلك أن الجيش سار عن بلبيس وجاء فى آخره أسد الدين شيركوه يحمل فى يده ليا من حديد يحمى ساقتهم ووقف حول الجيش جمع من مسلمى مصر ومن الفرنج ينظرون اليه وهو يخرج عن البلاد . فقال له احد الفرنج : « أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك حتى لاتبقى لك بقية » فأجاب شيركوه

« يا ليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما أفعل . كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجالا وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين فلا يبقى منهم أحدا »

فى مثل هذه الحال وفى مثل ذلك الجو المعنوى ـ بدا صلاح الدين أول جولة جدية له فى غمار الحياة العملية

مضى بعد ذلك أكثر من عامين كان فيهما شاور سيد الدولة بمصر وكان شيركوه فى أثنائهما يردد أمله فى العودة الى مصر لامتلاكها، وكان يحرض نور الدين بكل وسائل التحريض وهو يعلم ان اقرب الحجج الى نفسه ان مصر تساعده فى جهاده مع أعدائه الفرنج . وكان يسهل له فتحها قائلا : « انها دولة بغير رجال » . ولكن يجب ألا ننسى ان ثروة مصر ايضا كانت من أكبر حجج شيركوه أمام نفسه وامام سيده . وكان الخليفة العباسى عندما علم بما يقصده شيركوه يساعد على غزو مصر بتحريضه ودعواته فان بيت بنى العباس لم ينس ان بيت فاطمة فى مصر كان منافسا خطيرا ، وأن الشيعة العلوية بدعة يجب أن تزول فلا يبقى على الارض الا السنة واتباعها

وقد كان نور الدين يتردد فى انفاذ تلك الحملة التى يحرضه شيركوه على ارسالها . ولكنه علم أن الصليبيين على نية غزو مصر ، فجعله ذلك يصمم على ارسال تلك الحملة ، على الرغم من أن جيشه لم يكن كبيرا ، فقد كان نصف عدد أول فرقة أنفذها عمر بن الخطاب الى مصر

اذ كانوا لايزيدون على الفى رجل على الاصح ، ولو أن الفرنج يبالغون فى عدد ذلك الجيش . على انهم كانوا ألفين من فرسان أبطال ، وكان صلاح الدين مع عمه هذه المرة أيضا



سارت الكتيبة فى أوائل سنة ١١٦٧ م (٥٦٢ هـ) الى شرق النيل عند اطفيح ، وعبرت الى البر الغربى من هناك فأقبل (امرى) بجيش كبير من الشام وانضم الى جيش شاور ، وكان عدد جنوده من الفرنج والمصريين معا أكثر بكثير من عدد جيش شيركوه ولو أن الفرنج يدعون أنهم لم يكونوا فى كثرة

بعد حين كان الجيشان أحدهما عند الفسطاط وهو جيش مصر وحلفائها الفرنج . والآخر وهو جيش الاتراك (شيركوه) عند الجيزة فى البر الغربى . ومضت فترة انتظار كان فيها الصليبيون يستوثقون لانفسهم بمعاهدة أمضاها الخليفة العاضد بنفسه ، وحلف عليها على أن يعطى الفرنج مائتى ألف دينار معجلة ومثلها مؤجلة ثمنا لمساعدتهم (١)

---

(١) جاء فى كتاب صلاح الدين تأليف ستانلى لين بول :
« أختير هيو حاكم قيصرية وجوفرى فارس المعبد رسلا من الملك (أمرى)وقد سار بهم الوزير بنفسه وجعل يقتحم بهم كل رسوم الاوضاع السرية . فسار بهم فى ممرات خفية وأبواب عليها حراس من أقوياء السودان وكانوا يحيونهم بسيوفهم المجردة حتى بلغوا صحنا فسيحا لا سقف له الا السماء وحوله أقبية قائمة على عمد من الرخام ، وكان السقف المزخرف مرصعا بالذهب مزينا ببديع الالوان وأما الارض فكانت من الفسيفساء البديعة » وقد أخذت تلك المناظر بعيون الفارسين الدين لم يعتد نظرهما أن يقع على مثل هدا الجمال ، فكانا يريان هنا فوارة من الرخام تحيط بها الطيور الزاهية التى ليس مثلها =

بعد ذلك عبر جيش الفرنج والمصريين الى الغرب على غرة من شيركوه فاضطر هـــذا أن يتقهقر الى الجنوب حتى بلغ (البابين) فى جنوب المنيا وهناك على حافةالسهل الغربية من قبل الصحراء وقف شيركوه بأصحابه واستعد للحرب رغم نصح بعض قواده الا يفعل . وبدأت الموقعة العظيمة فى ١٨ أبريل سنة ١١٦٧ م . وكانت خطة شيركوه أن يجعل صلاح الدين فى القلب ـ فيظن أعداؤه أنه هو شيركوه الذى فىالقلب حسب العادة المتبعة اذ كان القلب عادة يوضع تحت قيــادة رئيس الجيش ، وتوقع شيركوه بذلك أن يكون القلب أول مايتعرض لهجوم العدو . واما هو فقد اختـــار جماعة من

= فى بلاد الغرب ثم يريان هناك أنواعا من الحيوان لامثيل لها الا أن يصور الوانها مصور بارع أو يخترع صورتها شاعر ماهر او يحلم بها حالم فى عالم الخيال وهكذا كانا يريان اشياء لا يريان مثلها فى بلادهما اذ هى مما لا يوجد الا فى بلاد الشرق والجنوب

وبعد سير طويل فى تماريج وتلافيف وصلا الى مكان العرش فأعلن قدومهما مدد عظيم من الحشم يلبسون حللا بهية ، ثم تقدم الوزير خالعا سيفه وقبل الارض ثلاث مرات كأنما يسجد لله ثم أعقب ذلك أن انكشفت الستائر الثقيلة فجأة وهى تلمع بما عليها من ذهب ولؤلؤ ، ولاح من خلفها الخليفة وعليـــه حلل وزينة تزرى بما يتحلى به الملوك

فقدم اليه الوزير بخشوع الرسولين الفارسين وبين بصوت منخفض ماكانت فيه البلاد من الخطر وماكان من شأن صداقة ملك بيت المقدس له ، وكان الخليفة شابا أسمر اللون قد خطا الخطوات الاولى خارجا من عهد الصبا ، فقـــال انه يرغب أن يوافق على معاهدة صديقه العزيز ملك بيت المقدس ، ولكنه تردد فى أن يمد يده عند ما طلب الرسول منه أن يمد يده دليلا على صدق عهده وقد غضبت حاشيته من ذلك الطلب غير أن الخليفة مد يده بعـــد قليل الى السير هيو ، ولكن هذا وجد عليها قفازا فقال : « مولاى ان الحق لا غطاء له وان كل شىء مكشوف فى عهود الامراء » فتبسم الخليفة برغمه وخلع قفازه كارها ثم مد يده الى هيو وحلف اليمين على انفاذ المعـــاهدة بصدق واخلاص

ابطاله المجـربين وجعل منهم الجناح الايمن وأمر صلاح الدين اذا هو هوجم أن يتقهقر فى نظام ولا يثبت ثبوتا جديا حتى يغتر الفرنج ويتبعوه ـ وهكذا كان ما توقع فان كتلة جيش مصر والفرنج صدمت القلب صـــدمة قوية فتقهقر صـــلاح الدين بنظام وثبات ، فتبعه الفرنج وعند ذلك هبط شيركوه بالجناح الايمن على جيش المصريين فحطمه حتى اذا ما عاد الفرنج من تتبع القلب وجدوا حلفاءهم منهزمين . فاتبعوهم منهزمين كذلك ـ على أن شيركوه لم يتبع أعداءه ولعل ذلك راجع الى قلة عدد جيشه فآثر أن يذهب الى الاسكندرية وقد تمكن من أخذها بمساعدة أهلها ، وترك بها صلاح الدين بنصف الجيش وعاد هو الى الصعيد يجبى الاموال

وهناك فى الاسكندرية ظهر ذكاء صـــلاح الدين وتكشفت مواهبه فى الحرب وكيدها وبدا منه ذلك الثبات وذلك السلطان على النفوس وتلك القوة التى ميزت خلقه فى حياته المقبلة

عاد المصريون والفرنج بعـــد أن جمعوا أمرهم واصلحوا ما أفسدته الهزيمة الى الاسكندرية فحاصروها من جهة البر على حين كان أسطول الصليبيين يهاجم المـــدينة من جهة البحر . وقد استمر الحصار نحو شهرين ونصـــف شهر ونفذت الاقوات ، ولم يكن بالناس من اطمئنان على تلك الحال من الحصار وكان صلاح الدين فى قلة من الجنود لا يستطيع غير أن يبث مافى نفسه من ثبات فى قلوب من فى المـدينة من تجار وصـــناع وعامة ، فـكان حينا يعدهم بقدوم شـــيركوه

فكرة موقعة البابين
— مصورة —

١
المصريون
الفرنج
صلاح الدين
شيركوه «كمين»
القلب

٢
المصريون
شيركوه
المنيا
الفرنج
صلاح الدين

٣
المصريون
الفرنج
شيركوه
المنيا
صلاح الدين

موقعة البابين

بالزاد والثروة ، وحينا يخيفهم ايقـــاع الفرنج وقسوتهم ، وحينا يرغبهم فى الصبر والثبات فى سـبيل نصر الدين على أعداء ملة محمد ، وكان فى الوقت نفسه ينفذ الرســل الى عمه يشكو اليه ماهو فيه من مشقة وعناء من أعدائه وأصحابه على السواء ، واخيرا جاءت البشرى بقـدوم أسد الدين من الصعيد الى القاهرة وحصاره لها . وعند ذلك رأى «امرى» ان النصر غير ممكن فاتفق مع شـــيركوه على أن تخــلى الاسكندرية ، وأن يخرج الجيشان جميعا من مصر وأن يأخــذ شيركوه كل ما استولى عليه من الاموال ويزيد عليه خمسين الف دينار ، وهكذا انتهى دور الحرب الثانى على بقاء مصر خالصة لشاور . ولعله تبسم اذ ذاك وفرك يديه مهنئا نفسه عندما راى نجاح لعبه بالقوتين العظيمتين قوة الصليبيين وقوة الاتراك وبقائه سالما بين تنافسهما ، ولـكن مثل هذا السلاح سلاح الخداع والحيلة قد يرتد على من يستعمله فيقتله ، ولا شك أن صلاح الدين حمل لشاور فى تلك المرة كثيرا من الـكره ممزوجا بالاحتقار اذ ادرك حقيقته



لم يقم الفرنج بما تعهدوا به فأبقوا منهم حراسا على ابواب القاهرة ، وضربوا على مصر جزية نحو مائة الف دينار كل عام وكانوا يطمعون فى أكثر من هذا اى انهم كانوا لايرضون بأقل من ملك مصر بعد أن عرفوا من ضعفها أكثر مما عرفه شيركوه

وقد عادت جيوشهم بعد نحو عام من معـــاهدتهم لغزو

مصر — وكان عزمهم هذه المرة عزم من لا يريد هوادة ، غير أن شاور أظهر من المقاومة ما لم يكن منتظرا منه فأحرق الفسطاط حتى لا تكون غنيمة لاعدائه الذين كانوا حلفاءه بالامس ، ومنذ ذلك الوقت ذهبت أول عاصمة اسلامية لمصر ولم يرجع اليها بعد ذلك شيء من روائها القديم اذ ظلت النيران تأكلها أكثر من خمسين يوما

وكان جماعة من المصريين الذين حول الخليفة العاضد والذين كانوا أعداء شاور يراسلون نورالدين لكي يأتي لمساعدة مصر على أعدائها ، وكان نور الدين يميل الى التدخل بطبيعة الامر ، فما هو الا أن أرسل اليه العاضد يستنجد به حتى أخذ يعد جيشا لغزو مصر وكانت الشروط التى وعد بها العاضد شروطا لاتبررها الا الضرورة القصوى التى كانت بها مصر فقد وعد نور الدين بثلث أرض مصر وابقاء جيش احتلال مع شيركوه فيها وأن يقطع الجنود أرضا خارجة عن ثلث البلاد الموعود به لنور الدين

أما شاور فانه لم ينس أن يلجأ الى الحيلة منذ رأى نفسه بين عدوين لاحظ له مع أيهما ، فأحب أن يعمل على صرف الفرنج عن البلاد بالمال ، فجعل يفاوضهم حتى اتفق معهم على ألف ألف دينار يعطيها لهم ليرحلوا عنه ، وعجل لهم منها مائة الف ولكنه لم يستطع أن يحمل اليهم سائر المال

وبينما هو كذلك ازاء أعدائه الفرنج كان نورالدين وشيركوه يسرعان فى الاستعداد حتى أتماه وسار جيش من ستة

آلاف بينهم كثيرون من الامراء النابهين وفيهم صلاح الدين الذى سار مع الجيش على كره منه بعد الحاح عمه وتكرر طلب نور الدين ، ويظهر أن صلاح الدين كان غير راض عن الاشتراك فى غزو هذه المرة لما شهده فى الحرب الماضية من الشدة لاسيما فى الاسكندرية . ولكنه على اى حال سار مع الجيش وكان الجميع فى مصر فى أوائل يناير سنة ١١٦٩ م ٥٦٤ هـ وكان « أمرى » ملك الفرنج عند وصول جيش نور الدين واقفا يستنجز شاور وعده فى المال المتفق عليه ، فلما أتى جيش نور الدين ورأى « امرى » موقفه الحرج وهو بين شاور من جهة والجيش الاسلامى المغير من جهة أخرى لم يستطع البقاء فعاد الى الشام بغير أن يصطدم بالجيش القادم وبقى شيركوه وحده بمصر وكان الخليفة العاضد ظاهر الفرح به فأكرمه وخلع عليه ، واما شاور فلم يكن راضيا عن وجود ذلك الجيش القوى على كثب منه ، غير انه كظم غيظه العظيم ولم يظهر شيئا منه خوفا وعجزا ، وجعل يماطل فى انفاذ الشروط التى اتفق عليها العاضد ونور الدين، وجعل يظهر اللين لكى يخلص من عبء ذلك التعهد الثقيل ، وكان يريد ان يستميل شيركوه بالملق والمداهنة بل لعله كان يفكر فى ان يوقع به لولا مقاومة ابنه لذلك الرأى



رأى شيركوه مماطلته ويلوح أنه كان يميل الى التساهل قليلا ، ولكن كان هناك من يكره ذلك الرجل المخادع ويحتقره

ويستشف الخيانة من وراء لين ظاهره ـ وذلك هو صلاح الدين . ففاتح عمه فى القبض على ذلك الثعبان فلم يرض شيركوه ـ فعزم هو على أن يأخذ الامر فى يده . وفى ذات يوم خرج شاور على عادته الى معسكر الجيش التركى خارج القاهرة فلم يجد شيركوه ، وقيل له انه خرج لزيارة قبر الامام الشافعى فرأى شاور أن يذهب اليه هناك . وفى اثناء سيره قرب منه صلاح الدين ومعه عز الدين جورديك احد أمراء الجند وقبضا عليه فأنزلاه الى الارض وقيداه،وتفرق أصحابه عنه ووضع فى خيمة وحده ـ وما هو الا ان بلغ نبأ القبض عليه لخليفته العاضد حتى أرسل يلح فى طلبرأسه ـ فأطيع امر الخليفة . وهكذا ذهب رجل كان يلعب بأمر مصر ست سنين ونيفا وانتهى كل مكره الذى كان يدل به بدخول جيش نور الدين واستيلائه على البلاد

وقد كان من الممكن أن نمر على هذا الموقف مرورا سريعا فليس به مايستحق أن نقف عنده لعبرة أو مناقشة ، ولكن حرصنا على اظهار حقيقة نفس صلاح الدين كما هى تجعلنا نسائل النفس : هلهناك فى عمله بشأن شاور ما يؤخذ عليه؟ لقد قبض على الرجل وقيده حتى جاء أمر الخليفة العاضد بقتله . ولعله كان ذا يد فى انفاذ أمر العاضد ـ أو لعله على الاقل حبذ ذلك الامر وسر له

الم يكن ذلك غدرا من صلاحالدين فىأوله وقسوة فىآخره ؟ انا لا نستطيع أن ننسى شخص شاور اذا اردنا مناقشة هذا

الراى فقد كان صلاح الدين يحمل فى نفسه عنه رأيا سيئا منذ الحملتين الاولى والثانية ، اذ عرف لين ملمسه وخبث نيته وضعف نفسه الذى يغطى عليه بمكره . وقد انكشف له جشعه الذى كان يحاول اقناعه مضحيا بالدماء الغزيرة من اصحابه ومنافسيه على السواء . فهل عجيب مع ذلك أن يكره صلاح الدين مثل هذا الرجل ويسعى فى تطهير مصر منه ؟ أليس من الطبيعى أن تخزه تلك البسمات التى كان يراها على وجهه المخادع وهو يعلم ما انطوى تحتها ؟ واذا هو راى مماطلته ومداهنته اليس من المتوقع أن تثور نفسه الحرة الصريحة التى غذاها هواء الجبال والصحراء ، ولم تعرف الا الحقيقة الصارمة فى ميادين الموت التى كان يخوضها ؟ واذا هو سمع الاشاعات عن نية ذلك الرجل الغدر بعمه أسد الدين ، أما كان واجبه ان يتخذ الحيطة منه ، وهو من يعرف عنه الخبث والغدر ؟ حقا لقد احتقر شيركوه أن يؤاخذ شاور بما يشاع عنه وتكبر أن يأبه بالخطر الذى كان يهدده من ناحيته فكان فى ذلك مثله مثل من يرى الحية تريد أن تنهشه فلا يرضى لها الا عقب نعله يدفع به عن نفسه أمامها ، ولكن شجاعة شيركوه وكبره شىء وعدالة موقف صلاح الدين شىء آخر ، فقد أخذته الحفيظة فعزم على ان يوقف ذلك المرائى عند حده . فأسره مع جماعة من اخوانه ، ولكنه لم يقتله . فاذا كان قتله ذنبا فالذنب اذن على الخليفة العاضد الذى الح فى قتله وأمر به غير مرة . على أن صلاح الدين لو قتله لما

كان آثما ولا معتديا ـ فان شاور رجل قل أن تجد فى التاريخ من استحق القتل مثله ، ولا من يكون قاتله اشد رضاء عن نفسه ، وأسلم من تأنيب الضمير والندم . فهو رجل أثار حربا من أجل الوزارة بمصر وبعد أن نصره جيش قتل من قتل من رجاله وأبطاله رجع يغدر به ويستنصر عليه بعدوه . وقد كان من الممكن أن يرضى الانسان عن خطة شاور لو أنه اتخذ لنفسه جانبا وسار مخلصا فيه الى غايته ولكنه كان مثل اللاعب فوق الحبل يميل تارة هنا وتارة هناك يحاول ان يحفظ نفسه فوق مكانه الدقيق . فاذا نحن أردنا الحكم عليه وعلى خطته كان لابد لنا أن نقر له بالمهارة فى الانتفاع بمن حوله ومقدرته على التقلب مع الظروف والاحوال ، ولكن ذلك كل ما يمكننا أن نقوله عنه فقد كان مثلا للسوء فى تعامله وتعهده ونيته . ولقد كان صلاح الدين باشتراكه فى أسره آلة من آلات العدالة الالهية



وقد اختار الخليفة العاضد بعد قتل شاور أسد الدين شيركوه ليكون وزيرا محله وبالغ فى اكرامه وخلع عليه وسماه الملك المنصور، وجعله قائد قواده وأمير جيوشه ، غير أن الاجل لم يمهله ليتمتع بمجد الدنيا الزائل اكثر من شهرين وخمسة ايام ، وقد كان جديرا بمصر وملكها لانه فى الواقع اكبر من دفع على غزوها واليه أكبر الفضل فى فتحها . وقد قيل مات من الخناق من وراء تخمة اذ كان كثير الاكل وهو اقرب الآراء

الى التصديق وقيل مات من حلة مسمومة ـ وما أحرانا أن نلحق ذلك القول الاخير بأمثاله فى أقاصيص الشرق فما زال الخيال الشرقى ميالا الى أن يحيط أبطاله بالاسرار والخفايا

وعند موت شيركوه كان فى الجيش جماعة من كبار الامراء وكان المتوقع أن يختار أحدهم وزيرا بعد شيركوه فما كان من الممكن أن يتجاهل الخليفة العاضد وجود ذلك الجيش المحتل فى بلاده . وكانت المظاهر كلها تدل على أن خليفة مصر ورجاله يحبون الابقاء على مساعدة جيش نور الدين خوفا من تدخل الصليبيين ، فقد كانوا يرون أنه اذا كان لابد من احتلال أجنبى فليكن ذلك الجيش من المسلمين . ولهذا كان المنتظر أن يختار العاضد وزيرا له من كبار أمراء الجيش النورى ، ولكن حدث مالم يكن منتظرا فان السياسة المصرية اذ ذاك كانت لا تنسى أن تلجأ الى الدهاء فى مقابلة المصاعب الكثيرة التى كانت غير قادرة على حلها فى ميدان الصراحة والقوة ، ولهذا عمد الخليفة العاضد الى حيلة يحسبها تضمن له مساعدة جيش نور الدين مع أمن شره واتقاء استبداده فجرى على عادة المصريين فى تفضيل الاصاغر لكى يكونوا أسهل قيادا . فتخطى الامراء الكبار فى الجيش واختار للوزارة ذلك الشاب الذى كان مظنة اللين والسهولة ، وهو صلاح الدين فقد رأى الخليفة فيه ماظنه ضعفا واستكانة لما كان عليه من الحياء والاعتزال وقلة التظاهر ، ولو كان الخليفة ورجاله انفذ نظرا واعمق فكرا لعرفوا ان تلك المظاهر

انما تخفى نفسا كبيرة تواقة. اذ أنه لم يكن سوى ذلك الجندى الشجاع الذى أبلى بلاءه فى موقعة البابين ، وذلك القائد القادر الذى دافع عن الاسكندرية دفاعه المجيد مع حداثة سنه وشدة الظروف التى حوله . على ان الامور جرت بقدر ، وكان خطأ الخليفة العاضد ورجاله من حسن حظ مصر والاسلام فأصبح صلاح الدين وزيرا لمصر وأميرا لجيوشها



وزارة صلاح الدين

لم تكن بصلاح الدين رغبة فى الوزارة فقد كان يرى حرج موقفه فيها ويعلم أنه لابد يلقى فيها متاعب ومصاعب فدونه أمور سياسة الدولة وأى دولة ؟ انها مصر التى يتطاحن عليها جماعة من المستوزرين من الداخل يريدون السلطة ، وجماعة من الصليبيين من الخارج لا يدعونها سالمة ! وكان كذلك يستشف كراهة الامراء الكبار لتوليته ، ولم تكن نفسه من تلك النفوس الجشعة التى اذا لوح لها بالمجد طارت اليه طائشة ، بل لعله كان يرى من نفسه غنى عن ذلك المجد بما يشعر به فى نفسه من عظمة .

ولهذا نعلم أنه تردد كثيرا حتى رضى بعد لأى أن يكون عند اختيار الخليفة فذهب الى القصر ، وخلعت عليه خلع الوزارة « من جبة وعمامة وغيرهما » ولقب بالملك الناصر

ولسنا نجد غرابة فى أنه قبل الوزارة بعد امتناع فانه فكر فى نفسه وفيمن حوله فلم يشعر بما يجعله يظن فى غيره قوة ليست عنده ، ورأى أمورا معوجة طمع أن يكون له فضل اصلاحها ولعل آمالا أشرقت فى نفسه عندما رأى صغر نفوس

رجال الدولة التى أمامه فأقـــدم وهو يشعر بثقــل الامانة وصعوبة المرتقى

كان اختياره مغضبا لـكبار الامراء كما توقع فلم يأبهوا به واعتزلوه حتى سعى بينـــه وبينهم رجل من رجال الدين والسيف معا وهو البطل الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى فأقنعهم بأن يظلوا على الولاء له حتى قبلوا جميعا الا جماعة اكبرهم عين الدولة الياروقى فانه خالف،وعاد مع جماعته الى الشام وبقى صلاح الدين بمصر ليقابل أمورها واحدا فواحدا . ولسنا نسمع بعد ذلك عن خلاف بينـــــه وبين الامراء الذين رضوا بالخضوع له ، فلم يظن أحد منهم أنه خضع لغير شريف، أو اذل فى ذلك الخضوع ، وقــــد رضى نور الدين عن ذلك الاختيار وفرح به وصار يرسل اليه فى مخاطباته (الى الامير الاسفهسلار) وذلك لقب معناه « الامير الحاكم » كان يطلق فى ذلك الوقت على كبار القواد

ولـكن اذا كان صلاح الدين قد أمن جانب من معـــه من الامراء فانه لم يأمن جانب الياروقى ومن معه فى الشام وهم يرقبون منافسهم الفتى عن بعد



وبعد أن صارت الوزارة الى صلاح الدين ، امتنع عن اللهو والخمر واستشعر الجد فى كل أعماله وأخذ جوهره يأهر صافيا خالصا . وكان من أكبر الصفات التى ظهرت فيـــه كرمه فى البذل لمن معه وتعففه عن أن ينال لنفسه شيئا

ولعله شعر أنه محتاج الى أمناء أوفياء لا يداخله شـك فى أمرهم،فأرسل يطلب من نور الدين أن يبعث اليه أباه واخوته فأرسلهم اليه بعد أن استوثق منهم أن يطيعوه ، ولم يدر نور الدين أن ذلك الفتى الناشىء لم يكن فىحاجة الى ذلكالاستيثاق فقد كان له من عظمة نفسه مايجعل من معه يخضع له راضيا. وهكذا كان فلم تمض على وزارته ستة أشهر حتى كان كل من معه من الامراء والاهل خاضعا محبا لسيادته فى آن واحد

ولعله من المفيد أن نقول أن سـنه وقت أن تولى الوزارة لم تكن بأزيد من واحد وثلاثين عاما

وكانت الامور التى شغلته منذ تولىالحكم بعضها فىالداخل، وبعضها من الخارج،وكانالداخل أول مااستوجب منهالعمل وذلك أنه بعد وزارته بأربعة أشـهر شـعر رجال القصر أنهم بازاء رجل ذى بأس وليس كما ظنوه ضعيفا،فأخذوا يدسون له وكان رئيسهم خصيا أسود (مؤتمنالدولة) فبدءوا يراسلون الفرنج سائرين على سنة شاور ، فعلم صـلاح الدين بالامر وكتمه حتى رأى فرصة فى مؤتمن الدولة فقبض عليه،وقتله فتعصب له الجند السودان حراس القصروثاروا بصلاحالدين، ولكنه كان مستعدا فأوقع بهم بين القصرين ولم ينج منهم الا القليل الشريد • ومنذ ذلك الحين جعل على القصرخصيا أبيض من رجاله وهو بهاء الدين (قراقوش)



لم يمض زمن طويل بعد تلك الثـورة حتى واجهته أخطار من وراء البحر فجاءت أسـاطيل الدولة الرومانية الشرقيـة

والفرنج لحصار دمياط فى عـدة كبيرة اذ بلغت سـفنهم نيفا ومائتين ولعلهم حسبوا أن خلو مصر من شيركوه يجعلها سهلة الفتح . فأظهر صلاح الدين أنه يقدر على كثير فى غـير جلبة فأرسل العسكر والذخيرة الى دمياط بالنيل ومكنها بذلك من مقاومة هجمات المغيرين العنيفة وأرسل فى الوقت عينـه الى نور الدين يذكر له الحال ويطلب منه المعونة ثم لم يتوان فى الامر فذهب فى جيش الى دمياط ليشغل المحاصرين عن فتح المدينة . وقد أسعفه نور الدين كعادته اذا جـد الجد فأرسل اليه البعوث ارسالا يتلو بعضها بعضا ثم أهوى هو فى الشام على بلاد الفرنج فنهب فيها وخرب فاضطر المهاجمون الصليبيون أن يرفعوا حصار دمياط ويعودوا الى الشام ليحموه من هجمات نور الدين بعد خمسـين يوما من الحصار ، وكانت سياسـة صلاح الدين الداخلية عاملا من عوامل الاطمئنان والوفاق فى مصر حتى أن الخليفة العاضد لم يضق به كما كان يضيق بمن سبقه من الوزراء ولم يفرح بهجوم الصليبيين هـذه المرة ولم يستعن بهم بل أرسل الى صلاح الدين كثيرا من المال والذخيرة حتى لقد قدر صلاح الدين نفسه ما أرسله العاضد اليه بمقدار مليون من الدنانير المصرية . نذكر ذلك تشريفا لآخـر خلفاء الفاطميين فى مصر

انقراض الدولة الفاطمية

بقيت الدولة الفاطمية بمصر نحو قرنين وهى تحاول بسط سلطانها على ما جاورها من البلاد وكان امتداد ملكها انقاصا من سلطان دولة العباسيين

وظلت الدولتان متنافستين تعلو كفة العباسية مرة وكفة الفاطمية مرة الى أن جاءت الدولة السلجوقية كما سبق القول وكانت الدولة الفاطمية قد اضمحل أمرها منذ أن مضى أوائلها العظام

على أننا لانستطيع أن نعرف على وجه البت هل كان لوجود هذه الدولة العلوية فى مصر قرنين أثر فى عقائد أهلها • فان كل الظواهر تدل على أنه لم تكن هناك رسوم دينية خاصة تخالف أساس ما اعتاد أهل السنة فى عباداتهم ومعاملاتهم • فانه ان كان ثمة شىء من ذلك فهو شىء من الزخرف والزينة والابهة فى رسوم الدين ولم يكن على ما يظهر اختلاف فى أساس العقيدة فلم يكن خلفاء دولة الفاطميين من غلاة الشيعة ولم تكن لهم تلك العقائد الغريبة السرية التى تميز الشيعة فى الاقاليم الاخرى • أما الزخرف الذى ذكرناه فى رسوم الدين بمصر فلم ينكره أحد وقديما كانت مصر تميل الى

الزخارف فى رسوم الدين وليس بأس من ذلك ما دام لايمس العقيدة . ولعل طبيعة أرض مصر الوادعة وطبيعة أهلها الميالين الى المرح والبسطة والسهولة الذين يقدرون الجمال ويحبونه — لعل كل ذلك حبب الى نفوسهم ما كان للدولة من تكلف فى الدين وأبهة وزينة فى الحفلات . وأما العبادات والمعاملات بحسب القانون الدينى فاننا لا نجد ما يدل على أن دولة الفاطميين قد أحدثت فيهما تغييرا يذكر

ولم يكن بالمصريين كره للدولة الفاطمية على أنه لم يكن بهم كذلك ميل الى التضحية بشىء فى سبيلها كما هى عادة الدولة اذا كان حكمها فى يد طائفة معينة دون جمهور الشعب . وكان الشعب المصرى يرى فى كثير من الاحيان لا سيما فى الايام الاخيرة ظلما وضعفا من جانب الدولة ولكنه كان دائما يميز بين الوزارة صاحبة القوة فيحقد عليها وبين الخلافة صاحبة الامر الاعلى ويعلم انها لا حول لها ولا قوة ولهذا كان يعطف عليها ، فعندما أبصر الشعب صلاح الدين على الوزارة ورأى كرمه فى البذل وتصرفه فى الدفاع وقوته فى الحرب أعجب به وأحبه والتف حوله . وكان صلاح الدين منذ أخذ الوزارة فى يده يسعى لتوطيد أمره بأن يجعل الشعب يثق به ويلتف حوله . ولكنه آثر ألا يصدمه بتغيير فجائى فبدأ ينشىء المدارس السنية على مذهب الامام الشافعى وعارض سيده نور الدين فى أمر القضاء على الحكم الشيعى من أول الامر اذ كان نور الدين يحب أن يبدأ بازالة الخلافة الفاطمية عند أول دخول جيشه

مصر فراجعه صلاح الدين مظهرا ما قد ينتج عن مثل هـــذا الانقلاب الفجائي

الا أن الحاح نور الدين فى قطع الخطبة العلوية بمصر جعله يفكر كيف يعمل فاستشار أصحابه فانقسموا فى الرأى بين محبذ ومنكر واتفق بعد ذلك أن مرض العاضـد واحتجب فى قصره فرأى الوزير الفرصة ممكنة فجرب قطع الخطبة من أحد المساجد وقام بالخطبة للخليفة العباسى رجـل أعجمى يعـرف (بالامير العالم) فلم يحـدث اسـتنكار من جانب الناس فأمر صلاح الدين الخطباء جميعا أن يقطعوا خطبـة العاضد ففعلوا وتم الانقلاب بدون حدوث شيء • وقد أول جماعة تردد صلاح الدين بأنه كان يرغب في بقاء الخطبة للعاضـد خوفا من نور الدين • ولا حاجة بنا الى الوقوف هنا لرد هذا الزعم اذ لانجد حجة هذه الجماعة جديرة بالتفنيد • فان الحكمـة السياسـية وحدها كانت تقضى عليه بسلوك ما سلك من طريق التريث

أرسلت البشائر الى نور الدين وبغـداد وازينت عاصـمة الخلافة العباسية وأرسلت الخلع من الخليفـة العباسى الى نور الدين وصلاح الدين وأصبح فى الشرق كله خليفة واحد من بنى العباس لا ينازعه أحد ينتمى الى ذلك البيت الجليـل بيت بنى هاشم

وقد حدث أن العاضد فى أثناء مرضه أرسل يستدعى صلاح الدين فخاف صلاح الدين ان يلبى دعوته وظنها خدعة ومؤامرة على عادة المصريين • ولكنه عرف فيما بعد أن العاضد كان مخلصا

فى طلبه فندم على ذلك اذ كان لا يرى من ذلك الشاب الخليفة الا كل ما يرضيه من حب ومساعدة واخلاص • وقد كان من حسن حظ العاضد أنه لم يعرف ما حدث من الانقلاب فقد توفى من مرضه فى سبتمبر سنة ١١٧١ م ـ ٥٦٧ هـ . ولم يعلمه احد بأن الخلافة نزعت عنه بعد أن لبثت أكثر من قرنين ونصف قرن فى بيته منذ كان فى شمال أفريقية قبل هبوطه مصر

وهنا فلنسكت عما كان فى قصر الخليفة من تحف ثمينة وآثار قيمة وكتب نفيسة وآلاف العبيد والاماء والثروة الطائلة . ولنكتف بأن نقول أن صلاح الدين لم يأخذ من كل ذلك شيئا لنفسه بل ذهب كله لرجال الجيش والامراء الذين معه حتى القصر نفسه ، وبقى الوزير العظيم مقيما حيث كان فى خشونة من العيش وسذاجة من الحياة تقرب من حياة الزاهد



الوحشة
بين نور الدين وصلاح الدين

نحن مضطرون أن نقف قليلا نناقش تهمة يوجهها كثير من المؤرخين الى صلاح الدين وهى انه منذ شعر بثبات مكانه فى مصر أثار وحشة بينه وبين سيده وعزم على الخروج عليه ومحاربته اذا دعا الامر • وما كان للانسان أن يتهم حتى يكون عنده الدليل القاطع • واتهام صلاح الدين بالخروج على نور الدين واثارة الوحشة بينه وبين سيده الذى يجله والذى كان له عليه فضل التربية والعناية والتشجيع اتهام خطير يجب على من يسوقه أن يكون من أشد الناس احتراسا فى قوله ولهذا نؤثر أن نذكر تهم المؤرخين ثم نرى مقدار قوتها على ضوء المنطق ودلالة التاريخ وهذه هى التهم التى تساق :

(١) بعد القضاء على الدولة الفاطمية سار صلاح الدين سنة ١١٧١ م ــ ٥٦٧ هـ • راغبا فى حرب الفرنج فحاصر حصن الشوبك بفلسطين على مسيرة يوم من الكرك فعلم نور الدين بتلك الحرب فرغب فى مساعدة صلاح الدين فسار من دمشق نحوه وكان صلاح الدين قد أوشك أن يأخذ الحصن من الفرنج فلما علم بمسير نور الدين تركه ورجع الى مصر وكتب الى نور الدين يعتذر له باختلال الامور فى مصر فلم يقبل نور الدين

ذلك الاعتذار وعزم على المسير الى مصر واخراج ذلك المتمرد عنها • فجمع صلاح الدين أهله وفيهم أبوه وخاله ومعهم سائر الامراء واستشارهم ، فقال قائل :«نمتنع عليه ونحاربه». فقام نجم الدين أيوب أبو صلاح الدين وقال قولا معناه أنه لايوافق وانه اول من يطيع نور الدين ويعصى ابنه اذا خرج عليه ! وانفض المجلس على نصيحة أيوب أن يرسل صلاح الدين الى نور الدين يستميله ويطلب عفوه ويذعن له ويظهر الخضوع ثم لما خلا أيوب بابنه ، قال له : « ما كان ينبغى أن تصنع ماصنعت فان الاخبار لاشك تبلغ نور الدين » ثم قال له : « الا فاعلم أننا لا نسلم البلاد له ولو أراد قصبة من قصب السكر لحاربناه عليها »

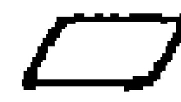
(٢) بناء على المفاوضة بين صلاح الدين ونور الدين استقر الامر أخيرا على أن يقصد الاثنان حصن الكرك ويحاربا هناك معا فلما كانت السنة التالية (أوائل سنة ١١٧٣)ذهب صلاح الدين وحاصر الحصن فلما بلغه مجيء نور الدين رجع ورفع الحصار عنه وعاد الى مصر وأرسل الفقيه عيسى الهكارى يعتذر لنور الدين بأنه ترك أباه فى مصر على مرض وانه يخشى أن يموت فتخرج البلاد من أيديهم وأرسل مع الفقيه من الهدايا والتحف ما يجل عن الوصف • فلم يقتنع نور الدين بذلك الاعتذار واستوحش باطنا ولكنه لم يظهر شيئا من تأثره

(٣) مابين غزوة الشوبك سنة ١١٧١م ـ ٥٦٧ هـ • وغزوة الكرك فى اوائل سنة ١١٧٣ م ـ ٥٦٩ هـ • ارسل صلاح

الدين أخاه الاكبر شمس الدولة توران شاه ليفتح النوبة لكى تكون لهم موئلا يلجأون اليه اذا اجلاهم نور الدين عن مصر ، ولـكن تلك الحملة لم تنجح لانها وجدت البلاد صحراء لاتغنى

(٤) بعد غزوة الـكرك فى سنة ١١٧٣م ـ ٥٦٩هـ . لما راى صلاح الدين أن النوبة لاتغنى أحب فتح ملجأ آخر فأرسل يستأذن نور الدين فى فتح اليمن « فاذن له نور الدين » فذهب أخوه شمس الدين توران شاه اليها وفتحها ونظم أحوالها وأصلح شؤونها واستقام أمر الايوبيين بها نحو خمسين سنة

هكذا يصور كثير من المؤرخين موقف صلاح الدين بازاء سيده وحقا ان فى الحوادث التى يذكرونها كثيرا من الحقيقة ولـكن تأويلهم فى ظننا تأويل لا تبرره الظروف ولا يقبله العقل وما كان لنا أن نكذب تأويلهم لولا أننا نرى أن الادلة كلها تشير الى أن ذلك التأويل صادر عن الخيال لا عن الحقيقة . فهناك الادلة المادية التى تظهر تأويلا غير هذا وهناك ما نعلمه من صلاح الدين وخلقه ما ينفى أن الامر الواقع كان كذلك



هنا أمر يستوقف النظر وهو أن المؤرخين الذين يذكرون تلك الامور يتفقون فى ايرادها وفى كثير من الاحيان تتفق الفاظهم مع اختلاف فى الايجاز والاطناب وهذا ما يجعلنا نظن أن مصدر القصة واحد أخذ عنه الجميع ولا يبعد أن يكون ذلك المصدر من جانب الشام أو من جانب من كان مع نور

الدين من الامراء الحاقدين على صلاح الدين أمثال الياروقى.
اما نحن فنرى لكل تلك الحوادث تفسيرا آخر نعتقد انه اكثر اتفاقا مع الاحوال والاشخاص :

(١) فرجوع صلاح الدين عن الشوبك سنة ١١٧١م وعن الكرك سنة ١١٧٣م كان أمرا طبيعيا ولولا تلك القصة التى يذكرونها عن اجتماعاته بأمرائه وما يعزونه اليهم من الاقوال لما كان هناك ما يستغرب فى عمل صلاح الدين . فالشوبك والكرك حصنان من أمنع الحصون فى فلسطين وكان فتحهما من أكبر الفتوح التى تغنى بها الاسلام فيما بعد بعدجهود عظيمة ومحاولات متكررة أخفقت مرارا وكان يحميهما جماعة من المحاربين المستبسلين الذين يقاومون حتى لايكون دونهم مايقاومون به مال أو دم . وكان صلاح الدين فى سنة ١١٧١م خارجا من احداث انقلاب بمصر وازالة دولة لها فى البلاد أصل ثابت منذ قرنين وكان لها اتباع وانصار يفكرون فى الدفاع وارجاع الامر الى ما كان عليه ولا سيما انه كان اذ ذاك حديث عهد بثورة السودانيين ولا يأمن أن يترك مصر الا قليلا . ففى سنة ١١٧١ م عندما حاصر الشوبك راى أن الحصن لن يسلم الا بعد أمد قد يطول وأن نور الدين قد يشترك فى الحرب فيجعلها واسعة الدائرة فينتقل من ميدان الى آخر وهو الرجل الذى يحب الجهاد ويجعل حياته له ، فآثر الرجوع وأرجأ فتح ذلك الحصن الى وقت آخر ولو كان يخشى الاقتراب من نور الدين فما كان الذى دعاه ان يفكر

مبتدئا فى غزو فلسطين ؟ أما كان يؤثر من أول الامر ابقاء الصليبيين بينه وبين من يخافه ؟

(٢) وأما فى سنة ١١٧٣م فقد كان صلاح الدين يشم خطرا فى الجو لا تفوته حركة من حركات صديقه وعدوه على السواء فلما دعاه نور الدين الى حصار الكرك لم يستطع أن يمتنع حتى لايسىء سيده به الظن فذهب الى هناك فى شوال وكان هو السابق وظل على الحصار وحده مدة شهرين ثم أقبل نور الدين بعد ذلك متأخرا فى ذى الحجة

ورأى صلاح الدين أثناء ذلك امتناع الحصن عليه ، ولعل نور الدين لو كان اشترك معه من أول الامر لكان الحصن قد سلم او لكان على الاقل هناك تساو فى المجهود يبعث نور الدين على الاكتفاء وترك الحرب الى حين ، فتأخر نور الدين كان معناه أن غياب صلاح الدين عن مصر سيستمر الى مدة أطول ولا سيما وأن جيش نور الدين كان لا يزال جديد الهمة وهو يعرف أن نور الدين اذا بدأ الحرب فلن ينتهى منها الا بعد ان يبلى بلاء حسنا ولن يستطيع صلاح الدين أن يترك الحرب اذا هو بدأ فيها الى جانبه لئلا يكون ذلك تخذيلا . فآثر ان يتبع من اول الامر ما تمليه الرجولة ويوجبه الحذر فأرسل فى ادب معتذرا وأظهر خضوعه بما ارسل من هدايا وانفذ رسوله رجلا يعرف ماكان عليه من صفات ولا يطعن أحد فى اخلاصه وهو الفقيه عيسى الهكارى وكان رجلا شجاعا دينا فلو وجد شيئا

على صلاح الدين من الخيانة لسيده لـكان يفضى بذلك الى نور الدين اذ كان يعتقد أنه المجاهد فى سبيل الله المخلص فى غزواته القائم فى عبادته الزاهد فى دنياه . ولم يكن نورالدين فى قلوب الناس ولا سيما الفقهاء بأقل مما كان صلاح الدين بل ان الناس جميعا كانوا أميل الى الخضوع له واتباعه مما كانوا يميلون الى الفتى الناشىء

ولكن الفقيه لم يذكر الا كل خير ولم نسمع عن نور الدين أنه قال الا جوابا مرضيا

ولكن كان حول نور الدين جماعة من أمثال الياروقى الذين كانوا يرون صلاح الدين قد سلبهم ملك مصر ولابد أن هؤلاء كانوا يحاولون ما استطاعوا أن يظهروا لنور الدين سوء نيـة منافسهم لعله يحقد عليه ويخلعه فيكون ذلك انتقاما لهم منه . فجعلوا يفسرون حركات صلاح الدين بما شاءت لهم نفوسـهم المغضبة

ولا يبعد أبدا بل نرى أن تفسير حركات صلاح الدين بعدم رغبته فى مقابلة نور الدين من وحى هؤلاء واشاعاتهم

أما قصة المجلس الذى جمعه صـلاح الدين بعد رجوعه عن الشوبك فانها تشبه القصص التى نسمعها فى المؤلفات الخيالية حتى أنها لتورد الالفاظ التى قالها أيوب لابنـه فى خلوة وهو ينصحه ألا يقول شيئا فى العلن الا الخضوع لنور الدين ويؤكد له فى نفس الوقت أنه لو أراد نور الدين قصبة من مصر لحاربه عليها . وأن نجم الدين الحريص ليكون ممن ينصح بشىء ويخالفه

ويعلم وهو محتاج الى التعلم لو كان أسمع أحدا ما قاله لابنه اذ ذاك فى خلوته • والا أفليس من المضحك أن يعرف مؤرخ ما قاله نجم الدين لابنه فى خلوة ولا يعرف ذلك نور الدين نفسه ؟

على أن هناك ما يفيد أن سيرة ذلك المجلس وما وقع فيه لم تكن الا خيالا فان ابن شداد وهو القاضى بهاء الدين مؤلف سيرة صلاح الدين وصاحبه فى مسيره وحروبه لم يذكر شيئا عن ذلك المجلس ولم يذكر والد صلاح الدين ولا نصيحته ولكنه نقل الينا وهو مصدق فيما يقول ـ قال سمعت صلاح الدين نفسه يقول : « كان بلغنا أن نور الدين يقصدنا بالديار المصرية وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نرده اذا تحقق قصده وكنت وحدى أخالفهم وأقول : لايجوز ان يقال شىء من ذلك »

فالحقيقة هى ان نور الدين تغير على صلاح الدين واساء الظن به لانه حمل على أن يؤول حركاته وأعماله بغير ما قصده ـ وعزم على السير اليه وصلاح الدين صابر لا ينوى مقاومة ولا يظهر الا الخضوع ولا يبطن الا الاخلاص

(٣) و (٤) وأبلغ من كل ذلك ذكر فتح النوبة والقول بأن ذلك كان مقصودا به فتح أرض تكون ملجأ من نور الدين . والواقع أن تلك الحملة لم تكن الا لتطهير جنوب مصر من بقايا الحرس السودانى الذى كان لا يزال منه بقية ثائرة بالصعيد حتى تكون مصر كلها مطمئنة له من البحر الى أقصى حدودها

الجنوبية وأما فتح اليمن فمن الغريب أن يستأذن صلاح الدين نور الدين لو كان عنده نية المخالفة ومن الغريب أن نور الدين يأذن له بارسال الجيش الى هناك لو كان حقيقة يعتقد أن ذلك الرجل يخون

فالواقع الذى نراه هو أن سوء ظن نور الدين لم يبدأ منـذ سنة ١١٧١ م بل انه قد بدأ يتجسم له من بعد موقعة الـكرك وبعد السماح بحملة اليمن سـنة ١١٧٣ م وأن ذلك الظن لم يتجسم الا من سعى أعداء صلاح الدين ومنافسيه وأن صلاح الدين ظل الى نهاية الامر لايتأثر بما يشاع عن تغير نور الدين عليه • وأما أبوه نجم الدين رحمه الله فلم يكن له من أمر ذلك المجلس المزعوم شيء بل نعتقد انه عندما مات بمصر اثناء المدة التى كان فيها صلاح الدين عند الكرك أو عائدا منها سـنة ١١٧٣ م كان لا يفكر تفكيرا جديا فى أن هناك سوء ظن بين ابنه وبين سيده



ثورة المصريين

لعل صلاح الدين لم يكن فى حياته كلها فى خطر أعظم مما كان فيه فى سنة ١١٧٣ م (٥٦٩ هـ) وسنة ١١٧٤ م (٥٧٠هـ) فان عوامل كثيرة اجتمعت على عداوته ولما لم تجد فرصة تمكنها منه علنا فى ميادين النضال عمدت الى الدسائس والمؤامرات فكان فى مصر حزب موال للشيعة العلوية أصـــحاب الخلافة المنقرضة ، وكان فى جيش صلاح الدين جماعة من الجند لم ينالوا ما يرضيهم فكرهوا حكمه ، وكان بقية من الجنـــد السودانيين الذين يكرهون صلاح الدين لا يزالون بمصر، وكان هناك الفرنج وقد رأوا بلاءه فيهم عند دمياط ، وكذلك كان هناك الاسماعيلية الفدائيون الذين كانوا يميلون الى الفتـــك بمن قضى على دولة علوية مذهبها الدينى مثل مذهبهم • وكان صلاح الدين صاحب ذكاء متوقد وحذر لا تفوته فائتة فأدرك ان بالجو أمورا تنذر بالخطر ولهذا لم يأمن أن يبقى خارج مصر طويلاً فرأيناه يعود من الكرك سنة ١١٧٣ م قبـــل أن يتم فتحها ولم ينتظر لكى يشترك فى الحرب مع نور الدين كما مر • وقد حسب أعداؤه أن الفرصة سانحة لبعد جزء كبير من الجيش فى حـرب اليمن (سنة ١١٧٣ م ـ ١١٧٤ م) فأحكموا أمرهم ودبروا الوثوب به • ولا يسعنا الا أن نبصر ما ارتكبه صلاح الدين من الخطأ

بتسيير حملة اليمن فى ذلك الوقت مع توقعه الخطر ــ ولا نجد مبررا لانفاذ تلك الحملة الى ذلك القطر البعيد الا رغبته فى أن يملك طرف البحر الاحمر من الجنوب كما ملك ثغر أيلة على رأسه من الشمال ليمنع الخطر الذى كان فى ذلك الوقت يهدد البلاد المقدسة من ناحية المسيحيين ، اذ كانوا يفكرون فى حشد أساطيل عظيمة فى ذلك البحر لغرض الاغارة على الحجاز وقبر النبى . ولكن لحسن حظه علم بأمر المؤامرة قبل أن تنفذ خطتهم المحكمة وذلك بسعى زين الدين على بن نجا الواعظ ، فقبض على رؤساء المتآمرين وصلبهم بعد أن حاكمهم وأقروا ، وبذلك قضى على النار قبل أن تشب . ولكنه اذا كان قد قضى على رأس الحية فقد خلف ذنبها ، وسيجد فيما بعد صعوبة فى تحطيم ذلك الذنب كما سيأتى

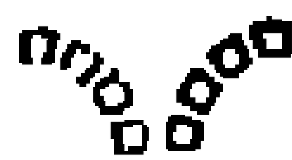
وكان اكبر من صلبهم من رؤساء المؤامرة «عمارة اليمنى» الشاعر وهو الذى حسن الى شمس الدولة أخى صلاح الدين فتح اليمن وكان يباهى بأنه هو الذى أفسح السبيل للمتآمرين بأن حمل شمس الدولة على الاقدام على حملة اليمن وبذلك أبعد جزءا كبيرا من الجيش عن مصر . وكان لعمارة أشعار فى الفاطميين منها :

يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة ... لك الملامة ان أقصرت فى عذلى
بالله زر ساحة القصرين وابك معى ... عليهما لا على صفين والجمل
وقل لاهلهما والله لا التحمت ... فيكم جروحى ولا قرحى بمندمل

وقد أظهر صلاح الدين كعادته حكمة عظيمة فى أنواع

العقاب فانه بعد أن صلب القادة الكبـــــار اكتفى بأن نفى من اشترك فى المؤامرة من أجناد المصريين الى أقاصى الصعيد وتحفظ على من بالقصر من سلالة الفاطميين ـ وأما الذين نافقوا عليه من جنده فلم يتعرض لهم ولم يعلمهم أنه علم باشتراكهم وآثر أن يستميلهم بازالة ما يشكون منه وحدث ذلك كله فى أبريل سنة ١١٧٤ م (رمضان سنة ٥٦٩ هـ)

ولكن الفرنج لم يعلموا أن المؤامرة قد كشفت وقضى عليها . ولهذا جاءوا من البحر الى الاسكندرية فى يوليو سنة ١١٧٤ م (ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ) يحســـــبون أنهم سيضربون جبهة صلاح الدين فيصدعونها على حين يخرج أحلافهم الخونة من خلفه فيجهزون عليه ولكن خاب ما أملوا



وفاة نورالدين

بعد القضـــاء على تلك المؤامرة بنحو شهر ونصف أتى الى صلاح الدين نعى نور الدين العظيم،وانا لا نستطيع الآن نذكر بالاعجاب ذلك البطل (نور الدين) الذى جعل كل حياته وقفا على الدفاع أمام قوم اغاروا على بلاد ليست لهم،واتوا ما أتوا من المظالم فى شعب يرى نفسه حاميا له وملزما بالدفاع عنه. وقد كانت حياته سلسلة حروب لا بأس من أن نسميها جهادا. وقد كان نجاحه فيما قصد اليه نجاحا كبيرا فكون دولة عظيمة ورد تيار الانتصار نهائيا من جانب الصليبيين،فأصبح فى جانب دولة الاسلام،وكان يدعى له على منابر مصر والشام الى الموصل واليمن . على أن دولته كانت على النظام الاقطاعى يحكم كل اقليم منها حاكم شبه مستقل يدين له بالدعوة ويرسل اليه العسكر والمال كلما لزم له حرب . وكان نور الدين فى خلقه مثلا من الامثلة العليا فى الزهد فى غير مرارة ، والتدين فى غير تعصب ، والعدالة فى غير تشدد . وكان هو نفسه فى مقدمة المحاربين لا يتأخر بل يحارب بنفسه غير خائف أن يصاب ولا يطيع من ينصحه بالاحتراس ، ولا أدل على روحه من أن نورد ماقاله مرة ، وقد نصحه ناصح أن يدع الحرب خوف أن يصاب

فيكون فى اصابته هلاك المسلمين فقال : «ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ ان من قبلى من حفظ البلاد والاسلام ، وذلك هو الله »

ولا ندرى كيف كان وقع نبأ موته على صلاح الدين وأكبر ظننا انه أساءه أيما اساءة واحزنه أعظم حزن (١) على أننا لانقدر ان نتناسى أن موته أخرج صلاح الدين من خطر عظيم ، وذلك أن الخلاف الذى دب بينهما بعد سنة ١١٧٣ م كان لابد يصل الى حد بعيد لو بقى نور الدين حيا . ومن يدرى هل كان صلاح الدين يحتفظ الى آخر الامر بما سار عليه الى ذلك الوقت من الحفاظ والاعتدال ؟ !



---

(١) ظل صلاح الدين يذكر مولاه نور الدين بكل حسنة الى آخر حياته وتدل جميع أقواله بعد أن صار السلطان الاعظم فى العالم الاسلامى على أنه ما زال يحن الى ذكرى سيده ويقدس فيه البطل الزاهد العادل

بعد وفاة نور الدين

بعد أن مات نور الدين تركت الدولة الاسلامية الكبرى لابنه الملك الصالح اسماعيل وهو صبى يبلغ من العمر نحو احدى عشرة سنة وجعل مقامه بدمشق وحلف له الامراء الكبار وضربت النقود باسمه فى كل جهة من أول مصر الى أطراف الشام • وكان فى البلاد الشامية والجزيرة عواصم ثلاث أخذت القيادة فى حوادث تلك الايام وهى دمشق وحلب والموصل اذ أن سيف الدين غازى ابن أخى نور الدين (أى ابن عم الملك الصالح) أسرع الى الاستقلال بما يليه من البلاد وأعلن نفسه أميرا على الجزيرة وكان حوله من أمرائه من يحسن له أن يذهب الى الشام ويستولى عليها فليس بها من مانع • ولكنه آثر أن يقنع بالجزيرة وبقيت الشام فى أيدى الملك الصالح أو بقول أدق بقيت فى أيدى الامراء الذين استولوا على الملك الصالح تحت اسم الوصاية عليه وتولى تربيته . فكان الامر فى الواقع فى يد شمس الدين محمد بن عبد الملك المشهور بابن المقدم بدمشق، وشمس الدين على ابن الداية وهو أكبر الامراء النورية وكان فى حلب • وقد شهد الفرنج ما أصاب دولة نور الدين من الصدع بعد موته ، فان مصر صارت مستقلة ولو أن صلاح

الدين كان لا يزال خاضعا فى الظاهر للملك الصالح داعيـــا باسمه على منابره ، وكانت الجزيرة فى يد سيف الدين غازى ، وحلب فى يد شمس الدين بن الداية ، ودمشق والملك الصالح بها فى يد شمس الدين محمد بن المقدم . وكان بين هؤلاء جميعا تنافس على أيهم يسود وكل منهم ينظر الى الآخر مترقبا حذرا أن يثب به اذا هو لقى منه غرة . فانتهز الفرنج الفرصة وألقوا بفرسانهم الى دمشق وما جاورها ، ولم يستطع شمس الدين ابن المقدم أن يقاوم هجماتهم ، أو لعله كان يستطيع ولكنه آثر أن يذل لهم زعما منه أن الامراء فى الموصل وحلب ، وصلاح الدين فى مصر ، اذا رأوه منشغلا فى حـرب آلفرنج ينتهزون فرصة انشغاله فيهبطون على ما فى يده فيسلبون طعمتـــه . وهكذا يضمحل أمر الدول اذا هوى فى أيدى قوم لا يتطلعون الى أبعد من أنوفهم ولا يدركون آلا ما تقدره نفوسهم الصغيرة

فصالح شمس آلدولة بن المقدم الفرنج على مال يعطيـه لهم وأسرى يطلقهم ممن كانوا عند المسلمين منذ حروب نور الدين

وأعقب ذلك بالشام تنافس شديد بين أمير حلب وأمير دمشق على أيهما يستولى على الملك الصالح وأدى ذلك الى أخـــذ الملك الصالح الى حلب ثم الى مفاوضة مع سيف الدين صاحب الموصل أن يأتى الى الشام لكى ينجى دولة نور الدين من سفه أمرائه المتنافسين ولكن سيف الدين أبى أن يتدخل فى ذلك فارتدت المفاوضة الى جهة مصر وبلغت الدعوة صـــلاح الدين ليأتى الى الشام وكان قد فرغ من اصلاح أمر مصر وتثبيت قواعد دولته

فيها . فلبى الدعوة وسار نحو دمشق وبذلك بدأ أول خطوة في سبيل التدخل فى أمر حكام الانحاء الاخـــــرى من الدولة الاسلامية ، ولن ينتهى السير فى ذلك السبيل دون توحيد جميع الدولة في يده فتكون قوة واحدة للجهاد كماكانت فى يد نور الدين . وقد وقع ذلك ما بين سنتى ١١٧٤ م ـ ١١٨٦ م



الفصل الرابع

صلاح الدين
واتحاد مصر والشام

هزيمة الفرنج بالاسكندرية

كان موت نور الدين كما قدمنا مؤذنا بسعى الفرنج من جديد لكى يستردوا ما أخذه منهم ذلك الملك العظيم ، فثاروا بالشام،وذهبوا الى قرب دمشق،وكان ابناءنورالدين ووزراؤهم على غير ماعهد الفرنج من أبيهم العظيم . وكذلك ظن الفرنج الذين اشتركوا فى التآمر على صلاح الدين كما أسلفنا فاعتقدوا أنهم يستطيعون عندذلك أن يضربوا ضربتهم لتكون قاتلة . فاجتمع لهم سفن كثيرة من الشام وصقلية بلغت عدتها نحو ٢٨٢ سفينة وجاءوا الى الاسكندرية ونصبوا المجانيق والدبابات عليها فى يوليو سنة ١١٧٤ م ولكن شتان بين ما لقيهم به صلاح الدين من العدة وبين ما لقيهم به وزير الملك الصالح بدمشق فقد كان أهل مصر واثقين بقائدهم وحاكمهم ولهذا أبدى أهل الاسكندرية من الشجاعة ما أدهش المهاجمين ثم وصلتهم نجدات العسكر فزادهم ذلك صبرا فى الحرب ، ثم بلغ الامر الى صلاح الدين فأسرع بجيش الى الاسكندرية وبالغ فى الاحتياط فأرسل جيشا آخر الى دمياط فلما عرف المدافعون مسيره اليهم دبت فيهم حماسة عظيمة وأبلوا بلاء حسنا فهزم الفرنج ، وغرقت سفن كثيرة وفشلت حملتهم فشلا تاما . ولسنا

ندرى ماذا كان يحدث لو وقع الهجوم من أربعة شهور قبل أن يقضي صلاح الدين على رؤوس المتآمرين فى داخل البلاد !

استتباب الامر لصلاح الدين فى مصر

دخل صلاح الدين مصر أول مرة مع عمه سنة ١١٦٤ م ودخلها آخر مرة مع عمه أيضا سنة ١١٦٩ م ثم أقام بها وزيرا للعاضد الى سنة ١١٧١ م ومن ذلك الوقت صار فيها شبه ملك مستقل خاضع لنور الدين على الاسلوب الاقطاعى . وقابل مشاكل مصر العديدة منتصرا فى كل موقف بغير أن يحدث زعجة أو يثير ضجة ، بل لقد وقف وهو وزير بين نور الدين السنى المجاهد وبين العاضد الفاطمى ، واستطاع بكياسته وحسن اختياره أن يحفظ توازنه ويسير الامور سيرا ناعما ، فلم يحقد عليه العاضد بل ظل على تقديره والاخلاص اليه حتى مات ، وليس أدل على ذلك من طلبه رؤيته وهو فى أشد حال من مرضه قبل وفاته . وكذلك لم يجد نور الدين فى سلوكه مايجعله يندم على اقرار أمره والموافقة على تقديمه امام الجلة من كبار أمرائه . ثم أصبح بعد موت العاضد ملكا على مصر فعلا مع بقائه على الخضوع لنور الدين ، وبدأيشترك فى أمور الدولة الاسلامية العامة فى حين ضبطه لمصر فى داخلها وخارجها ، فاذا قلنا ان سياسته كانت تامة النجاح لم يكن فى ذلك شيء من المبالغة ، اذ ما أتى آخر عام ١١٧٤ م حتى كان قد أسس دولة فتية على راسها جيش واثق برئيسه ، وتدعمها سياسة اقتصادية حكيمة ملأت خزائن الدولة بغير أن تنسى

الاصلاح والتعمير ، واذا كان لرأى الشعب فى تلك العصور قيمة فقد ادرك الشعب المصرى أن فوقه رجلا ولا كالرجال ، بل هو القائد الفذ والمصلح الذى لم يعهد مثله ، فهدأت أحوال مصر وسارت فى سبيل الاطمئنان الذى سيعدها لاستقبال عصرها المجيد أيام دولة بنى أيوب ومن جاء بعدهم من السلاطين المماليك ، فلا نسمع بعد بثورة الا كان القضاء عليها أمرا لا يحتاج لاكثر من أيام ، كالثورة التى قامت بها البقية القليلة من أعداء دولة صلاح الدين وكانت فى الصعيد بقيادة رجل يعرف بالكنز ، فلم تلبث أن قضى عليها قضاء يدل على أن أساس الدولة قد صار راسيا متينا

ولم ينس صلاح الدين أن يجعل لمصر حصنا كما كان لبلاد الشام حصون ولم يرض عن سور القاهرة ولا عن حصنها فصعد فى الجبل ، واختار أقرب رأس منه مشرف على القاهرة ، وفكر فى أن يبنى عليه قلعة . ولانقدر الا أن نرى فى عزمه هذا أثرا من آثار العصر وروحه فان المحاربين عند ذلك كانوا لا يثقون الا فى القلاع سواء فى ذلك الفرنج والمسلمون ، وكان الشرق من الشام الى فارس لا يرى العز والمنعة الا فى القلاع فى تلك العصور المضطربة ، وكانت مصر بلادا سهلة فمن ملك ناصية الجبل المطل على عاصمتها استطاع أن يمتنع على المغير الاجنبى اذا غزا أرباض القاهرة ، وكذلك يستطيع من يملكها أن يظهر لكل ذى عينين فى تلك العاصمة أن هناك قوة كبيرة ماثلة امامه يقبض عليها رأس الدولة ، ويقدر ان يقذف بها على من

يخالفه

ولكن مشاكل الدولة الاسلامية بعد موت نور الدين دعت صلاح الدين الى أن يترك مصر وامورها الى حين ، ولهذا لم يبدأ بناءالقلعة والسور الذىعزمعلى اقامته بينهاوبين القاهرة، بل اجل ذلك حتى يقابل الاخطار التى كانت تهدد دولة نور الدين ، فأسرع الى الثغرة ليسدها لانه شعر أنه وارث العبء بعد وفاة العميد الاول (نور الدين) وأن عليه واجبا كبيرا وهو جمع الازمة فى قبضة واحدة ليتم عمل السابقين فى جهـــاد أعداء الدولة الاسلامية



توحيد مصر والشام

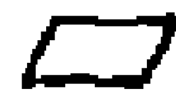
كانت رحلة صلاح الدين الاولى بالشام أشبه شيء برحلة زيارة ، اذ أنه لم يعد عدة حرب ولم يظهر بمظهر الفاتح وانما ذهب اجابة لدعوة توجهت اليه ووجد فى البلاد التى دعته استعدادا للانضمام تحت لوائه ، وسرورا بالاتحاد مع دولته المصرية العظيمة

سار فى نحو سبعمائة فارس فى أواخر عام ١١٧٤ م(٥٧٠هـ) حتى بلغ دمشق ولم يجد حربا لامن أصحاب البلاد المسلمين ولامن المسيحيين الذين على جانب طريقة ، فخرج اليه اهل دمشق وعسكرها ورحبوا به ، واعلن أنه انما جاء فى خدمة الملك الصالح ونصرته وسلمت له القلعة بدمشق ، وحدث الانقلاب بغير سفك دماء . ثم سار الى الشمال نحو حمص وحماه وهو يردد اعلان امره ، وانه انما جاء فى سبيل نصرة الملك الصالح ليمنع عنه جور ابن عمه سيف الدين غازى من جهة، واستبداد أمرائه من جهة أخرى ، واعتداء الفرنج على بلاده من جهة ثالثة . وقد قاومته قلعة حمص حينا الى ما بعد حصار

حلب ثم سلمت اليه . ولكن انضم اليه صديقه القديم (جورديك) وكان حاكما على قلعة حماة ، وسارا معا الى حلب . وكان الامراء الذين مع الملك الصالح يفزعون من أن يستولى صلاح الدين على حلب خوفا من أن يقع الملك الصالح فى يده دونهم ، فقاوموا وجعلوا الملك يستثير حمية أهل حلب للدفاع عنه حتى ساعدوه مستبسلين ، وخرجوا الى حرب صلاح الدين – وقد بذل أمراء حلب فى ذلك الوقت همة فى الدفاع عن انفسهم لم يكن صلاح الدين يتوقع مثلها منهم فقد كان الامر أمر حياة أو موت لهم . ولهذا أرسلوا باسم الملك الصالح يستنجدون بمن يتوقعون منهم المساعدة لا يبالون بشىء الا بأن يخلصوا من خطر صلاح الدين . فأرسلوا الى الفرنج يطلبون مساعدتهم وكان كبيرهم (الكونت ريمون) حاكم طرابلس ويسميه العرب القمص (ريمند) . وكذلك أرسلوا الى «سنان» مقدم طائفة الباطنية الفدائيين الاسماعيلية لكى يرسلوا فتاكهم يغتالون الرجل المخيف الذى قد يعجزون هم وحلفاؤهم عن مقاومته صراحة فى ميدان النضال الشريف ، وأرسلوا الى جهة ثالثة غير مؤملين منها مساعدة وهى الموصل حيث كان سيف الدين غازى

فكان صلاح الدين يحاصر المدينة ويقابل دفاع أهلها الشجعان فى حين كان القمص ريمند يتحرك عليه ليأتى اليه من الجنوب فيقطع عليه خط الاتصال مع قاعدة ملكه . وفى الوقت نفسه ارسل رئيس الاسماعيلية جماعة من رجاله فوثبوا بصلاح

الدين ولكنهم لم يقدروا أن يصلوا اليه . فرأى صلاح الدين ان قوته اقل من مقابلة كل هذه المقاومة التى ماكان يتوقعها وخشى من حركة الفرنج ولكنهم عادوا ولم يخاطروا بمحاربته عندما رأوه يتحرك ضدهم وأما هو فاغتنم الفرصة لكى لا يجعل من ورائه قلعة تهدد ظهره فاستولى على قلعة حمص التى كانت الى ذلك الحين تقاوم واستولى كذلك على بعلبك ثم عاد الى حلب بعد أن جمع من مصر أمدادا لجيشه ، واعد العدة للنضال والحرب الذى لم يكن فى نيته أول الامر



وقد كانت العداوة التى اظهرها امراء الملك الصالح، ومقاومتهم تلك التى استعانوا فيها بالفرنج والاسماعيلية ونزولهم الى وسائل يأباها النضال الشرعى ـ لقد كان ذلك كله سببا فى أن يقطع صلاح الدين اسم الملك الصالح وأن يعلن فى خطبته استقلاله منذ سنة ١١٧٥ م وقد خلع عليه الخليفة العباسى ولقبه سلطانا وأصبح له مكان شرعى فوق قوته الفعلية . فلما عاد الى حلب كما تقدم وجد جنود سيف الدين غازى قد وصلت لان ذلك الامير قد تغلب عليه الخوف من صلاح الدين فبعد أن كان حذرا لا يريد التدخل فى أمور الشام رأى ان يساعد الملك الصالح حتى لا يدع ملك صلاح الدين يقوى ويصبح خطرا على استقلاله فى الجزيرة ، فقابل صلاح الدين جنود الموصل عند (قرون حماه) فهزمهم ثم عاد الى حلب فحاصرها حتى اشتد الامر على من بها ، ففاوضوه فى الصلح على أن يبقى كل من الجانبين

مافى يده من البلاد . وبهذا أصبح ملك صلاح الدين ممتدا من مصر الى حماه وجعل ينظم دولته الجديدة ، فولى على اقطاعها امراء من أهله وممن يثق بهم

غير أن الصلح بين الجانبين لم يدم طويلاً وكان نقضه على يد سيف الدين غازى صاحب الموصل، اذ عاد بعد عام الى حلب وكان صلاح الدين مطمئنا الى المعاهدة التى أبرمها معه فى العام الماضى، فأرسل جنوده الى مصر وكانت تلك غرة منه لو عرف أعداؤه أن ينتهزوها ولكنهم لحسن حظه تباطئوا ولعل ذكر النصر الماضى الذى أحرزه صلاح الدين هو سبب ذلك التباطؤ الذى نشأ عن مبالغة أعدائه فى الحذر . فوجد صلاح الدين زمنا كافيا لجمع الجنود والسير الى أعدائه والراحة بعد جهود السير السريع، وكان لقاء جيش سيف الدين قرب حلب عند (تل السلطان) وهناك كان اسم صلاح الدين وعدم ثقة جنود سيف الدين بقوادهم سببين داعيين الى الانهزام بغير مصادمة ، وهرب سيف الدين عائدا فى خوف الى الموصل تاركا جيشه تحت امرة أخيه عز الدين . وتبع صلاح الدين المنهزمين الى حلب وبعث بعوثه الى الحصون المجاورة مثل منبج واعزاز ففتحهما. وحدث له فى حصار اعزاز حادث يستحق أن يذكر ، وذلك أن فتاكى الاسماعيلية عادوا مرة أخرى الى الوثوب به حتى أن احدهم وصل اليه وضربه فى رأسه بسكين ، ولولا المغفر لقتله، فأمسك صلاح الدين بيده ولكنه لم يقدر على منعه من الضرب فكان يضربه فى عنقه ضربات ضعيفة لم تؤثر فيه اذ كان عليه

الكزاغند (١) يحميه ، واستمر الفاتك يحاول التخلص من قبضته ويضربه حتى أدركه بعض أمرائه فقتلوا ذلك الفتاك فهجم آخر عليه ثم ثالث فقتلا دونه ، ونجا صلاح الدين نجاة عجيبة. ولكنه مع ذلك بقى على حصار قلعة أعزاز حتى فتحها . فأصبحت حلب معزولة وسط أملاكه ورأى من بها ضعف موقفهم ففاوضوا فى الصلح مرة أخرى . ومن العجيب أن صلاح الدين مع انتصاره ومع ماشهده من دناءة أعدائه فى التجائهم الى النذالة فى الكيد له ونقضهم العهد معه نقول من العجيب انه قبل مفاوضتهم ولم يشتط عليهم فى الشرط بل ترك لهم حلب ونزل لهم عن اعزاز اكراما لابنة صغيرة لسيده نور الدين وكانوا اخرجوها اليه فطلبت منه تلك القلعة التى كاد يهلك فى اثناء فتحها ، فأجابها الى ذلك واضاف هدايا ذات قيمة مراعاة لذكرى أبيها . واتفق الجميع ـ فى آخر يوليه سنة ١١٧٦ م ـ على أن يكونوا يدا واحدة على من ينقض العهد

ولنترك هذا التصرف بغير تعليق لعله ينبىء بشىء مما كان عليه صلاح الدين أو لعل فيه ردا بليغا على من يتهمه بقلة الوفاء

---

(١) الكزاغند لباس يلبسه المحاربون فى العصور الوسطى للوقاية من ضربات السيوف

موقف صلاح الدين
أمام أسرة نور الدين محمود

لايضير الرجل العظيم أن يذكر له عيب ، ومتى كان الانسان كاملا ؟ وهكذا أمر صلاح الدين فليس يضيره أن يقول قائل قد كان به نقص ولو كان ذلك النقص خلقيا . فكثيرا ما يعمدرجال الدول ولاسيما رجال السيف الى وسائل تأباها الاخلاق ولكن تبررها الحاجة العملية . فيمر عليها التاريخ متساهلا كأنما يهز رأسه مستسلما لطبيعة الاشياء ، ولكنامع ذلك لانرى رأى من يطعن على صلاح الدين فى موقفه أمام أسرة نور الدين ويتهمه بقلة الوفاء والجحود ، فانا نرى الوقائع كلها تدل دلالة لاشك فيها على ان صلاح الدين كان دائما يؤثر أن يخسر شيئا من الدنيا فى سبيل الاخلاق والقلب ، وماكان هو ممن يتخطون الفضائل فى سبيل شيء من الاشياء ولو كان مما يكبر فى الاعين . حقا لقد سار صلاح الدين الى الشام واستولى على دمشق ثم وقف بعدذلك وحارب جنودا اسمها جنود الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين . وهكذا يقول بعض القائلين لقد كان صلاح الدين رجل طمع فى الدنيا فضحى من أجلها بما كان يجب أن يرعى من ذمة فى بيت له عليه فضل النعمة والتربية

لسنا ندرى ماذا كان هؤلاء يريدون؟ كان الحكم للملك الصالح اسما وتنافس على اسمه الامراء أيهم يسود فيستعمل رقية ذلك الاسم فى الوصول الى غرضه ، وكان من وراء ذلك التنافس أن أصبحت الدولة الاسلامية واهنة محطمة تمد يدا سفلى الى أعدائها الفرنج بعد أن كانت تملى عليهم ارادتها أيام نورالدين. وقد كان صلاح الدين شريكا فى اقامة تلك الدولة العظيمة وشهد من نصرها ما كان يجعله يدرك مرارة الموقف الجديد من الخذلان ، ثم راى الامراء المتنافسين وهم يتهافتون على أشياء لايقيم هو لها وزنا ، وما كان نورالدين العظيم ليرضى عن ابنه ومن استولوا عليه لو أنه شهد ما صنعوا . ولهذا نرى أن صلاح الدين كان يخطىء أفحش خطأ لو هو رضى بما وقع ولم يحرك يدا لمنع الصرح المجيد من أن يهوى الى الارض محطما . وكان من حسن حظ دول الاسلام أنه اتبع ما أملاه عليه قلبه العظيم ، ولم يخش تهمة يتهمه بها جانب من الجوانب مادام هو يحس من نفسه شرف ما هو صانع وخلاص نيته فى القصد الى المصلحة

فترة السلام

اذا قلنا أن صلاح الدين أقبل منذ سنة ١١٧٦ م (٥٧٢هـ) على فترة سلام دام نحو ست سنين الى سنة ١١٨١م(٥٧٧هـ) فليس معنى هذا أنه لم يحارب طول تلك المدة ، اذ أنه لم يخل عام من حياته من حرب منذ دخل ميدان العمل • وقد كان عصره عصر كفاح مستمر وعصر اضطراب وثوران فى داخل النفوس واضطراب وثوران فى العالم الخارجى ، وقد كان هو نفسه نتيجة ذلك الاضطراب الى حد عظيم • واذا فمعنى أن هذه الفترة كانت فترة سلام ينصرف الى علاقاته بالدول الاسلامية فانه يظهر فى هذه السنين الست بمظهر المصلح الداخلى الذى يريد أن يقيم دولته على قواعد ثابتة من القوة الحقيقية،قوة الثروة والقانون . فكان يتردد بين مصر والشام يصلح من أمر مصر بحسب ما تقتضيه حاجاتها الزراعية ، ويحاول أن يحصنها تحصينا يمنع اقليمها السهل أن يكون طعمة للمغيرين ، ولم ينس أن طبيعتها تستلزم حكومة موحدة قوية المركز فقلل من الاقطاع فيها وجعل أمراء الاقطاع الذين فيها لا استقلال لهم ولا تصرف الى جانب الحكومة المركزية وجعل يقيم فيها المدارس والمستشفيات وامثالها من مستلزمات

المدنية المستقرة على حين كان يصلح من أمر بلادالشام بحسب مايقتضيه موقعها ، اذ كان ذلك القطر جبهة الاسلام وميدان النضال بينه وبين القوة المسيحية المغيرة ، فكان من الطبيعى له أن تغلب عليه الصفة الحربية فأقطع بلاده لأمرائه وجعلهم أشباه مستقلين تحت زعامته لا يطمع منهم فى أكثر من أن يتبعوه الى الحرب ويظلوا معه حتى يأذن لهم فيعودون الى بلادهم . وكان فى كثير من الاحوال يدارى هؤلاء الامراء ويقنع منهم بأن يخضعوا راغبين تحاشيا لكثرة الاحتكاك معهم وهم قوم قد جرأتهم كثرة الحروب وضراهم النضال المستمر فلم يكن نضالهم بالهين ولا شوكتهم باللينة

ولعل انصراف صلاح الدين الى اصلاح دولته قد جعل جيرانه المسيحيين يشعرون بخفة وطأة الدولة الاسلامية ، أو لعل ظروف أوروبا ووجود حركة جديدة بها ترمى الى تعزيز كلمة المسيح فى الشام وتجديد قوة الصليبيين التى حطمها نورالدين، او لعل كلا السببين عملا معا على ان يتجرأ الصليبيون ويغيروا على ما يليهم من البلاد الاسلامية التى أخذت منهم فى مدة السنين الماضية ، ولهذا تجد أن صلاح الدين فى هذه السنوات الست لم يكن فى سلام تام ولكن أكثر الحروب التى خاضها كانت مع المسيحيين ولم يكن هو البادىء بها بل كان فى أغلبها مدافعا

على أنه كان بين حين وحين يدخل فى نضال هين مع بعض الامراء المسلمين اما لخروج أمير من أمراء أقطاعه عليه واما لتمنع

جار عن أداء واجب تعهد به



كان أول عمل اهتم له السلطان بعد صلح سنة ١١٧٦ م محاولته القضاء على الاسماعيلية لتكرار اعتداء فتاكيهم عليه. وكان لهم قلاع بالشام أكبرها (مصيات) فذهب اليها ونهب عسكره منها غنائم كثيرة واكتفى بهذا المقدار ورجع عنهم بشفاعة خاله

وبعد ذلك بدأت أول حلقة من سلسلة مواقعه مع الفرنج وكانت الحرب بين الطرفين سجالا ، ولكن صلاح الدين ابتدأ حروبه بانهزام عظيم سنة ١١٧٧م (٥٧٣هـ) عند الرملة وكان ذلك الانهزام نتيجة نقص فى الاحتراس وتراخ فى النظام عند ما كان جيشه يعبر نهرا . وقد قتل فى تلك الواقعة جماعة من أهله وأسر غيرهم ، وكان من أعز الاسرى عليه الفقيه المحارب عيسى الهكارى صديقه القديم الذى كانت له يد كبرى فى منع خروج الامراء عليه عند ما تولى الوزارة بعد موت عمه شيركوه، وقد افتداه السلطان بستين ألف دينار . وكانت كسرة الرملة ذات أثر كبير فى نفسه حتى أنه ذكرها لأخيه شمس الدولة توران شاه فى خطاب قال فيه :

«ذكرتك والخطى يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر»

ويقول أيضا : « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما أنجانا الله الا لأمر يريده سبحانه ».

وقد أطمعت واقعة الرملة المسيحيين فساروا الى حماه وكان

صاحبها خال صلاح الدين « شهاب الدين الحارمى » ولكن حظ الافرنج كان هذه المرة أقل سعداً فانهزموا بعد أيام أربعة ، وساروا الى قلعة حارم (بقرب حلب) وهى داخلة فى دولة الملك الصالح ـ فلم يقدروا على أخذها كذلك ، ثم أغاروا على حمص واكتفوا بنهب ما وصلت اليه أيديهم

وكان صلاح الدين قد عاد الى مصر بعد كسرة الرملة ليصلح ما أفسدته تلك الهزيمة ولم يطل مكثه بها بل عاد الى الشام وكانت عودته فى الوقت المناسب لأن الصليبيين كانوا يسيرون بين حلب ودمشق فى جرأة لم تعهد منهم منــذ نصف قرن . ومنذ عودته الى الشام رجحت كفة المسلمين فهزموا أعــداءهم مرة قرب دمشق سنة ١١٧٨ م (٥٧٤هـ) وسار صلاح الدين بعد ذلك الى حصن كان الفرنج بنوه بقرب دمشق واسمه مخاضة الاحزان وهناك كانت موقعة كبرى سنة ١١٧٩م (٥٧٥هـ) هــزم فيها الفرنج وأسر كثيرا من قواد الصليبيين مثــل مقــدم الداوية رئيس فرقة التمبل او المعبد (١) ومقدم الاســبتارية (رئيس فرقة القديس يوحنا (١)) و (هيو) صاحب طبرية وما زال

---

(١) بعد انشاء الامارات الصليبية الاربعة لم تنقطع البعوث الصليبية عن المجىء الى الشام لامداد الجيش المحارب ضد المسلمين ، ولكن بعد نحو ثلث قرن من انشاء تلك الامارات ذهب الجيل الاول من ابطال الحرب الاولى وشعر المسيحيون بالنقص الذى طرأ على صفوفهم . وكان فى أوروبا منذ القرن العاشر حركة اصلاح فى الدين كانت ترمى الى اعادة الفضيلة المسيحية بانشــاء الاديرة والطوائف الدينية (النساك والرهبان) على مبادىء الزهد والفضيلة، فلما انصرفت الهمة الى الحروب الصليبية كان من الطبيعى لاوروبا ان يفكر قادتها من المتحمسين ، وأكثرهم من رجال الدين فى انشاء فرق من رهبان محاربين يجمعون بين فضائل الزهد والنسك وبين فضائل الانتصار للدين وكانت نتيجة تلك الحركة طوائف اكبرها طائفة التمبلار أو فرسان المعبد ويسميهم العرب (الداوية) وينسبون الى التمبل او المعبد وهو معبد سيدنا سليمان حيث أقامت طائفتهم . ثم طائفة الهسبتاليين أو فرقة القديس يوحنا =

صلاح الدين بعد ذلك النصر حتى فتح الحصن (مخاضة الاحزان) ودمره وألحقه بالارض • ومنذ ذلك الحين استمر الرجحان الى جانب الدولة الاسلامية وأخذ صلاح الدين خطة الهجوم ، وكان يده اليمنى فى هذه الحروب الامير عز الدين (فرخشاه) ابن أخيه (شاهنشاه) وكان بطلا أظهر مقدرة كبرى فى موقعة دمشق سنة ١١٧٨م ، وموقعة مخاضة الاحزان سنة ١١٧٩م وقد جعله صلاح الدين أميرا على بعلبك ومن هناك جعل يهوى على ما جاوره من بلاد الفرنج مثل الكرك سنة ١١٨١ م وكان من أمنع حصون الفرنج وصاحبها البرنس ارناط (رجنالد دى شاتيون) وهو من اشجع أمراء الفرنج كما كان من أقساهم وأكثرهم غدرا

وكان صلاح الدين في أثناء هذه الحروب غير خالص من المتاعب مع جيرانه المسلمين ولكن يجب أن نذكر أن الملك الصالح وسيف الدين غازى (الثانى) بقيا على عهدهما الى أن لحقا بربهما ، وسواء أكان ذلك برا بالعهد أم خوفا من النضال الذى لا أمل فيه فان صلاح الدين لم يذم جوارهما بعد صلح سنة ١١٧٦م وكان أكبر نضاله مع صاحب قونيه وهو (قلج ارسلان) ولا حاجة بنا الى القول أن قلج ارسلان رأى بعد قليل أن الحكمة فى أن يتثنى أمام قوة جاره العظيم

= ويسميهم العرب (الاسبتارية) وينسبون الى مستشفى بناه تجار ايطاليون ونسبوه الى القديس يوحنا تبركا ، وكانت الفرقة فى اول أمرها تقيم فى بنائه فأطلق عليها اسمه

وكان رهبان الطائفتين من اكبر العاملين على الدفاع عن المسيحيين بالشام مدة قرن تقريبا اذ كانوا هم العمود الفقرى لجيش الصليبيين ويعرفون بالفضل والاستقامة والزهد والشجاعة ، وقد اقر المسلمون انفسهم بذلك رغم العداوة التى كانت بين الجانبين

أعمال صلاح الدين بمصر

بين سنة ١١٧٦ م ، ٥٧٢ هـ ـ ١١٨١ م ـ ٥٧٧ هـ .

كان صلاح الدين يتردد الى مصر بين حين وحين عندما يرى يده خالية من أعمال الحرب فى الشام وما يليها ، وكان ينتهز فرصة وجوده فى تلك البلاد لكي يقيم فيها المدنية التي هى جديرة بها ، فقـد كان يحس أن مصر هى الاقليم الذى يليق للمدنية بحكم ثروته وطبيعة موقعه . فان ذلك الوادى الخصب منعزل عن العالم الخارجى بصحارى تكتنفه من الشرق والغرب، وحدوده من الشمال طبيعية لا يسهل على المغير اختراقها لاسيما فى تلك الازمنة ، فلا بد أن تكون منـه دولة وأن تكون دولة عظيمة اذا وجدت من يسـير دفتها تسـيير حـكيم خبـير . وقد أدرك صلاح الدين بعينه الثاقبة وذكائه المتوقد أن عظمة تلك البلاد فى الماضى آية دالة على أنها من أصلح أراضى العالم للمدنية لو عرف أهل الحكم فيها كيف يصلون الى اقامتها من قواعدها الصحيحة . ولكن الحرب عدو للاطمئنان ، والاستقرار والمدنية لا تنبت الا فى جو من الطمأنينة التامة ، ولهـذا رأى أن يجنب ذلك القطر شرور الاضطراب بقدر ماتسمح به الظروف فعمل مافى وسعه لتحصين بلاد الشمال من اغارة الفرنج بعد أن علم

من سبقت لهم اغارة عليها أن حربه تكلفهم كثيرا • ثم رأى أن الوقت لائق لتحصين الداخل ببناء القلعة التى سبق له التفكير فيها وبناء سور حول العاصمة يقيها العدو اذا هو هبط اليها

فبدأ فى بناء القلعة بعد عوده من الشام سنة ١١٧٦ م بعد أن انتهى من الصلح مع الملك الصـــــالح وسيف الدين غازى (الثانى) وبعد أن فرغ من نهب مقر الاسماعيلية كماتقدم ، ولكنه لم يستطع اكمال البناء فى حياته لان الحرب لم تلبث أن دعته مرة أخرى الى ترك ما فى يده من الاعمال الوادعة وخوض غمار الدماء بعد سنة ١١٨١ م وسيظل فى ميدان القتال بعد ذلك الى وفاته

وليست القلعة الحالية التى نراها بالقاهرة هى قلعة صلاح الدين بعينها،فقد دخل عليها من التغيير شيء كثير فى مدة من جاء بعده من أسرته أولا ثم من دولة المماليك بعد ذلك،والذى تم بناؤه من القلعة فى حياة صلاح الدين هو هيكلها وبئر الحلزون الذى حفر فى الصخر الى عمق نحو تسعين مترا،وكذلك السور بين القلعة والقاهرة ــ على حافة الجبل الشرقى فى المكان الذى به (باب الوزير) . وأما سائر القلعة فلم يتم الا فى مدة الملك الكامل ابن أخيه بعد نحو ثلاثين سنة من وفاته • وقد أقام صلاح الدين سورا آخر على حافة الصحراء الغربيـــة بالجيزة تحصينا للقاهرة من الغرب ولكن ذلك العمل كان فى مدة متأخرة بعد عام ١١٨١ م • وبناء القلعة والسور ليس مثل بناء سور القاهرة القديم ولا مثل السور الذى جدده بدر الجمالى فى دولة

الفاطميين ، فان مبانى القاهرة كانت فى الغـالب على النمط البيزنطى منقولة عن مبانى القسطنطينية والدولة الرومانيـة الشرقية .

وأما مبانى قلعة صـلاح الدين فكانت على النمط الفرنجى وليس ذلك بغريب فقد نشأ صلاح الدين فى الشام وحارب فيها وعرف أساليب دفاع الفرنج فى حصونهم ، فكان ذلك النمط أقرب الى نفسه ولعله كذلك كان أوفى بغرضـه من النمط البيزنطى ، وكان يجعل عمـاله فى بنـاء القلعة جماعات من الاسرى المسيحيين الذين كان يأسرهم فى حروبه

لكن نظر صـلاح الدين الى الاصـلاح لم يكن مقصوراً على التحصين ، بل أنه كان يرى أن أساس عظمة الدولة لابد أن يكون الشعب فانصرف الى العناية به

ولقد كان صلاح الدين بطبعه رجل سلام ومدنية ولو أنه كان ملكا فى غير تلك العصور لكان كالمأمون وأمثاله ولكنه اضطر بحكم عصره أن يجعل حياته للكفاح والنضال ، ولذلك نجـد أعمال السلم قليلة الى جانب حروبه العظيمة

فبينما كان يطهر الترع القديمة ويقوى جسور النيل وينظم الضرائب بمساعدة رجال أفاضل مثل القاضى الفاضل والعماد الكاتب كان لا ينسى الوجهة الادبية فأدخل نظاما جـديداً فى التعليم لم يكن من قبل موجودا بمصر وذلك هو نظام المدارس

لقد كان من قبل فى مصر مدارس كبرى مثـل دار الحكمة والازهر وجامع عمرو ولكن الاولى والثانى كانا خاصين بتعليم

أسرار الشيعة والباطنية فكان التعليم بهما مصـــبوغا بصبغة الدعوة الفاطمية . وأما جامع عمرو فكان في الواقع مدرسة صغيرة لا تفي بغرض التعليم العام ولهذا بدأ صلاح الدين بادخال نظام المدارس العامة التي يسمح فيها بالعلم لكل من شاء ، وبدأ في ذلك منذ صار في مصر وزيرا للعاضد الفاطمي . وما زال بعد ذلك يزيد في هذه المدارس حتى صار منها كثير في أنحاء القاهرة مبعثرة من قرافة الامام الشافعي في الجنوب الى سوق السلاح في الشمال، ولعل عظمة الازهر بصفته مدرسة للعلم لم تبدأ الا منذ ذلك الوقت . ولكن لم يكن في تلك المدارس ما سمي باسم صلاح الدين ولعل ذلك كان ناشئا من خلقه المتواضع فلا نعرف الا قليلا من أعماله ما أطلق عليه اسمه قصدا

على أننا لا نستطيع أن نقول أن صلاح الدين أدخل التعليم بالمعنى الحـــديث والا كان ذلك انكارا منا لروح العصر . فان التعليم الدنيوي أي تعليم الناس كيف يعرفون الحياة ويعملون فيها لم يكن القصد من المـدارس في ذلك الوقت ـ فان أكبر ما كان يدرس فيها هو القانون أو الشريعة على المذاهب الاربعة . وأما التعليم الصناعي وغير ذلك من فروع العلم المتعلقة بالحياة المادية فلم يكن ذا شأن في تلك المدارس . بل كان متروكا الى أهل الصناعة أنفسهم كل طائفة تسير عـلى خطتها فيه ويتعلم الصغار بالممارسة طريقة الكبار الذين سبقوهم في الصناعة

وأما التعليم الحربي فكان في داخل الجيش نفسه وكان كل مايتعلق بالاته واستعمالها يتعلمه الافراد ممن نبغوا في هذا الفن .

وكان رجال الجيش كلهم أو على الاقل جلهم من الاتراك والاكراد الذين فى خدمة الامراء فكان التعليم مقصورا على طائفتهم فيدخل الصغير الخدمة ولا يزال بها يتقلب على أنواع الاعمال ويتعلم أثناء ذلك تدريجا ما يؤهله للجندية واستمر هذا الى أن زاد الامر زيادة كبرى فى هذا السبيل عندما صار الجيش من المماليك بعد عصر صلاح الدين وصدر الدولة الايوبية

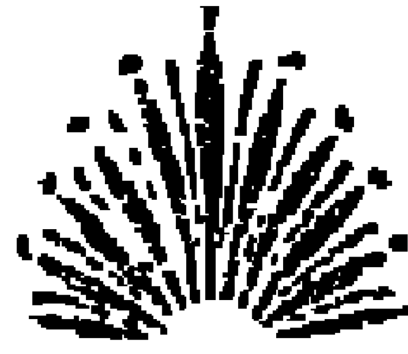
واذا قلنا أن التعليم فى ذلك العصر كان ناقصا من هذه الجهة فليس معنى ذلك أنه كان ناقصا اذا قسناه بما كان فى العالم اذ ذاك فان الواقع كان غير ذلك • لان الدولة الاسلامية كانت فى ذلك العصر هى الدولة المستنيرة ذات العلم والصناعة والمدنية الموروثة عن القرون الماضية من مدنيات الدول الاسلامية السابقة • فى حين كان العالم الغربى لا يزال ناشئا يفتح عينيه لاول أشعة النور الضئيلة

وكان للاصلاح الذى أدخله صلاح الدين أثر عظيم فى مصر بنوع خاص ، وذلك أن مصر بقيت بعد ذلك دولة محصنة قاومت الهجمات العنيفة التى صدمت العالم الاسلامى بعد ذلك بقليل عند هجوم التتار ، ذلك السيل الجارف المخرب، واحتفظت مصر لهذا بكنز من العلم الادبى ودراسة القانون الاسلامى فلم ينحط مستوى الحياة الادبية فى الشرق عامة ، وفى مصر خاصة ، الى المستوى الذى هبط اليه فى القرون الوسطى والعصور المظلمة فى أوروبا بل بقى الشرع عاليا أمام الناس يحفظه كثير من أهل البلاد وتعلو أصواتهم بالاحتجاج على من يعبث بالناس ويخرق

القانون ، فقلل ذلك من سوء الحال أيام الاستبداد الذى هوى اليه العالم الاسلامى فى القرون التى تلت القرن الثالث عشر(١) . ولعل هذا هو السر فى أن الشعب الاسلامى ولاسيما المصرى لم ينحط الى درك العبودية أو شبه الرق الذى كان فيه شعب أوروبا فى عصر جهالته . فقد كان من حفظة الشرع من ينشر على الناس احكام القانون ويعلمهم مايجب عليهم وما يحق لهم ، ومن يرفع منار القانون عاليا أمام الحكام حتى لا تضل أحكامهم ضلالا بعيدا أو تجرفهم فوضى الحروب الى الاستهانة بالحريات . ولهذا كان الشعب دائما محتفظا بكثير من كرامته وحقوقه، وأما ما نسمعه عن مظالم العصور التى أتت بعد القرن الثالث عشر فكان أكثرها مظالم مالية لا شخصية ، وكانت أكثر المظالم الشخصية واقعة على الامراء والجنود وهؤلاء منعزلون تمام الانعزال عن الشعب . فقد كان الامراء يوقعون بعضهم ببعض ويخترقون القانون فى أثناء نضالهم ويرتكبون الفظائع ، ولكن ذلك لم يتعد كثيرا الى الاهالى الذين كان العلماء على رأسهم حماة

(١) مما يجدر بالملاحظة ان الشعب المصرى فى ايام سلاطين المماليك كان بعيدا عن الاهتمام بأمر الحكم فى البلاد وكان كل الامر فى ايدى الجند وامرائهم وهم من المماليك الذين يجلبون من فيافى التركستان او جبال القوقاز . وكان الشعب المصرى آمنا فى صناعته وزراعته وتجارته لا يعبأ بشىء مادام رزقه يأتى اليه ، وكانت الارزاق على وجه العموم فى تلك الدولة تأتى اليه فى رخاء وسعة اللهم الا فى أوقات المحن وانخفاض النيل . وكانت طبقة الحكام تتنازع فيما بينها وكانت فى تنازعها تنزل الى قسوة لا يعرف التاريخ مثلها الا فى مثل تلك العصور المضطربة على أثر الحروب العظيمة ، ولكن تلك القسوة لم تتعد صفوف الجند وكان الشعب فى بعده عن الحكم آمنا وادعا الا أن حاجة الحكام الى الاموال كانت تؤدى فى كثير من الاحوال الى مظالم مالية ، فكان الشعب=

للحريات الشخصية (١) • واستمر هذا الاثر طول مدةاستقلال مصر الى أن تغير الحال بعد فتح الاتراك العثمانيين لها



= يظهر أله وشكواه الى جماعة العلماء الذين أصبحوا علىمر الزمن رؤساءه الوطنيين وكان نفوذهم يزداد عند الشعب والحكام على حد سواء بازدياد البعد بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة • وكان السلاطين اذا سمعوا شكوى الشعب يرددها العلماء لا يسعهم الا الاجابة وازالة اسباب الشكوى فى أكثر الاحوال • ومما كان يزيد فى قوة تلك المطالب انها كانت تتجه على لسان العلماء وهم رجال الدين فكانت الشكوى ترتفع كذلك باسم الدين • والحقأنالدين الاسلامى والشرع أو (القانون) شىء واحد فاذا قلنا ان رجال الدين كانوا حماة الشعب كان معنى هذا ان حفظة القانون كانوا حماة الشعب واذا قلنا ان الدين كان محترما فمعنى هذا ان القانون كان محترما ـ فدراسة القانون (الشريعة) كان لها أكبر اثر فى حفظ مصر من الانحطاط الاجتماعى الذى كانت أوربا تئن منه فى عصرها المظلم فى تلك القرون

(١) يذكر ابن اياس قصصا عدة عن قيام العلماء الى السلاطين وبث شكوى الناس من الضرائب ونحوها فىلغة شديدة ، وعن نزول الحكام على ما يحبه العلماء فى أكثر الاوقات

استئناف الحروب بالشام والجزيرة

لم يستطع صلاح الدين أن يبقى على أعمال الاصلاح رغم ميله للسلم فان الظروف دعته أن يترك العيشة السلمية ويقبض على السيف مرة أخرى . فانه فى مدة الفترة التى سبق الكلام عليها فى الفقرة السابقة توفى صاحب الموصل سيف الدين غازى (الثانى) أحد المشتركين فى صلح سنة ١١٧٦ م وتولى بعده أخوه عز الدين اذ لم يكن له الا ولد صبى صغير،ورأى قواد الدولة أن تولية ذلك الصغير ذات خطر خوفا من أن ينتهز صلاح الدين تلك الفرصة فيضم بلاد الجزيرة والموصل الى دولته

ثم مات الملك الصالح أيضا سنة ١١٨١ م وأوصى أن تسلم حلب الى ابن عمه عز الدين نفسه صاحب الموصل حتى لايتمكن صلاح الدين من أخذها ، وهكذا كان بيت عماد الدين زنكى يخشى كل الخشية أن يذهب ملكه الى صلاح الدين . ومن أجل هذه الخشية كان عز الدين ومن معه من الامرآء يجتهدون فى اثارة المصاعب أمام منافسهم القوى حتى لا يفرغ لهم . ولكنهم دلوا بذلك على أنهم لم يفهموا ما انطوت عليه نفس ذلك الرجل فانهم لو سكتوا عنه لكان أغلب الظن أنه يدعهم حيث هم

فقد كان يقنع بأن يكون آمنا من ورائه بل انه كان يكتفى من فتوحه فى البلاد التى يحكمها حاكم مسلم بأن يخضع له ذلك الحاكم فيقره على حكمه ولا ينقص من سلطته شيئا ، اما وقد حاول هؤلاء أن يخونوه باثارة المتاعب أمامه وتحريض أعدائه الفرنج عليه فقد رأى أنه لن يستطيع التفرغ لعمله آمنا الا بعد ان يأمن ناحية الشمال من قلب حلب والجزيرة . وعلى ذلك نراه ابتدأ بعد موت الملك الصالح بأن يضرب الضربة الفاصلة عند حدود دولته الشمالية

وقد كانت الظروف مساعدة له ـ لان خلافا نشأ بين عز الدين وأخيه عماد الدين زنكى (الثانى) على اقتســــــام تلك الدولة الشمالية ، واستقر بينهما الامر اخيرا على ان تكون حلب لعماد الدين والموصل والجزيرة لعز الدين وبهذا كان أمام صلاح الدين قوتان منقسمتان بدل دولة موحدة تقف فى سبيله

خرج صلاح الدين من القاهرة فى مايو سنة ١١٨٢م (٥٧٨هـ) وكان ذلك آخر عهده بها فقد بقى فى الشام فى حربه وجهاده الى أن مات سنة ١١٩٣ م (٥٨٩ هـ) وقد حدث أثناء وداعه حادث اتفق صدقه فانه كان فى مجلس وداع ينتظـــر اجتماع الجيش ليسير وكان بين الحاضرين معلم لبعض أولاده فأخرج رأسه من الحاضرين كأنه يودع السلطان ، وقال البيت المشهور :

تمتع منْ شميم عرار نجد فما بعد العيشة منْ عرار

فتطير صلاح الدين منه وتنكد المجلس وقد صدق ذلك الفأل فلم يعد صلاح الدين بعد ذلك الى القاهرة حتى مات

ذهب صلاح الدين الى الشام وبدأ باغارات صغيرة على بلاد الفرنج وحاصر بيروت حصاراً قصيرا بمساعدة الاسطول المصرى الذى أصبح عند ذلك قوة يعتد بها فى حـــروبه • غير أنه لم يلبث فى هذه المناوشات طويلا بل قصد الى غرضه الاول وهو حرب الجزيرة فعبر الفرات سنة ١١٨٢ م وساعده جماعة من أمراء عز الدين الموصلى ولهذا تمكن من امتلاك كثير من البـلاد بغير حرب او بحرب يسيرة . وكان عز الدين قد اوعز الى الفرنج أن يهاجموا دمشق ليفرجوا عنه الا أن صلابة صلاح الدين تغلبت فبقى على حربه وحصر الموصل ، على ان مناعة المدينة جعلته يرفع حصارها ويذهب الى بلاد أقل منها مناعة مثل سنجار فملكها وبذلك صار له أغلب بلاد الجزيرة وأصبحت الموصـــل معزولة عن حلب وصار يستطيع أن يهبط الى كل منهما على حـــدة • فالتمس عز الدين مساعدة جيرانه من الامراء مثل شاه الارمن (وهو أمير مسلم) ولكن ذلك لم يجده كثيرا فتفرق عنه حلفاؤه بعد قليل

واستمر صلاح الدين على تملك البلاد الجزرية وشمال الشام مثل آمد وتل خالد وعينتاب وكان انتصاره فيها كما ســـبق القول سهلا فى أغلب الاحوال لميل الامراء الى الانضـــواء تحت لوائه المنصور وترك جانب عز الدين

وفى أثناء هذه الانتصارات على أمراء الجزيرة وشمال الشام كانت الاساطيل المصرية فى البحر الابيض والبحر الاحمر تحرز الانتصارات البـــاهرة على الفرنج حلفاء عز الدين ففى ســـنة

١١٨٢ م انتصر حسام الدين لؤلؤ القائد البحرى المصرى عند أيلة على رأس خليج العقبة ثم عند ساحل الجوزاء فى شمال الحجاز على جماعة من الفرنج أرسلهم البرنس أرناط (رجنالد دى شاتيون) صاحب الكرك ليوقعوا بالمسلمين الذاهبين الى الحج وقد أخذ لؤلؤ جماعة من أسرى الفرنج وأرسلهم الى «منى» لينحروا بها فكان ذلك جوابا قاسيا على محاولة ارناط الفتك بالحجاج المسلمين . وكان الاسطول المصرى بالبحر الابيض يتربص بالفرنج اذا هم قربوا من سواحله وكان كثيرا ما ينقض على سفنهم فيأسر ويغنم حتى اضطر المسيحيون الى عقد هدنة مع صلاح الدين لمدة أربع سنوات تنتهى سنة ١١٨٨ م (سنة ٥٨٤ هـ)

وقد توجت انتصارات صلاح الدين أخيرا بتملكه حلب سنة ١١٨٣ م أخذها من عماد الدين زنكى الثانى صاحبها على أن يعطيه بدلها بعض بلاد الجزيرة ـ وبذلك أصبح آمنا على حدوده الشمالية وصار عماد الدين الضعيف حاكما على غرب بلاد الجزيرة وهى بلاد يسهل عليه فتحها اذا أراد وأصبحت بلاد عماد الدين مانعا من الاصطدام بينه وبين الامير القوى الشجاع عز الدين صاحب الموصل

لم يجد صلاح الدين بعد ذلك صعوبة فى أخذ سائر القلاع الشمالية من الشام مثل حارم ـ وكان يقنع من أصحابها الامراء المسلمين بالخضوع ويصالحهم على اقرارهم على ما فى أيديهم بشرط أن يكون أقطاعا لهم وأن يكونوا هم وعسكرهم معه اذا دعاهم الى الجهاد

آخر النضال مع الموصل

هل كان صلاح الدين ليقنع بدولته هـذه ويرجع الى مصر ليضع أساس ملك ثابت الاركان ؟ أوكان لابد له من الاستمرار على الحرب الى نهايتها المرة ؟ لاحاجة بنا لان نقف طويلا مترددين عند هذا السؤال فقد كان صلاح الدين وارث دولة نور الدين وكان عليه عبء الاستمرار على جهاده مع الفرنج وما كان يقدر أن يخرج على روح العصر وينتحى وادعا مسالما ولا يزال الخلاف بين الشرق والغرب على أشد ما يكون ولم تخب ثائرته ، ولو أنه استطاع ذلك وقعد عن الحرب لاضطر الى الدفاع عن دولته بعد قليل لان الفرنج كانوا اذا شعروا بهدوء فى هجوم المسلمين قاموا الى تحقيق حلمهم القديم وهو تكوين دولة مسيحية عظيمة فى أحشاء الشرق الادنى ـ فكان صلاح الدين مرغما على أن يحارب ، ولهذا رأى بعينه الثاقبة أنه لابد أن يستعد للنضال الذى جعله قصد حياته ولم يبق أمام صلاح الدين بعد ذلك الا خطوة واحدة حتى يصبح سيد كل الدولة الاسلامية بالشـام والجزيرة فيقدر أن يهوى بتلك القوة العظيمة عـلى الصليبين فيضربهم الضربة التى كان يستعد لها طول تلك المدة . على أنه لم ينس أن يجس المسيحيين بين حين وآخر وكان موضع جسه

حصن الكرك وفيه ذلك الفارس الشجاع (ارناط) ، على أنه كان كلما حاصره عرف عجزه عن أخـــذه مع خوفه من جانب الموصل ، وكان موقنا أنه اذا اشتبك مع المسيحيين كان النضال نضال حياة أو موت فلا يفارق احد الجانبين عنق الآخر الابموت واحد منهما ، ولهذا آثر ان يبدأ بعلاج البثرة التى فى جانبــه قبل أن يلج باب النضال الهائل مع أعدائه المسيحيين . وهكذا ذهب الى ميدان الموصل وقضى فيه ما بين سنة ١١٨٥ م - ١١٨٦م (٥٨١ هـ - ٥٨٢ هـ) بين حصار لتلك المدينة وانصراف عنهــا ثم عودة اليها . وكان جماعة من أمراء الجزيرة يصحبونه فلما قرب من الموصل أول مرة سنة ١١٨٥ م أرسل اليه عز الدين يطلب الصلح على يد جماعة من الامراء فأرسل معهم والدته وابنة عمه نور الدين محمود سيد صلاح الدين وغيرهما من النســاء النبيلات . وهناك كان كل الناس يعتقدون آن صــلاح الدين لابد أن يجيب طلب هــذه الوفود لما كان معروفا عنه من رقة الخلق ولاسيما مع النساء ولما كان مشهورا عنه من اجلاله لبيت سيده نور الدين . ولكنه هذه المرة لم يعمل بما يوحيه اليــه قلبه بل رأى الامر أمر دولة يجب ألا يدخل فيه اعتبار العواطف فجمع أمراءه فأشاروا عليه برفض الرجاء وهكذا كان ، وارتكب صلاح الدين برفض طلب هذه الوفود خطأين أحـــدهما خلقى والآخر سياسى وآذا كان الخطأ الخلقى لا يعنى أهــل السياسة فانه على كل حال يعنى من يدرس حياة صـــلاح الدين الذى لا يكاد المدقق يرى شائبه فى خلقــه من قســـوة أو نقص فى

المروءة والشهامة. على أنه قد يغفر له الخطأ لو اعتبرنا الظروف التي كانت تحيط به ورأى كبار أمرائه الذين أكدوا له أن أمر الدولة يجب ألا يدخل فى تدبيره ضعف الرحمة أو الحفاظ . وأما الخطأ السياسى فذلك أنه رفض الصلح وهو غير عارف تمام المعرفة بحال خصمه ، وكثيرا مايطلب الخصم الصلح وهو قوى حتى يخلص من ويلات الحرب أو لعل الخصم يتظاهر بحب السلام لكى يضع خصمه أمام الناس موضع المعتــدى الظالم فيكسب عطف العالم . وعلى كل حال فقد لقى صلاح الدين جزاء تلك الغلطة سريعا ويدلنا على حسن رأيه أنه عرف خطأه بعد قليـــل فعاد يلوم من أشاروا عليه بسلوك سبيل المخاشنة وتحمـــل لوم من لامه وقبح فعله مثل القاضى الفاضل مساعده الكبير بمصر . وقد نجح عز الدين بسلوكه ذلك فى استنهاض همم الناس معه فساعده عامة أهل الموصل وحاربوا مع جنوده مستبسلين . ولهذا لم يقدر صلاح الدين على أخذ المدينة وانصرف عنها مدة قضاها فى بلاد الارمن الاسلامية التى فسد أمرها بعد موت صاحبها (شاه أرمن) فاستولى على ميــافارقين اكبر بلادها وحصونها وأقر أمراءها عليها بشرط أن يكونوا تبعا له على حسب عادته كلما فتح بلدا اسلاميا . ثم رجع الى الموصل فاستمر على حصارها وترددت الرسل بينه وبين عز الدين بالصلح فقبل أخيرا على أن يكون عز الدين تابعا له ويخطب له على منابر بلاده ويكتب اسمه على السكة وينزل له عن كل ما وراء نهــــر الزاب من بلاد الجزيرة . وهكذا استقر الامر أخيرا بين صــلاح الدين وجاره

الشجاع عز الدين الذى يمثل البيت المجيد بيت عماد الدين زنكى • وقد حدثت فى أثناء المفاوضـــة حادثة تستحق أن تذكر وذلك أن صلاح الدين مرض حتى أشرف على الهلاك وكان ابن عمه محمد بن شيركوه قريبا منه وكانت له أقطاع حمص والرحبة فسار الى حمص وجعل يمهد السبيل الى الاستيلاء على الحكم لو مات صلاح الدين ولكن صلاح الدين عوفى وعرف الخبر فلم يمض غير قليل حتى مات ابن شيركوه على أثر ليلة شرب فيها كثيرا من الخمر ـ وتقول السنة السوء أن صلاح الدين دس اليه من قتله بالسم وهو ينادمه • والحق أن المؤرخين يظهرون فى هذه القصة كثيرا من الاحتراس فيقولون دائما « والعهدة على من يقول ذلك » لانهم شاعرون أن مثل هذا العمل لا يتفق وما عرف عن صلاح الدين من الزهـد فى الدنيـــا والتغاضى عن الاساءات ـ فقد كان يعرف من عدوه الغدر ثم اذا رأى نفسه قدر عليه عفا عنه ولم يحرجه بل لقد كان يحسن الى عـــدوه ويتغاضى عن واجب اساءته • فهل كان مثل هذا الرجل ليسم ابن عمه لانه سمع عنه خبر عزم على أن يملك البلاد لو مات ولم يفكر فى الخروج عليه ولا اضرام نار ثورة ؟

وهل كان صلاح الدين يخشى أن يجرد ابن عمه من أقطاعه لو صح عنده العزم على عقابه ؟ انه كان على رأس الدولة يطيعه أمراؤه جميعا ويحبه اهل البلاد والعسكر على السواء ، فما كان من العسير عليه أن يعاقب ابن عمه بأية عقوبة لو رآه مستحقا لهذا • ولئن كان قد خشى من اثارة ثورة بين أمرائه أو بين أفراد

أسرته لو أوقع بابن عمه أما كان يخشى أن يثير ثورة أكبر بمثل هـذا الغدر وتلك الخيانة ؟ على أن صـلاح الدين أثبت اقطاع محمد بن شيركوه لابنه الصغير ولو كان الامر قد بلغ حد أن يسقى الأب السم لماكان يرعى حقه فى ابنه • وقد قال ذلك الابن علنا مرة فى حضرة صلاح الدين قولا يفيد أنه يتهمه بالاستيلاء على شيء من ميراثه لان صلاح الدين كان قد أخذ للدولة أكثر آلاته وخيله وأمواله • ولو كان هناك شك فى آن صلاح الدين شريك فى قتل أبيه لما كان تردد وله تلك الصراحـة أن يتهمه بذلك علنا • ان الظنون تذهب فى الخطأ بعيدا فى العـادة فما بالك وقد اتفق موت الرجل المتهم بعد جنايته فجأة • انه من الطبيعى أن يظن الناس فى الامر شيئا من الاسرار ولاسـيما وقد كان ذلك العصر عصر أسرار خفية كثيرة

على أن هذه القصة تلوح لنا محض رواية خيالية فيما يتعلق بابن عمه محمد بن شيركوه ولعل هناك خلطا بين الحوادث فقد ورد ذكر مثلها عن تقى الدين ابن أخى صلاح الدين وكان بمصر، وذلك أنه أثناء مرض صلاح الدين جرى من تقى الدين حركات تدل على عزمه على الاستبداد بالملك اذا مات السلطان • فلما عوفى بلغه الامر فأرسـل صـديقه الفقيـه عيسى الهـكارى وكان مطاعا فى الجند وأمره باخراج تقى الدين من مصر وأرسل فى نفس الوقت الى تقى الدين يدعوه الى الحضور الى الشـام فعصى تقى الدين أولا وعزم على الخروج الى برقة وكان مملوكه (قراقوش) قد ملكها ولكنه عدل أخيرا وذهب الى الشـام

فأحسن اليه صلاح الدين وأقطعه حماه وبلادا كثيرة غـــيرها بالشام وأرمينيا ولم يعاقبه على شيء مما بدر منه بل أنه (لم يظهر له شيئا مما كان)

فاذا كان هذا سلوكه مع من خالف وحاول العصيان أيكون غدارا قاتلا مع من نوى أن يستقل ولم يتعد عمله النية ؟



الفصل الخامس

الجهاد الأعظم

عرض عام

دانت جميع البلاد لصلاح الدين من آخر حدود النوبة جنوبا وبرقة غربا الى بلاد الارمن شمالا وبلاد الجزيرة والموصل شرقا . هذا عدا تفضيل الخليفة له واعترافه بسلطانه وذلك ليس بالامر القليل . وقد كان فى ذلك مقنع لنفس ذلك الرجل لو كان يريد ملكا ونعمة ، ولكنه كان ينظر الى تلك الدولة نظرة الحارس على مافى حراسته لايرزأ منها الا مقدار اجره . ويرى أن الملك انما هو واجب عليه يؤديه بما تقتضى نفسه ويحتم شعوره بالأمانة . ولهذا كان أقل الناس تنعما بما فى يده من متاع ، ولو كان صلاح الدين فى غير ذلك العصر الذى وجد فيه لانشأ مدنية عظيمة فى مصر والشام وحواشيهما ولازال ما يعوق التقدم السلمى بما استطاع فقد كان لا يحب خوض الدماء ، وكان يكره أن يرى من يحب سفك الدماء . ومما يذكر فى ذلك أن بعض صغار أولاده طلب منه مرة بعض الاسرى ليقتله فلم يرض وزجره ، فقيل له فى ذلك فقال انه يخشى على الولد أن يضرى على سفك الدماء وهو لا يميز بعد بين المقام الذى يستلزم القتل وغيره

وكانت الحرب عنده شرا لابد منه وقد اضطر الى أن يقضى أكثر عمره فى حروب ودماء وذلك لأن روح العصر كانت تقضى عليه أن يكون محاربا طول عمره . فان الصليبيين أتوا من وراء البحار تدفعهم حماسة شبيهة بحماسة الطفولة الى فتح بيت المقدس والقضاء على الاسلام وقد نجحت صدمتهم الأولى فى تكوين دولة مسيحية ولكنها لم تكن دولة بالمعنى الصحيح اذ كان أساسها فوق السطح غير راس على شعب فى البلاد بل عماده جماعات تأتى بين حين وحين من وراء البحار من متحمسى الدين . ولكن الحماسة تخبو كما تخبو النار بعد شدتها ولكل عصر مشاغل وآراء والمشاغل والآراء تتغير ولهذا بدأت الموجة تضمحل على طول القرن الثانى عشر وفى أثناء ذلك كان المسلمون يرون انفسهم اهل بلاد أغار عليهم قوم من الاغراب يريدون سلب بيت يقدسونه هم كما يقدسه أولئك الأغراب وثارت عزة المسلمين من تذكر هزيمتهم أمام قوم كانوا يرونهم أقل مدنية وأدنى مكانة وهم الذين تعودوا فى تاريخهم الماضى أن ينتصروا على سواهم من مسيحيين وغير مسيحيين فى أكثر مواقفهم وكان عصر صلاح الدين لا يزال على هذه العقيدة التى دفعت زنكى ونور الدين الى الجهاد . فكان محتوما على مثله أن يقود الدولة الاسلامية التى أقامها الى حيث تحرز انتصارا جديدا

وكان الوقت ملائما لانتصار صلاح الدين فى جهاده أكثر مما كان فى مدة من سبقه فان زنكى كان أميرا صغيرا يحاول

صدم قوة المسيحيين فى عنفوانها وكان نور الدين يحارب المسيحيين وهم لا يزالون محتفظين بكثير من قوتهم وزادوا عليها فى النصف الأول من القرن الثانى عشر أن كونوا فرقتى الفرسان الرهبان وهما الداوية (فرقة المعبد أو التمبل) والاسبتارية (فرقة الهسبتاليين أو القديس يوحنا) . وكان فرسان هاتين الفرقتين من أكثر المحاربين شجاعة فى الحرب وحماسة للدين . ولهذا كانوا شديدى الوطأة فى حروب المسلمين

فلما أتى عصر صلاح الدين فى أواخر القرن الثانى عشر كان المسيحيون قد انهكهم طول الحرب مع المسلمين نحو نصف قرن او يزيد وكان من يأتى من وراء البحار لامداد الصليبيين بالشام لا يعوض من يفقد منهم أو على الأقل لم يكن الجديد مثل القديم نجدة ودربة . وزيادة على ذلك قد دب الفساد فىداخل الحكم واصبح ملك بيت المقدس مثل أىملكآخر اذاتقادمالعهد على من بنوه ، تتنازعه الدسائس والأغراض وكانت بقية بيت الملك فى أيام صلاح الدين الاخيرة محصورة فى (بلدوين الرابع) أولا (وبلدوين الخامس) ثانيا ، وكان الاول مصابا بداء الجذام ضعيفا لا يستطيع شيئا ، وكان الثانى فى يد أم لم يشهد التاريخ كثيرا مثلها غلظة ولا دناءة . وتشاحن الأمراء على الوصاية وكان أجدر هؤلاء الامراء واشجعهم (ريمون) صاحب طرابلس ـ الا أنه بعد وصايته مدة عزل وتولى بعده رجل احبته الملكة أم بلدوين الخامس . واسمه عند العرب (كى)

وهو (جى دى لوسنيان) ولم يلبث الطفل بلدوين أن مات ويقال ان أمه قتلته

ومن ذلك الوقت بدأ التنافس يتخذ شكلا جديدا ــ فان (كى) كان من أجمل الناس ظاهرا وأدنئهم حقيقة حتى ان اخاه قال مرة : « اذا كان هذا ملكا فما اجدرنى ان اكون الها » وكان من الطبيعى أن كبار الامراء بالشام يحقدون عليه وأكبرهم (ريمون) الطرابلسى . والحقد يدفع الى شىء كثير حتى الى الخيانة ولهذا يلوح لنا أن ريمون بدأ يراسل المسلمين وكانت له يد فى انهزام المسيحيين

الى جانب ريمون كان أرناط (رجنالد أو ارنولد دى شاتيون) صاحب الكرك وهو رجل من أشجع فرسان المسيحيين ولكنه كان غرا متهورا غدارا ــ فاذا كانت خيانة ريمون ساعـــدت المسلمين بتوطئة سبيل النصر لهم فان غدر ارناط وتهـورة قد ساعدا صلاح الدين اذ جعلا الحق الى جانبه وقديما كان الحق قوة للمعتدى عليه ولو بعد حين

موقعة حطين

اذا كان صلاح الدين قد فرغ من مشاغل دولته ودانت له الامارات الاسلامية جميعا فجمع كلَ تلك القوة الهائلة بين يديه واستعد ليقذف بها الصليبيين فيرميهم وراء البحر الذى أتوا منه ، فان الصليبيين فى الناحية الأخرى كانوا على قلق كبير يريدون أن يقوضوا ذلك البناء المخيف الذى علا الى جانبهم يهدد وجودهم بالشام ، وكان جماعة من امرائهم يدفعهم الخطر الداهم الى الاستبسال والاستماتة فى النضال . وكان من هؤلاء البرنس ارناط صاحب الكرك

والى جانب ارناط كان فرسان الداوية والاسبتارية يتحرقون شوقا الى لقاء المسلمين لعلهم يستطيعون بهجماتهم العنيفة صدع دولة صلاح الدين . فكان بذلك المسلمون والمسيحيون على السواء متحفزين للوثوب بحماسة متشابهة وكان مابينهما جو من التحدى مملوء بالمادة الملتهبة تنتظر أول شرارة ليندلع لهيبها فيلتهم كل شيء . ولنذكر أن هدنة سنة ١١٨٤ م التى كان أجلها الى سنة ١١٨٨ م كانت لا تزال قائمة فى سنة ١١٨٧ م

لم يكن ارناط حديث عهد بعداوة المسلمين فقد كانت جنوده تهوى على الحاج والتاجر ، وأساطيله تسير فى البحر الاحمر

تلتمس الفريسة الاسلامية ، ولكنا رأينا أنه لم يجد فى تصيده الا ما لا يصاد من ذوى شوكة حادة أو ناب قاطع • وكأن هدنة سنة ١١٨٤ م طالت به فدفعه تهوره الى خرقها وكان صلاح الدين لا ينتظر الا ذلك الغدر منه ليبدأ بجهاده الذى استعد له

سارت قافلة قيل أن فيها ابنة السلطان وشيء كثير من المال وكانت القوافل تجتاز بقلعته غير خائفة واثقة من العهد الذى بينه وبين السلطان . فأهوى ارناط الى تلك القافلة وغنم منها وقتل واسر . فلما بلغ خبر ذلك الى صلاح الدين ثار ثورة مشروعة ولم يرضه ارناط كما كان ينبغى ، فنذر السلطان أن يقتله بيده لو ظفر به وكانت تلك الحادثة هى الشرارة التى اشعلت نار الحرب التى استمرت ست سنوات ، كانت اعلام صلاح الدين تخفق بعدها على القدس وجميع بلاد الشام ، الا بضعة بلاد على الساحل

ارسل صلاح الدين يجمع الجيوش فى ربيع سنة ١١٨٧م وجعل مركز القيادة العليا دمشق فاتته الجنود من اطراف دولته وكان أول بعوثه اثنين : جعل احدهما الى الكرك بقيادته هو للانتقام ومنع ارناط من مهاجمة الحاج والوقوف فى سبيل العسكر المصرى القادم اليه ، وأرسل الآخر الى عكا لكى يشغل الداوية والاسبتارية عن مساعدة الكرك . وقد نجح فى احراز غرضه من هذين البعثين نجاحا تاما . ومما يجدر بالذكر أن ريمون لم يتحرك أثناء هذا للمساعدة

فلما تكامل الجيش الاسلامى فى الصيف كان أمام صلاح الدين

خطتان : الأولى أن يقف أمام الصليبيين فى معركة فاصلة ، والثانية أن يتابع الخطة القديمة من اغارات متكررة ونهب وسبى بغير معركة فاصلة حتى يضعف أعداءه أولا ثم يضرب الضربة القاضية اخيرا ، ولكنه فضل الخطة الاولى ولعل اكبر ما دفعه الى اختيارها شدة حماسته فقد قال مرة : « ان الامور لا تجرى بحكم الانسان ولا نعلم قدر الباقى من اعمارنا ولا ينبغى أن نفرق هذا الجمع الا بعد الجد بالجهاد »

وهكذا سار الى طبرية فى يوم الجمعة السابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ الموافق ٤ يوليه سنة ١١٨٧ م وكان يتخير لغزواته أيام الجمعة « لتقع حروبه فى وقت تكثر فيه الدعوات والصلوات » . ثم خلف طبرية وراء ظهره وسار الى غربها عندما علم أن الجموع الصليبية جاءت ووقفت له عند جبل طبرية من جهة الغرب . ولكن الصليبيين لم يبرزوا له وتحصنوا فى مواقفهم ، فأراد أن يحرضهم على لقائه فجعل يهبط الى طبرية فيخرب فيها ويغنم ويحرق . وكان قصده من مهاجمة المدينة أن ينفر الجيش الصليبى لمساعدتها فيخرج من أماكنه فيلقاه صلاح الدين فى ميدان مفتوح وقد نجح فى ذلك نجاحا تاما فان الصليبيين تحركوا لنجدة طبرية فعاد صلاح الدين مسرعا عنها وجعل جيشه على الماء وأفنى ماأمامه من ماء الصهاريج وكان الوقت قيظ الصيف فلما أقبل المسيحيون لم يقدروا على بلوغ الماء الذى وراء المسلمين ولم يجدوا فى الصهاريج التى دونهم ماء فكانوا يحاربون على شدة الجهد من العطش

والحر ، ولم يستطيعوا الرجوع الى حيث كانوا خوفا من جيش المسلمين . فكان هذا انتصارا لصلاح الدين قبل أن يضرب ضربة واحدة ، وعلت نفس جنود المسلمين ووثقوا بالنصر قبل اللقاء ، فباتوا الليلة فى تكبير وتهليل بينما كان قائدهم المدرب الذكى الحذر يراقب نظام جيشه ويوقف كلّ جماعة فى مكانها استعدادا للمصاف فى الغد

وحاول المسيحيون فى اليوم التالى بلوغ الماء كلفهم ذلك ما كلفهم ، فمنعهم صلاح الدين من ذلك اذ أدرك قصدهم . وجعل يدور بهم حتى حصرهم حصارا تاما ، ولم يتمكن أحد من الخروج من تلك الدائرة الا (القمص ريمون) فى جماعة قليلة وكان خروجهم من دائرة الحصار مكيدة دبرها ابن أخى صلاح الدين ، وذلك انه رأى أن قتال (ريمون) وجنوده قتال المستميت فأفسح لهم حتى أخرجهم من الدائرة فخرجوا وهم يحسبون ذلك نصرا ثم مالبثت دائرة الحصار بعد ذلك أن التأمت فلم يجد ريمون أمامه غير ترك الميدان والذهاب عن الحرب جملة وضعفت صفوف الصليبيين بذلك النقص فى عدد المحاربين

وبدأت منذ ذلك الحين الهزيمة ـ غير أن المحصورين احتلوا تلا عند حطين وتحصنوا به مع ملكهم (كى) وأبلوا بلاء عظيما فى الدفاع عن انفسهم . وكان المسلمون يكرون عليهم بين حين وآخر فتعود الجنود منحدرة عن التل وهى تحمل من الأسرى والاسلاب شيئا كثيرا وكان من بين ماغنموه صليب الصلبوت،

وكان السلطان يبعث مافى نفسه من حماسة وثبات الى قلوب المحاربين فكانوا تحت عينيه يأتون بالعجائب من أعمال الشجاعة والاقدام ومثل ذلك أن واحدا من صغار مماليكه أخـذته الحماسة عند رؤية سيده وقائده وهو صبى لم يبلغ حد الرجولة فحمل حملة منكرة على الفرنج وهو وحده فأوقع فيهم حتى تكاثروا عليه وقتلوه فلما رآه المسلمون يفعل ذلك أخـذتهم الحفيظة لقتله وثاروا ثورة فصدموا جيش الفرنج صدمة زعزعته وبعد استمرار الهجمات العنيفة حينا هوت خيمة الملك بعـد كرات ثلاثة واستأسر من بقى من الفرسان ، وكان النصر تاما لصلاح الدين وجنده وسجد شكرا لله وبكى من السرور . وكان بين الأسرى الكثيرين فى هذه الموقعـة الملك (كى) والبرنس (ارناط)

« وكان من يرى الاسرى لكثرتهم لا يظن هناك قتلى فاذارأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى »

وقد اكرم صلاح الدين الملك وقدم اليه ماء مثلجا بعـد ماوجد من جهد العطش والدفاع فشرب الملك واعطى فضله للبرنس ارناط ، فقال صلاح الدين عند ذلك : « ان هـذا لم يشرب الماء باذنى » يريد أنه لم يصر آمنا من عقابه . وكان اكرامه للملك لا يعادله شىء الا تقريعه للامير الذى أثار تلك النيران وهو (أرناط) الغادر ، فقال له : «هأنا أنتصر لمحمد» وكان ذلك ردا على سب (ارناط) لمحمد ودينه فيما سبق . ثم عرض عليه الاسلام فكان ذلك سخرا بليغا ، ولكن الرجـل

أبى فسل صلاح الدين النمجاة وضربه بها فحل كتفه وتمم عليه من حضر وبذلك أوفى بنذره الذى سبق أن نذره اذا هو ظفر بعدوه أن يقتله بيده عقابا لما قدم من نقض العهد . وقد اشتد خوف الملك عند ذلك وعظم اضطرابه فأمنه صلاح الدين وسكن جأشه قائلا : « لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك واما هذا فانه تجاوز حده فجرى ماجرى » يشير بذلك الى ارناط. وأما ريمون صاحب طرابلس فقد عاد بعد انهزامه من الموقعة الى صور ثم الى طرابلس حيث مات بعد أيام قلائل

فتح القدس

بعد موقعة حطين التى دامت يومين لم يبق صلاح الدين فى مكانه بل هبط الى طبرية فى اليوم الثالث وهناك سلمت له القلعة وفى أثناء ذلك كان يبعث بمن يريد الابقاء عليهم من الأسرى الى دمشق ويفتك بمن يريد الفتك بهم وكانت يده شديدة على طوائف الفرسان الرهبان « الداوية والاسبتارية » وذلك لما كانوا يبذلون من نفوسهم فى سبيل نصر المسيح بشدة تدعمها حماسة عظيمة وايمان قوى فى عقيدتهم . ولم يلبث صلاح الدين طويلا عند طبرية بل سار الى الغرب نحو عكا فلم يبق أمامها الا قليلا حتى سلمت وهكذا كان انتصار حطين يسبق صلاح الدين الى المدن فتسلم واحدة فواحدة وهى قوية على المقاومة . ومما يسترعى النظر أن صلاح الدين أعطى كل ما للداوية فى عكا لرجل من أصحابه كان على طريقة الفرسان المحاربين اذ كان فقيها محاربا وذلك هو الفقيه عيسى الهكارى

صديقه القديم . وكانت غنائم عكا عظيمة أفادت جنود صلاح الدين ولو أن السلطان نفسه لم يأخذ منها شيئا ، دأبه فيما كان يغنمه فى انتصاراته دائما

وبعد اخذ عكا اندفع تيار النصر بازاء الساحل فأخذ المسلمون كثيرا من مدنها من يافا الى مابعد بيروت واجتمعت فلول الجيوش الصليبية وجند الحصون الساحلية جميعها الى صور وهناك تحصنوا ووقفوا على أقدامهم مرة ثانية بعد أن جرفهم سيل الهزيمة ، وأتى اليهم امداد من وراء البحر بقيادة من يسميه العرب (المركيش) وهو (كنراد دى منتفرات) فقوى ذلك عزمهم على الدفاع

وكان صلاح الدين قد عقد النية على اخذ عاصمة الصليبيين (بيت المقدس) فبعد أن رأى الوية النصر تخفق له على السواحل ورأى الثغور تتفتح لجيوشه بلامقاومةغيرمدينة صور التى بدأت تتحصن وتتجهز ، سار الى قلب فلسطين واخذ كل ما كان بين بيت المقدس والساحل من حصون الداوية واوقف على البحر رجلا من كبار قواده على راس اسطول لكى يمنع اتيان الفرنج الى الساحل قبالة القدس وذلك القائد البحرى هو حسام الدين لؤلؤ المعروف بالشجاعة ويمن النقيبة . فلما أمن هذه الناحية من البحر القى الحصار على العاصمة وعرض على اهلها الصلح على أن يسلموا اليه المدينة نظير تعويضهم أرضا يزرعونها،ولكنهم آبوا ذلك فاستعد لاخذ المدينة عنوة ، وجعل يلتمس فى أسوارها نقطة ضعف

يهاجمها حتى وجدها بعد فحص دقيق قضى فيه خمسة أيام . وكانت نقطة الضعف التى اختارها جهة الشمال عند المكان المعروف بباب كنيسة صهيون . وكانت الجموع فى بيت المقدس كبيرة والحماسة للدفاع ثائرة ، فآثر صلاح الدين الاستعداد بما معه من قوة لاخذ المدينة سريعا قبل أن يفيق عدوه من الضربات التى توالت عليه منذ وقعة حطين ، وقبل أن يأتى امداد متوقع من وراء البحر . فنصب المنجنيقات ونظم الرماة فوصلت جنوده الى الأسوار ونقبوا فيها ثغرات ،وكانوا يظهرون فى هجومهم من البسالة مالا يعادله شىء غير بسالة المحصورين أنفسهم اذ كانوا يخرجون كل يوم على خيلهم يقاتلون مستبسلين . وكان الامراء فى جيشى المسلمين والفرنج سواء فى الاقدام يحاربون فى أول الصفوف ويبعثون فى الناس الحماسة بمثلهم الحسن . وكان مقتل احد الامراء يدعودائما الى ثورة فى نفوس الجند يتردد لها صدى قوى فى اشتداد لهيب الحرب . غير أن ذلك التصادم لم يدم أكثر من اسبوع واحد ورأى المحصورون أن لا امل لهم فى النجاة ، فأرسلوا الى صلاح الدين يفاوضونه فى شروط التسليم ، فتمنع أولا وقال انه لن يرضى بغير أخذ المدينة عنوة ليفعل بالفرنج نظير مافعلوه بالمسلمين يوم أن استولوا على القدس منذ نحو قرن ، ولكنه عاد فرضى بالصلح بعد أخذ ورد طويلين ، واتفق على شروط التسليم وأكبرها أن يدفع المسيحيون ضريبة عشرة دنانير عن الرجل وخمسة عن المرأة واثنين عن الطفل ، فمن أدى ذلك

فى مدة أربعين يوما خرج ونجا ومن لم يؤده صار أسيرا مملوكا . على أنه سمح لليونان وأهل الشام من المسيحيين أن يبقوا حيث هم بين رعاياه ، وكذلك أباح للفرنج أن يقيموا فى فلسطين اذ شاءوا ، وبدأ تسليم المدينة وخروج من يريد منها فى اكتوبر سنة ١١٨٧ م . على أن صلاح الدين لم يصب مالا كثيرا من وراء فداء أسرى بيت المقدس فقد ذهب أكثره لأمراء الجند الذين وقفوا على الابواب يراقبون دفع الضريبة ممن يخرج . وقد أطلق صلاح الدين عددا كبيرا من اهل المدينة بغير فداء ، ومن على نحو ثمانية عشر ألف رجل نظير ثلاثين الف دينار وزنها عنهم أمير من أمراء المسيحيين ، وبقى بعد ذلك عدد عظيم لا يستطيع أن يعطى شيئا وكانوا نحو ستة عشر ألفا ، فتسامح صلاح الدين تسامحا كبيرا فى أمرهم وكان كثير العفو عن نساء الفرنج وشيوخهم وأطفالهم خاصة ، فأطلق لملكة بيت المقدس مالها وحشمها لم ينل من ذلك شيئا، وكذلك فعل بغيرها من كبيرات الفرنج ومن بينهن امرأة (ارناط) نفسه ، واكرم رجال الدين فخرج كبيرهم معأمواله وتحف الكنائس وكنوز ذات قيمة عظيمة فلم يرض أن يتعرض له بل أخذ منه العشرة دنانير المفروضة وسير مع الجميع من يحميهم الى مدينة صور

وقد بلغ عدد من دفع عنهم صلاح الدين الفداء نحو عشرة آلاف نفس عدا من أطلقهم أخوه سيف الدين الكريم ، ورأى جماعة من المسيحيين وهم خارجون يحملون على أكتافهم من

يعجز عن السير لسنه أو ضعفه ، ففرق فيهم مقدارا عظيما من المال وحمل بعضهم على دواب من عنده . وقد أظهر صلاح الدين من التكرم ورقة القلب فى هذا الفتح مايجعلنا نرى حقيقة نفسه واضحة فانه أبى أن يغدر بأحد من فرنج بيت المقدس ولو عظم الداعى الى الغدر وكان لا يعميه تعصب للاسلام عن الرحمة بمن كانوا فى صفوف أعدائه ، بل كان يرحم المتألم وتأخذه الشفقة بالضعيف من امرأة أو طفل تجمعه به روابط الانسانية

ولهذا يظهر لنا فى ذلك الموقف بطلا ينصر جانبا مظلوما على من اعتدى عليه ولم يكن بالقائد الأعمى المندفع الى القتل والعداوة بغريزة القسوة والحقد ، فكان فى ذلك نقيضا واضحا لما كان عليه الصليبيون عند فتح بيت المقدس سنة ١٠٩٨ م

وبعد أن انتهى خروج من اراد الخروج من المدينة دخل بجيشه اليها منصورا وكان ذلك يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٢ هـ . وجعل يصلح ما افسده الحرب والحصار وبدأ فيها الاصلاح بأنواعه فأعاد الابنية الى اصلها بعد أن كان الصليبيون حوروا فيها بحسب أذواقهم وحاجات تعبدهم واقبل على المسجد الاقصى فأرجعه الى حاله الاولى وجعل فيه منبرا كان قد اعده نور الدين محمود بعناية كبرى لينصب بالبيت المقدس اذا فتحه « فكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة » ثم جعل يحسن المسجد

وينمق فيه بأنواع النقوش والفرش بالرخام الثمين والتمويه بالذهب ثم اقبل على الاصلاح الاجتماعى جاعلا المدارس محل الأساس من البناء سيرا على سنته التى اتبعها فى مصر . وبعد أن قضى زمنا يسيرا فى الاعمال السلمية والاصلاح ذهب الى اتمام عمله فى الحرب فقصد الى صور

حصار صور ورفعه وفتوح

سنة ١١٨٨ م ـ ٥٨٤ هـ

كانت صور حصينة بموضعها وزادها منعة ماقام به المركيش (كنراد) من حفر الخندق حولها حتى اصبحت كالجزيرة ، وكانت مثل الكف أو الرأس بارزة فى البحر ويصلها بالساحل طريق كالعنق أو كالساعد وكانت الحرب عند ذلك العنق المتصل بالساحل من أشق الامور على المسلمين اذ كانت الجنود تحاربهم من المدينة امامهم والسفن تحاربهم من البحر من جانبى العنق . فرأى صلاح الدين أنه لا يستطيع اخذ المدينة الا بمساعدة الأسطول فأرسل الى اسطوله المصرى لذلك الغرض ، ولكن قلة عدد السفن التى أتت مكنت الصليبيين من هزيمة المهاجمين ، وبذلك رأى صلاح الدين أن يترك حصارها ، وكان هذا الخذلان مشددا لعزائم الفرنج بعد انهزامهم الكبير عقب حطين . وقد قضى الشتاء من عام ١١٨٧ م فى راحة من الحرب فلما بدأ الربيع من عام سنة ١١٨٨ م كان عليه أن يعود الى الحرب وقد تنفس عدوه راحة مدة طويلة

وفى أوائل سنة ١١٨٨ م ـ ٥٨٤ هـ . قام ببعض غزوات

انتصر فيها انتصارات صغيرة وكانت نتيجتها زيادة تمكنه من الساحل ودخوله الى الاقليم التابع لانطاكية ، وكذلك زيادة تمكنه من الاقليم الواقع بين بيت المقدس والبحر ، وكان لا يزال به بقايا حصون الداويه والاسبتاريه أبطال الصليبيين . وقد انتهت حرب اول سنة ١١٨٨ م بهدنة مع أمير انطاكية (بوهمند) وهو اكبر الأمراء الباقين من دولة الصليبيين . وكان شرط الهدنة لمدة ثمانية شهور نظير ان يطلق بوهمند من عنده من الاسرى . وكان غرض (بوهمند) أن تأتى اليه بعد تلك الفترة مساعدة من أوروبا كما كان غرض صلاح الدين التفرغ للميدان الجنوبى ، فذهب توا اليه لمساعدة الجيوش المحاصرة لقلاعه وفتح اكبر ما بقى من تلك القلاع وهى الكرك والشوبك وصفد وكوكب . وكان صلاح الدين كلما فتح بلدا من تلك البلاد تسليما بغير حرب اذن لاصحابها بالرحيل عنها وكانوا جميعا يختارون مدينة صور . وقد لام كثيرون تلك السياسة وقالوا انها كانت غلطة من صلاح الدين وقصر فى النظر اذ مهد السبيل الى جمع عدد عظيم من المحاربين فى مدينة صور وبذلك خلق لنفسه قلعة حصينة معادية له على الساحل تستطيع مقاومته بمن رحل اليها ، ولكنا يجب الا ننسى أنه عندما اوسع صدره لكل من يسلم واباح ذهاب من احب الى مدينة صور ، قد شجع اعداءه على التسليم بغير حرب وقلل بذلك من ضحايا القتال

وكذلك يجب الا ننسى انه كسب بسياسته شيئا كبيرا وهو

تطهير الداخل من اعدائه وحشدهم جميعا فى جهة واحدة على الساحل ، والحصـون الداخلة فى البلاد لاشك أشد خطرا لو بقيت على المقاومة من حصون الساحل لأن الاولى تتخلل دولته وتهـدد كل حركاته . واما حصون الساحل فيمكن الوقوف دونها ومنع من فيهـا من ولوج البلاد مع شىء من المراقبـة الدقيقة ولا يستطيع قوم البقاء فى السـاحل الا مع استمرار الامداد وتوالى النجدات من الخارج وهذا لا يمكن بقاؤه الى الابد اذ أن حماسة القوم لابد تخبو متى أدركوا ان موقفهم غير طبيعى ولا ينتظر منه نجاح . فكأنه كان واثقا ان دفاع صور لن يدوم بل لابد من سقوطها متى طال عليها الزمن وانقطع عنها مايكفيها من الاقوات والامداد من الخارج ولعل هذا يبرر خطته التى يلوح على ظاهرها انها كانت غير سديدة



الفصل السادس

سقوط عكا

الحملة الصليبية الثالثة

لقد مر نحو قرن على الهزة العظيمة التي اهتزتها أوروبا أيام البابا (اربانوس الثانى) وذهبت أجيـــال من الناس بعد ما سمعوا خطابات الناســك بطرس يســتفز الى تخليص بيت المقــدس من المسلمين ونصرة الصليب . وقد أتى ذلك القرن الذى مر منذ تلك الأيام بتغير عظيم فى أوروبا فكانت الحيــاة الجديدة تتمشى فى شــعوبها وكانت فوضى نظام الاقطاع تكاد تنجلى غبرتها عن حكومات جديدة وكانت عقول أهلها تستقبل العلم القديم الذى اندثر ودفن قرونا عدة وهى تحسبه شيئا جديدا فأخذت تتذوق لذته . ولكن مع كل هذا التغير بقى فى أوروبا شىء كبير من الدافع الأول الى نصرة الدين . ونشأت منه حملة جديدة وهى المعروفة بالحملة الصليبية الثالثة وأنا لنلمح فيها أثر التغــير الذى طرأ على اوروبا ولو ان الظواهر كلها تخدع وتفهم النــاظر السطحى ان هزة أوروبا فى أواخر القرن الثانى عشر هى نفسها التى اهتزتها من قبل فى أواخر القرن الحادى عشر

ماكانت تنقضى سنة من القرن الثانى عشر منذ سنة ١١٠٠ م

بغير أن ترد الى الشـــام وفود من الحجاج المتحمسين بعضهم رجل مسن او امرأة عجوز او طفل صغير وبعضهم شاب او كهل يلتهب شوقا أن يجد الشهادة فى البلاد الطاهرة وهو يقتل المسلمين ، غير أن تلك الوفود ماكانت فى العادة تأتى للحرب قصدا بل كانت اذا وجدت حربا اشترك من يقدر من رجالها وشبانها فيها وكانت الحروب لاتفتر سنة واحدة لاسيما بعد ان نبغ عماد الدين زنكى أتابك الموصل ، وبدأ سيرة جهاد طويل استمر فيه ابنه نور الدين محمود وتلقى من بعدهما ســـيف الجهاد صلاح الدين

غير أن بعض الحوادث كانت تثـير فى أوربا حماســة فوق المعتادة فعندما أخذ الشهيد عماد الدين مدينة (الرها) ثارت فى أوربا ثورة اججهـا بعض نوابغ رجال الدين مثل القديس (سان برنار) وكانت نتيجتها حملة عظيمة يعدها التـــاريخ (الحملة الثانية) متجاهلا ماكان بين الحملة الاولى وبينها من وفود الحجاج والامداد العسكرية التى كانت كما قدمنا تفد بين حين وحين الى الشام . وكذلك ماحدث فى أواخر القرن الثانى عشر ، فقد كانت الجنود تتوالى فى مجيئها الى الشام لنصرة جنود المسيح بالشام أو للأغارة على مصر بعـــد أن اصبحت قاعدة دولة صلاح الدين ، ولكن التاريخ لايسمى هذه الحملات والامداد بل يمر بها لايعدها

فلما سقط بيت المقدس فى يد صلاح الدين بعد وقعة حطين وما تلا ذلك من الانتصار على الساحل وفى الداخـــل ، قامت



ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا

(الانكتار)

قيامة من عويل واستصراخ فى أوربا وأجج رجال الدين النيران كما كانت العادة دائما اذ كانوا أكثر الناس تحمسا للحرب وتخليص بيت المقدس من يد أعداء المسيح ، وبالغوا فى استنهاض الهمم واثارة النفوس حتى غضب للدين مئات الالوف وقام على رأسهم أمراء وملوك وكانت على أثر هذا حرب عظيمة يسميها التاريخ الحرب الثالثة . ويحسن بنا أن نمر سريعا على ذكر الوفود الكثيرة التى بادرت للنجدة آتية من بلاد مختلفة من بلاد البحر الابيض المتوسط فى الجنوب الى بلاد الدانمرك والفلندر فى شمال أوروبا

ولكن لابد لنا من شىء من الاطالة عند ذكر ملوك ثلاثة جاءوا متأخرين بعد هذه الوفود يلبون دعوة المستصرخين ، وهم الامبراطور (فردريك) المعروف بلقب (برباروسا) امبراطور الدولة الرومانية ويسميه العرب ملك الالمان ، والملك ريكارد (قلب الاسد) ملك انجلتره ويطلق عليه العرب اسم (الانكتير أو الانكتار أو الانكلتار) (وفيليب أوجوست) ملك فرنسا ويطلق عليه العرب اسم (الفرنسيس) . أما فردريك فقد كان امبراطورا على دولة عظيمة تشمل ولايات ألمانيا من الشمال وبلاد نهر الرين من الغرب وايطاليا من الجنوب وكانت فى بلاده مشاغل كثيرة أكبرها مسألتان عظيمتان الاولى نضاله مع أمرائه الاقطاعيين والثانية نضاله مع الرئيس الدينى وهو البابا . وقد نجح فردريك نجاحا لا بأس به مع أمراء ألمانيا الذين كان نفوذهم قبل توليته زاد زيادة تضاءل الى جانبها سلطان الامبراطور ،



الفرنسيس (فيليب أوجست ملك فرنسا)

وبعد نضال دام سنين طويلة أمكنه أن يعلى اسم الحكومة المركزية ودان له أكبر أمراء الدولة · ولكنه لم ياق مثل هذا النجاح فى نضاله مع البابا فقد ادى النضال الى حرب كانت سجالا بين الجانبين وانتهى أمره بأن سوى الامر وتصالح الرئيس الدينى مع الرئيس الدنيوى وكان من شروط الصلح أن يتفق الاثنان على من يعاديهما

ولعل أكبر من كان عدوا فى نظر البابا ونظر هذا العصر هو الاسلام حيث كان سواء فى الشرق أو فى الغرب فكان الامبراطور يحب أن يقوم الى حرب المسلمين لكى يعلى من شأن نفسه ويزيد من هيبته وسلطانه وكان البابا كذلك يحب أن تنصرف قوة الامبراطورية الى حرب دينية يصدر الناس ويردون فيها عن كلمته هو اذ كان لا يدفع ولا ينازع فى رئاسة الدين

ألا يلمح الانسان فى هذه الحرب الصليبية دافعا غير الدين والحماسة له والاخلاص للجهاد فى سبيل المسيح ؟ انا لا نستطيع أن نتجاهل الفرق العظيم بين الحالة النفسية فى عصرى الحملة الاولى والحملة الثالثة · فقد قامت الحملة الاولى تلبية لدعوة الكسيوس امبراطور الدولة الرومانية الشرقية وهو مخالف لغرب أوربا فى الدين ولكن حماسة العصر وفكرة الدين غلبت كل شىء فى سبيلها

وأما الحرب الثالثة فلم تكن حماستها الدينية مثل الحماسة الاولى بل دخلتها عناصر دنيوية أخرى

وها نحن نرى للبابا غرضا من تشجيعها وللامبراطور كذلك

غرضا غير وجه الدين والدفاع عنه

وأما (الانكتار) ريكارد فقد كان ملك انجلتره ولو أنه لم يقم في تلك البلاد ويسميه قومه بالملك الغائب وكان من سلالة امتزج فيها دمان : الاول دم النرمان أبناء وليم الفاتح الذى غزا انجلتره فى القرن الحادى عشر، والثانى دم الفرنسيين أمراء انجو

وكان هناك فى ذلك الوقت نضال كبير بين ملوك انجلتره وملوك فرنسا على كثير من ولايات فرنســـا كل منهما يدعى فيها حقا ولكن فى مدة (فيليب أوجست) و (ريكارد) بدأت كفة فرنسا ترجح وجعلت انجلتره تسير فى أول طريق نموها الطبيعى وهو تكوين قومية منعزلة فى جزائرها وانماء نظامها الدستورى تدريجا على يد أمرائها الذين بدؤا يعدون انجلتره بلادهم بعد أن كانت نظرتهم الى فرنســـا أولا انها منشؤهم ووطنهم . وكان ريكارد من أشجع النـــاس على أنه كان من أغلظهم كبدا ولم يكن بالقديس ولا الذى يعبأ بأمر الدين كثيرا فذهب الى الحرب الصليبية محاربا بيده (بلطته) أو رمحه ومعه رماته وفرسانه وهم يلتمسون جميعا فى الشام النصر والمجد الذى التمسه أجدادهم فى ميادين أخرى . ولكن ميدان ذلك الوقت كان مع المسلمين فى الشام .

وأما (الفرنسيس) (فيليب اوجست) فقد كان من سلالة الاسرة الفرنسية الكبيرة التى أولهـا (هيوكابيه) وقامت فى فرنسا على أنقاض دولة أبناء (شارلمان) ، وكانت مدة أسرة (هيوكابيه) يشغلها نضال دموى بين الامراء الاقطاعيين وبين

بيت الملك وكان الانتصار فى أول الامر للامراء حتى لم يكن للأوائل من بيت (كابيه) الا ملك اسمى ، ولكن بدأت الكفه ترجح الى جانب الحكومة المركزية وأخـــذ الملوك يزيدون من نفوذهم وملكهم حتى جاء فيليب أوجست فكان من أكبر من عملوا على اضعاف شوكة الامراء وزيادة نفوذ الملك • وكان انتصاره على أمرائه بفرنسا وعلى منازعيه ملوك انجلتره مما جعله من أكبر ملوك أوروبا الذين توجــه اليهــم الدعوات اذا أزمة أزمت ولهذا قام فيليب الى نصرة الصليبيين بالشام بعد أن هــدأ له الامر فى داخل بلاده • غــير أنه ما كان ينظر الى الحرب الا نظرة ملك عظيم يجب عليه ألا يتخلف عن مهمة تحرك لها غيره من العظماء ولن يلبث أن يعود الى بلاده التى كانت فى نظره محل أداء واجبه وليس بلاد الشام

كل ذلك يظهر لنا أن الذين كانوا زعمـــاء الحرب الصليبية الثالثة لم يهبوا هبة مضطربة صاخبة مثل هبة الحرب الاولى بل ساروا لغرض مدبر وقصد معين • كل يرمى من ناحيته الى هدف يبغى أن يصيبه

على أننا لا نقدر أن نقول أن الحماسة كانت غير متأججة فى نفوس المحاربين ، فان الحماسة بين عامة الجند كانت عظيمـــة ثائرة للجرح الجديد وهو الاستيلاء على بيت المقدس وســـواه من البلاد التى كانت للمسيحيين مدة قرن ثم استولى المسلمون عليها ، ولـــكن تلك الحماسة لم تكن بها شدة الحماسة الاولى ولا مرارتها

ولا يسعنا اذا رأينا ما تخلل تلك الحرب الثالثة من المداعبات بين المسلمين والمسيحيين ومن المزاح أحيانا ، وما كان بين ملوك هؤلاء وأولئك من التقدير والتفاهم أحيانا والاجلال المتبادل ـ نقول لا يسعنا اذا رأينا ذلك الا أن نعد تلك الحرب ميدانا للمسابقة بين الشرق والغرب كل يريد أن يظهر صلاحه وقوته فلم تكن كلمة اليوم بها مثل كلمة اليوم فى الحرب الاولى:

ليس بينى وبين قيس عتاب   غير طعن الكلى وضرب الرقاب



حصار عكا

اجتمع من اجتمع من الفرنج فى صور وأوقف صلاح الدين تجاههم جماعة من رجاله يراقبونهم • وكان يعرف أنه قد ارتكب شرا بسماحه للفرنج أن يذهبوا الى صور من كل جانب ولكنه فى الوقت ذاته كان مضطرا الى ذلك بحكم السياسة ، فكان ذلك فى نظره أهون الشرين ـ وما كان مخيرا الا بين هذا وبين أن يستبسل له كل حصن ويضيع عليه الوقت فى حصارات لاعد لها . وعلى أى حال لقد أصبحت صور مجتمع بقية فرسان الصليبيين ، وزادهم قوة من انضم اليهم من وراء البحر • ولما شعروا بقوة عددهم وأن صلاح الدين لايستطيع حصار مدينتهم جعلوا يخرجون بين حين وحين الى ماجاورهم من البلاد وكان صلاح الدين يدبر لهم الكمائن والبعوث تمنعهم من أن يفسدوا شيئا من بلاده ، وأخيرا استقر رأيهم على أن يذهبوا الى عكا لاسترجاعها فيكون بذلك لهم مينتان عظيمتان على الساحل الاوسط

كان صلاح الدين عند حصن الشقيف فى الجبل ينتظر أن يأخذه فبلغه خبر سير الفرنج من صور نحو عكا • فظن ذلك خديعة منهم يريدون صرفه عن الحصن الذى هو دونه ، فتريث

حتى عرف أنهم جادون فى السير نحو عكا • فأسرع بمكاتبة الامراء ليأتوا اليه ، فاجتمع اليه جيش عظيم وجمع مجلسا حربيا ليختار طريق السير ، أيساير الفرنج على الساحل ويقاتلهم قبل بلوغ عكا أم يلقاهم هناك على المدينة بعد ان يسلك طريقا فى الداخل مارا بطبرية ، فاختار أمراؤه الخطة الاخيرة فهى أهون ، وكان هو غير راض عنها لأن الفرنج متى تركوا آمنين حتى يصلوا الى عكا أمكنهم اختيار المكان اللائق والتحصن حوله فيصعب بعد ذلك حربهم . ولكنه على كل حال اتبع ما أقره المجلس على حسب عادته ـ فقد كان رأى امرائه اكبر من أن يهمله ، وكانت نتيجة ارغامهم على سلوك خطة معينة أخطر من أن يجربها ذلك السلطان العاقل ، فالحق أن سلطته كانت قائمة على قوة شخصه ونفوذه فى أمرائه اكثر مما كانت قائمة على سلطان دولة مركزية قوية

وكان أول هم صلاح الدين عند بلوغه عكا أن يرسل اليها الامداد بعثا وراء بعث قبل أن يستفحل أمرحصار الفرنج لها

وأصبحت المدينة بعد زمن قصير محصورة بالفرنج تحت قيادة ملكهم (كى) والامير الكبير المركيش (كنرآد) ونزل حول الفرنج من الخارج جيش صلاح الدين وكان البحر مفتوحا يمد الفرنج من جهة بما يأتى مع أساطيلهم ، ويمد المدينة خفية لأن أسطول الفرنج فى البحر كان عند ذلك أقوى من أسطول المسلمين .

وهكذا اجتمعت كل قوة الفرنج وكل قوة الدولة الاسلامية

عند عكا فى أغسطس سنة ١١٨٩م شعبان ٥٨٥هـ فكان ماحولها ميدانا واسعا فى البر والبحر ظهرت فيــه من الجانبين آيات باهرة من الشجاعة والتضحية ، وأتى الافراد فى كلا الجيشين أجل أعمال البطولة الخارقة للعادة . حقا لقد كان سباقا عظيما بين الشرق والغرب وقد ظهر فيه كلاهما بمظهره الاسمى كل بحسب طبعه ، وكان كلا الجانبين المتسابقين من جانبه جليلا

واستمر النضال هناك عامين حدث فى خلالهما معارك كثيرة بعضها كبير وبعضها صغير الى أن جاء فيليب ثم ريكارد فى ربيع سنة ١١٩١ م ـ ٥٨٧ هـ . فأصبحت قوة الفرنج أكبر من أن يغلبها صلاح الدين فآثر ترك المدينة اليهم فسلمت بعد قليل فى يوليه سنة ١١٩١ م ـ ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧ هـ . وقد تقلب ذلك النضال بين المتحاربين وحدثت فيه فترات ، ولهذا يحسن تقسيمــه الى أدوار ثلاثة : الاول من أول الحصــار الى هجوم شتاء سنة ١١٨٩ م ـ ٥٨٥ هـ . والثانى من ربيع سنة ١١٩٠م ـ ٥٨٦هـ الى أول شتاء سنة ١١٩٠م . والثالث من ربيع سنة ١١٩١ م ـ ٥٨٧هـ الى سقوط المدينة

الدور الاول للحصار

حدث ماتوقعه صلاح الدين ـ فعنــد ما ذهب الى عكا كان الفرنج قد اختاروا مكانهم وحصروا المدينة حصارا تاما وكان عددهم ألفى فارس وثلاثين الف راجل فكان هم صلاح الدين الاول أن يجعل فى الحصار ثغرة يستطيع أن يصل بها الى المدينة بالجنود والاقوات حتى تقدر على المقاومة . وانفتح الطـريق

اخيرا الى المدينة بعد أن لقى صلاح الدين مشقة عظيمة من مقاومة الفرنج له . وكان كثير الاهتمام أثناء هذا حتى لقد بقى ثلاثة أيام بغير أكل الاشيئا يسيرا . ولكن الفرنج جعلوا يعاودون الكرات حتى يتموا الحصار مرة أخرى فكانت المعارك تحدث كل يوم حول الاسوار ، وهنا نلاحظ أمرا يمكن أن ندرك منه روح الحرب بين الطائفتين فقد جعل الحرب بين جنود المسلمين والفرنج شبه تعارف ومودة ـ وما أغرب ذلك ـ فكانوا بين الهجمات العنيفة يضعون السلاح ويتحدث الجماعة من المسيحيين الى الاخرى من المسلمين . وقد يغنى البعض ويرقص البعض . بل لقد كانوا يمزحون كما فعلوا مرة اذ أتو بصبيين : أحدهما مسلم ، والآخر مسيحى . ووقف الجانبان ينظران الى نضالهما حتى تغلب المسلم وقبض على أسيره المسيحى فافتداه بعض الفرنج المازحين بدينارين . وهكذا كان الناس من الطائفتين يقطعون بعض وقتهم فى فترات الحرب ـ أحقا كان فى هذه الحرب مرارة الجهاد وتجهم الحقد المتأصل فى النفوس وعبوس العداء الذى كانت تمتاز به الحرب الصليبية الاولى ؟

لسنا مبالغين اذا قلنا أن عصر الحرب الصليبية الحقيقية كان قد انقضى منذ أوائل القرن الثانى عشر ولم يبق الا نضال دنيوى يدافع فيه المسلمون عن بلادهم ويحاول الفرنج أن يبقوها فى يدهم اباء وأنفه أن يكونوا مخذولين وحذرا من معرة الهزيمة . وقد بلغ النضال أشده فى هذا الدور من الحصار بعد نحو شهر ونصف من البدء فيه فدارت رحى أشد

معركة شهدتها أسوار عكا . وتقلب فيها الحظ بين الجانبين ولكن ثبات السلطان واخلاص أهل بيته وشجاعتهم وانقياد أمرائه لأوامره ـ كل ذلك جعل النصر للمسلمين بعد أن قتل من الجانبين عدد عظيم ـ ولكن قتلى الفرنج كانوا آلافا قيل سبعة

وبعد هذه الموقعة جمع السلطان مجلسا حربيا كعادته وكان يرى أن هذه الصدمة الاولى لا بد تؤثر فى نفوس أعدائه فاذا تابع الهجوم كان رفع الحصار عن عكا محققا ، ولكن أمراءه رأوا تفضيل الراحة بعد وقوفهم عند عكا نحو خمسين يوما فنزل على رأيهم وكان هذا من غلطاته لأن الراحة أفادت الصليبيين أضعاف ما أفادت المسلمين . ولم يستأنف بعدتلك الراحة قتال جدى فى هذا العام لدخول الشتاء فاكتفى صلاح الدين بادخال المؤن والرجال الى عكا ، وسرح جنوده لمدة الشتاء الذى تكثر فيه الامطار وتتعذر الحركات، وتراجع بباقى الجيش الى الخروبة تخلصا من عفونة الميدان الذى حول عكا لما كان به من جثث القتلى. ولم يكن خالى البال فى أثناء راحته لأنه كان يتوقع مجىء الامداد الى عدوه من أوروبا وكان كل يوم يتطاول به الحرب يزيد من توقع العجز عن رفع الحصار

وكان أكثر ما يرد اليه من أخبار الفرنج يدل على مسير ملك الالمان (فردريك برباروسا) فى جيش عظيم لنصرة الصليبيين

الدور الثاني للحصار

بعد انقضاء فصل الشتاء ارسل صلاح الدين الى أطراف دولته الواسعة يدعو أمراءه لاستئناف القتال في الربيع من سنة ١١٩٠م ـ ٥٨٦هـ فأتت اليه الكتائب يلي بعضها بعضا وجاءته مساعدات من الخليفة ببغداد ٠ وقد استعد هذه المرة بالنفاطين والزراقين الذين يرمون النيران والنفط على آلات الحصار. وقد أبلى في ذلك الشأن بلاء حسنا شاب من صناع دمشق فانه أدخل من التحسين على صناعة النار ما جعلها تحرق آلات الحصار المنيعة التي كان الفرنج يطلونها بطلاء يمنع تعلق النار بها ٠ وكان أشد الآلات على المدينة الدبابات وهي أبراج عالية ذات طبقات يركبها الجنود وتسير على عجل وفي مقدمتها حديد قوى فتصطدم بالاسوار فتصدعها ثم يعمل الجنود المجتمعون بها في الاسوار فيهدمونها

وقد تمكن ذلك الشاب المجتهد من احراقها باختراع سائل يرميه أولا في قدور على هذه الدبابات المدرعة ثم يقذف بعد ذلك النار فيلتهب ذلك السائل ولا يقاوم ناره شيء

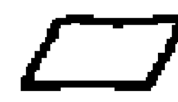
وقد تأخر وصول الاسطول المصرى الى ما بعد أن استؤنف القتال ولهذا وجد صعوبة في الوصول الى الميناء ولم يصل اليها الا بعد أن قام صلاح الدين بهجوم عام من الخارج في البر ليشغل جنود الفرنج فيخفف بذلك الضغط عن البحر، فدارت معركة برية بحرية في وقت واحد وانتهت بانتصار عظيم ودخل الاسطول المصرى عكا محملا بالمؤن والمحاربين ٠ وكان

صلاح الدين يجد فى الحرب خاشيا من وصول ملك الالمان بالمساعدة المنتظرة ، ولكن لحسن حظه كانت حملة ملك الالمان غير موفقة

فقد سار فردريك بارباروسا عن طريق البر من المانيا مخترقا بلاد المجر الى البلقان والقسطنطينية . وكانت تلك الخطة فى الواقع خطة غير ممكنة لأن سير جيش عظيم فىالبر لا بد يؤدى الى احتكاك كثير مع الاهالى ولا سيما فى الدول التى يوجد فرق بين مذهبها الدينى وبين مذهب الغربيين وهذه عامة أمم البلقان

فما زال الجيش يجد صعوبة بعد صعوبة حتى وصل أخيرا الى القسطنطينية وكان ملك القسطنطينية هذهالمرة غير محتاج الى الصليبيين بل لقد كان يخشى زيادة اعدادهم عنده ويكرهأن يجوسوا خلال بلاده ــ ولم يكن سلوك الجيش الالمانى سلوكا يطمئنه على سلامة بلاده فقد أوقعوا شيئا من النهب فيها وطلبوا منه كثيرا من الاموال كأنهم فى بلاد معادية.وكان عند (فردريك) نفسه سوء ظن بالامبراطور الشرقى وهذا ماجعله يطلب منه الرهائن على حسن نيته،ولعلهذا يفسر لنا الخطاب الذى أنفذه امبراطور القسطنطينية (ايساكوس) الى صلاح الدين يذكر له كرهه للالمان وولاءه له.نعم لقد تغيرت الاحوال منذ تلك الايام التى كانت القسطنطينية تطلب مساعدة غرب أوروبا على المسلمين أيام أثار (الكسيوس) نيران الحرب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر

وبعد صعاب جمة عبر (فردريك) المضائق الى آسيا الصغرى وهناك لقى أشد الصعاب من التعب والجوع من جهة ومن المرض من جهة أخرى ومقاتلة فرسان مملكة الروم الاسلامية وملكها(قلج ارسلان)من جهة ثالثة. وقد جاءت الضربة القاضية لذلك الجيش أخيرا اذ مات عميده الامبراطور (فردريك) فى نهر فى شرقى آسيا الصغرى . قال جماعة مات غرقا ويقول متحمسو المسلمين أنه غرق في ماء لا يتجاوز علوه نصف علو الرجل لاظهار يد الله فى الامر . ويقول جماعة آخرون بل مات اذ نزل الى ماء النهر وكان شديد البرد ليستحم فيه عقيب تعب عظيم فمرض من ذلك وقضى المرض عليه



سمع صلاح الدين أولا بالاخبار المروعة وهى اقتراب جيوش فردريك من بلاده عند وصولهم الى شرق آسيا الصغرى وبلاد الأرمن فاتخذ الحيطة وهو القائد الحذر ، فأرسل جماعة كبيرة من أمراء جيشه ليرابطوا على منافذ الشام من الشمال، وحاول أن يهدىء الناس مما نالهم من الفزع لهذه الاخبار ولكنه حاول عبثا فبدءوا يخزنون الاقوات ويستعدون للشدائد ولكن مالبث أن أتته أخبار الضعف الذى انتاب ذلك الجيش العظيم فتنفس الصعداء وفرح الناس بذلك وما زالت الاخبار ترده كل يوم بزيادة الضعف الى أن عرف أخيرا أن فلول ذلك الجيش قد لجأت الى انطاكية وكانت البقية من الجيش العظيم ليست مما يحسب له حساب كبير

وقد شعر الفرنج الذين حول عكا بنقص جنود صلاح الدين عندما أرسل بعض أمرائه الى الشمال لحمايته من جيش (فردريك) فأحبوا أن ينتهزوا الفرصة وهاجموا الجهة التى نقصت جنودها نقصا كبيرا وهي ميمنة جيش صلاح الدين وكان عليها أخوه الملك العادل فدارت هناك معركة عظيمة تعرف باسمه وهى المعركة العادلية

واستمر النضال أكثر النهار واشترك فيه المحصورون فى المدينة فانهم خرجوا على الفرنج من ورائهم أثناء المعركة فتم النصر بذلك لصلاح الدين وقتل من الفرنج عدد كبير يقدره المسلمون بنحو ثمانية آلاف فكان هذا النصر من جهة وأخبار ضعف الجيش الالمانى من جهة أخرى عاملين على فرح عام فى جيش المسلمين زادت له الروح المعنوية فى عكا مع أن الحصار كان قد أثر فى رخائها تأثيرا كبيرا . وهذه الموقعة العادلية أكبر مواقع الدور الثانى للحصار ولكن اذا كان الفرنج قد لحقتهم هذه الهزيمة فانهم احتفظوا بكثير من ثباتهم بقية الصيف ولا سيما وقد جاءتهم أولى مساعدات الصليبيين من غرب أوروبا بقيادة من يسميه العرب (الكندهرى) أو الكونت هنرى) وهو (هنرى دى شمبانيا) قريب ملكى فرنسا وانجلترة فى آن واحد فما كاد صلاح الدين يفيق من الحلم المزعج بالخطر الذى كان يتهدده من قبل الالمان من الشمال حتى أتته طلائع الامداد العظيم الذى أرسلته أوروبا مجتمعة

وبدأ الحصار يشتد مرة أخرى بعد وصول هذه الامدادات

وجعل الفرنج يقذفون أسوار المدينة بالمجانيق بقوة لم يسبق عهد بها غير أن شجاعة المدينة لم تفل أمام هذه الهجمات العنيفة فقد كان (بهاء الدين قراقوش) و (حسام الدين أبو الهيجاء) بين العسكر يوقدون فيهم الشجاعة بأعمالهما وقدوتهما ، فكان المدافعون يخرجون بين حين وآخر فيوقعون بالمحاصرين وقعات ذات شأن بين أسر وقتل ونهب · وكان الزراقون والنفاطون دائبين على الدفاع بالنيران بهمة تعادل همة المحاصرين فى قذف المدينة من الخارج

وقد ظهرت شجاعة الجانبين جليا فى آخر ذلك الدور ، واذا كان لا بد من التمييز بين الجانبين فلا بد من تمييز المحصورين لما بذلوه فى شدتهم من التفانى فى الدفاع والصبر وكان من الافراد من يبذل جهدا خارقا للعادة فى أداء واجبه فكان بعضهم يعوم من المدينة مخترقا صفوف السفن الفرنجية الى أن ينفذ الى صلاح الدين فيحمل اليه الاخبار ويعود بعد ذلك يحمل ما يراد منه أن يحمله من رسائل أو من أموال يشدها حول جسمه ليمد بها المحاربين . واذا كان بين عامة الافراد أبطال لا يسميهم التاريخ فقد سمى التاريخ بطلا من عامة أهل عكا أبلى بلاء عظيما فى أثناء ذلك الدور حتى قضى نحبه وهو يؤدى واجبه وذلك هو عيسى العوام · واشتد الحصار بعد ذلك اشتدادا أعظم حتى صار التراسل غير ممكن الا بالحمام الزاجل بين المدينة وجيش صلاح الدين ولكن مع هذا أمكن السلطان ان ينفذ الى المدينة بعض السفن بين حين وآخر محملة بالمؤن

التى أصبحت المدينة فىأشد الحاجة اليها ـ ولكن كان دخولها المدينة بعد مشقة عظيمة اذ كانت قوة الفرنج فى البحر قد زادت بما انضم اليها من امداد أوروبا • ولعل الذى كان يمكن سفن المسلمين من دخول الميناء أنه كان هناك عند مدخلها برج عظيم اسمه برج الذباب مبنى علىالصخر يحرس الميناء، فاذا عبرته المراكب أمنت غائلة العدو•فلما رأى الفرنج قيمته الحربية جعلوه همهم ودارت حوله معركة عظيمة بذل فيها الجانبان مجهودا كبيرا ولكن الفرنج عجزوا عن أخذه•وفى أثناء حصار برج الذباب وصلت بقية جيش الالمانبقيادة (المركيش) صاحب صور و (دوق سوابيا) ابن ملك الالمان فزاد القتال شدة ، واستمر هذا النضال بعد ذلك شهرين طويلين ظهرت فيهما نفس صلاح الدين وثباته رغم مرضه بحمى صفراوية• وقد تفشى المرض فى الجيش للوخم الذى أصاب الهواء بقرب عكا من كثرة القتلى ، ولكن عزيمة صلاح الدين كانت لا تفل وقد نصحه ناصح مرة أن يترك الميدان لما فيه من الخطر ثم يعود اليه بعد ذلك فتذكر السلطان الحازم خطأه السابق اذ انصرف عن العدو فى الدوز الاول وقال لناصحه : « اذا كان لا بد من الموت فليكن فهو على وعلى أعدائى »

ثم تمثل وقال : « اقتلانى ومالكا واقتلا مالكا معى »

وجعل صلاح الدين يحتال على عدوه بتدبير الكمائن والهبوط عليه بين حين وآخر ولكن لم يجده ذلكوهجم الشتاء قبل أن يستطيع رفع الحصار عن المدينة • وهكذا اضطر أن

ينصرف بقلب ثقيل عن المدينة وجعل يصرف جنوده للراحة مدة الشتاء وهو يشعر بأن المدينة قد حان أجل تسليمها . وقبل الرحيل انتهز فرصة هياج البحر وذهاب أكثر سفن الفرنج من تجاه ميناء عكا لاجئة الى الشاطىء فأدخل الى المدينة جماعات من الجنود والامراء بدل من فيها ممن طال عليهم الدفاع واشتد التعب وأدخل معهم ما تيسر من المؤن والذخائر ولكن لم يكن الاقبال على دخول البلد كثيرا ولهذا لم يدخل من الامراء والجنود عدد يعادل من خرج منها

ولسوء حظ المدينة لم تستطع السفن الآتية من مصر بالمؤن أن تدخل اليها وذلك لشدة هياج البحر فغرقت وتكسرت وكان لذلك أثر كبير فى نفوس من فى المدينة وسيكون أثر هذا أعظم بعد انقضاء الشتاء وعودة القتال واشتداد الحصار فان المدينة ستدخل على الدور الثالث من الحصار وليس بها من المدافعين ولا من المؤن ما يقيمها أمام هجمات عدوها العنيفة

الدور الثالث للحصار

مضى على حصار عكا صيفان وشتاءان وجاء الربيع من سنة ١١٩١م و (سنة ٥٨٧ هـ) . فأخذت جيوش صلاح الدين تجتمع اليه من كل أنحاء الدولة كما بدأ الفرنج يجددون اغاراتهم على المدينة ويشددون حصارها

ولكن المدينة فى هذا الربيع لم تكن على مناعتها فى الدورين السابقين اذ كانت الاقوات فيها قليلة وكان المدافعون عنها أقل عددا وحماسة ممن كان فيها من قبل . وقد زاد الامر شدة

على المدينة مجىء أسطول فرنسى وآخر انجليزى يحملان جنود فيليب أوجست (الفرنسيس) وريكارد (الانكتار)

وقد جاء ريكارد متأخرا قليلا عن جيش الفرنسيس بعد أن أخذ فى سبيله جزيرة قبرص وكان معه خمس وعشرون قطعة كبارا من السفن

وقد اجتهد الفرنج منذ أول هذا الدور فى طم الخندق الذى حول عكا ولكن أهل المدينة صبروا على المقاومة صبرا حميدا فكانت جماعاتهم يخرجون ما يلقى فى الخندق ويلقونه فى البحر تحت حراسة اخوانهم ويجدون فى ذلك مع المشقة العظيمة. وكان صلاح الدين فى الوقت عينه يجد مشقة كبرى فى الهجوم على الفرنج لتحصنهم فى خنادقهم ــ ولهذا أمكن الفرنج أن يضيقوا الحصار على المدينة وصار من أشق الامور ايصال شىء اليها من المؤونة

ولكن لا بد من ذكر أحد البعوث البحرية التى أرسلها صلاح الدين امدادا الى عكا وكان معها ستمائة وخمسون رجلا ومقدار عظيم من المؤن والأسلحة فان المهارة الحربية فى البحر التى امتاز بها الانجليز كانت أكبر مما عهده جنود المسلمين من الفرنج فأحاط الانجليز بالسفن الاسلامية حتى كان لا مناص من استيلائهم عليها ولكن من فيها آثروا الموت فأهووا على جوانب السفن بالمعاول حتى ثقبوها وغرقت وغرق كل ما بها ومن بها وكان قائد هذه البعثة يعقوب الحلبى نذكره فخرا واعجابا

وقد بدأ ملك الانجليز بارسال الرسل الى السلطان منذ أول مجيئه يفاوضه فى قواعد الصلح ولكن شروطه كانت أشد مما يقبله السلطان . فان الضعف اذا كان قد دب فى عكا فان دولة صلاح الدين كانت راسية الاساس متينة لا يستطيع مهاجم أن ينال منها شيئا ولهذا لم تنجح المفاوضات الاولى بل أصر السلطان على أن يظل على الحرب حتى يخضع له عدوه فى النهاية

ولم يخل هذا الدور الثالث من ظهور آيات جديدة تدل على ما كان عليه صلاح الدين من الخلق ولنذكر قصة الرضيع مثلا لهذا وذلك أنه حدث فى بعض اغارات المسلمين أن استولى مسلم على طفل رضيع ، فطار عقل الام وراء ابنها وخرجت الى معسكر المسلمين حتى وصل أمرها الى السلطان . فلما وقفت أمامه وعرف قصتها بكى رحمة لها وأمر برد ابنها اليها فالتمس حتى وجده بعد أن كان قد بيع فى السوق فدفع السلطان ثمنه الى المشترى وسلمه الى أمه وحملها على فرس وأعادها الى معسكر الفرنج

على أن الفرنج وان زاد عددهم لم يكونوا على وفاق فقد كان فيهم رؤساء عدة كل منهم يحسد الآخر ويغار منه فكان هناك الملك القديم (جي دي لوسنيان) أو (كي) كما يسميه العرب وكان معهم المركيش صاحب صور وجاء بعد ذلك فيليب وريكارد

وكان أول من ثار من هؤلاء الرؤساء المركيش فانه هرب

من صفوف اخوانه عائدا الى صور وهناك تنحى عن الميدان حتى قتل كما سنذكر بعد .

وكان صلاح الدين فى هذه المدة كثير الالم لما يراه من الضيق الذى أحاط بالمدينة حتى كان لا يأكل الا قليلا لهمه وغمه . وبدأت ترد اليه رسائل من المدينة يشكو من فيها الضيق والشدة وذلك بعد نحو شهرين من بدء الحرب فى هذا الدور اذ كان الفرنج قد نجحوا فى أخذ الخنادق التى حول المدينة وعملوا تلا مستطيلا من التراب يحتمون وراءه ، وجعلوا يقربون من أسوار المدينة حتى أصبحوا بجوارها ولم يقدر السلطان على مساعدة المدينة مساعدة كبرى مع محاولته ذلك بكل ما استطاع ، فلم يجد من فى المدينة بدا من مفاوضة الفرنج فى التسليم بعد نحو ثلاثة أشهر من تجدد الحرب وكانت شروط الصلح أن تسلم المدينة للفرنج بما فيها من الآلات والعدد والمراكب وأن تدفع نظير الاسرى المسلمين مائتى ألف دينار وتطلق ألفا وخمسمائة فارس من مجاهيل الاسرى الفرنج ومائة فارس معينين وأن يرد صليب الصلبوت — وأن يخرج جميع من فى المدينة سالمين بما معهم من الاقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم ولكن تلك الشروط لم تنفذ كلها كما سيأتى .

وهكذا سلمت المدينة للفرنج فى ١٢ يوليه سنة ١١٩١ م (١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ) بين حزن الجنود الواقفة فى الخارج وألم السلطان الذى كان أشد الناس شعورا بتلك

الصدمة ، وتهليل الفرنج لما نالوا من نصر بعد عامين قضوهما في حرب مهلكة عند أسوار تلك المدينة



كان ميعاد بذل المال لفداء الاسرى شهرين ـ فبعد أن سلمت المدينة كان هناك جانبان كل منهما يشك في نية الآخر فالفرنج وقد أخذهم زهو النصر لا يريدون أن يسلموا شيئا من أسراهم حتى يتأكدوا من المال ، والمسلمون وقد وخزهم الانهزام يريدون ألا يزيد عدوهم قوة بالمال المشروط الا اذا تأكدوا من أنهم يطلقون الاسرى المسلمين ٠ وهكذا بدا الصليبيون بالاحتياط فحبسوا المسلمين الذين في عكا ممن يجب فداؤهم

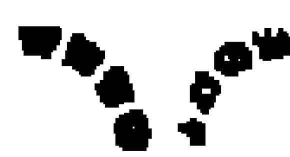
وأما المسلمون فبدءوا في تحصيل المال وعرضوا أخيرا أن يسلموا منه النصف بشرط ان يضمن الداوية (فرسان المعبد أو التمبل) اطلاق الاسرى عند تمام دفع المال لأنهم كانوا أهل دين ومحافظة على العهد يعرفهم المسلمون بذلك٠ فأبى الداوية أن يضمنوا ، وقال الفرنج انهم يصرون على دفع المال كله ولهم بعد وصوله أن يطلقوا من شاءوا ويحفظوا من شاءوا ٠ فشك صلاح الدين في نيتهم وأنهم يريدون وصول المال ليتقووا به ثم يطلقون الفقراء والصغار ويحتفظون بالامراء والاغنياء ليصيبوا من وراء ذلك غنما جديدا يتقوون به ولهذا أبى أن يسلم المال الذى جمعه

ثم استمر القتال بين الفريقين بعد أخذ الفرنج عكا وماكان أشد دهشة المسلمين عندما رأوا بعد القتال جثث أسرى عكا

وقد قتلهم الفرنج وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف رجل وذلك فى اغسطس سنة ١١٩١ م ولم يبق من الأسرى الا الأمراء والاغنياء . وعلى ذلك لم يرسل السلطان المال ولا الاسرى الفرنج ولا الصليب

وانا لا نقدر أن نشدد النكير فى اللوم على الفرنج على ما أتوه ، فلا نستطيع أن ننسب ذلك الى التعصب والكره والحقد كما يذهب جماعة من المؤرخين بل نرى ذلك نتيجة لسوء فى التفاهم بين الجانبين فى وقت كانت العداوة ثائرة والنفوس متألمة بعد قتال عنيف استمر سنتين عند أسوار المدينة وكان ذلك النصر بعد الهزائم المتكررة دافعا بطبيعة الامر الى ارتكاب ذلك الشطط

على أننا لانتمالك الاعجاب بصلاح الدين واعتداله وحكمه لنفسه اذ أرجع أسرى الفرنج الى دمشق سالمين مع شدة غضبه وحنقه على من نقضوا العهد ولم يأخذهم بجريرة اخوانهم



الفصل السابع

صلاح الدين

وريكارد ملك الانجليز

الحرب بعد سقوط عكا

قد كان لاخذ عكا أثر أدبى كبير فوق ما كان له من أثرمادى فى تقوية الفرنج وتخذيل المسلمين فان الصليبيين ساروا بعد أخذها منتصرين وخشى المسلمون بأسهم فكانوا يفرون فىأكثر مواقف اللقاء ولولا ثبات صلاح الدين نفسه وأخيه العادل وبعض كبار الامراء لكان الخطب أعظم ـ وكان قائد الفرنج بعد اخذ عكا فى أكثر الوقت ريكارد وذلك لان فيليب ملك فرنسا عاد الى بلاده عقيب أخذ تلك المدينة ولعل من أسباب عودته ما كان بينه وبين ريكارد من الخلاف والمنافسة

سار ريكارد الى الجنوب على رأس الجيوش الصليبية قاصدا أخذ بلادالساحل ، ثم اذا اطمأن له ذلك نفذ الى الداخل ليستولى على بيت المقدس

وسار صلاح الدين وأمراؤه بازائهم ولكن المسلمين كانوا يسبقون الى الجنوب مسرعين على حين كان الفرنج يتريثون فى سيرهم اما لانتظار المدد من وراء البحر واما للخوف من الكمائن. ولم يحدث قتال يستحق الذكر الا عند ارسوف فى أول سبتمبر سنة ١١٩١ م شعبان سنة ٥٨٧ هـ. وهناك انهزم المسلمون

هزيمة كبرى ولولا ثبات صلاح الدين فى القلب مع جماعة قليلة ، ولولا أثره الشخصي فى تحميس الجنود أو اشعارهم الخجل من فرارهم لكانت موقعة أرسوف نكبة من أكبر نكبات هذه الحرب • ولم يستفد الفرنج من انتصارهم عند أرسوف اذ كانوا دائما يحسبون فرار المسلمين خديعة ويحسبونهم قد أكمنوا لهم الكمائن ـ وزاد فيهم هذا الاعتقاد عندما رأوا فى القلب جماعة ثابتة ، وهى الجماعة الملتفة حول السلطان

ولما رأى صلاح الدين ضعف الحالة المعنوية في جيشه جمع أمراءه عقب الموقعةليروا رأيا فى الخطة التى يجباتباعها فقرروا أن يتركوا الساحل للفرنج ولا يحاولوا المدافعة عن مدينة من مدنه • ولكنهم قرروا تخريب المدن الجنوبية القريبة من حدود مصر حتى لا يتحصن الفرنج بها اذا أخذوها فيكونوا خطرا على المواصلة بين مصر وبين ميدان الشام وتقرر البدء بتخريب عسقلان . وقد تألم صلاح الدين أكبر ألم لذلك اذ قال لأحد ثقاته : « والله لأن أفقد أولادى بأسرهم أحب الى من أن أهدم منها حجرا واحدا ولكن اذا قضى الله ذلك لحفظ مصلحةالمسلمين كان »

وقد بدأ هدم المدينة بعد قليل وسط آلامالناس جميعاوكان صلاح الدين يسرع بتدميرها قبل أن يعلم الفرنجبأمرها خوف أن يسرعوا اليها فيأخذوها قبل اتمام ذلك الغرض ويعيدوا حصونها فتكون لهم بها قوة ومنعة

وكانت تلك الخطة فى الحقيقة خير ما يمكن فى تلك الظروف

إذا نظرنا الى ما كانت عليه النفوس فى جيش صلاح الدين بعد صدمتى عكا وأرسوف • وقد اتبع صلاح الدين خطة التدمير والهدم نفسها فى اللد وقلعة الرملة وذهب فى أثناء ذلك الى القدس يزيد من تحصينها وتجديد أسوارها فكان غرضه ظاهرا من أعماله وهو أن يدع الساحل للفرنج ويقوى الداخل عالما أن أعداءه أقوياء قرب البحر وأن فرصته انما تكون اذا هم بعدوا عنه متوغلين فى الداخل

واستولى الفرنج فعلا بعد قليل على كل مدن الساحل وحاولوا ان يعيدوا حصون عسقلان وسواها مما خربه السلطان وبدأوا يفكرون في غزو الداخل ولكن فى هذه الاثناء دب خلاف جديد بين المركيش (كنراد دى منفرات) وبين الانكتار (ريكارد) وجعلت رسل كل منهما تفد الى صلاح الدين أو الى أخيه الوديع الملك العادل تطلب الصلح ، وقد أدرك (ريكارد) أن الاستمرار فى الحرب غير ممكن وأنه ان أحرز نصرا مرة أومرتين فلن يقدر على طول النضال ولهذا أراد أن ينتهز فرصة ضعف الروح فى الجيش الاسلامى ليفوز بشروط رابحة ـ فكانت رسل المركيش تأتى عارضة شروطا للصلح ورسل الانكتار تأتى عارضة شروطا أخرى كما يفعل المتنافسان وكان الملك العادل هو السفير فى المفاوضات فى أكثر الاحيان

وكانت شروط المركيش ان تكون له صيدا وبيروت على أن يكون حليفا للمسلمين ضد الفرنج

ولكن صلاح الدين كان غير واثق من صدق نيته فاشترط

عليه أن يبدأ بحرب الفرنج ومهاجمة عكا قبل أن يصالحه

وأما شروط الانجليز فقد كانت الاستيلاء على القدس وارجاع الصليب وأخذ البلاد التى بين نهر الاردن والساحل وأن يكون تحالف بين الدولة الاسلامية والصليبيين ويتزوج الملك العادل بأخت الانكتار ويكونا معا حاكمين على الدولة الجديدة بمقتضى المعاهدة ، ولكن تلك الشروط لم تُرق أحدا من الجانبين

والظاهر أن الجنود الاسلامية بدأت تسترجع قواها بعـــد شهرين من سقوط عكا وبدأت تقف ثابتة وتحرز بعض النصر فى مواقف الحرب وبدأ الانكتار يرى الحقيقة التى كان انتصار عكا أخفاها عن عينه وهى أنه ليس من الطبيعى أن ينتصر فى بلاد بينها وبين مقر دولته سفر طويل فى البحر ، ويكون النصر على قوم فى وسط بلادهم تتجدد قوتهم بعـــد حين اذا ضعفت وتأتى الى ميدان النضال فيها كتائب تحل محل من قتل ومن أسر . ولهذا بدأت المفاوضة من جديد وكانت الشروط هذه المرة ألين وأهون . ومما يسترعى النظر أن المفاوضة بين الجـانبين كانت تتخللها فكاهات ومداعبات وهدايا ومجاملة فيحمـــل الملك العادل من طعام المسلمين وتحفهم الى الانكتار ويحمل الانكتار من طعام الانجليز وتحفهم . حتى اذا ما اجتمع الاثنان تجاذبا اطراف الحديث من سمر ودعابة وفكاهة ينسى الانسان معها أن هذه مفاوضة فى حـــرب مرة ثار لهيبها طول قرن لم يخب ولم ينطفىء ـ حتى لقد نشأت شبه محبة بين العـــادل وريكارد واستمرت الى أن آنتهى الامر بالصلح أخيرا

وكان صلاح الدين فى أثناء كل هذا لا يرغب رغبة حقيقية فى الصلح على تلك الشروط فكان لا يرضى بدون خروج الفرنج من جميع البلاد ولكنه كان يرضى بدخول أخيه فى المفاوضة لكى يضرب جانب المركيش بجانب الانكتار ويحدث له من وراء ذلك الربح والفوز ولعله كان أميل الى المعاهدة مع المركيش لانه كان يرى أن شروطه أهـــون شرا وأنه اذا بقى فى بلاد الساحل فلن يكون شديد الخطر بل يسهل طرده منها بعد حين • ولكن الامراء رأوا أن الصلح مع الملك (ريكارد) أتم وأضـمن للسلم لقوته وشجاعته

وقد دخل شتاء سنة ١١٩١ بغير أن يتم صـــلح مع أحـد الجانبين • فرجع صلاح الدين الى الداخل وعاد ريكارد الى عكا على أن المفاوضات لم تنقطع بين المسلمين وطائفتى المركيش من جهة وريكارد من جهة أخرى • وقد أراد صلاح الدين أخيرا أن يبرم الامر على ما يراه هو وأن يصـــالح المركيش اذ رأى أن الصلح معه يضعف الفرنج فاذا تم له النصر أخيرا على ريكارد سهل عليه أمر المركيش • ولكن ما لبث أن سمع بنبأ قتـــل المركيش فى صور قتله اثنان من أصحابه على قول جماعة ويقول آخرون : بل قتله اثنـــان من الفدائيين من طائفة الباطنيـــة الاسماعيلية • ويعتقد الجميع أن قتله كان بدس من أعـــدائه ولكن هناك خلافا فتقول طائفة أنه قتل بايعاز صـــلاح الدين ويقول آخرون : بل قتل بايعاز ريكارد • ولكن مهما يكن من الامر فان صلاح الدين لم يدس على المركيش من قتله وذلك لعـــدة

أسباب يكفي أحدها أن يكون برهانا قاطعا • فان صلاح الدين لم يكن رجل الدسيسة والغدر ـ حقا كان يجاهد ويحـــارب ولكنه كان يحارب في الميدان المفتوح واثقا من النصر اذ كان يرى الحق معه ولم تكن في حياته شبهة من غدر أو خيـــانة • وكذلك لم يكن صلاح الدين على وفاق مع الاسماعيلية بل أنه كان موتورا منهم لسابق اعتدائهم عليه • ولئن كان لصـــلاح الدين غرض في الغدر فكان الاولى به أن يغدر بعـــدوه الاكبر ريكارد وكانت فرص الغدر به كثيرة لو شاء وما كان أقـــرب اليه اذا كان رجل غدر أن يدس على (ريكارد) من يقتله أثناء اجتماعه بأخيه للمفاوضة أو يدس له السم في الطعام الذي كان يأكله من يد المسلمين آمنا . وهل يتهم صلاح الدين ـ وهو الرجل الذي كان يرسل لعدوه الدواء وهو مريض ـ بأنه يدس على عدو آخر من يقتله ؟ !

وقد رأينا أن صلاح الدين كان أميـل الى مصالحة المركيش وانه كان يرى المصلحة في الاتفاق معه ليكون مساعدا له على الصليبيين فكان من مصلحته أن يبقى حيا وليس أن يدس عليه من يقتله في الوقت الذي كان قد استقر رأيه فيه على مصالحته وتفضيل التعاهد معه على مصالحة ملك الانجليز

فيلوح لنا أن الحقيقة هي أن (ريكارد) صاحب الدسيسة كما أقر القاتلان نفساهما • وأن قتله كان على يد اثنين اما من المسيحيين المتحمسين واما أنه استأجر اثنين من الاسماعيلية وقد تنكروا في زي المسيحيين لهذا الغرض

ومن السهل أن نتصور الباعث على قتله فان المركيش كان في نظر الصليبيين خائنا خارجا على الدين مواليا لاعداء المسيح ثائرا على أوليائه



الميدان الاخير

دخل ربيع سنة ١١٩٢ م ـ ٥٨٨ هـ فاجتمع الجنود المسلمون الى صلاح الدين ولم يجتمع الى ريكارد الا فلول جيشه القديم وقد خبت ثورة النصر الذى أحرزوه فى العام المنصرم الا أنه كان لا يزال على عزمه فى خطته الاولى وهى أن يدخل الى بيت المقدس بعد الاستيلاء على الساحل الجنوبى فلما تم له أخذ الساحل فى العام الماضى جعل غرضه من حرب هذا العام الاستيلاء على بيت المقدس فما زال يسير من منزلة الى منزلة وجنود صلاح الدين بازائه وكان السلطان قد حصن بيت المقدس وقسم أسوارها على أمرائه مصمما أنه لن يترك عدوه يستولى على تلك العاصمة كما استولى على عكا ولهذا أخذ أمر الدفاع عنها فى يده • ووصل الفرنج أخيرا عند موضع اسمه بيت نوبه على مرحلة من بيت المقدس وهناك بدأوا يترددون ثم وقفوا • ولم يحدث فى وقوفهم هناك أكثر من نهب قافلة عظيمة كانت آتية من مصر بالذخيرة ويقال ان عدد جمالها كان سبعة آلاف جمل فاستولى الفرنج على ثلث منها وتشتت منها ثلث فى البرية ووصل الثلث الاخير الى الكرك محتميا بها

ولكن هذه الخسارة لم توقع الرعب فى قلب صلاح الدين

بل زادته تصميما على الدفاع واعدادا لعدته فبالغ في تحصين بيت المقدس وأفسد الماء الذى فى ظاهر المدينة وكان فى هـذه الاثناء شديد الوجد كثير الدعاء لله بالنجدة يتخلل دعاءه البكاء وما كان أشد دهشة المسلمين بعد هذا كله اذ سمعوا بعودة الفرنج الى الساحل • ولعل سبب رجوعهم ما سـمعوه من استعداد صلاح الدين لهم وكان عدد جنودهم غير كاف لاتمام حصار المدينة من كل جانب لاسيما والمدينـة يحيط بها واد منخفض من أكثر جهاتها ، وهـذا يدعو الى تشتيت القـوة المحاصرة .

وكان الفرنج يخشون التشتت لعلمهم بأن المسـلمين اذا هبطوا على جماعة وحدها قضوا عليها ثم عادوا الى الجهة الاخرى وهكذا .

وقد فرح المسلمون أشد فرح بعودة الفرنج عنهم وتشددت عزائمهم وبدأت أحاديث الصلح بعد ذلك تتردد وكانت شروط ملك الانجليز هذه المرة صالحة لان تكون أساس المفاوضة • وهى أن يترك ريكارد البلاد الساحلية لابن أخته الكندهرى (الكونت هنرى دى شمبانيا) على أن يكون تحت حكم صلاح الدين وأن يأخذ الفرنج كنيسة فى بيت المقدس

فرضى صلاح الدين باعطاء كنيسة القيامة بالقدس وابقـاء مدن الساحل فى يد الفرنج الا عسقلان وما وراءها فتكون خرابا ليست لاحد من الجانبين وأن تكون كل القلاع الجبلية للمسلمين وجعلت المفاوضة تسير بين الطرفين سـيرا مترددا طول مدة

الصيف ويختلف الطرفان على تفاصيل قليلة الخطر وتخللها انقطاع وحرب وكان ميدان تلك الحرب عند يافا . فأخذها صلاح الدين بعد حصار قصير . وكان ريكارد فى هذه الاثناء ذاهبا الى الشمال نحو بيروت فلما سمع بحصارها عاد مسرعا اليها فى البحر وهناك ظهرت شجاعته العظيمة التى كان لها أكبر أثر فى نفوس المسلمين . فانه لم يكن معه الا عدد قليل ولكنه مع ذلك استطاع تنحية القلعة وهرب من اسمه الجيش الكبير الذى كان فى يافا . وقد تحدى ملك الانجليز فى اليوم التالى كل جيش المسلمين آخذا رمحه حاملا من طرف الميمنة الى طرف الميسرة فلم يتعرض أحد له حتى غضب صلاح الدين وأعرض عن القتال وانصرف عن يافا الى الرملة مع أن ريكارد لم يكن فى أكثر من ثلثمائة مقاتل

تقدير بطل لبطل

وقد مرض ريكارد بعد ذلك مرضا شديدا واشتهى الكمثرى والخوخ والثلج فكان صلاح الدين ينفذ اليه بما يطلب من ذلك . ولعل ذلك من أكبر ما يقوم دليلا على تقدير البطل للبطل ولو كان عدوه .

وعزم الجنود الفرنسيون عند ذلك على العودة الى بلادهم ليلحقوا بملكهم الذى سبق رحيله فاشتدت رغبة ريكارد فى الصلح وكانت عقدة الاتفاق عسقلان فان ملك الانجليز كان مصرا على أخذها محافظة على كرامته فى الصلح وكان صلاح الدين يأباها عليه اباء شديدا خوفا على مصر منها ومحافظة على

كرامته فى الصلح أيضا اذ كان أخذها عنوانا للنصر فى تلك الحرب التى لا يستطيع جانب فيها أن يدعى النصر غير مدافع

وأخـــيرا تم صلح الرملة فى ٣ سبتمبر ســـنة ١١٩٢ (٢٢ شعبان سنة ٥٨٨) وحلف عليه من الفرنج جماعة الامراء والملك الذى سيتخلف بالشام وهو (الكندهرى) ولم يحلف الملك (ريكارد) قائلا آن الملوك لا يحلفون ولكن كلمتهم تكفى . وحلف من المسلمين الملك العـادل أخو صـــلاح الدين والملك الافضل والملك الظاهر آبناه وجماعة من أمرائه الكبار وكانت شروط الصلح ان يحتفظ الفرنج بالساحل من عكا الى يافا وأن يسمح للحجاج ان يزوروا بيت المقدس وأن تخرب عسقلان ويكون الساحل من أولها آلى آلجنوب لصلاح الدين

ودخل فى ذلك الصلح أميرا طرابلس وأنطاكية على أن يحلفا للمسلمين فان لم يفعلا لم يدخلا فى الصلح

وهكذا تم الصلح ووفدت وفود الحجاج المتحمسين الى القدس فأكرمهم صـــلاح الدين اكـــراما عظيما وعاد ريكارد الى بلاده وانصرفت الجنود الاسلامية عائدة الى أوطانها المختلفة بعد تلك الحرب الضروس التى لم يخب لهيبها مدة قرن ، فمات فيها من مات من الفرنج فى سبيل غرض دفعتهم الى قصده حماسة غير موفقة وساقهم الى تلك الحماسة جماعة كان أكثرهم «يسرحسوا فى ارتغاء » (١) ، ومات من مات من المسلمين فى دفاعهم المجيد

---

(١) مثل يضرب لمن يظهر امرا ويخفى غيره

عن أوطانهم يقودهم شيوخ من كرامهم رأوا ذلك الجهـــاد خير ما يقضى فيه عمر الاحياء • وما الحيـاة ؟ أليست تلك الانفاس التى تتردد فى تلك الفترة المحتومة ما بين وآجب الميلادوواجب الموت ؟ الا انها لفترة مملة مسئمة اذا لم يكن بها مايهز النفوس ـ ولئن كان هذا كذلك فلقد اختار مسلمو ذلك العهـــد ذلك الجهاد سلوة جديرة بكرام الرجال

وأما عمل صلاح الدين فىذلك فانه قد جمع الدولةالاسلامية بين يديهوكانت عندما دخل الميدان لاتعدو عاصمتين منعواصم الشام والجزيرة وما بينهما من الارض وكان ما عدا ذلك فىيد الفرنج أو الفواطم

فلما مات كانت دولة واحدة من الدجلة الى النوبة الى برقة وما زال بالفرنج حتى حصرهم على الساحل فى الرقعة الضيقة بين عكا ويافا • واذا قلنا أن ذلك عمل صلاح الدين فما ذلك الا لانه لولاه لما تم ولظلت دولة الفرنج قوية بل لزادت قوة

خريطة دولة صلاح الدين

الفصل الثامن

نهاية البطل

وفاة صلاح الدين

أقام صلاح الدين بالقدس حينا بعد الصلح لكى يصلح من أمرها على حسب سنته وأقام بها المدارس والمستشفيات ثم خلف بها صديقه القديم عز الدين جورديك وسار يتفقدأحوال البلاد الشمالية ويقابل الامراء لا يفرق بين صاحب انطاكية المسيحى وأصحاب نابلس وطبرية وصفد المسلمين • ثم دخل دمشق وكان دخوله اليها دخول المنصور الموفق • واستقبلته تلك المدينة المحبوبة استقبالا عظيما جمعت فيه تقدير عظمته وحب كرمه وخلقه العظيم وجاءت اليه وفود الناس من أهل دنيا وأهل دين واجتمع له الشعراء والادباء يقصدونه بالمدح فكان وجوده بالمدينة سلسلة من الاعياد والافراح • وافاه هناك أخوه وأولاده وكان يقصد أن يعود الى مصر من هناك ولعله كان يقصد أن يجعلها مركز دولته الجديدة ، ويأخذ فى تنظيمها واعلاء شأنها ولكن جماعة يقولون انه انما كان يقصد الراحة قليلا ثم يعود الى القتال فى آسيا الصغرى وبلاد فارس.. على أنه قد بقى فى دمشق أطول مما كان عازما عليه فى أول الامر. فقد كانت دمشق مهد صباه الاول وكانت أحب البلاد اليه وقد استهواه فيها الصيد فخرج يقضى منه وطره وينعم بلذة الرجولة فيه • ويتفرج فى أرض

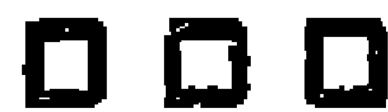
الظباء في سهوبها مدة الشتاء وكان يجلس فى أكثر أوقات الفراغ فى وسط أولاده الصغار وأصدقائه المقربين وقد رفعت عنهم الكلفة وسادت المباسطة . وفى أثناء تلك الراحة حدث له كسل فكان لا يكثر من الخروج الى العمل الرسمى بل يؤثر البقاء فى خلوته

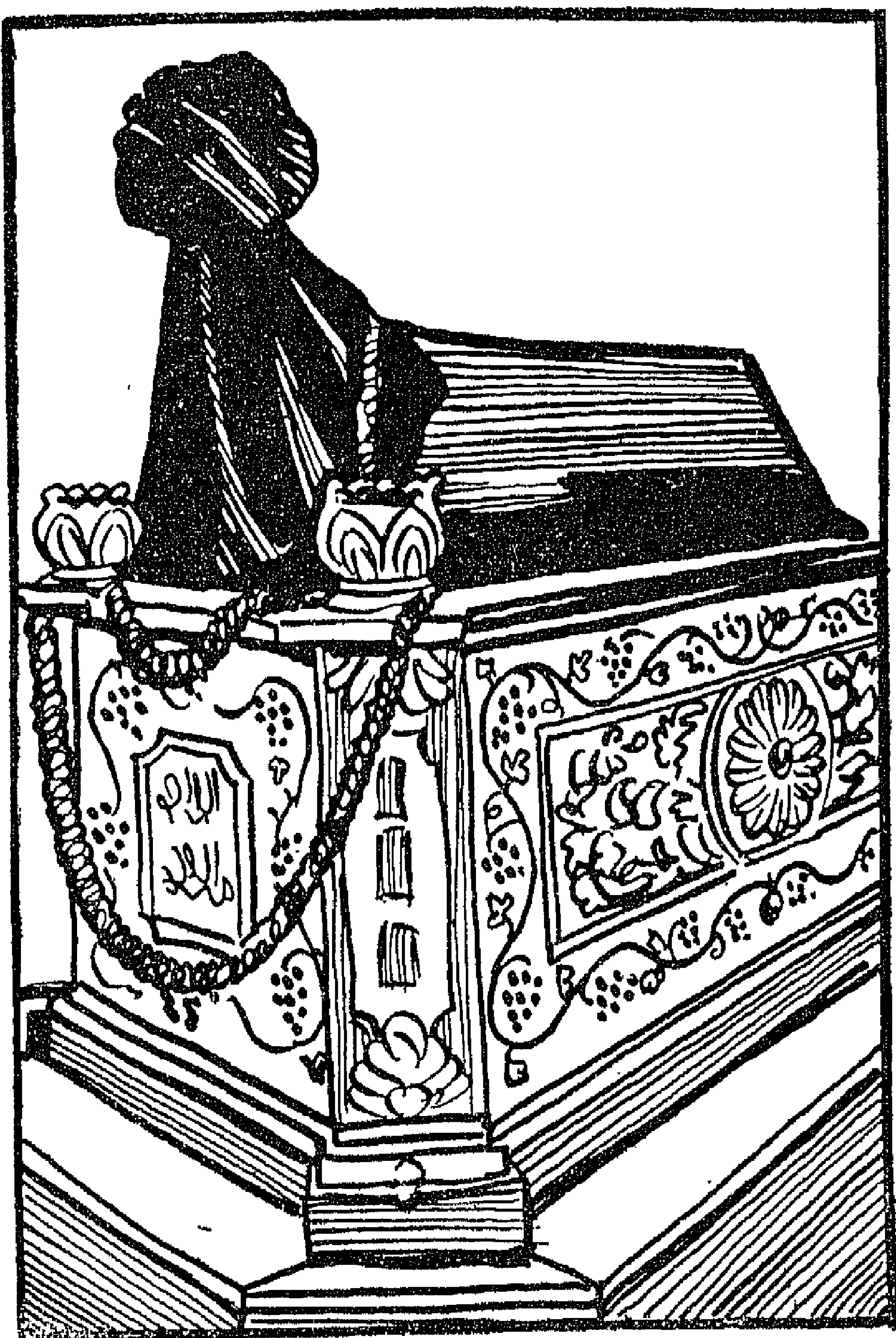
ولكنه لما رجع الحجاج خرج الى لقائهم وعند ذلك اجتمع الناس لرؤيته وكان فى لباس بسيط ليس عليه درع ولا وقاء وكان يرغب فى الحج ولا يجد فرصة لذلك وسط حروبه ومشاغله فكان لذلك تأثره عظيما عندما رأى المقبلين منه . ثم عاد بعد ذلك الى دمشق سائرا بين البساتين ليتحاشى الجموع الكثيرة المصطفة لرؤيته ولعل ذلك كان برأى الذين حوله اذ خشوا عليه من شر يحدث له فى وسط الجموع وليس عليه ما يقيه

ومرض بعد عودته الى دمشق بحمى صفراوية وانتابه أرق شديد فى الليل ولزم الفراش نحو أحد عشر يوما ومات فى الثانى عشر من مرضه وكان ذلك فى السابع والعشرين من صفر لعام تسع وثمانين وخمسمائة ويوافق ذلك ٤ مارس سنة ١١٩٣ ميلادية

وكان حزن الناس لموته لا يوصف فقد كان العامة يرون فيه السلطان العادل ، والجند يعرفونه القائد المنصور ، والقادة يعرفون فيه الرجل العظيم ، والعلماء يعرفون فيه التقوى والوداعة والايمان ، والادباء يذكرون ما نالهم من بره وتقديره

لمواهبهم . فكان يوم موته مأتما عاما لا مراءاة فيه ولا مجاملة بل كانت موجة الحزن تجتاح البلاد قوية ثائرة . قال أحد كبار رجاله وهو القاضى بهاء الدين بن شداد : «وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم فظننت هذا على ضرب من التجوز والترخص الا فى ذلك اليوم فانى علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس» وقد مات صلاح الدين عن نحو سبع وخمسين سنة بعد أن ملك مصر نحو أربع وعشرين سنة وملك الشام نحو تسع عشرة سنة وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا وبنتا واحدة تزوجت فيما بعد بابن عمها الملك الكامل صاحب مصر وكان أكبر أولاده الذكور الملك الافضل نور الدين على والذى يليه العزيز عثمان والثالث الظاهر





قبر صلاح الدين بدمشق

شخصية صلاح الدين

ما هى العظمة ؟ وما هو الرجل العظيم ؟ هـذآن سؤالان يصعب أن يجيب الانسـان عليهما ولكن لابد من أن يتلمس الانسان ذلك السر اذا أراد أن يدرك شيئا عن حقيقة صلاح الدين

لقد كان فى العالم عظماء كثـيرون من رجال السيف ومن رجال الفكر وقد ترك هؤلاء آثارا فى وقتهم وظلت آثارهم الى ما بعد موتهم

ولكن المرء يدرك أنهم كانوا كبارا فى الرجال فاذا ما حاول أن يعرف سر عظمتهم خانه البحث أو ضلله المنطق • حتى لقد قال الكثيرون أن العظمة سر خفى فى المرء يرى أثره ولا يعرف كنهه

ويكتفى هؤلاء بأن يفسروها بألفاظ غامضة اذ لا يقـدرون على تبسيطها • ولكنا نخاطر ونحاول بالاستقراء أن نقول فى هذا الشأن كلمة نصوغها بأبسط لغة عالمين بوعورة ما نتجشم

الجسم فى نفسـه ، وهو تلك المجموعة من اللحم والعظم وسائر المكونات ، ليس الا آلة تطبع وأداة تنفذ ما يريده نظام أعلى وهو الروح وما يلحق به من مجموعة عصبية ولعلنا اذا أردنا معرفة

سر عظمة الفرد لا نقدر أن نجده فى الغلاف الخارجى بل لابد أن يكون فى تلك المجموعة العصبية المسيطرة

(ا) كان كل عظماء الرجال ذوى أعصاب متينة ـ تحس فتؤدى احساسها على أتم وجه وأدقه ـ ثم تحرك الجسم ما شاءت من حركات لا يتطرق اليها الخلل ولا يخرج عن سلطانها عضو من الاعضاء .

يتلقى العظماء من الصدمات أعظمها ويحسون بعظم الصدمة بل أن احساسهم بها يكون فى الغالب أكثر من احساس عامة الناس ولكنهم لا يذهلون للصدمة ولو اشتدت ـ ومثل هذا ما نسمعه من نابليون اذ قال عن نفسه : « كأن الاقدار كانت عالمة بما خبأته لى من صدمات فجعلت لى أعصابا من حديد »

وقد كان لصلاح الدين قسط كبير من هذه الصفة فكان لا يذهل عند صدمة بل يحس بها ويقف ويحكم ويريد وينفذ فى ثبات ودقة . ففى حصار عكا كان يرى العدو يزيد عدده يوما بعد يوم وهو يتخذ لكل طارىء عدته أو يحاول ذلك ولم يجزع ولم تخر عزيمته . وفى موقعة أرسوف وقف وحده فى وسط جمع قليل وقد انهزم جيشه وبقى على ثباته حتى بعث شيئا مما فى نفسه من قوة الجنان الى رجاله فثبتوا ومنع بذلك كارثة كادت تكون قاضية . وكم حدث أن بلغه نعى أبنائه أو أهله من أعز الناس عليه فيملك نفسه والحزن يحرق قلبه فاذا كان فى وليمة لا يفسدها بل يستمر على احيائها الى أن تنتهى ثم يترك بعد ذلك العنان لنفسه الحساسة فيفيض جواها وحزنها بعد أن

كبحها ما شاء . ولو شئنا أن نضاعف الامثلة الدالة على ذلك لوجدنا فى كل يوم من حياته المليئة مثلا بل أمثالا

(ب) هذا وقد نبيح لانفسنا أن نستعير لغة ما وراء الطبيعة فنقول أن القوة العصبية نوع من القوة ولها كما يقولون أشعة ولعل تلك الاشعة تحدث فى الخارج أثرا ، ولعل هذا هو سر ما يشعر به الناس من هيبـــة ممزوجة باحترام وحب اذا هم اقتربوا من العظيم وما ذلك الشعور كما يقول أصحاب ما وراء الطبيعة الا نتيجة تأثير نفس العظيم فى نفوس من حوله وذلك شبيه بأثر المنوم فى التنويم المغنـــاطيسى . وقد كان عظماء الرجال جميعا متصفين بتلك الصفة فلا نســمع عن عظيم الا ونعرف أن المتقرب اليه كان يشعر بشىء من الشـــعور القوى نحـــوه

وقد قال من اقترب من صـــلاح الدين مثل هذا ومن ذلك ما حكاه عبد اللطيف البغدادى عنه اذ قال « ان المتقرب منـه لا يستطيع الا أن يحس بحب له ممزوج بهيبة » (١)

---

(١) كان امراؤه الكبار ومماليكه الصغار اذا رأوا عينه واقعة عليهم وعرفوا انه ينظر الى اعمالهم استماتوا فى القيام بالواجب وبالغوا فى اظهار ما فى نفوسهم من شجاعة أو كرم . وما كان جزاؤهم الذى يتوقعونه من وراء كل ذلك الا ان ينالوا من صلاح الدين ابتسامة الرضا اولا وان تلحقهم هـــذه الاعمال بمرتبته فى البطولة ــ وليس من المبالغة ان نقول ان لصلاح الدين فضلا كبيرا فى تلك الشهامة التى ظهرت فى المسلمين فى ذلك العصر فان للقائد اثرا عظيما فى نفوس رجاله فالناس هم الناس على وجه التقريب فى كل وقت فاذا تولى أمرهم عظيم تساموا جميعا الى مستوى عظمته فأتوا بالعجيب =

(ج) هذا عن تلك القوة المبهمة التى يمتاز بها الرجل العظيم ولكنا نقدر بعد ذلك أن نتكلم كلاما أقل ابهاما ـ فان من أكبر مميزات العظيم نظرته فى الحياة الى نفسه والى الناس

ان الطفل ينظر الى العالم نظرة سطحية فيرى كل ما فيها معقدا منفصلا عن غيره غير مفهوم فاذا ما كبر أخذ يخترق السطح فيعرف طبائع الاشياء فيقل تعقدها فى نظره حتى اذا ما عرف العالم وخبره أمكنه أن يسند كل شيء الى أصوله وأن يرى الامور بسيطة الى حد أكبر مما كان يراها من قبل. وهكذا الناس فمنهم الابله الذى يأخذ العالم كما هو ويظن كل شيء وحدة قائمة بذاتها فيخيل اليه أن العالم مركب معقد على غير نظام ويليه من هو أكثر منه نباهة حتى الذكى الفهم فانه يرى العالم أبسط بكثير مما يراه الاقل فهما . فاذا ما بلغ الرجل

= واذا تولى أمرهم حقير النفس ضاع أمرهم وفشلوا وبرزت الى الامام أدنى صفات الانسان وأحقرها

فلنذكر ذلك الشاب الصانع الدمشقى الذى توصل الى اختراع وسيلة لاحراق آلات العدو بعد ان أعيت المسلمين الحيل فى الدفاع عن انفسهم امامها ـ حتى اذا ما حضر الى صلاح الدين واظهر له هذا رضاه وعرض عليه الجزاء أبى الشاب اباء صادقا وقال انه ما فعل ذلك الا اداء لواجبه وتقربا الى الله تعالى ... ولنذكر مملوكه الذى رآه ناظرا اليه والجموع المسيحية الهائلة دونه فاندفع الى الموت وصدع صفوف الاعداء صدعا كبيرا بنفسه وحده ـ وعلت بذلك المثل الصالح نفوس المحاربين فاندفعوا الى تقليده والانتقام له

ولنذكر امراءه الكبار وليس فى الدولة ما يضمن خضوعهم لصلاح الدين من قوة اذ كانوا جميعا شبه مستقلين وكان صلاح الدين فى شغل من حروبه فلم نسمع بعد سنة ١١٧٦ ان واحدا منهم خرج عليه لا بل لم نسمع أن واحدا منهم قصر عن أن يكون مثالا عاليا فى التضحية والايثار والاقدام بنفسه فى مقدمة جنوده . لنذكر كل ذلك ثم لنحكم على عظمة الرجل الذى كان قطب تلك الحوادث وجماع أمرها

الى مستوى العظمة أمكنه أن يخترق الحجب السطحية وأن يتغلغل الى الحقائق المجردة من التمويه والاعراض • ولهذا كان عظماء الرجال دائما ممتازين ببساطة التفكير وبساطة الخطط وبساطة النظرة الى الحياة • فينظرون الى أنفسهم والى الناس أنهم جميعا خلق متشابهون فى كثير ويختلف بعضهم عن بعض بحسب طباعهم لا بحسب الاصطلاح والوضع • وهكذا كان صلاح الدين بسيطا فى كل شىء : فى نظرته الى الحياة ، فى تفكيره ، فى سلوكه ، فى معاملاته ، فى حياته ، فى نظرته الى نفسه والى الناس

كان لا يظهر بأنه سيدالدولة الاسلامية بل يقفأمام أمرائه الكبار وأحقر خدمه على السواء بصفتهرجلا أمامرجال لا يفرق بين أحد والآخر الا بمقدار حظه من الرجولة ولعله كان واثقا أو كان واثقا بطبعه بغير تفكير ، من أنه أقوى من كل من دونه من الرجال بغير حاجة الى أن يرتكز على مساعدة أبهة الملك وهيبة السلطان • وكان أمراؤه مع ما يعطيهم من الحرية وما كان لهم فى عصرهم ذاك من القوة والنفوذ ، كانوا يتضاءلون أمامه ولا يجسر أحد أن يعصى اذا أمره،لا خوفا من قوته المادية ولكن طاعة لابد منها لشخصه القوى

فلم يكن يحرك على أمير جنوداً بل يكلمه الكلمة الوديعة ثم يتركه فاذا هو خاضع ولو كان ممن لا يأسرهم الاحسان

والى جانب هذا كان لا يرى فرقا كبيرا بينه وبين أقل خدمه بل يتجاوز ويحكم بطبعه بغير تكلف ـ فقد رمى أحدالخدم آخر

بحذاء فتجاوز حتى وصل اليه هو فأدار وجهه للناحية الاخرى حتى لا يحرج ذلك الخادم • وكان اذا عرضت عليه القصص يزدحم الناس عليه حتى لقد يطأون طراحته وهو لا يتأثر (١)

وطلب في قضية خصما فجلس فى مجلس القضاء ولم يتكبر مع أن الحق كان معه • وأراد مملوك مرة أن يوقع منه على ورقة فاعتذر له بالضجر وطلب اليه أن يؤجل ذلك فألح فقال له ان الدواة غير حاضرة فأشار المملوك الى دواة كانت على مسافة منه فنظر صلاح الدين فوجدها فمال نحوها ببساطة مرتكزا على يده حتى بلغها بمشقة ثم وقع له بما شاء ولم ير فى ذلك شيئا

وكان اذا مرض أحد أتباعه أرسل يسأل عنه مرارا ولو كان هو نفسه مريضا • وكان كثير الوداعة فى دائرة أسرته يجالس أولاده ويباسطهم ويضاحكهم لاسيما الصغار منهم وكان معروفا دائما بالعطف على كل ضعيف لاسيما الشيوخ والنساء والاطفال (٢) فلا غرابة لمن كان مثل ذلك اذا كانت طاعة الناس

---

(١) ولقد ذكر انه بعد انصرافه عن عكا واخذ الفرنج لها ذهب الى الساحل لكى يدمر حصونه ، وكان هو فيمن يدمر تلك الحصون بنفسه يعمل كواحد من العمال فيحمل الاخشاب فوق كتفه وكذلك كان عند بناء حصون القدس يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الامكنة البعيدة « فيقتدى به العسكر فكان يجمع عنده من العمالين فى اليوم الواحد من يعملون قدر عدة ايام »

(٢) ولم يكن هناك فرق فى رحمته بين المسلم وغيره ومن الامثلة الكثيرة على هذا قصة الرضيع التى وقعت فى أثناء حصار عكا فى الايام الاخيرة التى ضاق فيها الحصار على المدينة وضاق صدر صلاح الدين فيها مما يجده المحصورون من البلاء ولكن نفسه ما كانت لتقسو ولو اشتد كربها

له طاعة طبيعية يغتصبها بشخصه القوى ، وتبذل له حبا بالطبع بغير تكلف

(د) والرجل العظيم شديد الاحساس دائما ولو أن احساسه لا يخرج أعماله عن ارادته وسيطرته ــ وكل ما يرد فى سير العظماء يدل على أنهم كانوا من أشد الناس عاطفة . ولو أنهم كانوا يملكون ناصية تلك العواطف . وقد كان صلاح الدين شديد العاطفة يزيد به الفرح اذا لقى صديقا حتى يبكى، ويزيد به الوجد اذا اهتم لأمر حتى لا يأكل ولا ينام بل يقضى كل وقته فى عمل مستمر ، ويملكه السرور أحيانا فتهون عنده الدنيا وما فيها وتهزه الاريحية فيهب كل ماله، وتستهويه ملاهى الرجولة فيقضى فى الصيد أياما يشعر بلذة أى لذة فى أن يسرح بين المروج ويتردد فى وديان الفلاة الفسيحة ، ثم يستثيره الطرب الحلال الى الجمال فيهتز لقول الشاعر اذ يقول أمثال :

وزارنى طيف من أهوى على حذر
من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولى به فرحا
وكاد يهتك ستر الحب بى شغفا
ثم انتبهت وآمالى تخيل لى
نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفا

فالحق أن الذى لا تهزه العواطف الوثابة يكون أثقل مادة من أن ينهض الى الآفاق العالية .

(هـ) هذا من جهة الشخصية ولكن الى جانب هذا يمتـــاز العظيم دائما بقوة العقل والذكاء ، والواقع أن قوة العقل والذكاء ما هى الا نتيجة لازمة للقوة العصبية وقد كان صـــلاح الدين على أكبر ما بلغه الانسان من قوة العقل . آنه لم يكن عالمـــا بالمعنى الاكبر ولو أنه كان على شيء كثير من الاطلاع فى الحديث وشيء من الفقه والادب ولاسيما أنساب العرب ووقائعهم وسيرهم فنعرف مثلا أنه قرأ فيما قرأ كتابا فى الفقه من تصنيف الرازى ، وكان فى الصباح يقرأ بعد الصلاة شيئا من الحديث أو الفقه مع بعض الاشياخ مثل القاضى بهاء الدين بن شداد . ولـكن ذكاءه القوى كان يسد ما فى علمه من نقص ولهذا كان أكبر مدرسى عصره يحسبون لعلمه حســـــابا اذا ما أحاطوا به فى مجلسه الحافل بكبار أهل العلم فى عصره . وكانت وجـــوه مناقشته ونقده تدل على مقدار فهمه . واذا وصفناه بالفهم فانا نقصد بالطبع أنه كان من أهل السنة المتشـــددين فى مسألة العقيدة واذا كانت المغالاة فى ذلك عيبا فقد كان مغاليـــا فى التشدد ويعرف عنه أنه قتل جماعة ممن كان يشك فى صدق ايمانهم . ولعل روح العصر تشفع له اذا كان هناك من يميـل الى مؤاخذته فى ذلك

ولكن صلاح الدين كان رجل سياسة وحرب ولم يكن برجل العلم ولهذا كان ذكاؤه أظهر ما يكون فى أمور الدولة والحروب ـ فقد كان بعيد النظر يتوقع الامر قبل حدوثه من أول بوادره وكثيرا ما كان رأيه فى أمور الدولة خيرا من رأى أجمع عليـه

أمراؤه كلهم • وكان فى اصلاح أمور بلاده يضع يده دائما على مواضع الخلل والضعف وكانت له قدرة عظيمة على القيـــام بتفاصيل الامور فكان فى وقت واحد يدير الحرب ويرسم الخطط ويرسل الى الاقاليم المختلفة التى فى دولته يرسم خطط الاصلاح الداخلى ويملى ارادته فى الادارة المحلية • ويقوم فى أثناء هذا وذاك على مراقبة كل ما يجرى فى القضـــاء فى بلاده على يد القضاة ، وما يجرى من الامور فى جيشه الكبير حتى لقد كان كل جندى يظن أن عين صلاح الدين واقعة عليه وكانت حماسة جنوده ناشئة من اعتقادهم أنه يعرف ما يعملون ويجـــازى الاحسان ويعاقب الإساءة على طريقته فى الجزاء والعقاب

(و) على أن صلاح الدين يمتاز فوق كل هذا بميزة قل أن توجد فى غيره من العظماء فقد ذكر التاريخ كثيرين ممن جمعوا قوة الشخصية وقوة العقل وأحدثوا فى العالم بهـذه الميزات آثارا كبرى ولكن قل أن نجد من هؤلاء العظماء من كان فى نفس الوقت عظيما وقديسا • بل ان كثيرا منهم كانت له سـقطات فى خلقه ــ اما من قسوة واما من عدم تردد أمام الوسائل لبلوغ غاياتهم واما من تجاوز لحدود الاخلاق الفاضلة ــ بل ان كثيرين من العظماء يرون الفضائل دون قدرهم ويظنون أنها قيـــود وضعت للدهماء الذين هم فى مستوى دون مستواهم • ولكن صلاح الدين كان من القلائل الذين جمعوا الخلق الكريم والعقل القوى والشخصية المسيطرة

فكان متدينا منذ أول حياته ولكنه كان مخطئا بعض الخطأ

فى صباه حتى اذا ما دخل ميدان العمل فى أول رجولته ترك اللهو وتاب عما حرمه الله • ولكن عقيدته لم يتدخل اليها خلل فى وقت من أوقات حياته وكان حريصا على أن تكون عقيدة أبنائه قائمة على صخرة فكان يعلمهم بنفسه أول قواعد الدين

وأما فروض الدين من الصلاة فكان مواظبا عليها ويصلى نوافل فوقها كثيرة ولم يترك الصلاة الا عندما اشتد عليه مرض الموت وتغيب ذهنه فى الايام الثلاثة الاخيرة • وكان يؤدى الزكاة عن ماله القليل ولو أنه لم يكن فى وقت من حياته كثير المال لكرمه وكثرة نفقته فى وجوه الخير • وليس أدل على ذلك من أنه لم يترك عند وفاته فى خزائنه أكثر من سبعة وأربعين درهما وجراما واحدا ذهبا ولم يخلف ملكا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ولا مزرعة

وأما الصوم فقد كان يشتد عليه ولاسيما فى ميدان الحرب وأيام المرض وكان ضعيف الجسم فلهذا كان يتأخر عليه فوائت وحاول أن يقضيها بعد أن انتهى من حروبه ولكنه مات وعليه بعضها .

ولم يستطع الحج مع عزمه عليه وشدة شوقه اليه اذ لم يمهله الاجل بعد أن فرغ من الجهاد ليتم تلك الفريضة • ومن العجيب أن نعرف أنه فى العام الوحيد الذى خلا من الجهاد فى آخر حياته لم يستطع الحج « لخلو اليد عما يليق بأمثاله »

وكان رقيق النفس يهتز اهتزازا شديدا لسماع القرآن والحديث وكان كثير الثقة بالله الى درجة قد يعدها البعض خرافة

ولكن الحقيقة أن ثبات نفسه كان يدفعه الى الاطمئنـــــان الى ما يجرى به القضاء واثقا بأنه قد بذل ما فى وسعه وأن الحيلة بعد ذلك فى تصريف القضاء ليست فى يده

ولكن التدين وحده ليس كل ما اتصف به ذلك الرجل الفذ فقد كان خلقه مما يزين أبعد الناس عن الدين فيقربه الى نفوس المتدينين • فكان لا يرى الغاية تبرر الوسيلة ولهذا لم ينزل فى جهاده مع حماسته وشدة ايمانه لقصده الى سلوك سبل تأباها المكارم ـ فلم يغدر مرة ولم يقل كلمة الا وفى بها ولم يعد حتى يكون قصده الوفاء وكان فى هذا يسوى بين صديقه وعدوه فكان يأبى مع أعدائه الا أن يكون منازلا شريفا ـ فلم تحفظ عليه هنة ولم يعرف عنه نقض لعهد ولا سعى دنىء فى الخفاء وقد انتصر فى حطين وفتح القدس نصرا عظيما فلم يبطره ذلك ولم يدر رأسه فيدفع به الى انتقام أو قسوة بل تجلت شفقته على الضعيف وبره بالوعد ورحمته بالانسان ولو كان من غير جنسه ودينه بل لو كان من أشد أعدائه • ولم يكن فى نفسه حقد ولا حب انتقام • ويتجلى ذلك من وصيته لابنه اذ قال : « واحذرك من الدماء والدخول فيها فان الدم لاينام ـ وأوصيك بحفظ قلوب الرعيـــة والنظر فى أحوالهم ••• ولا تحقد على أحد فان الموت لا يبقى على أحد واحذر ما بينك وبين الناس فانه لا يغفر الا برضاهم وأما ما بينـك وبين الله فانه يغفره بالتوبة اليه فانه كريم » وكان غضبه اذا غضب للمكارم والشرف فقتله لارناط الغادر صاحب الكرك لايذمه أحد وايقاعه

بشاور الوزير المصرى لا يجد مؤرخ غبارا عليه اذ كان فى كل ذلك غاضبا للشرف والرجولة والعهود • وكان عادلا عـــدالة لا قيد عليها ولو كان على اهله ونفسه فكان يأخذ من أبناء اخوته ومن أبنائه ومن نفسه اذ قام دليل على ان القانون يحكم عليهم أو عليه . على أن كل مايذكر عن مواقفه أمام القضاء يدل على أنه كان على الحق . فكان اذ تبرأ امام القانون مما طلبه خصمه تكرم على ذلك الخصم فوهبه مايسمح به كرمه علما منه ان ذلك الخصم ماالندفع الى ماالندفع اليه من الخصومة الا لحاجة قامت به

وكان كريما ينفق ما فى يده وأكثر مما فى يده فى سـبيل الخير والاحسان ولم يترك ميراثا من ذهب أو فضة أو ملك لهذا السبب • ذلك وهوصاحب الدولة العظيمة التىألبست فرعون وكسرى ذهبا ، وجعلت لهما أهراما وايوانا•فكان أحيانا يذكر المال قائلا : « يمكن أن يكون فى الناس من ينظر الى المال كما ينظر الى التراب » ولعله كان يريد بذلك نفسه

وكانَ بعـــد كلّ ذلك حسَن العشرة لطيف المعـاملة طيب الفكاهة • وكان مجلسه طاهرا من الرجس لا يذكر بين يديه الا خيرا آذ كان لا يحب أن يسمع الا خيرا • ولم يشتم أحداولم يعل صوته فى تأنيب أحد من خدمه الا مراجعـــة لطيفة ولو اشتد موجب التأنيب ومثل منذلك ما حدث أيام مرضه وذلك أنه أدخل الحمام فوجد الماء حارا فطلب ماء باردا فأحضره الذى يخدمه فسقط من الماء شيء على الارض فناله منه شيء فتألم له

لضعفه ثم طلب الماء البارد أيضا فأحضر فلما قاربه ســقطت الطاسة على الارض فوقع الماء جميعه عليه فكاد يهلك فلم يزد على ان قال للغلام : «ان كنت تريد قتلى فعرفنى» ثم سكت عنه

وكان فى حياته الداخلية هادئا محبا محبوبا ـ يودع أبناءه بأن يقبلهم ويمسح على رؤوسهم ، وكان يصحب أولاده واخوته فى الصيد ، وكان يداعب أبناءه الصغار ويعيش فى داخل بيته غير متكلف ، وكان يطلب أحيانا أكلا بسيطا كأرز بلبن وأمثاله فيأكل مع من حضر من رجاله الاخصاء وأولاده كما يفعل أى عامل من أوساط الناس

على مثل هذا كان صلاح الدين فى حياته وقد خلا العــالم بوفاته من نور أشرق عليه حينا ولم يبق الا ذكرا نردده عنه لعل فيه أسوة ومنار هدى



محتويات الكتاب

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢ (الاعداد ترسل بالطائرة)

العراق : السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد

البرازيل :
Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Colegio N° 3,
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

غانا :
Mr. Joseph Hassan,
The Cine Travel Co,
P.O.Box 1883,
ACCRA, GHANA

هذا الكتاب

كلما داهمت الخطوب الامة العربية ، قيض الله لها بطلا من بنيها ، فبدد ظلام الفرقة والانقسام ، ووحد كلمتها ، وجند صفوفها ، وحررها من الغاصب المستبد . ما اشبه اليوم بالامس : ففي القرن الثاني عشر ، مزقت الخلافات والانقسامات الامة العربية وشتتت قواها ، فوقعت فريسة سهلة للصليبيين . ثم ظهر البطل صلاح الدين الايوبي ، فوحد كلمة العرب وجمعهم في كتل متراصة ، ألقت بالعدو ودسائسه في البحر . وحرر الامة العربية وأعاد اليها عزتها وكرامتها

وتفخر سلسلة « كتاب الهلال » ، في هذا الوقت الذي تكافح فيه شعوب العرب ، ملتفة حول بطل جديد من أبنائها للقضاء على الفرقة والانقسام ، ودسائس الاستعمار ، في سبيل استعادة مجدها وعزتها ، أن تقدم كتاب « صلاح الدين الايوبي » للاستاذ محمد فريد أبو حديد . ففيه سيرة عطرة ، مرت بالامة العربية في ظروف مشابهة ... ففيه عظة وعبرة ، وفيه حافز نبيل تشحذ الهمم والعزائم

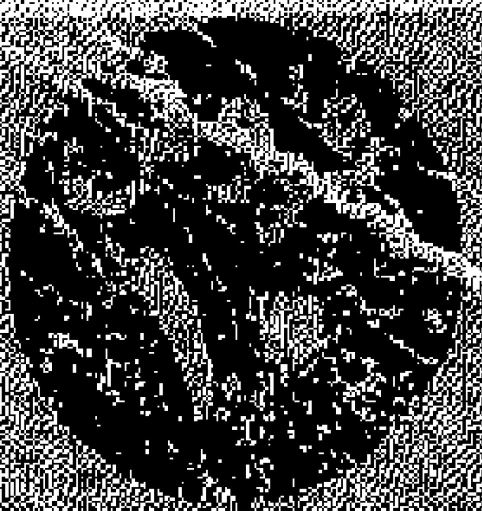
كتاب الهلال

يا ولدى

هذا عمك جمال

مذكرات

أنور السادات




سلسلة شهرية

تصدر عن دار الهلال

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٨٨ ــ ذو الحجة ١٣٧٧ ــ يوليه ١٩٥٨

No. 88 — Juillet 1958

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ــ بوستة مصر العمومية ــ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ــ مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ــ سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا ــ السعودية والعراق والاردن وليبيا ١٣٠ قرشا صاغا ــ الأمريكتان ٥ر٥ دولارات ــ فى سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



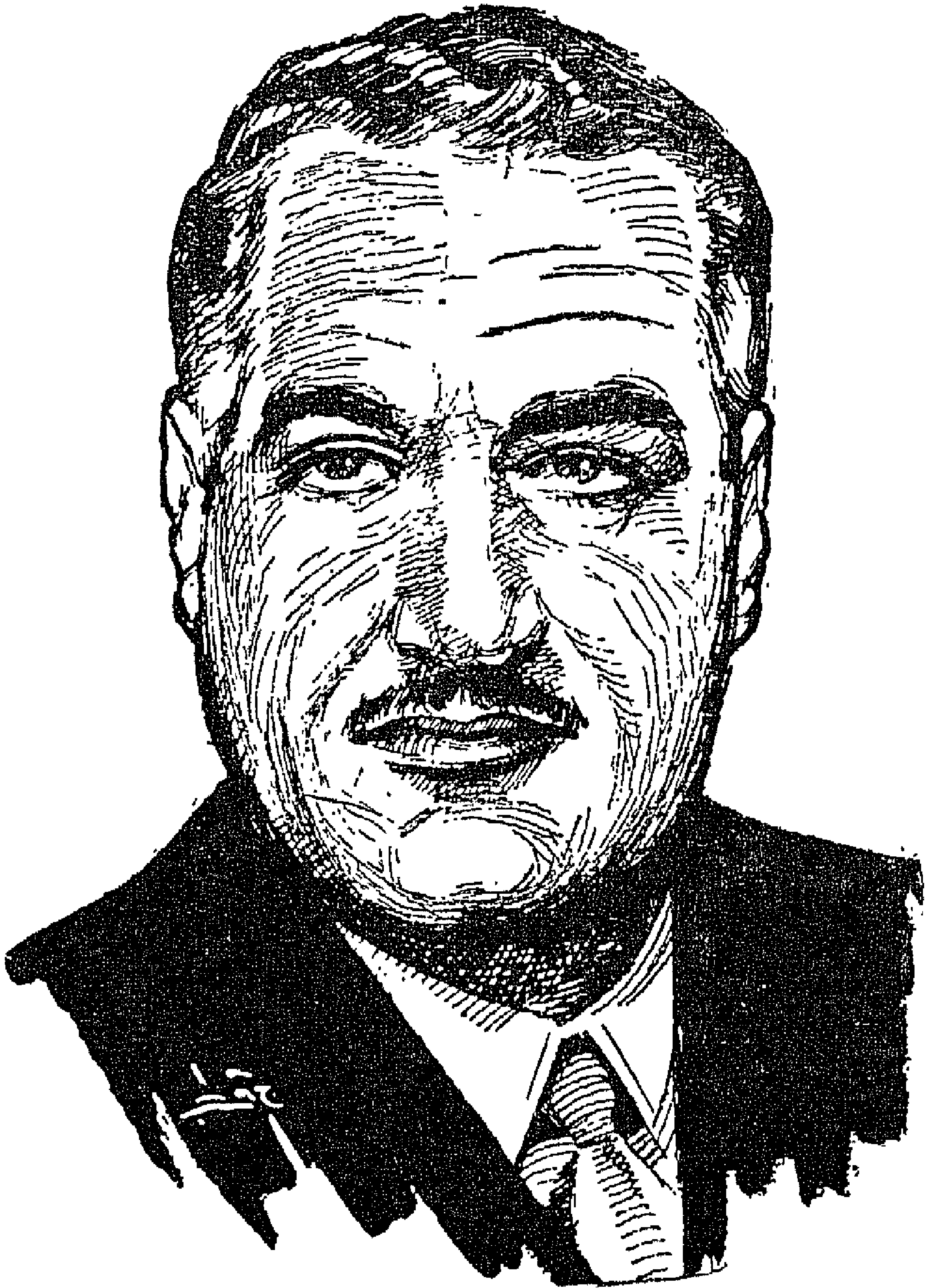
سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

يا ولدي

هذا عمك جمال

مذكرات

أنور السادات



الرئيس جمال عبد الناصر

مقـدمة

ياولدى

لم أكن اتوقع ان أبدأ فى كتابة هذه الكلمات لك فى شهر يناير سنة ١٩٥٧ .. أى بعد شهرين فقط من مولدك .. أثناء اعتداء بريطانيا ، وفرنسا ، واسرائيل ، على وطننا الحبيب مصر ..

وستقرأ يا بنى فى كتب التاريخ عن هذه الحقبة ، ولكننى عشتها لحظة بلحظة ، وانفعالا بانفعال ، عشتها كما عاشها كل مواطن مصرى ـ وقتذاك ـ كانت تظلله سماء مصر ، وترتوى عروقه بماء نيلنا المقدس ·· ولن أحـدثك حـديث الكتب أو المؤرخين··وانما سأحدثك حديثا فيه من قلبى ، وفيه من عقلى وفيه من وجدانى ··

وكما قلت لك يا بنى .. لم أكن أتوقع ان أمسك بقلمى لـكى أسطر لك هذه الكلمات ، وعمرك على الارض لم يتجاوز الشهرين .. فقد ولدت يا بنى وانا فى شغل شاغل عن بيتى وأهلى ·· لقـد كنـا نعيش يا بنى فى تلك الايام من شـهر نوفمبر سنة ١٩٥٦ ونحن نخوض معركة الموت والحياة من أجل

مصر أمنا .. معركة نسينا فيها الاهل ، والعيال .. نسينا فيها كل شيء ، وتضاءلت ، وانمحت ، من نفوسنا كل عاطفة لاهل او ولد الا عاطفة واحدة كانت تشغل كياننا فى ليلنا ، ونهارنا ، بأعنف مما يحسه الفرد نحو أهله وولده .. وكانت تلهب عزائمنا للدفاع عما هو أقدس وأجل من الاهل والمال والولد .. وهى مصر ..

لقد جاءنى أول خطاب عن قرب قدومك وأنا لاه عنك .



اننى أذكر تلك الليلة من شهر نوفمبر ١٩٥٦ .. وكنت كعادتى أمضى سحابة النهار فى مبنى مجلس قيادة الثورة ، الى جوار الرئيس جمال ، مع بقية الزملاء .. حيث كنا نتلقى الانباء ونضع أنفسنا تحت تصرفه .. وكنت أنصرف بعد ذلك الى مكتبى فى « جريدة الجمهورية » لكى أكتب مقالى .. واظل حتى إقرأ آخر برقية من برقيات وكالات الانباء ..

وفى ذلك اليوم ، وعلى خلاف عادتى بقيت فى مبنى مجلس قيادة الثورة .. وكتبت مقالى من هناك .. وأرسلته الى الجريدة .. وبينما أنا أناقش بعض الزملاء اذ دق جرس التليفون فى غرفة نوم الرئيس جمال .. وكنت أنا المطلوب ، وابلغونى انك فى الطريق الى الدنيا يا بنى .. وان والدتك تنتظر قدومك بين لحظة وأخرى ..

وصدقنى يا بنى .. اننى نسيت كل ما يتعلق بك بمجرد ان وضعت سماعة التليفون ، ورحت اكمل حديثى السابق مع

الزملاء . . فقد كنا نتناقش فى مختلف الاحتمالات التى قد يلجأ اليها الاعداء ، بعد ان اتضحت نواياهم الحقيقية ، وهى تحطيم مقاومة الشعب المصرى كلية ، والقضاء على قواته المسلحة قضاء تاما . . وكانوا قد توسلوا بمؤامرة ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٥٦ المشهورة ، لكى يحققوا هذه الاهداف

وحين أيقظونى فى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى ، لكى ينبئونى بأنك أتيت الى عالمنا ، وانك ولد ، لم يغير هذا الخبر من الامر شيئا . . ولو أنه فى ظروف أخرى كان يمكن ان يكون حدثا خطيرا . فستعلم يا بنى اننا نحن الفلاحين نعتبر ولادة الولد انتصارا . . لا لشىء الا لانه ولد وليس بنتا . . ولعل هذه العادة موروثة من أجدادنا العرب ، الذين كانوا يحتفلون بالولد ، ويتجاهلون البنت . . وقد نشأت فى قريتنا على هذه التقاليد . . ولو انه قد يكون لى رأى آخر اليوم . . الا اننى كأى فلاح فى قريتنا ، لا استطيع الا ان احترم تقاليد بيئتنا الساذجة الطيبة . . فهذه التقاليد هى عصارة تجاريب الاجيال . . وهى التى علمتنا السماحة وغرست فى نفوسنا انيافعة مبادىء الخلق ، والشرف والكرامة . .

الا انه فيما يتعلق بك يا بنى . . فان المسألة فى نظر بيئتنا لها أهمية أخرى غير ما تمليه تلك التقاليد ، فقد ولدت يا بنى ، بعد أربع بنات هن اخواتك اللاتى يكبرنك ، وخامسة ماتت وهى طفلة

فالامر والحالة هذه كان يوجب الاحتفال بمقدمك يابنى . .

ولكننى على العكس من ذلك تماما ، لم أفعل شيئا أكثر من أن أشكر الطبيب الذى تولى أمرك .. وعدت الى سريرى بجريدة الجمهورية لكى أصيب بعض الراحة لما يأتى به الغد

لم أحتفل بك اذن يا بنى .. بل لم أفكر لحظة واحدة فى هذا الامر .. ولم أحس أبدا بما يحس به كل أب فلاح جاءه ولد .. ليس لان المناسبة كانت لا تستحق الاحتفال ، وليس لاننى أسوى فى عاطفتى بين البنت والولد ، ولكن الامر كان أكبر وأجل من كل ذلك ..

كان هناك أولا أبناؤنا ، وأطفالنا ، ونساؤنا ، ورجالنا ، الذين نفقدهم كل يوم بل كل ساعة فى بور سعيد ، وفى سيناء ، وفى غزة ، وفى جميع أنحاء مصر .. بفعل قنابل بريطانيا وفرنسا وأساطيلهما ، مضافا اليها قنابل حلف الاطلنطى وأساطيله وعتاده بأكمله

انور السادات



المؤلف انور السادات

الفصل الأول

* عمك جمال وأسلحة حلف الاطلنطى
* أقدم وثيقة لاعلان حقوق الانسان

عمك جمال
وأسلحة حلف الاطلنطى

حلف الاطلنطى يا بنى ٠٠ كان تنظيما أنشأته أمريكا ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وجمعوا له دول غرب أوربا لكى يفرضوا حصارا على روسيا ، يكون من شأنه أن يبعث الراحة فى أعصاب البعض التى تمزقها كلمة الشيوعية ويكون من شأنه أيضا أن تعيش بريطانيا وفرنسا علىأموال أمريكا ، وصدقاتها،وحمايتها بعد ان خرجت هاتان الدولتان من الحرب الثانية مفلستين وضعيفتين ..

ولقد كان من الممكن ان تعيش بريطانيا وفرنسا على أموال أمريكا وحمايتها عيشة شريفة . ولكن هاتين الدولتين على ما تعودتا عليه ، لن تستطيعا ابدا العيش بشرف .. فانه ما ان انتهت الحرب العالمية الثانية ، حتى راحت بريطانيا وفرنسا تطبقان أحط أساليب الاستعمار ضد الشعوب الصغيرة ، بقصد السيطرة على مواردها وحرمانها من ممارسة سيادتها .. واستخدمت الدولتان فى ذلك دولارات أمريكا وأسلحة أمريكا ، عن طريق حلف الاطلنطى من جهة ٠٠ ومن جهة أخرى استخدمته هاتان الدولتان السارقتان ، اسم أمريكا ونفوذها ،

وتأييدها ، فى المجال الدولى عن طريق هيئة الامم المتحدة ، لكى يجعلا من شريعة الغاب دستورا للمعاملات فى هذا العالم ..

معذرة يا بنى .. ولكننى أريد ان أقول لك ان اسلحة هذا الحلف ، وأساطيله ، وطائراته ، ودباباته ، هى التى كان مقدرا لها ان تفتك بقوات مصر المسلحة تحت ستار اسرائيل ، لولا يقظة جمال عبد الناصر الذى أصدر أوامره بسحب قواتنا من سيناء ، وتوحيد الجبهة فى اللحظة الحاسمة ..

أسلحة حلف الاطلنطى هذه هى التى جاءت الى مصر ، لكى تخلع عمك جمال عبد الناصر .. وتقضى على الثورة .. لكى تعود مصر من جديد مستعمرة ليس لبريطانيا وحدها ، هذه المرة ، وانما لبريطانيا وفرنسا واسرائيل ..

أسلحة حلف الاطلنطى هذه .. هى التى جاءت الى مصر لكى تقضى على القومية العربية ، وزحفها الصاعد المقدس .. فزعماء الغرب لم يكفهم أن يحصلوا على البترول ، ولا أن يستخدموا قناة السويس فى حرية وأمن ، وانما هم يريدون ان يستعبدونا ويذلوا رقابنا ، ويحصلوا أيضا على البترول ، ويملكوا القناة ، ويقضوا الى الابد على كل وعى ، أو حرية ، أو استقلال ، فى دنيا العرب وفى مصر على وجه الخصوص ..

وكانت هناك ثانية معركة التحرر للشعوب الصغيرة ، التى كتب علينا فى لوح القدر ان نخوضها نحن فى مصر على الخصوص ..

وتاريخ هذه المعركة فى مصر يا بنى قديم ومجيد .. بدا

قبل أن أولد ، وقبــل ان يولد جـــدك ، بل قبل أن يولد جد جدك ..

تاريخ طويل كتبه أباؤنا وأجدادنا بدمائهم عبر القرون .. وكان كل جيل يسلم الامانة الى الجيل الذى يليه ، وتصميم شعبنا فى كل مرحلة صلب لا يلين .. ان كل معركة خاضها شعبنا ، كانت تزيده تصميما على تصميمه .. وكل دماء سالت من الاحرار على أرضنا ، كانت تغذى شجرة الحريةالتى تمد ظلالها اليوم على وادينا الاخضر من اقصاه الى أقصاه ..

لم يستسلم شعبنا أبدا يا بنى للغزو الاجنبى ، ولا لطغيان .. وحين كان يغلب هذا الشعب على أمره من قوى متفوقة عليه ، كان يعمد من فوره الى المقاومــة الشــعبية فى تصــميم واصرار ، حتى ينتصر فى آخر الامر على أعدائه ..

وكما كانت لشعبنا فى الماضى السحيق حضارة ومدنية ، تنطق الى يومنا هذا بأروع انتصارات بناءة فى العلوم ، والفنون ، والهندسة ، والبناء ، والطب ، والفلك .. فان تاريخنا فى ماضينا القريب ، يسجل لهذا الشعب سجلا حافلا بالكفاح من اجل القيم البشرية التى يظن البعض فى الغرب بانهم حماتها ، وهم الذين داسوها فى الماضى ، ويدوسونها كل يوم فى وقاحة ، وبلا ادنى خجل أو حياء ..

أقدم وثيقة
لاعلان حقوق الانسان

ففى سنة ١٧٩٥ الميلادية أى منذ مائة وستين عاما من يومنا هذا ، حين كانت دول كثيرة من التى تطلق على نفسها دولا كبرى أو عظمى اليوم ، لا تزال شعوبها تجهل القيم الحضارية والحقوق الاساسية للانسان ، كان الشعب المصرى يفرض ارادته على حكامه ، فى وثيقة أجمع المؤرخون المصريون والاجانب على انها بحق ، وثيقة اعلان حقوق الانسان ..

فى سنة ١٧٩٥ قرر الشعب المصرى ما يأتى : ــ

١ ــ أنْ لا تفرض ضريبة الا اذاأقرها مندوبو الشعب ..

٢ ــ أن ينزل الحكام على مقتضى أحكام المحاكم

٣ ــ أن لا تمتد يد ذى سلطان الى أى فرد من أفراد الامة الا بالحق والشرع ..

وذهب الشعب الى أبعد من ذلك فاجبر حكامه فى ذلك الوقت على الاعتراف فى هــذه الوثيقة بخطئهم وانهم « تابوا ورجعوا .. »

واليك يابنى القصة كما يرويها الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المصرى الكبير :

« فى اوائل شهر ذى الحجة من عام ١٢٠٩ هجرية (١٧٩٥م

ميلادية) جاء رجال من بلبيس الى المشايخ فى الازهر يشكون الظلم ، وتقابلوا مع الشيخ الشرقاوى يعلنون سخطهم من الضرائب الباهظة ، والاستبداد الجاهل . واستشعر الشيخ الشرقاوى ان الشعب جاد فى سخطه كل الجد ، وان النفوس تغلى غليانا مكبوتا لا تؤمن نتائجه .. واستشعر فى نفسه تلكم المسئولية الدينية ، والوطنية التى اشتهر بهما رجال الدين فى ذلك العهد فلم يحاول ان يهدىء من نفوس هؤلاء الثائرين ، ولم يحاول ان يقول لهم انهم أولوا الامر ، لم يثبط ارادتهم .. وانما أشعل جذوتهم ، وأحسن توجيههم ..

غضب الشيخ لكرامة الشعب..فتوجه الى الازهر ، وجمع المشايخ ، وقفلوا أبواب الجامع ، وأمروا الناس بترك الاسواق والجوامع والمتاجر .. وركب الشيخ فى اليوم التالى وخلفه خلق كثير ، الى منزل الشيخ السادات .. وكان منزله قريبا من منزل ابراهيم بك شيخ البلد ، الذى لم يلبث حين رأى هذا التجمع أن أرسل مندوبا عنه ــ هو أيوب بك الدفتردار ــ الى العلماء ، وهم قادة هذا الجمع الشعبى .. ووقف المندوب بين أيديهم يسألهم عن مرادهم فقالوا :

نريد العدل ، ورفع الظلم ، والجور ، واقامة الشرع .. وابطال الحوادث ، والمكوسات .

نريد العدل الذى لا تقوم حياة بدونه

ونريد رفع الظلم الذى هو أساس الهوى الى الحضيض ..

ونريد ازالة الجور لان الجور مرتعه وخيم ..

نريد اقامة الشرع لانه شرع الله وقد آمنا به ..

ونريد ابطال الحوادث واقرار الامن ..

كما نريد رفع المكوسات .. لان الضريبة بغير استئذان الشعب ، لايمكن أن تكون شرعية ولا مقبولة بحال ..



وكانت ملحمة كلامية بين العلماء ومندوب ابراهيم بك شيخ البلد .. قال العلماء فيها كلمة الحق .. لان الخوف من غير الله شرك جزاؤه الخلود فى النار ..

قالوا له : « ان الضرائب لا تحتمل »

وقال الدفتردار : « ان النفقات باهظة »

قال العلماء : « وما الباعث على الاكثار من النفقات ، والامير يكون أميرا بالعطاء لا بالاخذ ؟ »

وبلغ الامر غايته

وخشى ابراهيم ومراد حكام مصر وقتذاك مغبة الثورة .. فارسلوا يسترضون العلماء ويستجيبون لمطالبهم ..

واجتمع الامراء فى اليوم الثانى .. وأرسلوا الى العلمـــاء يرجون حضورهم .. وكان ذلك فى منزل ابراهيم بك .. فحضر منهم الشيخ السادات ، والسيد عمر مكرم ، والشيخ الشرقاوى ، والشيخ البكرى ، والشيخ الامير ، وكانوا جميعا من رسل الثورة وقوادها الظاهرين .. وطال الجدل بين الشيخ والامراء مرة أخرى ..

احتدم النقاش بين الشعب وحاكميه .. بين شعب أعزل الا

من الايمان ، والتصميم .. وبين حاكم مسلح تعود الطغيان..

وأعلن الحاكمون أنهم «تابوا ورجعوا».. وأنهم « سيشدون على أيدى أتباعهم ، ليكفوا عن سلب اموال الناس »

والاهم من كل ذلك : ان قاضي القضاة كان موجودا فى هذا المجلس .. وان وثيقة رسمية سجلت على الامراء أمضاها الوالى العثمانى ، وأمضاها ابراهيم ومراد .

كان تسجيل هــذه الحقوق فى حد ذاته معنى من أخطـر المعانى .. فحقوق الشعب حقوق مشروعة .. ومطالبه مؤيدة .. وقاضى قضاة البلد مختص بتسجيل هذه المطالب .. ودمغ هذا الصك بالدمغة الرسمية والشرعية ، وهى وثيقة لحقوق الانسان كأقدم ما تكون الوثائق ، أعلنها شعب مصر منذ مائة وستين عاما ، ليفهم الناس عن هذا الشعب غير الذى يحاول المستعمرون وأذنابهم ان يبقوه فى الاذهان ، وليدرك العالم ان مصر العظيمة فى القديم ، كانت هى هى مصر البارة بالانسانية ، والحريصة على كرامة الفرد ، فى تاريخها الحديث ..

ان سطور هــذه القصة الساذجة لتعكس يابنى روح شعب مصر الوادع الصبور ، المكافح .. وتعكس فى نفس الوقت مدى فهمه منذ القدم للمعانى ، والقيم الانسانية ..

فمبدأ عدم فرض الضريبة الا اذا أقرها مندوبو الشعب ، وهو الذى نادى به شعب مصر عام ١٧٩٥ وأرغم حكامه على التسليم به ، هو أروع دليل على ما لشعب مصر من وعى ديمقراطى أصيل منذ القدم .. وعى ليس مفتعلا ولا مدسوسا ،

وانما هو وعى من صميم البيئة المصرية التى ورثت على مر الاجيال والسنين ، تقاليد حضارات مجيدة .. كانت كلها حضارات علم وبناء وعمران ..

وانظر يا بنى الى الحوار الذى حوته هذه القصة ، والذى دار بين ممثلى الشعب وممثل شيخ البلد الحاكم .. ان الثورة الفرنسية كلها لتتضاءل أمام المغزى العميق لهذا الحوار ..

فلقد أسفرت الثورة الفرنسية عن مبادىء ثلاثة هى،الحرية والاخاء ، والمساواة ، لم تلبث أن أصبحت فى فرنسا ذاتها وأثناء الثورة الفرنسية نفسها شعارا للقتل والتدمير بين الفرنسيين الثوار أنفسهم .. ثم ما لبثت هذه المبادىء ، ان صدرتها فرنسا الى الخارج على صورة استعمار خبيث يفتك بالشعوب البريئة ، ويسلبها أرزاقها .. ويقتل النساء ، ويفتك بالاطفال ، ويغتصب الارض ، ويجعل من الانسان شيئا أحط من الحيوان .. كل هذا باسم الحرية والاخاء والمساواة ..

قارن هذا يا بنى بوقفة شعب مصر عام ١٧٩٥ وهو يقرر فى الحوار البسيط ، أخطر وأعظم المبادىء التى تحفظ لهذه البشرية قيمتها ، وللانسان حقوقه وكرامته ..

ان العدالة الاجتماعية التى لم يعرفها العالم الا حديثا ، قررها شعب مصر فى حواره الساذج مع حكامه ، حين اشتكى ممثلو الشعب من فداحة الضرائب .. فرد الدفتردار ان النفقات باهظة .. فكان رد الشعب :

« وما الباعث على الاكثار من النفقات والامير يكون أميرا

بالعطاء لا بالأخذ »

أتعرف يا بنى ماذا تحويه هذه العبارة الهادئة المرسلة فى غير تكلف ولا غرور .. ؟

انها تعنى أن الامير أى الحاكم فرض عليه أن يرفع عن كاهل رعيته الاعباء .. فلا يكلفها من النفقات الباهظة مالا تطيق .. وان الحاكم لا يستحق تأييد شعبه ، الا اذا كانت سياسته هى العطاء أى توفير الحياة الكريمة لجميع أفراد هذا الشعب باعطائهم حقوقهم ، واعطائهم فرصا متكافئة فى الحياة .. واعطاء الشعب نصيبه العادل فى أمواله وميزانيته .. فلا يستأثر لنفسه ، ولا لحاشيته ولا لفئة دون فئة بما يكون ملكا لهذا الشعب ..

وهل تكون العدالة الاجتماعية غير هذا المعنى .. ؟ أو هل تفسر العدالة الاجتماعية بغير هذا التفسير .. ؟



معذرة يا بنى فقد أكون قد أطلت عليك .. ولكننى كان لابد لى أن أذكر لك شيئا عن تاريخ بلادك التى قدر لها ان تحمل عبء معركة التحرر عن الشعوب الصغيرة فى أيامنا هذه ..

واردت ان اربط ماضينا بحاضرنا ، قبل أن أروى لك عن المعركة التى شغلتنى عنك ، والهتنى عن قدومك

فكما قلت لك يا بنى .. كتب علينا فى لوح القدر ان نخوض نحن فى مصر معركة التحرر باسم جميع الشعوب الصغيرة .. ومن سخرية القدر أيضا ، ان بعض حكام هذه الشعوب الصغيرة

لا يجهل هذه المعركة فحسب ، وانمـــا هم يحاولون تضليل شعوبهم فى هذه المعركة الفاصلة فى تاريخ البشرية ، ومع ذلك فنحن مصرون على تحقيق أهدافنا لا من أجل الشعب المصرى وأمتنا العربية فقط وانما من اجل الشعوب الصغيرة المغلوبة التى تؤمن بالمثل التى نؤمن بها ، المثل التى حارب من أجلها اباؤنا وأجدادنا ، فى تصميم وايمان .

اننا نخوض هذه المعركة منذ طفولتنا يا بنى ، ولا تعجب لقولى ، فقد نشأنا فى جيل كان كل مايحيط به هو المتناقضات

والسنين التى عشتها فى القرية قبل ان أنتقل الى المدينة يابنى ، ستظل بخواطرها وذكرياتها زادا يملأ نفسى ووجدانى بالصفاء والايمان ، فهناك تلقيت يابنى أول دروس فى هــذه الحياة ..

تعلمتها على يد الارض الطيبة السمحة ، التى لا تبخل على الناس بالزرع والثمر ..

وتعلمتها من سماء قريتنا الصافية المشرقة ..

تعلمتها فى ظل الجميزة الخضراء الصامدة ، وعلى اغصان الصفصافة الخجولة الوديعة ..

تعلمتها على حافة الجدول الصغير ، الذى ينقل الى الحقول ترياق الحياة فى رضى وقناعة ..

تعلمتها فى ظلال الامسيات البريئة مع زملائى من شـــباب القرية ، ونحن نلعب تحت ضوء القمر فى شـــوارع القرية الساكنة الهاجعة ..

وتعلمتها أيضا على أستاذى الحبيب .. جدتى ..

الفصل الثانى

* ساحكى لك عن جدتى
* نفس الهدف
* المــاضى يعود

سأحكى لك عن جدتى

ان أول ما تفتحت عليه عيناى يا بنى فى بلدتنـــا .. هو ذلك الحديث الهامس ، الذى كانت تحكيه لىجدتىـ لوالدى ـ كل ليلة ، قبل النوم .. وهو الحديث الذى كنت أعيش عليه طوال يومى ، فى انتظار قدوم الليل ..

وقبل أن أحكى لك عن أحاديث جدتى .. أريد أن أحكى لك عن جدتى نفســها يا بنى .. وهى تلك التى علمتنى كل شيء .. ولم تبخل على عقلى وروحى بأى شيء ..

فقد تركنى والدى أنا وأخى الاكبر ، فى رعاية جدتى .. لانه كان يعمل موظفا بالســـودان .. وكانت جدتى رحمها الله ، لا تتولى أمرى أنا وأخى فقط ، وانما كانت أيضا تقوم على أمر العائلة بأكملها .. وعلى زراعة المساحة الصغيرة من الارض التى تمتلكها العائلة ..

ولقد كانت رحمها الله ، أمية لا تقرأ ولا تكتب .. ومــع ذلك فقد كانت ذات فطرة واعية ، وذكاء وشخصية ، قلمــا يجـــدها الانســان اليوم فيمن تعلمـــوا ، وتثقفوا أحســن الثقافات ..

لقد كانت الحياة هى المدرسة التى تلقت عليهـــا جدتى الثقافة .. لذلك كانت تصرفاتها كلها سديدة .. فلا عجب أن كنت أرى الرجال يقصدونها للنصيحة والرأى . وهى فى

كل ما تشير أو تنصح رزينة الحجة ، ثاقبة البصر .. تعرف للنفس البشرية ضعفها ، وتلتمس الخير والوفاق فى حماس يدخل الدفء الى قلوب أهل القرية السذج الطيبين ..

وأحاديثها لم تكن للتسلية فقط يا بنى .. وانما كانت دروسا وعبرا

كان الناس مفتونين بعرابى

لاول ماحدثتنى يا بنى .. كان ذلك عن عمها الذى كان ضابطا فى الجيش المصرى ، أيام ثورة عرابى سنة ١٨٨٢ التى انتهت بالاحتلال البريطانى لمصر فى تلك السنة ..

اننى اذكر كيف كانت تحكى لى ، وفى عينيها بريق ، وحماس عجيبان ..

فقد فوجئت القرية الوادعة فى يوم بدخول فارس على جواده ، يركض فى سرعة رهيبة ، ثم لم يلبث ان احتوته القرية

وكان الناس وقتذاك مفتونين بعرابى .. ذلك الضابط المصرى الفلاح ، الذى تحدى الخديو التركى ، من اجل الضباط المصريين .. ثم من أجل اقامة حياة ديمقراطية ، يتولى فيها الشعب أموره بنفسه .. وكانت دعواتهم له بالنجاح حارة .. ومن كل قلوبهم خاصة .. وانهم عرفوا ان الخديو الخائن قد استنجد بالانجليز الاجانب ..

وحين دخل هذا الفارس فى سرعته الرهيبة .. اندفعت الجموع من خلفه .. خاصة وانه كان يرتدى ملابس الضباط

من هو الفارس ؟

وكانوا جميعا فى شوق الى سماع الأنباء عن جيشهم الذى يحارب من أجلهم .. وعن عرابى بطلهم . وأخذوا يندفعون من شارع الى عطفة ، ومن عطفة الى حارة ، وراء ذلك الفارس الجامح .. وفى كل لحظة ، ينضم اليهم فوج جديد ، بحماس جديد .. الى أن فوجىء هذا الجمع بالحصان والفارس وقد سقطا على الارض فى منعطف ضيق .. وكان الحصان من فرط لهثه وتعبه ، يرقد ممددا على الارض .. والفارس ملقى الى جواره ، ودماؤه تنزف بغزارة

وعلى الفور تعرف الناس على الضابط الفارس .. وهو ابن بلدهم .. وقد كان على قيد خطوات من منزله .. فنقلوه اليه ..

اما الحصان فانه لم يلبث أن مات بعد دقائق قليلة

كان الفارس كما روت جدتى .. هو عمها .. الذى كان يعمل ضابطا فى سلاح الفرسان فى الجيش المصرى

وقد روى للأهل والاصدقاء قصته ، بعد أن ضمدوا له جراحه ، ورشوا وجهه بالماء ..

وكانت قصته .. هى قصة الجيش المصرى الذى قاتل فى الاسكندرية ، وكفر الدوار ، سنة ١٨٨٢ بقيادة عرابى .. وصد الغزاة الانجليز .. وعندئذ تحولوا الى قناة السويس ، فدخلوا منها بالتآمر مع ديلسبس .. وتسللوا بالخيانة والغدر الى مصر ، فى الوقت الذى كان ديلسبس يطمئن فيه عرابى

بأن القناة لن تستخدم فى غزو مصر .. مما جعل عرابى يعدل عن تعطيلها ، احتراما منه لكلمة ذلك الأفاق ..

ومن سخرية القدر يا بني .. ان نفس المشهد يتكرر ، بعد مرور أربع وسبعين سنة

فان الاحتلال البريطاني الذى بدأ سنة ١٨٨٢ كان قد انتهى على يد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ باتفاقية الجلاء التى وقعت فى ١٩ أكتوبر سنة ١٩٥٤ وانتهى جلاء آخر جندى بريطانى عن أراضينا يوم ١٨ يونيو سنة ١٩٥٦،لكن لم تمض ثلاثة أشهر على تحرير أرضنا ، حتى بدأت اسرائيل فى ٢٩ أكتوبر سنة١٩٥٦ عدوانها على مصر ، بالاشتراك مع بريطانيا ، وفرنسا ، اللتين لم تلبثا أن بدأتا دورهما فى المؤامرة الدنيئة يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ..

قصة انذارين رفضناهما

ففى سنة ١٨٨٢ اتفقت بريطانيا وفرنسا على غزو مصر .. وأبحرت الاساطيل البريطانية والفرنسية فعلا الى مصر .. ولكن بريطانيا على مألوف عادتها فى المكر والخيانة استطاعت أن تقنع الاساطيل الفرنسية بالعودة ، لكى تنفرد بريطانيا بالفريسة .. وفعلا عادت المراكب الفرنسية من عرض البحر المتوسط .. وجاءت المراكب الانجليزية وحدها الى الاسكندرية

وقصة الانذار الفاجر الذى أرسلته فرنسا وبريطانيا الى مصر يوم ٣٠ أكتوبر سنة١٩٥٦ والذى وصفه عضو من أعضاء

مجلس العموم البريطانى بأنه « عمل قذر » ، هى نفس قصة الانذار الذى أرسل الى قيادة الجيش المصرى سنة١٨٨٢ من الاسطول البريطانى المعتـــدى ، الذى كان يقف فى ميـــاه الاسكندرية ..

ففى سنة ١٨٨٢ طلب الانجليز فى انذارهم نزع ســـلاح الطوابى التى كانت تحمى الاســـكندرية .. والســـماح لهم باحتلال المدينة ..

وفى ســـنة ١٩٥٦ طلب الانجليز فى انذارهم ، السماح لهم باحتلال بورسعيد ، والاسماعيليـــة ، والسويس..وأشركوا معهم اسرائيل فى احتلال سيناء المصرية ..

وفى سنة ١٨٨٢ رفضت قيادة الجيش المصرى الانذار .. وبدأ القتال ..

وفى سنة ١٩٥٦ رفض الرئيس جمال عبد الناصر الانذار .. وأعلن أن مصر ستحارب الى آخر قطرة من دمائها ..

نفس الهدف

وفى سـسـنة ١٨٨٢ كان هـدف بريطانيا ، هو السيطرة على مصر ..

من أجل الاحتفاظ بقناة السويس

ومن أجل الاحتفاظ بالمركز الاستراتيجى الخطير الذى تقوم فيه مصر من هذا العالم ..

ومن أجل تثبيت دعائم الاستعمار البريطانى فى أفريقيـا وآسيا ، وتأمين عملية امتصاص دماء الشعوب ، لـكى يبنى المجتمع البريطانى .. وينعم البريطانيون فى جزيرتهم بالملذات والسيجار ..

وفى سنة ١٩٥٦ كان هدف بريطانيـا ، هو السيطرة على مصر ..

من أجل اعادة سيطرتها على قناة السويس ..

ومن أجل الاحتفـــاظ بالمركز الاستراتيجى الخطير الذى تقوم فيه مصر من هذا العالم ..

ومن أجل تثبيت دعائم الاستعمار البريطانى الذى اخـذ ينهار بسرعة فى آسيا وافريقيا ، واعادة السيطرة على العرب

الذين بعثت قوميتهم العربية فجأة كالمارد الجبار ، وأصبحوا يكرهون ويحتقرون بريطانيا وهيبتها المزعومة ..

ومن اجل محاولة امتصاص دماء الشعوب من جديد ، بعد أن تنبهت هذه الشعوب .. وأصبح الشعب البريطانى مهددا بالحرمان من الملذات والسيجار

ان ذلك هو الاساس فى المعركتين من وجهة نظر بريطانيا يا بنى .. فالاصل واحد .. وهو الاستعمار الكريه المسعور ..

أما من وجهة نظر مصر فان الامر فى سنة ١٩٥٦ كان يختلف تمام الاختلاف عن سنة ١٨٨٢

ففى سنة ١٨٨٢ كان يحكم مصر الخديو توفيق بن عباس،

وكان هذا الرجل يتصف بالجبن ، والتردد فضلا عن كونه اجنبيا عن مصر (تركى) وعميلا لفرنسا وبريطانيا .. فقد أجبرت بريطانيا أباه اسماعيل على التنازل عن العرش ، والرحيل عن مصر حيث استقر فى ايطاليا الى أن مات بها ، وجاءوا بهذه الدمية « توفيق » فنصبوه خديويا على مصر لكى يأتمر بأمرهم ، وينفذ مشيئتهم

وقد أجمع المؤرخون على ضعف شخصية توفيق ، وتخاذله وارتمائه فى أحضان بريطانيا وفرنسا ، من أول لحظة لدرجة انه كان لايبرم أمرا من أمور الدولة الا والقنصلان الفرنسى والبريطانى عن يمينه وعن شماله

وعندما اقتحم عرابى باسم الجيش المصرى سراى عابدين سنة ١٨٨٢ لكى يقدم طلبات الجيش المصرى والشعب ،

وجـد الى جانب الخـديو القنصل البريطانى سـير ادوارد ماليت ، وسجلت الى يومنا هذا صورة عرابى وهو ينـاقش الخديو الى جانبه القنصل البريطانى

عمك المصرى العربى

أما فى سنة ١٩٥٦ فانه يحكم مصر يا بنى عمك جمـال عبد الناصر .. وهو المصرى العربى ..

فهو من بلدة أسيوط فى صعيد مصر ومن قبيلة « بنى مر» العربية ، وقد تكون لحمه هو واجـداده من تراب مصر ، وامتلأت عروقه بالدماء الحارة من نيل مصر ..

وجمال عبد الناصر ، عمك يابنى الذى سميتك علىاسمه ، وصديقى ، ورئيسى ، الذى أحبـه واحترمه منـذ ان كنا ضابطين صغيرين فى منقباد سنة ١٩٣٨

عمك جمال هذا يا بنى ، يمتاز بالاقدام ، والايمان بمصر ، واستقلالها ، وكرامتها ايمانا صلبا عنيدا ، كنت ألمسه منـذ حداثتنا فى معاملته لنا نحن أصدقاؤه ، وفى معاملته أيضـا للضباط العظام الذين كانوا رؤساءنا .. وفى معاملته لافراد البعثة البريطانية التى كانت مفروضة على جيشنا ..

الفلاحون العبيد

وفى سنة ١٨٨٢ كان الشعب المصرى يعـانى من الخونة المأجورين ، فقد كان هناك فىالجيش ضباط اتراك وأرناؤوط لايحسون باحساس مصر ، بل يعتبرون انفسهم من طينـة الخديويين الحكام .. أما الشعب فكانوا يصـفونه بالفلاحين

عبيدهم .. وقد كانوا يطلقون على عرابى الفلاح لانه مصرى .. ولم تكن مناصب القيادة من حق الضباط المصريين ، ولا كان من حقهم ايضـــا الحصول على رواتب مثل غيرهم من الضباط الاجانب

أما من ناحية الشعب ، فقد كانت المناصب والحكم وقفـا على الاتراك والاجانب من دون المصريين « الفلاحين » وكان السياسيون الذين يتقلدون المناصب ، من هؤلاء الخونة الاجانب عن الشعب .. أما أبناء البلاد ، فلم يكن لهم صوت أو نصيب فى أمور بلادهم

وحين قررت الجمعية التشريعية المصرية أن تمارس سلطاتها كاملة باسم الشعب فى الرقابة على الحكومة ، والميزانية، ومقاومة التدخل الاجنبى من فرنسا وبريطانيـــا الذى كان يتمثل فى اشراف ثنائى على ماليـــة مصر كان هو الخطوة الاولى لفرض اســـتعمارها ، أوعز قنصلا فرنسا وبريطانيا الى الخديو توفيق « الدمية » بتعطيل هذه الجمعية والغائها .. ثم تلا ذلك التدخل العسكرى سنة ١٨٨٢

وبريطانيا وفرنسا هما أصحاب نظرية الديموقراطية ومن اقطاب مايسمى بالعالم الحر

أما فى سنة ١٩٥٦ فان الشعب المصرى لم يكن من بينـــه خائن ولا عميل ..

فانه بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ تطهرت الحياة السياسية من الزعماء والاحزاب الذين نشـــأوا فى احضان

الاحتلال البريطانى .. وبعد ثلاث سنوات تمكنت الثورة من تحقيق المبدأين الاول والثانى لها وهما :

- القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة ..
- القضاء على الاقطاع ..

ولقد تم القضاء على الاقطاع بعد أن انهت الثورة حكم أسرة محمد على وأعلنت الجمهورية ..

وتم القضاء على الخونة بعد أن قضت الثورة على الاقطاع

وعندئذ سهل القضاء على الاستعمار الاجنبى بعد أن فقد أعوانه من الخونة داخل البلاد ، ومن الحكام من أسرة محمد على الاجنبية وبطانتهم واتباعهم ..

ان الاستعمار لا يعيش أبدا يا بنى الا على الخيانة ، والاقطاع ، والحكام الذين يبيعون أنفسهم وبلادهم لقاء المنفعة والجاه والسلطان

الايدى الاجنبية العابثة

وفى سنة ١٨٨٢ كانت مصائر شعبنا فى أيد اجنبية تعبث بها كيف تشاء

فمن الوجهة القانونية كانت مصر ولاية عثمانية تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى ولكن الواقع كان أسوأ من ذلك بكثير فشعبنا فى صراع مع الطغاة والمستعمرين والطامعين ، منذ فجر التاريخ ..

ان المعركة التى انتهت فى بورسعيد بهزيمة فرنسا وبريطانيا معركة يرجع تاريخها الى نهاية القرن الثامن عشر حين جاءت

فرنسا سنة ١٧٩٨ تغزو مصر فقد كانت أحلام السيطرة على مصر مفتاح الشرق صاحب الكنوز والخيرات تداعب نابليون الذى لم يلبث أن أغار على مصر

وبريطانيا

فقد جاءت تغزو مصر سنة ١٩٥٦ بقصـد الاستيلاء عليها لتحقيق الاغراض التى كانت تريدها فى سنة ١٨٠٧ ، وسنة ١٨٨٢ ، وهى تثبيت استعمارها الجشع ، وتأمين عملية امتصاص دماء الشعوب ..

وقد كانت مصر فى القرنين الثامن والتاسع عشر ولاية عثمانية تابعة للامبراطورية التركية ، ولكن هذا لم يكن ليمنع فرنسا ولا بريطانيا من انتهاز كل فرصة للسيطرة على مصر، بل ان تبعية مصر للامبراطورية العثمانية ، كانت تسهل لهما دائما تحقيق الاطماع فى السلم والحرب على السواء ..

الماضى يعود

وكأنما يعيد التاريخ نفســـــه يا بنى سنة ١٩٥٦ ، فان الاساطيل الفرنسية البريطانية التى أغارت على بورسعيد ، كانت تحتمى فى الموانى التركية ، لكى تتجنب عيوننا التى كانت مفتحة على قبرص حيث كانت توجد قواعدهم .. تماما كما كانت تحتمى بريطانيا بالخليفة العثمانى لكى يصدر لها الاوامر الى مصر بتنفيذ كل ماتريده هى وفرنسا

بل وأكثر من ذلك ، فان بلاط الخليفـة العثمانى صـاحب الولاية على مصير شعب مصر كان يخضع تماما لاوامر بريطانيا وفرنسا ومشورتيهما فى كل ما يتعلق بمصر . وكانت ولاية هذا الخليفة على مصر اسمية فقط ..

أما الحقيقة فكانت هى أن مصير شعب مصر ، كان دائما رهنا لاشارة ونصائح بريطانيا وفرنسا

والامثلة على ذلك كثيرة ومتعددة عبر التاريخ ..

وكانت بريطانيا وفرنسان تلجآن فقط الى استعمال القوة مجتمعتين اذا كانت مشورتهما لا يؤخذ بهـــا ، او يفقـدان سيطرتهما على مصر من خلال الخليفة العثمانى ، كمـا حدث فى موقعة نفارين .. وفى سنة ١٨٨٢ حينما ارسلت الدولتان أساطيلهما تخلف الاســـطول الفرنسى من عرض الطريق ،

وكمل الاسطول الانجليزى المهمة لحساب بريطانيا ..

اما فى الحالات التى كانت تلجأ كل دولة منهما الى استعمال القوة منفردة بقصد السيطرة على مصر كما حدث فى سنة ١٧٩٨ بالنسبة لفرنسا ، وسنة ١٨٠٧ بالنسبة لبريطانيا ، فقد كان ذلك يحدث دائما نتيجة لخلاف بين الدولتين وتعارض بين أطماعهما ..

دور تركيا لم يتغير

تخرج من هذا يا بنى الى أن اطماع بريطانيا وفرنسا فى مصر قديمة وعميقة ولم يكن يحد منها او يوقفها تبعية مصر للامبراطورية العثمانية .. بل على العكس من ذلك، كانت هذه التبعية مما يمكن للدولتين احكام سيطرتهما على مصر

فاذا اتفقت الدولتان عملتا مجتمعتين ضد مصر ..

واذا اختلفت الدولتان عملتا كلا على حدة ايضا ضد مصر..

ودور تركيا فى كل الحالات ، وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، هو نفس دورها فى سنة ١٩٥٦ فى خدمة الدولتين المستعمرتين ، وخدمة الاستعمار بصفة عامة

عملية الافقار

بل ان الامر تطور الى ماهو أشد بشاعة من ذلك ، فان فرنسا وبريطانيا فرضتا علنا سيطرتهما على مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بحجة الدين الذى أقرضوه للخديو اسماعيل ، وكانوا يستغلون فى ذلك سفه ذلك الخديو واستهتاره ، فأوعزوا الى المرابين من فرنسا

وبريطانيا باقراضـــه المال بالفوائد الجسيمة ، حسب خطة منظمة ، انتهت بأن أفلست الخزانة المصرية ..

ففرضت الدولتان سيطرتهما عن طريق ما سمى بصندوق الدين الذى كانت له الولاية ليس على ماليـــة مصر وحدها ، وانما على مصير الشعب المصرى ســـياسيا واقتصـــاديا ، واجتماعيا ..

وبدأت منذ ذلك الوقت عملية افقار هذا الشعب وتأخيره ومنعه من العلم والتقدم ، على يد بريطانيا وفرنسا ، بعد أن كانت تتم قبل ذلك على يد تركيا العثمانية

وهكذا كانت مصائر الشعب المصرى ملكا للعابثين الاجانب فى فرنسا وبريطانيا ، وحليفتهما تركيا سنة ١٨٨٢



تغير الحال

اما فى سنة ١٩٥٦ فان الحال بالنسبة لمصر كان قد تغير على صورة حاسمة لم يحاول ان يفهمها أولئك المستعمرون فقد أخفى الجشع والغدر الحقائق عنهم

فمصائر شعب مصر لم تعد فى يد بريطانيا ولا فرنسا ولا تركيا .. ولا الثلاثة مجتمعين ، وانما عادت لصاحبها شعب مصر

فانه بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ تغير وجه التاريخ الا الأبد بارادة الشعب ، ونظرة واحدة الى مبادىء الثورة يا بنى التى نبتت من صميم قلب كل مصرى ، بعد ذلك التاريخ الطويل من المظالم والسيطرة الاجنبية ، تعطيك الفكرة الصحيحة عما حدث فى مصر يا بنى ... وكيف عادت السيادة على مصر الى يد شعب مصر ..

ان هذه المبادىء التى سجلها الشعب فى دستوره الذى أصدره فى ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ هى :

١ ــ القضاء على الاستعمار واعوانه من الخونة ..

٢ ــ القضاء على الاقطاع

٣ ــ القضاء على سيطرة رأس المال على الحكم

٤ ـ تطبيق العدالة الاجتماعية

٥ ـ اقامة جيش وطنى قوى

٦ ـ اقامة حياة ديموقراطية سليمة

وهكذا حدد الشعب المصرى أهـــدافه يا بنى .. وبدا معركته ضد أعدائه فى ايمان ، وتصميم ، وعنف . ولم تمض سنوات ثلاث ، حتى كانت الانتصارات تتحقق لهذا الشعب، وحتى اخذت عجلة الثورة تطحن فى طريقها كل العقبات ..

ولم يكن الطريق سهلا ولا ممهدا يا بنى ..

فاننا لم نكن نواجه العقبات فقط من الرجعيين وانصـــار الحكم الفاسد

وانما واجهناها أيضا من داخل الثورة نفســـها .. حينما خرج على مبادئهـــا الجنرال محمد نجيب .. وهو الرجل الذى اخترناه أول الامر لقيادتها .. ففضل أن يتعـــامل مع الرجعيين أعداء الثورة .. وكادت المسألة تنتهى بكارثة ، لولا يقظة عمك جمال عبد الناصر ..

وعمك جمال .. هو الذى أصر بادىء الامر على أن يتنازل عن قيادة الثورة لمحمد نجيب .. برغم أن عمك جمال ، كان منتخبا رئيسا لمجلس قيادة الثورة ، باجماع أصوات اعضاء مجلس الثورة ، من قبل أن تبدأ الثورة .. ومن بعـــد أن قامت ، وسأحكى لك القصة فى الفصول القادمة ..

ان تاريخ السنوات الاربع التى تلت قيـــام الثورة ، الى انتخاب عمك جمال رئيسا للجمهورية باجماع شعبى هائل،

هذا التاريخ يابنى .. هو ما سأرويه لك فى الفصول القادمة لكى تعرف أنت والجيل الذى تنتمى اليه قصة الصراع الجبار بين الحق والباطل .. وبين المثل العليا والانحلال .. وبين شعب أعزل الا من الايمان بحقه وسيادته، والاستعمار المتجبر المغرور بقوته وجبروته ..

وقد كان أول مبدأ من مبادىء الثورة .. هو القضاء على الاستعمار واعوانه من الخونة فانه من المستحيل أن يتم اى اصلاح أو تقدم لشعب من الشعوب ، وهو يرزح تحت اعباء سيطرة أجنبية ، أيا كان لون هذه السيطرة .. والاستعمار على خبثه وكونه أفتك سلاح يدمر حياة الشعوب وأمنها ، وسلام العالم كله ، فانه يتطور أيضا فى أساليبه المجرمة شأنه شأن أى ظاهرة من الظواهر ..

وفى كل اسلوب يتخذ له اسما .. وتتعدد الاسماء والاساليب .. ولكن الهدف واحد .. هو الجشع وهو الفتك بالشعوب ، والجماعات .. واشاعة القلق والرهبة فى هذا العالم .. لكى ينزف المستعمرون دماء الابرياء فيقيموا عليها رفاهيتهم وملذاتهم ..

كان اسمه شركات أجنبية تحصل على امتيازات ..

وتطور الى احتلال عسكرى بالجنود والمعدات ..

ثم تطور الى حماية ..

ثم أطلقوا عليه انتدابا ..

وعادوا فقالوا وصاية ..

ويسمونه اليوم بالاحلاف ..

ولقد ابتلى شعبنا يا بنى فى فترات كثيرة ، بأشد هـذه الاساليب فتكا وتدميرا .. على يد بريطانيا وفرنسا فى تاريخنا القريب ..

عرفنا الحماية على يد بريطانيا ..

وعرفنا الاحتلال أيضا على يد بريطانيا ..

وعرفنا الشركات الاجنبية التى تحصـل على امتيازات ، فتصبح دولة ذات سيادة داخل الدولة ، على يد بريطانيـا وفرنسا كشركة قناة السويس المصرية .. وهى التى اتخـذت بريطانيا وفرنسا تأميمها ذريعة للهجوم على مصر ، من أجل تحقيق أهداف الاستعمار والسيطرة التى قضت عليها الثورة نهائيا فى سنوات قليلة بالنسبة لمصر ، وبالنسبة لامتنا العربية على حد سواء ..

ان قصة هذا العدوان الذى قامت به فرنسا وبريطانيـا واسرائيل على مصر بتدبير دنىء غادر تحت ستار شركة قناة السويس ، لم تعد قصة كفاح الشعب المصرى وحـده ، وانما اصبحت ملكا لكل الشعوب الصغيرة التى ابتليت بالاستعمار وتـكافح من أجل التحرر

انها أصبحت قصة فضـيحة أولئك الذين كانوا يسمون أنفسهم بالـكبار .. فعرف العالم كله انهم كبار فى الاجرام والغدر ، والخيانة .. وكبار فى أساليب النـذالة ، وهدم البيوت على الامنين وقتل النساء والفتك بالاطفال

انها قصة من كانوا يسمون أنفسهم بزعماء العالم الحر .. فعرف الناس أن الحرية فى نظرهم هى :

التحرر من كل مبادىء الشرف والعدالة ..

والتحرر من القيم الاخلاقية ..

والتحرر مما تحرص عليه البشرية الى يومنا هذا ، من قيم انسانية تحفظ على الناس انسانيتهم ، فلا ينحطون الى مرتبة الحيوان ..

عرف العالم كل هذا يابنى عن زعماء مايسمى « بالعالم الحر » بعد معركة سنة ١٩٥٦ فلم تكن هناك قوة تستطيع أن تخفى هذه الحقائق عن الشعوب ..

وعرف العالم أيضا عن مصر .. انها صدت تيار البربرية التى أرادت ان تعود بالعالم الى شريعة قطاع الطرق وحكم الغاب .. ليس عن نفسها فقط وانما عن كل الشعوب الصغيرة كما خط فى لوح القدر ..

فكيف حدث هذا ؟..

اننى أكتب لك يا بنى هذه الصفحات وأنا أحس اننا نعيش اليوم فى فترة تطور حاسمة من تاريخ العالم ، لن تراها يا بنى .. ولكنك ستقرأ عنها .. وسيتخذ منها المؤرخون ، نقطة انطلاق تسجل بدء تاريخ جديد لهذا العالم .. تاريخ جديد فى كل شىء ..

وأخطر شىء فى هذه الحقبة .. هو ان الشعوب اليوم ، هى التى تملى هذا التاريخ وتكتبه بارادتها ، وكفاحها ودمائها

.. بعد ان كان يكتبه أولئك الكبار بالقهر والسلب لارادة الشعوب ..

ولن تستطيع قوى أولئك الكبار بعد اليوم ، ان تقهر ارادة الشعوب ثانية ، مهما كانت هذه القوى ..

لقد استيقظت الشعوب .. وحطمت ذلك الستارالحديدى الذى فرض على حدودها وعلى ضمائرها ، وعلى أرزاقها ومقدراتها ..

وأصبحت الشعوب لا تؤمن بغير التعايش السلمى ، من غير ان يتدخل احد فى شئون الآخر أو يسلبه رزقه أو أرضه ..

عالم تختار فيه الشعوب ما تريده لنفسها من نظم بملء حريتها ..

عالم لا تحرق فيه المحاصيل فى بلد ، ويموت من الجوع الملايين فى البلد الآخر ..

عالم لا يفرق بين الجنس أو اللون أو العقيدة .. ولايعترف بسيادة لون أو جنس على الآخرين ..

عالم لا يرث احقاد القرون الماضية التى فتكت بالبشرية وسببت الحروب ..

عالم يستأصل الاستعمار من جذوره .. لأنه وراء الاحقاد والشرور والحروب والقلق الذى يشقى الانسان

كيف حدث هذا يا بنى ؟..

الفصل الثالث

* كيف حدث هذا يا بنى
* ثورة ٢٣ يوليو والثورات الاخرى
* شخصية عمك جمال

كيف حدث هذا يا بنى

لم أتوقع أن أمسك بقلمى لكى أسـطر لك هـذه الكلمات وعمرك على الارض لم يتجاوز الشهرين ..

ولقد حدثتك يا ولدى فى الفصل السابق من المذكرات عن اسلحة حلف الاطلنطى التى جاءت مصر لتخلع عمك جمال ، وسردت لك تاريخ أقدم وثيقة لاعلان حقوق الانسان كتبت فى مصر

وحدثتك عن الدروس القاسية التى تعلمتها فى القرية .. وجدتى ، والمشهد الذى تكرر بعد أربعة وسبعين عاما ، وقصة الانذارين اللذين رفضناهما

وقلت يا ولدى ان الطريق لم يكن سهلا ولا ممهدا .. لاننا كنا نواجه عقبات من الرجعيين .. ومن داخل الثورة نفسها

وذكرت لك يا ولدى كيف خرج الجنرال محمد نجيب على مبادىء الثورة .. وهو الرجل الذى اخترناه أول الامر لقيادتها .. ولكنه يا ولدى فضل أن يتعامل مع أعداء الثورة .. وكادت المسألة تنتهى بكارثة لولا يقظة عمك جمال عبد الناصر

وقلت لك يا بنى أشياء كثيرة .. وحدثتك عن العالم الذى لا يرث أحقاد القرون الماضية والقلق الذى يشقى الانسان

كيف حدث هذا كما قلت لك فى نهاية الفصل السابق يا بنى ؟

هـذا ما سـأرويه لك الآن ، ولن تكون روايتى تاريخا أو مذكرات وانما هى كما قلت لك احساسات وانفعالات هى اقرب ما تكون الى الذكريات منها الى المذكرات . .

فلكى تستطيع أن تعرف ما حدث ، يجب أن تلم يا بنى بأمرين ، الامر الاول هو ثورة ٢٣ يوليو ، والامر الثانى هو شخصية عمك جمال عبد الناصر ، وسترى يابنى أن الحديث عن الثورة وأهدافها وأحداثها طوال الفترة التى انقضت منذ بدئها فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ الى هذا اليوم الذى اكتب لك فيه هذه الصفحات فى شهر يناير سنة ١٩٥٧ ، أقول سترى يا بنى ان الحديث عن الثورة لابد وان يعود بنا فى كل صغيرة وكبيرة الى شخصية عمك جمال ، وسترى أيضا يا بنى ان الحديث عن شخصية عمك جمال سيعود بنا دائما الى فطرة شعب مصر ومقوماته وخصائصه فى القرية والحقل كما هى فى المصنع والمدينة ، هذه المقومات وتلك الخصائص التى هزمت بريطانيا وفرنسا واسرائيل وردت عدوانهم وهم الذين كانت لديهم أحدث الاسلحة والادوات التى أعدت للحرب والخراب والدمار . .

حديث شيق

ان حديث ثورة ٢٣ يوليو يابنى حديث شيق على مافيه من قسوة وشجى وبرغم ما فيه من ألوان الصراع ، صراع من قبل أن تبدأ الثورة فى الداخل ، وهو اليوم حديث العالم كله فى الخارج . .

وكما سبق ان قلت مرارا من قبل يا بنى ، فان ثورة ٢٣ يوليو حدث تاريخى له شخصيته المستقلة تمام الاستقلال عن كل ما سبقه من ثورات مماثلة ، وله طابعه ومميزاته التى لن يستطيع أن يدركها الا من عاش فى البيئة المصرية أو تعـرف عليها عن فهم ودراسة

وفى هذا القرن الذى نعيش فيه حدثت ثلاث ثورات كانت كلها تكاد تكون مؤدية بعضها الى البعض ، فبعد الحرب العالمية الاولى ، وعلى أثر الهزيمة التى منيت بها تركيا ، قام مصطفى كمال أتاتورك بثورته المشهورة لكى يجدد شباب تركيا ..

وأيا كانت الوسائل التى أتبعها ، وأيا كانت ايضا طريقة فهمه لبعث تركيا ، فان مصطفى كمال استطاع خلال فترة حكمه ان يرسى قواعد كثيرة لنهضة تركيا وقوتها واستقلالها الذى يفرط فيه حكام تركيا اليوم على صورة مؤسفة

ثورة موسولينى

وجاءت ثورة موسولينى فى ايطاليا ، الثانية فى الترتيب بعد ثورة تركيـا ، وهى قد قامت ــ أى الثورة الفاشستية الايطالية ــ عقب الهزيمة فى الحرب العالمية الاولى أيضا ..

والذى يهمنى فى هذا المقام هو ما صرح به موسولينى مرارا وأثبته المؤرخون من ان ثورة ايطاليا الفاشستية انما كانت نهجا من المدرسة الكمالية أى مدرسة كمال أتاتورك ..

ثم كانت الثورة الثالثة فى ألمانيا بقيام هتلر ، وهو الذى لم يكن يخفى ــ على الاطلاق ــ اعجابه بموسولينى وثورته بل ان هتلر

لا يفتأ يعلن ان موسولينى هو أستاذه الذى ســـار على نهجه وتتبع خطاه

تخرج من هــذا الاستعراض المبسط يا بنى بنتيجة هى أن هذه الثورات التى وقعت فى النصف الاول من هذا القرن انما كانت كلها من مدرسة واحدة

ثورة روسيا

ولكنك حين تأتى يا بنى الى ثورة ٢٣ يوليــو المصرية والتى وقعت فى مستهل النصف الثانى من هذا القرن فانك تجـد عملا جديدا ، بل منفصلا تمام الانفصال عما سبقه من ثورات وقعت من قبله فى نفس القرن العشرين ..

وهناك ثورة أخرى وقعت قبل تلك الثورات الثلاث يا بنى فى نفس هذا القرن وخلال الحرب العالمية الاولى وهى الثـورة البلشفية فى روسيا ولم أشأ أن أجعلها من تلك الثورات الثلاث اللاحقة لها لانها مدرسة قائمة بذاتها فى وطن له ظـروفه التى شكلتها محنه وآلامه ..

الا أن الباحث يرى ويلمس يا بنى أنه ما من شك فى أن هذه الثورات الثلاث على اختلاف ظروفها كانت تستهدف أول الامر مصلحة الشعوب التى قامت فيهـــا ، ثم جاءت بعد ذلك الانحرافات ، ففشلت منها اثنتان هما الفاشستية فى ايطاليا والنازية فى ألمانيا ، وتتعثر اليوم الثالثة فى تركيا

ثورة ٢٣ يوليو والثورات الاخرى

واعود الى ثورة ٢٣ يوليو فأقول ان هذه الثورة حدث جديد تماما يا بنى عما سبقه من أحـــداث فى نفس القرن من عمر الزمان ، وأسباب هذا الاختلاف ترجع فى أساسها الى أن ثورة ٢٣ يوليو هى الاخرى مدرسة قائمة بذاتها استمدت كل مقوماتها من طينة شعب مصر وظروفه وعاداته وأخلاقه ..

وسبب آخر أساسى له عمقه ومغزاه هو ان ثورة ٢٣ يوليو اتخذت من المثل العليا شعارا تمسكت به وحافظت عليه برغم ماسببه ذلك التمسك من تعويق لسير هذه الثورة واندفاعها فى وقت من الاوقات ..

ولنأخذ مسألة قيادة هذه الثورة على سبيل المثال ، فنحن لا نعلم فيما نعلم من تاريخ الثورات فى هذا القرن أو فيما سبق من قرون ان قائد ثورة من تلك الثورات يتنازل عن مركزه كقائد بمحض ارادته ليدفع برجل آخر الى قيادة هـــذه الثورة ، ولا يكتفى بذلك بل يخدم تحت امرة هذا الذى دفعه جنديا شريفا مخلصا .

عيوب مصطفى كمال

ان ما نعلمه عن تاريخ الثـــورات هو عكس ذلك عـلى خط مستقيم ، فقد كان قواد الثورات ولا يزالون يخلون لانفسهم

الطريق بالقتل والاغتيال والارهاب

فالتـــاريخ يقرر مثلا ان من عيوب مصطفى كمال أتاتورك المشهورة هو انه لم يبق على زميل أو صديق عاونه الا وقتله

والتاريخ يذكر أيضا حمام الدم الذى خاضه هتلر بنفســه وبيده ...

وموسولينى أيضا لم يمتنع عن القتل الا حين قتل ..!!

وجهة نظر الجيش كله

أما فى هذه الثورة ثورة ٢٣ يوليو يا بنى وهى التى أخذت نفسها بالمثل ، فاننا نرى جمال عبد النــاصر الرئيس المنتخب للهيئة التأسيسية للضباط الاحرار سنتين متتاليتين يســعى قبل قيام الثورة الى اقناع الهيئة بضرورة تنصيب قائد للثورة من خارج الهيئة لظروف واعتبارات قدر انها لمصلحة الوطن فى الوقت الذى يعلم فيه جمال انه أجدر من يقوم بها ســواء من وجهة نظر الهيئة التأسيسية التى انتخبته رئيسا أو من وجهة نظر الجيش كله

ولم يكتف جمال بذلك ، بل انه بادر عقب انتخــابة للمرة الثالثة رئيسا بالاجماع بعد قيام الثورة وطردفاروق أقول بادر فتنازل الى محمد نجيب عن هذه الرئاســـة وألح على الهيئة التأسيسية حتى قبلت هذا الوضع

لماذا .. لماذا ؟

ويحق لكل انسان أن يسأل اليوم يا بنى لماذا تصرف عمك جمال على هذا النحو ، فالعالم يجرى على سنن غير هذه السنة،

ونواميس الناس اليوم لا تعقل أو تفهم مثل هذا التصرف ..؟

وهنا لابد لى من أن أكشف عن جانب من جوانب شخصية جمال عبد الناصروهو أمر لابد لنا أن‌نسترشد به طول الحديث يا بنى كما قلت لك فى هذا الفصل ..



شخصية عمك جمال

فقد ذكرت فى الفصــول السابقة ان الهيئــة التأسيسية وافقت قبل قيام الثورة على تعيين قائد مسن للثورة من خارج الهيئة الا واحدا عارض فى هــذه الخطوة هو أبوك الذى يكتب لك هذه السطور ، وقلت أيضا انه كان هناك ثلاثة مرشحون اختير منهم محمد نجيب وبعد أن صدر هذا القرار أذكر اننى اجتمعت على انفراد بعمك جمال فى شقته بكوبرىالقبة وأخذت أتناقش معه وأبدى له تخوفى الشديد من تسلم رجل غريب لقيادة الثورة التى لم تبدأ بعد وكان محور خوفى ان الرجــل بحكم سنه وعقليته وجيله الذى نشأ فيه لن يستطيع أن يفهم العمل الثورى ولا يرجى منه بعد هذه السن أن يعيش بعقلية غير عقليته مما يشكل خطرا جسيما على الثورة خصوصا عند البدء

النفس البشرية

وأذكر انه بان على عمك جمال انه اقتنع وأخذ ينفث دخان سيجارته على عادته حين يكون مستغرقا فى التفكير ثم لم يلبث أن قطع الصمت قائلا :

« يجب أن تحسب حساب النفس البشرية ٠٠ »

ولم أفهم أول الامر ، ولكن عمك جمال لم يلبث أن استطرد قائلا :

« نحن جميعا فى الهيئة التأسيسية زملاء وفى سن واحدة ، ورتبنا تكاد تكون واحدة ، والذى جمعنا فى هـــذا العمل هو الصداقة أولا ثم الاخوة والمحبة اللتان ولدتا الثقة بدليل اننا نتآمر ليل نهار ولا يحس بنا أحد ، وأخشى ما أخشاه اننا اذا جعلنا قيادة الثورة فينا أن يفتح هذا الامر ثغرة فى نفس واحد منا ونحن بشر ، والنفس البشرية مليئة بالانفعـــالات ، وأنا لا أريد أن يكون مستقبل الوطن معلقا على الانفعالات ، بل لا أريد أن أفرض احتمالا واحدا فى الالف فيه شـــك من انفعال فى نفس أى واحد فينا لأن المسئولية مسئولية مستقبل شعب ، وبالثقة والمحبة نستطيع أن نحقق المستحيل »

وهكذا وضع عمك جمال شعار المثل العليا موضع التنفيـذ من قبل أن تبدأ الثورة يا بنى ..

وهكذا كان عمك جمال وما زال وسيظل يحسب حساب كل شىء مهما كان مستبعداً يا بنى ، لذلك انهزم وانهار أمامه ايدن الذى قضى ثلاثين عاما يصرف السياســة الدولية ويتحكم فى مقادير البشر وكانوا يعتبرونه أستاذا من أساتذة هذا الفن ..

ولهذا عرف الساسة فى أمريكا وفى العـــالم كله أن ذهب العالم كله لا يشترى فى مصر لا المثل ولا المبادىء

مغزى عميق

ولهذا عادت العزة وعاد الشرف القومى لشـــعب عريق بل

لمنطقة بأسرها ، منطقة يسكنها قوم كان المستعمرون يسمونهم « عرب » كصفة تعنى الاحتقار والاشمئزاز ، وبين يوم وليلة اصبحت كلمة « عرب » ذات مغزى عميق مخيف ، مغزى يفخر به الاهل والاصدقاء ، ويرهبه القراصنة المستعمرون الاقوياء

ولهذا أصبحت ثورة ٢٣ يوليو قذى فى عين فرنسا أفقدها الوعى والرشد

ولهذا فزع الانجليز وخرجوا على مألوف عادتهم فى ادعاء الهيبة والوقار وأصبحوا وهم يصرخون فى هذيان جنونى كشف عن خيبة نواياهم الاستعمارية وانتهى بهم الى الافلاس والجوع ..

والمعركة لم تنته بعد يا بنى حتى هذه اللحظة التى أكتب لك فيها هذه السطور ولكن عمك جمال لا يزال كما هو يحسب حساب كل شيء ويستلهم وحيه من روح شعب مصر البسيطة المسالمة ، وهى نفس الروح التى تحطم القيود وتنسف السدود اذا غضبت أو ثارت ..

وقد انتصرت الثورة وانتصر عمك جمال فى كل معركة خاضها باسم الشعب ، انتصر يابنى على أدعياء الدين من المشعوذين ، وقضى على الاتجار بالسياسة ، وانتصر فى مارس سنة ١٩٥٤ ، وانتصر فى أكتوبر سنة ١٩٥٤ ، انتصر يابنى فى معركة الاحلاف وانتصر فى معركة العروبة ، وانتصر فى معركة تسليح مصر وانتصر فى معركة القناة ، وانتصر فى معركة وحدة مصر وسورية وهو يكمل اليوم انتصاره فى اتحاد الدول العربية

فلنبدأ يابنى منذ البداية ..

أى من يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢

الفصل الرابع

* الانتصارات التى حققتها الثورة
* مظالم ٦٠٠ سنة حطمها جمال
* ثورة ٢٣ يوليو مدرسة للمثل العليا

الانتصارات التى حققتها الثورة

كان من المتفق عليه فى اجتماعات الهيئة التأسيسية للضباط الاحرار ، التى تشكلت سنة ١٩٥١ ، أن يكون عام ١٩٥٥ هو العام الذى تقوم فيه الثورة ..

وأنا أقول يابنى « كان من المتفق عليه » لان قرارا بذلك لم يصدر ، وانما كان ذلك التقدير مبنيا على الحساب الدقيق، الذى كان يحسبه عمك جمال كعادته يوما بيوم ، منذ أن تولى أمر هذه الثورة عام ١٩٤٣ ، أى قرابة تسع سنوات كاملة

وفى خلال هذه السنوات التسع ، استطاع عمك جمال يابنى أن يطور الفكرة من عمل حماسى لا يرتكز على تنظيم أو يقوم على مبادىء ثابتة ، الى عمل ثورى متكامل .. يقوم على الوعى بدلا من الحماس .. ويرتكز على تنظيم محكم له أهداف محددة واضحة

وكانت نظرية عمك جمال أن الثورة من غير تنظيم قوى يسندها ويشد من أزرها لن تكون لها ثمرة ، ولن يكتب لها البقاء .. شأنها شأن أية معركة حربية ، لن يكتب لك الفوز فيها الا اذا كانت جيوشك تستند بظهرها الى ما يسمى فى الفن العسكرى « بالقاعدة الثابتة » وهى القاعدة التى تؤمن

لك كل احتياجاتك من قبل المعركة وفى أثنائها ، بحيث تستطيع أن تضمن تدفق القوة وتجددها فى شرايين قواتك ، فى كل الظروف .. ومهما كانت الظروف ..

وكان عمك جمال يطلق تعبير « القاعدة الثابتة » على تنظيم الضباط الاحرار، بعد أن فقد الشعب ثقته فى القادة والاحزاب واخذ يتطلع فى أمل مكبوت الى قواته المسلحة ، أمله الوحيد الباقى فى الصراع من أجل حريته ..

لذلك كان عمك جمال يصر على أن يستكمل تنظيم الضباط الاحرار قوته كاملة ، قبل أن تنطلق منه الثورة ..

ومن أجل هذه الاعتبارات ، تحدد مبدئيا عام ١٩٥٥ لبدء الثورة ..

ولكن الاقدار كانت قد أعدت تاريخا غير ذلك التاريخ ، ومهدت لذلك بسلسلة من الاحداث وقع أولها فى نهاية عام ١٩٥١ حينما ألغت مصر معاهدة التحالف مع بريطانيا ..

وأذكر يابنى ان الهيئة التأسيسية اجتمعت فى الاسبوع الاول من شهر يناير سنة ١٩٥٢ فى منزل عمك حسن ابراهيم، برئاسة عمك جمال عبد الناصر ، لكى تبحث الموقف الذى كان يتدهور بسرعة ، ويسوء يوما بعد يوم

فبالرغم من أن تشكيل الضباط الاحرار كان يمد حركة المقاومة ــ التى قامت فى منطقة القناة ضد جنود بريطانيا عقب الغاء المعاهدة بالاسلحة والذخائر والضباط ــ الا أن الصورة كانت قاتمة ، لان الوزارة الحزبية التى كانت فى الحكم وقتذاك،

لم تكن تمنى الكفاح والمقاومة ، بقدر ماتعنى المكسب الحزبى . .
هذا فضلا عن انها لم تكن لتستطيع المضى حتى فى هذه المقاومة الكسيحة ، لانها ككل وزارة حزبية أخرى ، عبارة عن باشاوات كل همهم هو أن يؤثروا السلامة مع الجاه ، والمنصب ، وجمع المال ، يضاف الى ذلك أيضا أن ملك البلاد التى يقاوم شعبها جنود بريطانيا ، جنرال فى الجيش البريطانى

وكان أخوف مانخافه ، هو ان ييأس الشعب بعد أن توقفت المقاومة فعلا فى منطقة القناة فى مستهل ١٩٥٢ بعد انسيطرت عليها الحكومة ، وبعد أن قتل شباب برىء فى معاركها التى لم يكن لها خطة ولا تنظيم يضمن لها الاستمرار والنجاح ... ويضاف الى كل ذلك ، حالة الفوضى التى أصبحت تنذر بأخطر العواقب

فالشعب كان يحقد على الملك ، ويحقد على الاحزاب ، وأصبح الحكم والحكومة ، هما أعدى أعداء الشعب .. ولن يستفيد من كل ذلك الا العدو الاجنبى الذى يتربص ببلادنا من داخلها ، وهى بريطانيا التى عرفها العالم ، وعرفناها نحن سيدة المؤامرات والدس واقتناص الفرص ، للسيطرة على الشعوب من داخلها

وفى هذا الاجتماع وبعد دراسة شاملة ، أصدرنا أول قرار يابنى بتحديد موعد قيام الثورة .. وكانشهرنوفمبر١٩٥٢! ، على أن يبدأ فى الحال بتعبئة كل قوى الضباط الاحرار داخل القوات المسلحة ، لمواجهة أية أحداث قد تطرأ

وكانت أسباب اختيار شهر نوفمبر لقيام الثورة هى :

أولا ــ الاستفادة من تنقلات القوات التى تتم فى شهر يوليو من كل سنة ، لكى تحشد فى القاهرة وحدات كاملة من وحدات الجيش الموالية للحركة والتى كانت مبعثرة بين صحراء سينا والاسكندرية ، وكان ضباط أركان الحرب الذين ينظمون هذه التحركات من الضباط الاحرار

ثانيا ــ أن يكون الملك والوزراء قد عادوا من مصيفهم الى القاهرة لكى تكون الضربة واحدة ، وكاملة ، وسريعة ، من غير حاجة الى معارك أو دماء

وفى نفس هذا الاجتماع أيضا ، كلف عمك عبد الحكيم عامر بعمل تقدير كامل للموقف ، وهو العمل الذى يتم دائمـــا قبل اعداد اية خطة ، لانه عبارة عن دراسة دقيقة لكل شىء . من وجهة نظرنا ومن وجهة نظر الاعداء الذين كان مفروضـــا أن نواجههم

ومعذرة يابنى اذا كنت أطيل عليك فى ذكر هذه التفاصيل . ولكننى أراها ضرورية بعد أن وعدتك أن أبدأ منذ البداية ، وضرورية أيضا لكى تعرف أنت وجيلك شيئا عن طريقـــة عمك جمال عبد الناصر فى معالجة الاحداث ، فكما قلت لك من قبل ، لن تستطيع أن تكون لنفسك فكرة حقيقية عن كل ماتم من غير أن تعود دائما الى شـــخصية عمك جمال التى تجمعت فيها كل خيوط هذه الثورة من قبل أن تبدأ ومن بعد أن قامت

وأعود الى الحديث يابنى فأقول انه بعد أن اتخذ قرار بدء الثورة فى سنة ١٩٥٢ وصرف النظر عن عام ١٩٥٥ للأسباب التى ذكرتها ، لم يضيع عمك جمال لحظة ، بل بدأ يعمل ليل نهار . فهو يحضر الاجتماعات المستمرة للجان الضباط الاحرار فى مختلف أنحاء القاهرة ، ثم يعود الى منزله فى ساعة متأخرة من الليل لا لينام ، وانما ليعد محاضراته التى سيلقيها فى كلية أركان الحرب فى الصباح والتى مايكاد يفرغ منها حتى يكون فى انتظاره اجتماع جديد فى مكتبه أو فى منزله ، وهكذا دواليك

وراحت أيام شهر يناير سنة ١٩٥٢ تمضى ، والحالة تسوء يوما بعد يوم .. الى أن كان يوم ٢٥ يناير الذى ضربت فيه قوات بريطانيا المسلحة،بأحدث الاسلحة والمدافع،دار المحافظة فى الاسماعيلية .. حيث توجد قوات البوليس المصرى المجردة من كل سلاح اللهم الا من بنادق الحراسة القديمة ، وهدمتها فوق ضباط وجنود البوليس البواسل الذين أبوا أن يسلموا كما طلب منهم قائد الامبراطورية المظفر !

وكان رد الفعل مفاجئا ومذهلا فى اليوم التالى وخاصة بعد أن فقد الشعب ثقته فى الحكم ـ كماقلت لك ـ اذا احترقت مدينة القاهرة ، وعاشت العاصمة الجميلة فى فوضى مروعة لعدة ساعات الى أن نزل الجيش ، ولكن هذه الساعات كلفت العاصمة كثيرا من العناء ، حتى ان ايدن وهو يحاول أن يجد تبريرا لنفسه فى مهاجمة مصر بعد ذلك بأربع سنوات عام ١٩٥٦ ، وقف يقول فى مغالطة صريحة ، انه يريد أن يحمى الممتلكات البريطانية

وأرواح الرعايا البريطانيين .. حتى لايتكرر ماحدث فى يناير سنة ١٩٥٢،لكى يخفى هدفه الحقيقى ـ هو وفرنسا شريكته ـ الذى لم يكن حماية الرعايا ، وانماهواعادة السيطرة الاجنبية على مصر وعلى العرب ٠٠ واغتصاب قناتنا ٠٠ والتخلص من عمك جمال عبد الناصر

على أية حال ، مضى يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ بحـــوادثه الحزينة ، وكانت هذه الحوادث من العنف بحيث فكر الملك وقتذاك فى الهــروب من مصر ٠٠ وأعد قائمــة بمن يريدهم أن يستصحبوه فى هروبه وفاتح بعضــهم فعلا .. وأعـــد حقائبه ..

ووصلتنا هذه المعلومات .. وللمرة الثانية بدأنا نفكر فى تقديم موعد قيام الثورة لكى يكون شهر مارس ١٩٥٢ بدلا من شهر نوفمبر سنة ١٩٥٢ ، الا أن الامور لم تلبث أن بدأت تعود الى شبه استقرار ٠٠ مما دعا الملك لأن يعـــدل عن فكرته ، ليبدأ الفصــل الاخـير من حيــاته كملك ٠٠ ولكى يكتب الى الابد مصيره ومصير أسرته التى لم تستند فى حكمها لمصر يوما الا على قوة أجنبية .. سواء كانت تركيا أو فرنسا،أو بريطانيا التى عبثت بكل مقدسات هذا الشعب الوادع الامين

وفى بحر خمسة أشهر سقطت وقامت خمس وزارات .. كل وزارة منها تشتم أختها وتسب عرضها .. والملك لاه فى القمار والسهرات . . والشعب يعانى من هذا العبث الذى شمل مصيره وأرزاقه ومقدراته .. وبريطانيا تقف من هذا المشهد

موقف المنتصر الذى خرج من المعركة بكل الاسلاب ..

وجاء شهر يوليو سنة ١٩٥٢

وصمم عمك جمال أن يجرب قوة التنظيم ، أو « القاعدة الثابتة » فى « معركة » حقيقية .. لكى يعرف مدى صلابته

ولكن معركة انتخابات مجلس ادارة نادى الضباط التى خاضها تنظيم الضباط الاحرار بقائمة قد نجحت بكاملها .. وكان أول عمل لهذا المجلس هو أن تحدى الملك علانية ، برفض ضم عضو اليه سقط رغم تزكية الملك له

ثم جاء النصف الاول من شهر يوليو عام ١٩٥٢ .. وميعاد قيام الثورة لا يزال كما هو فى نوفمبر ..

ولكن الاقدار عادت فغيرت هذا الحساب أيضا ..

اذ ما لبثت الوزارة الخامسة أن استقالت يوم ١٩ يوليو سنة ١٩٥٢ .. وباستقالتها بدأت الاحداث تخلق موقفا جديدا

اذ جاءت الانباء من الاسكندرية ، بأن الملك سيعهد بوزارة الحربية الى رجل من رجاله ، هو نفس الرجل الذى سقط فى انتخابات النادى رغم تزكية الملك له .. وكان معنى هذا أن صراعا لابد أن ينشأ بين تنظيم الضباط الاحرار ، وبين الوزير الجديد من أجل البقاء ..

وكان قرار بدء الثورة

وفكر عمك جمال يابنى بسرعة .. تماما كما فكر ساعة أن سمع أزيز قاذفات القنابل البريطانية ، التى جاءت لتضرب مصر

فى مساء ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ .. وكشف من هذا الازيز حقيقة المؤامرة الثلاثية على مصر

أقول فكر عمك جمال بسرعة ، وانتهى الى قرار هو أنه اذا كان لابد من صراع ، فليكن هذا الصراع من أجل مصر لامن اجل بقاء تشكيل الضباط الاحرار

وكان قرار بدء الثورة

عرفه أعضاء الهيئة التأسيسية الذين كانوا فى مصر يوم ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٢

وحمله الينا فى سيـــــنا ، عمك حسن ابراهيم ، الذى قام بالطائرة لابلاغه للاعضاء الذين كانوا هناك

وكان نص القرار :

« تحددت الفترة من ٢٢ يوليو الى ٥ اغسطس سنة ١٩٥٢ لبدء المشروع »

وكان المشروع .. هو الثورة

كن صادقا مع نفسك يا ولدى

أردت يابنى أن أذكر لك هذه التفاصيل ، لكى تعلم كيف بدأت الثورة .. وكيف كان عمك جمال يسيطر على الاحداث فيوجهها ولا توجهه .. وهو فى كل مايصدر عنه ، أو ينفعل به ، انما يفكر أولا فى مصر ، وانقاذ مصر ، وبعث مصر

وقامت الثورة فى ليل ٢٢ ــ ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ..

ولا أريد أن أحكى لك هنا يابنى عن التفاصيل ساعةبساعة، فأنا لم أدون مذكرات .. لان ذلك لم يكن مستطاعا فيما كنت

اعيش فيه من ظروف ، وما كان يحيط بى من احـــداث ..
لذلك فاننى سأروى لك الحوادث بعـــد ذلك ، من وحى ما طبعته فى عقلى من احساسات ، وما عكسته على وجدانى من انفعالات ، كما سبق أن قلت لك .. وهى قبل كل شيء رواية نفسى ، فان أصبت فليس لى فضل ، وان أخطأت فليس على ذنب .. وان ما يعنينى هو أن أحكى لك نفسى كما تعودت أن أحكيها لكل من يقرأ لى سطورا أو كلمات .. والعبرة عندى أن التزم حدود ما أحسه، وينفعل به ضميرى، من غير أن ألجأ الى التزويق أو الافتعال

ان أروع متعة يا بنى فى هذه الحياة .. هى أن تكـون صادقا مع نفسك دائما

بهذا الصـــدق لن تعرف نفســك العقد أو الأزمات ، التى أعترف لك أننى تعرضت لها فى حقبة من حياتى بعد الثورة .. وانتصرت عليها وأنا أستقبلها فى هذه الدنيا أثنـــاء العدوان

احرص يا بنى فى كل لحظة من حياتك ، على أن تكــون صادقا مع نفسك ، حتى تنعم دائماً بالسلام الروحى

من أجل ذلك أحبه ..

وتعلم يابنى أن تغفر للناس ، فان أتعس لحظات يعيشها انسان على ظهر هذه الارض هى تلك التى يتملك النفس فيها غضب أو حقد أو كراهية

ولكن

تعلم أيضا يا بنى بأن لا تغفر أو تتهاون أبدا مع من يعتدى على وطنك .. فانك لن تعرف السلام أبدا ووطنك معتدى عليه .. ولا كرامة ولا شرف لأى انسان ، اذا كانت كرامة وطنه فى التراب ، أو كان شرف وطنه يداس بالاقدام

من أجل ذلك ، نحن نحب عمك جمال

ومن أجل ذلك، يكرهه المستعمرون المسعورون فى بريطانيا وفرنسا ، وأدعياء السياسة فى أمريكا

انني مهما وصفت .. فلن أستطيع أن أصور لك يا بنى حياة الشقاء الذى عشنا فيه منذ مولدنا .. وكان يعيش فيه آباؤنا واجدادنا عبر القرون ، نتيجة للسيطرة الاجنبية

فقد انتزعت ملكية هذا الشعب .. وأصبحت الارض ومن عليها ملكا للوالى التركى أيام محمد على تحت حكم الاتراك .. ومن قبل ذلك . وأثناء الحملة الفرنسية ، استعبد الشعب ، وهدمت بيوته ، وصودرت أرزاقه ، وحولت الجنود الفرنسية جوامعه الى اسطبلات للخيول ، ولم ينج من هذا المصير الجامع الأزهر نفسه ، لا لشىء الا لان نابليون كان ينافس بريطانيا فى الاستعمار واستعباد الشعوب

ومن بعد ذلك .. اتفقت بريطانيا وفرنسا طوال القرن التاسع عشر على اغتصاب مصر ، وارزاق مصر ، وموارد مصر ، بالخديعة والغدر تارة ، وبقوة السلاح تارة أخرى .. كما حدثتك فى الفصل السابق

مظالم ٦٠٠ سنة

مظالم ستمائة سنة .. هى التى حطمها عمك جمال عبد الناصر يا بنى .. ستمائة سنة توالى فيها الحكم التركى من عهد السلطان سليم ، ثم الفرنسى على يد نابليون ، ثم التركى مرة أخرى على يد الخديويين ، ثم الفرنسى والبريطانى من خلال الخديويين

الى أن جاءت سنة ١٨٨٢ فأغارت بريطانيا على مصر ، وانفردت بحكمها منذ ذلك التاريخ ، حتى كان يوم ٢٢يوليو سنة ١٩٥٢ الذى حدثتك عنه ، والقرار الذى اتخذه عمك جمال ، لكى ينهى الى الابد مذلة دامت ستمائة عام ، وعارا لحقنا كل هذه الاجيال

وأصبح يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢

وعرفت مصر ، وعرف العالم كله ، أن جيش مصر قد تحرك

اما الشعب .. فقد انفجر ليهلل ، ويؤيد .. لان آماله المكبوتة التى ورثها عبر عصور المظالم والاضطهاد ، قد تحققت اخيرا على أيدى أبناء من صميم ترابه

ولم يسألَ الناس أو يترددوا لحظة ، كما هو مفروض أن يحدث عند وقوع مثل هذه الاحداث ..

فالذين قاموا بالثورة ضباط من الجيش .. وضباط الجيش كلهم مصريون .. لا يوجد بينهم شركسي ولا بريطاني

أما المعسكر الغربي .. وهو ما كان يهمنا عند بدء هذه الثورة لاحتمال تدخله ، فقد أذهلته الضربة السريعة التي تمت في سرية مطلقة ، وأقلام مخابراته تملأ شوارع مصر، وأجواءها في تلك الاوقات .

المخابرات البريطانية فشلت

فلقد كان لبريطانيا جهاز مخابرات في مصر

وكان متغلغلا في كل الاوساط

وكانت سمعته أسطورية .. بمعنى أن مجرد ذكر اسم قلم المخابرات البريطانية ، كان يعني القوة التي لا قبل لأحد بها ، والمقدرة الخارقة على معرفة ما يجول حتى في النفوس من قبل أن ينطق به اللسان

وكان الانجليز مغرورين جدا بمخابراتهم ، الى جانب شيء آخر اهم من مخابراتهم وجيوشهم ، وهو ما كان يسمى « بالهيئة البريطانية »

لذلك كانت الضربة مذهلة حينما قامت الثورة ، وليس لدى مخابراتهم علم سابق كما تعودوا في كل الاحداث

وأكثر من ذلك طعنت هيبتهم في الصميم من اول لحظة

حينما تجاهل القائمون بالثورة بريطانيا ، والسفارة البريطانية تجاهلا تاما .. وهى السفارة التى كانت منذ ساعات سابقة مصدر السلطات فى مصر ، وسيدة القصر الذى يحكم البلاد ، وقبلة الاحزاب ، ومنتهى أمل القادة والزعماء

وكان هذا التصرف طبيعيا يا بنى .. بعد كل تلك السنين الطوال من الاحتلال ، والاذلال

أما بالنسبة لامريكا ، فان الاسم كان يختلف بعض الشيء عنه بالنسبة لبريطانيا

فبالرغم من أننا كنا نعلم أن هناك صداقة وطيدة بين سفير أمريكا والملك ، الا أننا كنا نحس بالامال العريضة كلما ذكرنا المواقف التى كانت بين روزفلت وتشرشل .. وكيف أن روزفلت كان يدافع عن حق تقرير المصير بالنسبة للشعوب الضعيفة ضد جشع بريطانيا وطمع فرنسا

كنا نذكر بالذات ، تلك الجلسات التى عقدت فى الدار البيضاء

والحديث الذى دار بين روزفلت والسلطان محمد الخامس ملك المغرب

وكيف أن تشرشل كان يتدخل للمقاطعة وتحويل الحديث حتى لا يحصل المغرب على استقلاله مع ان ميثاق الاطلنطى الذى أعلنه تشرشل وروزفلت فى عرض المحيط ، لم يكن مداده قد جف بعد

حق تقرير المصير

كنا نذكر أيضا تاريخ تحرر أمريكا من الاستعمار البريطانى .. وكيف انها خاضت معركة سنخوض مثلها تماما مع بريطانيا

وكنا نظن أن ما تركه جورج واشنطن من تراث ، ما زال يحفظه الابناء اليوم ، بعد أن كتبه الآباء والاجداد بدمائهم ، وكفاحهم ، يوم أن أرادت بريطانيا أن تتحكم حتى فى فنجان الشاى الذى يشربه الامريكى

كنا نعتقد أن حق تقرير المصير ، الذى كانت تنادى به امريكا طوال الحرب الثانية لكل الشعوب الصغيرة وتنديدها بالاستعمار ، حقيقة لا دعاية

من أجل ذلك كله .. كان تصرف الثورة حيال أمريكا ، من أول يوم ، مناقضا تماما لتصرفها حيال بريطانيا

وانعقدت صداقة حقيقية بيننا وبين السفير الامريكى الذى كان صديقا للملك

وكان الرجل مخلصا حقا .. الا أن واشنطن ـ كما اتضح فيما بعد ـ كان لها رأى آخر ، يعتمد فى بعضه على آراء الاستعماريين من أمثال ايدن رئيس وزراء بريطانيا ، الذى تحطم وانهار أمام وقفة عمك جمال .. ويعتمد بعضه على النفوذ الصهيونى البشع الذى يسيطر على الصحافة ، وعلى الكونجرس ، وعلى المال فى أمريكا . ويعتمد بعضه أيضا على آراء بعض المتهوسين المغرورين من الامريكان الذين يعتقدون

انهم يستطيعون شراء كل شيء بالدولار حتى المبادىء والخلق .. فاذا رفضت أن تبيع خلقك بادروا فملأوا العالم كله بالصياح : انك شيوعى وهدام .. وخطر على البشرية .. وعلى السلام !

صداقة الاحرار

ومن أول يوم كنا نؤمن يا بنى بالصداقة .. ولكن فهمنا للصداقة كان ولا يزال هو صداقة الاحرار لا صداقة العبيد

ومن هذه النقطة بالذات ، بدأ الخلاف الذى وصل الى حد اعلان الحرب على مصر والعدوان عليها بتدبير دنىء فى يوم ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٥٦ ، ولكننى أقرر لك يا بنى ، أننا برغم كل ما حدث فى الشهور السابقة ، وبرغم ذلك العدوان ، لم يتزلزل — أبدا — ايماننا شعرة واحدة فى فهمنا للصداقة .. بل على العكس من ذلك .. فنحن نصر اصرارا كاملا على أن امل البشرية الباقى للعيش والامن ، لن يكون الا فى الصداقة الحرة .. صداقة الشعوب قبل صداقة الحكومات .. صداقة الاحرار التى تنبثق من الاحترام المتبادل ، بعد أن أسفرت معركة العدوان عن صدق ما قلناه — من أن المدفع والدبابة لا يفرضان الصداقة ، وانما يولدان الحقد والمرارة

كانت الصداقة هى العامل الاساسى الذى اتخذه عمك جمال شعارا له ، وهو يبنى تشكيل الضباط الاحرار يا بنى .. لانها معنى ينسجم مع طباعه ، ويحفز فيه كل طاقات

الانتاج والحماس

فقد كان يسعده فعلا أن يوقف اجتماع شعبة من شعب التشكيل ، أو يلغيه .. لان ضابطا زميلا رجاه أن يساعده بشرح درس من دروس كلية أركان الحرب ، وقد لا يكون هذا الضابط عضوا فى التشكيل ، ولا ينتظر منه أصلا ان يكون عضوا ، وانما يكفى جدا أن يقصد عمك جمال باسم الصداقة ، فيكون له مايريده ·· حتى ولو عطل ذلك، بعض الوقت ، العمل الذى يعيش ويكافح من أجله عمك جمال·· وهو الثورة

وقد نجحت هذه الصداقة فى أن تجعل بناء الضباط الاحرار مهما كان عدده ، بناء قويا عميق الايمان والاهداف

ونجحت أيضا فى أن توفر الحرية التامة لنشاط ما قبل الثورة .. ولكن أروع ما حققته هذه الصداقة كان يوم ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٢ أى بعد أن تنازل الملك وغادر البلاد بيوم واحد

ثورة ٢٣ يوليو مدرسة

فى هذا اليوم اجتمعت الهيئة التأسيسية لتشكيل الضباط الاحرار ، لاول مرة يا بنى بعد قيام الثورة .. وكان عددنا تسعة

وكان عمك جمال هو الرئيس المنتخب للهيئة من قبل قيام الثورة

وفوجئنا عند بدء هذا الاجتماع ، بعمك جمال يقدم استقالته من رئاسة الهيئة التأسيسية ، طالبا انتخاب جديد للرئاسة ، بعد أن انتقلت الثورة من مرحلة الى مرحلة .. وحققت أول نجاح بتنازل الملك .. وانتقالها من مرحلة السرية ، الى مرحلة العلنية

ولقد كان الرد المفاجىء منا جميعا هو رفض اجراء هذا الانتخاب .. لان آخر انتخاب للرئاسة كان فى عام ١٩٥٢ ولم يكن قد مضى عليه الا بضعة أشهر (فبراير سنة ١٩٥٢) فضلا عن المسئولية التى القيت على كاهل الهيئة التأسيسية بهذا النجاح الاول ، والمشاكل الخطيرة التى علينا أن نواجهها تجعلنا نتمسك بأوضاعنا لكى نمضى فى طريقنا

ولكن عمك جمال أصر يابنى على أن يستقيل

فأجرى الانتخاب على الفور

وفى لحظات معدودة ، جمع عمك كمال الدين حسين أوراق الانتخاب .. وأخذ يفضها .. وكانت كلها جمال عبد الناصر

لقد كنا جميعا فى هذه اللحظات يا بنى .. لا نحس الا بما تعودنا أن نحس به تجاه عمك جمال من صداقة عميقة ، واحترام متبادل .. ولو أن أحدا قرأ أفكارنا فى تلك اللحظات لوجدها كلها بخاطر واحد .. هو الثقة فى هذا الصديق الذى حرص فى ساعة النصر ، على أن ينتصر للمبادىء والقيم فيستقيل .. حتى لا يظن أحد أنه اغتر ، مع أنه كان القوة الدافعة للنصر الذى تم

ومن هذه اللحظة أيضا ، تحدد يابنى الطريق الذى سارت فيه الثورة الى يومنا هذا الذى أجلس فيه لكى أسطر لك هذه الكلمات

ومن هذه اللحظة أيضا ، كتب لهذه الثورة، ثورة ٢٣ يوليو، أن تكون مدرسة قائمة بذاتها تختلف عما سبقها من ثورات .. وكتب لها أيضا أن تكون حدثا عالميا لا فى تاريخ مصر وحدها ، وانما فى تاريخ العالم أجمع .. اذ أصبحت هذه الثورة نقطة تحول ـ فى تاريخ البشرية ـ بين تاريخين : تاريخ أصيب فيه العالم بكوارث الاستعمار الذى عصف بالقيم .. واذل الشعوب .. واغتصب الارض والرزق والمصير ..

وتاريخ تحررت فيه البشرية لتحفظ للانسانية قيمها، ولتدك الاستغلال والاغتصاب ..ولتسحق الاستعمار والمستعمرين لصوص القيم ، وقراصنة الشرف

لقد خاض عمك جمال يابني معركة مريرة.. ولايزال يخوضها لا باسم مصر فقط ، وانما باسم كل ما أراده الله للبشرية من قيم وخلق وعدالة .. وبرغم ما كان يبدو من عدم تكافؤ القوى فى هذه المعركة .

فان عمك جمال استطاع أن ينتصر فى معركة السياسة على دهاقين السياسة الذين أفنوا عمرهم فى الخبرة والدهاء ، .. وسقط أمامه رئيس وزراء أكبر امبراطورية يعرفها العصر الحديث صريعا موصوما بالتآمر والعار

واستطاع عمك جمال أن ينتصر فى المعركة الادبية حين وقفت من خلفه شعوب تعدادها ألف وخمسمائة مليون نسمة .. تصرخ فى وجه أعدائه الذين أرادوا أن يعودوا بالعالم الى شريعة الغاب

وانتصر عمك جمال فى المعركة العسكرية على جيوش الامبراطورية البريطانية ـ وما يسمى بفرنسا ـ المزودة بأحدث الاسلحة وأفظع أدوات الفتك والدمار

أتعرف كيف انتصر يا بنى ؟

الفصل الخامس

* لن أستطيع أن أكون دكتاتورا
* جمال عقل الثورة ومدبرها ورائدها
* انتصر لنا جمال

لن أستطيع أن أكون دكتاتورا

لقد انتصر عمك جمال فى كل هذه المعارك يابنى، وسينتصر باذن الله دائما ، لانه صادق مع ربه ومع نفسه ، يحاسب نفسه دائما أقسى وأعنف حساب ، فى الوقت الذى يتلمس فيه لغيره كل أبواب العفو والغفران .. يحفظ العهد ويصدق الوعد ، ويخلص الود ، ويتقى ربه فى سره قبل العلن .. لذلك أيده الله ، وآزره وناصره

وعمك جمال يا بنى هادىء دائما .. ويعرف تماما ما يريد

فبعد أن أنتخب بالاجماع رئيسا للهيئة التأسيسية طرح للمناقشة موضوعا وصفه بأنه « حيوى وخطير »

فقد طلب من الهيئة التأسيسية أن تقرر الفلسفة التى سيقوم عليها الحكم فى البلاد ، بعد أن أصبح ذلك مسئولية مباشرة للهيئة التأسيسية

وفسر ذلك بأن هناك اليوم فلسفتين احداهما هى الديموقراطية ، والاخرى هى الديكتاتورية

واخذ فى شرح مزايا وعيوب كل فلسفة .. وكأنما كان

يلقى محاضرة من محاضراته التى كنت أستمع له فيها فى مدرسة الشئون الادارية

وبعد أن انتهى أخذ يعطينا الكلمة واحدا واحدا ، بترتيب الجلوس ، لكى يدلى كل برأيه

وأذكر يا بنى أننا انطلقنا جميعا فيما عدا عمك خالد محيى الدين الذى لم يكن موجودا ، وكان بالاسكندرية .. أقول انطلقنا جميعا ندلل بالحجج والبراهين على فساد الديمقراطية .. ولم تكن تعوزنا فى هذا الامر الحجج ولا البراهين

فالحياة الديموقراطية التى عاشها الشعب منذ عام ١٩٢٣ الى عام ١٩٥٢ عند ما قامت الثورة ، لم تكن الا سلسلة محكمة الحلقات من الفساد ، والرشوة ، والمحسوبية ، تفرقت فيها كلمة البلاد .. وبدلا من أن يكون الكفاح موحدا ضد بريطانيا التى كانت تحتل البلاد بجيوشها ، وتفرض عليها استعمارا أذل من كرامتها ، وسلب أرزاقها ، ومنع الشعب من التقدم ، والعلم ، والحياة .. نرى بدلا من ذلك أن الكفاح أصبح بين أبناء البلد من أجل المنصب ، والحكم والجاه



كان هناك دستور .. ولكن هذا الدستور كان مسجونا من أول يوم صدر فيه ، حين قرر الامر الملكى بصدوره انه « منحة » من الملك

وبعد أن طبق هذا الدستور .. شهدنا جميعا كيف كانت ترتكب باسمه الخيانات .. وكيف كانت تلجأ اليهالاحزاب لكى تجعل من الاحقاد ، والمطامع ، والاستغلال ، أعمـــالا قانونية .. وهو الذى كان مفروضا فيه أن يحمى الشعب من حكامه

وكان هناك ملك حدد له الدستور مكانه يملك ولا يحكم .. ولكننا على العكس من ذلك ، رأينا الملك يحكم قبل أن يملك .. فانه نتيجة للصراع الحزبى الذى أوجدته الديموقراطيــة اصبح الامر تنافسا شخصيا بين الزعماء والاحزاب ، ليس لمصلحة الوطن أو مصائره ، وانما على الفوز بالحكم والسلطان .. كان الملك هو الذى يهب الحكم ويمنعه .. لذلك أصبح يسيطر على النفوس والضمائر

وشهدنا ـ وشهد العالم ـ أكبر مأسـاة خلقية تمثـل على مسرح الحكم والسياسة فى مصر ، بطلها ملك يخضع لشهواته ونزواته ، ومن حوله زعماء كان كل همهم أن يشبعوا فيــه هذه النزوات ، بالاستسلام ، والخضوع ، والتطرف فى اظهار الولاء ، حتى ان زعيما متدينا طلب من الشعب فى يوم مــن الايام أن يتوجه معه الى قبلة جديدة ، هى جــزيرة كابرى .. لكى يحيى الملك الذى كان يعربد هناك فى شــهر رمضان .. ولم يكن ذلك الزعيم طبعا يحسب فى ذلك الوقت حساب الشعب ، وانما كان كل ما يحرص عليه هو عبادة ذلك الصنم حتى وهو يعربد ، من أجل البقاء فى الحكم ، والمحافظة على

وكانت هناك برلمانات .. وكان المنصوص عليه فى الدستور هو أن الحكومة مسئولة أمام البرلمان .. ولكننا رأينا أنه منذ أن قامت تلك البرلمانات وهى المسئولة أمام الحكومات ، وبدأ سباق فى الفساد والرشوة بين الوزراء وأعضاء البرلمانات، كل هذا يجرى تحت قبة البرلمان .. وباسم الشعب الذى كان يجلس أولئك النواب على كراسيهم ليمثلوه .. فداسوا مصالحه ، وحطوا من كرامته ، واندفعوا فى تيار المنافع الشخصية ، والنزوات الحزبية

كل هذا كان يطلق عليه فى مصر ، قبل الثورة ، كلمة « الديموقراطية »

والعجيب أن بريطانيا كانت تسعد جدا بتلك الديموقراطية وتعتبرها أمرا حيويا للتقدم والحرية ، ولم يكن يخفى علينا نحن أبناء هذا الشعب أن حرص بريطانيا على اطلاق كلمة ديموقراطية على هذه الفوضى المخزية ، انما كان سلاحا من احقر أسلحتها للسيطرة على هذا الشعب ، بشغل ابنائه بعضهم ضد البعض بهذه اللعبة التى تخلق الصراع فى الداخل بين أبناء البلد الواحد ، وتبقى هى معززة مكرمة فوق كل صراع تفرض أوامرها ، وسيطرتها ، واستعمارها

اخذنا نردد كل هذه الآراء الواحد تلو الآخر .. وكان كل منا ينتهى آخر الامر بتلخيص رأيه وهو أن الديموقراطية أداة فساد .. ولا معدى لنا ولا مفر من ان نطبق الديكتاتورية

لكى يمكن أن نبنى هذه البلاد بعد هـــذه الفترة الطويلة من الفوضى والفساد



وبعد أن انتهينا جميعا من ابداء آرائنا على النحو السالف بدأ عمك جمال يا بنى فى بسط رأيه .. وكنا جميعا نكاد نجزم انه سيشاركنا الرأى .. بعد أن سيطر على جـــو الجلسة اجماع كل منا على رفض الديموقراطية

بدأ عمك جمال هادئا كعادته يا بنى .. فتناول تفسير كلمة الديموقراطية أولا .. وضغط ــ مشددا ــ على أنها تعنى أن يكون للشعب الكلمة الاولى فى حكمه

وأخذ يدلل على سلامة هذا المعنى من نفس الحجج التى أوردناها

فلو أن ارادة الشعب كانت مفروضة على الحـــكام قبل الثورة ، لما استطاع الملك أن يعبث كل ذلك العبث بمساعدة الحكومات

ولو أن ارادة الشعب كانت هى العليا ، لما اندفع الزعماء والوزارات فيما اندفعوا فيه من خيانة لمصالح الشعب ومقدراته

وبعد ان دلل على ذلك من الواقع طويلا بدأ يتناول نقطة أخرى .. هى أن هذه الثورة قد قامت لتخلص الشعب مما عاناه من استبداد ومظالم ، لا لتبدأ عهدا جديدا مـــن الاستبداد والمظالم .. فطبيعة شعبنا سمحة طيبة تنفر من

القوة والتسلط عليها ، مهما كان هدف هذه القوة ، أو ذلك التسلط

وانتهى يا بنى من هذه النقطة بتقرير حقيقة طلب منا ان لانتجاهلها وهى أن مغزى قيام هذه الثورة يكون قد انتفى تماما ، اذا نحن فرضنا على هذا الشعب ديكتاتورية ، لان النظام الذى كان يطبق قبل الثورة لم يكن ديموقراطية انما كان ديكتاتورية حزبية ، أطلقت على نفسها ديموقراطية .. ويكفى من ذلك أن نعود الى الوراء قليلا .. يوم تقرير ضريبة الاطيان بأثر رجعى فى أحد برلمانات العهد الماضى ، لكى ندرك الى أى مدى كانت تطبق الحكومات شر انواع الديكتاتورية .. لانها تقرر باسم البرلمان

حتى لو اقتنعت بالديكتاتورية

ثم انتهى الى النقطة الاخيرة ..

وهى أنه لن يستطيع أن يكيف نفسه على اى نظام ديكتاتورى ، لان ذلك يتنافى مع طبيعته .. وقال بالحرف الواحد :

« حتى لو اقتنعت بالديكتاتورية ، فأنا أحس أننى لن أستطيع أبدا أن أكون ديكتاتورا او حتى فردا فى نظام ديكتاتورى »

وما أن انتهى عمك جمال يا بنى من بسط رأيه على ذلك النحو ، حتى ساد الجلسة جو مشحون بالكهرباء والعصبية

فالى اللحظة التى بدأ فيها عمك جمال يبدى رأيه لم يكن يساور أحدا منا شك فى أننا متفقون تمام الاتفاق على المنهج الديكتاتورى .. وانمـــا تجرى المناقشـــة فقط ، لكى يكون تقرير الامر بعد مناقشة كعادتنا دائمـا فى كل ما يعرض علينا من أمور ، ولكن حديث عمك جمال كان كالقنبلة يا بنى .. خاصة وان اللهجة التى تحدث بها أشعرتنا جميعا أن وراء كل كلمة ، وكل رأى أبداه ، تصميما صلبا .. ونحن نعرف ان عمـك جمال لا يصمم يا بنى الا بعـد تفكير وروية . فاذا ما صمم ، فان قوى الارض كلها لا تثنيه عن ذلك التصميم

بدا لى يا بنى أن مصير الثورة كلها التى لم يكن قد مضى عليها الا بضعة أيام حققت فيها أولى خطواتها ، أقول : بدا لى أن مصير هذه الثورة يتأرجح فى شدة وعنف

وخطر لى خاطر ، وهو :

ان تأجيل هذه المناقشة من غير أخذ الاصوات كما تقضى اللائحة ، قد يتيح الفرصة لكى تهدأ نفوسنا جميعا ، فان أخشى ما كنت أخشاه ، هو أن يقع بيننا تصدع خطير نتيجة للتصويت .. لاننى أعرف جمال يا بنى منذ أن كنا ضباطا صغارا .. وأعرف أنه حين يقتنع بأمر ، فهو لن يتزحزح

ثم أفزعنى خاطر آخر .. هو أن عمك جمال سيتنـحى بالتأكيد عن الاشتراك فى هذه الثورة اذا ما جاءت نتيجـــة التصويت كما هو ظاهر .. فطلبت الكلمة

وأخذت أتناول المناقشات التى دارت من زاوية قصدت

بها « تمييع » المناقشة بقصـــد تأجيلهـا ، ولا أذكر اليوم ما قلته ، وهو مثبت طبعا فى محاضر الهيئة .. ولكنى اذكر شيئا واحدا :

هو أن عمك جمال تنبه لما أقصده ، فاندفع يهاجمنى فى عنف ، مقررا أن المناقشـــة يجب أن تنتهى الى قـرار ، لأن الامر اخطر من ألا يبت فيه فى الحال

وأخذت الاصوات ، وكانت النتيجة سبعة أصوات فى صالح الديكتاتورية وصوت واحد فى صالح الديموقراطية .. هو صوت عمك جمال

وصوت غائب .. هو صوت عمـك خالد محيى الدين ، الذى كان فى الاسكندرية ، وهكذا وقع ما كنت أخشاه

واعلن عمك جمال بعد النتيجة أنه يحترم قرار الاغلبية ويعلن استقالته ، وانسحابه من الثورة

ودعا لنا بالتوفيق فى الســير بهـا وبالبلاد ، ثم جمـــع أوراقه ، وغادر مبنى القيادة الى منزله

خرج جمال يا بنى ، وبقينا نحن السبعة جلوسا الى منضدة الاجتماع وقد أذهلتنا المفاجأة

لم يتحرك منا أحد ، ولم يتكلم منا أحد ، وانما أخـذ ينظر بعضنا الى البعض فى صمت مطبق ، وكأنما كانت عيوننا تنطق بما يجول فى ضمائرنا ، بل لعل الصدمة كانت مروعة الى الحد الذى ألجمت فيه ألسنتنا وجمدت حتى التعبير فى عيوننا ، فانسحاب عمك جمال على تلك الصورة يا بنى كان منطويا على كارثة مدمرة للثورة ، لجملة اعتبارات

جمال عقل الثورة

أما الاعتبار الاول يا بنى فهو ان عمك جمال هو عقل الثورة ومدبرها ورائدها

بمعنى أنه الى هذه اللحظة مثلا بعد مضى عدة سنوات على قيام الثورة فان أحدا منا نحن الذين كنا فى مجلس قيادة الثورة لا يعلم بالضبط عدد الضباط الاحرار ، ومن هم الذين خرجوا يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ؟ ومن هم الذين لم يخرجوا؟ الا فردا واحدا هو عمك جمال

وما زلنا بين الحين والآخر نسمع أسماء ضباط ولانعرفهم فيقول عمك جمال ان فلانا هذا خرج يوم ٢٣ يوليو وكان يقود الوحدة الفلانية ، وفلان هذا تأخر ساعتين عن موعد وصوله الى المنطقة الفلانية

ولكن عمك جمال ـ والشىء بالشىء يذكر ـ يرفض الى يومنا هذا وسيظل يرفض أن يصرح بأسماء بعض الضباط ممن خانتهم أعصابهم فى اللحظة الاخيرة فلم يشتركوا فى الثورة ساعة قيامها ايمانا منه بالمبادىء التى اختارها لنفسه، نفس المبادىء التى جعلت من ثورة ٢٣ يوليو عملا جديدا ،

ونهجا مستقيما يقوم على الخلق ويتمسك بالمبادىء

الفراغ الذى لا يملأ

أما الاعتبار الثانى يا بنى فهو أن انسحاب عمك جمال أوجد فراغا خطيرا لايستطيع احد منا أن يملأه ولا نستطيع نحن الثمانية الباقين جميعا أن نملأه . فالمسألةلم تكن مسألة انسحاب عضو من الهيئة التأسيسية ، وانما هى انسحاب الرجل الذى أسس هذه الهيئة التأسيسية ، وهنا يجمل بى أن أحكى لك يا بنى عن تاريخ هذه الهيئة

فكما قلت لك سابقا يا بنى تولى عمك جمال أمر هذه الثورة سنة ١٩٤٣ وكان معه فى ذلك الوقت أعمامك بغدادى وخالد وحسن ابراهيم وكنت أنا قد قبض على فى السنة السابقة ، أى سنة ١٩٤٢ ، والى ذلك التاريخ الذى تولى فيه عمك جمال مسئولية التنظيم أى سنة ١٩٤٣ لم يكن هناك جهاز لهذا التنظيم وانما كانت هناك جماعات من الضباط تجمعهم الصداقة تارة والزمالة فى الدراسة تارة أخرى ويربط الجميع شعور واحد هو كراهية السيطرة البريطانية التى اتخذت أشكالا متعددة سواء فى الجيش أو فى جميع فروع الحياة فى مصر مما أوقع البلاد بين أنياب استعمار سياسى واقتصادى واجتماعى كاد يقضى على كيان هذا الشعب

لذلك كانت تتسم كل خططنا بالحماس عندما يقع حدث معين ، فمثلا عندما هجمت ايطاليا على مصر سنة ١٩٤٠ كان أول ما تبادر الى ذهننا هو أن ننتهز هذه الفرصة ونقوم

بثورة تقضى بها على فلول البريطانيين الذين كانوا فى مصر خاصة وأن استعداد الجيوش البريطانية فى مصر فى ذلك الوقت كان ناقصا الى الحد الذى طلبوا فيه الى الجيش المصرى أن يعطيهم أسلحته ، وكادوا أن يتسلموها لولا أن رفضنا نحن الضباط الاصاغر ــ وقتذاك ــ تسليم أسلحتنا ونحن أحياء

وكذلك حدث نفس التفكير ، عند ما سلمت فرنسا ، وعندما وصل روميل بجيوشه الى العلمين

أى ان تنظيم الضباط الاحرار لم يكن يعتمد على جهاز بقدر ما كان يعتمد على الحماس والعاطفة فى خططه

قاعدة الانطلاق

ولكن عمك جمال ما أن تسلم المسئولية حتى بدأ يكون الجهاز أو ــ القاعدة ــ التى لابد من ايجادها لكى تنطلق منها الثورة وتظل بعد ذلك حصنا يدفع عن الثورة الدس والمؤامرات . وكان عمك جمال يصر على تكوين هذا الجهاز اصرارا شديدا مهما كان الوقت الذى يتطلبه هذا التكوين وكان يقول اننا اذا أفلحنا فى ايجاد جهاز قوى وانفقنا فى ذلك عمرنا كله فاننا نكون قد أدينا واجبنا كاملا نحو الاجيال المقبلة اذ سيكون من السهل عليهم أن يطلقوا الشرارة فقط فيبدأ الطوفان

من أجل ذلك ظل عمك جمال يعمل ليل نهار منذ سنة ١٩٤٣ الى سنة ١٩٤٨ حيث وقعت الحرب الاولى مع اسرائيل ، ثم استأنف نشاطه بعد هذا سنة ١٩٤٩ ، بعد عودته من الحصار

فى الفالوجا . الى أن كانت سنة ١٩٥٠ حيث فرغ من بنـاء القاعدة الاساسية لتنظيم الضباط الاحرار فى شعب ولجان واصبح الامر يتطلب ايجاد هيئة عليا للتنظيم ، وكان هذا هو بدء مولد « الهيئة التأسيسية »

ان الذى جمع أعضاء هذه الهيئة التأسيسية فرد واحد هو عمك جمال يا بنى ! اجتمع بهم فرادى أول الامر ثم جمعهم فى هيئة بعد ذلك ، لذلك لم اكن أبالغ حين قلت لك يا بنى أن انسحاب عمك جمال على تلك الصورة أوجد فراغا خطيرا لا يمكن ملؤه ، كل هذا بخلاف ما لعمك جمال من شخصية متزنة نحترمها جميعا وتعودنا أن نعتمد عليها فيما كان يقابلنا من مواقف وأزمات قبل قيام الثورة ، وتعودنا أن نجـــد فى أسلوبه دائما راحة وثقة وعمقا

انتصر لنا جمال

اعود الى حديث السبعة الذين يجلسون حول منضـــدة الاجتماع فى مبنى القيادة فى كوبرى القبة ، فأقول لك يابنى أننا أمسكنا عن الحديث بعد انسحاب عمك جمال واستعضنا عن ذلك بالنظر الى بعض ، ولا أذكر اليوم كم من الزمن مضى علينا ونحن على هذا الحال ، وانما ما أذكره هو أننا انتهينـا الى قرار حاسم من خلال ذلك الصمت ، هو أنه لابد أن يعود جمال رئيسا للهيئة التأسيسية ولتكن فلسفة الحكم هى الديموقراطية كما يريدها جمال وليست الديكتاتورية كمـا نريدها نحن جميعا

وكانت هذه المعركة هى أول معركة انتصر فيها عمك جمال يا بنى ، وهو لم ينتصر بالمعنى المادى الذى قد يتبادر الى الاذهان ، أى باملاء ارادته علينا ، وانما انتصر لنا ضـــد نفوسنا ، وانتصر لمصر فجنبها الدماء والاحقاد والويلاتالتى تلازم دائما الديكتاتورية وحكم الافراد

كانت هذه المعركة أيضا يا بنى هى اول تطبيق لمبـــادىء المدرسة الجديدة التى جعلت من ثورة ٢٣ يوليو نهجا جديدا فى التاريخ ، فبرغم أن القوات المسلحة يرأسها ضباط شبان —

هي التي قامت بها ، فان طلقة واحدة لم تطلق على أحد في جميع مراحل الثورة سواء في ليلة ٢٣ يوليو — منذ قيام الثورة — أو بعد ذلك يوم ٢٦ يوليو حين تنازل الملك عن العرش وخرج من البلاد

ولم تنصب المشانق كما حدث في الثورة الفرنسية مثلا

ولم يقتل أحد غيلة كما كان يحلو لمصطفى كمال في تركيا أن يتخلص من أعدائه

ولم يقذف بأحد في أعماق السجون لكي يدوت من غير أن يدرى أحد بأمره كما كان يفعل موسوليني

وانما استخدمت القوات المسلحة كل ثقلها في ارغام أعداء الشعب على التسليم من غير أن تكلف الشعب ارهاقا أو أن تلجأ الى الصلف والغرور حتى مع هؤلاء الاعداء الذين تساقطوا أمام الثورة كما تتساقط أوراق الشجر في الخريف

وحين عاد عمك جمال يا بني الى مكانه منا على كرسي رئاسة الهيئة التأسيسية في اليوم التالى تلبية لاصرارنا واجماعنا على عودته .. أقول حين عاد عمك جمال لم يكن ذلك ايذانا ببدء تطور تاريخي خطير في مصر وحدها ، وانما في تاريخ البشرية بأجمعها .. اذ أراد الله سبحانه وتعالى أن تنهار على يديه أكبر امبراطوريتين عرفهما العصر الحديث .. هما بريطانيا العظمى والاتحاد الفرنسي

انهارت على يديه هاتان القوتان يا بني وهما تملكان من أسلحة الدمار والفتك أحدثها ، في الوقت الذى لم يكن عمك

جمال يملك الا ايمانا راسخا بربه وبوطنـــه ، تجلى فى أروع صورة يوم أن كانت الطائرات تقذف مدن مصر بالقنابل فكان عمك جمال يقول :

« الله أكبر من كل ســـلاح ، وأقوى من كل من يصور له الغرور انه أقوى الاقوياء »

بهذا الايمان انتصر عمك جمال يا بني لا لمصر وحدها وانما لكل الشعوب التى عانت طوال القرون الســابقة من السيطرة الاجنبية واستعمار الرجل الابيض الذى لم يعرف يوما الخلق ولا الضمير،ومن أجل ذلك شنوا ويشنون اليوم على عمك جمال حربا يائسة ، استخدمت فيها بريطانيا وفرنساالسلاحوالعتاد، فلما فشلتا بدأت أمريكا تكمل نفس المعركة بســلاح آخر هو سلاح الدس السياسى والاغراء بالدولار والتخويف بالاساطيل لكى تحقق نفس الاهـــداف ولكن بفارق بسيط هو ان أمريكا تعمل لحساب امبراطوريتها الجديدة الصاعدة بعد أن أيقنت من انهيار حليفتيها الامبراطوريتين الغاربتين .

الفصل السادس

* ❋ المراحل الثمانى الخالدة فى تاريخ الثورة
* ❋ المرحلة الاولى : مرحلة الآمال
* ❋ صداقتنا للسفير الامريكى
* ❋ أخطر أسلحة الاستعمار
* ❋ الوعود والأمانى
* ❋ الاستعمار يبدأ ببعثة عسكرية
* ❋ اتفاقية السودان

المراحل الثمانى الخالدة
فى تاريخ الثورة

ولابد لى من أن أستعرض لك يا بنى المراحل المختلفة التى أدت الى الوضع الراهن

المرحلة الاولى : مرحلة الآمال

تبدأ مع بدء الثورة وتنتهى بعقد اتفاقية اكتوبر سنة ١٩٥٤ التى نسفتها أول قنبلة سقطت على مصر فى ٣١ اكتوبر سنة ١٩٥٦

المرحلة الثانية : مرحلة التضليل

وتبدأ من أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ وتنتهى فى يناير سنة ١٩٥٥

المرحلة الثالثة : مرحلة ظهور النوايا

وتبدأ فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ وتنتهى فى سبتمبر سنة ١٩٥٥ أى يوم أن عقدت صفقة الاسلحة بين مصر وتشيكوسلوفاكيا

المرحلة الرابعة : مرحلة المساومة

وتبدأ من سبتمبر سنة ١٩٥٥ وتنتهى فى ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٦ أى منذ أن عقدت صفقة الاسلحة المشار اليها الى يوم ان سحبت أمريكا ، والبنك الدولى ، وبريطانيا مشروع تمويل السد العالى

المرحلة الخامسة : مرحلة المؤامرة

وتبدأ يوم ٢٦ يوليـو سـنة ١٩٥٦ أى يوم أن صـدر مرسوم تأميم شركة قناة السويس وتنتهى فى ٢٩ أكتوبرسنة ١٩٥٦ يوم أن بدأت اسرائيل تنفيذ المؤامرة الثلاثية على مصر

المرحلة السادسة : مرحلة الاذلال بالقوة

وتبدأ يوم ٣٠ اكتوبر سـنة ١٩٥٦ وهو اليـوم الذى أرسلت فيه بريطانيا وفرنسـا الى مصر انذارهما الذى وصف فى بريطانيا بأنه عمل قذر وتنتهى فى يوم٦نوفمبر سنة١٩٥٦ وهو يوم وقف اطلاق النار

المرحلة السابعة : مرحلة الفضيحة الكبرى

وتبـدأ يوم ٧ نوفمبر وهو اليـوم التـالى لوقف اطـلاق النار وتنتهى فى يوم ٢٣ ديسمبر سـنة ١٩٥٦ وهو تاريخ انتهاء انسحاب بريطانيا وفرنسا من بور سعيد

المرحلة الثامنة : الاصرار على المؤامرة

وتبـدأ من يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥٦ وهـو اليـوم التالى لانسحاب فرنسا وبريطانيا وهذه المرحلة لم تنته الى هذا اليوم الذى أدون لك فيه هذه الذكريات ، ولكنك ستجد يابنى انه لن يصعب استنتاج ماستكون عليه نهاية هذه المرحلة

المرحلة الاولى : مرحلة الآمال

من بدء الثورة الى اكتوبر ١٩٥٤

انني أذكر يا بني جلسات الهيئة التأسيسية التى عقدناها فى مستهل عام ١٩٥٢ والتى حكيت لك عن جانب منها،واذكر ان تقدير الموقف الذى وصفه عمك عبد الحكيم عامر ترك نقطتين فى هذا التقدير على بياض أى لم يناقشهما كما ناقش بقيـــة النقط ، وكانت هاتان النقطتان أو كما نسميهما فى الاصطلاح العسكرى « العاملان » هما :

احتمال تدخل بريطانيا

واحتمال تدخل أمريكا فى المراحل الاولى للثورة

الدرس الذى وعاه فاروق

فلم يكن يخفى على أحد ان بريطانياتسعى دائما لفرض المزيد من سيطرتها على البلاد ، وكانت تفرض حمايتها على الاحـزاب السياسية ورؤسائها بالعدل والقسطاس لكى يمثل كل منهم دوره وقت أن يطلب اليه ذلك ، هذا فضلا عن ان ملك البـلاد فاروق كان قد تعلم من حادثة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ درسا هو ان لا يعارض سياسة بريطانيا .. بل خرج من هـــذه الحادثة بحكمة خالدة هى أن يوفر لنفسه الامان والســلام بتنفيذ كل ما تريده بريطانيا ، حتى يستطيع أن يتفرغ لاشباع شـهواته

ونهمه لجمع المال والثروة •• وتطورت الامور الى أبعد من ذلك فأنعمت عليه بريطانيا برتبة جنرال فى الجيش البريطانى •• وكان سعيدا بهذا الشرف الذى منحه اياه أعداء البلاد ، ومنذ ذلك الوقت وهو منصرف الى ملاذه وأهوائه

احتمال تدخل بريطانيا

نخرج من هذا العرض البسيط يا بنى بأن احتمال تدخل بريطانيا ضد الثورة فى مراحلها الاولى كان يعتبر حقيقة لابد أن تقع لان هذه الثورة لابد أن تطيح بالاحزاب وزعمائها الذين تبسط عليهم حمايتها وبالملك الخاضع لها

ولم يكن الامر يقتصر على بريطانيا وحدها وانما كانت هناك أمريكا أيضا ، وكان الملك قد عقد لنفسه صداقة متينة مع سفير أمريكا فى مصر المستر كافرى لكى يتقى بأمريكا شر انجلترا اذا ما فكرت فى أن تنقلب عليه فى يوم من الايام ، وكان طبيعيا جدا أن ترحب أمريكا بهذه الصداقة وأن تعمل على تعزيزها وهى التى بدأت تحس بأهمية هذه المنطقة من العالم خاصة وان شعور الكراهية ضد بريطانيا كان يزداد يوما بعد يوم فى البلاد ، مما أتاح لامريكا فرصة ذهبية لكى تبنى لنفسها سمعة تقوم على انها ضد الاستعمار •• وانها بطلة الحريات ، وتقرير المصير

مركز الثقل يتزحزح

وبدأ مركز الثقل يتزحزح رويدا رويدا من السفارة البريطانية الى السفارة الامريكية •• بمعنى أن رئيس الوزارة

المصرية كان لابد لكى يعين أن يكون مرضيا عنه من السفارة الامريكية ، ومعروفا تمام المعرفة لافرادها ، بعد أن كان هذا من اختصاص السفارة البريطانية ومستشارها الشرقى المشهور

أعود بك الى سياق الحديث يا بنى فأقول اننا ازاء كل هذا كان لابد أن نحسب حساب بريطانيا وأمريكا عند وضع خطة قيام الثورة ، ولكننا بعد مناقشات طويلة انتهينا الى قرار ، وهو أن يترك أمر هذا التدخل الى ساعة وقوعه لأنه لم يكن لدينا لا القوات ولا الاسلحة التى نستطيع أن نخصصها لمقابلة هذا التدخل علما بأن بريطانيا كان لها أكثر من خمسة وثمانين ألف جندى مزودين بالسلاح والعتاد فى منطقة القناة

معركة شعبية

وعولنا على أن تبدأ الثورة ..

فاذا تدخلت بريطانيا ، أو أمريكا ، أو الاثنتان معا .

فلا بد من أن تتحول المعركة الى مقاومة شعبية يشترك فيها الجيش مع الشعب

ولكننا فى تلك اللحظة كنا نستبعد تدخل أمريكا فى الوقت الذى كنا نرجح فيه تدخل بريطانيا خاصة وأنه كان على رأس حكومتها مستر تشرشل وهو الرجل الاستعمارى الكريه البغيض

وقامت الثورة فى ليلة ٢٣/٢٢ يوليو سنة ١٩٥٢ ..

وفى الساعة الثانية من صباح يوم ٢٣ يوليو .. أى بعد

حوالى الثلاث ساعات من قيامها كنا نسيطر على جميع القوات المسلحة من صحراء سينا .. الى القاهرة .. الى الاسكندرية

وفى اللحظات الهاجعة التى تصاحب ظهور أشعة الفجر ، كانت أصوات جرارات المدافع تنساب فى نغم متدفق من أمام مبنى القيادة لكى تؤمن المراكز الحيوية فى العاصمة

تفاهم غير منتظر

وهنا خطر لنا خاطر .. هو ان نخطر أمريكا عن طريق سفارتها بأن ثورة مسلحة قد قامت وسيطرت على الموقف ..

وان قيادة هذه الثورة قد رأت أن تخطر أمريكا حتى لا تستغل بريطانيا هذه الفرصة فتشوه الثورة وأهدافها لامريكا

واننا عازمون على المضى بالثورة مهما كانت الظروف ..

واننا سوف نقاوم أى تدخل أجنبى بالقوة والسلاح مهما كان الثمن

وفعلا اتفقنا بعد مناقشة قصيرة على أن نوفد ضابطا ذهب وطرق أبواب السفارة الامريكية مع أول خيط من خيوط النهار، وأبلغ المسئولين فيها ما اتفقنا على ابلاغه آياهم ..

ولقد كان رد الفعل على خلاف ما توقعنا ، فاننا كنا نتوقع أن يكون سلوك أمريكا متحفظا ان لم يكن معاديا بوصفها حليفة بريطانيا ، ولكن على العكس من ذلك أظهرت أمريكا فهما عجيبا للموقف ، برغم ان سفيرها فى مصر كان يعتبر الحامى الاول لحمى الملك

قرار طرد فاروق

بل أكثر من ذلك ٠٠ فانه عندما استنجد فاروق صبيحة يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ بالسفير الامريكى عقب أن حوصرت سراى رأس التين ، فان المستر كافرى كان واعيا وحصيفا فلم يبادر الى استدعاء القوات الامريكية ، مثلا ، لحماية الملك فيهب الشعب كله للمقاومة وتقوم المذابح ٠٠ وانما أرسل مستشار السفارة الامريكية المدعو سباركس الى رئاسة مجلس الوزراء فى بولكلى ، حيث قابلنا فى الساعة التاسعة صباحا ليطلب فقط باسم الحكومة الامريكية أن يؤمن الملك على حياته الشخصية فقط ٠٠ وكنا قد اتخذنا فى الليلة السابقة قرارا فى هذا الشأن ، وهو أن يطرد الملك بعد تنازله عن العرش ٠٠ واستبعدنا قرار محاكمته واعدامه ، بعد أن اختلفنا طويلا على ذلك

صداقتنا للسفير الامريكى

وهكذا بدا لنا ان أمريكا تفهم الاوضاع على حقيقتها بعقلية غير تلك العقلية الاستعمارية ، وبدا لنا أيضا ان لامريكا سياسة أمريكية على خلاف ما كنا نعرف من انها تسير فى ذيل السياسة البريطانية الاستعمارية .. وخاصة فى هذه المنطقة من العالم التى كان يدعى الساسة البريطانيون الاستعماريون انهم خبراؤها الوحيدون ، ولعل هذا يلقى لك ضوءا يا بنى على ما قلته لك سابقا من أن تصرف الثورة حيال أمريكا كان مناقضا من أول يوم لتصرفها حيال بريطانيا وان صداقة حقيقية انعقدت بيننا وبين السفير الامريكى المستر كافرى وان الرجل كان مخلصا حقا

فمن أول يوم لبينا دعوة المستر كافرى التى دعانا فيها الى العشاء وذهبنا جميعا الى منزله .. قبل أن يعلم الناس فى مصر والعالم من هم رجال ثورة مصر فى الوقت الذى قاطعنا فيه السفارة البريطانية تمام المقاطعة حتى ان المستشار الشرقى بها كان يبحث ويحاول أن يصل الى معرفة أشخاصنا ، ثم بدأ بعد ذلك يتصل ببعض أصدقائنا من الصحفيين لكى يدلوه على طريقة يتصل بها بنا ، أو يكونوا واسطة لاجتماعه بأحدنا ، كان

هذا فى الوقت الذى كان السفير الامريكى دائم الاتصال بنا ٠٠ وفى كل مرة كان يظهر تفهما وادراكا لحقيقة أهدافنا مما جعلنا نحس ان أمريكا عازمة حقا على التمسك بما تعلن عنه من انها ضد الاستعمار ٠٠ وانها مع حق تقرير المصير للشعوب الصغيرة التى ابتليت بالسيطرة الاجنبية

آراء واشنطن

ويقينى اليوم وبعد كل ما حدث من أمريكا ويحدث أن المستر كافرى كان رجلا مخلصا تمام الاخلاص وانه كان يفكر بعقلية ناضجة لمصلحة أمريكا قبل كل شىء ، ولكن ما حدث بعد ذلك وما يحدث فى هذه الايام التى أكتب لك فيها هذه الكلمات أثبت بطريقة قاطعة ان آراء المستر كافرى شىء ٠٠ وآراء واشنطن وأولئك الذين يجلسون الى المكاتب فيها شىء آخر ٠٠

وأعود الى الحديث يا بنى فقد ذكرت انه بدأت مرحلة عقب قيام الثورة أطلقنا عليها مرحلة الآمال ، فقد كان أكثر ما تتميز به هذه المرحلة من يوم أن أخطر رسولنا أمريكا بقيام الثورة الى يوم ان وقعت اتفاقية أكتوبر سنة ١٩٥٤ بين مصر وبريطانيا والتى نسفها عدوان بريطانيا ، أقول كان أكثر ما تتميز به هذه المرحلة هو الآمال العراض

وكما قلت لك يا بنى كانت تصرفات السفير الامريكى كافرى تدعو الى الثقة ، لذلك بدأنا أول تجربة معه وكانت خاصة بتسليح الجيش المصرى الذى كان يفتقر الى السلاح بل الى كل شىء ، فلقد كانت السياسة المرسومة بعد حرب فلسطين سنة

١٩٤٨ هى أن يظل الجيش ضعيفا مفتقرا الى السلاح والذخيرة والعتاد ، وما دام متعهد توريد الاسلحة هى بريطانيا فان ذلك كان كفيلا باحكام السيطرة على هذا الجيش وبالتالى على الشعب الذى لن يجد له حماية فى جيشه وبذلك لن تقوم فى مصر دولة لان أولى مقومات الدولة هى أن يكون لها جيش قوى يستطيع أن يحميها من أية سيطرة أو تدخل يفرضان عليها من الخارج

وعود على الطريقة الامريكية

وحين طلبنا من المستر كافرى الاتصال بحكومته بشأن تسليح الجيش المصرى من حر مالنا جاء رد الحكومة الامريكية فى صورة نسخة مما يسمى «ميثاق الامن المتبادل» وهو عبارة عن اتفاقية قالوا لنا أنه بمجرد أن نوقعها فاننا لن نكون بحاجة الى أن ندفع مليما واحدا بل ستتدفق الاسلحة على الجيش المصرى مجانا، هذا بخلاف المعونات الاخرى ، وقد كان العرض على الطريقة الامريكية محاطا بالتشويق والدعاية المغرية .. فتارة يقولون ان أكثر من أربعين دولة تنعم بخيرات هـذا الاتفاق اليوم وتسبح فى بحبوحة الرفاهية ، وتارة يقولون ولماذا تخصصون من ميزانيتكم أية مبالغ تنفقونها على التسليح فى الوقت الذى يمكنكم فيه أن تحصلوا على السلاح بالمجان . بل على أحدث الاسلحة أيضا وهكذا .. فقط وقعوا وبعدها يكون الطوفان

وقرأنا الاتفاقية ، أى اتفاقية الامن المتبادل هذه ، ظاهرها برىء براءة عجيبة ، أما باطنها فقد أخذ يتكشف لنا سطرا بعد سطر

ان بعض ما فى هذه الاتفاقية هو ان الجيش المصرى سيكون خاضعا لاشراف بعثة أمريكية عسكرية تتولى التدريب وتتولى التنسيق وبذل النصيحة والمساعدة فى وضع الخطط أى كما يقول المثل البلدى : « كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا »

بعثة عسكرية

والى سنة ١٩٤٧ كانت توجد فى مصر بعثة عسكرية بريطانية تقوم بنفس الواجبات التى وردت فى اختصاصات البعثة العسكرية الامريكية الموعودة ، فماذا كانت النتيجة ؟

لقد كانت هذه البعثة العسكرية البريطانية أخطر نكبة حلت بالجيش المصرى ، فقد كان أفراد هذه البعثة يمنعون السلاح عمدا عن الجيش المصرى تنفيذا لسياسة بلدهم بريطانيا الاستعمارية ، وكان أفراد هذه البعثة يتجسسون على الضباط المصريين لحساب بريطانيا بل ان الاسلحة التى كان يشتريها أفراد هذه البعثة لحساب الجيش المصرى على انها أسلحة جديدة .. كانت فى الواقع أسلحة مستعملة فرغ الجيش البريطانى من التمرن عليها . ولقد تلقينا ونحن ضباط صغار بعض هذه الاسلحة وفتحنا صناديقها بأنفسنا على انها أسلحة جديدة أثبتنا فى محاضر التسليم انها مستعملة ، لانها كانت فعلا أكثر من مستعملة

وكان أفراد هذه البعثة حلقة من أحكم حلقات الاستعمار البريطانى فى مصر فكانوا يطاردون كل ضابط مصرى يشتم منه أنه يحس ببلده أو يعرف لوطنه كرامة أو عزة

والآن يطلب منا ان نستقدم بعثة عسكرية أمريكية بعد أن تخلصنا من كابوس البعثة البريطانية • الله •• الله ••

لقد ظننا أول الامر ان هذا العرض ليس جديا بعد أن قرأنا تفاصيله ،و لكن اتضح ان أمريكا تعرض هذا العرض بصفة جدية مما زاد فى دهشتنا وعجبنا

ان هذا العرض ليس الا استعمارا جديدا أنكى وأشد مما عانيناه على يد بريطانيا ، فقدكنا مع بريطانيا ندفع ثمن السلاح رغم كل الاعيبها ، ولكن أمريكا لا تريد ثمنا للسلاح وانما ستتقاضى الثمن من سيادتنا وكرامتنا ، ستتقاضى الثمن سيطرة كاملة على جيشنا وبالتالى على كياننا

رفضنا العرض

ورفضنا هذا العرض رفضا باتا

ولما سأل الامريكان عن أسباب الرفض حكينا لهم حكاية البعثة العسكرية البريطانية وقلنا لهم : لن نكون سذجا أو بلهاء مرة أخرى ، ونحن نريد أن نشترى السلاح منكم شراء حرا ولا نريد هبة من أحد ولا نريد أن يكون لأى انسان فضل علينا

ودهشنا أكثر وأكثر يا بنى حينما وجدنا الامريكان لا يقتنعون بمنطقنا هذا ، بل يكادون يستنكرونه ••

وهنا تدخل الرجل كافرى مرة أخرى لينقذ الموقف ، فقد أحس أننا نحس مرارة وخيبة من منطق أمريكا الذى لا يختلف عن منطق بريطانيا الا فى انه أشد حمقا وتجاهلا لأمانينا وحريتنا ، وكان الرجل يريدنا أن نفهم أن هذه ليست

سياسة واشنطن وانما هى سياسة الموظفين الذين يخضعون للروتين وعلى هذا الاســـــاس طلب كافرى مهلة لكى يعود الى واشنطن مرة أخرى

ويظهر ان الرجل استخدم كل نفوذه محاولا افهام واشنطن الحقائق فجاء الرد أن وافقت أمريكا على صفقة أسلحة للبوليس المصرى كان ثمنها مدفوعا من قبل قيام الثورة بواسطة حكومات ما بعد ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ لكى يسكتوا بها الشعب ، وقالوا لنا وقتها أن هذه الصفقة عربون عن حسن نوايا أمريكا وان موضوع تسليح الجيش المصرى هو قيد البحث لدى المسئولين هناك ٠٠ أو بمعنى آخر سياسة الاسبرين ٠٠ أى اعطاء قرص من الاسبرين للمريض على أمل تهدئته فلايقطع الامل من طبيبه الجاهل



أخطر أسلحة الاستعمار

عندما قامت الثورة كانت البلاد قد أشرفت فعلا على الافلاس اقتصاديا ..

فالاحتياطى كله كان قد نفذ منذ وقت طويل

وأصبحت خزينة الدولة مدينة بأكثر من خمســـة وأربعين مليونا من الجنيهات

وكان رصيد البلاد من الذهب والعملات الخارجية فى نزول مستمر

كل هذا بخلاف ما أشاعه الاجانب من ذعر فى الســـوق المصرية ، نتيجة لانسحاب الكثير من رؤوس الاموال الاجنبية بعد حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢

وهنا يجب أن أقف قليلا يا بنى لكى أذكر لك ان اقتصادنا كله الى ساعة بدء العدوان على مصر فى ٢٩ أكتوبر سنة١٩٥٦ كان فى أيدى الاجانب سواء منهم الفرنسيون والبريطانيون ، أو اليهود من مختلف الجنسيات الاخرى

وكانت هذه السيطرة على اقتصادنا ، هى أفتك الاســـلحة التى يمارسها الاستعمار فى مصر ، لخنق كل اتجاه نحو التحرر أو الاستقلال بتجويع الشعب ، وافقاره ، واذلاله

واستخدمت بريطانيا هـذا السـلاح فى مصر بنجاح طيلة أربعة وسبعين عاما

وشهدنا نحن فى ديسمبر سنة ١٩٥٢ ـ ولم يكن قد مضى على قيام الثورة الا حوالى الستة أشهر ـ أقول شهدنا فى ذلك الوقت أول تجربة بريطانية لاذلال مصر بعد الثورة وذلك عن طريق استخدام سلاح الضغط الاقتصادى .. يوم أن امتنعت بريطانيا عن شراء حصتها فى محصول القطن .. وكانت هى العميـل الاول بالنسبة للسـوق المصرية ، بحجـة أن لدى الغـزالين البريطانيين فائضا من القطن المصرى

وبعنا قطننا للآخرين

وكان هدف بريطانيا فى ذلك الوقت ، هو ضرب الاقتصاد المصرى ضربة قاتلة .. بحرمان الخزينـــة المصرية من المورد الاساسى للعملة الاجنبية وبالتالى حرمان الشعب من الحصول على حاجاته الضرورية .. فاما ان تقوم ثورة جديدة ، واما أن تسلم الثورة لبريطانيا فيما تريد .. كما كان يسلم لها الملك .. وكما كان يسلم لها الزعماء والاحزاب ..

ولكننا لم نسلم لبريطانيـا يا بنى .. بل على العكس من ذلك ، حررنا سوقنا القطنية من احتكار بريطانيا وحلفائها من المستعمرين

وبيع قطننا فى تلك السنة

ولا يزال يباع الى اليوم لكل من يدفع ثمنه بعد أن كان محرما على مصر أن تبيع قطنها لغير بريطانيا وحلفائها

ودخلت الصين واشترت

ودخلت دول أوربا الاشتراكية واشترت

ودخلت روسيا واشترت

ولقد كانت هذه التجربة ، ولما يمض على الثورة أشهر قليلة، مبعث دراسة مستفيضة منا ·· خاصـــة وان بريطانيا كانت تسيطر هى وفرنسا حليفتها على اقتصادنا ســـيطرة تامة عن طريق البنوك والمؤسسات التجارية

وأسوأ من ذلك كله ، ان بريطانيا وفرنسا خلفتا فى مصر طبقة من رجال الاقتصـــــاد من المصريين ، الذين باعوا شرفهم وكرامتهم ووطنهم لقاء مكافآت مجالس الادارة وأصبحوا عملاء للأجنبى فى سوقنا الاقتصادية

فاذا ما أرادت بريطانيا أن تحقق كسبا سياسيا ، أصدرت أوامرها آلى هؤلاء العملاء

فتبدأ البنوك فى التعسف مع التجار فى فتح الاعتمادات مثلا

وتخرج الشائعات قائلة ان الاقتصاد المصرى فى خطر

وان الازمة تأخذ بخناق الناس

وان التجارة توشك على الافلاس

وهم هم الذين صنعوا كل هذا عن طريق البنوك التى كانوا يسيطرون عليها ·· وعلى كل المعاملات

من أجل ذلك اتجهنا يا بنى من أول لحظة الى بنـــاء اقتصاد البلاد بناء سليما على أسس صحيحة مدروسة

وأخذنا نستعين برأى كل من له رأى فى الاقتصاد ·· حتى نستطيع أن نضع خطة لهذه المعركة التى اتضح انهـــا أخطر

معركة سنخوضها من أجل استخلاص استقلال البلاد

فالحرب فى هذا الميدان خطرة ٠٠ لانها تتعلق بلقمة العيش التى يسد بها كل مواطن رمقه ٠٠ انها معــركة رغيف العيش الذى يريد أن يحصل عليه كل مواطن من غير تهديد أو مساومة ٠٠ في الوقت الذى يسيطر المستعمر وأعوانه على هذا الرغيف ٠٠ ويهددون بحرماننا منه كل مطلع يوم جديد

وكان أول ما انتهت اليه تلك الدراسات هو ضرورة توافر رأس المال الذى يمكن عن طريق استثماره قيام الصناعات التى توفر للبلاد حاجاتها ، وتستوعب العمال ٠٠ وتوفر الرخاء

وبدأت دراسة واسعة لوضع مشاريع السنوات الخمس

ولم نسمع بخبير فى أية بلد الا استقدمناه لكى نفيد بخبرته

وبقيت مشكلة رأس المال ٠٠ وهى مشكلة ذات شقين :

الشق الاول منها محلى وهو في يد البنوك التىيسيطر عليها الاستعمار ، وأعوانه ، ورجال الاقتصـــاد ممن باعوا أنفسهم للشيطان ٠٠ فقد تعاون كل هؤلاء على اشاعة جو من عدم الثقة فى السوق المصرية ٠٠ فأحجم أصـــحاب رؤوس الاموال من المواطنين انتظارا منهم لما ينتهى اليه الحـال ، أى الى أن ترضى بريطانيا عن الثورة

أما الشق الثانى منها وهو خارجى فيتعلق بضرورة دخـول رؤوس أموال أجنبية الى جانب رأس المال المصرى ، حتى يمكن توفرالعملة الاجنبية التى لايمكن استيراد الآلات والعدد اللازمة بدونها ٠٠ وهذه فى يد المستعمرين أنفسهم

الوعود والأمانى

وكان طبيعيا ألا نفكر فى بريطانيا ونحن ندرس مشكلة رأس المال الأجنبى لأسباب كثيرة :

منها الخلاف السياسى الخاص بجلاء جنودها عن أرضنا .. وهو ما كنا نصر عليه فى عنف وتصميم

ومنها أن بريطانيا خرجت من الحرب العالمية الثانية على شفا الافلاس وانها تحتاج الى وقت طويل جدا لكى تستطيع أن تشفى من جراحها ، وتسترد أنفاسها فى الميدان الاقتصادى

لذلك فكرنا فى الاستعانة بأمريكا ، خاصة وان الوعود والأمانى العذاب كانت تنهال علينا عن طريق سفارتها

وعود وأمانى كانت تشمل كل ما يخطر على بال البشر

وأمريكا لم تخرج كبريطانيا من الحرب مفلسة ، بل على العكس من ذلك خرجت مزدهرة ممتلئة .. وتكدست فيها رؤوس الاموال التى تفيض عن حاجتها للاستثمار والرخاء

وبمنتهى حسن النية أبلغنا أمريكا اننا نرحب برؤوس الاموال الامريكية التى تريد أن تدخل مصر لكى تساهم فى رخاء الشعب ، بشرط أن تخضع للقوانين المصرية شأنها فى ذلك شأن رأس المال المصرى

واعتقدنا أن الوعود والامانى لابد ان تفعل فعلها هذه المرة ·· خاصة وان الامريكى بطبعه رجل بيع ، وشراء ، ودولار ، وفرصة الاستثمار التى سيتيحها بناء مصر من جديد فرصة لا تعوض للكسب الحلال

وجاء الرد من واشنطن

جاء الرد من واشنطن هذه المرة فى صورة اتفاقية مطبوعة ·· وبنفس الاسلوب الذى جاءت به اتفاقية الأمن المتبادل التى حكيت لك عنها يا بنى

أى بطريقة مشوقة ·· مغرية

فهذه الاتفاقية الخاصة برأس المال ، يتمتع بخيرها اثنان وعشرون دولة وقعوها ·· فتدفقت عليهم رؤوس الاموال من غير حساب

وهذه الشعوب .. تنعم اليوم بالرخاء .. والرفاهية

انظروا

هذه هى أسماء الدول التى تنعم اليوم بالجنة والترف·· بعد الفقر والاملاق ، وقعوها ·· لكى تكونوا الدولة الثالثة والعشرين

لم نطلب أموالا من الحكومة الامريكية

وقرأنا اتفاقية رأس المال هذه ، فى عناية وحرص شديدين

وكلما مضى منها سطر ، التهمنا السطر الذى يليه .. لكى نعثر على الجنة الموعودة ·· والنعيم المقيم

وكان أول ما لفت نظرنا فى هذا الامر ، هو اننا لا نريد

أموالا من حكومة أمريكا ، حتى تطلب منا أن نوقع معها اتفاقية

وانما نحن قلنا اننـــا نرحب بكل رأس مال أجنبى ، لأى فرد ، سواء كان أمريكيا ، أم من أية جنسية أخـرى •• على أساس أن يفيد ويستفيد •• ولا دخل لنا مع الحكومات

ولكن •• هذه الاتفاقية،لم تلبث أن كشفت عن وجه أمريكا

ان هذه الاتفاقية تنص على أن رأس المال الامريكى الخاص ، الذى يأتى الى مصر ، تضمنه الحكومة الامريكيـة لصاحبه •• •• نظير فائدة معلومة بينها وبينه

ومن أجل ذلك ، فانه اذا ما أراد صاحب رأس المال الامريكى هذا أن ينسحب من مصر لأى سـبب ، أو اذا طبقت عليـه الحكومة المصرية قوانينها ، شأنه شأن رأس المال المصرى ، فان الحكومة الامريكية تحل محله كصاحبة لرأس المال

أو بمعنى آخر

دخل رأس المال باسم « الخواجة فلان » دخولا تجاريا بريئا

فلا يلبث أن يخرج الخواجة فلان

ويصبح رأس المال التجارى البرىء ملكا للحكومة الامريكية •• والسياسة الامريكية

ويحميه الاسطول السادس الامريكى اذا كان فى البحـــر المتوسط

أو السابع اذا كان فى الشرق الاقصى •• الخ

تبخرت الآمال

ورفضنا هــذه الاتفاقية أيضا ، بأشد مما رفضنا اتفاقية

الأمن المتبادل ، لانها فى جوهرها ، أبشع من أى استعمارظهر على وجه الارض ، الى يومنا هذا

ومرة أخرى ٠٠ انفضحت الوعود٠٠وانكشفت الأماني ٠٠ وتبخرت الآمال

وكل هذا ، ولم يمض على قيام الثورة سته شهور

وهكذا أمسكنا بمفتاح السياسة الامريكية يا بنى ٠٠ منذ الشهور الاولى لقيام الثورة ٠٠ ولكننا كنا نأمل دائما أن يأتى اليوم الذى تفهم فيه أمريكا ، انها على خطأ ٠٠ اذا كانت حقا تؤمن بحق تقرير المصير للشعوب ٠ وكنا نأمل أيضا أن تفهم أمريكا لماذا رفضنا امضاء اتفاقية الأمن المتبادل،مع ان جيشنا فى مسيس الحاجة للسلاح

ولماذا رفضنا اتفاقية راس المال ، وقت أن كان اقتصادنا يترنح من فرط الاعياء

ولكن أمريكا لم تفهم الى هذه اللحظة التى أكتب لك فيها يا بنى

بعد أن فشل العدوان

وبعد أن وقع تطور تاريخى شغل العالم كله ، بحيث أصبح من المستحيل قهر ارادة الشعوب ، أو خداعها بطرق جديدة ٠٠ هى فى حقيقتها أفتك ألوان الاستعمار

الاستعمار يبدأ ببعثة عسكرية

فاتفاقية الامن المتبادل التى تقدمها أمريكا للشعوب البريئة ، حينما تسعى هذه الشعوب الى طلب العون لكى تحافظ على كيانها ، ليست الا استعمارا مباشرا صريحا

يبدأ بالبعثة العسكرية الامريكية .. وامتيازاتها .. وسيطرتها

وينتهى بالسيطرة الكاملة على مقدرات تلك الشعوب ، ومصائرها ، وارضها ، وسمائها

وكان من نتيجة ذلك ، ان كل بلد قبلت ، أو وقعت هذه الاتفاقية .. تعانى اليوم فراغا خطيرا فىداخلها ، بينالشعوب والحكام ، ولا بد أن يأتى اليوم الذى تنتصر فيه ارادة الشعوب ، فتملأ الفراغ .. لان الشعوب هى الباقية .. اما الحكام فهم بشر والى زوال

واتفاقية رأس المال التى تقدمها أمريكا للشعوب الصغيرة الساذجة ، التى تريد أن تبنى اقتصادياتها بعرقها وكفاحها ، مستغلة فى ذلك فقر هذه الشعوب وحاجتها ، ليست هى الاخرى الا استعمارا .. اخبث وابشع من كل ما عرفه العالم طوال القرون الماضية على يد حلفاء أمريكا

ونحن نرى اليوم فى عام ١٩٥٧ كيف ان الدول التى وقعت فى

فخ هذه الاتفاقية ، تعانى التضخم المروع .. وتواجه أكثر من ذلك كارثة محققة لان اقتصادياتها أصبحت تحت رحمة امريكا .. وأصبحت تعيش على التسول والاستجداء

وكما قلت لك يا بنى ، فان هذه الثورة تؤمن بالمثل وتقدس القيم

لذلك كان عمك جمال صريحا دائما فى شرح وجهة نظرنا لأمريكا فى كل هذه الامور ، ولعل هذا هو ما أحفظها عليه

فالسياسة الامريكية ، كالسياسة البريطانية ، تؤمن بالمساومة .. وعمك جمال يرفض المساومة كخلق وكمبدا على السواء ، لأن ما يراد المساومة عليه ، هو من صميم مصالحنا وشرفنا وسيادتنا

وبرغم رفضنا للاتفاقيتين وتفسيرنا الصريح لهما ، فان أمريكا لم تيأس بل عادت الى الابتسام مرة أخرى ــ بل الى آمال أكثر اشراقا مما بدأت به هذه المرحلة

اتفاقية السودان

كنا قد عقدنا اتفاقية السودان مع بريطانيا فى مارس سنة ١٩٥٣ ، وكان السـودان هو الصخرة التى تتحطم عليهـا كل مفاوضات سابقة بين مصر وبريطانيا بشأن جلاء قوات الاخيرة عن ارض مصر

هكذا كان يقول رجال السياسة فى مصر

وهكذا كانت تحتج بريطانيا دائما لكى يستمر احتـلالها لمصر

أما وقد عقدت اتفاقية السودان ، فقد زالت أكبر عقبة من الطريق .. وطلبنا من بريطانيا الدخول فى مفاوضات من أجل الجلاء

وشكل وفد المفاوضة .. وبدأت المفاوضات

وكان واضحا من أول لحظة ان بريطانيا كعادتها .. تساوم ، وتلف ، وتدور ، من أجل ابقاء مصر تحت سيطرتها

وبقيت أمريكا خارج الحلقة لكى تقوم بدور الوسيط

ولا بد لى أن أعود فأقرر هنا ، ان كافرى سـفير أمريكا قام بدور مشرف كرجل يؤمن بالعدالة وبحقوق الشعوب

واسـتطاع هـذا الرجل أن يزيل من نفوسـنا الى حـد

ما أحسسناه من مرارة عقب اكتشافنا لنوايا أمريكا بعد حكاية الاتفاقيتين اللتين رفضناهما .. ولكن واشنطن ظلت مخلصة لأهدافها التى تحويها تلكما الاتفاقيتان .. بل أسوأ من ذلك اتضح لنا ان واشنطن تؤمن بوسائلها واهدافها الى حد السفه والغرور

عقلية ساسة واشنطن

لقد كان يسيطر على عقلية ساسة واشنطن ورجال الحرب فيما بعد الحرب الثانية ـ ولا يزال الى يومنا هذا ـ حلم السيطرة على الشرق الاوسط واخضاعه لاحلاف الغرب لان ذلك يشكل حلقة من حلقات الحصار الذى تفننت امريكا وحلفاؤها فى فرضه على روسيا والكتلة الاشتراكية بعد انهاء الحرب العالمية الثانية

والعجيب يا بنى أن أمريكا وحلفاءها خاضوا هذه الحرب جنبا الى جنب مع روسيا ضد عدو مشترك هو المحور الذى كان يتكون من المانيا الهتلرية وايطاليا الفاشستية ، ولكنه ما أن انتهت تلك الحرب حتى انقلب الحلفاء الى أعداء ، وانقسم العالم الى كتلتين ، شرقية وغربية : الشرقية هى روسيا وحلفاؤهامن الكتلة الاشتراكية ، والغربية هى أمريكا وحلفاؤها من الكتلة الرأسمالية

ومن هنا ينشأ جوهر مشكلتنا مع أمريكا وحلفائها الذين لم يتورعوا عن أن يشنوا هجوما مسلحا على مصر،ويقتلوا النساء

والاطفال ، ويهدموا البيوت لأننا نصر على أن لانتبع الغربأو الشرق

عجلة أمريكا وحلفائها

من أجل هذا ظلت أمريكا تمنى نفسها طويلا بربطنا الى عجلتها وعجلة حلفائها بدلا من ان نسير فيما ارتضيناه لانفسنا من حياد بين الكتلتين ، فلما فشلت تآمرت مع حلفائها لتجويع شعب مصر بسحب معونة السد العالى ظنا منها أن ذلك سيخضع هذا الشعب فيركع لها على ركبتيه

ومن أجل هذا أيضا تطلق أمريكا صحافتها اليوم فى سعار مجنون لكى تجعل من عمك جمال ديكتاتورا متعنتا لانه يتمسك بحقوق شعبه وبكرامته وبسيادته ، ولكى توهم العالم ان مصر الدولة الصغيرة الشابة انما هى غول سيفتك بأمن العالم وبسلامته



الفصل السابع

* الخلاف بيننا وبين الغرب
* قالوا عمك جمال ديكتاتور !
* العدوان السلمى
* المرحلة الثانية : مرحلة التضليل

الخلاف بيننا وبين الغرب

واعود الى حديثى فأقول ، انأول خلاف جوهرى وقع بيننا وبين الغرب بزعامة امريكا كان على نظرية الاحلاف ، فأمريكا كانت قد أعدت حلقات من الاحلاف تطوق بها روسيا الا حلقة واحدة هى حلقة الشرق الاوسط ، لذلك عرضت علينا أول الامر حكاية الامن المتبادل التى تستطيع بواسطتها ان تسيطر على قواتنا المسلحة ، فلما رفضناها رفضا باتا أصبح لابد من طريق آخر

وظهرت نظرية الدفاع عن الشرق الاوسط

بدات امريكا بحكاية « الخطر الشيوعى » الداهم الذى يهدد المنطقة

وبدا واضحا لنا يا بنى بعد حكاية الاتفاقيتين اللتينحكيت لك عنهما وهما «اتفاقية الامن المتبادل» و «اتفاقية رأس المال» أن السياسة الامريكية ليست لله ، ولا لحق تقرير المصير ، ولا لنصرة الشعوب الصغيرة كما تقول الدعاية

وهى ليستأيضا سياسة بريئة مستقيمة مجردة منالاهداف والغايات كما يحاول الدبلوماسيون الامريكان أن يقنعوا الناس دائما على طريقة « الهليهلية » الامريكانية ـ وانما هى سياسة ذات أهداف محددة مرسومة وغايات أشد جشعا وأكثر فتكا

من كل ما استنبطه الاستعمار فى القرون الماضية

فالاله فى أمريكا ليس هو الله الذى عرفتنا به الكتب السماوية وأرشدنا اليه الانبياء

وانما الاله فى أمريكا هو الدولار

هو الذى يعز وهو الذى يذل ، هو الذى يمنح ، وهو الذى يمنع ، هو مصدر كل القيم خلقية كانت أو بشرية ، هو المسير لهذا الكون ، وهو المنظم لفلك هذه الحياة ، هو الظاهر فوق الخلق ، والذى تذل له رقاب البشر وينحنى أمام جلاله دهاقين السياسة وقادة الشعوب ، هو الذى يأخذ بريقه بالابصار ويسيل له لعاب الناس فى كل الامصار، هوالنور اذا وجد، والظلمة اذا اختفى ، هو أصل الحياة ومنتهى آمال الكون ، هو الذى يهب الحماية والاستقلال ، وكل ما عداه ذل واستعباد

هو الدولار لا اله الا هو فلتخضع له العباد ولتسجد له الشعوب

ديانة امريكا الداخلية

وكان يمكن أن يكون الخطب يسيرا اذا احتفظت أمريكا لنفسها بهذه الديانة ، وذلك الاله داخل حدودها، ولكن الامر تعدى ذلك الى الخروج بهذه الديانة الى العالم لا للتبشير بها ، وانما لارغام الناس بكل الطرق على اعتناقها والايمان بها ، والا كان التهديد ، وكان الوعيد ، وتحركات الاسطول ذى البأس الشديد

اننى أكتب لك يا بنى هذه الكلمات فى مستهل ١٩٥٧ أى بعد

حوالى الخمس سنوات من الوقت الذى وقعت فيه مسألة اتفاقيتى الامن المتبادل ، ورأس المال ، وخلال هذه السنوات الخمس وقعت تطورات هائلة أحدثت تغييرا شاملا فى تاريخ البشرية

ومع ذلك فالسياسة الامريكية ، التى قلت لك ان لها أهدافا محددة مرسومة ، لا زالت فى سنة ١٩٥٧ كما كانت فى سنة ١٩٥٢ بل زادت سوءا وتبجحا بعد ان كانت فى الماضى تصطنع بعض الحياء

ويقينى يا بنى ان ذلك يرجع الى عدة اسباب منها :

أولا : ان الاله الذى اتخذته امريكا لنفسها اله ابكم واعمى وأصم وهو الدولار ، فبينما يغفر الاله الذى نعرفه نحن فى بقية انحاء العالم ، فان اله أمريكا لا يرحم لانه من مادة عناصرها الجشع والطمع والسيطرة

وبينما يحب الاله ، الذى نعرفه ، البشرية جمعاء لافرق بين أبيض ولا أحمر ولا أسود ولا أصفر

نرى اله امريكا لا يحب الا ذاته ويعتقد ان البشر قد خلقوا للتزلف له والمهانة بين يديه

ولعل هذا يفسر الغرور الذى تتسم به تصرفات أمريكا فى السياسة بل وفى أبسط مظاهر الحياة ، وكأن الله لم يخلق شعبا أوتى من كل شىء الا هذا الشعب

اله أمريكا هو اله الصهيونية

ومن هذه الاسباب أيضا سيطرة الصهيونية العالمية المطلقة

على كل شيء فى أمريكا

وهذا الامر لم يأت اعتباطا ولا من قبيل المصادفة ، فاله الصهيونية هو نفس اله أمريكا .. هو الدولار

وخطط أمريكا هى نفس خطط الصهيونية التى تهدف الى السيطرة على العالم

وضمير أمريكا مشتق — للأسف — من ضمير الصهيونية الذى لايعترف بالعدالة ، ولا بالقيم ، ولا بالحقوق

فالعدالة فى نظر امريكا والصهيونية تعنى ان كل جريمـــة ترتكب لمصلحة أمريكا أو الصهيونية هى عدل وحق ، وكل فضيلة على وجه الارض لا تعود على أمريكا والصهيونية بالمغانم والمكاسب فهى رذيلة مذمومة مهما كان راى الشرائع والاديان

ان هذه النقطة بالذات ، وهى سيطرة الصهيونية على امريكا تشكل المحور الاساسى لعلاقاتنا مع امريكا ، وتفسر الكثير من تصرفات امريكا المتناقضة والتى ستظل متناقضة وعمياء حتى يكتب الهنا الحقيقى لامريكا الخلاص ان كان لها خلاص

لقد اعترف «ترومان» رئيس أمريكا بقيام دولة اسرائيل من قبل أن تعلن العصابة الصهيونية فى تل أبيب قيامها، وخرجت صحافة العالم فى اليوم التالى تحمل صورة رئيس امريكا وهو يحتضن العلم الاسرائيلى اعلانا للعالم بأن الدولة الجديدة ربيبة أمريكا .. ومن صنع يديها .. وفلذة من فلذات كبدها

ولم تحفـل أمـريكا أن يكون قيـــام هــــذه الدولة على أرض مغتصبة .. وحقوق مسلوبة .. وأشلاء وجماجم ومذابح

يندى لها جبين البشرية ، بل على العكس من ذلك لا زالت أمريكا الى هذه اللحظة يا بنى تغدق على اسرائيل كل شىء حتى بعد ان دمغها العالم كله بالعدوان والخيانة والغدر ، فقد كافأتها امريكا على العدوان باعتماد المساعدات جهارا نهارا لكى يستقيم اقتصاد اسرائيل الذى حطمه العدوان ، وكافأتها برسالات الاغذية والقمح التى أرسلت الى اسرائيل مجانا فى الوقت الذى رفضت فيه أمريكا نفسها أن تبيع مصر قمحا بحرمالها، وأدوية كان الشعب فى حاجة اليها ، ومصر هى المعتدى عليها واسرائيل هى المعتدية

استنكر الناس حتى الامريكان

وقد تعجب يا بنى حين تقرأ هذه الكلمات من هذا المنطق الامريكى السخيف المغرور ، ولكن هذه هى الحقيقة التى نعيش فيها اليوم ، وأمريكا لا زالت تعتقد انها تستطيع ان تشترى كل شىء بالدولار حتى الضمائر والخلق والكرامات ، وسترى يابنى انه خلال المراحل الثمانى التى أروى لك قصتها والتى بدأت بمرحلة الآمال ، أقول، سترى يابنى ان هذا المنطق الامريكى المقلوب المغرور ظل يوجه سياسة أمريكا فى كل مرحلة منها الى أن انتهى بأمريكا الى نوع من الهستيريا جعلها تخرف فتتهم الوطنية بأنها شيوعية دولية وترسل بأكبر حاملة طائرات فى العالم الى البحر الابيض المتوسط لكى تؤكد للدول العربية الصغيرة قوتها وبأسها فى مشهد أضحك الناس ، واستنكره العالم بما فيه بعض الامريكيين انفسهم

ولنعد يابنى الى مرحلة الآمال

فانه بالرغم من المعانى التى خرجنا بها من قصة اتفاقية الامن المتبادل ، ورأس المال ، فاننا لم نفقد الامل فى أمريكا، وكنا قد انتقلنا الى سنة ١٩٥٣ ، وقلنا لعل أمريكا تريد أن تجس نبضنا بهذه الاتفاقيات كما فعلت مع غيرنا ولعلها بعد أن تلقت ردنا بالرفض أن تعود الى رشدها وتعرف اننا لن نقبل اية سيطرة أجنبية تحت اسم أو ستار ، وان الدولار بالنسبة لنا لا يعنى أكثر من أنه دولار ، ولن يكون آلها لنا نعبده من دون الله

الكشف الذى طلبته أمريكا

ثم حدثت مفاجأة جديدة . . فقد أرسلت الحكومة الامريكية تطلب منا ان نوافيها بكشوفات الاسلحة والمعدات التى نريد شراءها لاستكمال تسليح الجيش ، واعتقدنا ان تغييرا لابد قد حدث فى العقلية الامريكية معناه ان أمريكا بدأت تتفهم موقفنا وانها تريد صداقتنا ، وأعددنا الكشوف فعلا وكنا قد تعبنا من قبل فى اقناع الامريكان اننا لا نريد السلاح لنعتدى به على احد بل لندافع به عن انفسنا ، فنحن نريد ان نبنى بلدنا ولن نستطيع ابدا أن نبدأ البناء والتهديد قائم على حدودنا ، وفى قلب وطننا العربى ، وأرسلنا هذه الكشوف الى الحكومة الامريكية وجلسنا نمنى النفس بالآمال من جديد

ولم يمض وقت طويل حتى جاء رد الحكومة الامريكية .. لقد كان هذا الرد ايذانا ببدء فترة من فترات المطاولة وكسب الوقت من جانب امريكا حتى تعدل خططها لكى تصل الى نفس

اهدافها المرسومة ، ولكى نظل نحن فى الحلم اللذيذ فلانفيق أبدا حتى لا ندرك الحقيقة

فماذا قالت الحكومة الامريكية فى ردها ؟

جاء رد الحكومة الامريكية يا بنى يقول : انها تلقت كشوفات السلاح المطلوبة للقوات المسلحة المصرية ، وأنها ــ أى الحكومة الامريكية ــ وقد أعدت فعلا بعض هذه الاسلحة للشحن .. فانهــا ترى أن تقوم بعثة من الضباط المصريين لمعاينــة هذه الشحنات قبل شحنها فى أمريكا ، ومن جهة أخرى .. فان هذه البعثة تستطيع أن تعـــاين أيضا مختلف الانواع الاخرى من الاسلحة الامريكية .. التى لم تعد بعد للشحن .. وأية اسلحة أخرى قد تكون ذات فائدة ، ولم ترد فى الكشوف المصرية

ولم نضيع دقيقة واحدة بعد وصول هذا الرد ، فقد عينت القيادة العامة أفراد البعثة المصرية..وزودتها بكافة التعليمات اللازمة ، ومن جهة أخرى بدأت السلطات المصرية فى دراسة التفاصيل المالية الخاصة بهذه الصفقة مع السفارة الامريكية .. فالصفقة لم تكن معونة ولا هبة .. وانما كان الاتفاق على ان تكون صفقة تجارية بحتة لا دخل فيها للسياســة ولا للقيود او المساومات

سفر البعثة

وسافرت البعثة الى أمريكا ، وفى كل يوم كنا نترقب أنباءها فى شوق ولهفة .. برغم انه لم يكن قد مضى على قيام الثورة الا شهور ... وكان الوضع الداخلي يستحوذ كل اهتمامنــا

وأوقاتنا ، ولكننا كنا نؤمن من أول يوم أن أى بناء فى الداخل سوف يكون بناء على الرمال اذا لم يكن للشعب جيش يستطيع أن يدفع عنه العدوان من الخارج ·· وعدونا ليس بعيدا عنا·· وانما يقبع على حدودنا ويتربص بنا ليل نهار ، بل ان هـذا العدو يتلقى كل يوم طوفانا من المعونات .. تارة على شـكل أموال ، وتارة أخرى على شـكل سـلاح وعتاد ·· لكى يكبر وينمو ويفرض وجوده بالحرب والعدوان

مفاجأة

وبينما نحن ننتظر البعثة التى سافرت لكى تعاين الاسلحة كما طلبت امريكا ، فوجئنا فى يوم بعودتها من أمريكا ثم جلسنا نستمع الى تقرير اعضائها

فلم يكن هناك سلاح معد للشحن

والذى سمح للبعثة أن تعاينه لم يكن الا انواعا من الاسلحة الصغيرة التى لم نطلبها ولسنا فى حاجة اليها البتة

وأكثر من ذلك ، فان البعثة أوضحت كيف أهملت من جانب الحكومة الامريكية اهمالا تاما ، وكيف ان المسئولين الامريكيين الذين احتكوا بأفراد البعثة فى الحفلات الخاصة كانوا لا يعلمون شيئا عن هذا الموضوع ، بل أكثر من ذلك أحس أفراد البعثة بحذر شديد من كل من قابلوه من المسئولين الامريكيين ، ولما سألوا عن الكشوفات المصرية التى ارسلت للحكومة الامريكية كطلبها ، لم يرد عليهم أحد بخير أو بشر ·· وتركوا عاطلين فى واشنطن لا أحد يتصل بهم ، ولا أحد يجيبهم اذا سألوه

وهكذا اتضح لنا يابنى أن الامر لم يكن الا نوعا من التخدير ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه السفارة الامريكية هنا فى مصر لاتزال تبذل الوعود ، وتطلق البخور ، وتبشر بالخير العميم والآمال العظام

محاورات أمريكا

لقد وصلنا الى هذا الموقف فى مستهل عام ١٩٥٣ .. أى بعد مرور ستة أشهر فقط على قيام الثورة ، ومع ذلك لبثت أمريكا تحاور وتناور طوال سنة ١٩٥٣ ، وسنة ١٩٥٤ بغرض كسب الوقت وتخديرنا أطول فترة ممكنة حتى تأتى اللحظة الحاسمة فنسلم لها فيما تريد من استقلالنا،وسيادتنا ، ومصيرنا

ففى مارس سنة ١٩٥٣ بدأت مفاوضات السودان بيننا وبين بريطانيا وانتهت بتوقيع اتفاقية السودان ، وتلا ذلك مفاوضات الجلاء بيننا وبين بريطانيا فى نفس الصيف من هذا العام ،ولم تضيع أمريكا هذه الفرصة فطلبت الينا أن نؤجل موضوع الاسلحة الى ما بعد الوصول الى اتفاق بيننا وبين بريطانيا ، وقالت فى تبرير ذلك — ان الانجليز هم حلفاؤها الأول ، وان المفاوض البريطانى سوف يحس بالحرج حين يرى الاسلحة ترد الى مصر فى الوقت الذى لم يتفق فيه على الجلاء ، وقد يظن البريطانيون ان فى هذا العمل تغليبا للمفاوض المصرى على البريطانى .. وطلبت منا أمريكا أن نقدر ظرفها على أن نكون واثقين تمام الثقة أنه فى اليوم الذى نوقع فيه اتفاقا مع بريطانيا — فان أمريكا ستبادر وتبيعنا كل ما نريد من أسلحة

ووافقنا على هذا العرض من جانب أمريكا

فان موافقتنا أو عدم موافقتنا لم تكن تجدى بعد ان اتضح لنا ما اتضح من نوايا أمريكا بعد حكاية ميثاق الامن المتبادل ، واتفاقية رأس المال ، والبعثة المصرية . ولا أقول اننـــا فقدنا الامل نهائيا من ناحية أمريكا فى تلك الظروف وانما قلنا المثل العامى عندنا « خليك مع الكداب لحد باب الدار »

وبدأت مرة أخرى فترة مزدهرة من فترات مرحلة الآمال

فقد بدأت المفاوضات بيننا وبين بريطانيـــا فى صيف سنة ١٩٥٣ من أجل الجلاء فى جو كئيب مظلم،وبدأت بريطانيا،كما كنا نتوقع تماما ، بداية لا يمكن معهـــا المضى شبرا واحدا ، فبريطانيا تؤمن بالمساومة كخلق وكمبدأ ، ونحن نرفض المساومة ونعتبرها خلقا رديئا لا يستقيم مع الشرف ولا مع المبادىء

وأمر آخر

ان بريطانيا حين تساوم فى قضية كقضية الجلاء فانها تساوم على شيء لا يخصها ولا تملكه ، وهى مصر،ولكن مصر حين تقبل مبدأ المساومة فانهـــا تكون قد سلمت فى كل شيء ، لان أية مساومة . . مهما كانت ضئيلة تعنى ان تعطى مصر ، واذا أعطت مصر تكون قد جزأت سيادتها ، ولما كانت السيادة لا تتجزأ . . فان النتيجة هى أن مصر تكون قد سلمت فى أعز شيء وهو السيادة فى الوقت الذى لن يفقد فيه الطرف الآخر شيئا على الاطلاق لانه ــ فضلا عن تمسكه بسيادته ــ يفرض على بلدنا ايضا هذه السيادة

قالوا عمك جمال دكتاتور !

انهم يقولون فى مسألة تأميم القناة .. ان عمك جمال صلب ويثير المتاعب لانه لا يقبل المساومة .. ثم يكملون القصة بأن عمك جال دكتاتور لانه يريد ان يملى ارادته

وحتى اذا سلمنا ان المساومة لا تتعارض مع الشرف ، ففى أى شىء كان سيساوم عمك جمال فى القناة ؟

ان القنـــــاة ملك لمصر وجزء لا يتجزأ منها .. باعتراف كل المعاهدات الدولية ، واعتراف بريطانيا وامضائها فى أكثر من معاهدة

ومصر أممت شركة القناة .. وهى شركة مصرية تخضع للقانون المصرى

ومصر التزمت ــ بعد التأميم ــ بأن تباشرجميع المسئوليات التى كانت تقوم بها الشركة المؤممة ، وأعلنت على لسان عمك جمال رسميا تمسكها بمعاهدة ١٨٨٨ الخاصة بحرية الملاحة

فماذا بقى ليساوم عليه عمك جمال يا بنى .. كما يريدون ؟

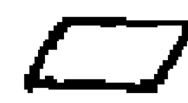
أرادوا فرض استعمار جماعى

لم يبق الا شىء واحد هو ان يسلم لهم عمك جمال فيما كانوا يريدون قبل العدوان ، وأثناء العدوان وبعده ، وهو ان يفرضوا

على مصر استعمارا جماعيا تحت اسم «اللجنة الدولية» ـ بعد أن كان هذا الاستعمار استعمارا انجليزيا فقط ـ تشترك فيه هذه المرة أمريكا وفرنسا وتوابعهما وذيولهما الذين يعيشون على الصدقة والاستجداء

ورحم الله الخجل .. ورحم الله الحياء

أعود بك الى حديثى يا بنى ، ففى الفترة الباقية من مرحلة الآمال ، أى من صيف سنة ١٩٥٣ الى ان وقعت اتفاقية الجلاء التى نسفها العدوان ، أقول كان سلوك أمريكا فى هذه الفترة مشرقا باسما



فقد استمرت هذه المفاوضات قرابة سنة ونصف ، كانت بريطانيا تبذل فيها كل جهدها وتصطنع صنوفا من الحيل والخداع ، لكى تجعل لها فى سيادة مصر حقا ، وانقطعت هذه المفاوضات أكثر من مرة ، بل اننا فى نهاية عام ١٩٥٣ .. وبعد أن قطع عمك جمال المفاوضات للمرة الثانية ، اجتمعنا وقررنا القيام بمعركة مسلحة لطرد بريطانيا من مصر وحددنا لهذه المعركة شهر يناير سنة ١٩٥٥ ، وكلف جميع الوزراء فى هذا الاجتماع بتوجيه سياسة وزاراتهم نحو انجاز هذه المعركة

فى هذه الفترة بالذات بدت أمريكا ـ كما قلت لك يا بنى ـ مشرقة باسمة

وقد حكيت لك يا بنى فيما مضى عن سفير أمريكا فى ذلك

الوقت وهو المستر كافرى ، وأعود مرة أخرى فأقول ان هــذا الرجل كان يبذل كل ما يستطيع لكى يصحح اخطاء واشنطن عن فهم وادراك لا لنفسيتنا وحدها وانما لمصلحة امريكا ذاتها

دور أمريكا فى مفاوضات الجلاء

واليوم ، وبعد كل هذه السنين والتجارب استطيع أن أقرر لك يا بنى حقيقة الدور الذى قامت به أمريكا فى خلال مفاوضات الجلاء بين مصر وبريطانيا

لقد قدمت أمريكا مساعدة ادبية لمصر فى هذه المفاوضات وهذه حقيقة

ولــكن هل كانت أمريكا تؤمن بحق مصر وهى تقــدم هذه المساعدات ؟

ان الواضح يا بنى أن امريكا أخذت بمشورة سفيرها كافرى ولكن لأغراض أخرى هى نفس الاغراض التى تريد أمريكا أن تحققها اليوم بعد أن فشلت بريطانيا ، وفرنسا فى عدوانهما على مصر

لقد كانت أمريكا تريد دائما ، يا بنى ، ولا زالت الى هذه الساعة التى أكتب لك فيها هذه السطور فى عام ١٩٥٧ ، اقول كانت امريكا تريد أن تفرض سيطرتها على مصر بوسائل تظن أنها تخفى على الناس فى الوقت الذى أصبحت فيه سخرية كل الناس

العدوان السلمى

بدلا من ان تستخدم أمريكا وسائل بريطانيا الاستعمارية العتيقة المكشوفة ، نراها تلجأ الى وسائل جديدة لكى تحقق لنفسها أهداف الاستعمار البريطانى المنهار

كانت بريطانيا تطلق على اغتصابها لأرض الغير ، وابقاء جنودها وقواعدها فيها كلمة « احتلال »

وأمريكا تطلق اليوم على نفس العمل كلمة « أمن متبادل »

وكانت بريطانيا تتحكم فى أرزاق العباد بسيطرتها على منطقة الاسترلينى

وأمريكا تريد اليوم ان تتحكم فى أرزاق العالم كله بسيطرتها على البنك الدولى

وكانت بريطانيا ولا تزال تتوسل الى تحقيق أهدافها فى البلاد الاخرى بأحداث الفتن والانقلابات والمؤامرات تحت اسم مصالح الامبراطورية البريطانية

وأمريكا تفعل اليوم نفس الشىء بصورة أكبر وابشع تحت اسم « الخطر الشيوعى » تارة و « الشيوعية الدولية » تارة اخرى

ولما فشل عدوان بريطانيا وفرنسا فى تحقيق اهدافه فى مصر قامت أمريكا لتحقق نفس أهداف العدوان ولكن بطرق سلمية

فقد رفضت أن تفرج عن أرصدة مصر ، ورفضت أن تبيع لنا القمح والدواء ونحن معتدى علينا في الوقت الذي وهبته لاسرائيل المعتدية لا لشيء الا لفرض حصار اقتصادى تتوهم أمريكا انها ستفلح بمقتضاه فى اسقاط عمك جمال عبد الناصر وهو نفس هدف عدوان بريطانيا وفرنسا

وأمريكا تردد على لسان المسئولين فيها ، وعلى رأسهم أيزنهاور نفسه ، بحق اسرائيل فى استخدام قناة السويس وخليج العقبة اعتقادا منهم ان ذلك سيخلق ضغطا سياسيا على مصر يجعلها تسلم فى النهاية لمطالب اسرائيل وأطماعها ، وهو نفس هدف عدوان بريطانيا ، وفرنسا ، واسرائيل

وأمريكا تعلن على لسان وزير خارجيتها تأييدها لفرنسا ضد المجزرة البشرية التى ترتكب ضد عرب الجزائر ، وتعلن أيضا عن تصميمها على تزويد فرنسا بالمزيد من الاسلحة لكى تستمر هذه المجزرة ، وتحرك أسطولها ـ فى نفس الوقت ـ فى البحر الابيض المتوسط للتهديد والوعيد لكى تفتت العالم العربى وتفرض عليه نفوذ الغرب . . وهو نفس هدف عدوان بريطانيا وفرنسا

وأردت من سرد هذه المقارنات يا بنى أن أقول لك ان أهداف أمريكا فى عام ١٩٥٢ يوم قيام الثورة هى نفس أهداف أمريكا عام ١٩٥٧ بعد فشل العدوان ، وان أية مساعدة تقدمها امريكا ليست لله

ولقد قدمت لنا أمريكا يا بنى مساعدة فى مفاوضات الجلاء ، فماذا كان الثمن الذى طلبته ؟

المرحلة الثانية : مرحلة التضليل

من عادتى ان احتفل بعيد مولدى على غير ما تعود الناس ان يحتفلوا بأعياد الميلاد ، فأنا أركن فى هذا اليوم من كل سنة الى الوحدة ، والتأمل ، التأمل فى الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، بل اننى أستعيد كل ما مضى من حياتى منذ ان بدأت أدرك الاشياء واحس من حولى بهذا الكون

أستعيد كل شىء استطاعت ذاكرتى أن تختزنه او تنفعل به ، وأستعرض موكب عمرى عبر السنين الماضية بكل مافيه من مشاهد : فيها الالم وفيها الفرح ، فيها اليأس وفيها الامل ، فيها السذاجة وفيها النضج ، فيها الفشل وفيها النجاح ، فيها الخيبة وفيها اليقين ، فيها الخطأ وفيها الصواب

مشاهد فيها من كل مايحيط بالبشر ـ فى هذا الوجود ـ من صروف وانفعالات ، وترانى يابنى وأنا أستعرض هذا الموكب فى قمة النشوة وأوج السعادة، فأنا أجد نفسى وأعرفها من خلال رحلة هذا الموكب

أعرفها فى الخطأ كما اعرفها فى الصواب ، وأعرفها فى الفشل كما أعرفها فى النجاح

ومن وجد نفسه واهتدى اليها يا بنى فى خضم هذه الحياة

طابت له الايام ، وعمر قلبه اليقين ، واستطاع ان ينعم ضميره بالنور والصفاء

هكذا أعيش يوم مولدى فى تأمل لذيذ يا بنى ، وأستمتع فيه بأجمل وأشهى لحظات أعيشها على ظهر هذه الدنيا

٢٥ ديسمبر سنة ١٩٥٤

وفى يوم ذكرى مولدى سنة ١٩٥٤ الذى يوافق يوم ٢٥ ديسمبر من كل سنة جلست أتأمل على عادتى

كان الاتفاق المصرى البريطانى الخاص بالجلاء قد وقع فى شهر أكتوبر من نفس السنة وكنا نتأهب لاستقبال مرحلة جديدة فى العلاقات بيننا وبين بريطانيا وامريكا

أما بالنسبة لبريطانيا فاننا بدأنا نحس بعض الراحة بعد توقيع اتفاقية الجلاء ، اذ ان المعركة المسلحة التى كنا نعد لها لطرد بريطانيا من مصر وما يصاحبها من خسائر وتكاليف وتعويق لعملية البناء فى الداخل ، أقولَ اصبحت هذه المعركة غير ذات موضوع وهذا وحده كسب ضخم يضاف الى الجلاء ، وبدأنا نفكر فى اقامة علاقاتنا مع بريطانيا على اسس غير تلك الشكوك التى كانت تملأ صدورنا نتيجة لتصرفات بريطانيا طوال أربع وسبعين سنة متصلة من الخداع والكذب والسيطرة

وهناك عامل آخر يا بنى كان يحتم علينا ان نعيد بناء علاقاتنا مع بريطانيا ، هذا العامل هو أننا وقعنا آتفاقية الجلاء ــ وهى اتفاقية صداقة فى نفس الوقت ــ ونحن نحترم توقيعنا مهما كانت

الظروف

وأما بالنسبة لأمريكا فاننا كنا نحس نحوها بالعرفان لما قدمته من مساعدات أدت فى نهاية الامر الى توقيع اتفاقية الجلاء ، وحدت من غلواء بريطانيا أثناء المفاوضات فى مواطن كثيرة ، ولقد كان هذا الشعور مشجعا لنا لكى نعود فنطلب من أمريكا أن تنجز وعدها الذى أخذته على نفسها بالبدء فى بيع السلاح لنا عقب توقيع اتفاقية الجلاء ، ونسينا حكاية الأمن المتبادل التى صدمتنا بهاأمريكا فىالماضى ونسينا كلماساورنا من شكوك سابقة بشأن أتجاه السياسة الامريكية

آمال لم تدم طويلا

وبالجملة كان كل شىء يبشر بالأمل والخير والبركة بيننا وبين كلمنبريطانيا وأمريكا عقب توقيع اتفاقيةالجلاء فىاكتوبر سنة ١٩٥٤ ، ولكن هذه الآمال لم تدم طويلا ، اذ انه ماأن طلبنا من أمريكا أن تفى بوعدهاوتبيع لنا السلاح حتىعادت تتحدث عن حكاية الدفاع عن الشرق الاوسط ، ونظريتها فى ذلك التى تخالف نظريتنا تمام المخالفة ، والتى كانت محل خلاف لا أمل فى اصلاحه بيننا وبين كل من بريطانيا وأمريكا سواء أثناء المفاوضات أو قبلها

ولم نيأس ، وانما بدأنا نقنع امريكا من جديد بأن الدفاع عن الشرق الاوسط يجب أن ينبثق من داخله وأنيقوم به أبناؤه، وانضمت بريطانيا الى أمريكا فأخذنا نقنعها هى الاخرى على أساس انالنيات سليمة كما كانت نيتنا نحن ، وان الامر لايعدو

أن يكون مناقشة بين أصدقاء تنتهى باقتناع احد الطرفين بنظرية الآخر

حتى يتم طبخ المؤامرة

ومرة أخرى كنا سليمى النية وطيبين أكثر من اللازم يا بنى

فقد كانت أمريكا وبريطانيا قد دبرتا فيما بينهما أمرا ، ولم يكن الحديث معنا الا من باب المطاولة والتضليل حتى يتم طبخ المؤامر لكى تظهر على الملأ

بدأت هذه المؤامرة يا بنى بوصول السيد نورى السعيد رئيس وزراء العراق فى ذلك الوقت الى القاهرة ، وهو فى طريقه الى لندن ، واجرائه مباحثات مع عمك الرئيس جمال ، وكانت خلاصة حديث نورى السعيد هى انه لا سبيل للعرب الا بالتعاون مع الغرب وأن أول خطوة لذلك امضاء تحالف مع بريطانيا وأمريكا سيكون هو سبيل الحصول على الاسلحة والحماية فى هذا العالم المضطرب

وكان عمك جمال صريحا واضحا يا بنى ، فقد أفهم السيد نورى السعيد أن مصر لا ترفض تعاون الند للند القائم على المساواة التامة ، ولن تتحقق هذه المساواة ونحن ضعفاء والطرف الآخر قوى ، فالتعاون فى هذه الحالة ، معناه تحكم الغرب فينا ، كما كان يحدث فى الماضى

اما مبدأ الاحلاف فقد رفضه عمك جمال يا بنى من أساسه لأن هذه هى السياسة التى يؤمن بها شعب مصر حتى من قبل

الثورة

ثم أثار عمك جمال القضايا العربية التى بين العرب والغرب والتى يرفض الغرب بعناد أن يعيد فيها الحقوق الى أصحابها العرب

التعاون ممكن .. ولكن بشرط

وانتهى عمك جمـــال يا بنى الى ان التعاون ممكن فى كل الظروف بشرط ان تخلص النيات

وشرح للسيد نورى السعيد نظريتنا فى الدفاع عن الشرق الاوسط والتى سبق شرحها مرارا لبريطانيا وأمريكا ، وأن العدو الحقيقى لهذه المنطقة ليس هو الذى يعيش على بعد آلاف الاميال ، وانما هو اسرائيل التى تقبع فى قلب الامة العربية وفى قلب الشرق الاوسط

ولم يقتنع السيد نورى السعيد طبعا ، ولكنه قال فى ختام حديثه انه ذاهب الى لندن لكى يستبدل المعاهدة العراقية ـ البريطانية باتفاق كالاتفاق الذى وقعته مصر مع بريطانيا بشأن الجلاء ، وسافر السيد نورى السعيد الى لندن ثم عاد الى تركيا

حدث كل هذا فى الشهرين الاخيرين من سنة ١٩٥٤ أى فى نوفمبر ، وديسمبر سنة ١٩٥٤ وايراد هذه التواريخ مهم يا بنى لانك ستحتاج اليها

اول قرار علنى بالاجماع

وفى ديسمبر سنة ١٩٥٤ حدث حادث آخر ، له دلالته من

وجهة نظر علاقات العرب بالغرب

فقد اجتمع وزراء خارجية الدول العربية فى القاهرة فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٥٤ ، على ما اذكر ، وقرروا لاول مرة علنا أن التعاون مع الغرب ممكن بشروط : منها تسوية القضايا العربية، ومنها ان يمد الغرب العرب بأسباب القوة

والمهم فى هذا القرار انه اول قرار يصدر علنا وبالاجماع وينشر على الشعوب العربية كلها ، وفيه امكان التعاون مع الغرب برغم ما بين هذا الغرب والشعوب العربية من ثأر على راسه مشكلة فلسطين ، ولكن بريطانيا وامريكا فهمتا هذا القرار بطريقتهما الخاطئة دائما فاعتقدتا ان العرب يسلمون كعادتهم ، وبدلا من ان تبحث كل من بريطانيا وامريكا شروط هذا التعاون وتزيلا أسباب الخلاف بدأتا فى اظهار المؤامرة الى حيز الوجود

فما ان جاء شهر يناير سنة ١٩٥٥ وانقضت منه عشرة أيام حتى وقف نورى السعيد يعلن عن امضاء ما يسمى بحلف بغداد فى نهاية زيارة رئيس وزراء تركيا لبغداد فى ذلك الوقت

وهكذا أعلنت المؤامرة التى كانت تطبخ فى أمريكا، وبريطانيا منذ وقت طويل

وبدأنا نستعيد الشريط

وهكذا اتضح أن حديث أمريكا معنا عن الصداقة منذ الايام الاولى للثورة لم يكن الا ستارا خداعا ، وان وعودها ببيع السلاح لنا لم تكن الا مطاولة لكسب الوقت حتى تتمكن من تنفيذ مشروعاتها فى المنطقة ووضعنا أمام الامر الواقع، فاما أن

نسلم واما أن نموت

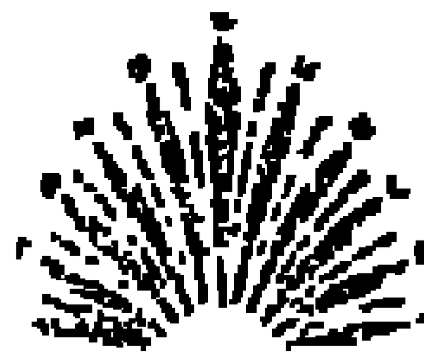
وبدأنا نستعيد الشريط من جديد

أمن متبادل ..

اتفاقية رأس المال

وعود لا قيمة لها ولا حساب

وهكذا انتهت المرحلة الثانية .. مرحلة التضليل بظهور حلف بغداد الاستعمارى المشئوم



الفصل الثامن

* المرحلة الثالثة : مرحلة ظهور النوايا
* المأساة التى شهدتها القاهرة
* مساومات على الشرف

المرحلة الثالثة
مرحلة ظهور النوايا

لقد ظنت أمريكا وبريطانيا يا بنى أننا سنسلم أمام الامر الواقع ، حينما يظهر حلف بغداد الى الوجود، كما حدث في شهر يناير سنة ١٩٥٥ .. أو لعلهما اعتقدتا اننا لن نفطن الى أهداف هذا الحلف ، ولكننا على العكس من ذلك عارضناه ولا نزال نعارض هذا الحلف لاسباب كثيرة منها :

أولا : ان صانعي هذا الحلف هم الذين صنعوا اسرائيل وهم الانجليز والامريكان ... واسرائيل يقولون عنها انها وجدت لتبقى ، أى انها فى نظرهم دولة من دول الشرق الاوسط الذين يدعون ان هذا الحلف وجد لخدمة أغراض السلام فيه والدفاع عنه ، فقبول الدخول فى هذا الحلف معناه اعتراف كامل باسرائيل من ناحيتنا ، خاصة وان الذين صمموا هذا الحلف جعلوا العدو الوحيد الذى يشكل الخطر على المنطقة هو روسيا ... ومفهوم طبعا أن هذا الامر فضلا عن انه يخدم اهداف امريكا ، فانه ايضا يخدم — فى الدرجة الاولى — اسرائيل ، لأن أنظار العرب ستتحول عنها الى روسيا — العدو الوهمى — التى تقع على بعد آلاف الاميال من المنطقة

ثانيا : ان الشعب المصرى يرفض كمبدأ الدخول فى الاحلاف

أيا كانت ... ويصبح هذا الرفض عنادا واصرارا اذا ما طلب اليه ان يدخل فى شركة مع بريطانيا التى عرفناها اربعا وسبعين سنة ودخلنا معها فى شركة بمقتضى معاهدة سنة١٩٣٦فكانت هذه المعاهدة حبرا على ورق .. لان التعاقد بين طرفين غير متكافئين معناه سيطرة الطرف الاقوى على الطرف الضعيف ، واملاء الأوامر عليه ، والتصرف فى مصيره ، وهو ما يسمى بالاستعمار

ثالثا : اننا دولة صغيرة توشك أن تتخلص من السيطرة الاجنبية التى عطلت الشعب وتقدمه .. ونريد أن نبنى بلدنا لكى لا نظل متخلفين كما تصفنا بريطانياوأمريكا ، ولا مصلحة لنا فى معاداة أحد فى هذا العالم ، ولا مصلحة لنا أيضا فى الانحياز الى كتلة دون أخرى من الكتل المتصارعة فى هذا العالم .

هذه بعض الاسباب التى جعلتنا نهب لمعارضة هذا الحلف شعبا وحكومة ، وهذه هى نفس الاسباب التى جعلتالشعوب العربية كلها تعارض الحلف وتثور عليه .

المأساة التى شهدتها القاهرة

ولقد وضحت نيات أصحاب هذا الحلف من أول يوم عندما أعلنوا صراحة تصميمهم على جر الدول العربيةكلها الى عربته ، عندئذ أصبح واضحا ان الهدف الاساسى من هذا الحلف الذى بدأ الدعوة اليه نورى السعيد ــ عميل بريطانيا الاول ــ انما هو السيطرة الاستعمارية وليس الدفاع عن الخطر الوهمى

فقد انطلق الدبلوماسيون البريطانيون والامريكان في سفارتي بريطانيا وأمريكا من أكبر واحد الى أصغر واحد ، أقول انطلقوا يا بني يؤكدون لنا في مناسبة وغير مناسبة جهل حكومتي بريطانيا وأمريكا بأمر هذا الحلف الذي أعلنه نوري السعيد ، وكان الدبلوماسيون البريطانيون يقسمون بكل شيء في حماس غريب لكي يثبتوا براءة حكومتهم ، ولكننا لم نلبث أن سمعنا ايدن ـ رئيس وزراء بريطانيا وقتذاك ـ يعلن في مجلس العموم البريطاني .. وفي ثورة غضب ، أنه هو صاحب فكرة حلف بغداد..وان الحلف قام لكي يجعل لبريطانيا مركزا ممتازا في هذه المنطقة

وهكذا أثبتت بريطانيا يا بني قبل مضى ستة أشهر على امضاء اتفاقية الجلاء والصداقة معنا أن العقلية الاستعمارية البريطانية هي التي تضع الخطط ، وان مفهوم الصداقة عند بريطانيا هو الخضوع لاوامرها والدخول في أحلافها والتسليم لسيطرتها وتحكمها ، وان بريطانيا كعادتها كانت تمد احدى يديها لمصافحتنا في الوقت الذي تحمل فيه في اليد الاخرى خنجرا مصوبا الى ظهرنا .. لقد فعلت بريطانيا ذلك مع العرب سنة ١٩١٧ حينما كانت تفاوض الشريف حسين في شأن استقلال العرب ووحدتهم في نفس الوقت الذي كانت تفاوض فيه اليهود لاقامة وطن قومي لاسرائيل ، والذي مهد له بوعد بلفور المشهور

وستظل بريطانيا وأمريكا تفعلان ذلك مع كل شعب ضعيف،

فستعلم يا بنى من روايتى لك ان الامر فى العلاقات الدولية لم يعد امر خلق أو مبادىء .. وانما المسألة مسألة قوى وضعيف، غنى وفقير

مساومات على الشرف

ستعلم يا بنى ان البشرية تجتاز محنة عصيبة فى زماننا هذا على يد حلفاء الغرب وأمريكا بالذات • فاما أن يخضع الناس لهم بالحديد والنار ، واما أن يساوموا الناس على شرفهم وأوطانهم بالذهب والدولار

وأعود الى حديثى يا بنى فأقول ، بدأنا نعيد تقدير موقفنا من انجلترا وأمريكا على ضوء هذا الحدث الجديد وظلت مقاومتنا تشتد وتعنف ، الى أن وقع حدث آخر كان هو نقطة التحول التاريخية فى حياة مصر كدولة مستقلة كاملة السيادة ، بل ان أثر هذا الحدث كان عميقا ومدويا فى العالم كله بحيث أصبح من الاحداث التى سيسجلها التاريخ على انها نهاية تاريخ ، وبداية تاريخ

كان هذا الحدث هو عدوان اسرائيل على غزة فى ٢٨ فبراير ١٩٥٥

ولقد وصف مجلس الامن هذا العدوان بأنه «عدوان وحشى ومدبر »،وأعلنت حكومة اسرائيل بعد ذلك فى تحد وخيلاء انها دبرت هذا العدوان ، وبرغم كل هذا لم تحرك أمريكا ساكنا ولم تحرك بريطانيا ساكنا .. ومرت المسألة برغم قرار مجلس الامن كما لو كان أمرا عاديا

ناقوس الخطر الذى دق

أما بالنسبة لمصر يابنى فان هذا العدوان كان بمثابة ناقوس الخطر المروع لاعتبارات عديدة

منها ان توقيت وقوعه جاء فى ابان اشتداد معارضة مصر لحلف بغداد ، وحديث أمريكا عن الصلح مع اسرائيل،وضرورة تصفية القضية بينها وبين العرب

ومنها ارتباط حياة اسرائيل ووجودها بمساعدات أمريكا واحسانها ، ولا يمكن أبدا أو يعقل أن تأتىاسرائيل بمايغضب أمريكا أو يثيرها ، أما أمريكا فقد اكتفت بأن يصدر مجلس الامن قراره واعتبرت أن الموضوع منته

ومنها أيضا ان السلاح الذى تعتدى به اسرائيل أمريكى وبريطانى تحصل عليه اسرائيل بمنتهى السهولة ويدفع ثمنه فى أمريكا من الهبات التى تغدق على اسرائيل بدون حساب وهى هبات معفاة من الضرائب بقانون أصدره ترومان راعى فيه مصلحةاسرائيل،هذا فىالوقتالذى ظلت فيه أمريكاتضحك على دقوننا ثلاث سنوات كاملة فلم تبع لنا قطعة سلاح واحدة بل وعدت،ثم راوغت ، ثم سكتت،فى الوقت أيضا الذى كانت بريطانيا قد تسلمت فيه ملايين الجنيهات من مصر ثمنا لصفقة من الاسلحة ولكنها لم تورد منها الا جزءا ضئيلا جدا ولم تبد سببا واحدا معقولا لتأخيرها عن توريد الباقى بعد ان قبضت الثمن كاملا .

ومنها أيضا محاولة اذلال مصر التى ظهرت فى صحف

بريطانيا ، وأمريكا ، وفرنسا ، تلك الصحف التى أخذت تشيد بقوة اسرائيل وتفوقها على الدول العربية مجتمعة ، واسرائيل مليون ونصف ، والعرب أربعون مليونا تبلغ مصر وحدها ثلاثة وعشرين مليونا

اذن فعملية التحكم فى بيع السلاح لنا خطة موضوعة

وحكاية التصريح الثلاثى المشهور الذى صدر فى سنة ١٩٥٠ ـ ولم نعترف بهـ هو أيضا جزء من تلك الخطة ، هدفه هو تزويد اسرائيل بالسلاح والقوة ، وحرمان العرب من هذا السلاح وتلك القوة

وحديث الصلح مع اسرائيل الذى تبدؤه أمريكا دائما كلما فتحنا موضوع الاسلحة ، وعدوان اسرائيل الذى يمر مر الكرام

وهكذا اتضح لنا بعد عملية حساب بسيطة ان أمريكا لن تبيعنا قطعة من السلاح الا اذا وقعنا الصلح مع اسرائيل التى تتحدى مجلس الامن ، وتعلن رسميا أنها دبرت العدوان الذى وصفه ذلك المجلس بأنه « وحشى »

وان بريطانيا التى وقعت معنا ـ منذ شهور قليلة ـ اتفاقية الجلاء والصداقة سوف لا تورد لنا الاسلحة التى قبضت ثمنها بالكامل لأن بريطانيا هى شريكة أمريكا الاولى وحليفتها وصانعة اسرائيل معها ، وزعيمة حلف بغداد ، وصاحبة فكرته ، كما قال رئيس وزرائها فى مجلس العموم

كانت لأمريكا وبريطانيا خطة اذن ، وأصبح لابد لنا نحن الآخرين من خطة مضادة بعد أن وضحت النوايا سافرة

كانت خطة أمريكا وبريطانيا هى التحكم فينا عن طريق بيع السلاح واحتكاره ، وكانت خطتنا هى تحطيم هذا الاحتكار الى الابد ، ونسف أسطورة التحكم والسيطرة عن طريق بيع السلاح من الموردين التقليديين كما كانوا يظنون

ان المسألة أصبحت لنا مسألة حياة أو موت يا بنى

فاما أن نسلم لامريكا وبريطانيا ونعقد صلحا مع اسرائيل بشروطها ، وتنتهى فلسطين وينتهى معها مليون من اللاجئين ، واما أن نحرم من السلاح فتعتدى علينا اسرائيل ثم تغزونا آخر الامر ، ويصبح اللاجئون اربعة وعشرين مليونا من النيل الى الفرات

واما أن ندخل أحلاف أمريكا وبريطانيا ونعود مرة أخرى الى ذلك الطوق الاستعمارى البغيض فنتلقى الاوامر من جديد، ونرسل بأبنائنا الى الحرب كما يريدون ، واما أن نحرم من السلاح والحماية فلا يكون أمامنا من سبيل الا أن نطلب الحماية

وعيب الاستعمار يابنى أنه يغتر دائما فى قوته وجبروته ولا يحس أو يعترف بارادة الشعوب ، فلقد ظلت أمريكا وبريطانيا فى حلمهما اللذيذ الذى صور لهما ان مصر لابد راكعة على ركبتيها ان آجلا وان عاجلا ، وظنوا أيضا ويظنون الى يومنا هذا فى سنة ١٩٥٧ـ وأغلب الظن أنهم سيظلون على ذلك الظن ـ ان الله لم يخلق على الارض سادة الا منهم أما باقى البشر فلابد أن يكونوا عبيدا لهم ، تماما كالعقيدة التى تؤمن

بها عصابات اسرائيل من انهم شعب آلله المختار وان ما خلقه الله من دون اليهود ليس الا خدما لهم ، هم والارض والزرع ملك لهم

وقررنا خطتنا فى مارس سنة ١٩٥٥ يابنى ، وجعلنا لهـا غرضا محددا هو انه لابد من الحصول على السلاح ، فقد كان السلاح هو آخر مظهر من مظاهر التحكم والسـيطرة أرادت بريطانيا وأمريكا أن تحتفظا به لأولادنا وأخضـاعنا وقتمـا تريدان

ثم سافر عمك جمال يا بنى فى مايو سنة ١٩٥٥ الى باندونج لتمثيل مصر فى ذلك المؤتمر التاريخى ، وهناك أعلن العـالم كله بحضور ممثلى الدول الاسيوية والافريقية سياسـة مصر التى تقوم على الحياد الايجابى ، والاعتراف بحق تقرير المصير، وستقرأ يا بنى كثيرا عن هذا المؤتمر الذى أصبح رمزا للتحرر ومقاومة الاستعمار ، وكان المغزى العميق لهـــذا المؤتمر هو اجتماع ثلاثين دولة من آسيا وافريقيا لاول مرة فى التاريخ بعد أن تخلصت من نير السيطرة الاجنبية والاستعمار ، ولم يسمح للدول الـكبرى المستعمرة بحضوره أو حتى بايفـاد مراقبين اليه

وبمجرد أن عاد عمك جمال يا بنى من باندونج بدأ على الفور تنفيذ الخطة ، فاتصل بالغرب والشرق على السواء

أما مع الغرب فقـــد طلب عمك جمال منهم يا بنى أن يفوا بعهودهم والا فسيشترى السلاح من غيرهم، وأبان لهم أن الامر

لا يحتمل التسويف أو المماطلة لان كرامة مصر القوميـــة فى الميزان

وأما مع الشرق فقد أرسل عمك جمال يستفسر منهم عمن يبيعنا ما نريد من سلاح

ولم يرد الغرب

وجاء الرد من الشرق ، فقد أرسلت تشيكوسلوفاكيا تقول انها على استعداد لبيع السلاح ، وانها على اسـتعداد أيضـا لبدء المباحثات التجارية لاتمام ما نريد من صفقات

وظل الغرب ساكنا مرة أخرى ، فقد عرف بعد ذلك ان وزارة الخارجية الامريكية لم تأخذ الامر مأخذ الجد وانما اعتبرت أن كلام مصر هو من قبيل « التهويش » ، لذلك أهملت الموضوع كلية على أمل أن ينكشف التهويش وتعـود مصر الى الحظـيرة فتخضع وتركع ، ومرة أخرى اسـتسلمت أمريكا وبريطانيا لحلمهما اللذيذ ولم يفيقا منه الا على حقيقة حازمة هى أن مصر قد عقدت فعلا مع تشيكوسلوفاكيا صـفقة اشترت فيها بحر مالها ما تريد من سلاح وعتاد

أما اسرائيل فقد كان لها حديث آخر خلال هذه الفترة

ففى صيف هذه السنة نفسها أى سـنة ١٩٥٥ خرج بن جوريون من عزلته وعاد الى المسرح السياسى وفاز فى الانتخابات وكانت شعاراته التى ملأ بها الشوارع هى « فرض الصـلح على العرب بالقوة » ، وما أن تولى بن جوريون رئاسة الحكومة حتى وقف فى البرلمان الاسرائيلى يتحدث عن سياسته واستعداده

للالتقاء بالرئيس جمال عبدالناصر،وعن نوايا اسرائيل السلمية وحديث الصلح ، وحسن الجوار ، وما ان مضت عشر ساعات على هذا الحديث حتى كان بن جوريون يصـدر أوامره ، بوصفه وزيرا للدفاع ، الى قوات الجيش الاسرائيلى بمهاجمة الموقع المصرى « الصبحة »

وأذكر ان مراسلا بريطانيـــا كان فى اسرائيل فى ذلك الوقت ثم جاء الى القاهرة بعد أن ردت القوات المصرية الهجوم الاسرائيلى ، وفى حديث خاص قال لى : انه اجتمع ببن جوريون وسأله عن سبب الهجوم على « الصبحة » فى الوقت الذى كان ينادى فيه بن جوريون بالاجتماع بالرئيس جمال ، فرد عليه بن جوريون قائلا ان كل المعلومات التى تجمعت لديه عقب القاء خطابه كانت تقول بأن الحالة السياسية فى مصر مهددة بالانفجار وان الرئيس جمال على وشك السقوط ، وان الثورة المصرية على وشك التصفية ولكن الامر يحتاج الى سبب يُعجل بالانفجار .. ثم نظر اليه بن جوريون فى ثقة وهدوء وقال: انك ستسافر من هنا الى مصر ، فعجل لكى ترى بنفسك الاحداث وتسجلها

وجاء المراسل البريطانى وسجل فعلا الاحداث

سجل انتصار مصر على آخر قيد من قيود السيطرة ، اذ سمع بنفسه اعلان الرئيس جمال عن عقد صفقة الاسـلحة ، وسمع وشاهد الشعور فى مصر وفى دنيا العرب وعالم الاحرار

وبهـذا تنتهى المرحـلة الثالثة وهى التى عرفتها لك يا بنى بمرحلة ظهور النوايا

الفصل التاسع

* المرحلة الرابعة : مرحلة المساومة
* الكلاب الضارية تنبح فى هستريا صاخبة
* حكاية توازن القوى
* العداوة بين رجلين
* معالجة الأخطاء بالأخطاء !

المرحلة الرابعة : مرحلة المساومة

بدأت هذه المرحلة بابنى عنيفة فى سبتمبر سنة ١٩٥٥

فقـد شنت الصحف الامريكيـة ، والصحف البريطانية ، والصحف الفرنسية ، وكثير من صحافة أوربا بالتبعية ، حملة مركزة من الكراهية والتضليل ضد مصر

أما أمريكا فقـد اعتبرت عقد صفقة الاسـلحة المصرية التشيكية ، هزيمة نكراء للسياسة الامريكية فى الشرق الاوسط .. وهزيمة أيضا لمشاريع أمريكا فى هذه المنطقة ، سواء من ناحية اسرائيل أو من ناحية الاحلاف ، وسياسة الحصار التى تريد ان تطوق بها روسيا

وبدلا من أن يدرس المسئولون فى واشنطن أسباب هـذه الهزيمة دراسة واقعية ، لجأوا الى التشويش والتضليل .. وصـوروا صـفقة الاسلحة على أنها ارتباط مصر بالكتلة الشرقية ضد أمريكا .. والشعب الامريكى حساس جدا من هذه الناحية بعد أن صوروا له الشيوعية على انها الموت

وبالتالى أصبحت مصر فى دعاية أمريكا الرسمية ، أداة من أدوات هـذا الموت الذى يريد أن يطبق على عنق الشعب الامريكى المضلل • وطبيعى أن تتعاون الصهيونية العالمية مع المستر دالاس مصمم السياسة الامريكية فى هذه الدعاية

الكلاب الضارية
تنبح فى هستيريا صاخبة

والصهيونية العـــالمية تسيطر فى أمريكا على الصحافة ، والاذاعة ، والمال ، والسينما ، وكل ماله تأثير على الناس

وبذلك تم تطويق الشـــعب الامريكى بطوق حديدى من الدعايات التى طمست الحقائق طمسا كاملا ، وانطلقت الصحف الامريكية كالكلاب الضارية تنبح فى هستيريا صاخبة ، وتصور مصر كل يوم بصورة أبشع من صورة اليوم الذى سبقه

فالسلاح الذى اشترته مصر بمالها على أسس شريفة للدفاع عن حدودها وكرامتها ، أصبح فى نظر صحافة امريكا عدوانا آثما من مصر .. وأصبحت مصر فى نظر هذه الصحافة قاعدة تعد للهجوم .. وأغفلت الصـحف الامريكيـــة ، حسب الخطة الموضوعة ، حكاية السنوات الثلاث التى أنفقتها مصر فى التفاوض مع أمريكا لشراء السلاح .. وأغفلت هــذه الصحافة أيضا ــ عن عمد ــ مساومة الحكومة الامريكية لنا من أجل بيع السلاح، ووعود أمريكا التى نقضتها المرة تلو المرة

الاعتداءات الثلاثة

وأغفلت أيضا هذه الصحافة عدوان اسرائيل المستمر على حدودنا وحدود العرب.. برغم أنه فى نفس هذه السنة ، وهى سنة ١٩٥٥ ، وقعت ثلاثة اعتداءات مشهورة على حدودنا :

كان أولها فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ على غزة وهو نقطة التحول كما شرحت لك يا بنى

اما الاعتداءان الكبيران الآخران ، فهما اعتداء وقع على نقطة الكونتلا المصرية .. والآخر هو الاعتداء الذى وقع على موقع الصبحة المصرى بعد ان تحدث بن جوريون عن السلام فى برلمان اسرائيل بعشر ساعات فقط .. هذا بخلاف الاعتداءات الاخرى التى كانت مستمرة على حدودنا وحدود سوريا وحدود الاردن

لم تذكر الصحف الامريكية حرفا واحدا عن حملةبن جوريون فى صيف سنة ١٩٥٥ والتى كانت تقوم علنا على شعارات كان أهمها « فرض الصلح على العرب بالقوة » .. ولن تستطيع الحكومة الامريكية أن تنكر ان الرئيس جمال عبد الناصر استدعى السفير الامريكى فى ذلك الوقت ، ولفت نظرالحكومة الامريكية الى ما فى هذا الامر من نوايا عدوانية

وانما أخذت الصحف الامريكية تهاجم مصر،وتكيل المديح لاسرائيل المسالمة المسكينة

بل اخذت تطالب الحكومة الامريكية بضرورة التدخل لمنع وصول الاسلحة الى مصر خوفا على «العزيزة» اسرائيل

ثم راحت بعد ذلك تطالب بعقد اتفاق بين امريكا واسرائيل من الغول الذى سيفتك بها وهو مصر .. والعجيب ان هذه الصحف كانت الى ما قبل عقد صفقة الاسلحة تفاخر بقوة اسرائيل ، وانها تستطيع ان تهزم الجيوش العربية مجتمعة ، وعلى رأسها الجيش المصرى

حكاية توازن القوى

كان هذا هو مسلك صحافة أمريكا .. ولم يكن مسلك الحكومة الامريكية بأقل حماقة من مسلك صحافتها ، لان الامر كله كما قلت لك يا بنى كان يسير حسب خطة مدبرة .. فانطلقت التصريحات الرسمية تتهم مصر وتهاجم مصر فى كل اتجاه ، تحت ستار ما سموه بتوازن القوى فى الشرق الاوسط والتصريح الثلاثى الصادر فى سنة ١٩٥٠

ولقد كان هدف الحكومة الامريكية وصحافتها من الهجوم على مصر ، هو اثارة بلبلة وقلقلة وشن حرب أعصاب على مصر ، يكون من نتائجها ان تعدل مصر عن صفقة الاسلحة هذه ، وتعود فترتمى فى أحضان أمريكا ، أو ينقلب الوضع فى مصر ، وتحدث ثورة يكون قادتها هم عملاء أمريكا وحلفاؤها

اى ان أمريكا لم تفكر فى اخطائها هى ، بل لجأت الى الهجوم على مصر لتصلح اخطاءها التى ارتكبتها فى حق مصر فى السنوات الثلاث التى ماطلت وسوفت فيها ، حتى انكشف أمرها

سياسة اصلاح الخطأ

وتستطيع يا بنى أن تلخص سياسة أمريكا فى ذلك الوقت ، وفى هذا اليوم الذى أكتب لك فيه هذه الكلمات فى سنة ١٩٥٧

بأنها سياسة اصلاح الاخطاء بارتكاب أخطاء جديدة

وفى يقينى يا بنى ان هذه السياسة مبعثها غرور متأصل فى نفس أولئك الذين يرسمون سياسة أمريكا وعلى راسهم دالاس وزير خارجيتها .. فهم يعتقدون ان لاشىء يقف أمام أمريكا ، باعتبارها أقوى وأغنى دولة فى العالم ، بعد الحربين العالميتين اللتين وقعتا فى النصف الاول من القرن العشرين ، وهم يؤمنون أن مالا يدرك بالقـــوة ، يدرك بالرشوة والدولار والعكس بالعكس ... وهذا منطق سياسة أمريكا اليوم .. وأمس .. وغدا .. الا اذا أراد الله أمرا

ان قاموس السياسة الامريكية على عكس ما كان يتوقع الناس بعد الحرب العــــالمية الثانية ، أقول لا يعرف قاموس السياسة الامريكية الخلق أو المبادىء وانما تستبيح ـ هذه السياسة ـ كل شىء فى سبيل الوصول الى مصلحة امريكا ولا قيمة للخلق ولا للمبادىء ولا لارادة الشعوب اذا ماتعارضت مع مصالح أمريكا"

رفضنا لمجرد الشبهة

فأمريكا تعلم تمام العلم اننا لسنا شيوعيين ، واننا نرفض السيطرة الاجنبية أياكانت،وقد رفضنا لأمريكا اتفاقيتىالامن المتبادل ، ورأس المال ، لاننا لانريد ان نستبدل نفوذا بريطانيا بنفوذ أمريكى وقلنا ذلك صراحة لامريكا

وأمريكا تعلم أننا رفضـــنا الاغراء والآمال العراض عنـدما وجدنا شبهة التدخل ، أو شبهة السيطرة الاجنبية،ولو فىأقل

صورة ، فلماذا تلجأ أمريكا الى اتهامنا بكل هذه الامور وهى تعلم ان لها معنا تجربة رفضنا منها كل هذه الامور ؟

ان المسألة واضحة ، فبدلا من ان تعالج أمريكا اخطاءها التى ارتكبتها فى حق مصر قبل عقد صفقة الاسلحة ، لجأت الى الهجوم على مصر بعد عقد صفقة الاسلحة ، معتقدة أنهـــا ستصلح اخطاءها أو تخفيها على الاقل بهذا الهجوم

قصة الاتهامات

من أجل هذا بدأت حكاية اتهام مصر بالشيوعية تارة وتارة أخرى بانها أصبحت قاعدة للتسرب الشيوعى ، ومرة ثالثة بأنها دخلت فى نطاق الشيوعية الدولية

وبدأت الاخطاء تتراكم وتصبح اخطاء مركبة !

البترول البترول

اما بريطانيـــا فقـــد أعتبرت عقـــد صفقة الاسلحة المصرية التشيكية ــ هى الاخرى ــ هزيمة نكراء للسياسة البريطانية فى الشرق الاوسط ، وهزيمة أيضا لمشاريع بريطانيا.وبريطانيا أشد حساسية فى هذا الامر من أمريكا باعتبـــار أنهـــا كانت تعتبر منطقة الشرق الاوســط منطقة نفوذ بريطانية لبريطانيا فيها مصالح حيوية أهمها البترول ، هـــذا بخلاف اسرائيل وبخلاف عامل آخر أشد وطأة من كل ما سبق ، وهو احتضار الامبراطورية

ويهمنى أن أصـــور لك يا بنى بعض ما كان يختفى وراء هجوم الصحف البريطانية المسعور على مصر بعد عقد صـــفقة

الاسلحة التشيكية، فالصحافة البريطانية تشترك مع الصحافة الامريكية فى كل ما شرحتـــه لك عن اسرائيل وســـيطرة الصهيونية العالمية عليها هى الاخرى بطرق شتى ، ولقد كان موقف الصحافة البريطانية هو نفس موقف الصحافة الامريكية فى كل ما يختص باسرائيـل ، حتى ان جريدة « التيمس » التى يطلقون عليها كلمة « الوقورة » لم تتورع عن أن تخرج باحصائية قبل عقد صفقة الاسلحة تنتهى فيها فى زهو وفخر الى أن جيش اسرائيل يستطيع أن يلحق الهزيمة النكراء بجيوش العرب جميعا ، ثم ما لبثت هذه اللهجة أن تغيرت بعـد عقـد صفقة الاسلحة الى البكاء على اسرائيل المسكينة المسالمة ، والى حث الحكومة البريطانية على التدخل لحماية اسرائيل ضد مصر

الا أن وراء حملة الصحف أمورا أخرى كما قلت لك يا بنى



العداوة بين رجلين

وحملة الصحافة البريطانية كانت موجودة فعلا قبل عقد صفقة الاسلحة بزمان طويل فى تلك الصحف ، واليك بعض الاسباب :

أولا — رئيس وزراء بريطانيا

ولا تعجب يا بنى أن يكون رئيس وزراء بريطانيا بشخصه وهو المستر ايدن سببا أساسيا فى حملة التضليل التى عزلت الحقائق عن الشعب البريطانى عن عمد ، وشوهتها فى أماكن كثيرة من العالم ، ولم تتضح الا بعد أن سقط هذا الرجل وانهارت أعصابه

لقد كان المستر ايدن يعتبر عمك جمال يابنى عدوا شخصيا له ، لمجرد أن عمك جمال حاكم وطنى لا يساوم ولا يخضع لاغراء أو لتهديد

فقد صادف أن كان ايدن هو رئيس الوزارة البريطانية يوم أن وقعت مصر مع بريطانيا اتفاقية الجلاء التى نسفها العدوان بعد ذلك ، ولكن مجرد توقيع هذه الاتفاقية وقتذاك من غير أن تحتفظ فيها بريطانيا لنفسها بحق السيادة على مصر ولو فى بنود سرية ، اثار الاستعماريين فى بريطانيا مما جعلهم يعتبرونها نصرا لعمك جمال على ايدن الذى لم يفلح فى جعل

عمك جمال أداة من أدوات بريطانيا·ولقد استجاب آيدن لمثل هذه العقليات المتعفنة وبدأ يحقد على عمك جمال

تصورات حلف بغداد

وصادف أيضا أن المستر آيدن هذا قد تصور أنه يستطيع أن يبسط حماية بريطانيا على العرب بجرة قلم،وانه يستطيع أن يضع مصر أمام الامر الواقع فتخضع بعد الجلاء لما هو شر من الحماية والاحتلال وهو الاحلاف ، فأمر عميله الاول فى الشرق الاوسط السيد نورى السعيد بانشاء حلف بغداد وادخال العرب فيه جميعا ، ورتبوا الخطة ، وخرج الحلف الى الوجود ثم بادر بضم بريطانيا اليه ، ولكن مصر هاجمت هذا الحلف كمبدأ أولا ، وثانيا لما فيه من سيطرة يراد بسطها على العرب ، وثالثا لأن من أهم أهدافه المطوية تصفية فلسطين العربية الى الابد لصالح اسرائيل

وكانت النتيجة أن الحلف ولد ميتا ، حتى ان رئيس أركان حرب الامبراطورية البريطانية حاول أن يغرى الاردن أو يهدده للانضمام الى هذا الحلف فى الوقت الذى كان يخضع فيه لسيطرة بريطانيا ويحصل على معونة من بريطانيا ولكن الشعب الاردنى ثار ورفض الانضمام الى الحلف بل أكثر من ذلك طرد الجنرال جلوب الانجليزى الذى كان يحكم الاردن باسم بريطانيا منذ أن أنشئت··واعتبر ايدن ان هذا الامر من تدبير عمك جمال يا بنى فحفظ عليه أكثر وأكثر

قصة الكراهية والحقد

الى أن كانت صفقة الاسلحة سنة ١٩٥٥ فكانت هذه هى قصة الكراهية والحقد فى نفس ايدن رئيس وزراء بريطانيا العظمى ، من أجل ذلك انطلقت الصحف البريطانية فى الهجوم على مصر بتشجيع ورضى رئيس وزراء بريطانيا الذى كان يغذيها بالسموم والاكاذيب

ثانيا ـ ظهور مصر كقوة فى المنطقة

فقد كانت بريطانيا الى ما قبل عقد صفقة الاسلحة هى المحتكر الوحيد لبيع السلاح للمنطقة ، وكان هذا يعنى انها تستطيع أن تمنح القوة وتمنعها حسبما تشاء ووقتما تريد ، ويعنى أيضا ان أية قوة فى هذه المنطقة لن توجد الا بارادة بريطانيا ، فلما حطم عمك جمال يا بنى هذا الاحتكار وهذه السيطرة الاجنبية طاش صواب الحكومة البريطانية فى لندن خاصة وان الشعوب العربية باركت هذا الاتجاه واندفعت تؤيده فى حماس رائع يعبر عن عواطفها المكبوتة طوال سنين من القهر والاستعمار ، تأتى بعد ذلك أسباب كثيرة أهمها :

ستار وراء أمريكا

. مصالح بريطانيا وهى تتمثل أساسا فى البترول

تأثر موقف عملاء بريطانيا بعد أن انكشفوا أمام الشعوب وبالتالى تأثر موقف بريطانيا تجاه هذه الشعوب وهى التى لا تريد الا الاستعمار وامتصاص الارزاق بغير تقدير لارادة الشعوب . الخ .. الخ

واستترت الحكومة البريطانية أيضا كما استترت الحكومة الامريكية خلف قناع التصريح الثلاثي الذى صدر فى سنة ١٩٥٠ وحكاية توازن القوى فى الشرق الاوسط

السبب ثوار الجزائر

أما فرنسا فهى تشترك يا بنى مع أمريكا ومع بريطانيا فى كل هذه الاسباب مضافا اليها سبب أساسى هو مشكلة الجزائر

فقد كانت فرنسا موتورة هى الاخرى من مصر بسبب التأييد الذى تقدمه مصر لثوار الجزائر العرب الذين يحاربون فى معركة الاستقلال والحرية ، وكان قائلهم يقول ان معركة الجزائر تحسم فى مصر وليس فى الجزائر ، وفرنسا كانت تجاهد عبثا لكى تحتفظ لنفسها بمقعد بين الدول الكبرى وتعيش على أحلام الماضى بعد أن أصبح الواقع مرا وعلقما ، فقد فقدت كل شىء حتى الشرف ولم يبق لها الا الجزائر التى هى باب الصحراء وباب افريقيا الوسطى،وهى تظن ان قهر الشعوب هى الوسيلة المثلى للعيش فى الحياة كدولة من الدرجة الاولى .. يضاف الى ذلك ما للصهيونية العالمية فى فرنسا من سيطرة تامة تكاد تفوق سيطرتها فى أمريكا وهى مضرب الامثال ويضاف الى ذلك أيضا ان فرنسا هى ثالث الفرسان الذين وقعوا ما يسمى بالتصريح الثلاثى وأكذوبة توازن القوى

معالجة الاخطاء بالأخطاء

وهكذا بدأت المرحلة الرابعة يابنى بعد عقد صفقة الاسلحة فى سبتمبر سنة ١٩٥٥ بداية عنيفة .. ولكن الفرسان الثلاثة أخطأوا التقدير كما هو حالهم فى الحاضر والمستقبل يا بنى ، فبدلا من أن يثيروا حربا باردة على مصر بحملاتهم وهجماتهم فى الصحف وفى الاذاعة وعلى لسان الرسميين أثاروا حربا باردة ولكن على شعوبهم وعلى أفكارهم، أما مصر فقد وقفت صفا واحدا خلف عمك جمال وأخذت تكشف للعرب وللعالم خداع هؤلاء المستعمرين وفى الوقت ذاته لم تضيع مصر لحظة واحدة فى القلق أو البلبلة كما كانوا يريدون بل أخذت تتجه بقيادة عمك جمال نحو البناء والانشاء

آمال مصر

وكان أهم مشروع تبنى عليه مصر آمالها هو مشروع السد العالى الذى يكفل مستقبلا كريما ومستوى لائقا من المعيشة لجماهير الشعب بعد أن أهملت الحكومات المتعاقبة فى أيام ما قبل الثورة كل تفكير فى أمر مستقبل هذا الشعب وما يولد فيه من أجيال حتى وصلنا الى حالة خطيرة من هبوط مستوى المعيشة

ولن أحدثك يا بنى عن هذا المشروع فستراه باذن الله حين

تستطيع أن تقرأ هذه الكلمات ، وستقرأ عنه الكثير فى المدرسة ولكننى أريد أن أحكى لك حكايته من زاوية أخرى تتعلق بهذا الحديث الذى كتبته لك

فانه بعد أن عقدت مصر صفقة الاسلحة وحطمت التحكم الذى كان مصدره بيع السلاح، تلفتت أمريكا لتبحث عن طريق آخر تستطيع بواسطته أن تفرض سيطرتها علينا عن طريق المال والدولار

وكان هو مشروع السد العالى

اللطمة المذهلة

بدا واضحا اذن يا بنى ان عقد صفقة الاسلحة المصرية التشيكية قد أصاب بريطانيا وأمريكا بلطمة مذهلة .. فقد فقدت الدولتان آخر كارت من كروت المساومة وفرض السيطرة

ولقد ظل هجوم الصحافة الامريكية يشتد ويعنف بينماكان هجوم الصحافة البريطانية يتسم بالحذر والمرونة الى ما بعد عقد صفقة الاسلحة بشهرين فانقلبت الآية ، اذ بدأ هجوم الصحافة الامريكية يخف بينما أخذ هجوم الصحافة البريطانية يعلو ويشتد

وكانت هناك قضية لاتزال معلقة بيننا وبين أمريكا وبريطانيا هى قضية تمويل السد العالى

حياة أو موت

وكنا قد طلبنا من البنك الدولى أن يقرضنا حسبما يقضى

قانونه لكى نستطيع أن نبنى ذلك السد الذى يعتبر مسألة حياة أو موت بالنسبة لمستقبل الشعب المصرى ، وبعد مفاوضات طويلةودراسة مستفيضة من جانب البنكللمشروع، وضع ذلك البنك شروطه لاقراضنا بعد أن رفض أول الامر وكانت هذه الشروط تتضمن أمرين جوهريين أساسيين

أما الاول فهو أن تشترك أمريكا مع البنكبنصفالقرض

والثانى وهو الاهم ، فهو سلسلة من القيود والالتزامات تجعل من مدير البنك الدولى وزيرا للمالية مصر ومهيمنا على اقتصاد مصر

الحلقة المفرغة

أما دور بريطانيا فى هذه القضية فلم يكن الا رمزيا فقط ، اذ كانت ستشترك فقط بما قيمته حوالى الخمسة ملايين جنيه

وهكذا عدنا يا بنى الى الحلقة المفرغة مرة أخرى فى قضية تمويل السد العالى بعد أن حطمناها فى قضية شراء السلاح أو بمعنى آخر طردنا النفوذ الامريكى والنفوذ البريطانىاللذين كانا يريدان السيطرة علينا بالتحكم فى بيع السلاح من الباب ، فوجدناهما يطلان لنا من الشباك فى شروط البنك الدولى لاقراضنا من أجل بناء السد العالى

والبنك الدولى لم يكن الا « سيم » فى كل هذه المناورات ، فبرغم انه بنك دولىوأننا أعضاء فيه لنا من الحقوق ما لبريطانيا وما لامريكا ، الا أن أمريكا هى المساهم الاكبر فيه ، ومديره أمريكى ، ولابد أن يخضع فى أقل القليل لتوجيه أكبر المساهمين

آمال و ورود ورياحين

فيوم أن كانت السياسة الامريكية فى مصر تجتــاز مرحلة الآمال والورود والرياحين ، كان البنك الدولى يقبل علينا فى لهفة لانجــاز ذلك المشروع الحيــوى العظيم ، ويوم أن كانت السياسة الامريكية تلجأ الى المساومة المقنعة من اجل السيطرة علينا كان البنك الدولى يعرض عنا محتجا بمختلف العقبات التى تظهر له فجأة فتحيل اللهفة اعراضا ، والآمال سرابا

والعجيب ان أمريكا ، أو المستر دالاس على الاصح ، يعتقد ان هذه المناورات تنطلى على الناس ، واننا سوف نفزع اليــه آخر الامر لكى ينقذنا من الورطة فيبدأ فى املاء الشروط

ولكن على العكس من ذلك ، فقد رفضنا شرط البنك الدولى الخاص بالقيود والالتزامات ، أما عن اشتراك أمريكا فى القرض فقد قلنا ان هذا يرجع الى أمريكا نفسها على شرط أن لا تكون هناك قيود أو التزامات جديدة من أمريكا بعد أن رفضناها من البنك الدولى

وقعنا فى المصيدة

وهنا اعتقد المستر دالاس مصمم سياسة أمريكا يا بنى اننا وقعنا فى المصيدة ، ووضع خطتــه على أن يعوض فى قضــية تمويل السد العالى كل ما خيل اليه انه فقده فى يوم أن لطم على خديه لطمة صفقة الاسلحة المصرية التشيكية

والمستر دالاس يا بنى كما وصفه صديق له فى كتاب نشر على الملأ ، المستر دالاس هذا مقامر ومغامر ، ولعل هذا يعود

الى انه ورث هذه الصفات من نشأته فى ولاية تكساس بلد رعاة البقر الذين يعيشون على القمار والمغامرة

فالمستر دالاس يعلم ان روسيا قد عرضت علينا رسميا معونة غير مشروطة لبناء السد العالى ، وهو يعلم أيضا ان روسيا قد ساعدتنا فى ابرام صفقة الاسلحة التى أصابت سياسته بضربة فى الصميم ، لذلك دبر خطته على أن يختار اللحظة المناسبة فيضرب ضربة ينتقم فيها من مصر ويكشف موقفها ، وفى نفس الوقت يرد الاهانة الى روسيا بأشد مما أحس به من مهانة وفشل

ولكى يجعل من ضربته حدثا عالميا ومفاجأةحاسمة فىتاريخ البشرية بدأ المستر دالاس يلعب دوره علىطريقة «الشجيع» فى روايات رعاة البقر حينما يكون واثقا من نفسه ومفتونا بقوته

فبدلا من أن يبدو منفعلا أو متوتر الاعصاب ، بدأ يبتسم من جديد ، وبدأت الصحف الامريكية ــ كما قلت لك يابنى من قبل ــ تخففمنهجومها بالتدريج ، وما أنبدأتسنة ١٩٥٦ أى بعد عقد صفقة الاسلحة ببضعة شهور حتى كان دالاس قد أقنع الناس بأنه قد شفى تماما من مضاعفات تلك الصفقة ، بل أكثر من ذلك ، فقد أعلن فى مؤتمر صحفى ان الاسلحةالتى اشترتها مصر انما هى أسلحة قديمة وان الامر لا يستحقكل ما حدث من تهويل

وعجبنا نحن هنا فى مصر يابنى ، فصدور مثل هذا الكلام عن مستر دالاس وهو الذى كان فى حالة هستيريا يوم أن

عرف نبأ صفقة الاسلحة ، بل استمر على حالته لأسابيع بعد ذلك ، أقول كان صدور مثل هذا الكلام عن دالاس بعد سلوكه هذا مثار عجب ودهشة منا

وتوالى العجب وتوالت الدهشة

فلم يلبث المستر يوجين بلاك مدير البنك الدولى أن جاء الى مصر لكى يؤكد عزم البنك الدولى من جديد على تمويل السد العالى ، بعد أن وعدت أمريكا ، أو المستر دالاس على الاصح ، باعطاء مصر نصف القرض على شكل معونة أمريكية لمصر

الرئيس المنتخب

وجاءت احتفالات الجلاء بعد ذلك فى يونيو سنة ١٩٥٦ ، وسعدت مصر بأشهر أيامها يوم أن خرج من الوادى الحبيب آخر جندى بريطانى بعد أربعة وسبعين عاما طوالا من الكفاح، وبعد خمسة أيام من هذا اليوم هرعت مصر من أقصاها الى أقصاها الى صناديق الانتخاب لكى تنصب جمال عبد الناصر رئيسا منتخبا لجمهورية مصر

وجاء شهر يوليو من نفس السنة ، والبلاد فى فرح شامل بالجلاء وبالرجل الذى حقق هذا الجلاء

لا اله الا دالاس

وهنا أحس دالاس فى الطرف الآخر من العالم أن الوقت قد حان لكى يضرب ضربته

لقد أراد المخامر المقامر أن يثبت للعالم انه يستطيع أن يقلب أفراح الشعب المصرى المنتصر الى يأس وقنوط ، ويستطيع

أيضا أن ينتزع منه الرجل الذى قاده الى النصر تلو النصر

اعتقد المقامر انه سيطيح بجمال عبد الناصر ، وفى نفس الوقت سيكشف للعالم ان روسيا غير جادة فى عرضها لتمويل السد العالى ، وأن لا اله الا دالاس صاحب العبقرية الفذة والدولارات ، وملك القمار والمغامرة

واتصل دالاس بالرئيس أيزنهاور وهو يلعب الجولف فى مزرعته وقال له انه سيسحب معونة السد العالى

ورد الرئيس أيزنهاور فى غفلة أن امض فى طريقك ووضع السماعة لكى يعود بسرعة الى الاستمتاع برياضته

وفى نفس الوقت كانت حكومة مصر قد زودت سفيرها فى واشنطن باعلان قبول مصر رسميا لمعونة أمريكا والبنك الدولى

وبدلا من أن يطلب سفير مصر مقابلة دالاس ليعلنه بقرار مصر ، استدعى دالاس سفير مصر وأعلنه بقرار أمريكا أو على الاصح بقرار المستر دالاس وهو سحب المعونة

وجاس المستر دالاس يفرك يديه فى نشوة هذا الظفر بعد أن أذاع بيانه الذى تضمن تحديا واستفزازا لمصر

وكان هذا يوم ١٩ يوليو سنة ١٩٥٦

وكان هذا اليوم انتهاء تاريخ ، وبدء تاريخ جديد

البيان الطائش

وأصبحنا يوم ٢٠ يوليو سنة١٩٥٦ونحن فى دهشة وحنق شديدين

فقدكان يستطيع المستر دالاس أن يسحب العرض الامريكى

لمعونة السد العالى فى أية لحظة يشاء ، ولم يكن لنا أن نعترض أو نثور لسبب بسيط هو أن المستر دالاس حر فى تكييف أموره وسياسته ، ولكن الذى أثار حنقنا كان ذلك البيان الطائش المريب الذى خرج به المستر دالاس على العالم ليعلن أن سحبه لمعونة السد العالى انما هو مبنى على أساس أن مصر بلد مفلس وأن الحكومة الامريكية لا تحمل للشعب المصرى الا كل مودة وتقدير

وقد صيغت عبارات هذا البيان بحيث تعلن فى وقاحة غريبة أن على الشعب المصرى أن يتخلص من جمال عبد الناصر ، وعندئذ ستفتح أمريكا خزائنها لكى تبنى السد العالى ، ولكى تقيم عشرات المشاريع الاخرى لمصر

واعتقد دالاس ـ يا بنى ـ أنه قد ضرب بهذا البيان أكبر ضربة سياسية فى العصر الحديث ، ستنتهى بسقوط عمك جمال وتصفية الثورة ، والاتجاه التحررى فى مصر وفى جميع أنحاء الأمة العربية ، وستنتهى كذلك بتوجيه لطمة قوية لروسيا التى تجرأت ـ فى نظره ـ فباعت لنا السلاح من غير قيد ولا شرط

وجلس « العبقرى » دالاس فى واشنطن ينتظر فى زهو وخيلاء تحقيق النتائج التى أرادها بهذه الضربة

وفى مصر جلس عمك جمال ـ يا بنى ـ يدرس فى هدوء عميق ، فلقد كان تحدى وزير الخارجية الامريكية قد بلغ أقصى حد بهذا التجم على مصر ، وعلى عمك جمال بحيث أصبح من المحتم أن يكون الرد على هذا التحدى ردا قويا مذهلا حتى يفيق دالاس

وحلفاؤه من غرورهم وكبريائهم وصغارهم

والعجيب أن البنك الدولى أرسل خطابا الى وزير مالية مصر قبل أن يرتكب دالاس حماقته بعشرة أيام فقط أى فى شهر يوليو سنة ١٩٥٦ يشيد فيه بسلامةمشروع السد العالى وبسلامة اقتصاد مصر ، وبعزم البنك الدولى على المضى فى اقراضنا لتنفيذ ذلك المشروع،ولكن البنك الدولى برغماعترافه فى هذا المستند الرسمى يوم ١١ يوليو سنة١٩٥٦بادر فأعلن يوم ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٦ سحب معونته مستندا الى نفس الاسباب التى أعلنها وزير الخارجية الامريكية

وبريطانيا أيضا ، وكانت ستشترك كما قلت لك يا بنى بمبلغ رمزى هو خمسة ملايين من الجنيهات ، بادرتهىالاخرى فأعلنت على لسان وزير خارجيتها سحب هذه المعونة أيضا يوم ٢٠ يوليو مستندة الى نفسأسباب المستر دالاس ، وزاد وزير خارجية بريطانيا على ذلك أن أخذ يتحدث أمام مجلس العموم فى غرور وخيلاء عن قيمة صداقة الغرب لمصر بما يفضحتشفيه وحقده وهو الذى حبسه الاحرار فى جزيرة البحرينكمايحبس الفأر فى المصيدة

وهكذا أصبح واضحا ان الامر هو مؤامرة من نسج دول الغرب الكبرى ، مؤامرة رسمت فى واشنطون ، واستجابت لها لندن وسعدت بها باريس

وكان على عمك جمال أن يرد كما قلت لك يا بنى ردا قويا مذهلا

الفصل العاشر

* المرحلة الخامسة : مرحلة المؤامرة
* عمك جمال يرد رده المذهل
* ثورة الثلاثة الكبار
* فشل المتآمرين

المرحلة الخامسة
مرحلة المؤامرة

كان على عمك جمال أن يرد كما قلت لك يا بنى

كان عليه أن يرد هـــذا التحدى بتحـــد أشـــد ، وأوجع فأهداف المؤامرة واضحة كل الوضوح ، بل ان المستر دالاس صرح فى غرور أمام لجنة الشئون الخارجية للكونجرس الامريكى فى جلسة سرية قائلا : انه فى اللحظة التى يتخلص فيهـــا الشعب المصرى من جمال عبد الناصر ، فان أمريكا ستتقدم فى الحال لتقديم المعونة الى الشعب المصرى

ولم يكن اسقاط عمك جمال هو الهدف الأوحـــد لضربة دالاس ، بل ان الاهداف الاخرى لهـــذه الضربة كانت أعمق وأبشع

فأمريكا تريد أن تطيح بالثـــورة المصرية التى احتضنت التحرر والاستقلال ، ورفضت فى عزم واصرار كل أشـــكال السيطرة الاجنبية وتحكم الدول الكبرى

وأمريكا أيضا تريد أن تطيح بالثورة المصرية العربية التى احتضنت القومية العربية وتجاوب معها العرب فى حماس وعزم فى كل أقطارهم وبكل قلوبهم وأرواحهم

وأمريكا غاضبة على مصر لانها قاومت حلف بغداد

وأمريكا غاضبة على مصر لانها ترفض المساومة على حقوق فلسطين العربية وحقوق أهلها المشردين اللاجئين

وأمريكا غاضبة على مصر لانها اختطت لنفسها سياسة الحياد الايجابى وعدم الانحياز

وأمريكا غاضبة على مصر لانها حطمت الطوق الحديدى واشترت السلاح ـ لتدعم جيشها ـ من الكتلة الشرقية

وأمريكا لا تريد للعرب أن يستيقظوا أو ان يتضامنوا خشية أن يلحق مصالحها الضرر كما تصوره لها خيالاتها الاستعمارية البغيضة

وأمريكا تريد أن تفرض اسرائيل على العرب فرضا شاءوا أو لم يشاءوا

وانجلترا تريد أيضا هى الاخرى أن تطيح بالثورة المصرية لنفس الاسباب التى ذكرتها سابقا بالنسبة لامريكا ، فأمريكا هى زعيمة المعسكر الغربى وهى التى تمد هذا المعسكر بالغذاء والكساء ولكن بريطانيا كانت أشد حنقا على مصر من أمريكا بعد أن أجبرت على الجلاء عن أرض مصر ، وبعد أن تولى زمام الامور فيها رجل مريض منهار هو المستر ايدن

وكانت فرنسا هى الاخرى أشد حرصا من أمريكا وبريطانيا على القضاء على الثورة المصرية فقد كانت تحلم فى يقظتها أن مستقبل الجزائر يقرر فى القاهرة وأن الثورة الجزائرية التى كان قد مضى عليها حوالى السنتين وقتذاك ممكن أن تنتهى فى لحظة اذا ما قضى على الثورة فى القاهرة

وكما قلت لك يا بنى فان عمك جمال لا يقدم على خطوة الا اذا درسها دراسة مستفيضة وقدر الموقف فيها تقديرا واعيا شاملا دقيقا

وحين جلس عمك جمال يا بنى لكى يضع تقدير الموقف الذى سيخرج منه بخطة الرد على تحدى المتآمرين الكبار كان هادئا كعادته حينما يواجه أية مشكلة برغم أن المؤامرة تستهدف القضاء على حياة شعبنا لاجيال طويلة مقبلة وبرغم أن القائمين بها دول عظمى تملك السلاح والقنابل والاساطيل

ان من عبقرية عمك جمال يا بنى أنه يبسط كل مشكلة تواجهه ويعود بها الى أصلها

والدول العظمى المتآمرة تريد عن طريق تجويع شعبنا وفرض الحصار عليه أن تحطم مقاومته فيسجد راكعا للسيطرة الاجنبية

المسألة اذن ببساطة هى تجويع الشعب وافقاره لكى يستسلم

عمك جمال يرد رده المذهل

وتلفت عمك جمال من حوله يا بنى واستعرض تاريخ كفاح الشعب وآلامه وآماله

وفى خلال استعراضه للاحداث وقف عند قناة السويس

ان قناة السويس تمثل فى بلدنا الذى اســـتقل وخرجت منه جنودالاحتلال قبل ذلكبشهر واحد فقط ، هذه القناةتمثل آخر معقل من معاقل الاستغلال الاجنبى

وشركة قناة السويس تمثل أبشـــع نصب دولى فى القرن التاسع عشر ، شقتها مصر بسواعد عشرات الالوف منأبنائها الذين ماتوا وهم يحفرونها سخرة ، وأنفقتعليها من حر مالها ستة عشر مليونا من الجنيهات من مجموع ما صرف فى شقها وهو ثمانية عشر مليونا من الجنيهاتبشهادة قنصل أمريكا فى مصر وقتذاك

ومع ذلك تستولى الشركة التى دفعت مليونين واســـتغلت عشرات الالوف من المصريين أقول تستولى الشركة على عشرين مليونا من الجنيهات أرباحا كل عام ولا تأخذ مصر التى دفعت حياة أبنائها مضافا اليها ستة عشر مليونا الا رسما صـــوريا فقط لا يتجاوز المليون

والقناة فى أرض مصر وتحت سيادة مصر وملك لمصر !

والاعجب من هذا أن الذى يستولى على هذه الارباح الصافية هم العصابة المتآمرة : أمريكا وبريطانيا وفرنسا الذين يتآمرون اليوم على شعب مصر لتجويعه وافقاره وحرمانه حتى من الاستدانة من البنك الدولى بأبهظ الفوائد ؛ اذ كنا سنقترض سبعين مليونا من الجنيهات نردها مائة وعشرين

وهكذا اهتدى عمك جمال يا بنى الى الحل الخالد وكان بسيطا كما قلت لك يا بنى

فقناة السويس التى هى ملك لمصر يجب أن تعود الى مصر

ان شركة قناة السويس شركة مصرية ومعطى لها الامتياز من حكومة مصر، ولكنها لم تكن فعلا الا آخر معقل للاستغلال الاجنبى وموردا يدر الذهب على المتآمرين الذين يتآمرون اليوم لتجويع شعب مصر صاحب القناة

ولم يضيع عمك جمال لحظة واحدة بعد أن انتهى الى هذا القرار

ففى يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ أى بعد الحماقة التى ارتكبها المستر دالاس وحلفاؤه بأسبوع واحد وقف عمك جمال فى الاسكندرية وأعلن فى خطابه السنوى تأميم شركة قناة السويس • وفى نفس الوقت كانت السلطات المصرية تتسلم المرفق

وأصبح يوم ٢٦ يوليو الذى خرج فيه الملك الفاسد من بلدنا يوما خالدا بعد أن أضيف الى أمجاده هذا المجد الرائع

اننى مهما وصفت لن أستطيع أن أصف لك يا بنى شعور الشعب المصرى حينما أعلن عمك جمال هذا القرار الخالد

لقد كان الشعب فى فرح مذهل خاصة وأن تأميم شركة قناة السويس كان أملا يجول فى كل خاطر

وأمر آخر يا بنى

لقد أحس كل مواطن باعلان هذا القرار أن كرامته قد حفظت وأن كبرياءه قد رضى واطمأن بعد أن ظل المتآمرون الكبار طيلة أسبوع مضى ـ بين سحب المعونة واعلان التأميم ـ يتيهون فى صحافتهم وأبواقهم غرورا واستعلاء

ولم يكن الشعب المصرى وحده هو الذى أحس هذا الاحساس وانما أحست به كل الشعوب العربية تماما كما حدث يوم أن عقدت صفقة الاسلحة ، ولكن يوم القناة كان أخلد وأروع لانه كما قلت لك يا بنى كان نهاية تاريخ وبدء تاريخ

ثورة الثلاثة الكبار

الا أن التآمر لم ينته ، بل على العكس من ذلك ثارت ثائرة المتآمرين الكبار

وصممت بريطانيا وفرنسا أول الامر على أن يقوما بالهجوم على مصر فورا ، وسافر المستر دالاس الى لندن لكى يهدىء من روعهما وينصحهما بأن يحلا الأزمة على طريقة الحل الذى طبق فى ايران ضد الدكتور مصدق أى بالتآمر فى الداخل لنسف الثورة المصرية ، وبالتالى الغاء قرار التأميم وعودة الامور الى سابق عهدها كما حدث لشركة البترول فى ايران

ولما لم تجد بريطانيا وفرنسا نفسيهما فى حالة تسمح لهما بالهجوم العاجل كما كانتا تريدآن فان الثلاثة الكبار يخرجون من اجتماعهم بقرار هو عقد مؤتمر فى لندن وكانت أكبر مهزلة هى أنهم جعلوا من أنفسهم أولياء لأمر هذا العالم فعينوا الدول التى تحضره وجعلوا أكثر من ثمانين فى المائة منها من تلك الدول التى تسير فى فلكهم وتخضع لسيطرتهم

والعجيب أن الثلاثة الكبار وجهوا الدعوة الى مصر فى صورة انذار يحمل القرارات التى يجب أن يخرج بها المؤتمر من قبل

أن ينعقد ، كما وجهوا نفس هذه الدعوة الى بقيـة الدول التى ستحضر هذا المؤتمر ورفضت الدول الحرة التقيد بأى شيء ــ ــ من قبل ــ بعد أن وافقت على الدعوة

أما هنا فى مصر فاننا بعد دراسة طويلة لهذا الامر واستجابة لما ارتآه عمك جمال اتفقنا على أن يسافر عمك جمال بنفسه الى لندن لكى يواجه المتآمرين الكبار وجها لوجه أملا فى أن لانترك طريقا لامكان ايجاد حل سلمى ولا نطرقه

ولكن لم تمض أربع وعشرون ساعة على اتخاذنا هذا القرار حتى خرج المستر ايدن رئيس وزراء بريطانيا الرجل المريض الخائر بحديث فى التليفزيون خرج فيه على كل أدب وعـرف ولياقة ، وكال لمصر ولعمك جمال الشتائم والتهم

وأصبح واضحا أن لا أمل فى أن يعود هؤلاء المتآمرون الى رشدهم وأن زيارة عمك جمال للنـدن لن تفهم على معنـاها الحقيقى

وأعلن عمك جمال فى مؤتمر صحفى عقد فى البرلمان رفض مصر لحضور المؤتمر ، وفند دعوى المتآمرين الكبار وأعلن عن عقد مؤتمر يضم جميع الدول التى تستخدم القنـاة يعقد فى القاهرة

فشل المتآمرين

وعقد مؤتمر لندن الاول وانتهى الى قرار أيدته الدول التابعة للمتآمرين ورفضته الدول الحرة، وأرسلوا رئيس وزراء استراليا الى مصر لكى يبلغ عمك جمال بهذا القرار ولكى يهـــدد عمك جمال

واحتقر عمك جمال التهديد

وعاد رئيس وزراء استراليا الذى كان يفخر بأنه استعمارى، عاد الى لندن وانعقد مؤتمر لندن الثانى وقد سميته فى مقالاتى التى كنت أكتبها لجريدة الجمهورية وقت ذاك «بالمؤتمر الحزين»

لقد اجتمع هذا المؤتمر وانفض من غير أن يتخذ قراراً

الى أن كان اقتراح جمعية المنتفعين

وهذا الاقتراح من بنات أفكار بطل قصتنا هذه المســتر دالاس المقامر المغامر ، همس به فى أذن الرجل الحائر المريض ايدن رئيس وزراء بريطانيا

وستقرأ يا بنى تفاصيل هذه الفقرة فتعرف أن هذا الاقتراح فشل كما فشلت كل خطط المستر دالاس وحلفائه المتآمرين

وستقرأ يا بنى أيضا عن مؤامرتين حاول المتآمرون تنفيذهما عند انعقاد مؤتمر لندن بقصد تعطيل الملاحة فى قناة السويس وكيف أنهما فشلتا أيضا كما فشلت من قبل ومن بعد كل

خطط التآمر والعدوان

الى أن ذهب المتآمرون يشكوننا في مجلس الامن

وبعد مناقشات وقفت فيها روسيا ويوغوسلافيا الى جانبنا اتخذ مجلس الامن قراره المشهور بالمبادىء الستة التى تحل على أساسها المشكلة حلا سلميا تحت اشراف سكرتير الامم المتحدة ، وكان قرار مجلس الامن فى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٦ وحدد يوم ٢٩ اكتوبر لاجتماع مندوبى مصر وبريطانيا وفرنسا فى جنيف للتفاوض من أجل الوصول الى ذلك الحل

ولكن

كان مقدرا ألا نذهب الى جنيف لأن المتآمرين الكبار كانوا قد أبرموا أمرا بليل ، وهجمت اسرائيل يوم ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٥٦ على مصر كمقدمة للمؤامرة الدنيئة الكبرى التى لم يعرف التاريخ لنذالتها وخستها مثيلا الى اليوم

الفصل الحادى عشر

* المرحلة السادسة : الاذلال بالقوة
* الانذار بالانذار والبادى أظلم
* المرحلة السابعة : الفضيحة الكبرى
* المرحلة الثامنة : الاصرار على المؤامرة

المرحلة السادسة
الاذلال بالقوة

كان ايدن قد اصطحب معه تلميذه الفاشل وزير خارجيته الى باريس يوم ١٦ أكتوبر سنة ١٩٥٦ حيث اجتمعا هناك برئيس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها اجتماعا طويلا تقررت فيه المؤامرة وتقرر فيه دور اسرائيل ودور الدولتين الغادرتين، ولم يكن مداد القرار الذى اتخذ قبل ذلك فى مجلس الامن بثلاثة أيام ، وارتضته فرنسا وبريطانيا ، قد جف بعد

وبينما نحن نعد العدة للاجهاز على اسرائيل بعد أن بدأت العدوان اذ بانذار هو الاول من نوعه فى تاريخ البشرية فى وقاحته وغروره يأتى الينا من فرنسا وبريطانيا

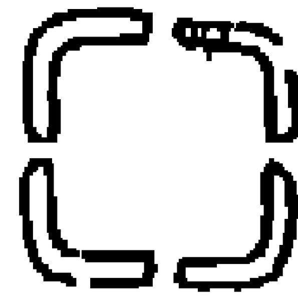
ورفضنا الانذار

وأحس عمك جمال ـ يا بنى ـ بالمؤامرة فى سرعة ويقظة واتخذ قراره التاريخى بسحب قواتنا من سيناء لكى تنضم الى الشعب فى المعركة الفاصلة ضد بريطانيا وفرنسا

ان هذا القرار ـ يا بنى ـ كان أول ضربة سددها عمك جمال الى المتآمرين لاحباط المؤامرة ، وسيظل الى الابد عملا فذا من أعمال عمك جمال التى أراد الله أن يحقق بها على يديه

عزتنـــا وكرامتنـــا ، وأن يحقق بها على يديه أيضا استقلالنا ونصرة القومية العربية التى كان يراد لها أن تقبر الى الابد

ودخلت بريطانيا وفرنسا الحرب ، وســتجد يا بنى وصفا تفصيليا لكل هذا فى كتاب آخر لى الا أن ما يهمنى أن أقوله لك هو أن مرحلة الاذلال بالقوة هذه التى أرادوا فيهـا اذلالنا قد انقلبت عليهم يوم ٦ نوفمبر سنة١٩٥٦ حينما وضح للعالم أن مدينة صغيرة هى بورسعيد المصرية قــد صــمدت لجيوش وأساطيل بريطانيا وفرنســا ومعـــدات حلف الاطلنطى ولم تستسلم



انذار بولجانين

الانذار بالانذار والبادى أظلم

وأرسلت روسيا الى بريطانيا وفرنسابانذارها المشهور بعد أن حاولت أن تشرك معها أمريكا فى وقف العدوان ولكن هذه رفضت وتخاذلت

لقد صيغ الانذار الروسى فى عبارات أرسلت الرعب فى مفاصل رئيس وزراء بريطانيا ورئيس وزراء ما يسمى فرنسا

استمع معى يا بنى الى كلمات هذا الانذار القوية المروعة

قال بولجانين فى الانذار الى المتآمرين :

« اننا مصممون كل التصميم على استخدام القوة للقضاء على العدوان وانهاء الحرب فى مصر »

وقال أيضا فى انذاره لايدن :

« ان بريطانيا يجب أن تفكر فى موقف يجعلها معرضة للهجوم من دولة أقوى منها كثيرا تستطيع أن تشن هجوما عليها لا بالسفن ولا بالطائرات ، ولكن بالصواريخ الموجهة

... وانك لتعد استخدام الصواريخ الموجهة ضد بريطانيا عملا همجيا ... ولكن ما الفرق بين مثل هذا الهجوم على بريطانيا ، والهجوم الذى تشنه بريطانيا وفرنسا على مصر وهى غير مستعدة ؟! »

عندئذ انهار ايدن وانهار زميله فى فرنسا ، وبدلا من أن يذلوا مصر بالقوة أذلهم الله أبشع اذلال بالقوة أيضا

قوة الصواريخ

وانهار ايدن وانتهت مرحلة الاذلال التى كان مفروضا انها اذلال لنا الى الأزل فعلا ولكن لبريطانيا وفرنسا !



المرحلة السابعة
مرحلة الفضيحة الكبرى

حاولت بريطانيا وفرنسا التهرب من تنفيـذ قرارات هيئة الامم المتحدة ، التى اتخذت باجماع يكاد أن يكون تاما ، وتنص على انسحاب المعتدين من أرض مصر

وهنا ظهرت أمريكا مرة أخرى

فقد كان المستر ايزنهاور رئيس أمـريكا يخوض معـركة تجديدالانتخابات واختار ايدن ومولية هذا الوقت بالذات لكى يجهزوا على مصر ، فالمستر ايزنهاور مشغول بانتخابات الرئاسة وهو فى حاجة الى أصوات اليهود حلفاء بريطانيا وفرنسا فى العدوان على مصر ، ولكن المستر ايزنهاور وقف ـ يا بنى ـ وقفة لا بد لى أن أسجلها له بالشـكر والتقـدير برغم ما فات وبرغم أن هذه الوقفة لم تلبث بعد انسحاب بريطانيا وفرنسا أن تغيرت وانطمست بعد ظهور المستر دالاس مرة ثانيـة فى الميدان

فى هذه المرحلة انفضح المتآمرون المعتدون وأخذ كل واحـد منهم يحمل المسئولية لأخيه

أما ايدن رئيس وزراء بريطانيا فقد انهـار وخارت قواه وأعطى اجازة

وفى مجلس العموم البريطانى كشفت المناقشات عن فضائح تزكم الانوف عما ارتكبته الحكومة البريطانية ورفضت هذه الحكومة اجراء تحقيق لتحديد أدوار المتآمرين واستنكر نواب العمال المؤامرة أبشع استنكار

وفى فرنسا أعلنوا رسميا أن هدف العدوان لم يكن يقتصر على القضاء على مصر وزعيمها فقط ، وانما كان أيضا تصفية الحرب فى الجزائر واعادة سيطرة الغرب على البلاد العربية بأكملها والقضاء نهائيا على القومية العربية

وفى اسرائيل ربيبة أمريكا وقاعدة الغرب للعدوان والاستعمار انفضحت النوايا وكانت أول الامر القضاء على أوكار الفدائيين ثم أصبحت بعد تدخل بريطانيا وفرنسا وانسحابنا من سيناء أصبحت الفكرة الاستيلاء على سيناء واضافتها الى اسرائيل ثمنا لها على العدوان ، ثم تضاءلت الفكرة الى قطاع غزة ، ثم انتهت وتحطمت الاطماع بعد ان وقف الرأى العام العالمى كله يستنكر تلك المؤامرة الدنيئة

وظل عمك جمال يا بنى فى كل هذا رابط الجأش صلب الارادة لا يساوم ولا تزلزله أو تنال منه الخطوب والاحداث

الى أن كان يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٥٦ وانتهى انسحاب بريطانيا وفرنسا من بورسعيد،وبقيت اسرائيل تحاول المراوغة والافادة من العدوان

المرحلة الثامنة
الاصرار على المؤامرة

قلت لك يا بنى أن المستر ايزنهار رئيس أمريكا وقف وقفة يستحق عليها الشكر والتقدير ونسيت أن أقول لك أن المغامر دالاس لم يكن الى جانبه فى ذلك الوقت كما هى عادته دائما، وانما كان فى المستشفى وكانت تجرى له عملية

وحين خرج المستر دالاس من المستشفى بدأ يرسم من جديد سياسة أمريكا كعادته

والمستر دالاس يا بنى مغرم بالتقليعات الامريكانية ، ومعتد بنفسه وبخطته الى حد السفه والجهل والغرور !

فلقد فكر المستر دالاس فى أن يضع خطة بهلوانية يستطيع بها أن يحقق الاهداف التى لم تستطع بريطانيا وفرنسا بجيوشهما أن تحققها ولكن من غير حرب !

والمستر دالاس كما قلت لك يا بنى مفتون بقدرته وخطته

وقد أطلق على خطته هذه اسم « العزل »

كان يقصد بالعزل أن يتم عزل مصر عن العالم أولا ، وعن شقيقاتها العربيات ثانيا ، وبعد ذلك يمكن تنفيذ خطة «الغزو من الداخل» التى اتبعت مع الدكتور مصدق فى ايران ونجحت

أما العزل من الخارج فقد بدأه المستر دالاس عقب خروجه من المستشفى مباشرة على شكل ضغط سياسى وحصار اقتصادى وتجميد لأموال مصر ومنعها من الحصول على حاجاتها من أسواق العالم

وقد نفذ المستر دالاس الضغط السياسى بسلسلة من التصريحات أصدرها هو وأوعز ببعضها الى المستر أيزنهاور فأصدرها هو الآخر يشيدان فيها بحق اسرائيل فى المرور فى قناة السويس وحق اسرائيل فى المرور فى خليج العقبة ومحاولة تدويل قطاع غزة أو ضمه الى اسرائيل الى آخر ما صدر من تصريحات فى ذلك الوقت عن المسئولين فى أمريكا . وكان هدف المستر دالاس هو تضليل العالم وعزل قضيتنا عن الرأى العام العالمى

وقد نفذ المستر دالاس الحصار الاقتصادى فرفض أن يبيعنا القمح يوم أن كنا بعد العدوان على وشك أن نجوع لنفاذ مخزون القمح ، ورفض أن يبيعنا البترول بعد العدوان أيضا وبعد أن حطمت اسرائيل ـ بتأييد حلفائه بريطانيا وفرنسا وبالسلاح الذى أعطاه لها مستر دالاس ـ آبارنا فى سيناء فى الوقت الذى أعلنت فيه أمريكا رسميا عن معونات وأغذية تقدم مجانا لاسرائيل المعتدية

وأوعز المستر دالاس الى الاسواق الغربية لكى لا تشترى منا أو تبيعنا شيئا

وجمد المستر دالاس رصيدنا من الدولارات فى أمريكا

وأما الغزو من الداخل فقد بدأه المستر دالاس ايضا عقب خروجه من المستشفى بأن أوعز الى عملائه من ملوك ورؤساء العرب بأن يستعدوا للدخول فى المعركة ضد مصر

بدأت خطة الغزو من الداخل بزيارة الملك سعود لامريكا فى يناير سنة ١٩٥٧ أى بعد مضى بضعة أيام من انسحاب بريطانيا وفرنسا

والمستر دالاس لا يضيع الوقت يا بنى

هناك جلس الملك سعود الى المستر دالاس ورجاله وتلقى منهم الاوامر بالخطة الجديدة ، لقد اختاروه لكى يمثل الدور الجديد ، اختاروه لكى يكون الزعيم الاوحد للمنطقة وعليه أن ينفذ مايطلب منه لكى تؤكد له أمريكا زعامته على العرب ، وعلى المسلمين

كان عليه أن يحسن علاقاته بحكام العراق عملاء أمريكا فصدع للأمر وسافر الى العراق

وكان عليه أن يزود الملك حسين بالدولارات وبالمعونة لكى يسقط الحكم الوطنى فى الاردن ويأتى بعملاء أمريكا الى الحكم

وقد فعل هذا أيضا بأمانة واخلاص

وكان عليه أن يتصل بالسيد كميل شمعون رئيس لبنان لينسق معه الخطط ويدبر فى بيروت المؤامرات !

وقد نفذ هذا أيضا بأمانة واخلاص !

وكان باقى الخطة هو أن يتكون من هؤلاء الحلفاء حزام جديد يعزل مصر وسورية اللتين رفضتا أن تسيرا فى فلك أمريكا ،

ثم تدبر المؤامرات فى بيروت ضد سورية وضد مصر لاتمام خطة الغزو من الداخل

وقد نفذ هذا أيضا بأمانة واخلاص ، ودفع الملك سعود نصف مليون جنيه لمؤامرة المراغى التى كان هدفها اغتيال عمك جمال، وفشلت هذه المؤامرة على يد بطل مصرى هو الضابط عصام الدين خليل

وفى سورية دفع الملك سعود مرة ثانية مليونين من الجنيهات لكى تحبط الوحدة بين مصر وسورية، ولكى يغتال عمك جمال أيضا ، وفشلت هذه المؤامرة كما فشلت سابقتها على يد البطل السورى عبد الحميد السراج

وبدلا من أن تعزل مصر، عزل الملوك والرؤساء العرب — من عملاء أمريكا — عن شعوبهم، وأصبح من المحتم أن ينقذ المستر دالاس عملاءه الذين ظهر أنه أتى بهم لينقذوه ، وينقذوا سمعة أمريكا من الحضيض



واليوم وأنا أكتب لك يابنى هذه الكلمات يحاول المستر دالاس أن يوهمنا ويوهم العالم أنه قد غير سياسته نحو مصر وسورية اللتين أصبحتا بلدا واحدا فى الوقت الذى يوعز فيه لعملائه حكام لبنان بالتقدم الى مجلس الامن بشكوى ضد الجمهورية العربية المتحدة فى محاولة لانقاذهم من غضبة شعوبهم !

ان تطورا يحدث اليوم يا بنى فى بلدنا وفى منطقتنا سأفرد

له الاجزاء المقبلة من هذه الذكريات التى أكتبها لك ، فأحداث السنة الواحدة اليوم تفوق ما كان يحدث فى مئات السنين ، ولا يزال عمك جمـال يا بنى كما قلت لك هو المحـور الذى يدور من حوله كفاحنا وتتبلور فيه آمالنا وأمل الاجيال المقبلة فى الحياة والكرامة والسلام

من أجل ذلك فأنا أختم هذا الجزء من ذكرياتى لك بحديثى الذى توجهت به الى الله يوم أن عاد عمك جمال من رحلته الموفقة الى روسيا ففيه تلخيص لهذه الحقبة التى حـدثتك عنها فى اجمال



الحبيب العائد

الحبيب العائد

وجمال يا رب من صنعك الرائع ، وابداعك آلقـــاهر ، انه عبدك المؤمن بك ، المتوكل عليك المسير بالهامك البـــاعث فى شعبه وقومه رسالة الحق والعزة والسلام

ولقد نصرتنا به يا رب فى مواطن كثيرة

نصرتنا به يوم أن ضاقت علينا أرضنا ، وحبس الملك الخليع هو وشركاؤه علينا أنفاسنا ، فشاءت قدرتك أن ينتصر الشعب وأن يملى ارادته كفاحا ونضالا وخلقا وابتكارا، وتضحية وفداء وصلابة واصرارا من خلال جمال ، وعلى يد جمال ، وبيقين منك يارب وهبته لجمال

ونصرتنا به يا رب يوم أن خضنا مع بريطانيا معركة الجلاء

كانت جيوش بريطانيا تدنس بأقدامها أرض وادينا الطاهر الحبيب ، كان ترابنا يصرخ من وقـــع أقدامهم ، وكان هواؤنا يتلوى من بخر أنفاســهم ، وكانت سماؤنا تتململ وهى تظل عوراتهم

لعنهم شعبنا ، وآحتقرهم نيلنا، ومع ذلك ظلوا زهاء السبعين عاما يعبثون بالحرمات ويغتصبون الارض والارزاق ، ويسفهون أحلام الناس ويخيفون أيضا الملك والافيال من الزعماء

وأردت يا رب ، فخرج اليهم جمال ان احملوا عصاكم على

الكاهل وارحلوا أو اقبلوها حربا لا تعرف النقص أو الخداع . فاوض جمال فلم يساوم ، وقاد المعركة فلم يهادن ، وحين انجلى الغبار ، كان الوطن قد تطهر من رجس أولئك الانجاس من خلال جمال وعلى يد جمال وبيقين منك يا رب وهبته لجمال

ونصرتنا يا رب فى معركة احتكار السلاح

كانت بريطانيا أيضا تطبق على هذا البلد شرائع عجيبة فى التحكم والسيطرة والاحتكار

فلقد كانت بريطانيا تحتقر حكام هذا البلد ، وهم الذين ارتضوا أن يسيروا فى فلكها ، ويأتمروا بأمرها وهذه هى سنة الكون فالذى يسلم قياد نفسه لغيره لن يكون جزاؤه من هذا الغير الا المهانة لانه ذل نفسه بالخضوع له

وظنت بريطانيا أنها تستطيع أن تفرض على هذا البلد احتلالا وسيطرة عن طريق بيع السلاح بعد أن فقد ذلك الاحتلال وتلك السيطرة وجودهما بجلاء الجنود والمعدات

وحذت أمريكا حذو بريطانيا فى سوء القصد وخبث الطباع

وجرى قدرك يارب فدخل الشعب كله المعركة بقيادة جمال ليخرج منها ــ وهو الشعب الاعزل الصغير ــ ظافرا بعد أن لقن الكبار درسا فى الاخلاق

تعلمت أمريكا أن هناك من يؤمنون بالقيم العليا ، وأنها لا تباع ولا تشترى حتى بملايين الدولارات

وتعلمت بريطانيا أن شعبا صغيرا شريفا يستطيع أن يهدم غرور السيطرة ونفاق الهيبة وكذب الوقار .

وعرف العالم كله أن شابا أسمر اسمه جمـال ومن ورائه شعب أعزل الا من الايمان ، عرف العالم انهما قد استطاعا أن يحطما قيود السيطرة التقليدية للكبار بل لقنوهم أيضا أعمق درس فى الـكرامة علهم يقلعون عمـــا يملأ عقولهم من تفاهة وصغار

وكانت هذه المعركة أيضا بقيادة جمال ، صنع خطتها جمال ووضع تكتيكها جمال ، على هدى يقين منك يا رب وهبتـه لجمال

ونصرتنا به يا رب فى معركة قناتنا :

لقد أرادوا بنا كيدا فكانوا هم الأخسرين !

فحين صور الوهم لكبيرهم انه يستطيع أن يذل كرامتنـا ، نحن الشعب، بالتجويع وبالايقاع بيننا وبين زعيمنا جمال، بادر جمال فرد الصفعة صفعتين وبدلا من أن نجثو على ركبتنـــا ارتفعت هاماتنا فوق أرضنا واحتفظنا برشـدنا ، فى الوقت الذى طاشت فيه عقول الكبار وأكلهم حقـدهم حتى أن نجما معطرا من دهاقين ساستهم سقط صريعا وخارت قواه

وجاء العدوان على صورة مؤامرة دنيئة وانذار قذر فى معناه وفى مبناه سيظل يحكى للأجيال قصة اللؤم والغدر والغرور

وفجأة انكشف اللؤم وانهزم الغدر وتحطم الغرور وفاح فى العالم كله نتن أولئك الذين كانوا ينصبون من أنفسهم حراسا على المبادىء فداسوها ، وحماة للحقوق وهم ناهبوها

وبعد العدوان جاءت معركة العزل والتجويع والحصار فلم

تختلف عما سبقها من معارك الا فى أن أبطالا جددا من ملوك ورؤساء العرب قد دخلوها الى جانب أمريكا وبريطانيـــا وما يسمى بفرنسا ٠ ويشاء الله أن تفشـــــل أمريكا كما فشلت حليفاتها ، وينهزم البغى ويتحطم الطغيان

ويشاء الله أيضا أن ينكشف أمر أولئك الملوك والرؤساءعلى صورة تبعث على الرثاء والاشفاق وهم الذين كانوا يوقنون ان جمال قد شطب اسمه فى واشـــنطن ونسوا ان الذى يكتب ويشطب هو رب السماء الذى صنعهم وصنع جمال،وهو الذى أورثهم الخيبة بعد أن أشركوا بقدرته،ووهب جمال الحكمة،وهو المؤمن بعزته ووحدانيته

وجمال يا رب من صنعك الرائع وابداعك القاهر انه عبدك المؤمن بك المتوكل عليك المسير بالهامك الباعث فى شعبه وقومه رسالة الحق والعزة والسلام

ونصر اليوم يا رب هو أروع ما وهبتنا من انتصارات

لقد وهبتنا ، يا رب ، الصداقة أشهى ثمرة من ثمرات هذه الحياة

فلطالما مددنا أيدينا بالصداقة للجميع فى حماس واخلاص، وكنا نحزن حينما تمتد الينا وهى ترتدى قفاز الغرور أو قناع السيطرة ظنا منها اننا لا نرى بأعيننا أو نحس بوجداننا

وقد رفضنا مصافحة هذه الايدى حتى تتطهر من هذا القفاز ومن ذلك القناع

الى أن كانت أول يد شريفة تمتد الينا وتخوض معنا معاركنا

فى حماس واخلاص

رأيناها يوم كنا نحارب معركة احتكار السلاح للتحكم وفرض السيطرة

امتدت الينا هذه اليد بالسلاح من غير قيد ولا شرط وبلا تحكم أو سيطرة وانما بصداقة وتجارة شريفة واحترام متبادل وتقدير لظروفنا فاق فى كل معناه كل أخوة وكل صداقة

وامتدت الينا هذه اليد ايضا بالتأييد يوم أن عادت لنا قناتنا

وامتدت الينا هذه اليد أيضا بالتأييد يوم أن تآمر الكبار علينا فى مجلس الامن فكان « الفيتو » الروسى هو اللطمة التى جعلتهم يفيقون من غشيتهم لكى يعترفوا بعد ذلك فى أيامنا هذه بعودة الحق الى أصحابه

وامتدت الينا هذه اليد بالتأييد الجبار الساحق يوم أن خرج على بريطانيا وفرنسا ذلك الانذار المشهور فانهار غرور المعطر ايدن فجأة وجثا على ركبتيه وانهارت قوى عصابة مونمارتر التى كانت تحكم فرنسا

يا الهى .. اننى أذكر ذلك الانذار اليوم كما يذكره كل عربى ، فلا نملك الا احتقار الغرور ، والرثاء للمغرورين

وامتدت الينا هذه اليد فى معركة الضغط والتجويع فأرسلت لنا سنابل القمح ومراكب الزيت لكى يأكل الشعب ويطهو خبزه وطعامه ويدفىء برده ويبرى آلامه

وامتدت الينا هذه اليد فى معركة الحشود على اقليمنا

الشمالى فباء التهديد بالخسران وانحسر الغرور مرة أخرى وانهزم الباطل وانهارت خطة العدوان

وامتدت الينا هذه اليد مرة أخرى لكى ترتفع فى وطننا الابنية وتدور الآلات ، ولكى تعمل أجهزة الكشف والتنقيب وتخرج الثروات وتتدفق المياه من السدود والخزانات، فتروى الزرع ويسعد الاهل فى ظل كرامة محفوظة ، وحرية مصانة واستقلال مشيد وأمل متزايد ، ومستقبل مشرق

أعرفتهم ٠٠ انها يد الشعب السوفييتى الصديق

فبارك لنا يا رب فى هذه اليد النظيفة المخلصة

وبارك لنا يا رب فى هذه الصداقة الشريفة التى دعمها الشعب السوفييتى بحبه لجمال ، فنحن لا نملك الا أن نبادل هؤلاء الاخوة حبا بحب واعجابا باعجاب وصداقة بصداقة نفخر بها على مر الايام

جمال ٠٠ أيها الحبيب العائد ٠٠ أهلا بك رائدا ورمزا وزعيما

أهلا بك فى أهلك يا أخا العرب ، وموئل أملهم

أهلا بك فى اهلك يارسول الخير والحق والسلام

أهلا بك فى أهلك يا صديق الاحرار ومناط رجائهم

وجمال يا رب من صنعك الرائع وابداعك القاهر،انه عبدك المؤمن بك المتوكل عليك المسير بالهامك ، الباعث فى شعبه وقومه رسالة الحق والعزة والسلام

محتويات الكتاب

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

هى خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج أنيق وطباعة متقنة ثمن الكتاب الواحد ٨٠ مليما - ما عدا كتابى زينب ومع الله فى السماء وابتداء من كتاب « قال الرئيس » (العدد ٧١) ١٠٠ مليم - بخلاف مصاريف البريد المسجل وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

١ - عبقرية محمد (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

٢ - ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج

٣ - هرون الرشيد (نفد)
تأليف المرحوم الدكتور أحمد أمين

٤ - أبو الشهداء (أعيد طبعه)
تأليف عباس محمود العقاد

٥ - جنكيز خان
سفاح الشعوب (نفد)
تأليف ف . بان

٦ - قلب النسر
تأليف اوكتاف أوبرى

٧ - السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد أبو حديد

٨ - غاندى : القديس الثائر
تأليف لويس فيشر

٩ - زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

١٠ - الزعيم احمد عرابى (نفد)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

١١ - بطلة كربلاء (نفد)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

١٢ - أشعب أمير الطفيليين (نفد)
تأليف توفيق الحكيم

١٣ - نفرتيتى ربة الجمال والتاج
تأليف صوفى عبد الله

١٤ - حديث رمضان (نفد)
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى

١٥ ـ عبقرية خالد (اعيد طبعه)
تاليف عباس محمود العقاد

١٦ ـ الذئب الاغبر مصطفى كمال
تاليف الكابتن هـ٠س٠ ارمسترونج

١٧ ـ كليوباترة فى خان الخليل
تاليف محمود تيمور

١٨ ـ الاسلام دين الفطرة
تاليف الشيخ عبد العزيز جاويش

١٩ ـ لا تخف (نفد)
تاليف ادوارد سبنسر كولز

٢٠ ـ مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية (نفد)
تاليف عبد الرحمن الرافعى

٢١ ـ القائد الاعظم محمد على جناح
تاليف عباس محمود العقاد

٢٢ ـ زينب
تاليف الدكتور محمد حسين هيكل (نفد)

٢٣ ـ مذكرات عرابى
جزء اول (نفد)
تاليف الزعيم أحمد عرابى

٢٤ ـ مذكرات عرابى
جزء ثان (نفد)
تاليف الزعيم أحمد عرابى

٢٥ ـ عبقرية عمر (أعيد طبعه)
تاليف عباس محمود العقاد

٢٦ ـ آمنة بنت وهب
تاليف الدكتورة بنت الشاطىء

٢٧ ـ فاطمة الزهراء والفاطميون (نفد)
تاليف عباس محمود العقاد

٢٨ ـ عصا الحكيم فى الدنيا والآخرة
تاليف توفيق الحكيم

٢٩ ـ ابو نواس
تاليف عبد الرحمن صدقى

٣٠ البؤساء
تاليف فيكتور هيجو

٣١ ـ علمتنى الحياة (نفد)
لنخبة من علماء الشرق والغرب

٣٢ ـ فى الطريق
تاليف ابراهيم عبد القادر المازنى

٣٣ ـ مدرسة المغفلين (نفد)
تاليف توفيق الحكيم

٣٤ ـ لا تقتل نفسك
تاليف بيترشتاينكرون

٣٥ ـ عصاميون من الشرق والغرب
لنخبة من كبار الكتاب
(أعيد طبعه)

٣٦ ـ الارواح المتمردة ـ الاجنحة المتكسرة ـ الموسيقى
تأليف جبران خليل جبران

٣٧ ـ ذو النورين عثمان بن عفان (نفد)
تاليف عباس محمود العقاد

٣٨ ـ محمد الثائر الاعظم
تاليف فتحى رضوان

٣٩ ـ عش مائة عام
تاليف جايلورد هاوزر

٤٠ ـ الحرية الحمراء
تاليف حبيب جماتي

٤١ ـ أهل الكهف
تاليف توفيق الحكيم

٤٢ ـ الله (أعيد طبعه)
تاليف عباس محمود العقاد

٤٣ ـ عش شابا طول حياتك
تاليف فيكتور بوجومولتز

٤٤ ـ علم الفراسة الحديث
تأليف جرجى زيدان

٤٥ ـ نساء النبى (أعيد طبعه)
تاليف الدكتورة بنت الشاطىء

٤٦ ـ ثائرون
تاليف محمود تيمور

٤٧ ـ زهرة العمر
تاليف توفيق الحكيم

٤٨ ـ هذا مذهبى
بأقلام نخبة من الشرق والغرب

٤٩ ـ غادة النيل
تاليف اميل لودفيج

٥٠ ـ مطلع النور
تاليف عباس محمود العقاد

٥١ ـ يوميات نائب فى الارياف
تاليف توفيق الحكيم

٥٢ ـ طريق السعادة
تاليف فيكتور بوشيه

٥٣ ـ ألف ليلة وليلة
(الجزء الاول)

٥٤ ـ عبقرية الصديق
تاليف عباس محمود العقاد

٥٥ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الثانى)

٥٦ ـ مدرسة الشيطان
تاليف توفيق الحكيم

٥٧ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الثالث)

٥٨ ـ معاوية بن أبى سفيان
تأليف عباس محمود العقاد

٥٩ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الرابع)

٦٠ ـ اعرف نفسك
تاليف ادوارد سبنسر كولز

٦١ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الخامس)

٦٢ ـ مع الله ٠٠ فى السماء
تاليف الدكتور أحمد زكى

٦٣ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء السادس)

٦٤ ـ قصة الثورة كاملة (نفد)
تاليف أنور السادات

٦٥ ـ جحا الضاحك المضحك
تأليف عباس محمود العقاد

٦٦ ـ بنات النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٦٧ ـ عبقرية الامام على
تاليف عباس محمود العقاد

٦٨ ـ شاعرة الطليعة: عائشة تيمور
تأليف الآنسة مى

٦٩ ـ الصديقة بنت الصديق
تأليف عباس محمود العقاد

٧٠ ـ بطل الكفاح : الشهيد محمد فريد (نفد)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

٧١ ـ قال الرئيس
للرئيس جمال عبد الناصر

٧٢ ـ بناة النهضة العربية
تأليف جرجى زيدان

٧٣ ـ محمد الرسول البشر (نفد)
تأليف توفيق الحكيم

٧٤ ـ القصر المسحور
تأليف طه حسين ـ توفيق الحكيم

٧٥ ـ قصة الثورة كاملة (نفد)
تأليف أنور السادات

٧٦ ـ أسرار الثورة المصرية
تأليف أنور السادات

٧٧ ـ عصفور من الشرق
تأليف توفيق الحكيم

٧٨ ـ البؤساء
تأليف فيكتور هيجو
تعريب محمد حافظ ابراهيم

٧٩ ـ اخلاق للبيع
تأليف فتحى رضوان

٨٠ ـ لا شيوعية ولا استعمار
تأليف عباس محمود العقاد

٨١ ـ قصة الوحدة العربية
تأليف أنور السادات (نفد)

٨٢ ـ حياة المسيح
تأليف عباس محمود العقاد

٨٣ ـ الفكاهة فى مصر
تأليف الدكتور شوقى ضيف

٨٤ ـ عش سليما بغير مرض
تأليف الدكتور ابراهيم فهيم

٨٥ ـ شهر رمضان
بقلم خليل طاهر

٨٦ ـ سارة
بقلم عباس محمود العقاد

٨٧ ـ صلاح الدين الايوبى
تأليف : محمد فريد أبو حديد

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب « المبتديان » بالقاهرة ، وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ومن جميع المكتبات الشهيرة ، وأكشاك الصحف ، ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذا الكشف

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢ (الاعداد ترسل بالطائرة)

العراق : السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد

البرازيل : Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Colegio N° 3,
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

غانا : Mr. Joseph Hassan,
The Cine Travel Co,
P.O Box 1883,
ACCRA, GHANA

هذا الكتاب

ستظل ثورة مصر ، وبطلها جمال عبد الناصر ، موضوع تعليق وتحليل الكتاب على مر العصور . والواقع أن أى فهم صحيح للثورة ومبادئها وأحداثها، لابد أن يتم عن طريق فهم شخصية جمال عبدالناصر وفلسفته في السياسة والحكم

وكتاب « ياولدى ، هذا عمك جمال » للسيد أنور السادات الذى تقدمه سلسلة «كتاب الهلال» اليوم، كتبه رجل ربطته الصداقة الوطيدة بهذه الشخصية الفريدة ، وفهم فلسفتها ، فضلا عن أنه أحد رجال الثورة الذين اشتركوا فيها ، وتفاعلوا معها ، ومن ثم ففيه تحليل دقيق لبطل الحرية والتحرير

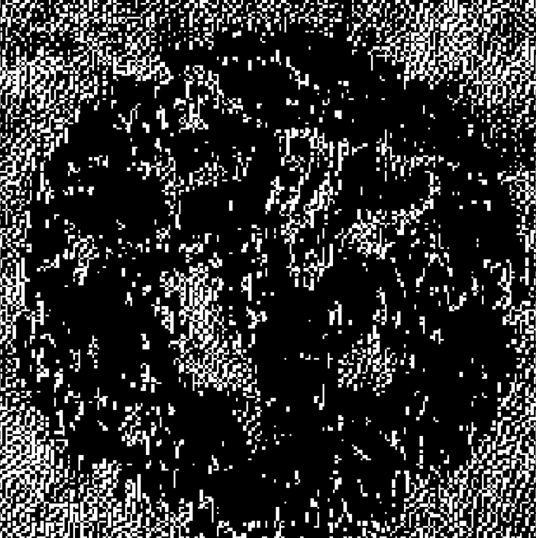
وينفرد هذا الكتاب بأنه يتناول جمال في الثورة، والثورة في جمال ، وهو تحليل للثورة بعد قيام الثورة ، وللأحداث والأسرار والمشاكل والمؤامرات التى واجهت قائد الثورة ، فصمد لها ، عالجها ، بفلسفته المبنية على الواقعية والفهم الصحيح ، وهذا الكتاب ليس تاريخا ، وانما هو احساسات وانفعالات، وذكريات تحلل الأحداث الكبرى التى صادفت الثورة في السنتين الأخيرين ، وفازت فيهما بالنجاح والتوفيق

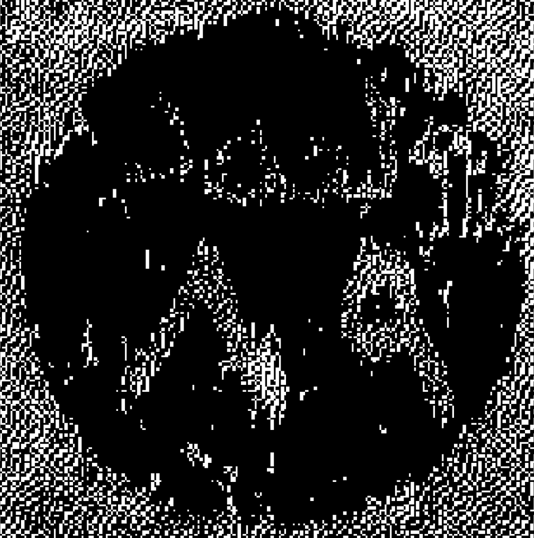
كتاب الهلال

إبليس

بقلم

عباس محمود العقاد





سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ٨٩ ـ محرم ١٣٧٨ ـ أغسطس ١٩٥٨

No. 89 — Août 1958

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ـ مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ـ سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا ـ السعودية والعراق والاردن وليبيا ١٣٠ قرشا صاغا ـ الامريكتان ٥ر٥ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

ابليس

[illegible]

بقلم

عباس محمود العقاد



فاتحة خير

يوم عرف الانسان الشيطان كانت فاتحة خير

وهى كلمة رائقة معجبة ، تروع المسامع وتستحق فى بعض الاذواق أن تقال ولو تسامح القائلون والسامعون فى بعض الحقيقة طلبا لبلاغة المجاز

ولكنها فى الواقع هى الحقيقة فى بساطتها الصادقة التى لا مجاز فى لفظها ولا فى معناها ، ولا تسامح فى مدلولهاعند سامع ولا قائل ، بل هى من قبيل الحقائق الرياضية التى تثبت بكل برهان ، وتقوم الشواهد عليها فى كل مكان

فقد كانت معرفة الشيطان فاتحة التمييز بين الخير والشر ، ولم يكن بين الخير والشر من تمييز قبل أن يعرف الشيطان بصفاته وأعماله وضروب قدرته وخفايا مقاصده ونياته

كان ظلام لا تمييز فيه بين طيب وخبيث ، ولا بين حسن وقبيح ، فلما ميز الانسان النور عرف الظلام ، ولما استطاع ادراك الصباح استطاع أن يعارضه بالليل ، وبالمساء

كانت الدنيا أهلا لكل عمل يصدر منها،ولم يكن بين أعمالها الحسان وأعمالها القباح من فارق الا أن هذا يسر وهذا يسوء ، والا أن هذا يؤمن وهذا يخاف • أما أن هذا جائز وهذا غير جائز فى ميزان الاخلاق فلم يكن له مدلول فى الكلام ، ولم يكن

له ـ من باب أولى ـ مدلول فى الذهن والوجدان

وكانت القدرة هى كل شىء

فلما عرف الانسان كيف يذم القدرة ويعيبها عرف القدرة التى تجمل بالرب المعبود ، والقدرة التى لاتنسب اليه ولكنها تنسب الى ضده ونقيضه

وهو الشيطان

وكانت فاتحة خير لا شك فيه

كانت فاتحة خير بغير مجاز وبغير تسامح فى التعبير

وكانت للانسان عين يعرف بها الظلام ، لانها عرفت النور وخرجت من غيابة الظلمات التى كانت مطبقة عليه

فتاريخ الانسان فى أخلاقه الحية لا ينفصل من تاريخ الشيطان

وأوله هذا التمييز بين الخير والشر

ولكنه الاول فى طريق طويل لم يبلغ نهاية مطافه

فبعد التمييز بين الخير والشر خطوة أخرى ألزم من تلك الخطوة الاولى فى تاريخ الاخلاق الحية

وتلك هى معرفة الخير فى الصميم

فقد كان على الانسان أن يعرف حقيقة الخير ليعمله على علم وبصيرة

فليس الخير خلوا من الشر وكفى

وليس الخير ابتعادا من الشر وكفى

وليس الخير عجزا عن الشر وكفى

وليس الخير مخالفة للشر وكفى

كلا . بل الخير شىء قائم بذاته وليس قصاراه انه امتناع من شىء سواه

الخير هو القدرة على الحسن مع القدرة على القبيح ، وهو الاختيار المطلوب بعد التمييز بين القدرتين

ولهذا عرفنا من تاريخ الشيطان انه سقط لانه أنف من تفضيل آدم عليه وعلى الجان والملائكة أجمعين

وانما فضل آدم عليه لانه عرضة للخيروالشر ، ولانه مطالب بالخيرات وهو ممتحن بالشرور

فضل على الملائكة الذين لا يصنعون الشر لانهم بمنجاة من غوايته ، وفضل على الجان الذين لا يختارون بين نقيضين

ومن تلك الآونة عرفت وظيفة الشيطان فى هذا العالم وعرفت معها فضيلة الانسان

فانما وظيفة الشيطان أن يثبت عجز الانسان أمام الغواية والفتنة ، وأن يمتحن مشيئته وهو يتردد بين الخير والشر والمباح والحرام

وانما فضيلة الانسان أن يصنع خيرا وللشر عنده غوايةوله في نفسه فتنة ، ولولا ذلك لما كان له فضل على الملائكة ولا على الجان

لا جرم كان تاريخ الشيطان تاريخا للاخلاق الحية فىوجدان آدم وبنيه



وتمتحن الاخلاق الحية بمحنة المعرفة والجهل كما تمتحن بمحنة الخير والشر والفضيلة والرذيلة

فمهما نتخيل من مخلوق قابل لان يعرف بعد جهل ويدرك بعد قصور فليس — غير الانسان — مصداق لذلك المخلوق

ليست الملائكة ولا الجان فى صورتها الحية مخلوقات نامية فى معرفتها ، عالمة ما تعلمه بعد جهله ، متقدمة من الطفولة

الى الرشد الى غاية المدى المقدور لكل مخلوق

ولكنها فى صورتها تعلم ما تعلمه كأنه من خصائص معدنها التى لا تفارقها ، فلا اجتهاد لها فيما تعلم ولا فوات على اجتهادها فيما تجهل ، وكل ما أوتيته من علم فلا حيلة لها ولا حول فيه، كلمعان النور ووهجان النار ، ولألاء الجوهر الصافى وجريان الماء وخفقان الهواء

ولا كذلك سليل التراب ٠ انه ليعلم حتى لتعجب كيف علم، وانه ليجهل حتى لتعجب كيف جهـــل ، ومن كان قابلا لان يأتى بالعجب فى علمه وجهله فهو مسئول عن هذا وذاك

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون

« وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضـــهم على الملائكة فقـــال انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين

« قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنـــا انك انت العليم الحكيم

« قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون

« واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين »

فليست القداسة أن تكون نورا وأنت نور ، وليس الفخار أن تكون نارا وأنت نار

وانما القداسة والفخار أن تكون نورا ونارا وأنت تراب ، وأن تسبح وتقدس وأنت قادر على الفساد والعدوان

وكلما ذكرت الاخلاق الحية فقد ذكر تاريخ الشيطان فى ثوب الحياة ، وقد ذكر تاريخ الغواية والحرية فىالمطاوعةوالاعتصام، وتلك هى الاخلاق الحية كما تعيش فى اللحم والدم وفى القيم والمزايا • فأما الاخلاق فى صفحات الورق وفى مصطلحات الباحثين فهى كلمات وحروف وأصداء

ولم يوجد النوع البشرى بصفاته وأخلاقه ليكتبها سطورا على صفحات ، ويجمعها أطروحة فى قاعة درس أو سفرا على الرف الى جانب أسفار

ولكنه وجد بصفاته وأخلاقه ليحياها ويعيش بين حقائقها ويعطيها الاسماء التى تدله على تلك الحقائق كما يستقبلها بحسه وشعوره ويواجهها برجائه وخوفه ، وباقباله ونفوره ، وينادى بالاسم من هذه الاسماء فلا يفهمه كما تفهم الكلمة عند المراجعة فى القواميس ، بل يفهمها حبا وبغضا ، وغبطة وندما ، ورضوانا وسخطا ، وحركة تنبض بها العروق ، وسرا يختلج فى الاعماق

وهكذا يتطبع الحى على صفاته وأخلاقه ، وهكذا تتعارف عليها الامم وهى تحيا وتعتلج بالحياة ، وهكذا تضطرب بين الاكوانالتى لا تحصرها الاوراق ولاتحدها الحروف ولا تحتويها العقول ، بل تجىء العقول طارئا عليها وضيفا فى رحابها ، وقد مضى عليها فى مكانها أدهار بعد أدهار ، وأسماء بعد أسماء ، ولغات بعد لغات

الشيطان !

أى مجموعة من الاسفار تؤدى للضمير ما تؤديه هذه الكلمة بقارعة واحدة تنفذ من الآذان الى الاعماق

والى اليوم يكتب الباحثون ألف مذهب ومذهب ، ويلحقون

بها ألف « لوجى ولوجى » على غرار السيكولوجى والبيولوجى والميثولوجى وغيرها من اللواحق فى الاواخر على اختلاف الصيغ واللغات

الى اليوم يفرقون بين الصفات والاخلاق بهذه المصطلحات فلا يبلغون بها فى الحس ولا فى الذهن ما بلغه المتكلمون بلغة الحياة ولغة الفطرة ولغة « الهيروغليفية » التى تسبق كل كتابة وتلحق بكل كتابة الى آخر الزمان

وقد سمعنا عن الصفات الالهية ، والصفات الملكية، والصفات الشيطانية ، والصفات الانسانية ، والصفات البهيمية ، والصفات السبعية ، فمن لم يفهم هذه العناوين بمدلولاتها الحية فما هو بفاهم شيئا من فوارق الاخلاق يشرحها له ألف عالم ويسجلها له ألف كتاب

ولمن شاء أن يرفع هذه الكلمات ويضع فى مواضعها كلمات الاصطلاح اللغوى أو الفلسفى من قبيل الاخلاق المثالية والاخلاق الاجتماعية والاخلاق النفعية وأخلاق التقدميين وأخلاق المحافظين، وما أشبه هذه الكلمات والمصطلحات ، فانه لا يحس منها الا أنها بطاقات معلقة على وجهات أو شواخص لانبض فيها ولا دم ولا حراك

ولكنه لأول وهلة يسمع الصفات الالهية فيفهم انها أعلى الصفات ويحس أنه يرتفع بالاتجاه اليها والرجاء فيها الى أعلى عليين ، ويستشرف لها بقلبه ويتفتح لها بمغاليق سريرته ، ويعرفها حقيقة حية ولا يكون قصاراه من معرفتها انها مادة فى معجم أو عنوان على مذهب أو اشارة مرور الى حيث يسير أو لا يسير

ولاول وهلة يسمع الصفات الملكية أو صفات الملائكة فيفهم

أنها الطيبة والطهارة والحب والسلامة ، ويقابلها فى الوقت نفسه بالحنين اليها لسلامتها ووداعتها والعطف عليهـا لخفاء الشر عليها واحتجاب أساليب الكيد والخداع عنها

ولاول وهلة يسمع الصفات الانسانية فيعرف منها ما يناقض البهيمية والسبعية ويقابل الالهية والملكية ، ويعرف فى الوقت نفسه ان الانسان قابل للطموح الى ما يعلو عليه والهبوط الى ما ينحدر دونه من صفات الكائنات جمعاء

ولاول وهلة يسمع الصفات الشيطانية فيفهم انه فى موقف احتراس وحذر وان لم يخل من تطلع فى أحيان ومن اعجـاب فى أحيان أخرى ، ولا يضطر الى مراجعة اللغة أو مراجعـة الحكمة ليفهم ما يحذره من الشيطان وما يستقبله منه بالفكر أو الوجدان ، فان هذه الكلمة تقع فى موقعها عنده كأنها نقلت اليه الشيء نفسه محسوسا ملموسا معقولا مدروسا، ولم تنقله منه باشارة أو عنوان

وقس على ذلك ما يفهمه من كلمات الصفات البهيميـة أو الصفات السبعية ، فانها كذلك تنقل اليه أشياء وأحياء ولا تنقل اليه حروفا وكلمات

ان خالق الكون لم يرد باعطاء النـاس حياتهم أن يعطيهم قاموسا أو موسوعة من العناوين والمصطلحات ، ففى وسعهم هم أن يعطوا أنفسهم هذه القواميس ، وقد أعطوا أنفسهم هذه القواميس فعلا فاذا هى أكثر الاشياء اختلافا بين قبيل وقبيل وبين أمة وأمة ، واذا هى برج بابل يمتد على كرة الارض ولا يزال أبدا فى حاجة الى ترجمان

ولو كانت هذه المدلولات فى اللغات هى الحقائق المقصودة لما كان للمدلول الواحد ألف كلمة فى كل لسان

ولكن هذا النوع الانسانى تلقى وجوده من خالقه حياة تجيش فى ضمائره وفيما حوله بالحقائق الحية كائنا ما كانت أصداؤها فى عالم الحروف والرموز والاشارات والكلمات والطلاسم أو فى « الهيروغليفية الكونية » على الاجمال

ومن شاء فليبادل ان كانت له الجرأة !

من شاء واستطاع فليعد بالانسان الى أولهلينتزع من ذاكرته ووجدانه كل ما أحسه وتعلمه من كلمة الشيطان أو كلمة الملك أو كلمة الخطيئة أو كلمة العصيان ، وليضع فى مكانها ما يقترحه فى تصريف اللغة ومصطلحاتها مفسرة ميسرة محكمة مقسمة ، ولينظر ماذا صنع بالانسان فيما مضى وما يصنع به فيما بعد ، فانه قاتله وملقيه فى مقبرة من قاموسه الجليل

من كانت له الجرأة ، وكانت لديه القدرة ، فليبادل ولينظر فرق ما بين كلماته ومصطلحاته ومدلولاته وبين هذه « الهيروغليفية » الكونية التى هى الكلام وهى متكلموه وهى المحسون به وفاهموه

وليقف خاشعا مستعيذا « بالشيطان » من الغرور

وليرجع فى أمان هذه « المعوذة » الى تاريخ الشيطان ليعلم منه تاريخ الاخلاق الحية وتاريخ الانسانية الخالدة

فاذا كان لا يدرك تاريخ الاخلاق الانسانية حقا وصدقا الا من تاريخ الشيطان فلا ينكرن هذا الاسم ولا ينكرن وجوده من باب أولى

انه وجود أرسخ من وجود الانسان

ومن لم يكن فى وسعه أن يدرك ما وراء هذه الحقيقة فأحرى به ألا يتطفل على الوجود والعدم ، والحياة والموت ، والحق والباطل ، والعلانية والخفاء ، والظواهر والاسرار ، فكل أولئك

له معناه الذى لا يدركه ولا يدريه

وسنكتب فيما يلى تاريخ الشيطان لنستخرج منـــه تاريخ الاخلاق الانسانية كما تشخصت فى ثنية الحياة ، ونركب عليها بعد ذلك ما يوافقها أو يلافقها من مصطلحات القاموس !



الفصل الأول

* قبل الشيطان
* أنواع ودرجات فى الحرام والمحظور
* أنواع الشيطنة

قبل الشيطان

قبل شيوع صورة الشيطان كانت بديهة الانسـان تملأ العالم بأشتات لا تحصى من الارواح والاطياف

وكان من هذه الارواح والاطياف ما يخفى ولا يظهر لأحد ، ومنها ما يخفى على أناس ويظهر لآخرين بالرقى والعـزائم ، ومنها ما يتلبس أحيانا بالاجسام ويظهر لكل من لقيه فى مأواه

ولم يكن الانسان يقسم هذه الارواح الى ذات خـير وذات شر ، لانه لم يميز بين الخير والشر الا بعد معرفتـه بصورة الشيطان كما تقدم

وانما كانت هذه الارواح تنقسم عنده الى أرواح مصادقةأو أرواح معادية ، والى أرواح نافعة أو أرواح ضارة ، والى أرواح سهلة أو أرواح عصية ، فلا فارق بينها عنده غير درجة الصلح والعداوة أو درجة الفائدة والأذى ، وأما طبيعة الخير وطبيعة الشر فقد جاءت بعد مراحل كثيرة فى طريق الايمان بالارواح

والاختلاف بين الشر والضرر بعيد

فالشر لا يصدر منه خير بارادته ، ولكن الضرر قد يصيب أناسا ولا يصيب آخرين ، وقد يأتى من عمل ولا يأتى من عمل غيره ، وقد يكون الضار بهذا نافعا لذاك ، فليست هناك طبيعة تسـوقه الى الشر فى جميع الاحوال بل هنـاك احوال

متعددة وأعمال منوعة ، وشأن الارواح فى ذلك شأن الناس من حوله بين قوم من قبيلة وقوم من أعدائها ، أو بين قوم من خاصته فى القبيلة وقوم ينفر منهم وينفرون منه لاسباب عارضة أو باقية لا ترجع الى أصالة فى الطباع

وقد يصح تشبيه عالم الارواح عنده بعالم الغـــاب أو عالم السباع والحيوان

فالغاب فيها النمر والثعبان ، وفيها البلبل والعصفور ، ومن حيوانها ما يأمنه ولا يخشاه ، وقد يتألفه ويســـــتخدمه فى مصالحه ويشركه فى مسكنه ، وقد يكون عنده الكلب الانيس وفى الخلاء الكلب المستوحش العقور ، وقد يكون عنده الحصان الداجن وفى الخلاء الحصان الجامح الذى لا نفع منه ولا ضرر ، وجملة الفوارق بينها مسألة أحوال وأحيان أو أحوال رياضة واستعصاء

وهكذا كان عالم الارواح فى الهمجية الاولى : كان عالم فائدة وضرر ، أو عالم هوادة واستعصاء ، أو عالم صداقة وعداوة ، فأما عالم الخير الاصيل أو عالم الشر الاصيل فلا تتمثل له صورة فى بديهة الانســـــان قبل انقسام الطبائع وتباين الاقيســـــة والموازين بين الاعمال والاخلاق

ويدل على أصالة الايمان بالارواح فى بديهة الانسان انهـــا وجدت فى كل سلالة بشرية من الســـــلالات التى نشأت فى القارات المتقاربة فتعلم بعضها من بعض فى مسائل الدنيـــا والدين ، أو من السلالات التى وجدت فى الامريكتين منعزلة منذ أدهار لا تعرف لها بداءة ، فهى لم تتعلم تلك العقائد من غيرها ولم ترجع بها الى مصدر معروف فى العالم القديم

ووجدت هذه العقيدة على أكثرها فى الجزر الاســــــترالية

المتباعدة ، كما وجدت عند حوض الامازون فى أمريكا الجنوبية ، أو وجدت فى أفريقية الجنوبية أو الشرقية التى يقال انها مهد الجنس البشرى قبل سائر القارات ، ويقال مع ذلك انها تلقت أفواج المهاجرين من الجنس القفقازى قبل فجر التاريخ

والمهم فى هذا الشيوع أنه أصيل فى البداهة الانسانية وانه لم يكن من تدجيل الكهان والسحرة كما يخطر لمن يسهل عليهم أن يفسروا كل شىء بالدجل والخداع

ويكاد الشبه بين الارواح فى القارات المتباعدة أن يكون أقرب من الشبه بين الآدميين أنفسهم فى تلك القارات ، فالكائن الروحى فى الجزر الاسترالية أشبه بالكائن الروحى فى أمريكا الجنوبية من الامريكيين الاصلاء والاستراليين الاصلاء ، وليس بين روح وروح فى الاقطار المتنائية ذلك الاختلاف الذى يعترى الالوان والاشكال من فعل الجو والتربة والماء والهواء ، فانك قد تنقل الاسترالى من الجزر الى أمريكا الجنوبية فيشعر فيها بالغربة ويريبه من قومها ما يريبه من الغرباء ، ولكنك اذا نقلت روحا من هناك الى هنا أو من هنا الى هناك لم تجده على غرابة فى عالم الارواح ولم تكن بينه وبين العالم الذى انتقل اليه فجوة من الجنس واللون واللغة أبعد من الفجوة التى بينه وبين سائر الارواح فى وطنه الاصيل ، وانها لظاهرة جديرة بالتنبه لها والتوقف عندها فى علم المقارنة بين الاديان ، لانها قد تفضى بنا الى الوقوف على سليقة دينية شديدة التقارب بين الاجناس والاقوام ، وليس مصدرها من الخيال وحده لان مخلوقات الخيال وحده بعيدة الفوارق بين أساطير الامم فى الاقاليم الواحد فضلا عن شتى الاقاليم

وقد كتب الرحالون والبحاثون عن القبائل الفطرية التى

وجدوها فى القارات الخمس خلال رحلاتهم اليها منـذ أوائل القرن الثامن عشر الذى نشأت فيه علوم المقـابلة بين العقائد والسلالات ، فاذا قدرنا انها تغيرت مع الزمن منـــذ النشأة الاولى قبل عشرات الالوف من السنين ، ورأينا بعد هذا التغيير مقدار التشابه بينها فى العصر الحاضر كان هذا التشابه حقا أجدر شيء من الباحثين بالالتفات اليه ، لانه دليل على أن وحدة السليقة الدينية أقرب جدا من وحدة القريحة والخيـــال ، اذ ليست أساطير الفنون على درجة من التشابه تقارب ذلك التشابه بين الارواح والاطياف فى الاديان والمعتقدات

ان الدين أعمق فى كيان الانسان من الخيـــال الذى يولد الاساطير ويخلق أشباح الفنون ، وقد يكون التقارب بين الاصلاء من الافريقيين والامريكيين والاوربيين والاستراليين ملحوظا فى تقارب الاوصاف بين الارواح والاطياف حيث لا يلحظ التقارب بين المصنوعات اليدوية نفسها من الادوات وآنية الفخار ، وهى المصنوعات التى تقاس بها طبقات العصور ويحسبها الكثيرون على مثال واحد فى كل عصر من العصور الحجرية أو عصـــور المرعى أو العصور النحاسية ، ولكنها على كونها محسوســة يحكمها النظر واللمس وتوحى بها المنفعة والحاجة المتكررة لم تبلغ من التقارب والتشابه ما قد بلغته ملامح الارواح والاطياف

وقد تخصص لكل أقليم من أقاليم القارات رحالون مستقلون فى دراساتهم للاحياء وتنقيبهم عن الآثار ، فيكتب عن الجـزر الاسترالية أناس غير الذين يكتبون عن القارة الافريقية ، ويكتب عن سهوب آسيا الشمالية طائفة غـير هؤلاء ، فهم لا ينقلون بعضهم من بعض ولا يرجع بعضهم الى بعض فى تسجيـــل المشاهدات واثبات الكشوف التاريخية ، ولكنهـــم يعـرفون

المشابهة بين العقائد حين يرجعون الى المقـــارنة والمقـــابلة ويستخلصون منها مايستخلصون من وحدة الاصول



ولهـــذه المشابهـــات يقرأ القارىء عن «أرواح» اقليم من الاقاليم فلا يضيره كثيرا أن يخطىء فيحسبها أرواح اقليم آخر، لانها بمثابة النبات الذى يصح زرعه على طول السنة فى جميع الارضين ، فيزرع فى هذا الموسم أو ذاك ، وفى هذه البقعة أو تلك ، بغير اختلاف كبير فى طريقة الفلاحة والحصاد

يقول باريندر « Parrinder » فى كتابه عن النحل التقليدية فى أفريقية : « أن الارواح يمكن أن تتخذ مساكنها فى كل شيء من أشياء الطبيعة : على كل قمة وفى ظل كل شجرة خضراء ، وان التلال والصخور البارزة أحـرى أن تكون مأوى للارواح القوية »

الى أن يقول : « وفى الآجام المتشـابكة العميقـة تسـكن الارواح والاطياف ذوات الخطر والاذى ••• وحيوانات الغاب ـ أو سكان الارض ـ كثير منها حرام على هذه القبيلة أو تلك••• فاذا قتل أحدها وجبت الترضية له أو يظل فى مطاردة القاتل طيفا لا يفر منه »

ويقول شارل واجلى « Wagley » فى كتابه عن « بلدة الامازون » من أمريكا الجنوبية : « ان بعض القردة تخاف فى أعماق الغاب وتحسب قردة الجريبه « Guariba » آفة سحرية وبيلة ، وبعضها له قدرة على اختلاس ظل الانسان•••وأشهر أطياف الغاب وأرواحهـا الكاروبيرا التى تشبه انسـانا قزما ويقال ان أقدامها ملتفتة الى ورائها ، وهى تعيش فى أعمـاق الغاب ومنها تسمع صرخاتها الطويلة المزعجة،ويقال انها مغرمة

بشراب الروم والتدخين ...

ثم يقول : وطيف آخر من الاطياف الخطرة يدعى «ماتن تابريرا» يظهر في المدن ولا يظهر كالاطياف الاخرى فى الغابات والانهار .. وأصل الاعتقاد فيه على ما يظهر منقول من الديار الاوربية

ويتكلم مالنوسكى « Malinowsky » علامة الدراسات الانسانية عن الجزر الاسترالية فيروى قصة الروح التى تسمى عندهم «بلوما» وتذهب بعد مفارقة الجسد الى جزيرة أخرى كأنها العالم الآخر . وهم يعتقدون ان الاشياء لها أرواح تنتقل منها الى حيث تسكن أرواح الموتى ، فيزينون جسد الميت بكل ما كان يزدان به في الحياة ليجرد منه روحه ويبقى بقيته المحسوسة ، وقد يظهر للميت طيف يسمى «كوسى» يخاف لقاؤه ولكنه يداعب الناس ولا يبالغ فى ايذائهم ، وحيثما سمع صياحه وجبت له الترضية والمبالاة ، وقد يخشى القوم هناك أطيافا أخرى لها علاقة بأرواح الموتى يتخيلونها دائما في صورة العجائز القباح وقد يشيرون الى عجوز حية معروفة فيقولون عنها أنها قد أصبحت واحدة من تلك الاطياف ذات العلاقة بالموتى، وانها تعاشرهم بقوة السحر وحيل التعاويذ

وأفضل المراجع التى يعتمد عليها فى فهم العقائد البدائية تلك الرحلات التي يكتبها طائفة من العلماء عاشوا بين القبائل واختلطوا بها فى جميع أطوار معيشتها فعرفوا عاداتها بالمعاشرة على فطرتها ولم يعرفوها بالسؤال والتحقيق على منوال الرحالين الذين يذهبون اليها لدراسة علم الاجناس أو تطبيقه عليها

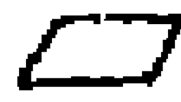
ومن هؤلاء العلماء الذين عاشوا زمنا بين القبائل فى أفريقية الوسطى الطبيب المشهور «البيرت شويتزر» صاحب جائزة نوبل

منذ خمس سنوات ، ويؤخذ من مذكراته أن أخوف المحظورات عندها هي التي ترتبط بأهم المراحل في حياة الانسان ، وهي الولادة والمراهقة والموت ، فقبل الولادة تطيف الارواح بالأب وتلقنه في الرؤيا أو الايحاء أسماء الاشياء التي ينبغي للوليد أن يتجنبها في حياته والا أصابه الاذى من الارواح المطيفة بالمكان ، وعند المراهقة يحاط الصبية بالمراسم والعبادات التي تفرضها كل بيئة على حسبها • وأشق ماعاناه الطبيب من عادات القوم حذرهم من مقاربة أجساد الموتى وهو محتاج في مستشفاه على الدوام الى حمل هذه الاجساد وموارتها

ويؤخذ من مشاهدات هذا الطبيب في جواره أن المحظورات خاصة وعامة ، فمنها ما يحرم على انسان واحد ولا يحرم على غيره حسبما جاءه الوحي من أبيه أو كاهنه ، ومنها ما يعم القبيلة جميعا ولا يستثنى فيه أحد منها ، ويقول الطبيب أن بعض المنذورين لهذه المحرمات قد تأتى شفاؤهم من الوهم الذي غلب عليهم بعد انذارهم بتحريم بعض المطاعم واجتناب بعض الادوات فاجترأوا على مخالفة المحظور وسلموا من العاقبة ولكنهم تخلصوا من عقيدة بعيدة ورسخ في اخلادهم أن الروح الذي أطلقهم من عقال المحظور أقوى من الروح الذي حظره عليهم ، فهو لايستطيع أن يتعقبهم بالاذى وان خالفوه جهرة ، لأنهم دخلوا في حماية روح آخر أقوى وأعظم وأحرى بالمبالاة والاتباع

وقد دخلت هذه الارواح والمحظورات في حساب السياسة كما دخلت في حساب العلم ، فقررت اللجنة البرلمانية التي أوفدتها الحكومة الى أفريقية الشرقية لتحقيق أسباب الثورة فيها ان « دراسة النفسية » التي تنطوي عليها عبادات جماعة

الماو ماو ضرورية لاستقصاء أسباب السخط وعوامل الثورة ، وعقب الاستاذ ماكس جلكمان « Gluckman » على هذا التقرير بفصل مجمل عن أصول العقيدة بين القبائل ، فروى عنها انها تؤمن باله عظيم خلق العالم ثم تنحى عنه ، وأنه سمع من أناس في قبيلة الباوروتس « Barotse » على نهر الزمبيزي الاعلى أن الاله تخلى عن الارض ولاذ بالسماء حيرة من كيد الناس وشطارتهم وأفانين احتيالهم ، ولم يبق لهذا الاله الآن من عمل يستطيعه مع البشر غير مجرد العلم بأخبارهم ، فهم يقولون كلما سألتهم عن مكان بعيد أن الاله نيامبي « Nyambe » أعلم وأدرى ، ويدعي زعماء القبيلة أنهم ينتمون الى هذا الاله من ذريته التي ولدتها له بنته قبل أحد عشر جيلا فملكت على القوم في مكانه ، وهذا سر من أسرار الطاعة للزعماء والثورة على الاجانب والمستعمرين



ويرى جلكمان أن المراسم والشعائر حلت بين القبائل لافريقية محل الصلوات المكتوبة والفرائض المسجلة ، لانعدام لكتابة في تلك القبائل ، فكل علاقة لها شعائرها ومراسمها كل حركة تتحركها القبيلة كلها أو بعض أفرادها طلبا للصيد و انتجاعا للمرعى أو زحفا للغارة على عدوها تتطلب منها لزلفى الى بعض الارواح والحذر من بعض الارواح الاخرى تلجئها الى اتخاذ المراسم والشعائر المتوارثة في أجدادها

وكل ما يصيب الانسان فهو من كيد روح أودسيسة ساحر من عالم « وراء الطبيعة » على الاجمال . فاذا وطىء فيل سانا فقتله فالافريقي يفهم أن قوة الفيل أكبر من قوة الانسان لهذا استطاع قتله ، ولكنه يسأل بعد ذلك : لماذا كان هذا

الانسان هو المقتول ولم يكن انسانا غيره ؟ أليس هنـاك سر يرجع الى تدبير ساحر أو نقمة روح غاضب او مشيئة كائن مما وراء الطبيعة ؟ . وهكذا تلتقى الاسـباب الطبيعيـة المعـروفة بالاسـباب المجهـولة مما وراء الطبيعة ، ولا يحس الانسـان السلامة من الكائنات المحجوبة بحال من الاحوال

وقد تزول العقائد بانقضاء الزمن عليها ولا يزول السـحر وأساليبه الموافقة والمضادة التى تلجىء الافريقى من ساحر الى ساحر ليبطل رقيته ويفسد مكيدته ، فلا ملاذ عندهم من السحر الا الى سحر مثله أو أشد منه ، ولا تعليل عندهم لمصيبة يبتلون بها الا أن تكون من كراهية عـدو يستعين بالسحرة ويستمد قدرته على النكاية من الارواح (١)



وقد حاول الرحالون والباحثون فى الاجنـاس البشرية أن يرجعوا بالاعتقاد فى الارواح الى مصدر مفهوم فلم يتفقوا على مصدر واحد ولم يصلوا الى قول متفق عليه يصلح لتفسير كل حالة وتعليل كل عقيدة

فمنهم من يرجع بعقيدة الارواح الى الاطيـاف التى يراها الهمجى فى منامه ، والى الاحلام التى يرى فيها أنه انتقل الى مكان بعيد وهو لم يبرح مرقده فى بيتـه ، فيخيل اليـه أن الاطياف تتحرك فى الظلام وتترك الاجساد اذا هدأت حركتها لتجول هنا وهناك حيث تشاء ، وأن الذى يحـدث فى حالة النوم يحدث فى حالة الموت فيسكن الجسـد ويبـلى ويتحرك الروح الذى فارقه بفراق الحياة

---

(١) من فصل فى مجلة Listener اللندنية الصادر فى ٢٩ ابريل سنة ١٩٥٤

ومنهم من يرجع بهذه العقيدة الى طبيعة الاستحياء أى الى الطبيعة التى تخيل الى الهمجى أن الاشياء ذات حياة مثله فيعاملها كما يعامل الاحياء ويرضى عنها أو يغضب عليها كالطفل الذى يضرب الارض اذا صدمته حين يسقط عليها ، أو يشعر بالراحة حين نضرب الارض أمامه ونعاقبها بجريرة سقوطه عليها واصابته من صدمتها

وتتمكن هذه العقيدة فى خيال الهمجى مع نقص اللغة وخلطه بين الحقيقة والمجاز فى تعبيراتها ، فاذا سمع أن الارض ولدت عيون الماء وأن أباها انحدر من سحاب السماء لم تزل هذه الصورة تتجسم مع الزمن حتى تنشأ منها أسرة لها أب وأم وأبناء ، ولها مشيئة يلقاها بالتوسل والرجاء أو بالسخط والاعراض

ومنهم من يرجع بعقيدة الارواح الى عبادة الاسلاف بعد الموت ، وقد يحدث أن يسمى السلف باسم حيوان كالاسد أو النمر أو الثعلب أو النسر أو الصقر فيحسب أبناؤه مع طول الزمن انهم تحدروا من ذلك الحيوان ويجعلون له قداسة مرعية توجب عليهم أن يحرموا قتله وأن يتوقعوا الضرر والسقم اذا قتله أحد منهم أو من غيرهم ولم يأخذوا بثأره

ويكاد علماء الاجناس والعادات البشرية ان يجمعوا على ايمان القبائل الفطرية باله واحد أكبر من هذه الارواح المتعددة وأخفى منها فى ظواهر الطبيعة

وقد تقدم من كلام جلكمان أن القبائل فى افريقية الشرقية تؤمن بالاله نيامبى الذى ارتقى الى السماء حيرة من كيد الناس وشطارتهم وأفانين احتيالهم ، وهذه العقيدة على الارجح من بقايا عبادة الاسلاف التى يختلط فيها التاريخ بالخرافة ،

وأصلها على هذا الظن متصل بوحدة القبائل في جدها الاعلى ، فهو ربها جميعا حيثما اختلفت أربابها وتعددت الارواح المسيطرة عليها ، وقد جردوه من القدرة وتركوا له صفة العلم والدراية كأنه الاب الشيخ الذى اعتزل العمل والقتال فلا طاقة له بمنع العداوة بين ذريته من القبائل المختلفة

ولم ينفرد جلكمان بقصة هذا الاله الواحد الذى تشترك فيه القبائل المختلفة في افريقية الشرقية ، فان الرحالين جميعا متفقون على ايمان القبائل الاسترالية برب فوق الارباب يسمى «نانا» أو يسمى بأبى الجميع « All father » على مثال نيامبى فى القبائل الافريقية

ويتفق الرحالون كذلك على ايمان الاقزام الافريقيين برب فوق الارباب تشترك فيه القبائل وان تعذر عليها الوفاق فيما بينها ، ولم يجد علماء الاجناس قبيلة فطرية بلغت من ارتقاء الادراك أن تؤمن بالتوحيد على صورته المثلى ، ولكنها تقترب من هذه الصورة كلما ارتقت من فوضى العقيدة الى مرتبة أعلى وأجمع من مراتب النظام



وليس الهمجى جبانا فان الجبن بين الاخطار المحدقة به أضر به من الشجاعة ، وقد عودته مواجهة السباع والحياة أن يواجهها علانية وأن يصارعها وينصب لها الاحابيل ويستخدم السلاح المستطاع فيما يعييه أن يتغلب عليه بالمصارعة ، ولكنه بين الارواح والاطياف أمام خطر مستور لا يدرى من أين يأتيه ولا تكون الغلبة عليه بقوة البدن والسلاح ، ولعله لا يريد أن يتغلب عليه لأنه عنده فى حكم الاب أو الرئيس المطاع ، ورياضته بالحيلة أولى من التصدى له بالاسلحة والفخاخ

ولا بد من مواجهة تلك الارواح والاطياف بما يكف غضبها ويدفع أذاها ويستجلب رضاها

ولا بد مما ليس منه بد في النهاية ، فأما السكوت عنها فلا يطاق ، وأما الصراع معها فلا يجدي فيه البأس ولا تصلح له الشجاعة ، فكانت حيلة السحر هي الحيلة التى انتهى اليهـا ولم يكن له بد منها بحال

وتخصص السحرة لرياضة هذه القوى التى لاترضى بالايدى والهراوات أو الحراب

وظهرت البداهة الانسانية في هذا التخصص كماتظهر عند الاضطرار اليها فى توزيع جمع الاعمال

فلم يكن السحرة المتخصصون لرياضـة الارواح والاطياف أناسا ممتلئين بالحياة صالحين للكر والفر والصيد واقتناء النسوة وانجاب الاولاد ، بل كانوا على نقيض ذلك أمساخا عزلتهـم الحياة أو انعزلوا بعد اليأس من مجاراتها فى مطالبهـا ، ولاح بينهم وبين عالم الخفاء شبه مناسب يعقـد بينهما العـلاقات الغامضة ويقرب لهما وسائل التفاهـم ، ويوقع في النفوس أثرا واحدا من التوجس والتساؤل والريب فيما وراء الظواهر والمألوفات

وقد شهد الدكتور شـويتزر « Schweitzer » ترشيح بعض السحرة وقال فى مذكراته الأفريقية : « ان الدميم السيىء لا مطمح له في الحصول على امرأة يتزوجها ، فان كبراءه لا يشترون له امرأة لنفورهم منه ، ويكون أبوه قد مات فيمتـلىء بالمرارة ويتحول الى السحر للانتقام من قومه »

وقالت الدكتورة روث فلتون بنديكت « Benedict » أن بعض قبائل كليفورنيا من الهنود الحمـر يتطلبون علم الغيب ممن

يصابون بالصرع ويتعرضون للغيبوبة فى بعض نوباته ، وانهم يفضلون النسوة المصروعات ولكنهم لايقصرون الكهانة عليهن، وقد يكون الرجل المختار متأنثا بطبعه لايصلح للزواج ويلبس لباس النساء مدى الحياة (١)

ووصف الاب هنرى كلوى « Callawey » برنامج اعداد الساحر لوظيفته فقال انه قد يبدو فى أول الامر قويا سليما ولكنه يهزل شيئا فشيئا ويصبح فى عرف القوم « ناعما » ويعنون بذلك أنه يصبح عرضة للانفعال والتأثر ويصوم عن بعض الاطعمة ويتأذى ببعضها وتطرقه الارواح والاطياف فى منامه ويهدده بعضها بالموت ، ويقول العرافون أنه يوشك أن يملكه روح تتصرف به على حكم الارواح ، وفى هـــذه الحالة يصاب أهل القرية بالارق ويتساءلون عما أصابهم لأن وصول الساحر الى منزلة « الانيانجا » أى الملهم المكشوف عنه الحجاب حالة لا تمر فى المكان بسلام (٢)

ولا تنفصل وظيفة الكاهن ووظيفة الساحر فى مبدأ الامر، فالكاهن الذى يقوم بمراسم العبادة ، هو الساحر الذى يدفع أذى الارواح والاطياف ويستجلب رضاها ويسخرها فى المآرب التى يختارها ، ثم ينفصلان شيئا فشيئا فيصبح عمل الكاهن غير عمل الساحر أو يجمع الرجل الواحد بين الوظيفتين ولكنهم يقصدونه لكهانته فى أغراض معلومة ويقصدونه لسحره فى غير تلك الاغراض

---

(١) كتاب الوان من الثقافة « Patterns of Culture »

(٢) ديانات الامازولو « Religious Systems of the Amasulu »

والغالب أن السحر يراد لمصلحة خاصة أو لالحاق الضرر ببعض الاعداء ويعمد فيه الساحر الى الوسائل الخبيثة ولا يكون عاما شامل النفع فى جميع الاحوال ، وتستخدم فيه أرواح منقطعة للأذى والضرر تعودت أن تتآمر على النكاية والنقمة وأن تستجيب لمن يؤدى لها الاجر ويتقدم لها بمراسم الشعوذة والاعمال الخفية

ويلاحظ أن الكاهن قد يكون رئيسا للقوم وكاهنا يؤمهم فى الصلاة والعبادة فى وقت واحد ، ولكن الساحر لا يصل الى هذه المكانة الا أن يكون السحر عملا مضافا الى الكهانة أو فرعا من فروعها التى لا ترتقى الى مرتبة الصدارة

ويلاحظ كذلك أن السحرة مشوهون أو مصابون بالآفات ، وأن أدوار النساء العجائز بينهم شائعة غيرمهملة ، وكلهم بين رجال ونساء غير أهل لحياة القوة والصلابة والمتعة والظهور ، وكأنما السحر لديهم عوض عن نصيب مفقود

وليست الكهانة على الجملة من هذا القبيل ، فان الكاهن قد يكون من أقدر الناس على الجد والوجاهة والمتعة بالرغد والملذات

ويسبق الى الظن أن السحر والكهانة كلها خداع فى خداع من تلفيق السحرة والكهان ، ولكنه ظن خاطىء غير معقول ، لأن السحرة والكهان على اتصافهم بالذكاء والدهاء قد نشأوا بين أقوام توارثوا العقائد واحتفظوا بكثير من العادات التى توهموا أنها كانت نافعة لمن قبلهم وأنها تنفعهم اليوم اذا أحاطوا بعلمها وحذقوا تجاربها ، وربما لام الساحر نفسه اذا قصر فى بلوغ ما يطلبونه منه واجتهد فى علاج ذلك القصور بتكرار التجربة أو سؤال الاقدمين الذين سبقوه فى الصناعة،

وهو بطبيعة عمله لا يستغنى عن الخداع والتلبيس فى معاملة قومـه ، ولكنه لم يكن قط خادعا فى كل شىء ولا يزال خادعا مخدوعا فى جوهر السحر كله ، وهو الايمان بفعل الطلاسم وقوة الارواح

وكلما انفرجت المسافة بين وظيفة الدين ووظيفـة السحر ترقى الانسـان الفطرى من فوضى الارواح والارباب ونبـذ التسوية بينها وتعود التفرقة بينها فيما يطلبه منها ، فمنهـا مايقصده للنفع كما يقصده جميعأبناء القبيلة ، ومنهامايقصده ليتواطأ معه على الاجرام والنكاية كأنه بعض الشطار الذين يعيشون اليوم بتأجير أنفسهم للنكاية والعدوان

ويحدث فى هذا الطور من التمييز بين الارواح والاطياف أن تعرف بأسماء وتوسم بملامح وتتلبس « بشخصيات » وتتخصص كل « شخصية » منها لرسالة تتجرد لهـا وتقدر عليها حيث لا يقدر سواها

وفى هذا الطور ، أو هذه المرحلة ، يتهيأ الذهن للتمييز بين عمل الاله وعمل الشيطان

أنواع ودرجات
فى الحرام والمحظور

تكاد المحرمات فى القبـائل البـدائية ان تربى على المباحات والمحللات. لان المحرمات تشـمل القداسة والنجاسة والعصيان والاحتقار والاستقذار . فهناك أمور محرمة لانهاعظيـمة مبجلة، وأمور محرمة لانها نجسة أو مشؤومة ، وأمور محـرمة لان اتيانها عصيان لرب معبود أو روح قدير ، وأمور محرمة لانها تحتقر وتعاف

وعدد هذه المحرمات فى جملتها كثير يكاد يشمل كل عمل يزاوله الانسـان الفطرى ، بل ربما كان المباح نفسه داخـلا فى التحريم على وجه من الوجوه ، لانه لا يباح الا بصـلوات وشعائر يعرفها الخبراء ولا تعم معرفتها كل أحد ، كالصيد والزرع والحصاد وما شابهها من أعمال الجماعة أو الفرد ، فان الخوف من الاقدام عليها بغير صلواتها ورسومها يجعلهـا فى حساب المحظورات

وقد ترقى الانسـان وترقت معه اللغة ولم تزل فى تعبيراته آثار للتقابل بين القداسة والنجاسة فى الممنوعات ، فكلمةالحرمة فى اللغة العربية تدل على الشيء العزيز العظيم الذى يصـان ويحمى بالارواح والاموال ، وقد يشمل الحرام كل اثم يعاب أو يعاف

وكلمة المنيع أو الممنوع تدل على القوة والرعاية كما تدل على

الرذيلة التى يجب على المرء أن يمتنع عنها ولا يقترب منها

وكلمة القديسين والقديسات كانت تطلق عند البابليين والكنعانيين على الذكور والاناث الذين ينصبون أنفسهم للبغاء فى حرم الربة «عشتروت» أوالسارية ، وقد ترجمت هذه الكلمة فى كتب العهد القديم بكلمة المأبونين والزانيات ، وهى فى الاصل من القديش أو المقدس ، ويقال عن الربة نفسها أنها كانت خليلة الارباب ولدت منهم سبعين الها « ايليم »

وفى القبائل البدائية ثلاثة انواع من المحرمات المقدسة وهى « الطوطم » والوثن أو التعويذة ، والتابو أو الحرام الممنوع

فالطوطم « Totem » هو الحيوان الذى تحرم القبيلة قتاله وصيده لاعتقادها أنها تناسلت منه أو لانها ترمز به الى معبودها وأصل وجودها

والوثن أو التعويذة ـ وهو الذى اصطلح علماء الاجناس على تسميته بالفتيش « Fetish » ـ شىء جامد مصنوع أو طبيعى يحمل فى أطوائه روحا لها حق الرعاية والتوقير ، ومنها يستمد المرء حماية ومنعة مادام على شرعتها فى المباحات والمحظورات ، وقد يكون الوثن صورة أو حجرا أو حصاة أو قطعة من جذع شجرة أو ألفافا من الشعر وعروق الشجر وما اليها ، يصنعها السحرة أو يصنعها الكبار للصغار

والمحظور التابى أقل درجة من الطواطم والاوثان ، لانه قد يتفرق ويتخصص فيكون حراما عند بعض الناس حلالا لغيرهم فى البيئة الواحدة ، بل قد يكون مستحبا مطلوبا لمئات من الناس ولا تحريم فيه على غير آحاد معدودين . وقد روى الدكتور شويتزر ضروبا من هذه المحظورات لا مرجع لها غير التحكم من بعض الارواح المزعومة التى تكشف عن ارادتها قبل وضع الجنين ،

فتخبر أباه فى الرؤيا باسم « التابو » الممنوع على الوليد ، فمن هذه المحظورات أكل بعض الطلح أو البذور ، ومنها ضرب الوليد على ظهره ، ومنها حمل المكنسة أو بعض الآنية ، ولا تكذب النبوءات فى شأن « التابو » بل يصدقها القوم كل التصديق حتى لتقبل عقولهم أن الوليد يولد ذكرا ثم يتحول الى أنثى اذا خولفت نبوءة أو علامة مرصودة ، ويفعل الوهم هنا فعله القاتل الذى لا تجدى فيه النصيحة ولا الاقناع ، ففى ناحية « سمكينا » رأى الطبيب صبيا فى مدرسة البعثة أنبأه رفاقه أنه أكل من أناء طبخ فيه الطلح قبل ذلك ولم يغسل ، وكان الطلح محظورا على الصبى بنبوءة آبائه ، فلم يكد الصبى يسمع الخبر حتى تشنجت عضلاته ولزمه التشنج الى أن مات بعد ساعات

وتحيط هذه التابوات كثيرا بعلاقات الجنسين وبلوغ سن المراهقة فى الذكور والاناث ، فيندر بين قبائل الارض البدائية أن ترى قبيلة خلت من مراسم المراهقة ومحظوراتها الكثيرة ، فتعزل الفتاة ولا تكلم أحدا غير أمها أو لا تكلمها الا بصوت خفيض ، ويؤخذ الصبى بعيدا من بيته ليغسل فى العيون المقدسة من روائح الانوثة التى لصقت به من مصاحبة أمه ، ويجرى له الكهان أو كبراء السن شعائر الفطام ، ومنها فى بعض قبائل الهنود الحمر أن يفارق أمه زمنا أو يدخل الكوخ وهى مستلقية على بابه فيطأ على بطنها علامة الانفصال فى موضع حمله حيث اختلط بجوف الانثى وهو جنين

وتدل الشعائر الموروثة منذ القدم على جهل مطبق بأسرار الجنس والولادة ، وربما تبين من تلك الشعائر أنهم ينوطون نسبة الابن الى أبيه بالمراسم والشعائر ولا يعتقدون أن مجرد

الاتصال بين ذكر وأنثى يحقق الولادة والنسبة الى الآباء ،ففى بعض القبائل يفرض العرف على الرجل أن يقدم زوجته لضيفه الغريب ولا يمنعه ذلك أن ينسب أبناءها جميعا اليه ، لانه هو الذى جرت بينه وبينها مراسم الزواج

ولا يعجبن أبناء هذا العصر من تلك الخـرافات التى تحيط بالجنس ومراسم النسبة بين الابناء والآباء ، ففى عصرنا هـذا من يعتقد أن الولد من نسل الشيطان اذا ولد من غير زواج مشروع ، وقد صدرت المنشـــورات من رجال الدولة ورجال الدين بعد كشف أمريكا الجنوبية وشيوع الامراض الزهرية فى العائدين منها ، فكان فحواها جميعا أنها عقوبة على خطايا الشيطان ، ولما انتشرت عدواه بين المتزوجين والمتزوجات فى أواخر القرن الخامس عشر أصـــدر الامبراطور مكسميليان منشورا ندد فيه بالحضارة وأنذرهم بالتـوبة أو تدوم هـذه الضربة السماوية عقوبة لهم على العصيان (١)



وتتفق جميع المحرمات البدائية على تفنيد مذهب المؤرخـين الذين يقولون عن الديانات ومحرماتها ومباحاتها أنهـا حيطة اجتماعية تهتدى اليهابديهة المجتمع لمنع الجرائم ومعاقبةالمجرمين وحماية الابرياء من عدوان المجرم والاجرام ، فكل هذهالمحرمات انما ترجع الى شىء واحد وهو اغضـاب رب أو روح وتخطى الحدود التى تمنعها الارباب أو الارواح ، ولها كلها علاقة بعالم الخفايا والاسرار وما نسميه اليوم بعالم ما وراء المـادة لانه لا ينحصر فى المحسوسات المادية • وأما الجرائم وعقوباتهافهى

---

(١) كتاب الشياطين والعقاقير والاطباء لمؤلفه هوارد هجارد
« Devils, Drugs and Doctors », by Haggard

أعمال مفهومة مقصودة ترجع الى الاسباب الطبيعية التى يحيط بها علم الانسان كما تحيط بها ارادته ، وهى تعالج بالقصاص المقدر وبالثأر والانتقام وأداء الغرامة والدية ، بل يستمد الثأر قوته أحيانا من عالم الروح ، كما يقال عن روح القتيل فى قبائل الجاهلية العربية أنها لا تزال هائمة مقيدة بجانب القتيل تنادى العابرين بها : « اسقونى اسقونى » حتى يؤخذ بالثأر فتشعر بالرى وتستريح ، فليست المحرمات الدينية هى التى تتوقف على مطالب القصاص وقوانين الجزاء بل هذه المطالب هى التى تتوقف أحيانا على عالم الاسرار والارواح

وقد ثبت من أطوار المحرمات فى القبائل عامة أنها تتقدم مع تقدم الانسان فى ثلاثة أدوار متشابهة

فالطور الاول أن تترقى من الحدود المحلية الى حدود عالمية أو كونية تشمل السماوات والارضين ، فبعد الرب الذى يسيطر على ينبوع ماء أو شجرة فى غابة أو بقعة فى جهة من جهات الاقليم يترقى الانسان الى فهم الرب الذى يسيطر على السحب والانهار وأفلاك السماء ، وكلما أدرك القوانين التى تربط الطبيعة بنظام واحد ترقى ادراكه لقدرة الرب الذى يملك زمامها ويصلى له المصلون لاجرائها فى مجراها المطلوب وتحويلها عن المجرى الذى يحذرون عقباه

ويقترن بهذا الطور ، أو يأتى بعده ، طور التمييز الواضح بين عمل الدين والعبادة وعمل السحر والطلاسم السحرية ، فلا يستطيع الساحر ما يستطيعه الكاهن ، ولا يقصد الكهان عامة فيما يقصد فيه السحرة عامة ، وربما تولى الوظيفتين رجل واحد ولكنه وهو كاهن انما يتوسل الى الآلهة ويتحرى رضاها بالصلوات التى يحسنها دون غيره ، أما وهو ساحر

فهو يسخر الارواح أو يعاملها على أساس التواطؤ والتعاون على العمل الكريه الذى ينفر منه المشتركون فيه ولا يجهرون بسره عن رضى واختيار

وكلما اتضح التمييز بين العبادة والسحر اقترب الانسان من الطور الآخر الذى يستقل فيه بمشيئته بين الوظيفتين

ففى الحياة البدائية يظل الانســان رهينا بمشيئة الارواح التى تنفع وتضر وتنطوى على الصداقة أو على العداء ، وكلها فى رأيه تعمل ما يحلو لها ولا يحق لأحد أن يحاسبها عليه، ولكنه كلما ترقى فى التمييز بينها ملك الميزان الذى يزن به أعمالهـا وأقدارها ، فيدين بعضها ويحمد بعضها ، ويعرف منها مرؤوسين ورؤساء يحق لهم أن يشرفوا عليها ويحاسبوها على أعمالها ، وأحس فى طويته أن يطيع بعضها ضرورة وغصبا، ويطيع بعضها حبا واختيارا لانه أهل للطاعة والرجاء

ومن هنا تصبح الارواح نفسها مطيعة أو عاصية ، وماضية على السنن القويم أو منحرفة عن هذا السنن الى الخطة العوجاء التى ينكرها كبار الارباب

ومتى أتيح للانسان مقيـــاس يقيس به الارواح والارباب ويقيس به أعمالها وحقوقها فهو اذن أهل للمشـــيئة والتبعة وأهل للتمييز بين الخير والشر وبين سلطان الاله وســـلطان الشيطان

أنواع الشيطنة

ما هى أنواع الشيطنة فى العالم ؟

سؤال غريب ، ولكنه يبدو طبيعيا ، بل ضروريا ، اذا وضع فى صيغة أخرى ، فسألنا : ما هو موقف الشر بالنسبة الى القوة الكونية الكبرى ؟

وهنا أيضا نتبين ان فكرة الشـــــيطان أعمق جدا مما يخطر المتعجل الذى يحسب أنه يحل كل مشكلة بكلمــــة الوهم أو التلفيق،أو يحل كل مشكلة باحالتها الى جهل الاقدمين وضلالهم فى الحس والتفكير

فهناك صور للشيطنة بمقدار مافى الذهن البشرى من فكرة عن الشر فى هذا الكون : هل الشر قوة أصيلة؟هل هوقوة ايجابية عاملة ؟ هل هو قوة سلبية ؟ هل هو عدم الخير ؟ هل هو نقص الخير ؟ هل هو عقبة فى طريق الخير ؟ هل هو عقبة تريد وتعمل ماتريد ؟ هل هو عقبة لا ارادة لها ولكنها تضاعف جهود الخير وتستدعيه الى مزيد من الحركة والثبات ؟

كل فكرة عن الشر يمكن ان تخطر على الذهن البشرى قد تمثلت فى صورة من صور الشيطان ، وهذا سبب من الاسباب الكثيرة التى تدعو المفكر الذى يحترم عقله ان يفهم الصور الدينية على حقيقتها ، وحقيقتها انها لغة حية تصور الوجود الحقيقى تصويرا صادقا على أسلوبها الذى يستحق الفهم والتعمق والنظر الى

ما وراء الظواهر والالفاظ

كان الشر أرواحا ضارة متفرقة فى اعتقاد الانسان على الفطرة الهمجية ، فلما أصبح مسألة كونية عامة تمثلت صورته فى حدودها الكونية على شكل معقول ، وسبقت المذاهب الفلسفية بمراحل بعيدة فى هذا المضمار

كان الشر فى تقدير الديانة المجوسية القديمة قوة فعالة معادلة لقوة الخير : كان فى الوجود خير وشر كما فيه نهار وليل ، وكان الليل حقيقة قائمة بذاتها ولم يكن مجرد غياب النهار

كان الليل ضد النهار كما كان النهار ضد الليل ، فاذا غاب النهار فهناك ليل ، واذا غاب الليل فهناك نهار

كان للنور دولة وللظلام دولة، وكان لهذه جنود ولتلك جنود، فهما قوتان متقابلتان متعادلتان أو كالمتعادلتين ، ولكل منهما وجود قائم قابل لان ينفرد بنفسه فى معزل من القوة الاخرى ، فلا يتوقف وجود الشر على وجود الخير ولا يتوقف وجود الخير على وجود الشر ، بل كلاهما موجود بحقه وبقدرته وبعمله كما يوجد الضدان الصالحان للحياة وللبقاء

كان الظلام يصنع مخلوقاته كما كان للنور مخلوقاته التى يصنعها ، وكل منها حسن فى نظر نفسه ، محمود بمقياسه لايبالى مقياس غيره ولا يتمناه

ثم تراجحت الكفتان فرجحت كفة النور على كفة الظلام ، وظل المعسكران متقابلين ولكن الى حين ينتهى آخر الامر بهزيمة الظلام وغلبة النور، ثم يبقى الظلام شيئا يلوذ به أنصاره فيختفون فيه ولا يظهرون للابصار ، وانما هزيمتهم اختفاء وليست بالفناء ولا بالزوال

وعظم التفاوت بين القوتين شيئا فشيئا حتى اصبحت قوة

الشر كقوة الامير التابع مع السلطان المتبوع ، فهو يستطيع شيئا الى جانب سلطانه ولكنه لايستطيع جميع الاشياء ، ولا طاقة له على طول المدى أن يجاريه فى كل شيء

ومن الهين متعادلين تحول الخير والشر الى اله كبير واله صغير ، وقد تظل الحرب بينهما سجالا فينتصر الاله الصغير وينهزم الاله الكبير ، وقد يؤول الامر بينهما الى معركة حاسمة أو يظل العراك بينهما سجالا الى أن تزول الارض والسماء

ثم آمن الناس باله واحد هو الخالق المبدع القائم بذاته ، لا وجود معه للشر الا بمشيئته وتقديره ، فلا يقوم الشر فى هذه الدنيا بذاته مستقلا عن الله

وفى هذه الصورة ظهر الشيطان فى ديانات الامم الكبرى ، ثم ظهر فى الديانات الكتابية بمختلف الاسماء ، وكلها تدل على التعطيل والتشويه والافساد ، ولا تدل على الخلق والتكوين . . . . كلها قوة سالبة ناقصة وليست بقوة موجبة كاملة تبتدىء بمشيئتها عملا من الاعمال

هذه القوة الشيطانية تحول الخير عن موضعه ، أو تملى للنقص فى عيوبه ، أو تقف فى طريق الكمال عقبة تصد الساعين اليه ، أو تزيف «العملة» الالهية فتجعل الزائف منها كالصحيح فى رأى المضلل المخدوع

ولكنها فى جميع أحوالها قوة سالبة وليست بالقوة الموجبة الموجدة بأية حال

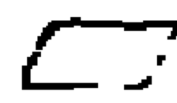
وقد يتمرد الشر على الخير ويعصيه

وقد يخرج الشيطان على أمر الله ، وقد يشوه الخلق وينتقصه ويستر محاسنه ويبدى عوراته ويحول دون رضوان الله على مخلوقاته ولكنه يعمل تابعا ولا يعمل مستقلا فى كون من الاكوان

غير الكون الذى خلقه الله

وفى هذه المراحل جميعا يدل اسم الشيطان على موقفه من القوة الكونيةالكبرى . فهو المتمرد او هو «الضد» أو هوالواشى النمام أو هو الساعى بالفتنة والمغرى بالفساد والموغر للصدور

وما من اسم للشيطان بين هذه الاسماء الا وهو يحمل فى دلالته معنى الافساد والمنع والتشويه ، فليست له قدرة على الخلق والانشاء الى جانب قدرة الله



ولما تقررت المقاييس الالهية فى الاخلاق والاعمال تقررت المقاييس الشيطانية تبعا لها وبالنسبة اليها ، فكان الجديد فيها انها معالم شخصية ذات ملامح معلومة لا ترتسم اعتباطا فى الواقع أو فى الخيال

وقد عالج الشراح الدينيون أن يلخصوا «الشيطنة» فى صفة واحدة تجمع عنصرها ويقوم به كيانها فذكروا الكبرياء وذكروا العصيان وذكروا الحسد وذكروا الكراهية وذكروا الباطل والخداع ، وكلها صفات لاتحسب من اوازم الشيطان الا بعدعلم بوجود الاله المتصرف فى المقادير والاكوان

فالكبرياء افتئات على مقام الاله ، والعصيان خروج على شريعته ، والحسد انكار لنعمته واعتراض على تقديره ، والكراهية صفة قد يتصف بها الابرار حينا بعد حين اذا كانت كراهية لهذا العمل البغيض أو لذلك المخلوق الذميم ، ولكنها اذا كانت قوام الطبيعة كلها فهى صفة هادمة غاشمة تناقض الصفة الالهية فى الصميم وهى الحب ولوازمه من البر والانعام . أما الباطل والخداع فهما نقيض الحق ونقيض الاستقامة ونقيض الخلق على الصدق والسواء

على أن الارواح الاولى فى جاهلية الانسان قد تطورت فى اتجاه آخر مع هذا الاتجاه فى مجال الخير والشر وعالم النفس الانسانية بما يعرض له من صلاح و فساد

ذلك الاتجاه الآخر هو تطورها فيما يتعلق بقوى الطبيعـــة وظواهر السماوات والارضين

فهنا أرواح من الجان الخفى لها عمل غير صـــلاح النفس الانسانية و فسادها، ولها قدرة خاضعة لسلطـــان الاله ومن يصطفيه من عباده ، وينسب اليها كل مجهود عظيم تقصر عنه طاقة الانسان

وليست قدرتها هذه لأنها تعلمت ما لم يتعلمه الانسان، ولا لأنها ذات عقول أكبر من عقله وأصلح منه للفهم والتفكير

ولكنها قدرة تأتيها من عالم الاسرار الذى تعيش فيه ، فهى تسخر القوى الطبيعية لانها تعيش بين أسرارها وتحسب منها أو فى حكمها، واذا فطنت للمعنى الدقيق الذى لم يفطن له الانسان فانما تأتى فطنتها كذلك من اطلاعها على الدقائق والخفايا ونفاذها الى العالم الذى يطرقه حس الانسان ولا يتسلل اليه عقله

وهذه هى شياطين الفنون والصناعات، تبنى الصروح وترفع الصخور وتنهض بالاثقال التى تعيا بها كواهل الانس وتنوء تحتها ادواته وصناعاته ، وتدخل فى ثنايا الخفاء فتلهم الشاعر مايدق عن سائر بنى آدم من غير الشعراء ، ولا جرم يكون لهؤلاء الشعراء وأمثالهم من أصحاب الفنون حال كمس الجان وغيبوبة المخبولين لانهم يخاطبون الجان ويفقهون عنها ويلحنون منها أسرار لغاها واشارات وحيها

وتلك هى أنواع الشيطنة من جانبيها فى اتجاه الضمير وفى اتجاه الذهن والقريحة

فى اتجاه الضمير ترتبط «الشيطنة» بالصلاح والفساد والخير والشر ومساعى الانسان نحو الكمال والرشاد

وفى اتجاه الذهن والقريحة ترتبط «الشيطنـــــة» بالاسرار والبواطن وبالوحى الخفى وغرائب العبارة ، سواء كانت عبارة لغة أو عبارة شكل واشارة

وسيكون لكل نوع من هذه الانواع نصيبه فيما يلى من الصفحات



الفصل الثانى

* ❊ أسماء الشيطان الاكبر
* ❊ الشيطان فى الحضارة المصرية
* ❊ الشيطان فى الحضارة الهندية
* ❊ الشيطان بين النهرين
* ❊ الشيطان فى حضارة اليونان

أسماء الشيطان الاكبر

تمثلت قوة الشر « العالمية » فى شخصيات مرسومة الملامح معروفة الاسماء ، اشتهرت بها فى كل لغة من لغات الحضارة الكبرى التى سبقت ظهور الديانات الكتابية ، وسنذكر هذه الشخصيات بملامحها وأسمائها عند الكلام على أهم تلك الحضارات التى لها علاقة بصورة الشيطان كما تخلفت فى الاعصر الحديثة ، ولكننا نتقدم قبل ذلك بخلاصة عاجلة لاسماء الشيطان الاكبر التى بقيت الى اليوم لورودها فى الديانات الكتابية ولانها قد أصبحت ذات مدلول لغوى الى جانب مدلولها الدينى ، فان حضور هذه الاسماء فى الذهن يبرز معالم الطريق الى الوجهة التى انتهت اليها سوابق التاريخ ومقدراته ، منذ ظهرت « شخصيات » الشيطان الاكبر فى الحضارات الغابرة الى أن ظهرت شخصيات هذا الشيطان فى كل ديانة من الديانات الكتابية التى أسلفنا ان اسم الشيطان فيها قد أصبحت له دلالته اللغوية الى جانب دلالته الدينية

واسم « الشيطان » بالألف واللام هو أشهر هذه الاسماء ، لانه ورد فى كتب الديانات الثلاث ، ودخل فى تعبيرات اللغات الاوربية المتداولة بلفظه المنقول عن اللغات السامية ، فيتحدث الغربيون اليوم عن الفكرة الشيطانية أو عن العمل الشيطانى ويفهمون من عباراتهم معنى لا يلتبس على القائل ولا على المتكلم ، ومعنى الصفة الشيطانية عندهم مرادف للصفة الجهنمية التى

تنطوى على الخبث والبراعة وحب الأذى والتمتع بالايذاء كأنه منفس لطبيعة صاحبها يفرج عنه ويسره أن يلمح آثاره وهو مستتر وراءه

والرأى الغالب ان كلمة « الشيطان » هذه عبرية بمعنى الضد أو العدو ، ومن أسباب الظن باستعارتها من اللغة العبرية انها لغة اليهود وان ديانة موسى عليه السلام سابقة للمسيحية وللاسلام ، ولكنه ظن يصدق فى حالة واحدة :وهى أن يكون اليهود أصلاء فى الكلام عن الشيطان لم يسبقهم أحد من المشارقة اليه ، الا انها حالة لم تثبت • وقد يكون الثابت خلافها ونقيضها ، فان اليهود قد وصفوا الشيطان بعدهجرتهم الى بابل ، وليست طريق بابل موصدة دون الامم السامية غير اليهود

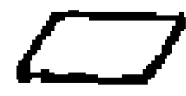
والارجح عندنا أن الكلمة أصيلة فى اللغة العربية قديمة فيها ، لا يبعد أن تكون أقدم من نظائرها فى اللغة البابلية،لان اللغة العربية قد اشتملت على كل جذر يمكن أن يتفرع منهلفظ الشيطان ، على أى احتمال وعلى كل تقدير

ففيها مادة شط وشاط وشوط وشطن • وفى هذه المواد معانى البعد والضلال والتلهب والاحتراق،وهى تستوعب أصول المعانى التى تفهم من كلمة الشيطان جميعها

فالشطط من الغلو الذى يدخل فى أخص عناصر «الشيطنة» والشط بمعنى الجانب المقابل قد تلحظ فى مقابلة الخير بالشر من جانب الشيطان

وشاط بمعنى احترق وتلف ، وأشاطه بمعنى أهلكهوأتلفه، وانطلق شوطا أى ابتعد واندفع فى مجراه ، وشطن أى ابتعد فهو شيطان على صيغة فيعال

وقد كان العرب يسمون الثعبان الكبير بالشيطان ، ويقال فى بعض التفسيرات ان هذا المعنى هو المقصود من « طلعها كأنه رءوس الشـــياطين » ، وذكر الشراح اليهود المتأخرون أن الشيطان تمثل لآدم فى صورة الحية حين أغـراه بأكل الثمرة المحرمة ، ولم تنقطع العلاقة بين الحية والشيطان ، ويؤخذ من سفر أيوب عليه السلام ـ وهو عربى باتفاق المؤرخـين ـ أن الشيطان كان معروفا بين العرب من ذلك العهد الذى كان سابقا لعهد خروج بنى اسرائيل من مصر ، ويؤخذ من تاريخ الادب العربى فى الجاهلية ان العرب قد عـرفوا الشيطان فى أدواره الفنية والادبية مع السحرة والشعراء ، فليس هو مجرد اسم معرب نقلوه من لغة أخرى ولم يزيدوا على وضعه فى موضعه من المأثورات العبرية



وأشهر أسماء الشيطان الاكبر فى اللغة العربية هو اســم « ابليس » الذى يختلف اللغويون فى أصله كما يختلفون فى نسبة كلمة شيطان الى احدى اللغات السامية

والمتكلم العربى يفهم من وصف انســـــان من الناس بأنه « ابليس » كل ما يريده القائل من هذه الصفة ، فهى دالة فى كلام الخاصة والعامة على الدس والفتنة والدهاء والســـعى بالفساد ، ولم تحمل كلمة واحدة من دلالتها اللغوية أكثر مما حملته هــــذه الكلمة مستعارا من صفات ابليس فى العقيدة الاسلامية

ويرى بعض الغربيين ان الكلمة فى أصلها يونانية من كلمة ديابلوس « Diabolos » التى تفيد معنى الاعتراض والدخول بين شيئين كما تفيد معنى الوقيعة، وأصلها فى اليونانية من ديا

« Dia » بمعنى أثناء ، وبالين « Ballein » بمعنى يقذف أو يلقى، ومعنى الكلمتين معا قريب من معنى الاعتراض والدخول بين الشيئين أو قريب من ثم الى معنى الوقيعة

وعندنا أن هذا التركيب أضعف من قول القائلين ان كلمة ديفل « Devil » أى الشيطان فى اللغات السكسونية مأخوذة من فعل الشر « Do-evil » أى من كلمة « دو » بمعنى يفعل وكلمة « ايفل » بمعنى الشر ، وقد أجمع اللغويون والدينيون على نبذ هذا التركيب مع أنه أقرب الى صفةالشيطان من الصفة التى توحى بها الكلمتان اليونانيتان ، بعد التمحل والاعتساف

ولسنا على يقين من انقطاع الصلة بين الكلمة اليونانية والكلمة العربية ، ولكننا على يقين أن « شخصية » ابليس تحتاج ، بل تتوقف على الدلالة التى تستفيدها من مادة « الابلاس » أى فقد الرجاء. فان ضياع الأمل ألزم صفات ابليس على ألسنة الخاصة والعامة ، وليس أشهر من المثل الذى يضرب بأمل ابليس فى الجنة مرادفا لمعنى الامل الضائع كل الضياع ، وقد فرق هذا المعنى بين كلمة ابليس وكلمة الشيطان فى ملامح الشخصية ، فهذا قد ضيع الحق وهذا قد ضيع الرجاء، وكذلك قد فرقت بينهما شروح الفقهاء وفرقت بينهما الدلالة الموحدة بين الشيطنة والابلاس

والغربيون اليوم يستخدمون الكلمة اليونانية فى صيغة النعت وقلما يستخدمونها فى صيغة العلم . فاذا قالوا عن شىء انه « ديابولى » أو ابليسى فالمفهوم منه انه عمل من أعمال التمرد والجبروت لا يلزم انه سيىء كل السوء وانما يلزم انه خلا من الصفات الالهية أو الصفات « الرحمانية » على الخصوص ، وكذلك توصف الثورات الجائحة التى تدمر الظلم وتنسف معالم

الطغيان ، فهى من الجبروت بحيث توصف « بالديابولية » ولكنها من العنف بحيث تخالف الاعمال « الرحمانية » فى الرفق والرضوان .



ومن أسماء الشيطان التى دخلت فى الدلالات اللغوية اسم لوسيفر « Lucifer » أو حامل النور ، وهو فى أصله اللاتينى اسم الزهرة حين تكون « كوكب صباح » ولم تكن له من مبدأ الامر دلالة سيئة ولكنه جاء فى كلام النبى أشيعا فى معرض التبكيت لملك بابل الذى سمى نفسه بكوكب الصباح ، وفهم الحواريون من كلام السيد المسيح « انه رأى الشيطان كنجم سقط من السماء » ان المقصود هو الزهرة وانه كناية عن الخيلاء التى تقود صاحبها الى السقوط • على أن سفر الرؤيا يذكر على لسان السيد المسيح انه تحدث عن نفسه فقال : « أنا كوكب الصبح المنير »

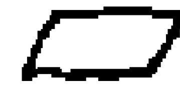
واذا وصف انسان اليوم بأنه شبيه « لوسيفر » فالمفهوم من هذا الوصف انه يلمع ويتخايل باللمعان ويبلغ من العجب به حد السماجة والصفاقة ، فهو الخطيئة الساطعة أو الخيلاء المتبجحة ، ومن كان كذلك فسقوطه أمل يود الناس أن يتحقق ، ولا يشعرون له بالرثاء الذى يصاحب المجد المنهار

ويذكر الاوربيون بعلزبوب وبعلزبول فى مقام المتهكم بالرئاسة الشيطانية ، وأصل بعلزبوب انه اله معبود فى عقرون يقال عنه انه رب الطب وانه يشفى المرضى لانه سيد الشياطين وكانت الامراض العصبية كالجنون والشلل والفالج والصرع والهزال تنسب الى تلبس الشيطان بجسم المريض

ومعنى بعل زبوب رب الذباب ، فحوله العبريون الى بعل

زبول أي رب الزبالة ســـخرية منه وتحقيرا لأمره ودعواه ، لانهم كانوا ينكرون عبادة البعل ويدعون الى عبادة « يهوا » أو الايل • وقد قالوا حين سمعوا بمعجزات الســـيد المسيح فى شفاء المرضى انه يشفيهم بمعونة رب الشياطين بعلزبول

والدلالة اللغوية التى يفيدها وصف «بعلزبول» فيأساليب العصر الحاضر هى الاقرار بالقدرة على قمع الشر لانها مستمدة من الشر نفسه • فهى الشيطنة التى تقمع الشياطين لزيادتها عليها فى الشيطنة ، لا لانها تصلح أو تبتغى الاصلاح ، وهىالى ذلك لا ترتفع فى قدرتها عن قدر الزبالة والذباب



وهناك شيطنة خاصة تدل عليها كلمة مفستوفليس ،ويقال انها مأخوذة من كلمة يونانية مركبة تفيد معنى كراهة النور ، ويرجحون أنها من « مى » بمعنى لا ، و « فوس » بمعنى نور و « فيلوس » بمعنى يحب • ولكن أصلها القديم متفق عليه ، فهى مستمدة من السحر البابلى الذى سرى الى الغرب على أيدى اليهود واليونان ، وتمثل روحا من أرواح النحس التى تتسلط على بعض الكواكب ويستعان بها على النكاية وخدمة الشهوات السوداء

وشيطنة مفستوفليس « ذهنية » موســومة بعيوب الذهن فى أسوأ حالاته من السخرية والاستخفاف والزراية بالمثـــل العليا واستباحة كل شىء بالحيلة والمكر والدهان ، فهو ذهن يصنع الشر لانه لا يبالى الشر والخير على السواء ، واذا طاب له الخير فعله غير مغتبط بفعله ، كما أنه يفعل الشر ولا يلوم نفسه عليه ، ويسر صاحبه أن يرى خيبة الأمل فىالصلاح والفضيلة لانه يثبت بذلك فلسفة السخرية وسخافة المثل الاعلى ،ويدفع

عن نفسه نقد الناقدين واحتقار المحتقرين

وقد كان مفستوفليس في القرون الوسطى شيطان السحر والمعرفة السوداء ، وكان رجال الدين يتخذونه مثلا للعلماء الكفار الذين غرتهم المعرفة الدنيوية فانصرفوا اليها وشغلوا بها عن معارف الدين

ويتردد من حين الى حين اسم اله الخراب أو اله القفار « عزازيل »

وهو اسم ورد في العهد القديم واختلف الشراح في نسبته الى أصله ، ويرى بعضهم انه من مادة الازالة العربية ، ويقول آخرون أنه كان رئيس الملائكة الذين هبطوا الى الارض فأعجبتهم « بنات الناس » وتزوجوا منهن . ثم انهزم أمام جند السماء فلاذ بالصحراء ويقال أيضا أن ابليس كان يسمى عزازيل ثم سقط فزال مكانه من السماء

وقد كان من عادة اليهود أن يقترعوا على ضحيتين تذبح احداهما للرب « يهوا » وترسل الثانية محملة بالخطايا الى عزازيل رب الارض الخراب ، وشيطنة اليوم في لغة المجاز مرادفة لمعنى العظمة التي تحتفظ بحق التضحية لها وحمل القرابين اليها ، ولو كانت تساق الى عرش يستوى على مملكة الخراب

وليس بين أسماء الشيطان الاكبر التي دخلت في مدلولات اللغة ما هو أشهر ولا أدل من هذه الاسماء : الشيطان وابليس ولوسيفر وبعلزبول ومفستوفليس وعزازيل ، فهي اليوم كلمات وأعلام ، وقد اجتمع لها من معاني الشيطنة كل ما نستقصيه فيما يلي متفرقا عن تواريخ الامم والديانات حول « قوة الشر الكبرى » أو قوة الشر العالمية ، في موقفها امام عوامل الخير والكمال

الشيطان
فى الحضارة المصرية

من أقدم الحضارات التى تمثلت فيها قوة الشر فى صورة شخصية مميزة باسمها وملامحها حضارة مصر القديمة

فمن أقدم عصور المملكة القديمة عرف المصريون حساب الروح بعد الموت وموازين الجزاء على الخير والشر والفضيلة والرذيلة وشروط البقاء التى تستوفيها الروح لتنعم بالحياة الابدية فى العالم الآخر · ولم يكن العالم الآخر عندهم مؤجلا أو منتظرا فى المستقبل بعد خراب هذا العالم الدنيوى ، ولكنه كان امتدادا للعالم الذى هم فيه وهو الديار المصرية ، وهو كارثة طامة لم يكن من اليسير عليهم أن يتخيلوها ويتخيلوا عالما قائما بعدها ، وانما كانوا يتخيلون مصر عالمين دائمين فى كل وقت ، احدهما ظاهر يسكنه أحياؤهم والآخر باطن يسكنه موتاهم ، فاذا حدث الخراب فى الارض فانما هو عارض يجنيه الظلم على الحاكمين والمحكومين ثم يزول العارض وتعود البلاد سيرتها الاولى مع انتظام الحكم على سنن العدل والانصاف ، وتاتى الحياة بعد الموت متصلة بالحياة على وجه الارض مستبقية لمطالبها ومآكلها ومشاربها فى ظل حكومة كحكومتها ، أو هى فى ظل حاكم خالد كان فعلا فى يوم من الايام حاكم الإرض المصرية أثناء حياته الفانية

وفى كل أمة من الامم القديمة الكبرى يتناقل الكهان والشعب

قصة عن نقمة الاله الاكبر على الجنس البشرى وندمه على خلقهم وتفكيره فى ابادتهم عقابا لهم على ذنوبهم ، وتختلف هذه الذنوب باختلاف الامم والكهانات ، فهى تارة مسألة تقصيرفى الضحايا ، وتارة مسألة غيرة «الهية» من المعرفة البشرية،وتارة أخرى مسألة فساد واشتغال باللذات الى غيرذلك مما سجلته قصص الخلق والعقاب فى جميع الاساطير الاولى

أما هذه القصة فى الديانة المصرية فهى قصة حاكم يغضب على المحكومين لانهم ثاروا عليه وهموا بخلعه لانهم استضعفوه وظنوا أنه شاخ وهرم فلم تبق فيه بقية للقدرة علىولاية الامور

وقد كتبت هذه القصة على جدران الحجرة الخاصة فى هيكل سيتى الاول الذى بنى حوالى سنة (١٣٥٠) قبل الميلاد ، وخلاصتها ان الاله الاكبر « رع » علم بتآمر البشر على العصيان فعقد مجلس الآلهة وشاورهم فى أمر هذه الفتنة ، فاستقر الرأى علىإبادة العصاة ، وأرسل الاله الاكبرعينه عليهمفألفاهم قد هجروا الديار ولاذوا بالجبال ، وتعقبهم جنودهفأثخنوا فيهم القتل حتى فاضت الارض بالدماء ويقيت منهم بقايا تتوارىهنا وهناك من زبانيته ، فحزن « رع » لانه أحس حقا بالعجز عن ابادة العصاة أجمعين وطفق بعض الارباب يواسونه ويقولون له : ان مشيئته وقدرته سواء ، فكل ما يشاء فهو قادر عليه

وتتم القصة على صورة أقرب الى الرفقوالمسامحة فيقال فى ختامها ان « رع » سئم الكنود من رعاياه فأجمع نيته على الاعتزال والاقامة فى السماء ، فندم الناس على كنودهم وعصيانهم وتابوا اليه فلم يعدل الاله الاكبر عن نيته ولكنه أمر اله الحكمة « توت » أن يلقن الناس أسرار الحكمة وتعاويذ الوقاية من الآفات ومنها الهوام والثعابين وأن يهدى بها الى

السلامة من هو أهل للهداية

وتروى قصة النقمة من البشر على روايات شتى يكثر فيها التناقض على ما هو مألوف في الاساطير الاولى ، فأشـــدها وأصرمها هذه القصة التى نقشت على هيكل ملك يهمه أن يبالغ فى بطش الارباب ومصير العصاة ، وأقربهـــا الى الرفق تلك الروايات التى تقول ان الارباب راجعـــوا الاله الاكبر وراح بعضهم يمزج الجعة بالاصباغ الحمراء ليحكى بها لون الدم ويزعم للارباب الساخطين أنه قد أريق منه ما يكفى للزجر والعقاب

وكانت فكرة المصريين الأقدمين عن قوة الشر أو قوة الاله الشرير موروثة من أقدم العهود تتسم كما يتسم كل شىء فى مصر القديمة بالمحافظة الشديدة واستبقاء الكثير من مخلفات كل عصر سابق وكل عقيدة مهجورة ، فيكثر فيها الاختـــلاف والتناقض على حسب الحواشى والاضافات التى تلصق بها من كل حقبة مرت بها فى طريقها البعيد

ففى صورة اله الشر بقية من عبادة الاسلاف وبقية من امتزاج السحر بالعبادة وبقية من عبادة الشمس وبقية من تعدد الآلهة بين مصر السفلى ومصر العليا ، وفيها مع ذلك اثارات تدل على انها فى جملتها معلومات تاريخية واقعة عرض لها التشـــويه وانطوت فى عداد المجهولات التى يســـتدل عليهـــا بالتخمين والترجيح

ومهما يكن من خلاف فى العقائد المصرية العريقة فالقاعدة المطردة فى تمحيص لبابها أنها مشتملة ولا بد على شىء يتعلق بكيان الأسرة وشىء يتعلق بكيان الدولة وشىء يقوم على الشريعة والعرف الاجتماعى ، أو على ما نسميه اليوم بالنظام

وعلى هذه الصورة تتمثل قوة الشر كما خلصت من الروايات

المتعددة على طول الزمن ، فهو صورة الاخ الشرير والحاكم المغتصب والمفسد الذى يعيث فى الارض ويخرج على العرف والعادة ، وهذه هى صورة الاله « ست » اله الظلام فى عقيدة الشعب المصرى على الاقل ، لان عقائد الكهنة كانت تخالف العقائد الشعبية فى تفصيلاتها ان لم تخالفها أحيانا فى الجملة والتفصيل

وقد مضى زمن كان فيه « ست » معدودا من آلهة الحق والاستقامة وكان الاله الموسوم بالشر هو « أبيب » الذى كانوا يرسمونه في صورة حية ملتوية تحمل فى كل طية من جسمها مدية ماضية ، وتكمن للشمس بعد المغيب فلا يزال اله الشمس « رع » فى حرب معها ومع شياطينها السوداء والحمراء الى أن يهزمها قبيل الصباح فيعود الى الشروق ، وقد خصص الجزء التاسع والثلاثون من كتاب الموتى لوصف القتال بين الالهين اله الشمس واله الليل ، أو اله النور واله الظلام

وربما كانت القضية كلها فى أوائلها المنسية قضية النزاع على العرش بين أخوين هما أوزيريس وست ، وبقى لكل منهما حزب يعظمه وينتصر له حتى تغلب الحزب الظافر كل الغلبة فتضاءل أنصار الفريق المغلوب، وشاعت عنه أنباء الشر والتهمة وانتهى بتمثيله فى صورة « أبيب » اله الظلام وتمثيل أخيه فى صورة « رع » اله النور

ولا يبعد أن يكون فى الامر خيانة زوجية أو شبهة من قبيلها، لأن أسطورة أوزيريس تروى أن الاله «رع» فاجأ الملكة «نوت» زوجته وهى فى عناق « سب » فلعنها ولعن ذريتها وأقسم لا تلدن فى يوم من أيام السنة ، فلجأت الى الساحر الاكبر « توت » الذى كان مشهورا بعلم السماء وتسخير الارواح العلوية

والسفلية فاخترع أيام النسىء الخمسة لتضـــاف الى السنة ، واستطاعت نوت أن تلد ولديها التوأمين أوزيريس وست في اليوم الثالث من هذه الايام ، وهى غير محسوبة من أيام السنة التى يطلعها « رع » بعلمه كلما عاد من الظلام ، فخرج الولدان وفى أحدهما ــ أو كليهما ــ طبيعة المظلمة او طبيعة النـــور المختلس بغير علم من اله النور

أما الرواية التى استقرت عليها قصة أوزيريس وست فهى أن الاخوين تنافسا فخدع « ست » أخاه وصـــنع له صندوقا أغراه بالنزول فيه ليقيسه على جسده ، ثم قتله ومزقه وألقى أشلاءه فى النيل ، فجمعتها ايزيس ــ زوجـــة أوزيريس ــ بمعونة الساحر توت ، وبوأته عرش المغـــرب فهو من ثم رمز للشمس فى حالة الغروب

وهناك رواية أخرى لعلها هي الأرجح والاقدم فى التاريخ، وخلاصـــتها أن « ست » لم يقتل أوزيريس ولكنه نازع ابنه « حوريس » فتغلب عليه هذا وخصاه ليحرمه ويقطعه عن الملك فى حياته وبعد حياته،ولم يكن للاله المغلوب من مكان يعبد فيه غير أقصى الجنوب فى مكان « كوم امبو » اليوم حيث كان معبد التمساح

ومما يرجح أن القضية فى أوائلها المنسية كانت قضية نزاع على الملك ان اسم « ست » محى من الهيـــاكل بعد زمن ، وأن أتباعه لاذوا بالجنوب حيث يلوذ كل حاكم منهزم فى عاصمة المملكة الشمالية ، وان ملوك الرعاة أعادوا لـ « ست » كرامته حين أرادوا أن يحاربوا السلطان القـــائم ، فبنوا له هيكلا فى مصر السفلى وأوجبوا عبادته هناك

وقد استعيرت صفات « ست » من صفات أوزيريس عـــلى

التناقض والتقابل بين الطرفين ، فكان من صفات أوزيريس « أنه ملك الخلود وسيد الباقيات وأمير الارباب والناس واله الآلهة وملك الملوك ، وسيد العالم الذى لا يفنى سلطانه »

أما صفات « ست » فهى نقيض الخلود والسيادة على الارباب والناس ، فلا سيادة له على غير الارواح الخبيثة والاحياء الدنيا، ومن ثم يصورونه برأس حيوان مجهول لا يراد به تمثيل حيوان معين ولكنه يمثل الحيوانية فى صورتها المبهمة ، ويجعلون له أذنين منتفضتين كناية عن الاسراع الى استطلاع الشر ، وذنبا شائلا كناية عن الحران والاشر ، ويعودون عليه باللائمة كلما أصيبت الدولة بالهزيمة أو أغار على البلاد مغير مغتصب ، لانهم شخصوا فيه عوامل التمرد والانتقاض فربما كان هذا من أسباب حظوته عند ملوك الرعاة فاعتبروه عونا لهم وخصما للسلطان الزائل الذى أغاروا عليه ، وأحبوا أن يتقربوا الى عباده فى الجنوب تمهيدا لضم الاقاليم جميعا فى مصر العليا الى دولتهم التى استقرت بمصر السفلى زمنا وتوقفت عندها جهودهم قبل اجلائهم آخر المطاف عن الجنوب والشمال.

ومن اصالة الصبغة الحكومية أو صبغة الحكم والتحكيم فى أقدم المأثورات المصرية أن الاساطير العريقة فى القدم تروى لنا من أخبار خصومة ست وأوزيريس أن « ست » اتهم أخاه بالجور عليه فوكلت الارباب قضيتهما الى أمينها الخاص الذى يعرف أسرارها ويحفظ حكمتها ويؤتمن على قضاياها ـ وهو الاله توت ـ فتبين له صدق أوزيريس وكذب ست ، وخرج هذا مدينا بالذنب والشر من زمرة السماء ، فما برح كل مصرى فى الزمن القديم يتقرب الى اله الحكمة عسى أن يتولى الدفاع عنه بعد الموت وينصفه فى قضيته كما أنصف أوزيريس من

أخيه المفترى عليه

وقد شغل « ست » وظيفة ضرورية فى عهود الازمات التى تنهزم فيها الدولة وتنضب الثروة ويختل نظام الحكم وتضطرب مرافق المعيشة • فقد كان « ست » يبوء وحده بجريرة ذلك كله ، وكانت عليه وحده تبعة كل آفة لا يستطاع دفعها ، ومن هـذه الآفات ريح السموم وعوارض الجفاف والقحط وأوبئة المرض وسائر الامراض التى كانت تنسب من قديم الزمن الى الجان والعفاريت ، وقد كانت عليه التبعة أيضا فى بقاء السحر الخبيث لانه كان على علم واسع بفنونه ولم يكن فى وسع الكهان والسحرة أن يعالجوا شروره ويبرئوا المرضى من آفاته بغير وسائله وأسراره ، ولهذا كثرت عندهم التمائم والتعاويذ ومنها ما بقى الى اليوم فى صور الجعل والحشرات والاساور والقلائد التى لا تصنع للزينة ولكنها تقرن بالادوية والعقاقير طلبا للشفاء ، ويقول الاطباء الذين كانوا يشتغلون بالطب والسحر أن الدواء هو الذى يشفى ويبرىء من المرض ولكن التمائم والتعاويذ هى التى تمنع « العكوس » من فعل أرواح الشر وأطياف الظلام

وقد كان الفراعنة أنفسهم يلجأون الى السحر لمغالبة الارواح الخفية ، فاستعان رمسيس الثانى بأصحاب التمائم والتعاويذ على مداواة أهل بيته ، ولم يفعل ذلك جهلا منه بالطب ولا تعظيما منه لقدر السحر ، ولكنه فعله ايمانا بضرورة اختيار الترياق من جنس المرض ، ولكل شىء آفة من جنسه كما قيل من قبل ويقال فى كل زمان

ولدينا من بقايا قصص السحرة نخبة لم يتخيرها جامعو الآثار ، ولكنها اجتمعت لهم من حيثما اتفق بين الانقاض

والمحفورات ، وكلها تروى أعمال السحرة في مجازاة الاشرار كقصة الساحر « أبانير » أى فالق الصخر الذى استخدم سحره في الاقتصاص من عشيق زوجته فصنع على يديه تمساحا من الشمع أرسله فى البركة التى يغتسل فيها العشيق فالتهمه وذهب ليبلغ الملك نبأ هذه العقوبة كى تحدث فى ملكه بعلمه واقراره ، ومن لم يكن سحره قصاصا من المسيئين اليه والى الفضيلة فهو من قبيل « خفة اليد » التى يستخدمها الساحر لاستخراج النفائس المفقودة كما فعل الساحر « خاتشا منخ » حين سقط الخاتم من أصبع احدى الجوارى المصاحبات للملك « سنفرو » فى زورقه فحسر الساحر الماء وكشف عن أرض البركة حيث استقر الزورق الى جانب الخاتم المفقود ثم تلا الساحر عزائمه فتلاقى الماء من تحت الزورق ورفعه رويدا رويدا حتى استوى على البركة كما كان



يقول صاحب كتاب صناعات السحر فى مصر القديمة :

« ان السحرة المصريين كانوا على علم تام بلزوم الفضيلة والطهارة للساحر الطبيب ، وفى اعتقادهم على الدوام ان الالهة انما يقترب منها كل طاهر القلب سليم النية ، وكانوا ينشأون على الايمان بأن العبث ومطاوعة الشهوات تجور على العقل والبدن وتعوق طالب المعرفة » (١)

ومن أجل هذا كانوا يقسمون علم الاسرار الى أقسام ودرجات ، فمنها العلم الذى يستعان فيه بقدرة اله الخير على الشر وجنوده ، وقوامه الصلوات والرياضات الروحية

ومنها العلم الذى يستعان فيه بقدرة الشيطان الكبير على

---

(١) « The Occult Arts of Ancient Egypt », by Bernard Bromage

الشياطين الصغار ، وقد يدخل فيـــه السـحر الخبيث بحكم الضرورة على غير اختيار

ومنها السحر الخبيث للاغراض الخبيثة ، ولا يليق بالكهان الابرار أن يشتغلوا به وان وجب عليهم أن يتعلموه لاتقاء ضرره والتعوذ من سوء عقباه

ويمكن أن يقال على الجملة أن الشر فى العالم كله انما كان فى عرف الحضارة المصرية «جريمة اجتماعية وطنية» غير مشروعة ولم يكن عنصرا أصيلا فى تركيب الدنيا أو تركيب الانسان،وقد بلغ من تطور هذه العقيدة فى تفكيرهم الدينى أن اخناتون استغنى عن الجحيم ، وأنكر دعوى أوزيريس فى السيطرة على عالم العقاب بعد الموت

ولا نظن أن تاريخ « ست » قد استوفى حتى اليوم دراسته المثلى فى علوم الآثار أو فى علم المقابلة بين الاديان، فان الذى عرف منه الى يومنا هذا يسوغ القول بكثير من الفروض والاحتمالات التى كانت تلوح للنظرة الاولى ضربا من الخيال أو اللعب بالجناس، ولا نعنى تسويغ القول بها أنها ثابتة أو أنها راجحة مقبولة على علاتها ، ولكننا نعنى انها فروض واحتمالات لاترفض ولا يزال من يرفضها محتاجا الى سند وثيق

فالمؤرخ بلوتارك يذكر فى كتابه « ايزيس وأوزيريس » ان «ست» كان يلقب «بيبون» وأن هـــذا اللقب معناه العقبـــة المعترضة فى طريق يفضى الى الخير لتتحول به الى الشر، ويقول فى الفصل الثامن والعشرين أن الاساطير تروى أن اليهود هم أبناء «ست» من أتان ، ويعلق المؤرخ «أوليفيه بير جارد» على ذلك فى كتابه عن الارباب المصرية فيقول أن هذه الاسطورة أصل الخرافة

التى شاعت فى تقديس اليهود فى هيكلهم لراس حمار (١) .. ويقول غيره بين الجد والهزل ان شمشون حاربهم من أجل ذلك بفك حمار ، وانهم لهذا يتبركون بالمخلص الذى يأتى فى آخر الزمان على حمار ابن أتان

وقد تكرر القول بأن كلمة «ست» و «ستان» أو الشيطان العبرية من اصل واحد ، ولا نزاع فى اقتباس اليونان والعبريين من المصريين فى تصوير «الشخصيات» العلوية والسفلية، فليس من الاناة أن نجزم ببطلان التشابه فى اللفظ بين الفرعونية والعبرية مع عبادة الملوك الرعاة للاله الفرعونى كما تقدم ، وليس من الاناة أن نجزم ببطلان التشابه بين مدلول اسم ست عند المصريين ومدلول اسم الشيطان « Diabolos » باليونانية ، وكلاهما يفيد معنى الاعتراض والدخول بين شيئين للتعويق والافساد، وقديما شاعت نحلة ايزيس وأوزيريس وغيرهما من الآلهة المصرية بين بلاد اليونان فى آسيا الصغرى وبين الاثيوبيين واليمانيين فى الجنوب ، وقال ديودور الصقلى انه رأى فى « نيسا » من بلاد العرب عمودا للاله أوزيريس وشيئا من قصته ملخصا على ذلك العمود

وقد ختم الاستاذ بورجارد كتابه الذى اشرنا اليه آنفا عن الارباب المصرية قائلا أن النحلة المصرية نقلها العبريون من مصر الى الشام واليمن ، ونقلها الاغريق الى اليونان ونقلها الفينيقى قدموس الى اليونان والى بلاده ، وان اعظم العقول اليونانية كانت تهاجر الى مصر لتدرس المعرفة المصرية فى طيبة ومنف وعين شمس وسايس، وعدد منهم ليكرج « Lycurgos » وصولون وطاليس

---

(١) صفحة ٢٠٥ من كتاب الارباب المصرية

« Les Divinités Egyptiennes », par Beauregard

وفيثاغورس وأفلاطون وايدوكس ، وعدد بعدهم أمما من تلميذات الثقافة المصرية بين أهل الكتاب وغير أهل الكتاب ، ولا شك فى شيوع عقيدة الثواب والعقاب وعالم الابرار وعالم الاشرار فى الديانة المصرية القديمة ، فليس من الغريب أن تتخلف منها بعض المصطلحات والمسميات ، وليس من الاناة على الاقل ان ينتهى تاريخ «ست» حيث انتهى فى هذا الموضوع ، وقد قيل أن العزى هى ايزيس ، وان مناة هى منوت أوموت ، وان النصوص متقاربة بين بعض المزامير وبعض اناشيد أتون ، وأن أيوب عليه السلام كان يسكن الى جانب مصر ويتحدث عن أهرامها التى تبنى لتخليد الموتى ، ويكافح الشيطان الذى يوسوس له ويغريه بالكفران والعصيان ، واقل من هذه الملابسات حقيق بالتريث عنده وترك الباب مفتوحا بعده لما تأتى به الكشوف وتسفر عنه المقارنات



الشيطان
فى الحضارة الهندية

ترجح فئة من علماء المصريات ان الديانة الهندية القديمة دخلتها مقتبسات كثيرة من ديانة المصريين الاوائل ، ويرى برستيد واليوت سميث ان معظم هذه المقتبسات من كتاب الموتى ، ومن شعائر تقديس الملوك التى يستطاع التحقق من سبق الحضارة المصرية اليها

ويرد ذكر مصر فى كتب البورنا التى جمع فيها الهنود الاقدمون قصص الالهة وبعض الملاحم الكونية المتوارثة عن آبائهم الاولين

ولكن طبيعة الديانة الهندية تقرر الحدود التى بلغتها تلك المقتبسات ولا يمكن أن تذهب بعيدا الى ما وراءها، فهى لاتكون بطبيعة تلك الديانة الا من قبيل الشعائر والمراسم ولا يتأتى أن تتخطاها الى أصول الديانة فى جوهرها ، اذ كانت الديانتان الهندية والمصرية على اختلاف كاختلاف النقيضين أو الطرفين المتقابلين ، ولو أراد أحد أن يضع ديانتين يتوخى فيهما التقابل فى العقائد الاساسية التى تدور عليها كل ملة لما استطاع أن يبلغ فى هذا التقابل ما بلغه أهل مصر وأهل الهند فى العهود المتتابعة على غير قصد بطبيعة الحال

والعقائد الاساسية التى تدور عليها كل ملة تتناول وجود الانسان ونظام المجتمع ووجود العالم كله أو الوجود على اطلاقه، وفى هذه المسائل الثلاث تقف الديانتان العريقتان موقف التقابل من طرف الى طرف ، كأنهما عامدتان الى تصوير سعة الآفاق

التى تحيط بالعقائد فى ضمائر بنى الانسان

فالديانة المصرية تصون جسد الانسان وتستبقيه الى الحياة الابدية ، والديانة الهندية تنكر الجسد وتعلم أتباعها أن الروح تنسخ جسدها مرةبعد مرة ولاتنال الخلاص الا اذا فنىالجسد كل الفناء

والديانة المصرية تعتبر دوام الاسرةآية من آياتالنعمةالالهية ولاتعرف دعاء الى خالق الكون أحب الى الداعين من بقاء تراث الآباء والاجداد واتصال العقب الى آخر الزمان ، وعلى نقيض ذلك ديانة الهند التي تعلق النجاة بالافلات من دولاب الحياة والموت والرجوعالى «النرفانا» من طريق «الموكشا» أىاجتناب العلاقة الجنسية ولو فى حالة الزواج

وتؤمن الديانة المصرية القديمة بأن العالم المحسوس حق وخير فتجعله مثالا لعالم الخلود ، وعلى نقيض ذلك ديانه أهل الهند التى تحسبه شرا محضا وباطلا موهوما ومنبعا لجميع الشرور التى تعترض عالم الحقيقة وتشغل الروح بالاعراض والقشور

ويكفى هذا الاختلاف بين الديانتين لامتناع التشابه بينهما على الخصوص فى مسألة الشر وقوة الشر وعلاقة هـــذه القوة بنواميس الكون الخالدة سواء منها مايتمثل فى صورة «الذات» الالهية أو مايتمثل فى الناموس الاعظم أو «الكارما» الذى ليس له ذات

على أن الديانة الهندية تحير علماء المقارنة بين الاديان أشد الحيرة فى أمر «الشخصية» التى تقابل شخصية الشيطان أو قوة الشر العالمية عند أصحاب الديانات الاخرى ، وأسباب هذه الحيرة متعددة لايصادفها العلماء بهذه الكثرة وبهذه الصعوبة

فى غير الديانة البرهمية وما تفرع عليها

من هذه الاسباب أن الهنود الاقدمين قد تعاقبوا على البلاد بعقائد مختلفة يوشك أن تتناقض بين قبيل وقبيل من السابقين واللاحقين ، وربما تعمد القادمون أن يهدموا عقائد من تقدمهم فلا ينجحوا كل النجاح ولا يتركوها سليمة من التضـــارب والاختلاط ومن ذلك فى هذا الباب عقيدتهم فى العفاريت الخبيثة او العابثة التى يسمونها بالـ «راكشا » وينسبون اليها أعمالا كأعمال الشياطين فى الديانات الاخرى ، فان الباحثين فى اشتقاق الكلمة يقولون تارة انها تفيد معنى الحراسة ويقولون تارة اخرى أنها الاسم الذى كان يطلق على الهمج الاولين الذين سكنوا الهند قبل اغارة الآريين عليها وكانت لهم حراسة على الطرق وعلى ينابيع الماء ، وقد رسخ فى الاذهان من أحاديث القتال بينهم وبين الآريين أنهم أعداء البشر وأنهم يتربصون بالناس كما يتربص الناس بهم فى كل مكان ، فلا ينجو أحدهم من الآخر حيث أصاب الغرة منه ، ثم تطاول الزمن فانقسموا فى أساطير العامة الى أقسام ثلاثة : أحدها يشبه ارواح «الياكشا» البريئة التى تهيم على وجهها ولا تؤذى أحدا الا ان يتعرض لها ، والثانى يشبه العصاة المتمردين من الجن ويعادى الانسان ألد العداء ، والقسم الاخير يلوذ بالمقابر والصوامع ويحالف الموت والخراب ، ويقول من يزعمون رؤيتهم أنهم مشوهون ، بعضهم ذو رأسين وبعضهم ذو ثلاث أرجل ، ومنهم من له عين واحدة فى رأسه ومنهم من له عدة أعين ، وكلهم على خلاف البشر فى التركيب

ولا ينسب الى هؤلاء «الراكشا» عمل من أعمال الاغراء والاغواء ولكنهم قد يغتصبون النساء عنوة ويتلصصون فى الطرق المقفرة ويستبيحون الاذى للكيد أو للعبث والدعابة ، ورئيس

هؤلاء «الراكشا» المسمى «رفانا» هو الذى اختطف الحسناء «سيتا» زوجة البطل «رام» كما جاء فى ملاحم «الريجيفيدا» ثم حملها الى جزيرة سرنديب ولم يستطع زوجها أن يهتدى اليها ويخرجها من أسرها الا بمعونة القرد هنومان

فالشياطين فى صورة «الراكشا» هم «الشر» الذى أبغضه الآريون وصوروه لأبنائهم فى الصورة التى تنفرهم منه وتحذرهم من كيده، واتهم عندهم بما يتهم به كل شعب مهزوم يستأصله أعداؤه ويدفعون به الى أقاصى الارض وزوايا المدن ويستثيرونه أحيانا من فرط الظلم فيثور ويهملونه أحيانا فيهيم على وجهه عاجزا عن الاذى قانعا بالسلامة أو متحفزا للانتقام



والى جانب التتابع فى الديانات والاقوام المغيرة على البلاد يقوم السبب الشامل فى جميع العهود ولا سيما العهود الاخيرة التى تطورت فيها فلسفة الهياكل ووجد فيها الكهان المفسرون والمفكرون على أعقاب الكهان المتنسكين أو الدهاة المتحكمين ، ففى هذه العهود الاخيرة تمكن الاعتقاد ببطلان العالم المحسوس وغلبة الشر على طبيعة الوجود كله فلم يكن فى «الوجود» الشرير محل خاص لقوة تفسده وتدحض فيه الحق أو تنقض فيه الخير ، وما فيه من حق ولا خير الا أن يفارقه الصالحون الناجون بأرواحهم الى عالم الفناء

وقد اشتمل الثالوث الابدى فى الديانة البرهمية على ثلاثة أرباب هم «براهما» الاله فى صورة الخالق و «فشنو» الاله فى صورة الحافظ و «شيفا» الاله فى صورة الهادم ، فكان الهدم – من ثم – عملا ربانيا يقوم به الاله فى صورة من صوره وينصف به الحق من هذا الوجود الباطل الذى ينبغى أن يزول ليمهد

سبيل الطهارة والصفاء ، وبهذه المثابة يضيق مجال الشيطان ولا تمس الحاجة اليه فى نظام الوجود

ومن الصعوبات التى تحير علماءالمقارنة بين الاديان أن التناسخ أو تعدد الصور للروح الواحد عقيدة عميقة متشعبة فى الديانة البرهمية وفروعها ، فليست هى مقصورة على الانسان فى أدوار حياته المتعاقبة ولا على الحيوان فى أشكاله المتنوعة بل تعم الوجود كله من الارباب العليا الى مادونها من الحيوان والنبات حتى الجماد ، ولهذا يتفق أن تكون للاله صور متعددة تقترن النعمة بعضها وتقترن النقمة بغيرها ، فيدين أناس للاله «شيفا» على أنه مصدر الخير وقائد الارواح فى طريق الفناء الى حظيرة «الوجود» الأسنى ، ويرهبه أناس آخرون على أنه سلطان الغضب والنكاية فلا رحمة عنده ولا موئل من قصاصه وتقلب أطواره ·

وليس تعدد الصور كل ما يواجه العلماء من أسباب الحيرة وتناقض الصفات فى الاله الواحد ، بل هناك سبب آخر يضاعف هذا التعدد ولا يمنع «الشخصية» الربانية الواحدة أن تتولى اعمال العدد العديد من الشخصيات الربانية فى معظم الديانات ، وهذا السبب هو اضافة الـ «شاكتى» اى قرينة الاله الانثوية الى وظيفته فى المسائل الدنيوية

فكل اله له «شاكتى» بمعنى القرينة أو الزوجة ، هى التى تنوب عنه فى «شئون الدار» أو فى الشئون التى يتركها ولا يتفرغ لها ايثارا للعمل فى الآفاق العلوية

وتعود الاقاويل الى «الشاكتى» فتجعل لها طبيعتين : طبيعة بيضاء منها الرفق والرحمة ، وطبيعة سوداء منها العسف والقسوة ، وقد تتسمى الطبيعة الواحدة باسمين فتصبح «الشاكتى» الواحدة ذات أربعة أسماء غير اسمها الاصيل، وعلى

هذا المثال تسمى قرينة سيفا اله الشر باسمها الاصيل «ماهسوارى» ثم تسمى باسم «أوما» واسم «جورى» حين ترجى منها الرحمة والمودة وتسمى باسم «جورى» واسم «كالى» حين تخشى منها النقمة وسوء النية ، واسم كالى الاخير هو الاسم الذى يعرفها به عبادها الذين اشتهروا باسم الخناقين واتخذوا شعارهم فى القرابين البشرية قتل الضحايا بغير اراقة الدماء

وقد عاشت جماعة الخناقين زهاء ستة قرون تتعبد للالهة «كالى» بخنق ضحاياها والتقرب بأسلابهم على محاريبها، وتتخيل هذه الالهة على مثال امراة عابسة تحيط خصرها بنطاق من الجماجم والسكاكين وتحمى كل من يطيعها ويتقرب اليها بتلك القرابين ، وعقيدتهم فى ذلك أن الاله «فشنو» يحافظ على الاحياء فيتكاثر عددهم ويعجز الاله «شيفا» عن ملاحقته فى مهمة الابادة والافناء ، فيستعين «بالشاكتى» كالى على هذه المهمة ويتزلف اليها عبادها بالمعونة على القتل مع اجتناب سفك الدماء لان الدم الذى يراق على الارض تتولد منه الحياة

وجماعة الخناقين هذه طائفة قليلة بين الملايين من الهنود الذين ينكرون عبادتها ويسفهون أحلامها ويحرمون قتل الحيوان، بل قتل الهوام والحشرات ، فضلا عن الانسان ولكنهم لاينكرون ربوبية «كالى» ولا يتركون عبادتها على النحو الذى يرتضونه ويحسبون أنه أقرب الى رضاها ، ومن ذلك أنهم يترهبون أو يكفون عن النسل فيرضونها بغير حاجة الى قتل الابرياء

وتلك الاسباب فى جملتها هى التى تحير علماء الاديان كلما ارادوا أن يحصروا الشر فى «شخصية شيطانية» تنعزل بقوتها عن القوى الالهية فى أقانيمها المتعددة

ولكنهم يثوبون فى النهاية الى عقيدة واحدة مشتركة بين

النحل والمذاهب ولا حيرة فيها عند تصوير الشر فى صـــورته الكونية الشاملة ، وهذه العقيدة هي الايمان بأن العالم المحسوس شر وباطل وان كل مايربط الانسان به شر وباطل مثله، وتشتمل روابط الانسان بالعالم المحسوس على كل مطمع وكل شهوة وكل أمل يفتنه بلذة من لذاته او قنية من مقتنياته ، وتتجمع هذه الفتن قاطبة فى «المرأة» لانها سبيل الروابط الدنيوية التى تقيد الحى بالدورات الابدية فى دولاب الولادة والموت ، وأن لعنة الموت لتلاحق كل من يولد ويلد حتى ينقطع عن النسل ويثوب الى «النرفانا» بغير علاقة ترده الى هذا العالم المحسوس ، ومن ثم يفضى به المطاف فى الآباد المتطاولة الى غاية كل مطاف من الفناء والسلام

ويلاحظ انهم يحيلون الامر على «الانوثة» كلما عرضوا لعمل من أعمال الارباب ينزهون عنه الالهة ويلحقونه بالشـــواغل الدنيوية الارضية

ويلاحظ كذلك انهم يقولون عن العالم المحسوس كله انه «مايا» او وهم وضلالة ، وأنهم يصورون هذا «المايا» فى صورة أنثى شديدة الفتنة والغواية ، ويمثلون جمال العالم المحسوس بجمال الانثى التى تستعين بالغريزة الجنسية على خداع المفتونين عن الحقيقة . فيحسبون اللذة نعمة تبتغى وهى شقاء أبدى لايؤدى الى غير شقاء

وليس فى الديانة الهندية وفروعها المتشعبة شخصية واحدة تشبه شخصية الشيطان غير الرب الذى يسمونه «المارا» من الموت ، ويقولون انه يسيطر على السماء السادسة وما دونها من العوالم الارضية، وكأنهم جمعوا فيه فتنة الحياة الدنيا مشخصة معروفة باسم واحد بدلا من تعميم القول على الفتن التى تساور

النفس ولا تتمثل لها ذات فى الحس أو الخيال

وهذا «المارا» هو الذى قيل فى قصة «بوذا» انه وسوس له وألح فى وسواسه ليشغله عن النسك ويصرفه عن مسلكه من الحكمة وهو مسلك الزهد والاعتدال

فالشر الكونى هو الشر النفسى الذى يخامر الضمير ويزين له ترك الحكمة والاقبال على الاوهام والاباطيل

وديانة الهند على هذا لم تبتدع شيطانا أو ارواحا شيطانية غير الارواح التى يسمونها بالراكشا ويردونها الى الشراذم المشردة من ابناء البلاد الاصلاء الذين صمدوا للآريين زمنا ثم استكانوا على مضض وتربص أو على هوان واستسلام

أما «الشيطان الكونى» فهو مرادف للفتنة وكل ما يغرى النفس بمطامع الحياة

ويصعب على المتتبع للاعمال التى تنسب الى بعض الآلهة والاعمال الهامة التى تنسب الى الشياطين الهادمة أو المعادية للجنس البشرى أن يفرق بينهما بغير الرجوع الى النيات ، فقد تتشابه فى الهدم ولا تفترق عن القصد والنية ، فما كان هدما للقضاء على مطامع الدنيا وحبائلها فهو خير ، وما كان هدما للتنافس على هذه المطامع والوقوع فى هذه الحبائل فهو من عمل الشيطان كيفما كان الاسم الذى يطلق عليه

الشيطان
بين النهرين

ظفرت «بلاد النهرين» بعناية من المؤرخين الدينيين وعلماء المقارنة بين الاديان لم يظفر بها قطر آخر. لأنها ميدان للبحث لا يضارعه ميدان آخر في اتساعه وامتداد تاريخه وتعدد أقوامه وتيسر البحث فيه لنوعين من المقارنة يندر جدا أن يتيسر في رقعة أخرى من الكرة الارضية، وهما مقارنة الاديان ومقارنة الاجناس في وقت واحد، اذ كان وادي الدجلة والفرات وطنا قديما أقام فيه الآريون والساميون والطورانيون، وسواء صح ان السومريين الذين أقاموا فيه زمنا قد وفدوا اليه من الصين أو لم يصح هذا القول الغالب فقد صح أن « زرادشت» نبي المجوسية عاش بين الطورانيين والمغول حقبة من الزمن ووفق بين عبادتهم وعبادة الثنوية المجوسية بعض التوفيق

وهذا التعدد في السلالة يصاحبه تعدد آخر في الاحوال الاجتماعية بين مجتمع المدن ومجتمع الرعاة ومجتمع الزراعة الدائمة ومجتمع الزراعة المتنقلة ، وبين أناس يبنون الهياكل وأناس لايعرفون البناء ، أو اناس يعبدون النار والكواكب وأناس يلصقون عبادتهم بالارض ومعالمها ، وعناصر الطبيعة التي تهيمن على أرزاقهم ومساعيهم

وتتضاعف العناية بالديانات التي نشأت بين النهرين لسبب غير هذه الاسباب يهتم به الاوربيون وأتباع الاديان الكتابية

على العموم ، لان مراجع الاديان الكتابية تبتدىء فى بلاد النهرين منذ عهد ابراهيم الخليل الى عهد الشريعة الموسوية وشريعة حمورابى الى عهد السبى واختلاط بنى اسرائيل بالبابليين والميديين واقتباسهم ما اقتبسوه منهم فى العرف الدينى والشعائر التى لها اتصال بمراسم العبادة ، ثم تأتي عبادة «مترا» وعبادة « المانوية » وقد زاحمتا المسيحية مزاحمة شديدة فى دولة الرومان من شواطىء آسيا الى الجزر البريطانية

فالعقائد الدينية التى نشأت قديما حول بلاد النهرين لم تزل محور البحث ومرجع المقارنة والاستشهاد فى جميع الديانات الكبرى ، وأولها المسيحية التى يدين بها الاوربيون وهم أول من درس المقارنة بين الديانات على النهج الحديث

ونحن فى هذا الفصل لانقصر الكلام على البلاد التى تحصرها الاوضاع الجغرافية بين النهرين ، ولكننا نمضى معها الى حدود الحضارة التى تأثرت بها أو أثرت فيها من وراء النهرين شرقا الى أرض فارس ، ومن ورائها غربا وجنوبا الى الاقطار العربية أو الاقطار السامية التي كان لها اتصال بالدولة القائمة فى بابل وأشور ، ولا حاجة بنا ــ فى هذا الفصل ــ الى استقصاء العقائد والشعائر فى هذه الرقعة الواسعة من المساكن والسكان ، وانما ننظر الى عقائدها وشعائرها من جانب الصلة بموضوع الكتاب وهو الكلام على « الشيطان » أو قوة الشر العالمية ، وقد كان لحضارة النهرين صلة وثيقة بجميع الامم التى دخلت فى عداد المؤمنين بالاديان الكتابية ، فليست فى حضارات العالم حضارة أحق بالدراسة فى هذا الصدد من الحضارتين البابلية والفارسية ، وكلتاهما تدخل فى العنوان الشامل الذى نطلقه على أقطار « ما بين النهرين » بشىء من

التجوز من الوجهـــة الجغرافية ، وبغير تجـوز من الوجهـة الثقافية

فنحن نرجع الى « بابل » لفهم التطور فى معنى « الخطيئة » مميزا من معنى الذنب أو العيب أو الرذيلة أو الجريمة

ونحن نرجع الى «فارس» لفهم التطور فى مذهب «الثنوية» أو النزاع بين سلطان الخير وســلطان الشر فى الاكوان العليا والسفلى ، ومنها الكرة الارضية



اذا كنا نعرف للحضارة المصرية صبغة نلتمسها فى جميع مظاهرها وهى صبغة الحكم والشريعة ونظام الدولة ، فالصبغة التى تغلب على حضارة بابل ـ على هذا النحو ـ هى صـبغة التنجيم والازياج الفلكية ، وسنرى أن علماء المقارنة بين الاديان لم يلتفتوا الى هذه الناحية فى علاقتها بفهم المقصود من معنى «الخطيئة» مع أنها ـ على ما نرى ـ لا تفهـم حق فهمهـا ما لم تبتدىء من هذه البداية

لقد عرف البابليون رصـد الكواكب من أقـدم الازمنـة ، وعلقوا مصائر الناس وأقدارهم بسـعودها ونحوسـها ، فلا يسعد أحدهم بنعمة السـماء ولا يشقى بغضـبها الا وهو فى الحالتين عرضة للقضاء المسطور فى أزياج النجوم

وقد نشأ عندهم علم الفلك بحسابه وتقديره مصاحبا لعلم التنجيم بخرافاته وأوهامه، ولم تكن كل هذه الخرافات والاوهام خداعا من الكهان السحرة ، بل كانت عندهم عقيدة يصدقونها ويمزجونها بالقصص والالغاز التى يدركها العامة ولا يدركون ما وراءها

وما من قصة بلغتنا من أرض بابل فى تاريخها القـديم الا

وهى قصة من قصص المناظرة بين الارض والنجوم في شكل من الاشكال التى يفتن فيها الحس والخيال

فربة الارض « تيامات » تتحدى السماء فتستعين بالطوافين على حكم أقطارها وتخلق من جوفها الحيات والحيتان لتوطيد سلطانها ، وبرج بابل يقيمه المتمردون من البشر ليرتفعوا به الى مناجزة الارباب فى سماواتها ، وكل ثورة من ثورات الاساطير المزعومة فانما هى فى مدلولها خروج من الارض على ارادة السماء لا تلبث السماء أن تكبحه وتروضه على الطاعة الواجبة ، وعلى التسليم لها بحقوق الصلاة والقربان

فلم يكن للبابلى من هم فى سره وعلانيته الا أن يستطلع إرادة النجوم ويخرج بالاذعان لها وموافقة هواها من عداد « المنحوسين » الى عداد السعداء

ويسأل العارفين بالتنجيم : ماذا تريد النجوم ؟ وماذا كتب لى فى كتابها المرقوم ؟ فما كان رضى للنجوم فهو الفلاح والنجاح ، وما لم يكن رضى لها فهو الخيبة والضياع

لم يكن الامر هنا أمر الحسن والقبيح أو أمر الصلاح والفساد أو أمر الاستقامة والاجرام ، كلا ... وانما هو أمر الرضى من كواكب السماء بما يوافق المسطور المكتوب أو أمر الغضب الذى يحيق بمن يخالف قضاء الكواكب فى مجراه

والفارق بين الامرين انما هو الفارق بين الموفق السعيد والخائب المنحوس ، أو بين من يسلك سبيل السلامة ومن يقترف حماقة الخلاف بغير رجاء



وينبغى أن نفهم هذا الخلاف بالمعنى الذى يميزه من معنى الذنب ومعنى العيب ومعنى الرذيلة ومعنى الجريمة ، فانه

يباينها في طبيعته ولا يتأتى للانسان ان يعرف موضع التحريم منه الا اذا عرف مشيئة الله فيه ، وليست الذنوب أو العيوب او الرذائل أو الجرائم بهذه الصفة الخاصة بين المحرمات ، لان الانسان قد يعرفها ببداهته أو بتعليم المجتمع الذى يعيش فيه

فالذنب اساءة قد يجنيها الانسان على من هو مثله أو من هو دونه وقد يصاب بها كما يصيب ، فهو مسألة انصاف أو اجحاف فى المعاملة

والعيب نقص يعترى الانسان من عجزه أو جهله ، فهو مسألة كفاية وقصور

والرذيلة اسفاف يتورع عنه صاحب الفضيلة الذى يروض نفسه على الكمال ، فهى مسألة كرامة وابتذال

والجريمة عدوان بغير الحق يتعارف الناس على انكاره ومجازاة فاعله ، فهى مسألة قانون وقضاء

أما الخلاف الذى يسمى « خطيئة » فيكفى فيه أن يعمل الانسان ما لم يرده الاله ولو لم يكن من ورائه ضرر يعلمه ، لأن الخلاف قلة ايمان بالمشيئة الالهية ، فهو مسألة أدب أو سوء أدب مع الله

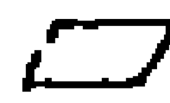
ولفهم الخطيئة على هذا الوجه مشابه فى علم السحر والكهانة تقربه من الاذهان على نحو سائغ فى كل تعليم . فليس من أدب التلميذ الذى يتلقى خفايا السحر والتنجيم أن يجترىء على كشف القناع عن سر يحجبه المعلم الى حين ، وعليه أن يغمض عنه عينيه ثقة منه بما يختاره له معلمه من درجات المعرفة على حسب مواقيتها المقدورة ، فان خالفه يوما متعجلا أو مستريبا فهذا الخلاف سوء أدب أو جهل يخرجه من عداد الصالحين لعلم الاسرار

وهذا رسم الخطيئة بين سائر المحرمات ! رسمها انها تحريم يناط بمشيئة الله ولا يطلب من العباد أن يتجنبوه لسبب غير هذه المشيئة ، وان خفيت عليهم وجوه الحكمة فيها

وقد أورد برتشارد (١) فى كتابه عن شعائر الشرق الادنى الغابرة وعلاقتها بالعهد القديم ، نماذج من الصلوات البابلية المحفوظة يعلن أصحابها التوبة، ويطلبون الغفران لانهم أكلوا طعاما محرما ووطئوا على بقعة محرمة بغير علم ولا اجتراء على مغبة العقاب

وقد نزيد المسألة توضيحا حين نقول ان الاله وحده هو الذى يحق له أن يحرم شيئا ولا يذكر سبب تحريمه، لانه هو وحده الذى يعلم مصلحة الخلق جميعا فيما يبيحه لهم وينهاهم عنه ، فأما غير الاله فالمحرمات التى ينهى عنها لغير سبب لاتدين أحدا بالخطيئة وكل مايخشاه من اتيانها أن يتعرض للغضب أو للعقاب

فلا جرم تتقدم البلاد البابلية غيرها من البلاد لانها تقدمتها فى كشف الطوالع ورصد الكواكب وتفسير ماتنبىء عنه من سعود أو نحوس، وتستحيل السعود والنحوس الى مباحات ومحظورات ومحللات ومحرمات حين تستحيل الكواكب أربابا علوية تريد السعد والنحس بحساب وتقدير



أما الحصة التى ساهمت بها عقيدة فارس فى تاريخ الاديان ، وتاريخ قوة الشر على التخصيص ، فهى «الثنوية» أو تنازع النور والظلام على سيادة الوجود

ويظهر أن الثنوية هذه عريقة الاصل عميقة الجذور فى البقاع

---

(١) « Ancient Near Eastern Texts », by Pritchard

الفارسية وماحولها ، فانها بعد تهذيب الاديان الكتابية لها لم تزل متغلغلة فى أفكار بعض الكتابيين ممن ينتمون الى اليهودية أو الاسلام ويقيمون فى أطراف البلاد التى كانت تحيط بها حضارة مابين النهرين منذ أربعين قرنا أوتزيد، وقد روى الدكتور يوسف وولف صاحب الرحلة الى بخارى (من سنة ١٨٤٣ الى سنة ١٨٤٥) ان شيخا يهوديا يدعى ناثان زاره ومعه درويش من كشغار فسأله الدرويش ممتحنا : من خلق النار والماء ؟ .. قال الدكتور وولف : فلما أجبته أنه هو الله ، صاح بى قائلا : صه ! لاشيء من ذلك ، لان النار والماء عنصران مهلكان ولا ينبغى لله أن يخلق المهلكات ، وعليك أن تعلم أن الكون يحكمه الهان : أحدهما اله الملأ الأعلى وهو رب الخير الذى خلق نورا لايحرق وخلق الوردة والبلبل ، وقد تصدى له اله العالم الاسفل فحجب عنه خلائق الخير وشنها حربا لاتزال حتى اليوم حامية الاوار ، فمن عمل خيرا من الناس فهم خدام الاله الاعلى ، ومن عمل شرا منهم فهم خدام الاله الاسفل ، وسوف تحتدم الحرب كرة أخرى فيصعد الاله الاسفل الى السماء السابعة تحلق معـــه الوف من جنده وتطير بينها الحيات والثعابين ، فيدور القتال سجالا حتى ينهزم الاله الاسفل ويلقى عصا الطاعة لاله السماء

وأغرب من بقاء هذه العقيدة فى موطن الثنوية أنها بقيت بين الاوربيين الى القرن السابع عشر وكانت لها نحل ومعابد من بلاد البلقان الى العواصم الفرنسية فى الشمال والجنوب، واذا صحت بعض الاخبار — مما نشير اليه فى الفصول التالية — فقد بقيت شعبة منها الى القرن العشرين تتستر باسم الماسونية، وتستقبل المصلين فى باريس حيث يقربون القرابين الى الشيطان ويكررون التلاوات التى كانت ترتل فى معابد النحل الشيطانية قبل ثلاثة

قرون وتدور خلاصتها على الايمان بسيادة الشيطان على الدنيا واعتبار المادة خلقة شيطانية يتنزه عنها آله السماء ولا تسرى عليها أوامره ونواهيه

وقد تطور الايمان بالثنوية أو هو قد ترقى مع الزمن فى القرون الاولى كأنه جــذر عريق لا يقتلع مرة واحدة ولا يزال قابلا للنمو فى منبت بعد منبت من العبادات الخالية

فكان الوجود قسمة متساوية بين النور والظلام كما يتساوى النهار والليل ، ثم ترقى المؤمنون بهذه الثنوية فآمنوا باله واحد يسمونه «زروان» وقالوا بولدين له كانا فى رحم الغيب فوعد أكبرهما بالسيادة على الدنيا فاحتال اله الظلام منهمــا على الخروج أولا لعلمه بمسالك الظلمة فكان له السلطان على الرغم من أبيه انجازا لوعده ، ولم يستطع الاب الا أن يعد ابنه اله النور بالغلبة بعد حين يقدرونه بتسعة آلاف من السنين الكونية

هذان الالهان هما «أورمزد» و «أهرمان» أو الروح الطيب والروح الخبيث

ومن عقائد بعض الثنويه أن الخلائق النافعة من صنع اله النور وان الخلائق الضارة أو التى لانفع فيها من صنع اله الظلام

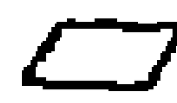
وبعض طوائف الثنوية يعتقدون أن الجسد كله شر ولكن الارواح العلوية ارادت أن تحارب جنود الظلام فأنبأها الاله الاعظم أنها لاتقوى على حربها بغير أجساد كأجسادها ، فان شاءت بقيت على صفائها ، وان شاءت لبست أجسادا من المادة فكافحتها بسلاحها ، وهذه هى الارواح العــلويه التى بقى الاكثرون منهم على صفائهم ، وزانت الغواية الجسدية على بعضهم فغلبتهم الفتن والشهوات

ويعتقد فريق من الثنوية أن آدم من خلقة الشيطان ولكن

الارواح العلوية تعالج أن تصلحه وتقوم أوده وتستخلصه من وهدة الطين بقبس من النور تدسه له فى وجدانه فيأنف الحياة الارضية ويتطلع ببصيرته الى السماء

وجاءت المانوية فانتشرت فى بقاع الدولة الرومانية بعد ظهور المسيحيةونافستها أشد منافسة فىآسيا الصغرى وبلاد الروم من آسيا وأوربة ، فامتلأت معاهد الدينين بالكلام عنالشيطان واستصوب أناس منآباء الكنيسة أن ينتزعوا شعائرعباد النور فجعلوا يوم الاحد يوم الاسبوع المختار لانه كان مخصصا لعبادة الشمس(١)وجعلوا اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر يوم الميلاد لانه كان يوما ينصرف فيه المسيحيون الى سهرات الوثنيين لاعتقاد هؤلاء انه اليوم الذى يقصر فيه الليل ويطول النهار فهو هزيمة لاله الظلمة ، ونصر لاله النور

وقبل المسيحية نظر اليونان الوثنيون الى أصول العقيدة الثنوية فحولوا أسطورة زروان الذى ولد له « أورمزد » الى أسطورة كرونوس الذي ولد له زيوس رب الارباب وسيد الملأ الأعلى ، فبحق يهتم الباحثون الدينيون بهذا الميراث العريق من بلاد بين النهرين ، لانه سابقة لاتنقطع عما تلاها من أطوارالايمان بالخير والشر وبالقوة الكونية التى نزهتها الاديان الكتابية بعد ذلك فى عقيدة الوحدانية ، ودونها القوة الكونية التى تمثل فيها الشر مخلوقا متمردا على الله



وفى الوعى الدينى عوامل ذات بال لاتحسب من الفرائض والشعائر ولكنها تحسب من الخواطر التى تخامر النفس وتعمل

---

(١) ومن هنا بقى اسم « Sunday » بالانجليزية

عملها فى تقويم الاخلاق المصطبغة بصبغة الايمان

من هذه الخواطر التى تستكثر على اللاهوت القديم خاطران يتخللان كتب الديانة «الزردشتية» من أقدم عصورها ، أولهما أن الشر «شك» وأنه نبت فى الكون لاول مرة حين تساءل زروان بينه وبين نفسه : وما جدوى كل هذا التكوين وكل هذا التقدير؟ والخاطر الآخر أن الشر كذب كما جاء فى قصة «يامه» التى تضمنت أقدم الخواطر عن السقوط والخلاص، فقد دعاه أورمزد لحراسة الحق فاستعفاه لعظم الامانة واشفاقه من العجز عنها، فأرسله الى الارض وخوله ما سأله من الغلبة على الموت، فامتلأت الارض بالاحياء التى لاتفنى ، وامتلأت نفس «يامة» بالخيلاء فسولت له أن يناظر الاله بهذه العصمة وان يكاذب نفســـه بخيلائه ، فلحق به الشر وجاءه الموت مع الشر ، فكان ذلك من جناية «يامه» على نفسه وعلى زمرته تسللت الى الوجود من مدخل الباطل وهو أصل جميع الشرور

هذان الخاطران يتخللان الكتب الزردشتية من أقدم العصور، ولم يدخلا العقائد التالية من طريق الفكر والتأمل بل دخلاها من طريق الاشكال والرموز التى يلم بها الحس قبل التفكير فيها

الشيطان
فى حضارة اليونان

يحتاج النقاد التاريخيون الى تحرير موازينهم جميعا قبل الاطمئنان الى رأى صحيح فى أى شأن من الشئون السياسية التى قامت عليها حضارة اليونان

ذلك بأنه سيرى بين يديه تاريخين غير متفقين فى بعض الاصول وفى كثير من التفصيلات: تاريخ الامة اليونانية الحقيقية، وتاريخ الامة اليونانية التى جعلها الاوربيون المحدثون عنوانا للفضائل الغربية فى مسائل العلم والفن والسياسة والاخلاق ، كلما أرادوا أن يضعوا انفسهم موضع المناظرة والموازنة أمام الشرقيين فيما قدروه لهم من نصيب فى هذه المطالب وهذه المزايا

وبلغ من رغبة الاوربيين فى ترجيح الغرب كله باسم اليونان أن فريقا منهم تنكر للمسيحية لانها ثمرة شرقية، وفريقا منهم زعم أن المسيحية ثمرة الفكرة اليونانية من طريق بولس الرسول وجماعة الفلاسفة المسيحيين الذين طبقوا الدين على الفلسفة بعد القرن الاول للميلاد ، وذكروا من براهينهم على ذلك أن الاناجيل كتبت باللغة اليونانية وأن كلمة الانجيل نفسها بمعنى البشارة من لغة اليونان

وقد عمد الغرب الى هذا الاستغلال التاريخى لتراث اليونان لانه احتاج اليه لتدعيم دعوى السيادة والرجحان على أمم الشرق فى عصر الاستعمار ، فاتخذ من تعظيم اليونان وسيلة الى تحقير

الشرقيين واستباحة السيطرة عليهم بدعوى الوصاية الطبيعية التى تخول المتقدمين من بنى آدم أمانة الاشراف على تعليم المتأخرين

ان امة اليونان الحقيقية غير هذه الامة «المصنوعة» التى احتال بها الغربيون فى عصر الاستعمار على خدمة السياسة وخدمة العصبية ومرضاة الغرور الذى يساور «الغربى» فى مقام المفاخرة وان لم يكن من خدام الاستعمار

وليس من المنصفين من يبخس لهذه الامة الحقيقية فضلا فى تاريخ الثقافة الانسانية ، فمما لانزاع فيه أن نصيبها فى هذه الثقافة لايعلوه نصيب ولا حاجة بها معه الى انتحال الدعوى واغتصاب الفخار بغير دليل ، وحسبها أنها أخرجت للعالم سقراط وأفلاطون وأرسطو فى ثلاثة اجيال متعاقبة مع من اخرجتهم من الحكماء السابقين واللاحقين، وانها تعد من شعرائها أمثال هوميروس ويوربيدس واسكايلاس وسفوكليس وارستوفان ، ومن علمائها ومؤرخيها ذلك الطراز الاول الذى تلاحق على مدى ثلاثة قرون فى عصر لم يكن فيه أحد يضارعهم أو يقاربهم فى هذه العلوم ، ومعهم رهط من نوابغ الفن وأساطين السياسة والحكم يوازنون نظراءهم من كل أمة ويرجحون أحيانا على أولئك النظراء بالكثرة والقيمة

حسب الامة اليونانية هذا الفخار الذى يقره جميع المنصفين من الشرقيين والغربيين

فأما انها استأثرت بالقيم الانسانية العليا فى الذوق والفكر والخلق فتلك هى الدعوى التى يروجها الغرض ولا يسلمها التاريخ ، فاذا كانت الشهادة لها بهذا الاستئثار هى المقدمة اللازمة للوصول الى النتيجة المقصودة من تحقير الشرق وتسويغ

استعباده فهي مناجزة يقابلها الشرقيون بما ينبغي لهـــا من التصحيح والتفنيد ، وانها لينبغي لها أن تصحح وتفندلفرضين واجبين : أحدهما تمحيص الحقيقة والآخر محو الاثر السيىء الذى تعقبه فى نفوس ابناء الشرق فتوقع فيها اليأس وتقضى عليها بالمهانة ضربة لازب بحكم الخصائص الفطرية التى لا تتغير ولا تتبدل مع الزمن ، فى زعم الزاعمين

لقد حصروا فى طبيعة الغربى – من وراء اليونانى–كل قيمة انسانية عالية فى مزايا الفكر أو الحكم أو الخلق ، وقابلوه فى هذه الخصائص بالشرقى فخرج الغربى بمزية العقل الذى يطلب العلم للعلم ، ومزية الحكم الذى يقوم على حقوق الشعب ومزية الخلق الذى تتقدم فيه الفضائل الاجتماعية على دواعى الانانية ودوافع الغريزة ، وخرج الشرقى من هذه الموازنة بالطرف النقيض كأنهما متقابلان على خط من خطوط المسطرة لايتلاقى طرفاه من أقصاه الى أقصاه

ونحن نصحح هذه المزاعم فى مناسباتها انصافا للحقيقة ومنعا للضرر الذى يتخلف من آثارها وبخاصة حين يتلقفها من أبناء الشرق من يحب الشهرة بالتحدى والمنافرة ومن يحب التشدق بالغرائب والتعالم بالبدع والنقائض ، وقديما رأينا من أصحاب هذه النزعة من ينافرون بنى آدم اعتزازا بعنصر الشيطان ، وكذلك كان بشار بن برد حين قال :

ابليس أشرف من أبيـــكم آدم
فتبينــــــوا يا معشر الاشرار
النـــــار عنصره وآدم طينــــة
والطين لايســـمو ســـمو النار

فليس للغربيين امتياز فطرى فى طلب المعرفة للمعرفة بغير

نظر الى منافع الكسب والصناعة ، وليس الشرقيون محرومين من طلب المعرفة للمعرفة فى قديم الزمن أو حديثه ، فقد رصد المصريون ـ مثلا ـ كواكب السماء وعرفوا أن الشعرى تظهر فى موضع معلوم عند وصول الفيضان الى منف فاستخدموا الرصد بعد ذلك فى تقرير مواعيد الزراعة ، ولكنهم كما قال صاحب كتاب الرياضيات فى الثقافة الغربية قد رصدوها مئات السنين حبا للمعرفة قبل أن يثبت لهم ذلك الموعد الذى انتفعوا به فى تنظيم الرى والزراعة (١)

وانما امتاز الاغريق بالبحوث الفلسفية فى زمن من الازمان لسبب واضح : هو أن هذه البحوث كانت مباحة عندهم حيث كانت تمتنع على غيرهم من أبناء الدول الشرقية العريقة ، وهى لم تكن مباحة لهم لمزية أصلية فى طبيعة التركيب ... ولكنها أبيحت لهم لان بلادهم نشأت وتطورت دون أن ينشأ فيها عرش قوى وكهانة قوية ، ولو قامت عندهم الدولة القوية والكهانة القوية كما قامت فى مصر وبابل لكان شأنهم فى أسرار الدين والمسائل الالهية كشأن البابليين والمصريين . فالبلاد التى تجرى فيها الانهار الكبيرة تنشأ فيها الممالك الراسخة وتنشأ مع الممالك كهانات قوية السلطان تستأثر بالبحث فى أصول الاشياء وحقائق التكوين ، وتتولى شئون العلم والتعليم كأنها حق لها مقصور عليها لا يجوز الافتئات عليه والا كان المفتئت كالمعتدى على نظام الدولة ومحراب العبادة ، ومتى طال الامد بهذه الكهانات جيلا بعد جيل وعصرا بعد عصر تمكن سلطانها وتشعبت دعاواها وتلبست معلوماتها بلباس الاسرار والطلاسم وابتعدت شيئا فشيئا عن

« Mathematics in Western Culture », by Morris Kline (١)

نطاق البحث الحر الى نطاق المحفوظات والمأثورات»

وقد حكم على سقراط بالموت وهرب فيثاغوراس قبله من وطنه وهرب غيره من الفلاسفة من أثينا دون أن تكون في بلادهم تلك الكهانات الراسخة التي طالت بها العهود في البلاد الشرقية « وحدث للاوربيين ما حدث في الشرق حين قامت في بلادهم الكهانات القوية وبسطت سلطانها على التعليم ومعارض البحث في حقائق الدين وأسرار الطبيعة » (١)

ودعوى الامتياز الفطرى بالحكم الحر أضعف من دعوى الامتياز الفطرى بطلب المعرفة حبا للمعرفة

فالشائع على الألسنة أن التقدم العقلى ألهم اليونان أن يختاروا الحكومة الديمقراطية ـ أى الحكومة الشعبية ـ من كلمة ديموس بمعنى الشعب فى اللغة اليونانية القديمة

وهذا خطأ من جميع أطرافه • فان الحكم الذى سمى بالديمقراطى أو النيابى لانه يجرى بالانتخاب لم يبتدىء فى اثينا حيث يتكلم الفلاسفة ويتذاكرون ، بل كان مبدؤه فى « اسبرطة » العملية التى تختار النظام لانه أيسر تطبيقا وأنفع عملا ، وتتبع هذه السنة فى اختيار كل خطة تنتظم بها الاجراءات ويمتنع بها الشغب والنزاع

وكلمة « ديمقراطية » لم تؤخذ من حكم الشعب ولكنها أخذت من كلمة « ديموس » بمعنى المحلة التى تقيم بها القبيلة ثم استعيرت للقبيلة نفسها وللحكومة التى تشترك فيها القبائل

وقد كان الانتخاب فى أثينا القديمة مسألة « اجراءات » كما كان فى اسبرطة من قبلها • ولم يحدث قط أن أحدا نال حق

(١) راجع كتابنا عن أثر العرب فى الحضارة الأوربية

الانتخاب لانه حق انسانى تناط به التبعات والواجبات ، وانما كانت الطوائف تناله واحدة بعد أخرى كلما اضطرت الدولة الى الاستعانة بها فى القتال ، فلم تنله طائفة الملاحين مثلا الا بعد ثبوت الحاجة اليهم فى الحروب البحرية بعد وقعة سلاميس . ويصدق هذا القول على الديمقراطية الغربية كلها بعد الديمقراطية اليونانية القديمة بأكثر من عشرين قرنا ، فان عمال الصناعة نالوه بعد عمال الزراعة ، لان عمال الصناعة ألزم للدولة من غيرهم فى معامل الذخيرة والسلاح ، وأقدر على المطالبة والاضراب . ولم تنل المرأة حق الانتخاب الا بعد ثبوت الحاجة اليها فى تلك المعامل مع الحاح الطلب على المجندين من الرجال ، ولم يصل الزنوج الامريكيون الى تطبيق هذا الحق فعلا الا بعد الحرب العالمية الثانية التى اشتركوا فيها مقاتلين كما اشتركوا فيها صناعا للذخيرة والسلاح

أما حكم الشورى الذى هو تكليف انسانى منوط بحقوق المساواة وتبعات الحكام والمحكومين ، فلم ينشأ فى اليونان ولا فى أمة غربية ، بل نشأ فى الاسلام فى الجزيرة العربية ولم تسبقه اليه ملة ولا دعوة فكرية



ونأتى بعد بيان الحقيقة فى امتياز المعرفة وامتياز الحكم الى موضوع هذا الكتاب وهو « قوة الشر » ومكانها من الاله الاكبر أو من نظام الوجود .

ففى الحضارات الشرقية التى أجملنا القول فيها رأينا أن « قوة الشر » مغضوب عليها لانها تضر وتفسد وتدس الغواية على الانسان ، وخلاصة المعايير الاخلاقية هنا أن القيم الصالحة فى جانب الاله ، والقيم الفاسدة أو الخبيثة فى جانب « قوة

الشر » أو الشيطان

لكن الامر ينقلب تماما فى معايير الأرباب اليونانيين ، لان « برومثيوس » الذى ينصب عليه غضب الارباب وكبيرهم زيوس هو المعلم الذى هدى الانسان الى سر النار ، وألهمه السعى فى طلب البقاء ، وبصره بالمجهول من خفايا الكون الذى يعيش فيه ، وتمثله الاساطير على قسط وافر من الفطنة يغار منه رب الأرباب ويخيل اليه من أجل ذلك أنه يتعالم عليه

أما رب الارباب ـ زيوس ـ فهو أشبه ما يكون بالشيطان فى الديانات الشرقية القديمة ، وهو فى جميع صوره شهوان نهم أكول شديد الطمع لا يبالى شيئا من الدنيا غير استبقاء سطوته وموارد خزانته ، ولهذا أرسل الصاعقة القاتلة على « اسقولاب » أبى الطب لانه يشفى المرضى فلا يموتون ويخسر «بلوطس» فى العالم الاسفل ضرائب نقلهم الى الهاوية السوداء

وتمتلىء الاساطير اليونانية بأنباء الشجار بين رب الأرباب هذا وقرينته « هيرا » التى كانت تفاجئه فى خياناته الغرامية مع نساء الالهة وبنى الانسان ، وربما عنفته فى بعض هذه المشاجرات لانه ينحرف نحو « الشذوذ الجنسى » فيهبط الى الارض ليختطف منها الغلام الجميل « جانيميد » ويجعله ساقيا فى الملأ الاعلى يدير الرحيق عليه وعلى ندمائه المقربين

وتتمثل لنا صورة زيوس هذا فى أساطيره الكثيرة نموذجا للقوة الجسدية وللحقد على من يظهرون الذكاء ويحرمونه لذات المخدع والخوان ، فان غضب فانما يغضب لفوات لذة أو أكلة ، وان رضى فانما يرضى لخدمة أو وساطة فى طعام أو غرام، وهذه احدى المحاورات بينه وبين برومثيوس كما تمثلها « لوسيان الساموسى » اديب الاساطير المشهور

ـ أطلقنى يا زيوس • حسبى ما قاسيت

ـ أطلقك ؟ أطلقك أنت ؟ كيف ؟ انك لأولى أن يزاد عليك ثقل الاغلال ، وأن تطبق عليك جبال القوقاز جميعا وأن ينهش من كبدك اثنا عشر عقابا بدلا من هذا العقاب الواحد ، فانك أنت الذى أغريت هذه المخلوقات البشرية اللعينة بأن تجترىء على مناوأتنا ، وأنت الذى اختلست سر النـــار ، وأنت الذى سويت المرأة ، وما بى من حاجة أن أذكـرك بما صنعت حين وضعت لى العظم على المائدة وغطيته بالشحم تخدعنى عن طعامى فذق اذن جزاءك فانك به لجدير

ـ وهل ترانى لم أصب من ذلك الجزاء ما هو حسبى ؟ ألم ألصق هنا بالجبل سنين بعد سنين يأكل من كبدى عقابك هذا اللعين الآثيم

ـ انك لم تصب عشر معشار الجزاء الذى أنت به حقيق

ـ تأمل • اننى لا أطلب منك الافـــراج عنى سماحة بغير عوض ، وانما أهب لك سرا من الاسرار الغالية التى تعنيك

ـ آه • انها اذن لحيلة من حيل برومثيوس

ـ حيلة من حيلى ؟ ولأى غرض ؟ ان جبل القفقاز موجود ، وانك لقادر على الرجعة بى اليه ان كذبت عليك

ـ قل لى أولا فى أى شىء تكون هذه النصيحة الغالية

ـ أاذا أنبأتك حقا بشىء عن هذه النصيحة ألا تعلم منهــا أيضا أننى أحس بالنبوءة عن الغيب ؟

ـ بكل يقين

ـ انك على موعد زيارة لثيتس

ـ الى هنا أصبت . فماذا بعد هذا ؟ قل . اننى الآن أصغى اليك

ـ لا تضاجعها يا زيوس • فان بنت نيريس لاتلبث أن تحمل منك حتى تلد طفلا يبتليك بما تبتليني به الآن

ـ تعني انني أفقد عرشي ؟

ـ أعيذك من القضاء ، وانما أنبئك بما سيكون من وراء ذلك اللقاء

ـ اذن وداعا يا ثيتس • وأنت يا برومثيوس سيأتيك هيفستس بالفرج القريب



ورواية لوسيان لاخبار برومثيوس مع رب الأرباب تطابق رواية « هزيود » الذي تولى تنقية الاساطير وحاول أن يعرض زيوس في معرض التقديس والتنزيه ، فلم يترفع به عن وصمة النهم الذي يغضب لأكلة ، ولا عن تهمة الغيرة من ذوي الفطنة والحيلة بل ألقى اللوم على المغضوب عليهم لانهم استحقوا الغضب بالتعالم عليه ، وحكي وهو يبسط القول في أوائل خلق الكون قصته التالية :

« ••• وولدت كليمين بنت الاوقيانوس ولدا أصمع القلب هو الاطلس ، وكذلك ولدت منوتيوس المجيد ، وبرومثيوس اللبيب صاحب الحيل والاساليب ، وابيمثيوس الذي كان من مبدأ أمره شرا على الناس الذين يأكلون الخبز لانه هو الذي أخذ من زيوس المرأة التي خلقها ، وكان منوتيوس ثائرا مثيرا فرأى زيوس بثاقب نظره أن يرجمه بصاعقة هبطت به الى أرينوس لادعائه وامعانه في كبريائه ••• وقضى على برومثيوس ذي البديهة الحاضرة والعارضة القوية أن يوثق بأغلال لا يفلت منها وقيود قاسية لا ترحمه ، وان يطعن أحشاءه بسهم يكشف عن كبده لينهشها النسر الطويل الجناحين فيلتهمها بالنهار ويتركها

فى سواد الليـــل تعود سوية كما كانت ليعـاود تمزيقها فى الصباح ، وقد جاء هرقليس فقتل هذا النسروأنقذ برومثيوس من عذابه ... ولم يكن ذلك بغير رضى من زيوس صـــاحب العرش الرفيع فى الاولمب وانما أراد نبـاهة الشأن لابنـه هرقليس ... فنظر بعين الرضى الى فعلته وان يكن غاضبا من برومثيوس لانه تسامى الى مناظرة الاله الاكبر فى الذكاء ... وقد كانت لذلك قصـــة يوم انقســـم الارباب والبشر وذبح برومثيوس ثورا عظيما ليطعمهم منه . فسولت له نفسه أن يخدع زيوس وأن يضع اللحم الجزل أمام غيره ويضع أمامه عظما مكسوا بالشحم يلمع عليه ويخفى ما تحته بلباقته وخبثه ، فلم يلبث زيوس أن صاح به : « يا ابن يابيتس سيد الســادة . ما أشد اجحافك ـ سيدى ـ فى قسمتك ! »

كذلك قال زيوس صاحب الحكمة الخالدة يؤنبه ، فلم ينس برومثيوس مكره وراح يجيبه فى ابتسام وصـوت خفيض : « خذ من هذه الانصبة جميعا ما ترضاه » وظن انه يحتال على الاله الاكبر بهذه الخديعة ، ولكن الاله الاكبر صـــاحب الحكمة الخالدة لمح كيده ولم يخف عليه قصده ، وأضمر فى قلبه شرا لأبناء الفناء من البشر لا محيص لهم من قضائه ، وتناول الشحم الابيض بكلتا يديه وقلبه مفعم بالغضب وروحه يتلهب سخطا كلما رأى العظم الابيض مدسوسا فى خبث واحتيال ، ولهـذا قضى على عشائر البشر أن تحرق العظم الابيض عـــلى المذابح المعطرة قربانا للارباب الخالدين . ويزمجر مرســـل الغمام بصواعقه محنقا اذ يقول لبرومثيوس :

« يا ابن يابيتس . يا بارعا فوق البارعين . كأنك ياسيدى لم تنس بعد أساليبك فى المكر والخداع ! »

كذلك قال زيوس السرمدى الحكمة فى غضبه ، وظل منذ تلك الساعة يذكر الحيلة ويأبى أن يسلم سر النار الى الخلائق البشرية الهالكة التى تعيش على الارض • الا أن برومثيوس النسيب الحسيب غلبه دهاؤه ، واختلس قبسا من النار فى جوف قصبته . وأحس زيوس مرسل الصواعق فى الملا بلذعة فى فؤاده حين لمح النار بين أبناء البشر ...

ثم مضى هزيود يروى قصة المرأة التى خلقها زيوس شرا للبشر ، وجعل اجتنابها فى الوقت نفسه شرا يورث العقم ، وجاء برومثيوس فأغرى الانسان بالنسل مستهينا بشر الفتنة حذرا من شر الفناء

وبديه أن تستهوى الشعراء هذه الاسطورة التى تحيط بمأساة البشر بين القوة الالهية التى تحبهم والقوة الكبرى التى تبغضهم وتلقيهم بين شرين من الفتنة والفناء ، فقد جرب الشعراء أخيلتهم فى نظم هذه الاسطورة وايداعها كل ما تتسع له من أحاسيسهم وأفكارهم ومن تصويراتهم للقدر المحيط بالانسان بين السماوات والارضين ، وقد تناولها فى العصر القديم شاعر من أكبر شعراء اليونان وتناولها فى العصر الحديث شاعر من أكبر شعراء الانجليز وشعراء الغرب أجمعين ، فنظم فيها « اسكايلاس » قصيدته بعنوان « برومثيوس المعتقل » ونظم فيها « شلى » قصيدته بعنوان « برومثيوس الطليق » ، وكلاهما قد وضع برومثيوس وزيوس فى مكانيهما من الانصاف والاجحاف ومن الخير والشر ومن البر والعقوق ، فجعل الشاعر اليونانى زبانية زيوس نفسه يرثون لبرومثيوس الذى قضى عليه — لعطفه على أبناء البشر — أن يوثق الى صخرة نائية لا يراها أحد منهم ولا يسمعه منها أولئك الذين قد شقى فى

سبيلهم فيجزيه عطفا بعطف وأحسانا باحسان ، وجعل الشاعر الحديث رب الارباب كالمارد العربيد أسكره النصر فقـــام بين مخلوقاته الذين تسعدهم عزته ، ونمى لهم صديق البشر الذين يرفعون اليه قرابينهم على كره منهم وفى قلوبهم غصـــة وعلى ألسنتهم نفاق

ويقرأ المثقفون من الغربيين هذا الشعر الرفيع ولا يشعرون بالمناقضة بين ما يوحيه من القيم الاخلاقية فى تصوير أصـــول الخير والشر وبين دعوى الامتيـــاز الاوربى على أمم الشرق فى تصويرهم لهذه الاصول ، وليس فى وسعهم أن ينكروا دلالة الاساطير الكونية على معايير الاخلاق وبواطن الشعور ، وليس فى وسعهم كذلك أن ينكروا التواتر فى رواية تلك الاساطير ، ونحسب أن السهو عن بيان هذه المفارقات فى كتاب يوضـــع عن «الشيطان» يخل بأمانة الكاتب من الشرقيين وغير الشرقيين، ولكن الكاتب الشرقى ـ من أبناء هذا العصر خاصـــة ـ يخل بأمانتين لا بأمانة واحدة حين يسهو فى هذا السياق عن تمحيص الحقائق ودفع الاباطيل التى تتجاوز الخطأ الى الضرر بالنفوس



ويبدو أن اليونان المتأخرين ـ قبـــل عصر المسيحية ـ قد استعاروا من الشرق فكرة أخرى عن أصل الخطيئة أو أصـــل الخطايا الشيطانية جميعا فردوها الى الكبرياء وأطلقوا على هذه الخلة اسم الهوبرى « Hubris » وهى كلمة قريبـــة من دلالات الرجس فى اصطلاح الدينيين

ولكن الكلام فى الكبرياء لا يغنى عن تعقيب ينفى عن الكبرياء محاسنها ، ولا يبقى لها غير عيوبها التى ينكرها الدين كما ينكرها معيار الاخلاق

فالكبرياء على الاله الكامل العظيم فى صفاته وآلائه كفران لا شك فيه ، وخطيئة لا مسوغ لها من العقل ولا من الضمير . أما الكبرياء على صاحب سلطان يستسلم لشهواته ويصب صواعق السماء فى سبيل أكلة من اللحم والشحم فليس فيها من معنى الخطيئة كثير ولا قليل ، وليس فى استعارتها لهذا المعنى دليل على معيار صادق الحسنات والعيوب ، ولكنه من قبيل النقل على السماع فى غير موضعه ومغزاه



الفصل الثالث

* في طريق الأديان الكتابية
* العبرية
* المسيحية
* الاسلام

فى طريق الاديان الكتابية

قبل أن ننتقل الى عقائد أهل الكتاب فى قوة الشر العالمية نتريث هنا لحظة لتلخيص المرحلة الطويلة التى عبرها الانسان فى هذا الطريق ، من خطواته الاولى حيث لا تمييز بين خير وشر ولا بين اله وشيطان ، الى غايته القصوى فى حضارات الامم القديمة حيث ظهرت ديانة التوراة ، وهى أول الاديان الكتابية فى التاريخ

آمن الانسان بالارواح والاطياف من أول عهده بالدين فى الهمجية الاولى ، وآمن منها بما يرجوه وما يخشاه ولكن كما يرجو النفع ويخشى الضرر من كل شىء يحيط به وتتعلق به المنافع والمضار ، ولم يكن للتفرقة بينها معنى فى مقياس الاخلاق أرفع من معنى التفرقة بين الحيوان الانيس والحيوان الضارى ، أو بين الحشرة المأمونة والحشرة السامة ، أو بين جمادين أحدهما يفيد ولا يضر والآخر يضر ولا يفيد ، وربما تلبس عنده الجماد بروح من الارواح أو طيف من الاطياف كلما ارتجى نفعه واتقى أذاه

وخطا فى طريق التدين خطوة أخرى حين قسم الارواح والاطياف الى طيب وخبيث واحتاج الى الكاهن والساحر ليروض له الخبيث بالرقى والتعاويذ ويجزى عنه الطيب بالدعوات والقرابين ، وعمل التخصص عمله البطىء فانفصل دور الدعاء ودور السحر وان عمل فيهما كاهن واحد ، كما كان ينفصل دور

الراعى ودور الصياد وان كان كلاهما يرعى الحيوان النافع ويصيد الحيوان الذى يفتك بالاناسى ، والماشية

ثم خطا الانسان خطوة أخرى من التمييز بين المنفعةوالمضرة وبين المنفعة التى تصدر على الدوام من الطيبة وحسن النية ، والمضرة التى تصدر على الدوام من طبع خبيث ونية سيئة ، ولم يكن أمامه فى هذه الخطوة مثل على الشر الخبيثالذى يضمر السوء ويتوارى عن النظر - أقرب الى الحس والخيال من الحية التى تزحف على التراب وتندس فى الجحور كيدا وخديعة وتمكنا من الدس والأذى فيما توهمه ولم يكن فى وسعه أن يتوهم شيئا سواه ، ولهذا بقيت صورة الحية مقترنة بقوة الشر حقيقة أو رمزا الى أحدث العصور

وعاش الانسان عصورا مديدة يعمل الاعمال أو يتركها لانها مأمونة نافعة أو محذورة وخيمة العاقبة ، فلما أخذ يعملها أو يتركها لانها واجبة مطلوبة أو لانها محرمة محظورة كانت هذه خطوته الاولى فى طريق التمييز بين الواجب والمحرم وبين الخير والشر فى أضيق الحدود

ولم يزل خيره وشره خير قبيلة واحدة أو شر قبيلة واحدة حتى تجمعت القبائل فى أمة ذات مجتمع واحد وشريعةواحدة، فعمت نظرته الى الشر والخير ولم تزل تتسع فى عمومها حتى برزت فى ذهنه فكرة « النوع الانسانى » ووجدت مع هذه الفكرة الرفيعة فكرة أرفع منها وأشرف جدا فى مغازيها وثمراتها وهى فكرة الانسان عن ضمير الانسان ، ولم يكن فى الوسع أن يعقل شيئا عن « الضمير الانسانى » قبل أن يعرف ان الانسان نوع واحد من وراء العشائر والقبائل والشعوب والاقوام

وكانت الحضارات الاولى خطوة بل خطوات واسعة فى هذا الطريق ، ولكنها خطوات متفرقة تتقابل أحيانا ولا تتقـــابل دائما فى الاتجاه الى معنى الخيرات والشرور ، وقد كانت خيرات وشرورا قبل أن تجتمع فى خير واحد بمقياس واحد أو فى شر واحد بمقياس واحد يتقارب فيه جميع بنى الانسان

كانت مسألة العالم مسألة دولة وشريعة ونظام فى عـرف الحضارة المصرية الاولى ، فالخير شريعة تستتب عليهـــا الامور والشر مروق من تلك الشريعة واخلال بالنظام الذى استتبت عليه

وكانت المسألة مسألة كونية فى عرف الحضارة الهنـــدية الاولى ، فالكون الظاهر كله باطل وزيف وشر ولا خير فى غير الاعراض عنه والنفاذ الى ما وراءه ، ولعل المجاز هنا قد فعـل فعله فى المشابهة بين صيرفة الجواهر وصيرفة الموجودات على عمومها ، فقد كانت صيرفة الجواهر فنا قديما فى حضـــارة اللآلىء والحجارة الكريمة وحلى التيجان والقصور وما عداها أو ما دونها من الحلى الزائف والحلى البذول ، وكلها كثيرة قديمة فى بلاد الهنود

وكانت المسألة مسألة فلكية فى حضارة « بين النهرين » بفرعيها من فارس وبابل

فما عدا النور فهو ظلام ، وكل ما فى الوجود فهو بين النور والظلام ، وهذه هى خلاصة الديانات الثنوية فى مختلف المذاهب والتأويلات

وتختلف عقيدة فارس وعقيدة بابل فى تلك الحضارة ، أو تلك الحضارات الواسعة ، ولكنها لا تزال فلكية فى الصميم ، لان الخير والشر فيها مقسومان بين الســعود والنحوس كما

سطرت فى أزياج الكواكب ودارت عليها أفلاك السماوات

أما الحضارة اليونانية الاولى فالخير فيها مسألة حظ ، والشر فيها مسألة اعتراض لذلك الحظ الذى لا حيلة فيه للمحظوظ ولا للمعترض عليه

فلم يكن «زيوس» رب الارباب لانه أطيب منها أو أعلم منها أو أرفع منها خلقا أو أشرف منها مقصدا ، اذ انه فى الواقع أقل من الاكثرين بين الارباب فى جميع هذه الخصال ، وانما « الحظ » وحده هو الذى يفسر علوه عليها بغير تلك الفضائل والمزايا ، ولم يكن هذا « الحظ » عرضا من الاعراض أومصادفة من المصادفات فى الثقافة اليونانية المتقدمة فضلا عن الاساطير البدائية التى لم تخلص من سذاجتها واختلاطها ، بل كان « الحظ » مدار القصائد الكبرى والدرامات التى وضعها نوابغ الشعراء ، ومثلوا فيها مصائر الابطال وما كتب عليهم قبل مولدهم من قسمة مبرمة وقضاء محتوم لا مهرب لهم منه بحيلة أو اجتهاد ، ولا نجاة منه لذى حسنة أو ذى سيئة من المتفائلين أو المتشائمين ، واذا لخص النزاع بين زيوس وبروميثيوس فى قصة مفهومة فليس لفهمه وجه من الوجوه على غير معنى واحد وهو النزاع بين صاحب حظ غالب وصاحب حظ مغلوب، ولعل فلاسفة اليونان لم يجتهدوا اجتهادهم فى كلامهم على السبب والمصادفة ــ أو البخت كما ترجمه الفارابى ــ الا لانهم كانوا يلقون « البخت » أمامهم عقبة قائمة فى طريق كل تفكير، وكان ايمان العظماء به قد بلغ من الرسوخ والخطر ألا يقدم أحدهم خطة من خطط السلم أو غزوة من غزوات الحرب الا بعد استطلاع العرافين عن « الحظ » المكتوب له أو عليه

على أننا ــ فى هذه العجالة ــ فى مقام الحد الفاصل بين

الحضارات الاولى والاديان الكتابية من وجهة النظر الى « قوة الشر العالمية » أمام قوة الخير أو أمام المشيئة الالهية التى آمن بها الناس وهم يعلمون فكرة « النوع الانسانى » وما تلاها من فكرة أرفع منها وأشرف وهى فكرته عن « ضمير الانسان »

ونحسب أن الحد الفاصل انما هو الفارق بين التقديم والتأخير بين صفتين من صفات الاله الاكبر ، وهما : صفة السيادة والسلطان ، وصفة الخلق والتكوين

فالاقدمون قد آمنوا بخلق الله للاكوان ولكنهم لم يبرزوا صفة الخلق كما أبرزوا صفة السيادة ، ولعلهم كانوا منساقين فى ذلك مع عقائد الفطريين الاسبقين الذين كانوا يؤمنون بأرواح لم ينسبوا اليها خلق شىء من الاشياء فضلا عن خلق الكون الذى يحتوى جميع الاشياء • ثم تدرج الناس من عبادة الروح المتسلط الى عبادة الاله المتسلط ، فجعلوا صفة الخلق تابعة لصفة السيادة والسلطان

أما الديانة الكتابية فقد أبرزت صفة الخلق وجعلتها شاملة لكل ما عداها من الصفات الالهية ومنها صفات السيادة وتصريف المقادير . ويأتى من هذا الفارق شىء كثير

يأتى منه أن الشر فى الحالة الاولى انما يحسب من قبيل الحماقة قبل أن يحسب من قبيل الكنود والفساد ، فلا يقال عنه أنه يليق أو لا يليق كما يقال عنه أنه عمل حكيم أو غير حكيم . وبين هذا وبين وصف الشر بالسوء والكفران بون واسع ، لم تعبره الامم الانسانية طفرة واحدة بل تقدمت فيه خطوات بعد خطوات كما سنرى فى عقائد الاديان الكتابية مما قبل التوراة الى ما بعد الاسلام

الاديان الكتابية

(ا) العبرية

نسميها العبرية لاننا لا نعرف تسمية تصدق عليها منذ نشأتها فى بلاد بين النهرين كما تصدق عليها هذه التسمية

فلا يصدق عليها اسم « اليهودية » لان النسبة الى يهوذا حدثت بعد موسى عليه السلام

ولا يصدق عليها اسم « الموسوية » لان موسى قام بالدعوة بعد يعقوب واسحاق وابراهيم عليهم السلام

ولا يصدق عليها اسم « الاسرائيلية » لان الاسرائيلية تنسب الى اسرائيل وهو يعقوب بن اسحاق ، وكان ابراهيم الخليل جدهم أجمعين يلقب بالعبرى فى بعض كتب العهد القديم ، فاطلاق اسم العبرية على العقائد التى دانت بها العشائر التى نشأ فيها ابراهيم أصدق من كل اسم آخر فى الاحاطة بديانة القوم من أوائل تاريخها وفى جميع أطوارها المعلومة الى أن عرفت أخيرا باسم ديانة التوراة

وينبغى أن نميز العبرية فى نشأتها الاولى من ديانة التوراة كما تلقاها المسيحيون الاوائل ، وكما انتهت الينا مهذبة فى القرآن الكريم

فقد حملت « العبرية » عبء التوسط بين الوثنيات الاولى

وعقائد التوحيد من قبل ظهورها الى ما قبل المسيحية بنحو مائتى سنة ، فلم تستقم على عقيدة الاله الواحد المنزه عن اللوثة الوثنية الا حوالى القرن الثانى قبل الميلاد

ولم تكن قط قبل ذلك ، ولا بعد ذلك ، ديانة انسانية عامة تتساوى فيها جميع السلالات وتناط فيها العقيدة بضمير الانسان غير منظور فيه الى عنصر أو نسب ، وانما نشأت وعاشت ديانة « قبيلة خاصة » أو قوم معلومين

ولم ترتفع قط بادراكها للتنزيه الالهى الى الافق الذى ارتفع اليه آخر الاديان الكتابية وهو الاسلام

بل كان العبريون الاوائل ينكصون حينا بعد حين الى شعائر الأوثان والاصنام وعبادة البعل وتموز وعشتروت ، ويعرضون عن أنبيائهم الذين يغارون من منافسة هذه الارباب لرب ابراهيم فلا يعودون الى الوحدانية ـ أو ما يشبه الوحدانية ـ الا بعد تقرير الدعوة من جديد

ولبثوا زمانا يصفون الاله بالصفات التى لصقت به فى الوثنية أو فى ديانات الحضارات الاولى ، فكان الاله عندهم يغار من الجنس البشرى ويشفق من يوم يهتدى فيه الى شجرة الخلود ويتوعده بالموت ان أكل منها فيقيم الملائكة الاشداء حرسا حولها كما روى عن الارباب البابليين فى حواشى قصة الخلق وقصة الطوفان ، وكانوا يقولون لموسى عليه السلام أنهم يتهمون « يهوا » بالكيد لهم ونصب الفخاخ فى البرية للتغرير بهم ، وانه لم يستدرجهم الى سيناء الا لانه يبغضهم ويتمنى لهم الهلاك بعيدا من أرض وادى النيل التى أخرجهم منها

وكانت فكرة السيادة فى عبادتهم للاله غالبة على فكرة الخلق كما كانت غالبة على أديان الحضارات الاولى ، فلم ينكروا وجود

الارباب التى تدين بها العشائر الاخرى، ولكنهم أنكروا سيادتها ودانو بالولاء للاله « يهوا » وحده كما يدين الشعب لملكه وهو يعلم بملوك غيره لا تجب عليه طاعتهم ولا يأمن العاقبة اذا أشرك بينهم وبين ملكه فى فرائض الولاء

ويتضح من مقارنات الاديان أن العقيدة تعـزل قوة الشر وتحصرها فى « الشخصية الشيطانية » كلما تقدمت فى تنزيه الاله واستنكرت أن يصدر منه الشر الذى يصدر من الشيطان

ولهذا لم يشعر العبريون الاوائل بما يدعوهم الى عـــزل الشيطان أو اسناد الشرور اليه ٠ لانهم كانوا يتوقعون من الاله أعمالا كأعمال الشيطان ، وكان العمل الواحد عندهم ينسب تارة الى الشيطان وتارة الى الاله كما حدث فى قضية احصاء الشعب على عهـد داود ، فانه فى المرة التى ورد فيها اســـم الشيطان بصيغة العلم قيل انه هو الذى أغرى داود باحصـــاء الشعب كما جاء فى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر الايام الاول ، ولكن الرواة يروون هذه القصة بعينها فى سفر صمويل الثانى فيقولون انه : « حمى غضب الرب على اسرائيـــل فأهاج عليهم داود قائلا امض واحص اسرائيل ويهوذا ٠٠ »

ولم يكن الشيطان هو الذى أغوى حواء بالاكل من الشجرة المحرمة بل كانت الحية هى صاحبة الغواية هنا جريا على سنن الاقدمين الذين كانوا يوحدون بين الضرر الحسى وبين الخطيئة الاخلاقية ، وقبل أن تصبح الحية مجرد رمز الى الشيطان تلاحظ فيه المشابهة بين نفث السم ونفث الشر على أسلوب المجاز

ولم يذكر الشيطان قط فى كتاب من الكتب قبل عصر المنفى الى أرض بابل سنة (٥٨٦ قبل الميلاد) ٠٠ ثم كان ذكره فيها على الوصف لا على التسمية، فجاء مرة بمعنى الخصم فى القضية

وجاء مرة أخرى بمعنى المقاوم فى الحرب ، وأطلق مرة على الملك الذى تصدى لبلعام فى طريقه ، لانه كان بمعنى المعترض أو الضد أو الخصم المقاوم ، ولم يذكر بصيغة العلم الا حيث قيل فى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر الايام انه « وقف الشيطان ضد اسرائيل »

وقد كانت قرابين الكفارة تقسم على التساوى بين الاله وبين عزازيل رب القفار أو الجنى الذى يهيمن على الصحراء ، وكان ايمانهم بوجود الارباب الاخرى التي يعبدها غيرهم من الامم بديلا من صور الشياطين ، لانها كانت تعمل عمل الشيطان كلما صرفت الشعب عن عبادة « يهوا » الى عبادة غيرها تثير النقمة على العصاة ، وانما تأتى النقمة آذن من « يهوا » ولم تأت قط من أولئك الارباب الاجنبيين ، البدلاء من الشياطين

وقد تمثل الشيطان فى صورة الواشى الموغر للصدور فى قصة أيوب عليه السلام ، ولم يكن منعزلا عن الملائكة بل دخل معهم الى الحضرة الالهية وجرى سياق القصة على النحو الآتى كما جاء فى الاصحاح الاول من سفر أيوب : « وكان ذات يوم انه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضا فى وسطهم فقال الرب للشيطان : من أين جئت ؟ فأجاب الشيطان الرب وقال : من الجولان فى الارض ومن التمشى فيها ، فقال الرب للشيطان : هل جعلت قلبك على عبدى أيوب ؟ انه ليس مثله فى الارض • رجل كامل ومستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر ، فأجاب الشيطان الرب وقال : هل مجانا يتقى أيوب الله ؟ أليس انك حميته بحياطتك اياه وحياطة بيته وكل ما يملك من ناحية ؟ .. باركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه فى الارض ... »

ثم تبتدىء المحنة بتسليط الشيطان على أيوب لامتحان تقواه وصبره على ضربات المرض والبلاء والفقر والحرمان

وقصة أيوب عربية باتفاق الشراح المؤرخين ونقاد العهد القديم ، ولها نظائر فى الادب العربى ان لم تكن هى القصة بعينها منقولة فى رواية أخرى ، ونعنى بها القصة التى أشار اليها امرؤ القيس حيث يقول فى معلقته :

وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوى كالخليع المعيل

فان الجوف بلغة اليمن هو الوادى وكلمة العير فى هذا البيت بديل من كلمة الحمار اسم صاحب القصة ، ولم تستقم كلمة الحمار فى وزن الشعر فجاء الشاعر بكلمة العير لتدل على معناها ، وكان حمار بن مويلع هذا رجلا من العمالقة له مال وبنون وزرع وضرع فنزلت على أبنائه صاعقة فى بعض أسفارهم احرقتهم وما معهم فكفر الرجل بالله ، وقال : «لاأعبد ربا أحرق بنى ، ثم عكف على عبادة الاصنام فأرسل الله على واديه نارا أتت عليه وجعلته مضرب المثل فى الخراب فيقال على هذه الرواية : « أخلى من جوف حمار »

وأيا كان القول فى هذه القصة فلا خلاف على قصة أيوب ولا على نسبة أيوب الى العرب ، ولا على انفراد هذه القصة بين كتب العهد القديم بتمييز قوة الشر والغواية فى « شخصية الشيطان » .. وتلك قيمة من القيم الاعتقادية التى لم يميزها العبريون لانهم لم يبلغوا من التمييز بين طبيعة الخير وطبيعة الشر أن يفرقوا بين الملائكة والشياطين ، وأن ينزهوا الاله الذى يعبدونه أو تعبده الاقوام الاخرى عن قبائح الشيطان

وقد نبهنا الى تحرير موازين النقد قبل النظر فيما كتبه الاوربيون عن اليونان ، وليست الحاجة الى تحريرها فى صدد

المأثورات العبرية بأقل من الحاجة اليه فى صـــدد المأثورات اليونانية ، لان الاوربيين لا يتجردون من الهوى والعصبية كلما خلطوا بين تاريخ عقائد العبريين منذ القدم وبين تاريخ العهـد القديم على اعتباره كتابا من كتب المسيحيـة التى يؤمن بعض الكنائس بتنزيلها ، وينظر اليه بعضهم كأنه تراث أدبى موصول بتراث الدين

فقد وهم الكثيرون من قدم الديانة العبرية وانهـا أسبق الديانات الكتابية فى التاريخ أن هذه الديانة سبقت المسيحية والاسلام الى أصول العقائد والعشائر فى جميـع الفرائض والعبادات ، ولكن الواقع أن العبريين استعاروا كل ما دانوا به ولم يعيروا المسيحية والاسلام شيئا غير ما جاء من تطـور الافكار ولم يكن مجيئه على يديهم فى أكثر الاحيان

وعلى خلاف الشائع بين أصحاب الدعايات والعصبيات كان أنبياء العرب أساتذة الانبياء العبريين فى أهم الاصول الدينية وهى مسألة الخير والشر ومسألة الثواب والعقاب • ففى سفر أيوب قبل جميع الاسفار التوراتية ظهرت هذه الاصول ، وقد تتابعت النبوءات فى بلاد العرب قبل أن يكون للنبـوءة شأن بين العبريين ، وذكر القرآن الكريم من الانبياء العـرب هوداً وصالحا وشعيبا وذا الكفل • وجاء فى التوراة ذكر بلعام وأيوب وشعيب، وجاء فيها أيضا ان شعيبا علم موسى وهداه الى سياسة قومه ، وان بلعام كان حكما بين اسرائيل وخصومها فى جنوب فلسطين ، ومن صيحات النبى « ارميا » يتبين أن المجهول من أخبار الانبياء فى بلاد العرب كان أكثر من المعلوم المذكور فى كتب العهد القديم ، لانه يستغيث متسائلا عن هداية الجنوب، وينادى : أما من حكمة بعد فى تيمان ؟

وانما تضخمت مأثورات العبريين بعد اختلاطهم بأهل بابل ومصر وبلاد العرب واليونان ، واحتوت كتب التلمود والمشنا أهم عقائد القوم فيمسألة الخير والشرومسألة الثواب والعقاب، ولابد أن يذكر على الدوام ان هذه الكتب جمعت بعد المسيحية وظلت تجمع ويضاف اليها حتى القرن العاشر للميلاد ، وفى هذه الكتب خلاصة ما استفاده العبريون من مجاورة الامم التى تقدمتهم فى ادراك الصفات الالهية والصفات الشيطانية ،ومن هذه الكتب أخذ الآخذون ما حسبوه تراثا اسرائيليا وهو فى حقيقته تراث الحضارات الغابرة من أقدم العصور

مثل واحد يدل على نصيب القوم من الاصالة والنقل فى القصص الدينية والتعليق على المسائل الغيبية ، فانهم ظلوا الى ما بعد الاسلام ينقلون عن العرب قصصا كان موطنها فيأرض بابل وأشور كقصة هاروت وماروت ، وأحق ما يكون بالتنبيه في هذا المقام أن اليهود خرجوا من أرض بابل وعادوا اليها أيام السبى قبل الميلاد بستة قرون ، ولكنهم لم يأخذوا هذه القصة الا بصيغتها العربية بعد عصر السبى بأكثر من ألف سنة ، فليس من شروط القدم فى الديانة الكتابية أن يكون القوم معبرين وأنهم لا يستعيرون

ويدل تأخر المصادر التى فصلتأوصاف الشيطان علىتأخر القوم فى التمييز بين الخير والشر كما ميز بينها أبناءالحضارات التى تقدمت الاشارة اليها ، ففى الروايات التلمودية المتأخرة يبدأ كل تفصيل عنالعداوه الشيطانية للانسان وعن أثر هذه العداوة فى خروج آدم من النعيم ، وفيها ارتقاء من وسوسة الحية الى وسوسة شمائيل رئيس الملائكة الذى عمل فيالقصة عمل ابليس ، وتوسع رواق اليوبيل حوالى القرن الثانى قبيل

الميلاد فى الكلام على « مشطيم » أسم الفاعل من مادة شط فى اللغة العربية يقابله كلمة «مشيطن» فى اشتقاق اللغة العربية، وتحتوى التلموديات فى مثل هذا العصر كلاما عن الشيطان بليعال روح الكذب والخداع وهو يقابل فى العربية « بلاعول » أى لا معول عليه ولا خلاق له ولا خير فيه • ويحتوى كتاب اخنوخ ، قرابة هذا الوقت ، كلاما عن الملائكة الهابطين بقيادة كبيرهم المطرود من رحمة الله ، ويقول كتاب الحكمة ان الموت نزل على الدنيا من جراء حسد الشيطان•وأما قبل هذا العصر بعدة قرون فقد كان كتاب التوراة يذكرون الشياطين بأسمائها البابليه كما ذكروا « الشعريم » أى الشياطين ذوات الشعر ، والليليت أى الشياطين الليلية والكتيب والدبير (١) وغيرها من الجنة والعفاريت التى اقتبسوها بمدلولها فنقلوها بأسمائها ونعوتها



ونعود فنقول ان الديانة العبرية تحملت أعباء التوسط بين الديانات الوثنية وديانات التوحيد الكتابية ، وصورةالشيطان فى عقائدها هى أوفق مقياس لسلم التطور الذى ارتقت عليه من أقدم عهودها فى التاريخ الى العهد الذى ظهرت فيه المسيحية

ففى أقدم العهود لم يكن عند العبريين فارق بين خلائق الكائنات العلوية وخلائق الكائنات الارضية من انسانية وحيوانية ، ولم يكن عندهم كذلك فارق بين هذه الخلائق

---

(١) اهم المراجع التى اعتمدنا عليها فى هذه الاسطر كتاب « الشيطان صوره » لمؤلفه ادوارد لانجتون Edward Langton

وخلائق الشيطان

فكان الشيطان يحضر بين يدى الله مع الملائكة ، وكان الملائكة يهبطون الى الارض فيعاشرون بنات الناس ، وكان الاله نفسه يمشى فى ظل الحديقة مبتردا ويأكل اللحم والخبز ويحب ريح الشواء ويغار ويحقد وينتقم ، كما يفعل كل مخلوق ، من مخلوقاته فى الارض أو فى السماء

وتطورت عقائدهم فى الملائكة فأصبح منهم نظراء لقوى الطبيعة فى أساطير الوثنيين الاقدمين ، فمنهم ملائكة للآبار وملائكة للانهار وملائكة للتلال وآخرون للمغاور والوهاد وآخرون للاسماك والحيتان ، ولكل صيد من حيوان البر والبحر والهواء . ومن هؤلاء الملائكة من يعمل فى طاعة الشيطان ويتنقل بين الاعمال السماوية وأعمال الارض والهاوية كأنها نمط واحد من الاعمال يختلف باختلاف الرؤساء والدعاة

وتروى « الزوهار » ان الملائكة هم الذين استكبروا آدم يوم صنعه الله لاول مرة ملء السماوات والارضين فتساءلوا مستنكرين : أفى الكون الهان ؟ فصغره الله وجبل له جسما من التراب

وفى ميثاق أخنوخ أن الملك شمهازى قاد رهطا من الملائكة الى الارض ففسق وعصا وخاف أن ينفرد بالعقاب فدعاهم أن يقسموا معه ليفعلن مثل فعله ، فأقسموا معه على جبل حرمون وسمى الجبل بهذا الاسم لانهم أقسموا عليه بحرمة الحرمان وعقدوا النية على المحرمات ، ثم فجروا مع النساء وعلموهن الزرع والحصاد وهموا باهلاك رجالهن فتعلم الرجال منهم الفتك والعدوان

ويروى عن أخنوخ انه هو الذى عزر الملائكة المتمرسين

بشهوات الارض وقال لهم حين تشفعوا به : أولى لكم أن تهجروا الارض وأن تعيشوا سماويين لا تأكلون ولا تشربون (١)

ومن علماء الاساطير العبرية ـ مثل ابشتين وجرنبوم ـ من يقررون أن اليهود أخذوا طائفة من قصص الشيطان رواية عن المصادر الاسلامية ، وأن سعديا وابن سابا نقلا أسباب سقوط أبليس عن هذه المصادر ومعها كثير من الاوصاف والفعال التى يتميز بها الشياطين

وكان الحكماء والربانيون يختلطون بكهان الديانات البابلية والمجوسية ويسمعون منهم أوصاف أهريمان اله الظلام وجنوده فينقلونها الى الشيطان ويضعون هذا الشيطان شيئا فشيئا فى موضع العدو المناجز لله والانسان ، ومما اقتبسوه من أولئك الكهان ـ من الفصل الثالث فى كتاب البنداهش « Bundahesh » ـ أن أهرمان تشكل بشكل الحية وملأ آفاق الفلك الاعلى والارضين حتى لم يبق فيها منفذ لابرة ، ونفث سمومه فامتلأت بها الآفاق وسرت فى كل شىء بين الارض والسماء ولم ينهزم حتى هبط اله الخير « أورمزد » الى الارض فرده الى قراره

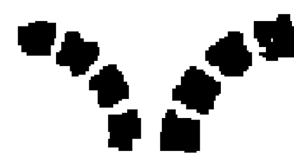
ولوحظ فى المقارنات بين العقائد أن اختصاص الشيطان بخلائقه التى تنافر الاخلاق العليا انما كان يزداد ويتمكن كلما استعار العبريون شعائرهم ومأثوراتهم من أبناء الحضارات الكبرى ، وان أنبياءهم الذين أكدوا لهم عقيدة التوحيد والتنزيه لم يجدوا منهم سميعا قبل القرون الثلاثة الاخيرة التى سبقت ظهور المسيحية ، ولم يكن تمييز الشيطان بخلائقه المنافرة

---

(١) تراجع فى كل هذه العقائد مجلدات الاساطير اليهودية جمع جنجبرج « The Legends of the Jews », by Gingburg

للخير « عقيدة رسمية » يقرها الرؤساء المسئولون ، ولكنه كان من قبيل التراث المحفوظ الذى تعرف مصادره حيناويتقل من رواته فى البيئة التى يشيع فيها بغير مصدر معلوم

فلما تلاقت العبرية والمسيحية فى الزمن كانت صورة الشيطان على ما انتهت اليه يومئذ ميراثا مشاعا لا يستند فيه اليهود الى نسختهم من التوراة ، ولا الى أسانيدهم «الرسمية» ولكنها كانت صورة لا يختصون بها ولا يمتنع أحد على غير ملتهم أن يقبلها ، لانهم نقلوها كما نقلها سواهم من مصادرها المعلومة أو مصادرها المجهولة ، ولم ترجع بها كتب التلمود والمشنا الى نبى من أنبيائهم المعدودين



الاديان الكتابية

(ب) المسيحية

ذكر الشيطان بأسماء متعددة فيما روته الاناجيل من أقوال السيد المسيح او اقوال المتحدثين اليه على اختلاف المعتقد والنية

فذكر باسم الشيطان واسم « روح الضعف » واسم الشرير واسم رئيس هذا العالم ، واسم بعلزبول ، وقيل عن بعلزبول بلسان الفريسيين انه رئيس الشياطين

وتذكر الاناجيل أخبار المجانين الذين شفاهم السيد المسيح فتقول عنهم تارة أنهم صرعى الشيطان ، وترد كلمة الشيطان فى الترجمة اليونانية مقابلة للكلمة اليونانية التى تطلق على ابليس « Diabolos » أو مقابلة للكلمة التى التى تطلق على العفريت والروح المتسلط « Demon » سواء كان شريرا أو غير شرير .

وفى أحد هذه الاخبار ذكرت امرأة مصابة فقيل عنها أنها « كان بها روح ضعف ثمانى عشرة سنة ، وكانت منحنية ولم تقدر أن تنتصب البتة » فلما رآها يسوع دعاها وقال لها : « يا امرأة ! انك محلولة من ضعفك .. » الاصحاح الثالث عشر من انجيل لوقا

وبصدد المخبولين والمصروعين وشفائهم على يد السيد

المسيح قال الفريسيون أنه يحالف رئيس الشياطين ويأمرهم باسمه وسلطانه فيطيعونه ويخرجون من أجسام صرعاهم ، وقد جاءت هـذه القصة بصيغ مختلفة فى الاناجيل ورواها انجيل متى فقال : « انه أحضر اليه مجنون أعمى وأخرس فشفاه وتكلم الاعمى والاخرس وأبصر . فبهت كل الجموع وقالوا : ألعل هذا هو ابن داود ؟ أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا: هذا لا يخرج الشياطين الا ببعلزبول رئيس الشياطين ، فعلم يسوع أفكارهم وقال لهم : « كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت . فان كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته فكيف يثبت ملكه ؟ وان كنت أنا ببعلزبول أخرج الشياطين ، فأبناؤكم بمن يخرجون؟ لذلك هم يكونون قضاتكم . ولكن ان كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله »

وموضع الالتفات فى كلام السيد المسيح هنا هذه المقابلة بين مملكة بعلزبول وملكوت الله ، وأن السلطان الذى لا يكون بقوة الشيطان انما يكون بروح الله

وأصرح من ذلك الاشارة الى سلطان ابليس على العالم قصة التجارب التى امتحن بها السيد المسيح فى البرية ، وكان ابليس هو الذى يجربه ويحاول اغواءه بما يملكه من العروض والمغريات ، ويستوفى انجيل لوقا هذه القصة اذ يقول : « أن يسوع رجع من الاردن ممتلئا من الروح القدس، وكان يقاد بالروح فى البرية أربعين يومًا يجربه ابليس ، ولم يأكل شيئًا فى تلك الايام فلما تمت جاع اخيرا ، وقال له ابليس : ان كنت ابن الله فقل لهذا الحجر ان يصير خبزا ، فأجابه يسوع قائلا : مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، بل بكل كلمة من الله ،

ثم اصعده ابليس الى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة فى لحظة من الزمان ، وقال له ابليس : لك أعطى هذا السلطان كله ومجدهن لانه الى قد دفع وانا أعطيه لمن أريد . فان سجدت أمامى يكون لك الجميع ، فأجابه يسوع وقال : اذهب ياشيطان ! انه مكتوب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد ، ثم جاء به الى اورشليم واقامه على جناح الهيكل وقال له : ان كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا الى أسفل لانه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك وانهم على أياديهم يحملونك لكى لا تصدم بحجر رجلك ، فأجاب يسوع وقال له : انه قيل لا تجرب الرب الهك . ولما أكمل ابليس كل تجربة فارقة الى حين » (١)

وهذه القصة أوفى ما جاء فى الاناجيل عن سلطان ابليس على ممالك العالم وأنها دفعت اليه ليعطى منها ما يشاء لمن يشاء ، فهو قريب من صورة أهريمان اله الظلام فى ديانة الفرس القديمة ، ولكنه لا يملك الا ما يدفع اليه بمشيئة الاله القادر على كل شىء ، وتلك أول تفرقة فى الديانات الكتابية بين اله الظلام وأمير الظلام كما سمى ابليس بعد عهد السيد المسيح

وآخرة ابليس كما جاء فى كلام السيد المسيح تناسب موضعه هذا من العالم ومن العزة الالهية ، ولا تصعد الى المنزلة التى أنزل بها الفرس الاقدمون اله الظلام فى ديانتهم الثنوية ، وفى الأصحاح الخامس والعشرين من انجيل متى شرح هذه الآخرة كما ينتهى اليها الملائكة والقديسون وينتهى اليها الشياطين والاشرار : « ومتى جاء ابن الانسان فى مجده وجميع الملائكة

---

(١) الاصحاح الرابع من انجيل لوقا

والقديسين معه فحينئذ يجلس على كرسى مجده، ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعى الخراف من الجداء، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار. ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركى أبى، رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم ... ثم يقول أيضا للذين عن اليسار: اذهبوا عنى يا ملاعين الى النار الابدية المعدة لابليس وملائكته »

ويقول السيد المسيح فيما رواه انجيل لوقا ان الشيطان يغربل تلاميذه. وقال الرب: « سمعان! سمعان! هو ذا الشيطان طلبكم لكى يغربلكم كالحنطة .. » الاصحاح الثانى والعشرون

ويذكر انجيل لوقا قبل ذلك ان الشيطان يداخل من يوسوس لهم وأنه « دخل فى يهوذا الذى يدعى الاسخريوطى ... فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقواد الجند » ليسلم المسيح اليهم

وينفرد انجيل يوحنا بكلام منسوب الى السيد المسيح يصف فيه ابليس بأنه رئيس هذا العالم، وتكرر ذلك فى غير موضع فجاء فى الاصحاح الثانى عشر ان السيد المسيح قال لتلاميذه ليلة وداعهم: « الآن دينونة هذا العالم. الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجا، وأنا ان ارتفعت عن الارض أجذب الى الجميع »

وفى الاصحاح الرابع عشر يقول: « .. ان أبى أعظم منى، وقلت لكم الآن قبل أن يكون ... لا أتكلم معكم كثيرا لان رئيس هذا العالم يأتى وليس له فى شىء »

وفى الاصحاح السادس عشر: « اما الآن فأنا ماض الى الذى ارسلنى وليس أحد منكم يسألنى أين تمضى. لكن لانى

قلت هذا قد ملأ الحزن قلوبكم . لكنى أقول لكم الحق انه خير لكم ان انطلق ، لانه ان لم أنطلق لا ياتيكم المعزى ، ولكن ان ذهبت أرسله اليكم ، ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة . اما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بى ، واما على بر فلأنى ذاهب الى أبى ولا ترونني أيضا ، واما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين »

وفى انجيل لوقا وردت الكلمة التى شبهت لقراء الاناجيل اسم الشيطان باسم « لوسيفر » حامل النور كما كان يدعى بعد عصر الاناجيل بعدة قرون، ففى الاصحاح العاشر من انجيل لوقا يقول السيد المسيح للتلاميذ السبعين الذين أرسلهم للبشارة من قبله: « انى رأيت الشيطان ساقطا كالبرق من السماء »

أما غاية ماوصف به ابليس من السطوة فهو قول بولس الرسول عنه فى رسالة كورنثوس الثانية : « ان كان انجيلنا مكتوما فانما هو مكتوم فى الهالكين الذين فيهم اله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين »

وانما كان بولس يذكر سطوة الشيطان وهو يرى أمامه معابد « مترا » فى كل مكان يرحل اليه ، ويسمع أتباع مترا يذكرون اله الظلام واله هذه الدنيا السفلى التى تخضع لسلطانه وتنتظر نور الخلاص بعد رجعة «مترا» بالظفر والغلبة فى الدهر الموعود ، وقد أخذ العبريون تقسيم الدهر الى دهرين من أقوال أهل بابل وفارس ، ولم يكن من شأن المسيحيين الاوائل أن يهونوا من شرور اله الظلام فى هذه الدنيا ، بل كانوا يسبقون أتباع « مترا » الى تعظيم الفارق بين النور الالهى والظلمة الشيطانية، وتسمية بولس للشيطان باله هذا الدهر انما هو من قبيل تحقير الدهر الذى يعبدونه فيه ، وتلك عادة من عادات العبريين

الاقدمين فى الزراية بأدعياء الربوبية عند الامم الاخرى ، فكان من أساليبهم فى انكار ربوبية بعل أن يسموه ـ على رأى الكثيرين من الشراح ـ رب الذباب ورب الزبالة ، ومن ثم اسم بعلزبوب وبعلزبول .

وتمتزج بأقوال بولس على الدوام تعبيرات مجازية تدل على المامه بالاساليب اليونانية فى التعبيرات وسماعه بالآراء التى كانت تنقل عن حكماء اليونان ويسوقونها مرة فى معرض الطبيعيات ومرة فى معرض الدينيات ، ومن ذاك قوله عن ابليس فى رسالة افسس : « انه رئيس سلطان الهواء الروح الذى يعمل الآن فى أبناء المعصية » ومنه قوله فى تلك الرسالة : « البسوا سلاح الله الكامل لكى تقدروا أن تثبتوا ضد مكان ابليس ، فان مصارعتنا ليست مع لحم ودم ، بل مع أحفاد الشر الروحية فى السماوات »

ويرى اللاهوتيون المحدثون أن أقوال بولس هنا تحتمل الاشارة الى الطبيعيات اليونانية كما تحتمل الاشارة الى التراث العبرى فى مسائل الروحانية . قال الدكتور هوجو راهنر « Hugo Rahner » فى بحثه عن الروح الارضى والروح الالهى فى علم اللاهوت القديم : « ان عبارة رئيس سلطان الهواء فى كلام بولس الرسول تثير اسئلة شتى فى التاريخ الدينى ينبغى أن نعرض لها ان أردنا أن نفهم آراء آباء الكنيسة الرفيعة فى طبيعة الارض الروحية الشيطانية .. أفلا يقع فى أخلادنا أننا نسمع هنا نغمة مألوفة ؟ أليس تصور الروح الشيطانى سلطانا على الطبقة المظلمة من الهواء صدى واضحا من نظريات أفلاطون وزينقراط وبلوتارك ؟ أن التشابه لظاهر وان البحوث التى عرضت لهذه المسألة لكثيرة منوعة ، ولكن الارجح على ما يبدو

أن بولس الرسول انما اتخذ هــذه الصــورة من الروحانيات اليهودية المتأخرة ، فقد كان من العقائد الشائعة بين اليهود أن الارواح الشريرة لاتهبط الى مادون الهواء المحيط بالارض وانها من هذا المهبط تباشر عمل الشر عليها . وانما ترمز هــــذه الصورة فى ذهن بولس الرسول الى خصومة اصبحت خلقية نفسية ولم تبق كما كانت قبل ذلك كونية طبيعية . فالعــالم عنده فى أساسه انما هو الانسان ، وهذا الانسان الذى يوصف بأنه ارضى وأنه موثق الى الارض وأنه خاطىء ، خليق أن يخضع لسلطان أرواح الشر عليه ، ولكنه قادر كذلك على أن يرتفـع بنفسه من الظلام الى النور ومن الشيطان الى الله »



ومعلوم أن كتاب « العهد الجديد » هو مرجع المسيحيةالاكبر الذى تتفق الكنائس على اعتماده فى العقائد الجوهرية ، ولـكن العهد الجديد ينقسم الى ثلاثة أقسام « أولها » الاناجيل و «ثانيها» أقوال الرسل«وثالثها» أقوال الصحابةوالرواةالمتصلين بالرسل ، وترتيبها كما جاء فى شروح بعض اللاهوتيينالمحدثين أن الاناجيل وحى غير مصحوب بتفسير ، وأن أقوال الرسل وحى وتفسير ، وأن أقوال صحابتهم تفسير بغير وحى ، وقد جاءت فى اقوال الرسل ومابعدها تفسيرات فى المنزلة الاولى من مأثورات العقيدة المسيحية يتقدمها جميعا ماجاء عن خطيئــة آدم وعن تكفير الخطيئة وعن الحية والشيطان ولم تســبق الاشارة اليه فى الاناجيل

ففى هذه المراجع اول اشارة الى تسمية الحيـة بالشيطان كما جاء فى الاصحاح الثانى عشر من اعمال الرسل حيث يذكر التنين ويقال عنه « أنه التنين العظيم ، الحية القديمة ، المدعو

ابليس والشيطان الذى يضل العالم »

وفى رسالة يوحنا الرسول الاولى : « من يفعل الخطيئة فهو من ابليس ، لان ابليس من البدء يخطىء ، ولاجل هذا ظهر ابن الله لكى ينقض أعمال ابليس »

وفى هذه الرسالة أيضا أن الانسان من الله أصلا ولكن «العالم كله قد وضع فى الشرير »

وتتكلم الكتب « البوكريفية » عن دخول الموت الى العالم بدخول الخطيئة فيه ، ومعظم هذه الكتب لايرتقى الى طبقة الاقوال المأثورة عن الرسل مباشرة ولكنه يعتمد للترجيح والتفسير ، وسمى بالكتب « البوكريفية » بمعنى « السرية » أو الخاصة فى اليونانية لانه كان من المراجع التى يضن بالاطلاع عليها على غير الواصلين فى الايمان والمعرفة

وعندنا أن الفرق فى أوصاف الشيطان بين الاناجيل وما تلاها انما هو الفرق بين الاوصاف السماعية والاوصاف القياسية أو العقلية فان الشيطان لم يتقرر له « شأن » او دور معلوم فى الاديان الكتابية قبل القرن الاول للميلاد ، وانما كان فى الكتب العبرية أو اليهودية واحدا من الملائكة المغضوب عليهم أو واحدا من الارواح المتمردة فلا يعرف الا بما سمع من أوصافه ولا شأن له فى ذلك الا كشأن الابطال التاريخيين أو « الشخصيات التاريخية » التى تعرف بالمسموع عنها بين المسموعات المختلفة ولا يمكن أن تعرف بأوصاف عامة يقتضيها العقل والقياس

أما الشيطان الذى تقرر له « دور » معلوم أمام الله فلايتوقف العلم بأوصافه على السماع بل يجوز للمفكر ان ينسب اليه كل مايقتضيه ذلك الدور من الألوان والملامح والخصائص

والتبعات ، ويجوز له كذلك أن ينسب له ماسوف يأتى به بعد ازمنة طويلة فى نهاية العالم ومصيره المقدور

وقد تقرر دور الشيطان وتقرر سلطانه على الشر وعلى العالم الارضى فى مقابلة العالم الالهى فى السماء ، فكل صنيع يوصف بالشر فهو من عمله بغير حاجة الى رواية السماع ،وكل خطيئة أو غواية أو ضلالة أو عاقبة محذورة فانما تنسب اليه كما تنسب الخصائص الى معدنها بحكم البداهة التى لا تحتاج الى عيان أو الى اسناد ، وعلى هذا القياس قال بولس الرسول فى رسالته الاولى الى أهل كورنثوس أن رؤساء هذا الدهر ـ أى الشياطين كما جاء فى تعبيراته السابقة ـ هم الذين صلبوا السيد المسيح ، ورماهم بالجهل وقلة الدراية بعقبى ما يصنعون لانهم ظنوا أنهم يخدمون مقاصدهم بتقديم المسيح الى الصليب وما كانوا يخدمون غير مقاصد الله منذ الازل بما دبروه ورتبوه، فقال عن حكمة الايمان وحكمة الشيطان : « اننا نتكلم بحكمة بين الكاملين ، ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر ولا من عظماء هذا الدهر الذين يبطلون . بل نتكلم بحكمة الله فى سر الحكمة المكتوبة التى سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا ، ولم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر ، لانهم لو عرفوها لما صلبوا رب المجد »

فاذا كان الائمة الاسبقون فى صدر المسيحية يذكرون الشيطان بصفات لم ترد فى الاناجيل ولا فى كتب العهد القديم فانما يذكرونه بالصفات التى تكون له لا محالة بحكم طبيعته المميزة أو بحكم دوره المعلوم ، وهو الدور المقابل للخير والحق وصدق النية فى كل عمل مضى وكل عمل يتكشف عنه الغيب

وينبغى أن تلاحظ النقلة الواسعة هنا فى تطور الاخلاق

والمقاييس بين أوائل العقائد العبرية وبين العقائد التى شاعت فى القرن الاول للميلاد

فقد كان الضرر والشر بمعنى واحد فى العقائد البدائية ، وكان الروح الضار كالحيوان الضار فى مقاييس الاخلاق أو مقاييس النعمة والبلاء ، وكان من الجائز أن تستقل الحية بالضرر دون ان يلقنها الشيطان غواية آدم . فهى حيوان ضار يؤذى ويخيف وكفى بذلك وصفا للشرير فى العقائد البدائية ، فما زال الضرر والشر يتميزان ويختلفان فى الميزان حتى وجب عقلا أن يكون الشيطان وراء الحية فى غواية آدم وحواء ، وحتى وجد فى عالم الضمير فارق واسع بين الخوف من لدغة الحيـــة الماكـرة ودسيسة الشهوة والعصيان



الا أن المسيحيين الاوائل استرسلوا فى حديث الحية لانهم وجدوا فيها أصلح صورة لتمثيل الشيطان للحس ، وكان تمثيل الشيطان للحس يتتابع فى « رؤى » النساك والمتنبئين مستقلا عن تمثيله للنفس فى بحوث الفقهاء وعلماء اللاهوت . فاذا تكلم اللاهوتى عن الشيطان فانما يستنبط أوصافه بالقياس الى طبيعته وعمله كما تقدم ، ولكن الناسك المتنبىء صاحب الرؤى والمشاهد الغيبية انما ينقل رموزا وجدانية قابلة للمشاهدة فى الحس كما هى قابلة للمشاهدة فى الرؤيا ، وليس فى الاشـيـاء التقليدية ولا فى تشبيهات الخيال أقرب من الحية القديمة واذا بولغ فى تشويهها وتبشيعها وتعظيم ضررها فهى التنين الذى يضيف اليه الخيال من الاشياء والطبائع مالم يتحقق فى الحية المعهودة ، فهو ذو رأسين أو ذو أرجل وأجنحة أو ذو لســان يندلع بالشرر ويقذف باللهب ، وقد ساعد على انتشار هذه

الصورة للشيطان أنها كانت شائعة من اقصى الصين الى أرض بابل وآسيا الصغرى ، وانها كانت شائعة كذلك فى كتب العهد القديم ، وصادفهم خطر التنين الاكبر ، أو خطر الحية الشيطانية فى مقر عبادتها بآسيا الصغرى فكثرت فى رسائل العهد القديم اشارات النساك الى « برجاموم » عاصمة هذه العبادة التى يظهر أنها كانت متوارثة هناك منذ زمن قديم وتجددت دعوتها بعد قيام الدعوة المسيحية على سبيل المقاومة ورد الفعل مع غيرها من الدعوات التى كان أصحابها يتألبون عمدا أو على غير عمد لمقاومة الدين الجديد

ويمكن أن تعتبر رموز الرؤى مقدمة للصور الفنية التى اختارها المصورون والمثالون بعد انتشار المسيحية وقيام هياكلها واشتغال أصحاب الفنون برسومها ومبانيها ، فهناك صور للشيطان على مثال التنين ، وصور اخرى على مثال التنين فى جميع أعضائه غير الرأس فقد كانوا يجعلونه رأس انسان ذى قرنين أو أذنين صاعدتين فى مكان القرنين، وكلما تقدم اللاهوت فى وصف طبيعة الشيطان غابت ملامح الحية والتنين وخلفتها ملامح انسان خبيث الطلعة يعمل الفن عمله فى ايداعه دلائل الشر التى تغنى عن استعارة الشبه الشرير من مشابه الحيوان، ولكنهم ظلوا الى زمن أخير يصورون الشيطان بظلف مشقوق ويحتفظون فى هذا الشبه بصورة « الساتير » اليونانى المتهالك على الشهوات ومعاقرة الخمور

أما الصور اللاهوتية فقد أفاض الآباء الاولون فى شروحها وفروضها واجتهد كل منهم على حسب علمه واطلاعه فى تطبيقها على الطبيعة المفروضة للشيطان ، ويعتبر ترتوليان « Tertullian » المتوفى سنة (٢٣٠ م) وأوريجين المتوفى

سنة (٢٥٤ م) أوفر الفقهاء المتقدمين مشاركة فى وصف الطبيعة الشيطانية واسناد الافعال والنيات التى تلائمها الى الشيطان وأجناده على حسب درجاتهم فى السيادة العالية ، وعند ترتوليان أن الشيطان الاكبر يرصد شيطانا من جنوده لكل انسان من بنى آدم وحواء ، وان أدلة وجود الشياطين عامة متواترة فى عقائد المهتدين والوثنيين المضللين ، وكلهم يسلمون أن الشيطان يتعقب الانسان ويتسلل الى مخادع نفسه على غفلة منه أو بعلمه واختياره ، ولكن المسيحى المؤمن بقدرة السيد المسيح المستقيم على منهجه يملك السلطان النافذ فى هذه الشياطين ويستطيع أن ينقذ منها فرائسها اذا صدقت نيتهم فى طلب الخلاص منها ، وليس المسيحى الذى يعجز عن قهر الشيطان خليقا عنده بوصف الايمان

ولاشك أن « أوريجين » كان فقيه القرون الثلاثة الاولى غير مدافع ، وكان له من العلم بحكمة عصره مالم يكن لاحد من معاصريه ، وكان الى جانب ذلك مؤمنا راسخ الايمان تقياشديد التقوى ، ولم يكن له مطمع فى رئاسة كهنوتية أو غنيمة دنيوية ، فقد جب نفسه ليتقى فتنة الشيطان وهو يعلم البنات والفتيات ، ويعظ النساء فى البيع والبيوت ، وقد علم وهو يفعل ذلك أنه يحرم نفسه مناصب الكهنوت العليا التى تحرم على المجبوبين والمشوهين ، فلم يستعظم هذا الحرمان حماية لسريرته من غواية الشيطان ، وهذا مع اسهابه فى التفرقة بين دواعى الشر التى يوحى بها الشيطان وجنوده، ودواعى الشر التى ركبت فى طبيعة الانسان وهى شهوات الطعام ولذات الجسد وفى مقدمتها اللذة الجنسية ، ولعله فى كل ما كتبه عن تسخير الشيطان لهذه الشهوات لم يثبت قدرته على الغواية

كما اثبتها على ذلك النحو الرهيب

ولم يجد أوريجين مشقة فى اسناد الشر والخطيئة الى سيادة هذا العالم ، فانه عاش فى زمن قد اجتمعت مذاهبه على تحقير المادة واعتبارها جرثومة النقص والكثافة والفساد ، وعم فيه القول بين النساك والزاهدين بأن طلب السيادة هو المحنة التى أسقطت ابليس وجنوده وان « التواضع » هو شعار ملكوت السماء وهو آية المسيح المخلص الذى يزهد فى المواكب ويأتى كما اتى من قبل على حمار ابن أتان . غير أن أوريجين كان يمزج اللاهوت بمعارفه الفلسفية ويقرر طبيعة الشيطان وفقا لما تمليه عليه الفلسفة والدين ، ورأيه فى تكوين الشيطان أنه ذو جسد يلائم مقامه فى الهواء الكثيف المحيط بالارض ويتطلب الغذاء من الدواخين والابخرة والدم الخالص مجردا من اللحوم والعظام ، ولهذا يحاول أن يفسد القرابين الالهية ويختلس أبخرتها ودماءها ليتحول بها عن مقصدها

ويفرق أوريجين بين الملك الساقط والشيطان الرجيم ، ويوافق بعض الذين سبقوه فزعموا أن الطبيعتين تلتقيان فى ذرية الملائكة الذين هبطوا الى الارض فعشقوا بنات الناس وقالوا انهن حسنات ولم يقصدوا العصيان بل وقعوا فيه وهم لا يعرفون عقباه

وللشيطان سبيلان الى غواية الانسان فى رأى الفقيه الفيلسوف : احدهما أن يوسوس له من حيث لا يراه لان طبيعة جسده كما تقدم من طبيعة الهواء ، فهو يجرى من سريرة الانسان مجرى النفس الذى لاتراه العينان ، والسبيل الآخر أن يستولى عليه ويتخبطه على هواه ويبتليه بالامراض والعاهات وقد يسلط الاوبئة والطواعين على المدن والاقطار الواسعة

ليذودها عن رحمة الله ، وله جنود فى كل مدينة وكل قطر وبين كل معشر يعبدون الاوثان أو يعبدون ربا من الارباب غير الاله الواحد الذى يدين به أتباع السيد المسيح ، فما كانت هذه الارباب والاوثان الا شياطين من جنود ابليس تنتزع ابناء آدم وحواء من سلطان السماء وتموه عليهم العقيدة الصالحة بما يشبهها من الشعائر المسيحية ، ليختلط عليهم الحق والباطل وطريق الهدى وطريق الضلال

وكان من عقائد أوريجين أن التمييز بين الخير والشر فطرة فى كل موجود عاقل يدرك ويختار ، ولا استثناء فى ذلك للشياطين عامة ولا لرئيسهم الاكبر ابليس ، فهم لم يخلقوا منحرفين مضللين ولكنهم انحرفوا وضلوا بماداخلهم من الكبرياء والتمرد والحسد فغلبتهم الشقوة وعز عليهم ان يستمعوا لنداء الخير والمحبة والسلام ، فأقبلوا على الشر وأمامهم سبيل الصلاح يمضون فيه لو سلست له قيادتهم ورفعوا عن أعينهم تلك الغشاوة التى وضعوها عليها بأيديهم ، ولابد لهذا الضلال من نهاية بعد زوال المحنة وانقضاء التجربة التى يبتلى بها العالم آخر الزمان

ولما أراد أوريجين أن يقدر للشيطان مصيره فى نهاية العالم لم يتبع أقوال المتنبئين وأصحاب الرؤى بل اتبع النصوص القديمة وفسرها على هدى الحكمة الحديثة فى عصره ، ولم تكن فى عصره حكمة أحب اليه من الحكمة الرواقية التى تلقاها اليونان قديما من الهند وبثوا فيها من عقائد فيلسوفهم فيثاغوراس قبسا يقربها الى العلم وادب السلوك

فقد وجد « أوريجين » فى عصره قصصا دينيا مستفيضا عن وقائع الشيطان مع الملائكة ومصيره بعد الهزيمة الحاسمة فى

آخر الزمان ، وفى هذه القصص ملاحم الحرب بين ميخائيل رئيس الملائكة وابليس رئيس الشياطين ، وأطوار القتال الذى يدور سجالا بين الفريقين ويؤسر فيه بعض الشياطين فيحبسون فى باطن الارض أو يقيدون بالاغلال حتى الموعد الاخير ، وتروى هذه القصص أخبارا عن الشياطين والملائكة المطرودين الذين لا يستطيعون الصعود الى السماء أو الذين يصعدون اليها فيرتدون عنها خوفا من الرجوم الالهية ، فمقامهم بعد ذلك عند السماء الثانية أو فى مغاور الارض يتحصنون بها من هجمات الملائكة الصالحين والقديسين المقربين، ثم تنشب الملحمة الاخيرة قبل القيامة وبعد ظهور المسيح الاول بألف سنة ، فيذهب أهل النار الى النار ويرتفع أهل النعيم الى النعيم

أما « أوريجين » فنهاية العالم عنده هى نهاية الدورة الكونية التى اعتقدها الهنود من قبل ثم اعتقدها الرواقيون بعدهم وفرضوا لها آدابا من آداب السلوك تكفل لمن يسلكها أن ينجو من الكارثة الكونية مطهرا من شوائب الحياة الارضية ،فيخلص الى الوجود الحق فى آفاق عليين

وستنتهى الدورة الكونية وتتطهر الخلائق بالنار الابدية ويبطل الفناء ويموت الموت فلا خطيئة ولا عقاب فى عالم لا موت فيه ، ويتعذر ــ طبعا وعقلا ــ أن يبقى الشيطان على شره بعد زوال معدنه وخلاص العالم من الموت الذى ابتلاهم به من طريق الخطيئة ، ومن الجائز الا يتم الخلاص والتطهير على درجة واحدة بل يأتى تباعا على درجات مترقيات ، ولكنه لايكون متى أتى الا كما ينبغى أن يكون بلا موت ولا خطيئة ولا عقاب

ونكتفى بما لخصناه من شروح أوريجين وفروضه فى التعريف

بالشيطان أو التعريف « بالشيطانيات » على الاصح لانه قد جعل هذا التعريف بابا من أبواب الدراسة اشتهر فى الازمنة الاخيرة باسم « الديمنولوجى » أى علم الشيطانيات ، ولكننا لانتقل منه الى مابعده دون أن نلاحظ على هذه التعريفات ملاحظة جديرة بالتوقف لديها فيما يروى عن القرن الثالث للميلاد على التخصيص . ففى ذلك العهد المريب لم تكن فى العالم عقيدة غير المسيحية توحى الى المؤمن بها مثل هذه الثقة بالامور المغيبة فى أدق الجزئيات ، وذلك هو سر قوتها وارتياح النفوس اليها بين ظلمات الحيرة والريبة التى رانت على المذاهب جميعا وتركتها لمعتقديها أشبه شىء بالسلوى التى يزجى بها الفراغ ولا تمضى مع الجد خطوة الا عادت الى اللعب خطوات ، وقد كان أشبه المذاهب بالجد فى ذلك العصر مذهب العرفيين « Gnostics » الذى كان فى حقيقته عنوانا لكل مذهب يرد على الخاطر فى تلك الآونة ، اذ كانت المعرفة الوانا ، وكانت الوان الوسائل التى تطلب بها لاتقل عن الوانها ، ومنها — فيما نحن بصدده من حديث الشيطان — معرفة الخبرة باللذات والرذائل المحرمة لان الجهل بها يسلب طلاب المعرفة حظا يتاح للجاهل ولا ينبغى لهم أن يتجنبوه ، وقد أباحت طائفة من هؤلاء العرفيين عبادة الشيطان مع أصحاب النحل التى كانت تعبده وتتقرب اليه باستباحة الرذائل والارجاس ، وتسميها المعرفة بالنور من طريق المعرفة بالظلام ، ولم تنقض فترة طويلة على هذه النحل المتفرقة حتى تجمعت منها نحلة كبيرة أوشكت أن تعم القارة الاوربية من أقصاها شرقا الى أقصاها غربا فى القرون الوسطى ، وبقيت منها — كما تقدم — بقية الى أوائل القرن العشرين

ولا يتوقف تاريخ اللاهوت بعد أوريجين على أسماء أكبر من

أسماء القديس أوغسطين، والقديس توما الاكوينى ، ومارتن لوثر رافع علم الثورة الذى سمى هو نفسه شيطانا ، وسمى الحبر الاعظم فى زمانه بالشيطان



عاش القديس أوغسطين بين أواسط القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد (٣٥٤ ــ ٤٣٠) وأحاط بما تقدمه من الشروح والفروض فى موضوع الشيطانيات ، وذهب فى علة سقوط الشيطان مذهبا كمذهب أوريجين فقال انه خلق للخير ولكنه أشقى نفسه بحسده وكبريائه فأنزله الله من سماء الاثير الصافى الى هواء الارض الكثيف ، ولايمتنع عند أوغسطين أن يكون هذا الجسد ملائما للتناسل من الاجساد البشرية لان الحديث عن علاقة الشياطين بالنساء الآدميات متفق عليه بين الوثنيين عباد الشياطين وبين المؤمنين الذين يلعنونها ويؤمنون بوجودها ، واطلع أوغسطين على أطراف من الفلسفة اليونانية كما اطلع عليها أوريجين ، فلم يستبعد أن يكون جسد الشيطان أرفع من جسد الانسان كما زعم الفيلسوف الافلاطونى ابوليوس « Apuleius » الذى كان له بعض الحظوة بين المثقفين من رجال الدين ، ولكنه أبى أن يقول أن امتياز الشيطان بالجسد يرفعه رتبة على الانسان ، فان الحيوان ليمتاز على الانسان بالحس كما يمتاز النسر بالنظر ، والكلب بالشم والطير بالخفة ، ولا يقال انها ارفع منه رتبة لرجحانها عليه فى هذه الحواس ، وقد يخف جسم الشيطان عن الجسم البشرى ولكنه يصلى بجسمه نار العذاب كما جاء فى وعيد السيد المسيح

وأوغسطين هو صاحب الكتاب المشهور عن «مدينة الله» أوعن ملكوت الله ، وتقابله مملكة العالم التى قد يسيطر عليها الشيطان

عنوة أو بالكيد والخديعة ، وفى وسعه أن يتسلل الى الارواح من مسكنه فى طبقات الهواء أو يترصد لها وهى صاعدة الى الملأ الاعلى ، فانها فى معراجها لاتنى تعبر بالشياطين الملعونين والملائكة الابرار ، فاذا كانت فى حياتها قد غلبت سيادة الشر بقمع الشهوات والزهد فى المطامع فلا سلطان للشيطان عليها فى معراجها الى عليين ، واذا خرجت من الدنيا وفيها شائبة من غواية الشيطان عالقة بها فتلك هى العلاقة التى يقنصها منها الشيطان ، ويعوقها بها من الصعود ، ويهبط بها الى هوائه أو هاويته حيث يشاء

ويرى أوغسطين كمن تقدموه وأتوا بعده أن الشيطان عليم بالسحر قادر على نشر الاوبئة والمداواة منها ، وان الاوثان المعبودة شياطين لها هذا العلم وهذه القدرة وفى وسعها أن ترضى عبادها بقضاء المطامع وترهبهم بالخوف والمرض ، ولكنها قدرة محدودة تقصر عن عزيمة الايمان اذا صدقت نية المؤمن عليها ، ولم يترك المؤمنون سدى فى حربهم معها لانهم معانون عليها بكفارة السيد المسيح

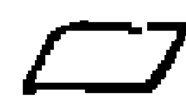
وأعظم الاعلام فى اللاهوت المسيحى بعد أوغسطين فيلسوف القرون الوسطى توما الاكوينى (١٢٢٧ – ١٢٧٤) الذى فلسف العقائد المسيحية على مثال لم يسبق اليه ولم يلحقه أحد بعده ، ومحور فلسفته حرية الارادة التى يملكها كل مخلوق عاقل ، وأولهم الشيطان لانه كان فى المنزلة العليا بين المخلوقات العلوية وكان امتحانه من ثم أعسر من امتحان سواه ، وكانت قدرته كذلك على الثبات والنجاة اعظم من قدرة الآخرين ، فأذهلته العظمة عن كل شىء غير نفسه وطمح الى مساواة الله فى عظمته ومشاركته فى وحدانيته ، وتبعه من تبعه ممن هم على غراره

فهوى من عليائه وهوى معه تابعوه

ويسمى الفيلسوف هؤلاء الشياطين جميعا بالكائنات العقلية أو الكائنات الذهنية ، تمييزا لها عن الكائنات الحيوانية المولدة من التراب ويقول أنها مسلطة على عقول البشر لاستدراجها واستخراج غاية ماانطوت عليه من الصدق والمناعة ، وقد يحدث ذلك باذن الله وقضائه ، وقد تكون ذرائعه الكبرى مستقرة فى غرائز الانسان ويكون الانسان فيها عدوا لنفسه اذا غلب عليه هواه قبل أن يغلبه وسواس الشيطان

ويجارى الفيلسوف من تقدموه فى الاعتراف للشيطان بالقدرة على العجائب والافانين التى تشبه المعجزات ، ولكنه يحد هذه القدرة حد العالم الفيلسوف الذى يرفض عقله التسليم بالعبث فى نظام الطبيعة ، فلا خوارق على التحقيق فى طاقة الشيطان ، ولا تعقل الخوارق الا من عمل الاله الذى وضع للعالم نظامه وأجراه عليه ، وانما يستطيع الشيطان اثارة المادة بعناصرها فيدمر بها من تراد له الفتنة ولايتعدى هذه العوارض الى تبديل جوهر المادة أو تبديل جوهر الروح ، وكل مايصنعه الشيطان مما يلتبس على الناس بالمعجزات فانما هو خداع لحس الانسان حتى يرى الاشياء على غير صورها ، أو تبديل لاشكال تلك الاشياء لاينفذ الى الصميم

ولعل القديس توما الاكوينى قد قال كلمة اللاهوت الاخيرة فى هذا الموضوع ، فلم يحدث بعده رأى غير هذا الرأى فى تصوير الشيطان أو تصوير قدرته على بنى الانسان



ويأتى أكبر الاعلام بعده فى اللاهوت المسيحى على اتجاه غير هذا الاتجاه ، ولكنه لايغير شيئا من وصف الشيطان كما يغير

الشيء الكثير من وصف الذين استهواهم الشيطان فى رأيه بين رجال الدين ورجال الدنيا

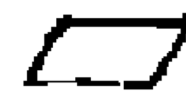
جاء مارتن لوثر فى أواخر القرن الخامس عشر وعاش الى مابعد منتصف القرن السادس عشر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) ولم يتغير بين عصر الاكويني وعصره معتقد واحد من المعتقدات التى كانت شائعة عن الطبيعة الشيطانية

فكان لوثر يؤمن بوجود السحرة ومبايعتهم سرا أو علانية لارواح الشر وزمرة الشيطان ، وكان يؤمن بقدرتهم على تسخير الاوبئة والآفات واستحقاق السحرة قضاء الموت الابدى اذا ثبتت عليهم ممالأة الشياطين على المؤمنين الابرياء ، وتمتلىء احاديث المائدة التى نقلت عنه بما كان يرويه لجلسائه من قصص الشياطين السحرة فى زمانه وقبل زمانه ، ومنها أن رجلا من المؤمنين بصق على الشيطان فلاذ بالفرار ، وان رجلا آخر لقيه فكسر له قرنا من قرونه ، وحاول ذلك رجل آخر دونه فى الايمان فبطش به الشيطان ، ونصيحة لوثر للمؤمنين أن الشيطان سخرية فاضحكوا منه ولا تهابوه !

ومما تحدث به فى مجالسه قصة عن الامبراطور فردريك الذى كان يصادق علماء الغرب ويطلع على علومهم ويتهم بالزيغ والكفر لاشتغاله بالمحرمات من العلوم والصناعات ، وخلاصة هذه القصة ان الامبراطور دعا الى مائدته ساحرا مشهورا وأراد أن يناجزه فى القدرة فجعل له فى يديه مخالب كمخالب الرخاخ الاسطورية ذات الاجنحة والقوائم والانياب فخجل الساحر ولم يمد يديه الى الطعام . . . وانهم لعلى المائدة اذا بصيحة من الطريق تزعج الامبراطور فينهض الى النافذة ليطل عليها ، فيغنم الساحر فرصته السانحة ويجعل للامبراطور قرونا على

رأسه كقرون الايائل ، فلا يستطيع أن يرتد برأسه عن النافذة وعليه تلك القرون ...

وعلى جدار من جدران قلعة « وارتبرج » مداد سائح بقيت آثاره ، وعلم الزوار مما يرويه حراس القلعة نقلا عن المعاصرين أنه من مداد الدواة التى ألقاها لوثر على الشيطان حين تراءى له ليصده عن دعوته ويكفه عن هجماته على أحبار زمانه ، ولم يبرح لوثر طوال أيامه الى آخر حياته ينادى بأنه فى حرب مع الشياطين ويحسب القائمين بالسلطان فى الارض باسم الدين نورا على ملكوت السماء



ثم انقضت القرون الوسطى وتقدمت النهضة العلميـــة فاصطدمت فى كل وجهة تتجه اليها بالكلام فى « الشيطانيات » او علم « الديمنولوجى » كما عرف فى الزمن الاخير

كانت النهضة العلمية تصطدم بهذا البحث خاصة لانه كان يدور على السحر والسحرة ومخالفة « المعرفة الدنيوية » للشياطين أعداء الله وأعداء الدين ، وكانت مجالس التفتيش تعمل عملها فى مطاردة السحرة أو المتهمين بالسحر لانهم ينظرون فى الكتب التى لا يقرها اللاهوتيون

وانقسم الباحثون فى « الديمنولوجى » قسمين متنازعين : قسم اللاهوتيين وهمهم الاكبر أن يوفقوا بين النصوص الكتابية ومعارف الزمن الحديث ، وقسم العلماء التجريبيين وهمهم الاكبر أن يدفعوا عن أنفسهم تهمة التحالف مع الشيـــطان ، ويشككوا فى وجود الشيطان أو يجزموا بانكاره لانه لا يظهـر لهم عيانا ولا يظهر لهم بالتجربة والبرهان

غير أن اللغة التى تداولها الناس من قبل القرون الوسطى

قد تلقت من « الديمنولوجى » تعبيرات مفهومة غير ملتبسة على احد يتكلم بها أو يسمعها ، وجرت هذه التعبيرات على السنة المتدينين كما جرت على ألسنة المنكرين أو المتشككين فى العقائد الدينية . فلما كان لوثر يقول ــ مثلا ــ عن الربا وبيوت التجارة والمصارفة فى القرون الوسطى أنها « مخترعات » شيطانية وان الشيطان هو الذى يدير تلك البيوت لحسابه ، لم يكن احد يحمل كلامه على المجاز أو يشك فى قصده الى شيطان غير شيطان النصوص الدينية الذى يجوز أن يبدو للعيان أو يعمل مع أصحاب تلك البيوت فى الخفاء ، ولكن المتدينين وغير المتدينين شهدوا بعد ذلك قيام الصناعة الكبرى وأجهزة البخار الضخمة فوسموها « بالشيطانية » ونعتوها بالصناعة السوداء أو بصناعة الظلام وهم يأخذون من هذه الكلمات معناها الذى لا يختلفون فيه ويفهمون منها أن تلك الصناعة خاو من الرحمة والعطف ، مظلمة من ظلام الفحم والدخان أو ظلام الفشم والقسوة ، سواء نسبوها الى الشيطان او جعلوا الشيطان علما مفهوما على كل هذه المساوىء والنعوت

ويغلب على الظن أن سهولة التعبير المجازى على هذا النحو سهلت لاناس فى القرن التاسع عشر أن يقحموا فوارق اللون والعنصر فى أحاديث « الديمنولوجى » وان يزعموا كما زعم الدكتور كارترايت أن الشيطان لم يتكلم فى الجنة بلسان الحية بل كان كلامه بلسان زنجى أسود على مثال الشيطان الذى كان يصبغ بالسواد فى صور القرون الوسطى ، وكأنما اراد كارترايت أن يترقى بالفكرة درجة فوق الدرجة التى وصل اليها الاسقف آدم كلارك فى تعليقاته على سفر التكوين « سنة

١٨٢٥ » فجعل الحية زنجيا بعد ان كانت فى راى كلارك قردا من فصيلة الاورانج أو تانج .. وفى هذه الاونة ــ أو حواليها ــ كان الرحالون يسيحون فى امريكا الجنوبية فيسمعون مــن أهلها البيض أن الزنجى هو البهيمة الكبرى التى ذكرت فى كتاب الرؤيا الابكريفية (١) ويتشكك الكثيرون منهم فى نسبته الى حام لانهم لاينسبونه الى فصائل الآدميين !



يعود نقاد الاجتماع المحدثون الى عقيدة الخطيئة وزلة آدم فى الفردوس وهبوطه مغضوبا عليه الى الارض فيحــــاولون تفسيرها بأحوال الطبقات واختلاف هذه الاحوال بين عصر النبلاء وعصر أبناء الطبقة الوسطى ، ومن هؤلاء النقاد جــون فلكسنر « Flexner » الامريكى الذى يقول فى فصــل كتبه عن الملك الفنان : « ان عقيدة القرون الوسطى أن الانسان سيىء بطبيعتــه من اثر الخطيئة المتأصــلة فيه قد وافقت الميول الارستقراطية لانها سوغت كبح الفرد والحد من حريته . بيد أن الطبقة الوسطى الناهضـــة باجتهادها لتستقبل الفرص السانحة لها أصرت على براءة الانســـان وانه قد ولد ملكا وافسدته النظم التى فرضها عليه الملوك »

وليس فى المقارنة بين العقائد والاحوال الاجتماعية مايرجح هذا التفسير أقل ترجيح ، لان عقيدة سقوط آدم تشمــــل الانسان الحاكم وتشمل الانسان المحكوم ، وقد اقترنت بهــــا عقيدة ملازمة لها أشد قسوة على الحاكمين من كل عقيـــدة

---

(١) كتاب « الكبرياء العنصرى » تاليف ديجوال
« Racial Pride », by Dingwal

شاعت فى العصور الحديثة، وتلك هى عقيدة السيادة الشيطانية على الارض وأن سادة هذا العالم شياطين أو حلفاء للشياطين

ولم تقرر المسيحية دعوة كما قررت هذه الدعوة التى تفرق بها كل التفرقة بين مملكة العالم وملكوت السماء أو ملكوت الله، تكاد المسيحية كلها أن تكون مجموعة فى هذه الدعوة قبل غيرها من دعواتها الاصيلة ، فقد كان حتما لزاما أن تجتهد المسيحية اجتهادها كله فى التفرقة الكاملة بين مملكة الارض وملكوت الله الذى بشر به السيد المسيح ، كان ذلك حتما لزاما لانها نقلت رسالة المسيح المخلص من اقامة العروش على الارض — أو تجديد ملك داود الى اقامة الملكوت الالهى فى السماء ، وكان ذلك حتما لزاما لانها جاءت بالعزاء للمحرومين من سيادة الارض والمبتلين بطغيان سادتها ، فهم فى حمى الله صاحب الملكوت الاعلى اذ يكون أصحاب السيادة والطغيان فى حمى الشيطان وفى هاوية الارض وما وراء من هاوية الجحيم :

« طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السماوات ، طوبى للحزانى لانهم يتعزون ، طوبى للودعاء لانهم يرثون الارض، طوبى للجياع والعطاش الى البر لانهم يشبعون ، طوبى للرحماء لانهم يرحمون ، طوبى لانقياء القلب لانهم يعاينون الله ، طوبى لصانعى السلام لانهم ابناء الله يدعون ، طوبى للمطرودين من أجل البر لان لهم ملكوت السماوات »

فرسالة المسيحية فى جانب الانسان المغلوب ، وسيادة العالم هى ثمرة الخطيئة التى باء بها الغالبون ، ولم يتسم الشيطان بوسم السيادة على العالم تعظيما له بل تهوينا من شأن العالم وتحقيرا لغنائمه ومطامعه وشهواته، ولم يكن أيسر على طالب الحرية الفردية فى الحضارة الحديثة من أن يقول انه هدم سيادة

الشيطان وانه غلب الخطيئة فى معقلها وكفر عن جرائرهابالثورة على أصحاب السيادة الشيطانية

وعلى هذا الفهم ينبغى أن تفهم رسالة المسيحية التىبشرت بملكوت الله وجعلت هذه البشارة مقارنة للنعى على السيادة الشيطانية والازراء بها ، فكل تعظيم لسيادة الشيطان فهو فى لبابه تهوين للعالم الذى يسوده وتقديس للملكوت الالهى الذى يرجوه المساكين والحزانى والودعاء والمطرودون من أجل البر وصانعو السلام

اما رسالة المسيحية فى تقرير طبيعة الشيطان نفسه فهى تفرقة أخرى لا تقل فى قوة مغزاها عن تلك التفرقة بين مملكة هذا العالم ومملكة السماء

لقد كان الضرر والشر مترادفين فى الديانة العبـــــرية أو كالمترادفين ، فالمسيحية هى التى فرقت بين الضرر الذى هو نقيض السلامة والامان والمنفعة ، وبين الشر الذى هـو نقيض الخير والفضيلة والصلاح ، فذلك ضرر مرتبط بالديانة، وهذا شر مرتبط بالمروءة والتقوى

ان المسيحية هى التى فرقت بين مثال الضرر فى الحيـــة الحيوانية ومثال الشر فى الروح الخبيث الذى ينفث سمـومه فى القلب ولا يضير الانسان الا حيث يضـــار حقا فى أشرف خصال الانسان



وكلمة عابرة تقال فى ذيل هذا الفصل عن رسالة المسيحية التى جاءت بها للتعريف بمعانى الشيطان

ان الكنيسة الرومانية اذا رفعت أحدا الى منزلة القديسين لم تفعل ذلك قبل التحقق من براءته من العيوب التى تنتفى

معها القداسة ، وتعهد فى هذه الحالة الى وكيل للخصومة عليم بكل ما يقال عنه لانتقاصه بالحق أو بالباطل

ووكيل الخصومة هذا يسمى بالمحامى الشيطانى « Advocatus Diaboli » تشبيها لعمله بعمل الشيطان فى انكار فضائل ايوب أمام الله ، وآية جديدة على عمل الشيطان فى امتحان الخير ، وانه دور لازم فى تقرير كل قداسة ؛ يخلقه الناس مختارين ولا يصح من أجل هذا أن يقال انه وهم من اختراع الخيال



الاديان الكتابية

(ج) الاسلام

دور الشيطان فى الديانات الكتابية الثلاث مختلف

واختلافه بينها جوهرى يدخل فى كيان كل ديانة منها ، وترتبط به مقاييسها للخير والشر والتبعة والعقاب

فهو فى الديانة العبرية دور عامل مستغنى عنه ، لانه شبيه بغيره

وهو فى الديانة المسيحية دور عامل فعال لا ينفصل من حكمة الوجود كله

وهو فى الديانة الاسلامية دور عامل فضولى مرذول ،يختلس ويروغ ويخذل فريسته بالنية الخفية والعمل المكشوف

على مسرح الخلق دور الشيطان فى الديانة العبرية دور « النكرة » الذى ينوب عنه كل نكرة مثله ، اذ ليس بين الشيطان والملك طريق مفترق ولا عمل منقسم ، وليس بين الاله الذى يعبدونه والاله الذى يعبده سواهم خلاف فىالرضى والغضب ولا فى النعمة والنقمة غير الخلاف بين النظراء فى السلطان

أما المسيحية فدوره فيها على مسرح الخليقة دور الشرير فى قصة الخلق كله ، اذ كان قوام الخليقة سجالا بين الخطيئة والكفارة أو الغفران ، فلولا غواية الشيطان لم يسقط آدم ،

ولولا سقوط آدم لم تكن به ولا بذريته حاجة الى الخلاص من طريق الفداء

وليس فى الاسلام ذنب يرثه أحد من أبيه أو يورثه لبنيه ، فغواية الشيطان لا تخلق الخطيئة ولا تعفى منها ، وشوكة الشيطان لا تحمى أحداً ولا هو يسخرها لحماية أحد ، وحدود التبعات واضحة حيث يعمل الشيطان وحيث لا يعمل ، فهو لا يحمل عن شريك من شركائه تبعة وزر من أوزاره ، ولايدارى حماقة الغافل الذى ينقاد اليه

وفى القرآن الكريم يحمل آدم وحواء تبعة الخطيئة على علمهما بغواية الشيطان :

« قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »

وكلما ذكرت فى القرآن الكريم غواية ابليس ذكر معها أنه ما كان له عليهم من سلطان :

« ان عبادى ليس لك عليهم سلطان »

ولذلك تقول الشياطين لمن يرجع اليها بذنبه :

« وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين »

« ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين »

ولا ينفع من ضل أن يعتذر من ضلالته بوسواس الشيطان ، فان الشيطان ينكره ويبرأ منه :

« كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برىء منك انى أخاف الله رب العالمين »

... « وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن

دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا انفسكم »

وليس شياطين الجن بأقدر على الغواية من شياطين الانس ، فان الشيطنة هى عداوة الحق حيث كانت : « **وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا** »

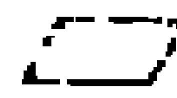
بل ليس للشياطين من الجن علم الغيب ولا علم السحر الا أنه خداع للحس وفتنة للنفس تخيل الى المخدوع ما ليست له حقيقة قائمة فى غير وهمه : « .. **يعلمون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحـد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق** »

وفى سورة سبأ عن جنود الجن التى جهلت موت سليمان وهو قائم أمامهم « **فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين** »

وانما المسحور كالمخمور مخدوع الحواس « **انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون** »

« **يخيل اليه من سحرهم انها تسعى** »

« **ولا يفلح الساحرون** »



وقد ورد فى القرآن ذكر الجن الذين يعملون للانسان باذن الله ومنهم جنود سليمان « **ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون**

له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات »

وفيه ذكر الجن التى تؤمن بالدين وتصدق بالكتب ، وذكر الجن التى تسترق السمع من السماء . وذكر الجن التى تقارن الانس ، وذكرت الجن والعفريت الذى تطوى له المسافة وتنقاد له المصاعب ، ولكنه لم يذكر لها فى مجال التكليف عملا قط يسقط عن الانسان تبعته أو يجعل لها سلطانا عليه بغير مشيئته ، ولا يستعاذ فيه من شر يأتى به الجن الا وهو كذلك من الشرور البشرية،أو من الوسواس الخناس « **الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس** »

وعلى هذه الصفة تروى تبعات الخطيئة حيث رويت فى قصة آدم وما بعدها من قصص الاولين

وقد رويت قصة آدم فى مواضع متفرقة من القرآن الكريم، ورويت توبته من عمله أو قوله فى بعض هذه المواضع ، وهى جميعا مآل التكليف الذى يفرض على الانسان : يسأل عن خطيئته وان وسوس له الشيطان ، وتحسب له توبته وان كانت بهداية الله :

« **واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال انى أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السماوات والارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . واذ قال للملائكة اسجدوا**

لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين • وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشـــجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيـه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين • فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم • قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »



وجاءت فى سورة الحجر حيث يفاضل ابليس بين خلقتـه وخلقة آدم : « والجان خلقناه من قبل من نار السموم ، واذقال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين، قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الســـاجدين ، قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال منحمأ مسنون ، قالفاخرج منها فانك رجيم وان عليـك اللعنـة الى يوم الدين ، قال رب فانظـرنى الى يوم يبعثون ، قال فانك من المنـظرين الى يوم الوقت المعلوم ، قال رب بما أغويتنى لازينن لهم فى الارض ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين ، قال هذا صراط على مستقيم ، ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين »



وقد تساءل المعقبون على قصة آدم من الشراح الغربيين عن

معنى الشجرة التى أكل منها آدم فى الدين الاسلامى ، وقال بعضهم ان القرآن تركنا فى حيرة من أمر هـذه الشجرة ، ما معناها وماذا جناه آدم وحواء من جراء الاقتراب منها وأكل ثمراتها ، وليس فى الامر ما يدعو الى التساؤل ولا الى الحيرة ، لولا أن هؤلاء الشراح وضعوا فى أذهانهم معنىمعلوما وأرادوا أن يجدوه فى القرآن فلم يجدوه كما أرادوه • اذ لايخفى على الناظر فى القصة أن ثمراتهذهالشجرة هى ثمرات«التكليف» بجميع لوازمهونتائجه ، وما كان الفارق بين آدم قبل الاكل منها وبعد الاكل منها الا الفارق بين الحياة فى دعة وبراءة والحياة « المكلفة » التى لا تخلو من المشقة والشقاق والامتحان بالفتنة ومعالجة النقائص والعيوب ، وكلما تكررت القصة فى الآيات القرآنية كان فى تكرارها تثبيت لهذا المعنى على وجه من وجوهه المتعددة ، ويبدو ذلك جليا من المقابلة بين ماتقدم وما جاء عن هذه القصة فى سورة الاعراف ، وذلك حيث يذكر التصوير بعد الخلق ، أو اعطاء الصورة بعد اعطاء الوجود ، ثم تمضى القصة على ما يلى :

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين • قال مامنعك ألا تسجد اذ أمرتك ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين • قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبرفيها فاخرج انك من الصاغرين ، قال انظرنى الى يوم يبعثون ، قال انك من المنظرين ، قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بينأيديهم ومنخلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين • قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين • ويا آدم اسكن

أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين • وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور • فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنـــة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشـــجرة وأقل لـكما ان الشيطان لكما عدو مبين • قالا ربنا ظلمنــا أنفســـنا وان لم تغفر لنــا وترحمنا لنكونن من الخاسرين • قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين • قال فيهــا تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون • يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري ســـوءاتكم وريشــا ، ولباس التقوى ذلك خير • ذلك من آيات الله لعلهــم يذكــرون • يا بني آدم لا يفتننــكم الشيطان كمــا أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباســهما ليريهما سوءاتهما • انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم • انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون »

ومن تمام التوكيد لحدود التكليف في هذه القصة أن خطاب آدم به لا يغني عن خطاب بنيه وأعقابه ، فهو مكلف وهم مكلفون ، وخطيئته لا تلزمهم وتوبته لا تغني عنهم ، ومولدهم منه يخرجهم على سنة الاحياء المولودين حيث يحيون وحيث يكدحون ويموتون .

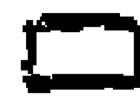
ويميل الشراح الغربيون الى النقد كلما وجدوا له ندحة في قصص القرآن ولا سيما هذه القصة ، وآخر من وقفنا على نقد له من هذا القبيل « بابيني » الايطالي صاحب كتاب الشيطان ، فانه يستغرب أن يؤمر ابليس بالسجود لآدم مع غلو القرآن

فى تحريم الشرك وتنزيه الوحدانية الالهية ، ولكن المطلعين من الشراح الغربيين على اللغـة يفهمون معنى السـجود هنـا ولا يخرجون به عن معنى التحية والاكبار ، ومنهم من يفعل ذلك لأنه يريد أن يرجع بعقائد الاسلام الى الاصول الاسرائيلية كما فعل تورى « Torrey » فى كتابه عن أسس الاسلام من التراث اليهودى ، ولم يكن فى التراث اليهودى ذكر لغير الحية فى هذا المقام ، وهو فارق شاسع تقوم عليه الفوارق الشاسعة جميعا فى التفرقة بين الضرر والشر أو بين الشر الحيـوانى والشر الاخلاقى كما قدمناه



وقليل من النقاد الدينيين فى الغرب من يفطن للخاصـة الاسلامية الاخرى التى تتمثل فى قصة آدم مع الملائكة والجان، فان الغالب عليهم أن يتكلموا عن زلة آدم فيسموها « سقوطا» ويرتبوا عليها ما يترتب على السقوط الملازم لطبيعة التكوين ، وليس فى القرآن أثر قط للسقوط بهذا المعنى فى حق كائن من الكائنات العلوية أو الارضية ، فليس فيه شىء عن سقوط الانسان وانما هو انتقال من حال الى حال ، أو من عهد البراءة والدعة الى عهد التكليف والكلفة ، وليس فيه شىء عن سقوط الملائكة وانحدارهم من طبيعة عليا الى طبيعة دونها من طبائع الشيطان ، وقصة الملكين هاروت وماروت فاصل بين مايعزى الى الملك ويعزى الى الشيطان من ضروب السحر المباح أو السحر الحرام . « **واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحـد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر** .. »

فالملك الذى يعرف السحر لا يخدع به أحـدا ولا يعلم من يريد أن يتعلم الا أن يطلعـه على حقيقتـه ، وليس الخداع ولا الاضرار بالعلم من طبيعة الملك بل من طبيعة الشيطان



هذه القصة بعينها ـ قصة هاروت وماروت ـ يطول فيهـا الجدل بين اللاهوتيين الباحثين عن أصولها ، لأن شراح التلمود من اليهود يعتسفون الاقوال والشواهد لردها الى المصـادر الاسرائيلية ، وكثير من الشراح اليهود أنفسهم وغـير اليهـود ينفون العلاقة بينها وبين تلك المصادر ، فمن الذين ردوها الى المصادر الاسرائيلية من يرى أن الملكين همـا اريوخ وماريوخ الموكلان بحراسة كتاب ادريس ، ويستند صـاحب كتـاب أساطير اليهود الى مراجع كثيرة لتصحيح هـذا الخطأ وترجيح مصدرها الفارسى (١) ... ويزعم جيجر «Geiger» أنهما الملكان شمهازى وعزازيل اللذان هبطا الى الارض فى عهـد نوح فتزوجا من بنات الناس ووجدا أنهن «حسنات» كماجاء فى سفر التكوين ، ويعتمد جورج سـيل مترجم القـرآن على تحقيقات هايد «Hyde» فى تصحيح هـذا الخطأ والرجوع بها الى أصل بابلى كما جاء فى القصة القرآنية ، وكاد الخلاف على هذه القصة أن يعدل الخلاف على قصة آدم وتعليمه الاسماء ومخالفته أمر ربه بغواية الشيطان ، وهى القصة التى يحسبها بعضهم من الاخبار التلمودية ، ويقول ابشتين ، وحرنبوم أن التلمود اقتبسها مباشرة من المراجع الاسـلامية وبطريق غير

---

(١) صفحة ١٦٠ من الجزء الخامس من مجموعة جنزبرج Ginsberg

مباشر من المراجع المسيحية

غير أن هذه المناقشات جميعا يعتورها النقص الشامل لتحقيقات النصوصيين والحرفيين أجمعين ، وهو الوقوف عند النص أو عند الحرف واغفال الجوهر الذى من أجله استحقت القصة أن تكون موضع اهتمام ومناقشة فى مباحث المقارنة بين العقائد والديانات ، فليست المسألة فى هذه القصص مسألة أسماء ومواقع ولكنها مسألة القيم الروحية التى ترتبط بها وتتغير مع الزمن حسب تفسيراتها ولو بقيت بنصها وحرفها في الروايات المتعاقبة

وجوهر المسألة كله فى القصة التي نحن بصددها انالقرآن الكريم لم يذكر قط شيئا عن سقوط الخليقة من رتبة الى رتبة دونها ، ولم يذكر قط شيئا عن سقوط الخطيئة الدائمةأوسقوط الخطيئة التى يدان فيها الانسان بغير عمله ، اذ العقيدتان ـ كلتاهما ـ غريبتان عن روح الدين الاسلامي كل الغرابة ، ولا يعرف الاسلام ارادة معاندة فى الكون لارادة الله يكون من أثرها أن تنازعه الارواح وتشاركه فى المشيئة وتضع فى الكون أصلا من أصول الشر وتسقط الخلائق التى ارتفعت سوية بمشيئة الخالق • فقد جاء الاسلام بهذه الخطوة العظمى في أطوار الاديان فقرر فى مسألة الخير والشر والحساب والثواب أصح العقائد التى يدين بها ضمير الانسان ، وقوام ذلك عقيدتان : أولاهما وحدة الارادة الالهية فى الكون ، والثانية ملازمة التبعة لعمل العامل دون واسطة أخرى بين العامل وبين ضميره وربه

فليست الخطيئة فى الاسلام أصلا كونيا يعاند الارادة الالهية بارادة مثلها أو مقاسمة لها فى أقطار الوجود العليا والسفلى ، ولكنها اختلاس وخلل وتقصير ، وله علاجه منعمل

العامل نفسه بالتوبة والهداية بالتكفير والجزاء ، ولما كانت فضيلة آدم على الملائكة والجن انه تعلم الاسماء التى لم يتعلموها، كانت هدايته الى التوبة كذلك بكلمات من المعرفة الالهية ولم تكن بشيء غير عمله وقوله

فاذا فهمت العقيدة الاسلامية على هذا الوجه فهذه هى القيمة الروحية التى تجرى المقارنة والموازنة عليها كائنا ما كان القول فى تشابه الاسماء والقصص وتوافق المراجع والاسانيد، وما من دين قط خلا من الاسماء والقصص التى سبقته اليها الاديان المتقدمة عليه فى تاريخ دعوتها، وليس أكثر من الاسماء البابلية والفارسية فى كتب العهد القديم وكتب التلمود ، وليس أكثر من هذه جميعا فى مسألة واحدة قبل كل مسألة يتناولها الايمان ، وتلك هى مسألة الخير والشر والتبعة والجزاء ولا خلاف – مع فهم هذه المسألة – على فضل الاسلام فى هذه السبيل



ان الاديان الكتابية لم تتعاقب عبثا ولم تأت المقدمات فيها بغير نتائجها

فالعبريون تلقوا ديانتهم وهم على حالهم من الوثنية فلبثوا زمنا يخلطون بين فواصل الخير والشر وفواصل المنفعة والضرر، ولبثوا زمنا أطول من ذلك يخلطون بين الوحدانية فى الوجود كله وبين الوحدانية التى تميزهم باله لا يقبل المشاركة من الارباب الاخرى ، كأنهم شركاء المنافسة والمناظرة بغير حق وبغير قدرة

ثم جاءت المسيحية ففصلت بين الخير والشر بفاصل كبير ، وحققت معنى الخير الروحانى الذى ينفصل من معنى المنفعة

والسلامة ، وباعدت بين العالمين وتركتهما من بعدها كأنهما دولتان تتقابلان ، هذه فى السماوات وهذه فى الارضين ، وتكاد الارضية منهما تبسط يدها الى حوزة الاخرى وتأخذ منها الى حوزتها معقلا يسترد ويستعاد ، ولا يملك الانسان فيه حيلة أمام الاله وأمام الشيطان ، وانما يجيء الذنب بعمل الشيطان ويزول الذنب بعمل الاله

ثم جاء الاسلام فبسط على الوجود كله وحدة لا مثنوية فيها على وجه من الوجوه ، ومنح الارادة الانسانية حقها وتبعتها وجعلها ظالمة لنفسها اذا سمحت للشيطان أن يظلمها ، فانما هو خداع وضعف ، وانما هما طريقان بينان لا يخدع عنهما سوى المأخوذ أو المسحور ، الا أن يؤثر الضلالة على الهدى ويصر على ضلالته بين دواعى التوبة والندم

فهذه الديانات لم تتعاقب عبثا ولم يكن لها فى أطوارها سبيل أقوم من هذا السبيل ، ولو نظرنا اليها فرضا وتقديرا ولم ننظر الى وقائع التاريخ



وكل ما تقدم انما يتبين لنا من العقائد الاسلامية كما نتلقاها من القرآن الكريم ، وقد أحسن فهمه مفسرون وأساء فهمه مفسرون ، ولعله لا ينصف العقائد الاسلامية شيء كما ينصفها فى هذا المقام أن نرجع الى المسيئين فنراهم جميعا قد أساءوا فهم كتابهم لأنهم فسروه بالاسرائيليات والتلموديات وحسبوها سندا محققا عند أصحابها الاولين ، وما كانت عندهم غير أحاديث يتلقفونها ممن تقدمهم لأنهم لم يفهموا كتبهم فالتمسوا فهمها بمعونة من تلك الاحاديث



وليس من عملنا هنا أن نستقصى أقوال المفسرين فى شئون الغيب ، ولكننا نلخصها اجمالا فيما نحن بصدده من طبيعة الشيطان وطبيعة الخلائق العلوية كالملائكة والارواح . فأضعف الاقوال ان الملائكة والجن ، تشملهم كلمة الاجتنان لمعناها اللغوى الذى يفيد معنى الخفاء ، وأرجحها القول الذى أخذ به الفيلسوف الرازى فى تفسيره حيث يقول : « لما ثبت أن ابليس كان من الجن وجب ألا يكون من الملائكة لقوله تعالى : ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون : قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن » وهذه الآية صريحة فى الفرق بين الجن والملائكة

ولا حاجة بنا الى اسهاب أو ايجاز فى نقل أحاديثهم عن الجن وأسمائها وأجسامها ومن يأكل منها وما يأكله أو لا يأكله ، فهو على لغوه وخطله ليس له مساس بما نعنيه فى هذا السياق

الفصل الرابع

* عباد الشيطان
* حلفاء الشيطان

عباد الشيطان

تخلفت ــ بعد الاديان الكتابية ــ نحلة تتسم بالشذوذ المطبق في جميع اطوارها . لانها شاذة في موضوعها ، وشاذة في انتسابها الى أصولها ، وشاذة في تلفيق مقوماتها وأركانها ، وشاذة في وسائل نشرها والدعوة اليها

موضوعها شاذ وهو عبادة الشيطان

وانتسابها الى أصولها شاذ لانها تأخذ من الهندية والمجوسية والشامانية واليونانية وأديان الحضارة الاولى والاديان الكتابية

وجميع مقوماتها وأركانها شذوذ في شذوذ ، لانها تجمع النقائص في شعائرها وتعمل أحيانا على مرضاة الشيطان ومرضاة الاله الاعلى بفريضة واحدة

ووسائل الدعوة اليها شاذة لانها سرية يبالغون في كتمانها مع امتداد معابدها من آسيا الوسطى الى أوربة الغربية وأفريقية الشمالية ، ويعجب الناظرون في أمرها من الذى يتولى نشرها وما بواعثه النفسية أو القومية التي تحضه على نشرها ، وهي مع الاديان الاخرى بين موافقة تأباها تلك الاديان ومناقضة تثيرها عليها



ومن العسير أن توضع هذه النحلة في نسق منتظم مع تطور العقائد في مجموعة الامم الانسانية ، ولكننا نحاول وضعها في مدرجة من هذه الاطوار جهد المستطاع ، مع ملاحظة الاصول

الجغرافية والعنصرية

فمن الراجح المعقول أن عبادة الشيطان تنتمى قديما الى الشعور بقوة الشر فى البيئة التى نشأت فيها وأحاطت بها

ومن الراجح المعقول أيضا أن الشعور بقوة الشر قد كان على أشده حيث آمن الناس بقسمة العالم بين النور والظلمة وبين الطيبة والخباثة ، وجعلوا لاله الشر حصة فى الكون مساوية لحصة اله الخير أو قريبة منها ، وتلك هى الثنوية «الزردشتية» منذ أقدم أطوارها

وينبغى أن نذكر أن الثنوية كانت تفرض لاله الشر فى بعض الازمنة سلطانا أكبر من سلطان اله الخير فى العوالم الارضية ، وتسوغ هذا الفرض الغريب بأن سلطان الشر سلطان موقوت يندثر بعد حين ، فالنور والخير منفردان بالسماوات العليا ، والظلمة والشر غالبان على الارضين السفلى الى الموعد المعلوم ، ثم يتقهقر هذا السلطان فى العالم الانسانى ليخلفه سلطان الخير أبد الآبدين

قامت هذه العقيدة قديما فى أرض فارس على تخوم السهوب الاسيوية ، حيث لاتعرف العشائر المترحلة غير شياطين الصحارى أو أرواحها المتمردة ، ولا تزال فى كل رحلة من رحلاتها عرضة لعصف الثلوج والحرارة وفتك السباع والافاعى ونكبات القحط والطوفان ، ولا تأمن فى طريقها مالم تكن على هوى الشيطان

ولم يكن هوى تلك العشائر فى حياتها الاولى مخالفا كل المخالفة لهوى الشيطان فى عنفه او فى كيده أو ختله أو فى اندفاعه مع شهواته وأطماعه ، فكانت تنساق لاهوائها حين تزعم انها تنساق لاهواء الشيطان

فى تلك الارجاء تأصلت العبادة الثنوية وتأصلت معها العبادة الشامانية وهى عبادة الارواح والشياطين

ففى بلاد العمار ــ أو بلاد الحضارة الفارسية ــ تهيأت الاذهان للعقائد الكونية الواسعة فتأصلت الثنوية وعلمت الناس أن الشر غالب على الارض ولكنه مغلوب بعد حين ، وأن « اهريمان » رأس الارواح الخبيثة نافذ السلطان فى عالم الانسان

وفى السهوب المقفرة تأصلت الشامانية وشعائرها التى لا تفصل بين الكهانة والسحر بفاصل محدود ، فقد يكون الروح الواحد طيبا هادئا اذا رضى واستراح الى مقامه واستوفى مطالبه من فرائسه وضحاياه ، وقد يكون خبيثا عارما يتخبط فريسته فلا تجدى عنده شفاعة الكاهن الساحر أو يثوب الى السكينة بمحض هواه



لما ظهرت المسيحية كانت الثنوية والشامانية على أقوى ما كانتا عليه قبل الميلاد

ونشطت مع المسيحية فى مجال واحد عقيدة ثنوية حملها جنود الرومان من تخوم الهند الى الجزر البريطانية ، وهى عقيدة « مترا » بطل النور الذى استشهد فى حربه لاله الظلام ، ووعد عباده بالعودة اليهم بعد حين مظفرا متمكنا من الارض والسماء مادامت الارض والسماء

وانهزمت عقيدة « مترا » أمام المسيحية

ولكن هزيمة العقيدة المترية لم تقتلع الثنوية من جذورها ، ولم تكن أحوال العالم فى القرون الاولى بعد الميلاد مما ينسى الناس وطأة الشر وسلطان الشيطان ، ولم تكن المسيحية فى

دعوتها تنفى غلبة الشيطان على العالم وانقياد السادة المسيطرين على الامم لوساوسه ورذائله ، فنجمت من بلاد الثنوية نحلة أخرى تسمى المانوية منسوبة الى « مانى » الذى ولد فى بابل الجنوبية حوالى سنة (٢١٦ للميلاد ، واستهل دعوته فى ابان قيام الدولة الساسانية فكان له من ملكها الثانى « سابور الاول » نصير قوى أيام حكمه ، على أمل منه فى توحيد النحل المجوسية على قواعد الدين الجديد ، ولكنه أمل لم يتحقق ولم يستطع مانى أن يصمد لاقطاب النحل الاخرى بعد حكم سابور ، فألقى فى السجن حيث مات وهو يناهز الستين ، ووسم أتباعه باسم الزنادقة أى الكذبة المنافقين ، وقيل عنهم انهم « اهرمانيون شيطانيون »

الا أن « مانى » كان من المجددين فى عقائد قومه وفى ثقافتهم وفى كتابتهم الابجدية ، ومن مساعيه فى تجديد الثقافة تيسير الكتابة بالحروف الآرامية وتنقيح اوزان الشعر والاناشيد المقدسة وتقريب مذاهب العرفيين « Gnostics » الى مذاهب المجوسية والمسيحية وتحقيق الخلاص الروحانى من طريق الحكمة والتعمق فى أسرار العلوم

ولم يخرج مانى من نطاق الثنوية فى آفاقه الواسعة ، فمعظم مذهبه ثنوية « زردشتية » أو مجوسية ، وقليل منه مقتبس من آراء العرفيين وعقائد المسيحية فى الصدر الاول قبل أن يتوسع فيها الآباء المتأخرون

فالوجود من ازل الآزال وجودان منفصلان : عالم النور وعالم الظلام ، ، ولا فاصل بينهما يمنع أحدهما أن يبغى على الآخر اذا شاء ، ولكن عالم النور لايعرف البغى بل يعرفه رب الظلام حسدا ، فيزحف بجنوده كرة بعد كرة ويأبى رب النور

أن يقابل العداء بالعداء لانه بطبيعته محبة وسلام وحسبه أن يتجلى حيث شاء فيجفل منه الظلام

ولما تكررت هجمات رب الظلام على العالم النورانى يحاول ان يكمن فيه وينتزع منه ماستطاع ، خلق رب النور آدم السماوى وأرسله الى الارض بمزيج من طبيعة الملك العلوى والحيوان الارضى ليلقى جنود الظلام فى ميدان القتال ، وكان آدم هذا - أو جيومرث كما يسميه المجوس - طيبا سليم القلب يحارب شريرا مزودا بسلاح الخدعة والدهاء ، فانهزم ووقع فى أسر الظلام ولم يجد رب النور بدا من الهبوط بنفسه الى الميدان لانقاذ مخلوقه الاثير لديه من غياهب العالم السفلى ، فأنقذه ورفعه الى الشمس حيث يقيم بعيدا عن الارض وعالمها المهدد بغزوات الشياطين

الا أن الاله السفلى عرف من تركيب جيومرث سر الآدمية العليا فصنع على يديه « آدم » آخر يمتزج فيه الخير والشر والروح والجسد ، وظل آدم حائرا بين طبيعتيه حتى اشفق الاله السماوى عليه فأرسل اليه المسيح ليدله على أشرف طبيعتيه ويعلمه الغلبة على أخس هاتين الطبيعتين ، فجعل آدم ينادى منذ ذلك الحين : « ويل لمن خلق جسدى واستبعد روحى » وخذلته حواء فهبط بها الملائكة الى الجحيم ومعها ذريتها من أبناء الشياطين ، ولم يكن للملائكة منذ تلك اللحظة من رسالة تحت السماء الا أن يستخلصوا العوالم النورانية من شوائب الظلمات ، ثم ينفصل العالمان ويقضى على العالم السفلى بالدمار .

سرى هذا المذهب المانوى شرقا الى الصين والهند وغربا الى افريقية الشمالية وآسيا الصغرى ، وسرت معه عقيدة

خلق الشيطان للبشرية وسيادته على العالم الارضى وبقائه متسلطا عليه الى اليوم الاخير

ووافق ذلك السريان النحلة الشامانية بين أواسط آسيا وأوربةالشرقية ، فدخلتها المسيحية وعشائرها مؤمنة بالسحرة والشياطين تتسامع بأن اله المسيحيين ترك الارض للشيطان الاكبر فلا حيلة لها معه غير أن تترضاه وتزدلف اليه ، وقد بقيت المسيحية الصحيحة مجهولة فى تلك الاقطار الى مابعد القرن الثانى عشر ، وبقيت نحلة « البوجوميل » ـ أى النحلة الشيطانية ـ غالبة على عشائر البلغار والعشائر البلقانية عدة قرون

ومع المانوية والشامانية نحلة أخرى ـ أو نحل شتى على الاصح ـ تعرف باسم النحل الاورفية « Orphism » وتشترك فى المراسم الخفية التى تعاقر فيها الخمر وتستباح الشهوات ، ويعلو فيها اسم ديونيسس « Dionysus » الذى يعتقد اليونان أنه ابن زيوس رب الارباب من بيرسفون وانها حملت به منه وهو متنكر فى صورة الحية ، فقتله المردة واستخلصت الربة « أثينا » قلبه فهو القلب المقدس الذى كان أصحاب النحل الاورفية يحتفلون به ويتخذونه رمزا للاهواء والآلام

ويعتقد الاورفيون أن الاله أورفيوس يهدى صحابته فى ظلمات العالم الاسفل بعد الموت ، ويحفظون لرحلته هذه مراسم منقولة من كتاب الموتى المعروف فى الديانة المصرية القديمة

وظاهر من صور الشيطان التى عاشت بين الاوربيين المشارقة فى صدر المسيحية أن عباده يقرنون بينه وبين ديونيسس صاحب التجلى الاعظم فى حفلات الخمر والمجون ، وكانوا يتقربون لديونيسس بجدى يربونه لهذا الغرض

ويصورونه ـ أى ديونيسس ـ فى صورة « الساتير » الذى يتزيا بجلد الماعز ويلبس قرونها على جبهته ويجر وراءه ذنبا طويلا كأذنابها ويمشى بقدمين لهما ظلفان مشقوقان ، وكذلك كانت صورة الشيطان فى محافل عباده الاولين

ومع المانوية والشامانية والاورفية ينتشر المعرفيون من بلاد فارس الى عاصمة الدولة الرومانية ، ومنهم من يؤمن بالخلاص الى النور من طريق الظلام ، والخلاص الى الطهارة من طريق الرجس ، والخلاص الى الله من طريق الشيطان ، والخلاص الى المعرفة من طريق الجهالة بمعانيها جميعا فيما اشتملت عليه جهالة العقل وجهالة الطباع

هذه فلول العقائد التى تجمعت منها نحلة الشيطان وطال بها الزمن قبل شيوع المسيحية فى دور النزاع بين بقايا الاديان الوثنية وطلائع الدين الجديد ، ويؤخذ من ألقاب الشيطان فى بعض اللغات الاوربية الشرقية ان المظالم الاجتماعية كانت بعض أسباب الكفر بالاله السماوى والاقبال على عبادة الشيطان المتمرد الذى يناوئه ويعلن الثورة عليه ، فقد كانوا يسمون هذا الشيطان « نصير العبيد » وكانوا يحسبون أنه ضحية القضاء الكونى الذى هم ضحاياه



ولم يكتب عباد الشيطان أسرار عبادتهم ، لانهم كانوا يكتمونها حذرا من خصومهم ويكتمونها مجاراة لطبيعة العبادة « الشيطانية » التى لاغنى لها عن الظلمة والخفاء ، وما رواه عنهم خصومهم لا تتفق فيه روايتان على جميع التفصيلات ، ولا نخال أن عبادات الشيطان كانت متفقة بينها فى أماكنها المتباعدة بين آسيا الوسطى واوربة الغربية ،

فان العبادات الصريحة المكشوفة تختلف وتتنازع حين تنتشر على هذه المسافات الشاسعة من الاقاليم والسلالات واللغات والاحوال الاجتماعية والنفسية ، فلا جرم تختلف العبادات السرية اذا باعدت بينها مسافات كهذه المسافات

الا أن المشهور من نحل العبادة الشيطانية ثلاث ، هى الكاثارية والبوجمولية والالبية ، ويرجح المؤرخون لها أنها أسماء مفترقة لنزعة واحدة تختلف فى التسمية حسب علاقاتها المحلية ، مع وحدتها فى مصادرها والتقاء مصادرها جميعا فى الرقعة الوسطى بين القارتين الاسيوية والاوربية

غلبت الكاثارية على العشائر الالمانية ، واسمها مستعار من كلمة « Cathar » بمعنى الطهارة فى اللغة اللاتينية المتوسطة ، وكانت فى أصلها نحلة زهد ورهبانية ثم انحرفت قليلا قليلاالى خليط من الوثنية وبقايا الديانات المتخلفة من الحضارات الاولى

وغلبت البوجمولية على بلاد البلقان ، واسمها مأخوذ من السلافية بمعنى أحباب الله ، او مأخوذ من اسم داع مشهور من دعاتها حولها من العبادة الصريحة الىعبادة الخفاء «Bogomil»

وغلبت الالبية « Albigenses » على فرنسا الجنوبية ونسبت الى « البى » « Albi » التى كان مركزها الاشهر فى غرب القارة وجنوبها

ولم تتفق هذه النحل فى شعائرها وعقائدها كما اسلفنا ، ولكنها تتفق فى قاعدة مشتركة بينها وهى قاعدة الديانة المانوية ، فكلها مانوية تضاف اليها حواشى الوثنية المحلية والمقتبسات المشوهة من العقائد المسيحية ، ولا تخلو عباداتها جميعا من اباحة بعض المحرمات وتحريم بعض المباحات التى تخالف بها جميع الاديان الكتابية ، وان لم يكن بينها وفاق

شامل للمحرمات والمباحات

فمنها مايحرم الزواج لان الزواج يستبقى النسل فى عالم الشر والفساد ، ولكنه لايحرم الفسق ولا الشذوذ ، بل يدخلهما أحيانا فى الشعائر المفروضة لانهما يرضيان الشيطان

ومنها مايحرم اللحم والجبن والبيض وكل ماجاء من تناسل من ذكر وأنثى ، ولكنه يبيح السمك لاعتقادهم أنه لايولد بالتلاقح بين الجنسين

ومنها مايزعم أن آدم طلق حواء وتزوج بالربة البابلية التى تسمى ليليت أو ليلى ، وأن حواء تزوجت بعده بمارد من الجن فجاء النوع الانسانى خليطا من الآدميين والمردة وذرية الارباب الوثنية

ومنها مايقدس المسيح وينكر الصليب ، ولاينكرونه لتكذيبهم صلب المسيح . بل لانهم يقولون : « ان مامن أحد يعبد المشنقة التى خنقت أباه ! »

واشتهر من عباداتهم عبادة القداس الاسود ، ومحورها صورة الشيطان عاريا وصورة فتاة عارية تتقدم المصلين اليه وتنقل اليهم « البركة » بلمس أعضائه ، وتنهى الصلاة بضروب من الاباحيات كالتى كانت تقترف فى عبادات أرباب النسل عند الوثنيين

وكل جماعة « سرية » ظهرت فى القرون الوسطى فهى على صلة بطائفة من تلك الطوائف ، ومنها الجماعة التى سميت باسم الهيكليين والحبليين ، وكان هؤلاء يتقلدون حبلا قصيرا ويلبسون قميصا يسمونه الكميسية « Camisia » ويقال انهم نقلوا الاسم من جزيرة مالطة التى كانت معقلا للهيكليين وكانت الكلمات العربية شائعة فى لغتها منذ القرون الوسطى ،

ولا تزال كذلك الى اليوم

والعقيدة الغالبة بين هذه الطوائف ، على تنوع مذاهبها ، هى سيادة سلطان الشر على العالم الارضى خاصة وتنازع الكون بين القوة العليا والقوة السفلى ، وضرورة « التفـاهم » مع الشيطان فى أمور هذه الدنيا أو ضرورة هذا التفاهم فى كل أمر من الامور ، لان اله الخير على قوته وحكمته قد نفض يديه من دنيا بنى آدم لاعوجاجهم ودخيلة السوء فى طباعهم باختيارهم لا بدسيسة عليهم من قبل الشيطان

وقد بقيت على هذا المعتقد طائفة كبيرة من الاوربيين الغربيين ، وسيق ثلاثة وستون رجلا وامرأة الى محكمة التفتيش فى طولوز (يونيه سنة ١٣٣٥) فقالت احداهن آن مارى جيورجل « ان الله ملك السماء والشيطان ملك الارض ، وهمـا ندان متسـاويان سرمديان يتساجلان النصر والهزيمة وينفرد الشيطان بالنصر البين فى العصر الحاضر » (١)

وينقل رودس صاحب كتاب القداس الشيطانى نبذا من تاريخ فرنسا للمؤرخ الكبير ميشليه « Michelet » يفهم منهـا أن هذه المبادات قد امتزجت زمنا بالثورة الاجتماعية وانحلال الاخلاق وفتور الايمان بالدين ، فقد كان القداس الاسود صلاة الى الشيطان ينادونه فيها باسم رئيس العبيد ، وتقوم فيهـا بوظيفة الكهانة فتاة عارية تمعن فى الرقص حتى يأخذها الدوار ، ثم يتصدى من الجمع أحد الرجال المندوبين للعبـادة فيتمم الصلاة باتخاذ دور الشيطان واعتبار الفتاة محرابا حيا للمعبود (٢)

---

(١) القداس الشيـطانى « The Salanic Mass », by Rhodes تأليف رودس

(٢) صفحة ٥٣ من الكتاب المتقدم

وعاشت هذه النحل الشيطانية حقبة طويلة ، لاشك أنها كانت أطول مما يتاح لها لو لم يكن لها سند من الحوادث غير مزاياها الخلقية أوالوجدانية،ولكنها استفادت من تنازع الكنائس وانحلال الدولة الرومانية وغارات الهمج وما اقترنت به من السبى والسلب والاباحة ، واستفادت من مظالم المجتمع وجهالة المؤمنين بالسحر وسلطان الشيطان على المقادير الارضية،فلما استقرت المسيحية وشاع الخوف والحذر من الجماعات المتسترة لاشتباك الخصومات السياسية واتهام كل فريق من عداه باستخدام تلك الجماعات فى محاربته والدس عليه ، تألبت القوى على جميع تلك النحل وأخذتها الكنيسة والدولة معا بالقمع الشديد والرقابة المتلاحقة،فلم تبق لها بقية بعد القرن السابع عشر الا اذا صحت الاشاعات عن قصة النحلة الشيطانية التى كانت تستتر باسم الماسون فيما رواه الصحفى الفرنسى جوكاند « Jogand » وأثار حوله حملته التى سماها الشيطان فى القرن التاسع عشر، ولم تقم عليها البينة القاطعة بعد البحث فى أسانيدها ودعاواها

اما النحلة التى ينسبونها الى الشيطان ولاتزال لها بقية فى العصر الحاضر فهى النحلة اليزيدية التى تقيم فى شمال العراق وينتمى ابناؤها جميعا الى الكرد ولا يعرف أحد على التحقيق سبب تسميتهم باليزيدية ، ولا يعول على أقوال احد من علمائهم او جهلائهم لانهم يحرمون التعليم على عامتهم ، ويجعلونه وقفا على أسرة منهم تتولى الكهانة وأمانة الاسرار فى هذه الديانة، فمن كان منهم عالما بتلك الاسرار فهو لايبوح بها ، ومن كان من جهلائهم وعامتهم فهو يتلقى مايسمعه ويؤذن له بعلمه،وجميعهم مع ذلك يتوارثون التقاليد ولا يفقهون خباياها سواء منهم من أباحوا له العلم أو حرموه عليه

ويرجع بعض الباحثين بالاسم الى يزيد بن معاوية ، ويرجع آخرون به الى مدينة يزد الفارسية ، ويرجع به غيرهم الى اسم يزدان الاله الاقدم فى الملة المجوسية ، وغير بعيد أن يكون الاسم منسوبا الى يزيد الخليفة الاموى ، لأن النزاع بين الكرد والفرس قد فرق بين عصبياتهم فى السياسة وفى الدين ، فكان الكرد من غلاة السنيين وكان الفرس من غلاة الشيعة ، وربما كانت الطائفة الكردية التى تؤله «يزيد» فى صورة الاله الارضى مقابلة للطائفة الفارسية التى عرفت باسم «على الهى» لانها تغلو فى حب الامام على رضى الله عنه الى حد العبادة

تؤمن الطائفة اليزيدية بسبعة آلهة خلقت من نور اله واحد كما تضاء الشمعة من الشمعة ، وقد خلق كل منهم فى يوم من أيام الاسبوع وندبه الاله الاكبر لابداع جزء من العالم الاعلى أو العالم الادنى ، وهم يعتقدون أن الله خلقهم من نطفة آدم غير ممتزجه بجسم حواء خلافا لسائر البشر ممن ينتسبون الى آدم وحواء ، ولعلهم اخذوا معتقدهم هذا من المانوية أو من المعرفيين الذين يروون فى أساطيرهم أن آدم طلق حواء فأسلمتها الارباب الى شياطين الجحيم ، وعندهم أن آدم هذا هو آدم الحادى والسبعون ، كلهم ذهبوا بالمضية من الوجود ولم تبق منهم على صلاح غير ذرية آدم من صلبه دون مخالطة المراة ، وهم اليزيديون

ويعتقدون بتناسخ الارواح وعودة الاشرار الى الحياة فى اجساد الحيوان، ويحرمون الوانا من الاطعمة والاكسية لايعرفون علة لتحريمها غير التعلات التى هى اشبه باحاجى الاقاصيص ، ومنها تحريم اكل الخس لان قديسهم الشيخ «عادى» مر به فلم يعرفه وسأل عنه فلم يجبه ، وتحريمهم لبس الثوب الكحلى

لانه عدو السماء

وهم يقدسون السيدة مريم والحلاج ويحجون الى جبل الدروز كما يحجون الى مكة ، وكتابهم المقدس يسمى كتاب الجلوة يلحق به كتاب يسمى مصحف رش أو المصحف الاسود، ولكن الفصل الثالث من كتاب الجلوة يعلمهم أن الله يرشد بغير كتاب ويخص عباده المقربين بالالهام من غير سماع

وليس فيما رواه الثقات عنهم ما يثبت عبادتهم للشيطان ، ولعل القول بعبادتهم الشيطان لبس جاء من اعتقادهم أن الاله الذى يسمونه «طاووس ملك» نصح لآدم بأكل الحنطة فانتفخ بطنه وضاقت به الجنة فأخرجه « طاووس ملك » الى العراء وصعد الى السماء ، ولم يكن لآدم مخرج فأرسل اليه طائرا نقر بطنه فاستراح من أكالة الحنطة ، وعاش بعيدا من الجنة المطهرة يأكل هو وبنوه من ذلك الطعام الارضى الى يوم القيامة

فالذين سمعوا أنهم يعبدون «طاووس ملك» الذى أخرج آدم من الجنة قد وحدوا بين هذا الملك وبين الشيطان وحسبوهم من النحل الشيطانية التى تعبده عبادة الارباب

على اننا نعرض النحل الشيطانية جميعا فلا نرى نحلة منها تعبد الشيطان بالمعنى المفهوم من العبادة وهو الحب والتنزيه والتسليم ، وانما يقصدون بتلك المراسم التى يسمونها العبادة ان يزدلفوا اليه بالترضية والمداراة ، وأن يتقوا منه الشر الذى لايقيهم منه رب سواه ، لانه موكل بحكم الارض الى اليوم المعلوم . فهى مصانعة خوف أو نقمة على الخير الذى لاينالونه ، وليس فى شعائر هذه النحل أثر واحد يحق لنا ان نطلق عليه اسم العبادة حيث نعنى بالعبادة ايمان الحب والتعظيم والرضى بالفداء والبلاء فى سبيل ذلك الايمان ، فليس فى تلك الشعائر

كافة علامة على قبول الفداء فى سبيل العقيدة الشيطانية أو قبول الامتحان والصبر عليه ايثارا لرضى الاله المعبود ولو لم يكن فيه نعمة أو هبة من هبات الدنيا والآخرة، وكأنما كانت «عبادة الشيطان» تهمة جرت على السنة المنكرين لعقائدهم زراية بهم وضنا عليهم أن يحسبوا فى زمرة «العباد» المؤمنين بالله

واذا كان الفداء شرطا من شروط العبادة الخالصة فما من نحلة شيطانية يتقبل المؤمنون بها أن يخسروا كثيرا أو قليلا فى سبيل الشيطان ، فهى مساومة وانتفاع بالواقع الذى لامهرب منه ، ومثل هذه المساومة لاتسمى بالعبادة الا من قبيل المجاز والتمثيل



حلفاء الشيطان

يدل تاريخ السحر على تضامن النوع الانسانى فى التهدى الى العقائد العميقة التى تعرب عن نظرة شاملة الى الحياة أوالى الكون كله ، وتبدو أفكار الناس فى هذه العقائد كأنها تصدر عن عقل واحد يتعاون فيها ببداهته وخياله وبذهنه وحسه وتتقارب فيه ملكة التشخيص والرمز فى وعى الانسانالساذج وملكة التجريد والتعميم فى تفكير الفيلسوف المدرب على دقائق التفكير

لو قال قائل فى هذا العصر ان الكون كله فكرة ، أو انه كله عدد وحسبة رياضية ، لما احتاج فى قوله هذا الى تعمق بعيد ولا ظهر منه انه يشتط فى نزعات التصوف أو نزعات التجريد، لان الخاصة والعامة فى زماننا يسمعون أن المادة كلها،علىاختلاف عناصرها وتراكيبها وأجسامها ، انما هىذرات تتألف منالنواة والكهرب وأن الذرة حين تنشق تئول الى شعاع ، وأنالشعاع هزات فى الاثير ، فلا صعوبة على العقل الساذج فى تجريد المادة من تلك الكثافة أو تلك الصلابة التى كانت عنده وصفا عامالكل مادة ، وكان الهواء عنده غاية مايتصوره من الخفة والشفافية والانطلاق من قيود الجسم الكثيف .

لا يؤخذ العقل الساذج مأخذ الدهشة اذا سمع اليوم أن الكون كله عدد وأن طبيعة العالم المحسوس من طبيعة الفكر المجرد أو طبيعة المعنى الفنى عن التجسيم

ولكن كيف كان موقع هذا القول عنده حين سمع قبل نيف وعشرين قرنا أن الوجود كله عدد وأن «الكلمة» أصل كل شيء كما قال بعض الفلاسفة اليونان نقلا عمن تقدمهم من الكهنة والمفكرين ؟

كيف كان موقع هذا القول عنـــده حين سمع باللوجوس « Logos » لاول مرة ؟ وحين ســـمع معها او قبلها بالنسب الهندسية التى تتفرق موجودات الكون المادى كلها فلا تتمخض عن شيء سواها ؟

كان هذا كلاما أشبه بالتخريف أو هو التخريف عينه ، وظل اناس من المطلعين الى عصر الذرة يسمعونه فلايصفونه باكثر من أنه هراء ، ولم يكن قول من الاقوال ابعد فى الشطط عند جمهرة الناس من احالة هذه الموجودات الى فكرة خالصة أو الى عدد لايعرفون معه ما هو المعدود

وقد كان حقا من الاعجاز فى التفكير ان يستطيع عقل قبل خمسة وعشرين قرنا أن يشف تلك الشفافية بهذه الاجسام ذات الاوزان والاحجام

كان اعجازا لو كان معوله كله على الطفرة من الحس واللمس الى التفكير المجرد أو الصوفية الرياضية ، ولكنه فى الواقع لم يكن كله طفرة من هذا القبيل ، وقد ننظر الى خطواته القريبة عيانا اذا تذكرنا تاريخ السحر وفهمنا منه ذلك التضامن فى البديهة الانسانية بين ملكة التشخيص والرمز ، وملكة التجريد والتعميم

كان الناس يفهمون من عمل الساحر منذ آلاف السنين أنه يحرك الطبيعة وعناصرها بكلمة يعرفها وبأعداد مقدسة يوفق بينها فتعمل فى القوى العلوية والسفلية عملها

كان بتلك الكلمة يبطل الاحجام والاوزان ويجعلها فى يديه كالهواء أو اخف من الهواء ، وكان يلقى الكلمة أو يجمع العدد فيحرك الجبال ويزلزل الاوتادويطير بالاجسام وينفذالى ماوراء الحجاب ولا يبتعد منه بعيد أو يتعسر عليه عسير

ولم يكن أصحاب العقيدة فى السحر فلاسـفة يجردون الاجسام وينظرون من ورائها الى الحقائق فى العقل الالهى أوفى عقل من العقول العليا ، ولكنهم كانوا اناسا حسيين واقعيين يفهمون أن الساحر يعمل بالكلمة ما يعمله كل منهم حين يأمر انسانا مثله فيطيعه ، وغاية ماهنالك ان الساحر يأمر بالكلمة ارواحا واعية ، وان الطبيعة كلها ارواح

غاية ماهنالك أن الساحر يعرف الكلمة التى تطيعها تلك الارواح ، وانه هو ـ الانسان الساذج ـ لو عرفها لحرك الجبال كما يحركها،وزلزل الاوتاد كمايزلزلها،فلا تعمق عنده ولاتصوف ولا تجريد

والى اليوم يستطيع الانسان الساذج أن يقول أن الكلمةتفعل الاعاجيب وتحكم الدنيا لانها تحكم الانس والجان ، ولكنه يقولها ولايشعر بعمق فيها ولا يشعر السامع بدهشة عند سماعها ، وانما «تعمقها» الفلسفة لانها تعطيها المعنى الذى لايقدر عليه العقل الساذج ، ويفعل التضامن فى البداهة الانسانية فعله فلا تبدو هذه النقلة كأنها الطفرة المنقطعة بين الحس واللمس وبين الصوفية العقلية فى أعلى الدرجات



ولما فرق الانسان الساذج بين السحر والعبادة لميعتمد فى تفرقته هذه على مقياس الشعرة الذى استخدمه علماء العصر

الاخير فى مراجعة العقائد وضم الأشباه منها وفصل المختلف منها بكل فارق دقيق أو جليل

ولكنه فرق بين السحر والعبـــادة غير عامد ولا ملتفت الى فارق بينها غير الفارق بين حالته وهو يذهب الى الساحر وحالته وهو يذهب الى امامه فى العبادة ، وربما كان الساحر والامام شخصا واحدا ولكنه يشعر من نفسه بالفارق بين حالته وهو يذهب اليه طلبا للسحر وحالته وهو يذهب اليه طلبا للصلاة

فحيثما ذهب اليه يطلب سحرا فهو يحس من نفســـه أنه يذهب اليه خفية ويستر عنده ما يطلبه ولا يبوح به لغيره ممن لا يأمنه ولا يطمئن اليه ، وحيثما ذهب اليه يطلب صـــلاة فهو يذهب مع غيره ويعلن ما يفعله وما يرجـــوه ولا يخطر له أنه يتواطأ على دسيسة من دسائس الظلام

ومنذ افترق الساحر والكاهن وظيفة وخلقا أصبح السحر عملا من أعمال الظلام وان اختلف الاعوان عليـــه بين الارواح الخبيثة والارواح الطيبة ، أو بين الارواح التى يحكمها الشيطان والارواح التى لا حكم له عليها ، ولا يرجع اليه فى تسخيرها

ومع الزمن ظهر التخصص فى صناعة الســـحر كما يظهر فى كل صناعة تتفرع وتتشعب وتتميز فيهـا المتشــــابهات والمتخالفات ، فانقسم السحر الى أبيض وأسود ، والى ســـحر الحكماء وسحر الكذبة والمشعوذين، ولم يفهم الناس من وصفهم بالكذب والشعوذة انهم لا يقدرون على صناعتهم التى لا شك فيها ، وانما فهموا من هذا الوصف انهم يحتالون فى الصناعة ويسلكون مع طلابهم مسلك الشياطين وحلفاء الشياطين ، ولا غرابة فى الكذب أو الشعوذة من شيطان

وبقيت « السرية » شرطا ملازما للسحر بنوعيـــه ، وبقيت

هــذه السرية معنى مرادفا لمعنى الظلام وتدبيرا لا يؤمن على الذين يعتقدونه ولا يرونه ولا يعرفون كيف يكون تدبيره ومتى يكون وعلى أي وجه يكون : بقي الســاحر مخيفا غير مأمون ، وغار منه الكاهن على سلطانه فوقعت الجفوة بينهما ولعن الكاهن غريمه ولم يستطع غريمه أن يلعنه لأن الناس لا يصدقون لعنته ولا يرون اللعنة من حق السحر ، وان لم يكن سحرا من عمل الشيطان

وقد وجد الكهنة والمتنبئون ووجد معهم السحرة «وأصحاب الجان » جنبا الى جنب في أخبار التوراة من أقدم أسفارها بعد موسى عليه السلام ، ولكن الرؤساء والولاة كانوا يخرجــون الانبياء لانهم ينكرون انهم أنبياء ، ويخرجون السحرة وأصحاب الجان اذا عرفوا أنهم سحرة وأصحاب جان ، وكذلك فعــل شاول قبــل موت النبى صمويل ، فلما مات النبى بحث عن السحرة الذين تفاهم ليحضروا له روحه بعد موته ، وقصــته مع النبى فى محضره ، ومع السحرة بعد غيبته نموذج للعقائد الاولى التى لم تفصل بعد كل الفصل بين الوظيفتين ، وان فصلت بينهما فى التجلة والتقديس .

ويقول الاصحاح الثامن والعشرون من كتــاب صمويل : « .. ومات صمويل وندبه كل اسرآئيل ودفنوه في الرامة فى مدينته . وكان شاول قد نفى أصــحاب الجان والتوابع من الارض ، فاجتمع الفلسطينيون وجاءوا ونزلوا فى شــونم ، وجمع شاول جموع اسرائيل ونزل فى جلبوع ، ولما رأى شاول جيش الفلسطينيين خاف واضطرب ، فسأل الرب فلم يجبــه الرب بالاحلام ولا بالاوريم ـ أى القرعة الكهنوتية ـ ولا بالانبياء فقال شاول لعبيده فتشوا لى عن امرأة صاحبة جان فأذهب اليها

وأسألها ، فقال له عبيده : هوذا امرأة صـــاحبة جان فى عين دور ، فتنكر شاول ولبس ثيابا أخرى وذهب هو ورجلان معه وجاءوا الى المرأة ليلا،وقال لها : اعرفى لى بالجان واصعدىلىمن أقول لك ، فقالت له المرأة : هو ذا أنت تعلم ما فعل شاول كيف قطع أصحاب الجان والتوابع من الارض . فما بالك تضع شركا لنفسى تريد لها الموت ؟ فحلف لها شـــاول بالاله الحى لا يلحقنها اثم من هذا الامر ، فسألته المرأة : من أصعد لك ؟ فقال : اصعدى لى صمويل ، فلما رأت المرأة صمويل صرخت بصوت عظيم ، وقالت لشاول : لماذا خدعتنى وأنكرت نفسك؟ قال لها الملك : لا تخافى . ماذا رأيت ؟ فقالت المرأة : رأيت آلهة يصعدون من الارض ، ثم قالت : رجل شيخ صاعد مغطى بجبة . فعلم شاول انه صمويل فخر ساجدا على وجهه ، وقال صمويل لشاول : لماذا أقلقتنى باصعادك أياى ؟ قال شاول : قد ضاق بى الامر غاية الضيق . ان الفلسطينيين يحاربوننى والرب يتخلى عنى ولم يعد يجيبنى لا بالانبياء ولا بالاحـلام ، ودعوتك لتعلمنى ماذا أصنع ؟ فقال صمويل : ولماذا تسألنى وقد تخلى عنك الرب وعاداك ؟ لقد فعل الرب لنفسه ما أنبأنى به وتكلم به على يدى ، وقد شق الرب المملكة وأعطاها لقريبك داود لانك لم تسمع لصوت الرب ولم تنفذ غضبه فى عماليق، فهو صانع بك ما صنعه اليوم وغدا يدفع بك وباسرائيل الى أيدى الفلسطينيين ، وغدا تلحق بى أنت وبنوك ويدفع الرب الى الفلسطينيين جيش اسرائيل . فسقط شاول عـلى الارض وغشيه الوجل من قول صمويل ، ولم تكن له قوة لانه لم يذق طعاما نهاره كله وليله ، ثم جاءت المرأة الى شاول ورأته مرتاعا فقالت له : لقد صدعت جاريتك بأمرك ووضعت نفســـها فى

كفها تلبية لكلامك ، والآن تسمع أنت لصوت جاريتك وتأكل من هذا الخبز الذى أضعه أمامك٠كل فتكون لك قوى على المسير فى الطريق ٠ فأبى أن يأكل ، وألح عليه عبداه والمرأة فاستجاب لهم وقام من الارض وقعد على السرير ، وكان للمرأة عجل مسمن فى البيت فأسرعت وذبحته وأخذت دقيقا وعجنته وخبزت منه فطيرا وقدمته أمام شاول وعبديه ، فأكلوا وذهبوا ٠٠ »

هذه القصة كنز من كنوز البحث فى مقارنة الاديان يندر العثور على قصة مثلها فيما احتوته من شواهد المرحلة التى يبدأ فيها التمييز بين الخير والشر والثواب والعقاب والامامة الدينية والكهانة السحرية دون أن ينتهى التمييز الى حدوده الواضحة

فها هنا تمييز بين من يختاره الله ومن يغضب عليه كالتمييز بين مقام صمويل ومقام شاول ، ولكنه يجمع بين الاثنين فى مكان واحد بعد الموت فيذهب شاول الى حيث يلحق بصمويل

وها هنا تمييز بين الامامه الدينية وبين السحر ، ولكن السحر تنسب اليه القدرة على تحضير روح النبى بغير مشيئته

وها هنا تمييز بين السحر الصالح والسحر الخبيث أو السحر الاسود ، ولكن الساحر يستعين بالجان كما يستعين بأرواح الموتى ، ولا يقال عن الجان أنهم من أعوان الخير أو من أعوان الشر ، لانهم فى خدمة شاول وهو مغضوب عليه

وها هنا استطلاع للغيب يطلب من النبوة كما يطلب من القرعة أو يطلب من صاحبات الجان والارواح

غير ان العبريين لم يسبقوا غيرهم فى مراحل كثيرة من أطوار المسائل الغيبية والعبادات ٠ فمن قبل هذه المرحلة تميز السحر فى الحضارة القديمة فانقسم الى السحر الابيض والسحر

الاسود،والى عمل الحكمة والمعرفة وعمل الخبث والدنس ، وجاء عصر السيد المسيح وقد عرف السحران بوظيفتين وقيمتين وأثرين مختلفين ، فتكلمت الاناجيل عن حكماء المجوس الذين رصدوا الكوكب وعرفوا منه مولد السيد المسيح فى مهده ، وظل هذا السحر وغيره من ضروب السحر الممنوع مختلفين بالاسم والعمل فيما نقله الغربيون من حكمة المشرق وثقافته وظلت بقاياه الى اليوم

فالسحر يسمى عندهم باسمين : أحدهما بسحر المجوس ويدل عليه اسمه « الماجى » « Magic » الذى بقى فى اللغات العربية بلفظه القديم

والسحر الآخر يسمى بصناعة الساحرة « Witchcraft » ويؤخذ من اسمه هذا انه كان مقصورا على المرأة منذ كانت المرأة فى العرف الشائع أداة الشيطان فى الغواية وعون الشيطان على كيده وعصيانه

فقد كان الاقدمون يخلطون بين فتنة المرأة بوحى الغريزة الجنسية وفتنتها بوسوسة الشيطان ، ويحسبونها من ثم حبالة شيطانية يسخرها الشيطان أو تستعين به هى على تسخير المفتونين لاغراضها ومشتهياتها ، ويقع فى أذهانهم أنها أقرب الى الخلسة والخداع لانها تعاشر الشيطان فى زواج غير مشروع ولا يحسبونه الا من قبيل السفاح الممنوع ، بل هم يحسبونه شرا من السفاح الممنوع ، لان السفاح الممنوع بين الرجل والمرأة من الانس لا يبلغ فى العصيان والمنكر مبلغ المعاشرة التى تجمع بين بنت من بنات حواء وبين عدو الله

وتتميز أدوات السحرين كما يتميز السحران فى المقصد والوسيلة ، فسحر الحكمة والمعرفة له أدواته من رصد الكواكب

ورياضة النفس ، والروائح الزكية من الطيب والبخور

وعلى نقيض ذلك سحر الخبث والأذى ، أو سحر الشيطان بعبارة أخرى ، فانه يتوسل الى مقاصده الخبيثة بكل دنس كريه من الادوات والآلات ، ويقال عن سحرته أنهم يلوثون كل طهر ويبتذلون كل قداسة ، وانهم يدنسون اللبن والكتب الشريفة ويتقربون الى الشيطان باحلال الدعوات والصلوات محل الحطة والهوان ، ويزعمون ان الوضوء الشيطاني أيسر للمرأة من الرجل لانها تستخدم فيه الدم المطرود ، ويتعمدون التبشيع والتنفير جهدهم من التخيل فيزعمون أن الساحرة تمسح قدميها بشحم منتزع من جثة طفل ذبيح وتخرج للطيران من مدخنة البيت وهي تمتطى المكنسه المتسخة، لانهم لايريدون أن يسلموا لها القدرة على الطيران الا أن تكون من طريق الحريق والسواد وعلى أداة من أدوات الاوساخ والارجاس



ومن أصول السحر ، فى عصور الحضارة الاولى ، ما يسمى بعلم التنجيم ويطلق على علم الفلك وعلم الغيب فى وقت واحد

كان التنجيم أصلا من أصول السحر يوم كان الكاهن يتولى وظيفة الامام ووظيفة العالم ووظيفة الساحر ، وكان الناس يؤمنون معه بربوبية الافلاك وسريان مشيئتها فى الارضين ومن عليها ، فكان الكاهن اماما يصلى لها وعالما يعرف حسابها وساحرا يستطلع أسرارها ويتوخى التوفيق بينها وبين مطالب أتباعه ومقاديرهم التى يستنبىء عنها الغيب ويعلم كيف يتعجلها ويتقيها

وبقى التنجيم أصلا من أصول السحر بعد زوال عبادة الافلاك وبطلان القول بربوبيتها ، ولكن بطلان القول بهذه

الربوبية لم يبطل القول بسلطان الافلاك وتأثيرها بأمر الله في العوالم السفلية ، واختلف المتدينون في مدى هذا التأثير ، كما قال الكشناوي في كتابه عن خلاصة السحر والطلاسم ، اذ ينقل آراء المختلفين فيقول : « ان الذي اختص به الصابئة وبعض الفلاسفة الذين وافقوهم على رأيهم انما هو القول بألوهية الكواكب وآستحقاقها للعبادة واستقلالها بالتأثير والتدبير في هذا العالم ، فهذا كفر مجمع عليه في جميع الملل والاديان. لان الملل كلها مطابقة على أن المستحق للعبادة والذي بيده التأثير وتدبير الكائنات انما هو اله واحد واجب الوجود متصف بصفات الالوهية والربوبية ، وان كل ما عداه حادث مفتقر اليه على الدوام لا يستقل بنفسه في شيء من الاشياء ولو لحظة واحدة. وأما القول بأنها مؤثرة بقوة أودعها الله فيها ثم تركها تؤثر بتلك القوة في العالم باذنه تعالى بحيث لو لم يرد ذلك تبارك وتعالى لما أثرت أصلا ، ومثلوا ذلك بملك يولي شخصا بقطر من الاقطار فيفوض له الامر والحكم هناك فيصير ذلك الرجل يمضي الاحكام في ذلك القطر باذن الملك بحيث لو لم يرد ذلك منه لعزله عن تلك الولاية – فهذا القول قد قاله جمع من المليين ومنهم امام الحرمين، ولم يرتضه السنوسي بل عده من البدع المنكرة وشنع على القائلين به ولم يصل بهم الى حد الكفر. وأما من يقول انها أسباب عادية أجرى الله عادته بوجود الحوادث عندها لا بها مع تجويز التخلف عن خرق تلك العادة كما هو الحكم في سائر الاسباب العادية من الاكل والشرب والقطع والاحراق ، فهذا القول لا ينكره أحد ... »

الى أن يقول : « وثاني الشيئين المذكورين اثبات القوابل السفلية الارضية ، لانهم قالوا أن حصول الفاعل المؤثر لايكفي

وحده فى حصول الاثر، بل لا بد معه من حصول القابل ولا يكفى أيضا حصول القابل وحده بل لابد مع وجوده من كون الشرائط المعتبرة للقبول حاصلة والموانع زائلة . لانه ربما حدث فى العالم الاعلى شكل غريب صالح لافادة آثار غريبة فى مادة العالم الاسفل ، فلا تكون المادة السفلية متهيئة لقبول تلك الآثار لعدم الشرط أو لوجود المانع .. فعلى هذا لو تيسرت لنا معرفة طبيعة ذلك الشكل ، ومعرفة طبيعة الامور المعتبرة فى كون المادة السفلية قابلة لذلك الاثر ، لكان يمكننا أن نهيىء تلك المادة لقبول ذلك الاثر .. »

وعلى هذا التأويل بقى سحر التنجيم بعيدا من شبهة الاتهام بطاعة الشيطان بين أهل المشرق والمغرب ، حتى ظهر فى كليهما من يلحقه بالوسائل الشيطانية ويعتبر السحرة تلاميذ للشيطان فى هذه الصناعة لقدرته على الصعود والهبوط بين الافلاك والعوالم السفلية وعرفانه بخفايا العوالم السفلية ونزعاتها وتهيؤ أحوالها للتأثر والانفعال بما فوقها

وقد أورد صاحب الكتاب المقدم أقوالا مختلفة فى التعريف بما سماه علم السحر فقال : « .. اعلم أنهم اختلفوا فى تعريفه لاختلاف المذاهب فيه، فعرفه صاحب (ارشاد القاصد) بأنه علم يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على أفعال غريبة بأسباب خفية ، وعرفه ابن العربى الفقيه المالكى بأنه كلام مؤلف يعظم فيه غير الله عز وجل وتنسب اليه الكائنات والمقادير ، وبعضهم عرفه بأنه ما يغير الطبع ويقلب الشىء عن حقيقته ، ومنفعته عند الاسلاميين أن يعرف ليحذر منه لا ليعمل به ، ولا نزاع فى تحريم العمل به بتا ، وأما مجرد تعلمه ففيه خلاف بين الائمة ، فبعضهم منعوه وحرموه حسما للباب

كالمالكية ومن وافقهم ، وبعضهم أباحوه ، وأغرب بعض النظار حيث عدوه من فروض الكفايات لجواز ظهور ساحر يدعي النبوة فيكون في الامة من يكشفه ويقطعه ، وقد حكاه ابن صاعد في ارشاد القاصد • ولتعلمه فائدة أخرى وهي أن يعرف منه ما يقتل فيقتل فاعله به قصاصا عند من يقول بذلك »

ثم مضى المؤلف يذكر أقسامه فقال : « انه حقيقي وغير حقيقي وأن الطرق فيه اختلفت على اربعة مذاهب : أحدها طريقة تصفية النفس وتعليق الوهم وهي طريقة أهل الهند ، لانهم يعتقدون أن تلك الآثار السحرية انما تصدر عن النفس الناطقة ولذلك يلازمون الرياضات الشاقة حتى تصفو نفوسهم وتتجرد عن جميع الشواغل البدنية بحسب الطاقة البشرية • وهذا المذهب مبني على ثبوت التأثير لتوجيه النفس وتعليق الوهم • والمذهب الثاني من المذاهب الاربعة التي للسحر ، طريقة النبط وهي عمل أشياء مناسبة للغرض المطلوب مضافة الى رقية ودخنة بعزيمة نافذة في وقت مختار ، وتلك الاشياء تارة تكون تماثيل كالطلسمات وتارة تصاوير ونقوشا كالتعاويذ وتارة عقدا تعقد وينفث فيها وتارة كتبا تكتب وتدفن في الارض أو تطرح في الماء أو تعلق في الهواء أو تحرق بالنار ، وتلك الرقية التي يرقى بها تضرع الى الكوكب الفاعل للغرض المطلوب على زعمهم ، وتلك الدخنة منسوبة لتلك الكواكب لاعتقادهم ان هذه الآثار انما تصدر عن اجرام الكواكب، وكتاب (سحر النبط) نقل ابن وحشية يشتمل على تفاصيل تلك الطريقة • والمذهب الثالث من المذاهب الاربعة السحرية مذهب اليونانيين المتقدمين وهو تسخير روحانية الكواكب والافلاك واستنزال قواها بالوقوف والتضرع اليها لاعتقادهم أن هذه الآثار انما تصدر

عن روحانية الافلاك والكواكب لا عن اجرامها ، وهذا هو الفرق بينهم وبين الصابئة أهل المذهب الثـانى وأهل الطلسمات .
والمذهب الرابع من المذاهب الاربعة السحرية مذهب العبرانيين والقبط والعرب وهو الاعتماد على ذكر أسماء مجهولة المعانى كأنها أقسام وعزائم بترتيب خاص كأنهم يخاطبون بها حاضرا لاعتقادهم ان هذه الآثار انما تصدر عن الجن ويدعون فى تلك الاقسام أنها تسخر ملائكة قاهرة للجن »

وقد أورد «الاوغنستانى» فى «رسالة اللؤلؤ والمرجان فى تسخير ملوك الجان » أمثلة فى الآيات ، وجملة أعدادها بحروف الجمل وتقسيمات هذه الآيات والاعداد الى جداول مناسبة لدعوة الملائكة الذين يسخرون الجان ليعود هؤلاء فيسخروا الطبيعة والناس، فى زعم أصحاب هذه الارصاد



والمفهوم من مؤلفات الاوربيين فى السحر والطـلاسم انهم نقلوا جميع هذه النفسيات واقتدوا بالشرقيين فى الحكم عليها من الوجهة الدينية ، واتخذوا من عطارد كوكبا راعيا للسحر كأنه خليط من الرب اليونانى القديم والشيطان ، وجعلوه وليا للشطار والخبثاء وأدعياء النظم وأصـــحاب الخداع باللسن والخطابة ، وانتهى بهم الامر الى تحريم هذه المعارف السحرية جميعا وتقسيم المعارف كافة الى قسمين : قسم حـلال وهو ما يشتغل به رجال الدين برخصة من الرؤساء ، وقسم حـرام وهو كل ما عداه بلا استثناء لمذاهب الفلسفة وتجارب العلوم الحديثة ، فدخل فى عداد المعارف الشيطانية والسحر الممنوع كل علم يتولاه أناس من غير رجال الدين ، ولم يستثن ــ كذلك ــ كل سحر يزعم أصحابه انه من العزائم التى يستعينون فيها

بالملائكة ، فقد شاع في تلك القرون أن الشيطان يتشكل بأشكال الملائكة والارواح العلوية كما قال بولس الرسول فى رسالة كورنثوس الثانية « لان هؤلاء هم رسل كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم الى شبه رسل المسيح ، ولا عجب لان الشيطان نفسه يغير شكله الى شبه ملاك النور ، فليس عظيما ان كان خدامه يغيرون شكلهم كخدام للبر »

واحترز أحبار الكنيسة من دعوى كل مدع ينسب الى نفسه القدرة على مخاطبة الملائكة واستيحاء الغيب ، فعم التحريم كل عزيمة من عزائم السحر وما اليه ، وكان القانون يعاقب على جريمة السحر بالموت اذا ثبت أن الساحر استخدم طلاسم لاهلاك المسحور ، ثم صدر في انجلترا قانون معدل له (سنة ١٦٠٣) يقضى بالموت على كل من يثبت عليه تعاطى السحر ولو للعلاج وشفاء الامراض ، لانه محالفة مع الشيطان وكل محالفة مع الشيطان خيانة لله ، وكانت انجلترا مع هذا معدودة من البلاد التى لا تخضع كل الخضوع للسيطرة الكهنوتية ، ولم تعمل محاكم التفتيش فيها كما كانت تعمل فى القارة الاوربية حيث أحرقت النساء عقابا على السحر وأحرق الاطفال لانهم من ولد الشياطين ، وصدرت آخر هذه الاحكام فى منتصف القرن الثامن عشر ، وكان بعضها مما صدر فى الولايات المتحدة

وانتهى القرن الثامن عشر والرأى الغالب على أهل الغرب أن السحرة جميعا حلفاء الشيطان ، وأن من السحرة كل من يروض الطبيعة بعلم غير العلوم التى يقرها الدينيون

الفصل الخامس

* الشيطان والفنون
* شياطين الشعراء والكتاب
* فى الادب العربى
* فى الحضارة العصرية

الشيطان والفنون

قال أبو العلاء :

وقد كان أرباب الفصـــــاحة كلما
رأوا حســـنا عدوه من صنعة الجن

وربما كان أبو العلاء يخص العرب دون غيرهم بهذا القول ، ولكنه فى الواقع قول يعم جميع الاقوام ويعم جميـــع أنواع الاحسان في الكلام وفى غير الكلام

فالعبقرية عند الاوربيين منسوبة الى الجن ، ومعنى العبقرى عندهم أنه صاحب الجنة أو الشبيه بالجنة فى القدرة والتفوق كائنا ما كان العمل الذى يتفوق فيه ، وكلمة « جينيـــاس » « ginius » تطلق على كل صاحب قريحة خارقـــة للمألوف فى الابتكار والابتداع سواء كان ابتداعها فى الشعر والنثر،أو فى التصوير والنحت ، أو فى الانشاء والتلحين ، أو فى العلم،أو الصناعة ، أو تدبير المال وسياسة الشعوب

والعبقرية فى التعبير العربى الحديث مأخوذة من كلمة عبقر، موضع يقولون أن الجن تسكنه وأن الصناعات الفائقة كلهـــا تنسب اليه ، ومنها صناعة السيوف كما قال امرؤ القيس :

كأن صليل المرو حين تطيره
صليل سيوف ينتقدن بعبقرا

ويقولون ان سكانه أنفسهم موصوفون بالجمـــال كما قال الاعشى : « كهولا وشبانا كجنة عبقر »

ويرد بعضهم أن الكلمة مأخوذة من الكلمة الفارسية «آبكار» بمعنى الرونق ، وهو بعيد لان اقتباس كلمة الرونق لا يفسر القصص المنسوجة حول البلد المسمى بعبقر ولا يوجد في الاصل الفارسي ما يوحي بهذه القصة أو يوحي بأسباب اقتباس الكلمة على حسب العرف المأثور في هذه المقتبسات

وتذكر كلمة «عبقري» وصفا للنفاسة بغير نظر الى اشتقاقها من المكان المزعوم ، كما جاء في سورة الرحمن من القرآن الكريم : « متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان »



ومن التعبيرات المتشابهة بين اللغات وصف الابداع بالاعجاز ووصف الاعجاز تارة بالدقة التي تخفى أسرارها على غير ذوي الفطنة ، وتارة بالفخامة التي تتعاظم العاملين من غير ذوي العزم والقدرة الخارقة

يقال ذلك في البلاغة ومعانيها الخفية وفطنتها النافذة الى الخبايا والاعماق

ويقال ذلك في المساعي الكبار التي يضطلع بها المردة الجبارون ، ولا يقوى على الاطلاع بها من دونهم من ذوي الاجسام المحسوسة

وحيث تسري الخواطر الى تصور الخفاء والدقة والقدرة الخارقة لا جرم تنتهي بمسراها الى العوالم الخفية التي لا ترى بالعيون ولا تحد قدرتها بما يحد الايدي والاقدام من أجسام بني آدم وحواء .

ولهذا الاستطراد الطبيعي في تتابع الخواطر توافقت بداهة البشر على علاقة البلاغة بالجن بل على علاقة كل « بالغ » من الاقوال والاعمال بتلك الخلائق المستترة التي لا تحدها نقائص

اللحم والدم ، لانها متلبسة فى الاذهان بخلقة النـار والريح ومادة « الجو اللطيف » مما لا يحصر ولا يحال بينه وبين مسعاه

والعرب تزعم أن شعراءها تستوحي الجن وأن كل شـــاعر منهم يستعين بشيطان يصاحبه ويعرفه باسمه · فهبيد اسم شيطان عبيد ، ومسحل اسم شيطان الأعشى ، وجهنام اسم شيطان عمرو بن قطن ، وسنقناق اسم شيطان بشار ، ويزعم الفرزدق أن الشعر منقسم بين شيطانين أحدهمايسمى الهوجل وهو موكل بالجيد من الشعر والآخر يسمى الهوبر وهو موكل برديئه وسقطه ، وأنشده رجل من تميم بيتا يقول فيه :

ومنهم عمر المحمود نائله ... كأنما رأسه طين الخواتيم

فضحك وقال : « انهما قد اجتمعا لك فى هذا البيت فكان معك الهوجل فى أوله فأجدت وخالطت الهوبر فى آخـــره فأفسدت »

وكان أبو النجم الرجاز يفخـــر على الشـــعراء ويقول أن شياطينهم جميعا أناث ما خلا شيطانه فهو شيطان ذكر :

انى وكل شـاعر من البشر ... شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

وكأنه نظر فى ذلك الى فحولة الكلام ، مما اشتهر بهالرجز ولم يشتهر به الشعر فى زمانه

ويكون مع الشـــيطان تابع أو « رئى » كأنه الراوية الذي يحفظ ما يلقيه الشيطان القائل عفو الخاطر

وفى كتاب «آكام المرجان فى أحكام الجان» نظم كثيرمنسوب الى الجن بغير واسطة الانس أو مشترك بين قائلين أحدهما من هؤلاء والآخر من هؤلاء ، ومن هذا الشعر المشترك

قال بعد عنعنة طويلة : « ··· خرجت مع نفر من قريش نريد الشام فنزلنا بواد يقال له وادي عوف فعرســـنا به

فاستيقظت في بعض الليل فاذا أنا بقائل يقول :

ألا هلك النسـاك غيث بني فهر
وذو الباع والمجد التليد وذو الفخـر

فقلت في نفسي والله لأجيبنه فقلت :

ألا أيها الناعى أخا الجود والفخـر
من المرء تنعـاه لنـا من بني فهـر

فقال :

نعيت ابن جدعان بن عمرو أخا النـدى
وذا الحسب القدموس والمنصب القهـر

فقلت :

لعمرى لقد نوهت بالسـيد الذى
له الفضـل معروفا على ولد النضر

فقال :

مررت بنسـوان يخمشن أوجهـا
صباحا عليـه بين زمزم والحجر

فقلت :

متى ؟ ان عهدى فيه منـذ عروبة
وتسـعة أيام لغـرة ذا الشهر

فقال :

ثوى منـذ أيام ثلاث كـوامل
مع الليل أخرى الليل أو وضح الفجر

فاستيقظت الرفقة فقالوا من تخاطب ؟ فقلت هـذا هاتف ينعى ابن جدعان ، فقالوا : والله لو بقى أحد بشرف أو عـزة أو كثرة مال لبقى عبد الله بن جدعان . فقال ذلك الهاتف :

أرى الايام لا تبقي عزيزا لعزته ولا تبقي ذليلا

فقلت :

ولا تبقى من الثقلين ثقــلا   ولا تبقى الحزون ولا السهولا

وكأنما نظر صاحب هذه القصة الى قول حسان بن ثابت فى المساجلة الشعرية حيث يقول عن صاحبه الجنى :

ولى صــاحب من بنى الشيصبا   نفطورا أقول وطورا هوه

وقد روى صاحب «آكام المرجان» أبياتا كثيرة من نظم الجن فى رثاء عظماء الصحابة وآل النبى ، منها ما نسب الى الجن منفردين به ، ومنها ما اشترك فيه قائلان كالابيات التى رويت فى رثاء ابن جدعان

وكانوا يقولون عن توارد الخواطر بين الشــــاعرين أنهما يأخذان من شيطان واحد . فذكر صاحب مواســـم الادب أن الفرزدق وجريرا ركبا ناقة الى الرصافة لاستمناح هشام بن عبد الملك فنزل جرير فى بعض الطريق ، فتلفتت نحوه الناقة فأنشد الفرزدق :

عــلام تلفتــين وأنت تحتى   وخير النــاس كلهم أمامى

متى تردى الرصافة تستريحى   من الادلاج والدبر الدوامى

ثم قال فى نفسه : الآن يجىء ابن المراغة فيسمع ما أنشدته فيه فيجيبنى بقوله :

تلفت انهــا تحت ابن قين   ابى الكيرين والفاس الــكهام

متى ترد الرصافة تخز فيها   كخزيك فى المواسم كل عام

ثم جاء جرير فأخبره الفرزدق بالقصة وأنشــــده البيتين الاولين : فلم يلبث أن أنشده البيتين الاخــيرين ، فضــحك الفرزدق وقال : والله يا أبا حرزة لقد قلتهما قبل أن تأتى . قال جرير : أما علمت أن شيطاننا واحد ؟

وكل هذا ولا شك تلفيق يعلمه ملفقوه ، ولكن الأصل فيه

قائم على اعتقاد طبيعى شائع يخيل الى الناس فى شتى الامم أن المعانى الخفية لا تخلو من علاقة بالمخلوقات الخفية ، وأن أسرار الصناعات التى تدق عن نظر العيون ينبغى أن تطلع عليها العيون التى تعيش فى عالم الاسرار ولا يدق عن نظرها شىء فى حلكة الظلام

ويقال عن فن الغناء ما يقال عن فن القريض ، وبخاصة فى الزمن الذى كان فيه الغناء موقوفا على البيت أو الابيات يختارها المغنى من كلام الشاعر فى عصره أو فى غير عصره

روى صاحب الاغانى أن الغريض كان يقتبس بعض أصواته من عزيف الجن ويزعم ذلك مغالاة بصنعته، فأنكر عليه سامعوه ما يدعيه ، حتى كان ذات ليلة يغنى لجماعة من نساء مكة فسمعن عزيفا عجيبا ذعرن منه فقال لهن الغريض : ان فى هذه الاصوات صوتا اذا نمت سمعته وأصبحت فغنيت به ، وأصغين الى الصوت فاذا هو من نغمة ألحان الغريض

وادعى اسحق بن ابراهيم الموصلى أن الغناء الماحوزى الذى افتتن به الناس من فن أبيه انما كان من صنع ابليس . قال عن أبيه : « استأذنت الرشيد أن يهب لى يوما من أيام الجمعة أنفرد فيه بجوارى واخوانى فأذن لى فى يوم السبت ... فأقمت بمنزلى وأخذت فى اصلاح طعامى وشرابى وأمرت البواب ألا يأذن لأحد فى الدخول على ، فبينما أنا فى مجلسى والحرم قد حففن بى اذا أنا بشيخ ذى هيئة وجمال عليه خفان قصيران وقميصان ناعمان وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقمعة بفضة وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار ... فدخلنى غيظ عظيم لدخوله وهممت بطرد بوابى .. فسلم على أحسن سلام فرددته عليه ودعوته الى الجلوس فجلس وأخذ فى أحاديث الناس

وأيام العرب وأشعارها حتى سكن ما بى من الغضب ، فظننت أن غلمانى تحروا مسرتى بادخال مثله على لأدبه وظـــرفه . فقلت : هل لك فى الطعام ؟ فقال : لا حاجة لى فيه . قلت : فالشراب ؟ قال : ذلك اليك . فشربت رطلا وسقيته مثله . فقال : يا أبا اسحق . هل لَك أن تغنينا شـــيئا فنسمع من صنعتك ما قد فقت به عند الخاص والعام ... فغاظنى قوله ثم سهلت الامر على نفسى فأخذت العود فجسست ثم ضربت وغنيت ، فقال : أحسنت يا ابراهيم !.. فازددت غيظا وقلت ما رضى بما فعله فى دخوله بغير اذن وأقتراحه علىحتى سمانى باسمى ولم يجمل مخـــــاطبتى . ثم قال : هل لك أن تزيد ونكافئك ، فتعجبت فى نفسى وقلت : بم يكافئنى ؟ ثم أخذت العود فغنيت وتحفظت بما غنيته وقمت به قياما كافيا لقوله لى أكافئك . فطرب وقال : أحسنت يا سيدى ! ثم قال : أتأذن لعبدك فى الغناء ؟ فقلت : شأنك ! واستضعفت عقله أن يغنى بحضرتى بعد ما سمعه منى ،فأخذ العودوجسه فوالله لقد خلت أن العود ينطق بلسان عربى فصيح فى يده ، واندفع يغنى :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى بها كبدا ليست بذات قروح

الى آخر الابيات ...

« فوالله لقد ظننت أن الحيطان والابواب والسقوف وكل ما فى البيت يجيبه ويغنى معه من حسن صوته ، حتى خلت والله أنى أسمع أعضائى وثيابى تجاوبه وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحـــركة لما خالط قلبى من اللذة آلتى غيبتنى عن الوجود ، فلما رآنى كذلك أخذ العود ثانية واندفع يغنى هذه الابيات :

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة فانى الى أصـــواتكن حزين

الى آخر الابيات ...

فكاد عقلى أن يذهب طربا ، ثم غنى ليزيد بن الطثرية :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجـد
لقد زادني مسراك وجدا على وجـد

الى آخرها ...

ثم قال : يا ابراهيم ! هذا الغناء الماحوزى خذه وانح نحوه فى غنائك ، وعلمه جواريك . فقلت : أعده على . فقال : لست بمحتاج . قد أخذته وفرغت منه ، ثم غاب من بين عينى . فارتعدت لذلك ، وقمت الى السيف فجردته وغدوت نحو أبواب الحرم فوجدتها مغلقة ، فقلت للجوارى : أى شىء سمعتن عندى؟ فقلن : سمعن أحسن غناء ، لم نسمع قط أحسن منه . فخرجت متحيرا الى باب الدار فوجدته مغلقا فسألت البواب عن الشيخ الذى خرج فقال : أى شيخ ؟ والله ما دخل عليك أحـد ... فرجعت لأتأمل أمرى فاذا هو قد هتف بى من بعض جـوانب البيت : لا بأس عليك يا أبا اسحق ! أنا أبو مرة ابليس ... وقد كنت نديمك اليوم فلا ترع ... فركبت الى الرشـيد وأخبرته بالحديث ، فقال : ويحك . أعد الاصوات التى أخذتها . فأخذت العود فاذا هى راسخة فى صدرى .. » .

وقد كان عهد العرب بعزيف الجن فى الصحراء قديما جدا لم يتغير ظنهم به فيما نظمه الشعراء الاسلاميون ، كذى الرمة حيث يقول :

ورمل كعزف الجن فى عقداته
هرير كتضراب المغنين بالطبل

غير أنهم خصوا الشاعر بالشيطان الملازم ولم يجعلوا للمغنى شيطانا مثله لان فن الشعر كان أقدم عندهم من فن الغناء ، وانما كان غناؤهم حداء أو محاكاة للحداء ، وكان الحداء نغما

شائعا يغنيه كل سائق يحدو الابل ، فهى طريقة لا محل فيها للافتنان والتنويع ، وكان غناؤه على الاكثر في قافلة لا ينفرد عنها بمكان يظن أنه يخلو فيه بالجن لتلقنه ويستمع منها،فلما ظهر المغنون آحادا منقطعين لعملهم منفردين بوضع ألحانهم ، أحبوا محاكاة الشعراء بالاخذ عن الجن فى صناعتهم مغالاة بها عن قدرة الانس في هذه الصناعة ولكنهم طرأوا بهذه الدعوى ولم يتأصلوا فيها كما تأصل الشعراء فسمعت من آحاد متفرقين ولم تكن اجماعا من وحى البديهة فى البيئة بأسرها



وقد روى عن الصناعات العلمية كالطب،ما روى عن صناعة الكلام وصناعة الغناء ، فأسند صاحب كتاب الهواتف الى النضر بن عمرو الحارثى قصة قال فيها :

« انا كنا فى الجاهلية الى جانبنا غدير فأرسلت ابنتى بصحفة لتأتينى بماء فأبطأت علينا وطلبناها فأعيتنا فيئسنا منها ... قال : والله آني جالس ذات ليلة بفناء مظلتى اذ طلع علينا شيخ فلما دنا منى اذا به ابنتى . قلت : ابنتى ؟ قالت: نعم ابنتك . قلت : أين كنت أى بنية ؟ قالت : أرأيت ليلة بعثتنى الى الغدير ؟ أخذنى جنى فاستطار بى فلم أزل عنده حتى وقع بينه وبين فريقين من الجن حرب فأعطى الله عهدا ان ظفر بهم أن يردنى عليك ، فظفر بهم فردنى عليك . فاذا هى قد شحب لونها وتمرط شعرها وذهب لحمها وأقامت عندنا فصلحت فخطبها بنو عمها فزوجناها ، وقد كان الجنى جعل بينه وبينها امارة اذا رابها ريب أن تدخن له ، وان ابن عمها ذاك عيب عليها وقال : جنية شيطانة . ما أنت بأنسية . فدخنت فناداه مناد : مالك ولهذه ؟ لو كنت تقدمت اليك لفقأت عينك ، رعيتها فى

الجاهلية بحسبى وفى الاسلام بدينى • فقال له الرجل : ألا تظهر لنا حتى نراك ؟ قال : ليس لنا ذاك • ان أبانا سأل لنا ثلاثا : أن نرى ولا نرى ، وأن نكون بين أطباق الثرى ، وأن يعمر أحدنا حتى تبلغ ركبتاه حنكه ثم يعود فتى . فقال ابن عمها : ألا تصف لى دواء حمى الربع ؟ قال : بلى • قال : مارأيت تلك الدويبة على الماء كأنها عنكبوت ؟ قال : بلى ! قال : فخذها ثم أشدد على بعض قوائمها خيطا من عهن فشده على عضدك اليسرى ففعل • قال : فكأنما نشط من عقال • فقال الرجل يا هذا ألا تصف لنا دواء رجل يريد ما تريد النساء ؟ قال : هل ألمت به الرجال ؟ قال : نعم • قال : لو لم يفعل وصفت لك »

وجاء فى كتاب « آكام المرجان » بعد نقل هذه القصة جملة أخبار من قبيلها يتلقى فيها الانس عن الجن علما من علوم الطب لعلاج بعض الامراض ومنها أمراض لها فى عرف الاقدمين علاقة بالجن كالصرع والوهم والهزال، وبعض هذا العلاج دواء وبعضه من الرقى والتمائم التى تدخل فى طب السحر والكهانة

وما من صناعة بلغت مبلغ الاعجاز فى رأى قوم الا كان لها تفسير من معونة الجن أو المردة ، ويرجعون فى هذا التفسير الى الخبر المنقول كما يرجعون الى المجاز والتخييل • فمما نقله الشعراء من أخبار الرهبان ونساك البيع قبل الاسلام قول النابغة عن معابد بعلبك أو تدمر :

الا سليمان اذ قال الاله له
قم فى البرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن أنى قد أذنت لهم
يبنون تدمر بالصفائح والعمد

وجاراه البعيث فى قوله :

بنى زياد لذكــر الله مصنعة من الحجارة لم يعمل بها الطين
كأنها غير أن الأنس ترفعها مما بنت لسليمان الشياطين

والبحترى يصف ايوان كسرى المهجور فيقول :

ليس يدرى أصنع أنس لجن سكنوه أم صنع جن لأنس

فهو هنا يرى بناء فخما مهجورا يصــح أن يكون من صنعة الانس للجن لانه خراب موحش كمساكن الجان ، ويصــح أن يكون من صنعة الجن للانس لانه فيما هاله من فخامته أكبر مما تبلغه طاقة الانسان

ولا يفهم القول بتسخير الجان لخدمة الفنون فهما صحيحا الا مع التفرقة الواجبة بين نوعين من التسخير ينبغى ألا يلتبس أحدهما بالآخر فى هذا المقام

فالتسخير الذى يشمل بنى آدم جميعا ويشـــمل القوى والعناصر جميعا غير التسخير الذى يأتى فلتة من حين الى حين بالحيلة التى يحتالها الشيطان أو يحتالها الانسان ، ولا تبلغ بحال من الاحوال أن تساق مساق التعميم فى الكلام على خلق الاحياء وخلق السموات والارضين

فمن التسخير الذى يجرى مجرى النواميس الكونية قوله تعالى فى القرآن الكريم « **وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه** »

وقوله تعالى : « **ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الارض والفلك تجرى فى البحر بأمره** »

وقوله تعالى : « **ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** »

وقوله تعالى عن داود وسـليمان : « **وكلا آتينا حكما وعلما**

وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ، ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره »

ولم يرد فى القرآن الكريم ذكر لتسخير الجن والانس والحيوان الا بهذا المعنى ، ومنه ماجاء عن تسخيرها لسليمان « **وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون** »

ومنه : « **والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الاصفاد** »

فهذا التسخير الذى يفهم منه أن الانسان قد أوتى علما يسيطر به على القوى والعناصر وما فى الارض ، انما يجرى مجرى النواميس الكونية على عمومها ، ولا يخص به انسان من الناس الا كما يخص بعلم بناء السفن وصوغ الحديد واستخدام الريح بأمر من الله فى غير احتيال من الشيطان أو اختلاس من الانسان

وليس من قبيل هذا التسخير ما يقال عن أسرار السحر والطلاسم وأغراض التحالف والمخادنة بين الاناسى والشياطين

فذاك تسخير تجرى فيه ارادة الله وقدرة الانسان وأحكام القوى والعناصر كيفما سميناها ، مجرى العموم المطرد فى النواميس الكونية التى يعلمها من يقدر على علمها

أما التسخير المقصود بالسحر وما اليه فهو الى خرق النّواميس اقرب منه الى مجاراتها والعمل بارادة الله فيها ، وانما تخرق فيه هذه النواميس بثمن يبذله الساحر من روحه أو جسده ، كأنه محاباة الرشوة وجزاء المخالفة والمروق عن مجرى الامور

ونعود الى عمل الشيطان فى الفنون فنلاحظ أن ملكة الخيال تتقارب في رواياته وأقاصيصه بين المشرق والمغرب كأنها تصدر من انسان واحد ، يتخيل الشيء الواحد في أوقات مختلفات

فالعرب يتحدثون عن شياطين الشعراء ، واليونان ـ ومن نقل عنهم ـ يتحدثون عن جنيات الفنون التى اصطلحنا على تسميتها بالعرائس ولم نسلبها بذلك نسبتها الى الجان . وقد قيل عن سقراط أنه كان يستمع وحى الحكمة من جنى أو شيطان كأنه يستمع الى صوت صديق من الانس يحاوره ويناجيه

وقصة الموصلى مع ابليس لها نظير من قصة الموسيقى الايطالى جيوسبى ترتيانى فى أوائل القرن الثامن عشر (١٧١٣) حيث كان نزيلا بأحد الاديرة فجاءه الشيطان فى المنام وتناول قيثارته وعزف عليها لحنا أذهله ، ولكنه لم يذكره كله حين أيقظه ابليس وتحداه أن يعيده كما سمعه ، فقنع منه بما وعاه وسماه هزة الشيطان

والمردة الذين كانوا يقيمون الصروح فى الشرق يضارعهم فى اليونان جماعة المردة المشهورين باسم « التيتان »

والاطباء فى القرون الوسطى كانوا ينافسون الكهنة فى صلواتهم ودعواتهم للمرضى فيتعلمون من الشيطان تلك الرقى والتمائم التى يزيفونها باسم الطب ويشترون بها أرواح المصابين ثمنا لما يخدعونهم به من ظاهر الشفاء وباطن الهلاك والبوار

والحكم على شياطين الفنون من الوجهة الدينية متقارب فى المشرق والمغرب

فالغالب على شياطين الفنون أنها شياطين قدرة وابداع

وليست بشياطين غواية وافساد

ولكن الفنون قد تستخدم للغواية والفتنة كما تستخدم للزينة وابراز معانى الجمال ، كان جرير يفخر بشعره فيقول أنه من رقى الشيطان ويمدح الرجل الصالح فيقول مامعناه أن الله عصمه من رقاه :

رأيت رقى الشيطان لاتستفزه
وقد كان شيطانى من الجن راقيا

فاذا كان الفن من آلات الاصلاح والفطنة فشيطانه من شياطين القدرة والجمال ، واذا كان من آلات الفتنة والغواية فشيطانه من جند ابليس . وقد قال الامام ابن الجوزى فى فصل من كتابه « تلبيس ابليس » وحرم فى نهايته غناء التطريب واللهو قال فى أوله : « وفصل الخطاب أن نقول ينبغى أن ينظر فى ماهية الشيء ثم يطلق عليه التحريم أو الكراهة أو غير ذلك ، والغناء اسم يطلق على أشياء منها غناء الحجيج فى الطرقات فان أقواما من الاعاجم يقدمون للحج فينشدون فى الطرقات أشعارا يصفون فيها الكعبة وزمزم والمقام وربما ضربوا مع انشادهم بطبل فسماع تلك الاشعار مباح وليس انشادهم اياها مما يطرب ويخرج عن الاعتدال ، وفى معنى هؤلاء الغزاة فانهم ينشدون أشعارا يحرضون بها على الغزو ، وفى معنى هذا انشاد المبارزين للقتال اشعار التفاخر عند النزال ، وفى معنى هذا اشعار الحداة ... وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مال ذات ليلة بطريق مكة الى حاد مع قوم فسلم عليهم فقال : ان حادينا نام فسمعنا حاديكم فملت اليكم ... وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حاد يقال له أنجشة يحدو فتعنق الابل ، فقال رسول الله : يا أنجشة رويدك ! رفقا بالقوارير . وفى حديث

سلمة بن الاكوع قال : خرجنا مع رسـول الله الى خيبر فسرنا ليلا فقال رجـل من القوم لعامر بن الاكوع : ألا تسـمعنا من هنياتك ؟ وكان عامر رجلا شاعرا فنزل يحدو بالقوم يقول :

لاهم لولا أنت ما اهتـدينا ولا تصـدقنا ولا صـلينا
فألقين سـكينة علينـا وثبت الاقـدام اذ لاقينـا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هـذا السائق ؟ قالوا عامر بن الاكوع ، فقال : « يرحمه الله »

ولنذكر مع كلام الامام ابن الجوزى أنه ألف كتابه للكشف عن تلبيس ابليس فلم يدع طائفة الا كشف منها لونا من ألوان هذا التلبيس،ولم يستثن الحكماءوالفلاسفةوالمتصوفةوالنساك، فما بالك بأصحاب الفنون وقالة الشعر ، ومنشدى الغناء



شياطين الشعراء والكتاب

يغلب أن يكون شيطان الشعر من خلق الشعراء أنفسهم ، وأن يكون الكلام عنه لاحقا لظهور الشعر وانتشاره ، فان لم يكن هذا الشيطان مخلوقا شعريا فهو مخلوق خيالى أبدعه كاهن قديم أو مفكر من مفكرى الجاهليات الغابرة له خيال كخيال الشاعر ، وقد تشابه أسلوب السحرة والكهان فى نبوءاتهم المزعومة باللغات المعروفة بين أهل المشرق والمغرب ، فكلهما تتوخى السجع والقافية وتخالف كلام الساحر أو الكاهن فى سائر أقواله ، ليصح القول فيها أنها من وحى غير وحيه ومصدر باطن غير مصدر تفكيره الظاهر ، فاذا نسب الشعر الى مصدر كمصدر السحر فالخطوة قريبة والقياس معقول . ولم يزل بين الشعر والسحر نسب قديم

على أن خيال الشعراء يعمل فى تصوير كل كائن غير منظور ولو لم يكن من خلق الشاعر . وشيطان الاديان لم يخلقه الشعراء ولكنهم صوروه فى الصور التى تتمثل للعين، والصور التى يدركها الفكر وتلم بها أحلام اليقظة . وندر من الشعراء ، خاصة ، من سمع بالشيطان ولم يصوره لنفسه على صورة قابلة للتمثيل فى العيان أو للتجسيم على يد الفنان، وقد صنع له المثالون الغربيون تماثيل على صورة الانسان ذات ذنب وقرنين وظلف كأظلاف الجداء ، وجاء فى الشعر العربى ما يصلح أن ينقل منه تمثال محسوس كما قال بعض الاعراب فى رواية الخليل بن احمد :

وحافر العير فى ساق خدلجة وجفن عين خلاف الانس فى الطول

ويوشك كل من تصوره من العرب أن يجعله على مثال انسانى منحرف بعض الانحراف أو مشوه فى أصل الخلقة لمجرد المخالفة بينه وبين الملامح الانسانية ، ومن ذاك وضع العين بالطول وتخيله بعين واحدة فى وسط جبهته، الى أشباه ذلك من التشويه المقصود لمجاراة الخيال فى استلزام المخالفة بين منظر الانسان ومنظر الشيطان . وعلى نقيض ذلك كان تصوير شاعر الفرس – السعدى الشيرازى – للشيطان الذى رآه فى الحلم . فقد رآه « بقامة كفرع البانة وعينين كأعين الحور وطلعة كأنها تضىء بأشعة النعيم » .. ولما علم أنه الشيطان أدهشه أن يكون الرجيم البغيض بهذه الوسامة المحبوبة ، وسأله فلاحت على طلعته كبرياؤها وقال : « لاتصدق يا صاح أنه مثالى ذاك الذى رأيتهم يمثلونه . فان الريشة التى ترسمنى تجرى بهايد عدو حسود . سلبتهم السماء فسلبونى الجمال »

ولا يعنينا فى هذا الفصل نقل الصور « الحسية » التى اخترعها الشعراء والفنانون لذلك الكائن المحتجب عن النظر، ولكننا نجمع هنا بعض أوصافه التى تقع فى روع المتخيل أو تعرض للفهم عن تفكير واستنباط ، وليست هذه الاوصاف بالكثيرة ولا بالمتباعدة فى جوهرها ، وليس فيها من ابتداع الا والمنطق يوحى به لزاما فى أوصاف الشياطين على اجمالها وانما الجديد فيها قدرة الشاعر على ابراز «الشخصيات» وتلوينها بألوانها الخلقية ، وكل هذه الشياطين التى جاءت «مشخصة» فى أقوال شعراء الغرب قريب من قريب

وليس أشهر فى «الشخصيات» الشيطانية المسرحية من شياطين مارلو وجيتى وملتون وبليك وكاردوتشى ، من شعراء

القرن السادس عشر فما بعده . فانهم هم الشعراء الذين خلعوا على الشيطان مسحة مسرحية من فنهم ، ولم يكن تصويرهم للشيطان كله نسخة منقولة من الشيطان كما صورته كتب اللاهوت ، ولم يرد شيطان كاردوتشي في قصة مسرحية ولكنه مثله على مثال الشخصيات السياسية التي تقوم ببعض الادوار على مسرح الحوادث

ولد كريستفور مارلو « Christopher Marlowe » الشاعر الانجليزي في سنة ١٥٦٤ وظهرت في حياته قصة الساحر فوستوس بالالمانية ثم ترجمت الى اللغة الانجليزية ، ومدارها على رجل ساحر متعطش الى المتعة والسطوة لم يجد بغيته منهما في العلم والفقه فأقبل على كتب السحر الاسود يلتمس منه القدرة على تسخير الشيطان لما يهواه ، وتعاقد مع الشيطان على قضاء أربع وعشرين سنة في المتعة التي يهواها ، ثم يسلمه روحه ليهبط بها الى الجحيم

ويجري الحوار بين فوستوس والشيطان عند التعاقد بينهما كما يأتي :

مفستوفليس : فوستوس ! أقسم بالجحيم وليوسيفر أن أنجز جميع الوعود التي اتفقنا عليها

فوستوس : اذن دعني أقرأها على الشرائط التالية :

أن يكون فوستوس روحا في الصورة والهيولى

وأن يكون مفستوفليس خادمه وطوع أمره

وأن مفستوفليس يجيبه الى كل طلب ويحضر له كل مطلوب

وأن يكون في بيته أو مكتبه غير منظور

وأن يظهر لجون فوستوس في كل وقت كما يجب

وأنا الدكتور جون فوستوس من ويرتنبرج ، بهذا الجزاء ،

أضع جسدي وروحي بين يدي ليوسيفر أمير المشرق ووزيره مفستوفليس ، وأفوض لهم بعد أربع وعشرين سنة كل التفويض بناء على هذا العقد المسجل غير منقوص ولا منقوض ، أن يبحثوا عن هذا المدعو جون فوستوس حيث كان وأن يحملوه جسدا وروحا ولحما ودما ومتاعا الى حيث يقيمون

ويتسلم مفستوفليس هذا العقد موقعا بدم الساحر بدلا من المداد

ويظهر مفسوفليس فى الرواية باسم مالك السوء حينا وباسم الشيطان أو باسمه المشهور فى أكثر الاحيان ، وهو رئيس لزمرة من الشيطان مرءوس لابليس المسمى هنا باسم ليوسيفر زميل بعلزبول ، ومن مرءوسيه سبعة شياطين متآمرين هم شيطان الكبرياء وشيطان الطمع وشيطان الغضب وشيطان الحسد وشيطان الشهوة وشيطان الكسل وشيطان الدعارة

ويقضى الدكتورفوستوس أيامه مع الشياطين مستمتعا بما يهواه من حسان الدنيا وحسان التاريخ ، ومنهن «هيلينا» التى فتنت اليونان الاقدمين ، وباريس ، والتى نالت الجائزة قديما فى مباراة الجمال .

ويغلب على ليوسيفر ـ كما صوره مارلو ـ أنه يضع الامور فى مواضعها ويطلب حقوق الشر كما يدعيها ويعطى الخير حقوقه كما تجب ، فهو ييئس الساحر العالم من سعى السيد المسيح فى خلاصه وينبئه أنه عاجز عن انقاذ روحه ، ولكنه لا يرد هذا العجز الى غلبته ورجحان الشر على الخير فى حوله وحيلته ، بل يرده الى عدل المسيح وأنه ليس من العدل أن ينجو من لم يكن أهلا للنجاة ، ولا ينكر الشيطان جدوى الندم والبكاء واستجابة

الصلاة والدعاء ، ولكن الشيطان يستخدم حقه ـ على حكم العهد ـ فى تقييد يدى الساحر فلا يقدر على رفعها الى السماء، ونزف دموعه فلا يقدر على البكاء ، وعقد لسانه فلا ينطق بالصلاة والدعاء



ويأتى ملتون (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤) بعد مارلو بفترة وجيزة فى التاريخ الزمنى ، ولكن الشيطان الذى صوره ملتون أهم من الشياطين «الشعرية» التى صورها من سبقوه ولحقوه فى هذا الموضوع بين شعراء الغرب . ومن الدراسات التى تناولته دراسة الشاعر من الوجهة النفسية ، ودراسة الادب والبلاغة. ودراسة العقائد وعلاقتها بالعصر والأحداث السياسية ، ودراسة الاطوار التى تتمثل فيها التقوى حيث تتراءى أحيانا على نحو يوافقها كما تتراءى على نحو يناقض مظهرها وغايتها

فالشاعر ملتون كان من المتدينين المتطهرين ، وكان أمين السر اللاتينى فى حكومة الثورة ، وكان وثيق الصلة بالقائد كرومويل الذى قاد الثورة على الملك شارل الاول ، وقد عمى فى أواخر أيامه وشمت به شارل الثانى فقال له : ألا ترى يا مستر ملتون أن الله عاقبك بفقد بصرك على ما كتبته فى أبى ؟ وكان ملتون مشهورا بسرعة الجواب ، وأجوبته فى قصيدة الفردوس المفقود تعرض لقارئها أمثلة كثيرة على هذه القدرة فى حوار الشيطان والملائكة ، فأسرع الى الجواب قائلا : وعلى أى ذنب عوقب أبوك بفقد رأسه ؟

وملتون لم يبدع قصيدته كل الابداع ، بل استعار من جليوم دى بارتاس « Bartas » (١٥٧٨) فى قصيدته أسبوع الخليقة واستعار من افيتوس « Avitus » فى قصيدته عن

الخليقة والسقوط والنفى من الفردوس ، واستعار من القصص الشعبى الذى كان يدور حول مأساة آدم وحواء ، ولكن هذه القصص جميعا نسيت أو كادت وبقيت قصته لبلاغتها ودلالة صورها وتشبيهاتها واتساعها لتلك الدراسات المنوعة التى أشرنا اليها

يقول الشاعر دريدن آن الشيطان هو بطل ملحمة «الفردوس المفقود » دون من فيها من الشخصيات العلوية والسفلية ، ويرى النقاد الادبيون رأى دريدن فيهذه الملاحظة، فان ملتون قد حول التفات القراء الى الشيطان بما ألقاه على لسانه وما شرحه من مزاعمه ومواقفه . وهو لايعفيه من الذم واللعن والاستنكار ، ولكن عباراته التى يذمه بها ويستنكر بها فعاله انما تأتى مجاراة للعرف الشائع الذى يتشابه فيه كل قائل ، على حين تبرز الاعمال والاقوال التى ينسبها اليه أو يضعها على لسانه بروزآ قويا موفور النصيب من عناية الشاعر واعجابه ، وسر ذلك ـ مع تشيع ملتون للمتطهرين الدينيين ـ أنه كان ثائرا ووجد فى تمرد الشيطان فرصة للافصاح عن حجج الثورة ودواعيها ، وربما ظهر من دراسة الشيطان فى قصيدة ملتون أنه يمثل شارل الاول فى بعض الخلال كما يمثل كرومويل فى حالات أخرى • غير أنه كان يمثل شارل الاول فى الخلال التى يعيبها الشاعر ويضيفها الى خبائث الشيطان ومساوئه ، ويمثل كرومويل فى الصلابة والجرأة والاعتزاز بالنفس ، وفى مجموعة تلك الخلائق التى جعلته يطلب المكان الاول فى جهنم ولا يقنع بالمكان الثانى فى السماء

ويلقى ملتون على لسان الشيطان أنه يرثى للملائكة الذين

يحاربونه في صف الاله وهو الذى غضب لهم وأنف من المهانة التى تلحقهم بتفضيل بنى آدم عليهم ، وأنه لولا صواعق السماء لما طمعت جنود السماء فى الغلبة عليه . وتخيل ملتون شيطانه في بعض مواقفه كأنه سلطان شرقي يستوى على ديوانه ويحيط عرشه بوزرائه وأعوانه ، وتخيله فى أكثر المواقف على هيئة المغلوب الذى يؤسف على هزيمته ولا تراد له الا لأنه قضاء لا مرد له من الله • وقد تضطرب صور الشيطان بين موقف وموقف الا صورة واحدة تثبت له في جميع مواقفه ، وهي الصورة التى ترضى الشاعر حين يتخذه لسانا ناطقا بحجج المتمردين وحين يتخذه شبحا يحمله أوزار الطغاة وذوى الجبروت فان ملتون هو ملتون فى الحالتين ، وان بدا الشيطان فى صورة مضطربة كلما سامه أن يمثل الحالتين ، ولا يندر أن تتقابلا مقابلة النقيضين

ولعل القول الاصح ان الاختلاف بينهما انما هو اختلاف دورين لا اختلاف شخصيتين . فقد كان الفرق بين كرومويل وشارل الاول فرق الطرفين المتقابلين والعدوين المتقاتلين ، ولكنهما فى الطبائع الشخصية لايتقابلان هذا التقابل على طرفى الميدان ، بل يتقاربان تقارب الاشياء والنظراء



وفى هذه الاسطر محل لاديب من معاصرى ملتون يقتحمه اقتحاما بحكم المعاصرة والاشتراك فى الحرب الاهلية والكلام عن الشيطان ، ولا محل له الى جوار ملتون بغير هذه المعاصرة وهذه المناسبة ، ونعنى بهذا الاديب جون بنيام «Bunyam» مؤلف رحلة الحاج والحرب التى شنها شداى على ابليس . وابليسه غاصب محتل لمدينة الروح الانسانية يحاصره عمانويل ابن بانى

المدينة شداى ــ اسم من أسماء الله عند العبريين ــ ثم يستولى عمانويل على المدينة ويتغلغل فيهـــا ابليس وجنوده بالمـــكر والدسيسة ويستردها جميعا ما عدا قلعتها المحصنة وهى ضمير الانسان المؤمن بكفارة الخلاص



اما الشيطان الذى يلى شخصية ابليس فى الفردوس المفقود فهو شيطان رواية فاوست التى الفها شاعر الالمان الاكبر جيتى (١٧٤٩ ــ ١٨٣٢) وجعل فيها للشيطان مفستو فليس دورابين الارض والسماء وبين الخالق والمخلوقات غير الدور الذى تقدم فى رواية مارلو . فان مفستوفليس فى رواية جيتى هو بعلزبوب نفسه وليس زميلا أو تلميذا من تلاميذه ، ودوره فى هذه الروايه يعم ظواهر الوجود كله ولا تحده المهمة التى يندبه لها فاوست وأمثاله

وهو يصف نفسه مرة بأنه « جزء من القوة التى امتزجت بالسوء قديما ولكنها لاتفتأ تصنع الخير»

ويصف نفسه مرة أخرى بأنه القوة النافية التى تقول «لا» أمام كل ايجاب

ويوصف فى جميع الاحوال كأنه المفسد الذى يتخلل مفاتيح المعزف بالزوائد والعوائق كلما انتظمت عليها نغمة من نغمات النظام

ويقول مفستو فليس للدكتور فاوست أن الوجود كله عبث وأنه كان من الخير الا يوجد . فيقول فاوست : والآن علمت ماتريد . . انك لم تستطع ان تعدمه جملة فأنت تشيع العدم فيه بالتجزئة أو تبيعه بالمفرق !

وقد وضعت قصة فاوست على غرار قصة ايوب فى العهد

القديم ، وظهر الشيطان فى أولها يقول لله أنك خلقت العقل للانسان لتميزه على البهائم ، ولكنه يستخدمه ليصبح دونهـا فى الشر والجهالة ، واننى لا أبالى أن أشـقى بنى آدم فانهم متكفلون دونى باشقاء أنفسهم . ثم يقع الرهان على روح العالم فاوست الذى يئس من البحث والعلم وآب الى البؤسى التى لم يستطعم معها مذاقا للحياة ، فيتفق الشيطان والعالم على شروط كالشروط التى تقدمت فى رواية مارلو ، ويأخـذه الشيطان الى وكر الساحرة لتعيده باشرافه ـ أى اشراف الشيطان ـ الى الشباب . فيعاف العالم ذلك الوكر ويسأل مفستو فليس : أما من وسيلة غير هذا السحر القبيح لتجديد الشباب ؟ فيجيبه مفستو فليس : بلى ! هناك وسيلة أهديك اليها . تذهب الى الغيط وتحرث وتكرث وتأكل اللقمة التى تجدها وتحصر الحياة فى أضيق حدودها ، وتأتى عليك الثمانون وأنت فى غرارة الشباب

قال فاوست : لست بهذا ... قال مفستو فليس : اذن لامناص من السحر والساحرة ، وسأله فاوست : ولم الساحرة؟ فأجابه الشيطان : انها صناعة صبر طويل لا أطيقه ، ولابد لكل صناعة من أحكام

وتبدأ الغواية برؤية الفتاة مرجريت عائدة من كرسى الاعتراف فيشتهيها فاوست ويروضها له الشيطان ويتواعدان على اللقاء بعد أن تنام أمها بجرعة مخدرة ، فتموت الام بالجرعة وتحمل مرجريت ثم تلد فتقتل وليدها ، وفى خلال ذلك يأتى أخوها الجندى فيطلع على سر هذه الفاجعة ويذهب الى فاوست ليقتله فيقتله فاوست فى مبارزة بينهما ، ثم يغلبه الحنين فيعود الى مرجريت ويعلم أنها سجينة وييسر لها وسائل الخلاص من

السجن فتأبى وتتقبل العقوبة المنتظرة للتكفير عن جريمتها ، ثم تصعد روحها الى السماء فيقول القائلون : لقد هلكت . وتهتف الملائكة : لقد نجت باذن الله !

ويمضى فاوست فى تجـــربة أخرى غير تجربة العشـــق والغواية ، فيرتفع فى عينى الملك وينال مايرضيه من السلطان بالحظوة لديه ، وبطمعــه الشـيطان فى المزيد من الجاه والملك فيماوده الحنين الى العشق وغواياته ، ويسوم شيطانه هذه المرة أن يبعث له الفاتنة «هيلينا» من الاموات فيبعثها ويأتى بها اليه ، ولكنها تراوغه اذ يضمها الى ذراعيه ، فلا يجد منهـــا غير جلبابها فى يديه !

وكان فاوست بعد مصرع مرجريت قد آلى على نفسه ليذوقن كل الم يبتلى به بنو آدم لينسى جنايته على الفتاة البريئة وعلى أمها وأخيها ، ويخشى الشيطان عاقبة هذا الندم فيشغله عنه بدسائس القصر وضجته ، ويوشك أن ينسيه الندم لولا سآمة ترين على صدر العالم الحكيم فيزهد فى كل ما احتواه ويربأ بعقله وحكمته عن هذه الصغائر التى تلهيه . ويسأل : أين هى السعادة ؟ فيعلم أنه لم يجدها قط فى لهوه الاول ولا فى لهوه الاخير ، ثم يلوح له أن يستخدم علمه فى تعمير الخراب واصلاح البوار ومعونة الضعفاء ، وانه لكذلك اذ تحين ساعته وتخرج روحه ، فيهم الشيطان بقبضها للهبوط بها الى الجحيم ، وتتنزل الملائكة من السماء فتنازعة عليها وتقول له انه قد خسر الرهان . لان فاوست على ما اقترف من جريمة ورذيلة ، قد عاش وهو يتجه بعينيه الى النور ومات وهو متجه اليه



واغرب الشياطين الشعرية كافة ذلك الشيطان الذى ابتدعه

خيال وليام بليك بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وليس هو على هذا بأغرب من خيال الشاعر الذي ابتدعه . فانه شاعر فى العصر الحديث يدين جدا وصـــدقا بالمذهب الثنوى ومذهب المعرفيين « Gnostics » الذى ذهب معتقدوه بذهاب القرون الوسطى

كان بليك من أتباع المتنبىء السويدى سويدنبرج ، وكان سويدنبرج من أصحاب الرؤى المصدقين لما يعتريهم من حالات الوجد والنشوة الدينية ، ووقر فى خلده بعد أن جاوز الخمسين فى منتصف القرن الثامن عشر أنه يتلقى الوحى من عالم الغيب فاعتزل وظائف الدولة وأعلن خروجه على المذاهب المتبعة وبشر برسالته التى سماها المسيحية الحقة ، وفسر الكتب المسيحية تفسيرا يخالف التفسيرات التى اعتمدتها الكنائس الكبرى ؛ ثم هجر وطنه وأقام بالعاصمة الانجليزية حتى مات بها (سنة ١٧٧٢)

ودرج بليك فى حجر اسرة انجليزية تدين بمذهب سويدنبرج ولكنه انقلب عليه ولم يرجع الى مذهب من مذاهب الكنائس المعروفة ، بل راح يستقل بتفسيراته وتأويلاته على حسب ما يستوحيه من تفكيره والهامه ، ولم يكن على علم بشىء من اللاهوت ولا من معارف عصره ، لانه لم يدخل مدرسة منتظمة فى صباه

وشيطانه يصح أن يكون فكرة مجردة كما يصح أن يكون روحا انسانيا أو ملكا من الملائكة المغضوب عليهم ، بل يصح أن يكون عنوانا يضعه الشاعر على كل «شخصية» مفروضة تنتمى الى الشر والخباثة ، وعنده ان الشر كل الشر هو الصرامة فى الاوامر والنواهى والتشدد فى المحللات والمحرمات . فكل رب جاء عنه فى الاساطير الغابرة والديانات الاولى وصف العبوس

والجهامة واتسم فى ضمائر عباده بالقسوة والصرامة فهو شيطان يترقى فى الشيطانية على حسب قسوته وصرامته الى منازل الآلهة الوثنيين المنعوتين بآلهة الشر أو آلهة الظلام . ومن أوهامه التى لايدرى أحد أهى أوهام شعر أم اوهام اعتقاد ثابت ـ ان روح الشاعر ملتون حلت فيه لتكفر عن خطيئتها فى تصوير السيد المسيح وتصوير ابليس ، وان الكتب القديمة أدخلت فى اذهان الناس أن الانسان ذو حقيقتين جسدية وروحية ، وأن نشاط الجسد من الشيطان ونشاط العقل من الروح ، وأن الله يعذب الانسان عذاب الابد لمطاوعته بواعث جسده ، ولكنه من الحق الذى يناقض هذا أن جسد الانسان غير منعزل عن روحه لان حواس الجسد هى منافذ الروح الى المعرفة ، وان النشاط كله من الجسد دون غيره وليس العقل الا الحدود التى تحيط بذلك النشاط ، وأن النشاط هو الفرح الابدى وماعداه كسل واحجام عن الحياة

ولم ينشر بليك مؤلفاته لانه كان يمقت الطباعة ويناظرها بأدوات من اختراعه للنقش والرسم والكتابة يرى أنهـــا أليق بالوحى الروحانى من تلك المطبوعات الصناعية . وقد جمعت آثاره بعد موته من قصاصات مشعثة كان يدون فيها خواطره ويتم بعضها ويترك بعضها مبتورا فى نهايته أو مبتورا فى أوله ووسطه ، وهذه شذرة منها تعود أن يدونها بعنوان «خطرة مذكورة» وفى الخطرة التالية عن الشيطان والملك يقول :

«رأيت يوما شيطانا فى لهيب النار يرفع هامته الى ملك جالس على سحابة ، ويصيح به : اسمع ياهذا . ان عبادة الله هى تمجيد هباته لغيرك على قدر هذه الهبات ، واختصاص أعظم الناس بأعظم المحبة ، وما الذين يحسدون العظيم أو يفترون

عليه الا أعداء لله • فلا اله غير ذاك »

وسمع الملك مقاله فازرق ثم ملك جأشه فاصفر ثم سكن فابيض وعلته حمرة وابتسامة، وقال : «ياعابدالصنم ! اليس الله بالاله الأحد ؟ أليس الله قد تجلى فى عيسى المسيح ؟ أليس المسيح قد بسط بركته على الوصايا العشر ؟ أليس سائرالناس حمقى وخطاة وعدما ونكرات ؟ »

ثم يلقى بليك على لسان الشيطان ردا يقول فيه : «اذا كان المسيح أعظم انسان فأحببه حبك للانسان الاعظم» .. ثم يحكى له الشواهد من اعمال المسيح ناقضا ما يفهمه الاكثرون من الوصايا العشر ، ويختم هذه الشواهد قائلا : «لقد كان عيسى فضيلة كله ، لانه كان يعمل بباعث عطفه ولا يتقيد بالقيود»

وكل ما القاه بليك على السنة الشياطين فهو من قبيل ماتقدم، مع التناقض الذى لايثبت فيه غير معنى واحد وهو التبرم بالاوامر الصارمة والفضائل الجافية ، والتفكير المنتظم ، وقد قال عن الملائكة أنها تحسب انها دون غيرها تتحدث بالحكمة ، وكل من يفكر على قياس مطرد خليق أن يغتر هذا الغرور ، واكثر النتف التى تركها تحمل عنوان الخطرة المذكورة وتجتمع فيها هذه الخطرات بعنوان القران بين السماء والجحيم ، وينعقد قران السماء والجحيم ولقاء الملك والشيطان فى رأيه بالعمل الذى يصدر من الحب ونشاط الجسد منبعثا بوحى الفطرة الصادقة

فالشيطان على هذا الاعتبار جيوش من الشياطين يجسمها القارىء أو ينظر اليها كأنها معانى الشاعر فى قريحته مطلقةبغير تجسيم وبغير شخصية مرتسمة فى الحس أو الخيال

وبعد شيطان بليك ــ أو شياطينه ــ لاتحفظ تواريخ الادب

الغربى صورة لشيطان شعرى عمل فيها الفن وبواعث النفس وحوادث العصر غير شيطان كردوتشى شاعر الثورة الايطالية (١٨٧٠ ــ ١٩٠٧) وصاحب جائزة نوبل قبل وفاته بسنة

وتكاد قصيدة الشيطان من نظم كردوتشى أن تكون نشيد صلاة وقد سماها هو نشيدا ونظمها على وزن التراتيل التى تنشد فى الصلوات ، وقال فيها انه لايحفل بالتاريخ القديم تاريخ حرب الشيطان مع الملك ميكائيل ، وأنه يحيى ابليس لانه قاهر الكهان ورافع علم الثورة ، ويناديه : لاتهرب منى حين اناجيك . فاننى أود أن انطلق اليك بروحى ولا يكفينى أن التقى بك فى الشعر والخيال ، ويختم النشيد قبل المقطوعة الاخيرة قائلا :

« انك ايها الشيطان العظيم . انك تعبر البحار وتطوى الارضين . انك تنفث الدخان كالبركان وتجوس خلال الديار ، وتمضى حيث تشاء كما تشاء »

وانطلاق الشيطان ، مع سخريته بالكهان ، هما آية الحرية عند كردوتشى الثائر على طغاة الدنيا والدين ، ولا يبعد أن يكون الشاعر ــ كما قال ابن وطنه جيوفانى بابينى ــ متأثرا بأستاذه ليوباردى فى قصيدته عن اله الشر أهريمان صاحب القضاء النافذ فى الوجود كله ، منفردا ــ فى رأى ليوباردى ــ بغير شريك من أرباب الخير أو ملائكته فى الزمن القديم أو الزمن الحديث

ونحن فى هذه العجالة يجزئنا ماتقدم فى باب شياطين الشعراء التى عمل فيها الفن واصطبغت بصبغة البواعث النفسية والحوادث السياسية ، ولم يستوعب هؤلاء الشعراء الذين ذكرناهم كل مايقال عن ابليس أو عن الشياطين كما يعتقدها اتباع المذاهب منذ القرون الوسطى ، فقد كان أكثر الشعراء

يجربون قرائحهم فى مأساة آدم والشيطان ، ولعلنا نحيط بهذا العيلم الزاخر اذا عرفنا ان رجلا مثل هوجو جروتيوس (١٥٨٣ ـ ١٦٤٥) الملقب بأبى القانون الدولى قد جرب قلمه وقريحته فى هذه المأساة ، وكان معاصرا للشاعر ملتون فانتشرت قصائده الى جانب القصائد الخالدة التى نظمها ذلك الشاعر المعدود اليوم فى الذروة بين اشعر شعراء العصور

وبعد زهاء قرنين أوحى اسم هوجو الى سميه الفرنسى الكبير فكتور هوجو (١٨٠٢ ـ ١٨٨٥) أن يجرب قلمه وقريحته على نمطه ، فنظم قصائده فى خاتمة الشيطان ونادى بموته ولحاقه بابليس جاحد ربه بين عقول كالخفاش الذى يخاف النور أو البومة التى تستهدى الظلام والغراب الذى يُسلم الفضاء للنسر والعقاب والعنقاء ومن فوقها مرمى السهام التى لاتبلغ الهدف الا من وراء قناع الموت ! ودون ذلك كله وتنحسر أشواط الابالسة والشياطين

الا أن هذا المحصول الزاخر لايزيدنا لونا من الوان الصورة فى ضمير المؤمن أو فى قريحة الشاعر ، وهذا الذى تحريناه فى اهمال ما اهملناه والالمام بما أشرنا اليه . بيد أننا لانستطيع أن نهمل هنا صورة شيطانية تقترن باسم الشاعر الفرنسى بودلير صاحب ديوان « أزهار الشر » وناظم القصائد فى الابتهال الى الشيطان « احكم الملائكة الذى سرق منه القضاء ثناءه والذى سجل عليه الطرد والحرمان من لايزال يخطىء ويغلط » . فان هذا الشيطان عارض نفسانى يصور الانعكاس فى السريرة المشوهة فتتعمد التوجه اليه على سبيل النقمة والنكاية وتصلى اليه ليشفق عليها كأنها تستجدى الشفقة الالهية ـ عكسا ـ بلسان اليأس والكبرياء

وفيما عدا شيطان بودلير لانرى فى هذا الفصل موضـــما للشـياطين التى تخيلها الشعراء ولم تدخل فى عداد الصـــور الخلقية وخوالج الوجدان فى الانسان منفردا او جزءا من أجزاء الجماعة . فالشاعر الروسى لرمنتوف خلق فى احدى قصصه شيطانا لايعدو ان يكون انســــانا متنكرا يزاحم الناس على العشق والشـهوة ، والشاعر الانجليزى بيرون خلق شيطانا فى قصيدته « رحلة الشيطان » لا يعدو أن يكون مخبر صحيفة يروى للقراء مايروى فى المجالس النيابية ومجالس السمر ، وغيره من الشعراء قد اختار اسم الشيطان ليجرى على لسانه كلاما يجريه بعض الشعراء الآخرين على ألسنة الطير والحيوان أو على ألسنة الشجر والجماد

أما الشيطان الذى نعرض هنا ذكره فهو الشيطان الذى يحوم فى النفس الانسانية وبين الجماعات البشرية فى تقاليدها وموروثاتهـا ومقاييسها لخيراتهـا وشرورها ، وهو الشيطان الذى يطيف به خيال الشاعر معبرا عن شعوره ، وان لم يكن من عقائد دينه ، كالشياطين التى سميت بأسمائها فى الادب العربى . هبيد ومسحل والهوجل وجهنام ، أو كالشياطين التى يعتقدها المتدين ويفتن الشاعر فى تصويرها لامتيازه بملكة الخيـــال وملكة الرمز والتشخيص ، فهـــذه الشياطين قوى مشتركة فى طبائع الناس وقيم نفسية يقومها الناظرون فى الاخلاق والطباع ، ولو رفعناها منها بأسمائها لبقى مكانها متطلبا منا ان نسميها بغير تلك الاسماء ، لانها لاتقبل السكوت عنها ولا تغفلها الحياة ان اغفلها اللسان (١)

---

(١) اهملنا فى هذا الفصل ما كتبعلى سبيل الهزل فى قصص الفكاهة : كقصةرابيليه الفرنسى ، وبن‌جونسون‌الانجليزى ، فانهما صـورا الشيطان غرا مغدوعا ليبالغا فى دهاء الفلاحين اوالمرابين ، ولم يقصدا الجد فى تصـوير شيطان معلوم ، او تصـوير الخـلائق‌الشيطانية على العموم

فى الادب العــربى

يندر فى الادب العربى تمثيل الشياطين الشعرية من قبيل تلك الشــياطين التى حفلت بهــا ملاحم الشــعراء الغربيين وقصائدهم ، لان شعراء العرب لم ينظموا الملاحم التى يتمثل فيها ابطالها بملامحهم الظاهرة وملامحهم الخفية . ونحسبهم لو نظموا هذه الملاحم لما كان للشيطان فيها هذا الشأن الذى أصابه فى أدب الغرب شعرا ونثرا . لان الادب العربى لاينسب الى الشيطان دورا فى قصة الخليقة والخلاص كالدور الذى ينسب اليه فى عقائد الادباء الغربيين ، فاذا نظم الشاعر العربى ملحمة عن الخليقة لم يكد يفعل فيها الشيطان فعلة غير ذلك الوسواس الذى يطرأ على كل سريرة آدمية فى ساعته كما طرأ على سريرة آدم أو سريرة حواء

واذا تخيل المتخيل صفة للشيطان فى كلام شاعر عربى فلا نظنه يخرج منه بصفة غير تلك الصفة التى لخصها أبو نواس فى خليط من الخبث والحماقة ، لانه

تاه على آدم فى ســــجدة
وصـــــــار قوادا لذريته

وربما تكرر من الشعراء الذين يشخصونه لانفسهم ذلك الحوار الذى دار بينه وبين ابى نواس : حوار من يستعين بابليس على شهواته ويتوعد ابليس ان يتوب عن المعاصى ان لم ييسر

له ما يشتهيه ، وقد كان ابليس على هـذه الصفة عند الشاعر الذى قال فيه :

ابليس أكرم من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الاشرار
النار عنصره وآدم طينـة والطين لايسمو سمو النار

وذلك هو بشار بن برد الذى كان يتظرف بأمثال هذه البدوات ولا يأتى فيها بجديد من عنده ، لان المفاضلة بين العنصرين أقدم من بشار وأقدم من كل ماقاله الشعراء المسلمون عن ابليس ، ولم تخطر صفة ابليس على بال احد من المتقدمين فى الاسلام الا كان يعلم أن ابليس من عنصر النار

على أن موضع ابليس من رسالة الغفران لابى العلاء يشبه بعض الشبه مواضعه من ملاحم الشعراء الغربيين . فقد ذهب فيهـا الى أودية ليست كأودية الجنة فسأل صاحبه بعض الملائكة : ماهذه ياعبد الله ؟ فقال له : هذه جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكروا فى الاحقاف وفى سورة الجن وهم عدد كثير .. ويسأل أحد العفاريت عن اشعار المردة فيقول له : لقد أصبت العالم بحقيقة الامر . وهل يعرف الانس من النظيم الا كما تعرف البقر من علم الهيئة ؟ ثم يسأله عن اسمه فيقول انه يدعى الخيثعور وانهم من غير ولد ابليس ، وانهم من الجن الذين سكنوا الارض قبل آدم عليه السلام

ويلقى فى جنة العفاريت شاعرا يسمى ابا الهدرس فيسمعه من نظمه قصيدة يقول فيها عن ايام طاعته لابليس :

نحارب الله جنـودا لأبلـ يس أخى الرأى الغبين البخيس
نسـلم الحكم اليه اذا قاس فنرضى بالضلال المقيس
نزين للشـارخ والشيخ أن يفرغ كيسا فى الخنا بعد كيس
ونقترى جن سـليمان كى نطلق منها كل غاو حبيس

ونخرج الحسناء مطرودة من بيتها عن سوء ظن حديس
ونخدع القسيس فى فصحه من بعد ما منى بالانقليس
ونعجل السعلاة عن قوتها فى يدها كشح مهاة نهيس
نادمت قابيل وشيثا وها بيل على العاتقة الخندريس

وفى اقصى الجنة يلقون الحطيئة والخنساء ، ويسألون الخنساء عن شأنها فتقول : احببت أن أنظر الى صخر فاطلعت فرأيته كالجبل الشامخ والنار تضطرم فى راسه فقال لى : لقد صح مزعمك فى :

وان صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى راسه نار

قال ابو العلاء عن صاحبه : « فيطلع فيرى ابليس لعنة الله وهو يضطرب فى الاغلال والسلاسل ، ومقامع الحديد تأخذه من أيدى الزبانية ، فيقول : الحمد لله الذى أمكن منك ياعدو الله وعدو أوليائه ، لقد أهلكت من بنى آدم طوائف لايعلم عددها الا الله ، فيقول : من الرجل ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان من أهل حلب كانت صناعتى الادب اتقرب به الى الملوك . فيقول : بئس الصناعة ، انها تهب غفة — أى بلغة من العيش — لايتسع بها العيال ، وانها لمزلة بالقدم . وكم أهلكت مثلك ! فهنيئا لك اذ نجوت ، فأولى لك ثم أولى . ان لى اليك حاجة فان قضيتها شكرتها لك يد المنون . فيقول : انى لا أقدر لك على نفع ، فان الآية سبقت فى أهل النار ، أعنى قوله تعالى : «**ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . قالوا ان الله حرمهما على الكافرين** »

« فيقول ابليس : انى لا أسألك فى شىء من ذلك ، ولكنى أسألك عن خبر تخبرنيه . ان الخمر حرمت عليكم فى الدنيا واحلت لكم فى الآخرة ، فهل يفعل اهل الجنة بالولدان المخلدين

فمل اهل القربات ؟ فيقول : عليك البهلة . أما شغلك ما انت فيه ؟ اما سمعت قوله تعالى : ((**ولهم فيها ازواج مطهرة، وهم فيها خالدون**)) فيقول : وان فى الجنة لأشربة كثيرة غير الخمر ، فما فعل بشار بن برد ، فان له عندى يدا ليست لغيره من ولد آدم . كان يفضلنى دون الشعراء وهو القائل :

ابليس افضل من ابيكم آدم   فتبينوا يا معشر الاشرار
النـار عنصره وآدم طينـة   والطين لا يسمو سمو النار

لقد قال الحق ، ولم يزل قائله من الممقوتين

فلا يسكت من كلامه الا ورجل من أصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر الى ما نزل به من النقم ، فيفتحهما الزبانية بكلاليب من نار ، واذا بشار بن برد قد أعطى عينين بعد الكمه لينظر الى مانزل به من النكال »

وكل ماجد بعد المعرى من كلام يدخل فى باب القصة من الادب ويذكر فيه الشيطان ــ فهو تلك القصص التى جمعت باسم الف ليلة وليلة واقتبس رواتها ماتداولته الالسنة من اخبار السحرة وتسخير المردة وقيام الجان على ارصاد الطلاسم أو حبسها فى الاغوار والقماقم ، وهى لاتأتى بابتداع أو اختلاف او زيادة على مااعتقده الناس ونظمه الشعراء

ولم يطرأ على الادب العربى جديد فى هذا الباب حتى مطلع القرن العشرين . ثم نجمت فى أوائل القرن العشرين نوازع شتى للتوسع فى الاطلاع على آداب الامم والبحث فى موضوعات الشعر وتعبيراته عند تلك الامم ، ومن موضوعاته الملاحم المطولة ، ومن تعبيراته تجسيم المعانى المجردة والعناصر الطبيعية وأرواح الغيب وكائناته المشبهة بتماثيل الاحياء

ونحن فى هذا الباب خاصة لانبحث بحث المؤرخين أو النقاد

الاوربيين ، وانما نراجع ما أحسسناه واختبرناه ، ونفهم بواعث النظم والتأليف فى هذه الاغراض مما عالجناه وانبعثنا اليه بوحى الاطلاع وعدوى الخواطر التى يوحيها

أول ماخطر لنا ان نقارن بين التشبيهات والمعانى المجسمة فى اللغات الاوربية واللغة العربية ، وكتبنا فى هذه المقارنة عن الكائنات الخفية وعن عجائب المخلوقات وعن الاساطير ، مما يطلع عليه القارىء فى كتاب « الفصول » ومجمع الاحياء ، واحسسنا الحاجة الى تصوير بعض العواطف بصورتها الشعرية التمثيلية ، فأخذنا فى وقت واحد فى نظم قصيدة عن سباق الشياطين وتأليف كتاب نسميه « مذكرات ابليس » ونخصص كل فصل منه لغواية من الغوايات كالعشق الاثيم والسرقة والبغى والطمع وسائر هذه الآثام التى تذكر كلما ذكر الشيطان ، وكان ذلك حوالى سنة (١٩١٢) وبعد الاطلاع على طائفة من ملاحم الغرب واساطيره . فأما سباق الشياطين فقد تمت القصيدة التى نظمناها فى موضوعه ، وأما مذكرات ابليس فلم يتم منها غير فصل واحد من فصول الاعور بن ابليس الموكل بالعشق الاثيم ، ثم بقيت النية مترددة حول هذا المطلب حتى تحولنا عنه بعد الحرب العالمية الاولى الى موضوع القصيدة التى سميناها « ترجمة شيطان » ونشرت فى الجزء الثالث من الديوان

وحوالى هذا الوقت ألف صديقنا الشاعر العبقرى الاستاذ عبد الرحمن شكرى كتابه النثرى الذى سماه « حديث ابليس » وقال فى مقدمته : « قد بدأ يكثر فى آداب اللغة العربية البحث النفسى والتساؤل والتفكير والتعبير عن حركات النفس وبواعثها ، ولكن كل ذلك لم يزل بعد قطرة لانعرف ان كان

وراءها سيل أتى . وهذا الكتاب فيه شيء كثير من البحث النفسي والتساؤل والشك والسخر الذى هو محرك يحـرك النفوس ويوقظها فهو يعبر عن تلك الدنيا التى فى كل نفس ، ففى فصل نصيحة ابليس مثلا ترى تحت السخر المودع فى هذا الباب ما أرمى اليه من معائب النفوس الجامدة القبيحة التى تشبه مباول الطرق ، وقد جعلت ابليس ينصح بما ينبغى الانتهاء عنه »

وقد أطلعنا بعد الحرب العالمية الاولى على محاولات منوعة فى هذه الاغراض لم يكن منها مابلغ فى جودته مبلغ العمل الفنى خلال ثلاثين سنة أو تزيد ، ومنها مانظم فى مصر وما نظم فى غيرها من البلاد العربية ، حتى ظهر ديوان « عبقر » للشاعر السـوري الاستاذ شفيق معلوف من صـفوة أدباء المهجر بالبرازيل ، وكان ظهوره فى الطبعة الاولى سنة ١٩٣٦ وأعيد طبعه فى سنة ١٩٤٩ ثم ظهرت قصة «الشهيد» لزميلنا الكاتب الموهوب الاستاذ توفيق الحكيم ، وهى قصة صغيرة من مجموعة قصصية صدرت سنة ١٩٥٣ وتعد على صغرها من أجود ماكتب فى هذا الغرض فى جميع اللغات

اما قصيدة « سباق الشياطين » فخلاصتها ان ابليس جعل لتلاميـذه جائزة ينالها من يعرض أعمـاله ويثبت للملأ من الشياطين قدرته على السبق فى التضليل والاغواء . فانبرى سبعة من الشياطين يتنافسون عليها وهم : شـيطان الكبرياء وشيطان الحسد وشيطان اليأس وشيطان الندم وشـيطان الحب وشيطان الكسل وشـيطان الرياء ، فاستحقها هـذا الشيطان الاخير ــ شـيطان الرياء ــ ولكنه جرى على عادته فاظهر الزهد فيها وتنحى عن تناولها بعد اشتراكه فى المنافسة

عليها فخاطبه ابليس :

قال تاباهــا ولولاك انجلى　　غيهب الارض فكانت كالنعيم
دونك الدنيا اتخــذها منزلا　　وتول اليوم أبواب الجحيم



وقصيدة « ترجمة شيطان » هى قصة شيطان ناشىء سئم حياة الشياطين وتاب عن صناعة الاغواء لهوان النــاس عليه وتشابه الصالحين والطالحين منهم عنده ، فقبل الله منه هذه التوبة وأدخله الجنة وحفه فيها بالحور والعين والملائكة المقربين.

غير أنه سئم عيشة النعيم ومل العبــادة والتسبيح وتطلع الى مقام الالهية لانه لايستطيع أن يرى الكمال الالهى ولا يطلبه ثم لايستطيع أن يطلبه ويصــبر على الحرمان منه . فجهــر بالعصيان فى الجنة ومسخه الله حجرا فهو مايبرح يفتن العقول بجمال التماثيل وآيات الفنون ، واستضحك ابليس بين جنده يوم انتهى المطاف بتلميذه آلى هذه الخاتمة ، فقال :

ما أرى هـــذا الفتى من دمنـــا
ومتى استغوى الشياطين الشرك
اترى شـــيطانة من قومنـــا
اغوت الاملاك فهـــــو ابن ملك

.. ..

فتلاحى القـــوم ثم اســتضحكوا
ودعا مازحهـــــــــم شر دعاء
قال : فلتسلــكه فيمن ســلــكوا
أيهـــا المولى ســبيل الشــهداء

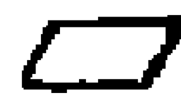


والسمة التي يتسم بها ابليس فى رسالة الاستاذ عبد الرحمن

شكرى هى سمة النقد الساخر تسرى فى الحديث من أوله الى ختامه ، ويدل بعضها علىها كقول ابليس عن أخلاق الانسان والحيوان : « اننى ارى فى الحيوانات العجم خصالا هى فى الانسان ضئيلة خافية . فللكلب من الوفاء والامانة ما ليس للانسان ، وللخيل من الود والولاء ما لا يبلغ بعضه الانسان ، وللبغال والحمير من الصبر والحزم ما ليس له ، وللقرود من الذكاء والفطنة وحب التقليد ما ليس له ، ولو فطنتم يا بنى آدم لرأيتم ان تزوجوا بناتكم من البغال والحمير والكلاب والقرود لكى يكتسب نسلهن بالوراثة من حميد صفات هذه الحيوانات .. ولا تحسب أن النساء ينزعجن من هذا الزواج فانهن قد الهمن فضائل الحيوانات وهذا تفسير ميلهن الى صغار الكلاب والقرود ... »

أو كقول أحد الشياطين : « .. فالتفت ابليس الى وقال : سمعت أحد الملائكة يقول لحافظ من الحافظين وهو الملك الذى يحصى ذنوب الناس : مالى أراك منتوف الجناحين ؟ قال الملك : عافاك الله من الناس ، فانى استخدم ريش جناحى كما تعلم فى كتابة ذنوبهم ، وقد تكاثرت على ذنوبهم حتى برت ريش جناحى وأتلفته وانا كلما تلفت ريشة من كثرة الكتابة نتفت من جناحى ريشة أخرى حتى نفد ريشى ولم تنفد ذنوب الناس »

وختم الكاتب الرسالة بكلمة عن عظم الوجود وغرور الانسان ، ونصيحة من روح الابد يقول فيها للانسان الذى يخاطبه : « اذهب الى مكانك من الارض ولا تنس الوجود فان احساسك بعظمته فيه معانى العبادة كلها »



ونظم شاعر المهجر البرازيلى الاستاذ معلوف ديوان عبقر

مقسما الى قصائد يروى فى كل قصيدة منها نبأ عن ولد من اولاد ابليس أو بعض الشياطين ، فيقول مثلا عن الشيطان « داسم » ابليس النقائص :

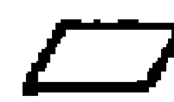
وجاءنا ثانى ، ابناء عزريل
سحنة شيطان ، فى منكبى غول
وقال فى دهاء ، ويك أنا الكاسى
بالخبث والرياء ، نقائص الناس



لما أممت الارض فى زورة
استعرض النقائص العارية
ألفيتها والناس قد مزقوا
اجسادها فى فتنة دامية
فرحت اكسو بيدى عريها
بحلل براقة زاهية



فاندست الكبرياء ، تحت حجاب الحسب
وتحت ستر الاباء ، غلغل وجه الغضب
وانقلب العناد ، بين الورى حزما
وصار الاستبداد ، فى عرفهم عزما



ويقول عن الاعور أبليس الشهوة :

وذاك أعور ، اطل ينظر ، من ظاهر الهوة
وقال انى أنا ، حامى ذمار الخنا ، والعهر والشهوة
شرارتى فى العيون ، حريقة فى الدم
أنا مثير الجنون ، والفم لصق الفم

ما اتكأ العاشقون ، الا على معصمى
كم ذاق خمرى عاشق فالتوى
معربدا فى سكرات الهوى
مهدما ببعضه بعضه
وهو على الانقاض يبنى السوى

وختم الديوان بقصيدة عن العبقريين قال فيها عن اهل الخلود من أبناء عبقر :

وثمة استجليت صوتا دوى
ولم اجده لذهولى سوى
جماجم أرواحها غلغلت
تصخب فيها من خلال الكوى
فصاحت العظام ، أعطى الذى اخذ
لم تظفر الايام ، منا بغير الفلذ
فكن عش الغرام ، وصرن مأوى الجرذ
لكنما احلامنا لم تزل
ترقص سكرى فوق غلف المقل
حاملة للناس خمر الهوى
مشعة خلف كؤوس الامل

والغالب على ديوان عبقر روح غنائية يسعدها خيال موفق فى كثير من تشخيصاته وما ينطق به لسان الحال من تلك الشخوص المخيلة



وهذه الجوانب المتعددة من صور الشيطان فى الادب العربى الحديث تتم من جانبها الفنى بقصة « الشهيد » للاستاذ توفيق الحكيم ، لانه أعطى الشيطان دوره المحتوم فى مسرح الكون ،

وجعله كما هو فى الواقع دورا لا حيلة فيه له ، ولا لأصحاب الاديان الذين يلعنونه ويستنكرونه . ولكنه يلجأ اليهم ليتوب على أيديهم فلا يدرون كيف يقبلون توبته ، فان الحبر المسيحى لايملك أن يتصرف فى عقيدة الخطيئة والخلاص ، والربانى اليهودى لايملك أن يتصرف فى مكان شعب الله المختار بين الامم التى أضلها الشيطان على اعتقاده ، والامام المسلم لايملك ان يتصرف فى التعوذ من الشيطان الرجيم ، ويصيح ابليس يائسا : « وجودى ضرورى لوجود الخير ذاته ... نفسى المعتمة يجب ان تظل هكذا لتعكس نور الله » ويبكى ابليس فتتساقط دموعه كالنيازك على رؤوس عباد الله ، فينهاه جبريل عن البكاء ويحيق به اليأس من كل جانب ، فيهبط الى الارض مستسلما « ولكن زفرة مكتومة انطلقت من صدره وهو يخترق الفضاء ... رددت صداها النجوم والاجرام فى عين الوقت كأنها اجتمعت كلها معه لتلفظ تلك الصرخة الدامية : أنا الشهيد . أنا الشهيد»

ومن الحق أن نلحق بما تقدم لونا آخر من ألوان الحديث عن الشيطان فى الشعر العربى ، لم نثبته مع الصور السابقة لأنه من ألوان الرأى لا من ألوان التخيل والتصوير ، ولكنه لا يهمل كل الاهمال فى هذا المطلب لأنه رأى بيديه صاحبه فى حقيقة الشيطان

ذلك هو رأى الاديب العراقى الكبير جميل صدقى الزهاوى ومجمله أن الشيطان هو الانسان الذى يخدع غيره لغاية من غاياته :

لا يخدع المرء انسانا لغايته الا اذا كان ذاك المرء شيطانا

وأما الشياطين والعفاريت فقد حدث الكتاب الكريم فى ذكرها ، وأخطأ المفسرون كما قال فى حساب الملكين :

غير أنى أرتاب من كل ما قد عجز العقـــل عنه والتفكير
لم يكن فى الكتاب من خطأ كلا ولكن قـد أخطأ التفســير

فهذا المطلب على حداثته فى الادب العربى قد أحيــط من جوانب متعددة. وهو ـ ولا شك ـ لايساوى نظائره الاوربية فى استفاضتها ولكنه يساويها فى طبقتهـا اذا أسـقطنا من أدب الغرب ما استعاره من قصة الخليقة وما كان لهذه القصـة من القداسة الدينية التى لم يخلقها ابتكار الشعراء والادباء



فى العصر الحاضر

اذا أخذنا باحصاء الكلمات والتعبيرات للحكم على مقدار انتشار الافكار والعقائد ـ جاز لنا أن نقول أنالحضارةالعصرية أكثر الحضارات ايمانا بوجود الشيطان وعمله الدائم فىالنفس البشرية والبيئات الاجتماعية. فان كلمة الشيطان والشيطانية والشيطنة من أشيع الكلمات فى كتابة الاوربيين العصريين ، ومنها ما يشتق من كلمة الشيطان بنطقها الشرقى ، أو يشتق من الكلمات اليونانية والسكسونية بلفظها القديم ولفظها المتداول فى العصر الحاضر

ولكننا سنرى مسألة الشيطان هذه من أقوى المكذبات لطريقة الاحصاء الآلية : طريقة الحكم على الافكار والعقائد بعدد الكلمات والعبارات . فان كلمة الشيطان كانت علما على « شخصية » الكائن الشرير فأصبحت على ألسنة القوم معنى لغويا لا تؤديه كلمة أخرى فى مدلوله . لأنه يؤلف فى كلمة واحدة بين الاعمال الشيطانية بجملتها ، ويفهم منه الكيد والخبث والمهارة والنفاق وحب الأذى وكل معنى يناقض الاستقامة والصلاح ، وأكثر ما تستخدم الكلمة ومشتقاتها فانما تستخدم بمعناها هذا الذى انتقل من ألفاظ الاعلام الى ألفاظ المعانى والصفات

وقد أصبح استخدام هذه الكلمة كاستخدام السيد المسيح لكلمة « مامون » حين عبر بها عن سيادة المال والجشع ، فقد

كانت الكلمة في اللغة السريانية علما على رب يزعمون أنه رب المطامع الدنيوية ، فكان السيد المسيح يقول لتلاميذه انكم لا تستطيعون أن تخدموا سيدين ، ولا تستطيعون أن تنالوا رضى الله ورضى مأمون ، ولم يكن عليه السلام يصدق عقيدة السريان في مأمون ، ولكنه كان يقولها ويعلم أن سامعيه يفهمون عنه ما أراد ، وهو التعبير عن الجشع ومطامع الاشرار

وبهذا المعنى المجازى تشيع كلمة « الشيطنة » فيما يكتبه أبناء الحضارة الاوربية الحاضرة ، وقد يكتبها الملحدون الذين ينكرون وجود الكائنات الغيبية كما يكتبها المتدينون الذين يؤمنون بوجود الشيطان ويختلفون في عمله وفي مدى قدرته، وكلهم في العصر الحاضر يسمعون باسم الشيطان فلا يتخيلونه على الصورة التي كانت تسبق الى خيال السامع في القرن الرابع عشر وما قبله أو بعده بقليل

وقد ظهر في باريس عند أواخر القرن الرابع عشر كتاب عن وصايا الشيطان التي يقابل بها وصايا الله ، فجمعها في ست وصايا خلاصتها العناية بالنفس دون غيرها ، وألا يعطى المرء شيئاً بغيرجزاء ، وأن يتناول طعامه منفردا ولايدعو أحدا اليه، وأن يقتر على أهله وأن يحتفظ بالفتات من مائدته والاسمال من كسائه وأن يقنطر المال عنده طبقة فوق طبقة ... وهذه رذائل القرن الرابع عشر كما أحصاها بنوه بين الجد والسخرية، وانها اليوم لفضائل العصر الذى يسمى بعصر التدبير والاقتصاد والانانية الفردية ، ومن أجلها تسمى الحضارة العصرية بالحضارة الشيطانية !

ومن البديه أن المتحدثين عن الشيطان في حضارة العصر لا يقصدون جميعا هذا المعنى المجازى ولا يقصرونه جميعا على

الصفات دون الاعلام والاسماء • فان أكثرهم متدينون يؤمنون بوجود الشيطان وعقيدة المسيحية فيه ، ولكنهم ــ كما أسلفنا ــ يسمعون باسمه فلا يتخيلونه على الصورة التي كانت تسبق الى خيال السامع قبل بضعة قرون

فهم يذهبون اليوم بصرعى الجنون الى الطبيب ولا يعالجونهم عند الكاهن أو رجل الدين ، وهم يفرقون اليوم بين وساوس نفوسهم وما ينسبونه الى الشيطان من ايحاء وتلقين ، وليس للشيطان عندهم تلك المملكة الواسعة التى كانت له فى القرون الوسطى،فانها انحسرت شيئا فشيئا حتى كادت تخرج من عالم الطبيعة الى ما بعدها ، وكادت دولة الشيطان تؤول الى حالة كالحالة التى حصره فيها الاسلام : قرين سوء ليس له على قرينه سلطان



ويئول الشيطان على هذا فى القرن العشرين الى مصيرين : مصيره فى مجال العقيدة الدينية وهو الى النقصان ، ومصيره فى مجال العبارة المجازية وهو الى الزيادة ، وعلى النـاظر فى العبارات والأساليب أن يطيل النظر فى هذا المصير الاخير • أليس فيه الحجة الدامغة لبلاغة الوجــدان على بلاغة العقــل واللسان ؟ أليست هذه اللفظة الواحدة : لفظة الشيطان بلاغة وجدانية تتقاصر عن مداها فى التعبير كل عبارة تجريها اللغة مجرى الفكر و « اللفظ المركب المفيد »



من الذين زادوا فى عدد الشياطين المجازية من كتاب العصر الحاضر تولستوى حكيم الروس الكبير • فقد أضاف الى عددهم شيطان الكبرياء العنصرية ، وشيطان التعصب الديني، وشيطان

الاستعمار ، وشيطان الحرب والاستبداد

ومن الذين زادوا في عـددهم الى الملايين برتراند رسل فيلسوف الرياضة المعروف ••• فان شيطانه الذى أقامه في الضواحي رجل كان طفلا يتيما تركه أبوه لزوجة سكيرة ، تحبسه في الدار يهلك جوعا وعريا وتذهب لتسكر وتعربد في الطريق ، فاذا شكا اليها الطفل اليتيم اذ ترجع الى المنزل آخر الليل ضربته حتى يصيح ثم ضربته حتى يسكت عن الصياح • فكبر في الدنيا وهو يجهل أباه ويحقد على أمه أولى الناس بعطفه عليها لو استقامت الدنيا على السواء ، وقل ما شئت فيمن يحقد عليهم غير أمه من خلق الله ••• فهم كل خلق الله ! وفيهم الملايين من أمثاله الحاقدين على كل مخلوق

ومن الذين زادوا عددهم الكاتبة الانجليزية المعروفة مارى كوريللى ، والشيطان عندها في قصة أحزان الشيطان يشبه أن يكون صورة الخير منظورا من قفاه لا من وجهه ، وسائرا الى الوراء بدلا من مسيره الى الامام

ومن الذين زادوا في عددهم سليل بيت العلم بين الانجليز الدوس هكسلى كاتب القصة والمقال وأديب العلماء وعالم الأدباء ، فانه أخذ « اسيدى » شيطان القرون الاولى فنسخ منه ألوف النسخ بين الآدميين وجعل هذا العصر أحق به من عصور النساك والرهبان الذين رهبوه في وضح النهار ••• اذ كان من بلواه أنه لا يغشاهم مع الظلام بل يطرق عليهم قلوبهم في وهج الظهيرة ، ومع شمس الصحراء التى يهرب منها الانس والجان

كان « أسيدى » هذا شيطان الحلم في اليقظة الذى سلطه ابليس على رهبان الصعيد في عصور المسيحية الاولى ، وكان

من دأبه أن يلهيهم عن العبادة بما يزخرفه لهم من الاحلام والرؤى وهم مفتوحو العيون مستسلمون للسكون في ظلال الصوامع بين نيران القيظ في الصحراء . فاذا حلموا كسلوا ، واذا كسلوا شكوا ، واذا شكوا آل بهم الشك الى السآمة والملل وكراهة الدنيا والآخرة واليأس من الصحيح والباطل على السواء

وينقله الكاتب من القرون الاولى الى القرن التاسع عشر ثم الى القرن العشرين ، ويقول في تفسير نقلته «اننا لانزعم أن (أسيدى) من مخترعات القرن التاسع عشر . فان السآمة والخيبة واليأس وجدت قديما ولم تنقطع عن الوجود ، وابتلى الناس بآلامها فيما مضى كما نبتلى بها الآن ... غير أنهـــا في العصر الحديث قد طرأ عليها ما يجعلها موقرة مرعية ولا يجعلها كما كانت خطيئة محظورة أو يجعلها مجرد عرض من أعراض السقم ... وهذا الذى طرأ عليها انما هو التاريخ كله منذ سنة ١٧٨٩ .. انما هو اخفاق الثورة الفرنسية وذلك الاخفاق الذى يربى عليه في الضجيج والابهة وهو سقوط نابليون . فقد غرس كلاهما (اسيدى) في قلب كل فتى من الفرنسيين وغير الفرنسيين ، صدق دعوة الحرية وطمح الى أحلام المجد والعبقرية ، ثم جاءت الصناعة الكبرى بما تراكم معها من القذر والبؤس والمال الحرام ، وكان مسخ الطبائع على يد هـــذه الصـــناعة حسب القلب الكريم من محنة الحزن والاسى ، واطلع الناس فرأوا أن الحرية الدستورية التى طالما كافحوا من أجلها عبث لايغنى شيئا مع طغيان الآلات واستعبادها للنفوس ، فكان ذلك رعبا آخر من ضروب الرعب التى خيبت الآمال في القـــرن العشرين ، وزيد عليها من دواعى السآمة داع أدق وأغلب مما عداه وهو تعاظم المدن وراء كل مقدار معقول . فتعود الناس المقام بها وأحسوا

فى البعد عنها تفاهة لاتطاق ، وأطبقت البلوى عليهم فأحسوا من ضوضاء المدينة حنينا الى سآمة الريف ... وكأنما كانت هذه الضجرات فى انتظار تاج يعلوها فتوجتها الحرب العالمية الاولى»



ويعنى بالكتابة عن شيطان العقيدة الدينية أناس من طبقة هؤلاء الكتاب الذين اتخذوا من اسم الشيطان تعبيرا مجازيا عن مساوىء العصر وشروره وأدناسه ، وربما كتب المؤلف الواحد عن هذا الشيطان وذاك الشيطان كما فعل هكسلى فيما ألمنا به من كتاباته آنفا وفى كتابه الذى ألفه عن شياطين لودن « The Devils of Loudun » ... ومن قرأ هذا الكتاب علم أن هكسلى قد أراد أن يكشف عن خبيئة من السوء فى هذا الانسان الذى يلعن الشيطان لم يهبط الى ما دونها أخبث الشياطين

فالقصة التى حققها الكاتب من مراجعها التاريخية احدى المبكيات المضحكات من مآسى التاريخ التى حفلت بها صفحاته فى القرون الوسطى ، وكان فيها مظلومان مكذوب عليهما كذبا لايخفى على أحد فى الزمن الحديث ، وهما الشيطان ورجل من رجال الدين مغضوب عليه

وقد بدأت القصة باصابة بعض الراهبـــات فى بلدة لودن بالصرع واتهامهن بالتجديف والبذاء والتفوه فى نوبات المرض بكلام يخجلن منه كلما أعيد عليهن بشىء من التلميح وهن مفيقات، ولو حدثت هذه الاصابة فى العصر الحاضر لاستطاع رجل الدين كما يستطيع رجل الدنيا أن يفهم أنهن مصابات «بالهستيريا» أو بالفصام الذى تنقسم فيه شخصية المريض ، ولكن الرئيس الذى تولى البحث فى أمرهن لم يستطع أن يفهم من بذائهن فى خلال النوبة وخجلهن بعد الافاقة منها الا أن المتكلم بالبذاء أحد

غيرهن يهمه أن يعبث ببراءة الراهبات انتقاما من الله وعابداته وعابديه ، ومن يكون هذا المنتقم القادر على صرع فرائسه غير الشيطان

وسنحت الفرصة لاتهام الرجل المظلوم مع الشيطان وهو الاسقف «جرانديه» عدو الكردينال ريشليه ذى الحول والطول فى بلاط باريس ، فاتهم بالفسوق وتسليط الشيطان على الراهبات للتغرير بهن ، وصدقت احداهن أنها فريسة للشيطان باغراء الاسقف الساحر ، فرمته بالتهمة كما أوحى اليها، وقرر المحققون أنهم سمعوا اعتراف الشيطان وهو يتكلم بلسان تلك الفريسة ، فتقررت ادانة الاسقف بشهادة الشيطان ! وحكم عليه بالاحراق وهو بقيد الحياة

ولما قيل لهم أن الشيطان أبو الاكاذيب لم يعسر عليهم ان يبطلوا هذه الشبهة باضطرار الشيطان الى الصدق بين يدى أصحاب العزيمة والبرهان من المحققين الصالحين

وتمشى السخرية مع الفجيعة جنبا الى جنب فى هذه المهزلة الشيطانية ، فيحـــدث فى بعض محاضر التحقيق أن يقول الشيطان أن الســـيد لوبردمان رئيس لجنة التحقيق ديوث تخونه امرأته مع الاسقف وغيره ، ويكون لوبردمان غائبا عن الجلسة ولا يلتفت الى قراءته عند توقيعه فيضع عليه اسمه بعد السطر المعهود الذى يقرر فيه اعتماد الصدق فى كل ما جاء فيه ، ويضحك ولاة الامر ملء أفواههم ساعة يعرض المحضر عليهم ، ولكن رئيس اللجنة يعود الى التحقيق لتسخير ذلك الشيطان نفسه فى تمليق الكاردينال ، ويفتتح المحضر المحفوظ بتـــاريخه (٢٠ مايو سنة ١٦٣٤) ســـائلا : ما قولك فى الكاردينال العظيم حامى حمى الديار الفرنسية ؟ فيجيبـــه

الشيطان مقسما باسم الله : انه سوط عذاب على أصدقائى أجمعين • ويعود الرئيس سائلا : ومن هم أصدقاؤك ؟ فيقول له الشيطان : انهم زمرة الهراطقة • ويسأله الرئيس : وماهى مآثره الاخرى ؟ فيجيبه الشيطان أنها هى انقاذه للشعب وقدرته على الحكم هبة من الله وحرصه على سلام المسيحية وولاؤه للملك لويس •••

وبعد العناء المضنى فى جمع هذه الاوراق والمضاهاة بين التحقيقات يخرج الكاتب منها الى سحرة العصر الحاضر الذين يسخرون أعنف شياطينه وهو شيطان الجماعة المستفزة الى الشر والعدوان باسم المذاهب أو الاوطان ، فما تصنعه النازية حين تثور على أعداء الجنس الآرى المطهر ، وما تصنعه الفاشية حين تثور على أعداء المجد الرومانى العريق ، وما تصنعه الشيوعية حين تثور على أصحاب الاموال الاوغاد ـ كل أولئك ثورة لا تتورع عن اتهام الابرياء واحراق الاحياء ، والهبوط الى الهاوية فى أهبة الصعود الى السماء



ومن المفكرين الذين لهم خطر فى كل بحث يدور على العقيدة والتفكير العصرى كاتبان عالميان هما الدكتور لويس صاحب كتاب المعجزات وكتاب مسألة الشر وكتاب ما وراء الشخصية وغيرها من الكتب فى موضوعات الفلسفة الدينية ، ويعتبرونه فيلسوف المذهب البروتستانتى فى العصر الحاضر ، والكاتب الآخر جيوفانى بابينى صاحب كتاب حياة المسيح وأديب المذهب الكاثوليكى المرضى عنه بين المجددين وبين فريق غير صغير من المحافظين

ألف الدكتور لويس رسائل الشيطان وجعلها على لسان

أستاذ من الشياطين يعلم تلميذه أساليب الفتنة والدسيسة واقصاء بنى آدم عن حظيرة الرضوان ، ومعظم هذه الاساليب نفسية يرى العلماء النفسانيون مع المؤلف أنهـا بواعث شر وجهل في الطبيعة الانسانية ، ويرى العلماء الدينيون معه أنها مداخل الشيطان الى سريرة الانسان فيقول الشيطان الاستاذ ـ مثلا ـ لتلميذه أنه خليق أن يتنبه الى خطأ جسيم يقع فيه ناشئة الشياطين وهو اعتقادهم أن السرور حبالة الشيطان. اذ الحقيقة ان الانسان باق فى الحظيرة الالهية ما بقي فى نفسه موضع للسرور ، وعلى الشيطان أن يفرق بين السرور على أنواعه وبين السرور المصطنع الذى يلحق باللغو والتهريج، وينبه الاستاذ تلميذه الى الاقلال من العناية بأغوائه المتدينين الذين تساورهم الشكوك من جراء الحروب والنكبات فان المتدين الذى لا تصمد عقيدته لهذه الشدائد غنى عن الاغواء ولا حاجة بالشيطان الى فرط العناية باغوائه ، وعلى الشيطان التلميذ ألا ييأس من أصحاب الفضائل الذين يعلمون بفضائلهم ويفخرون بها مع أنفسهم ومع غيرهم ، فانها فضائل على مقربة من الرذائل الشيطانية قد تعمل على الرذيلة وهى فى عنفوانها ، وليس من عمل الشيطان أن ينشر الالحاد لان الذى ينكر وجود الله ينكر وجود الشيطان ، وانما عمله أن يصرف المؤمن بالله عن الامل والعبادة ورؤية المحاسن والمعجزات فى خلائقه ومقاديره ، وأقوى الحبائل فى رأى الاستاذ الشيطان أن ينفصل الانسان من حاضره ويقبل على المستقبل بجملته فان المقبل على المستقبل منقطع عن الحاضر والماضى متعلق بالاباطيل ودواعى القنوط والكراهية ، وعلى الشيطان الناشىء أن يذكر أن الكراهية هى المهمة فى المذاهب « المستقبلية » دون عناوينها ودعاويها ، فلا

فرق بين الشيوعية والفاشية والاباحية على اختلافها ما بقيت نفس الانسان خلوا من الحب مفعمة بالنقمة والبغضاء ، وآفة الآفات الكبرى على الدوام أن يصبح الكون فى نظر الانسان صفرا من العجائب وشتيتا متشابها من المألوفات والمتكررات

ولولا ضيق نظر يساور عقل المؤلف أحيانا كلما نظر الى عقيدة غير عقيدته لكان تفكيره فى هذه الامور مطابقا لتفكير المتدين فى كل دين

والكاتب الكاثوليكى جيوفانى بابينى يؤلف الكتاب عن الشيطان ويريد أن يطبق فضيلة السماحة على هذا العدو المبين فى جملة الاعداء الذين تشملهم رحمة الله، ويرى أن الله لا يرضيه دوام الشر ولا دوام السقوط على كائن من الكائنات العاقلة ، فلا بد فى نهاية التجربة الكونية من حياة لا شر فيها ولا شيطان . وزوال الشيطان انما يكون بزوال شره وارتداده عنه الى الخير والصلاح

ورأيه هذا مخالف لآراء الاكثرين من أقطاب المذهب ، ولكنه لم يبلغ من المخالفة أن يعرضه للطرد والحرمان ، فان آراءه الاخرى فى الكتاب تحسب له اذا حسب هذا الرأى عليه، وفيها شرح للعقائد الدينية وتقبيح للمنازع الشيطانية يحمده له المعتقدون ويقنعون به من الكاتب فى زمن يقل فيه أمثاله من الكتاب العالميين الذين يعلنون عقائدهم فى غير مبالاة بسخرية المنكرين والملحدين

تلك زبدة مفيدة لما يسمى (بالديمنولوجى) « Demonology » أو مباحث الباحثين عن الشيطان فى العقيدة الدينية وفى التعبيرات المجازية فى القرن العشرين

فالمتدينون يؤمنون بوجود الشخصية الشيطانية فعلا

ويحصرونها فى أضيق حدودها ولا يبوئونها من السلطان على النفس البشرية تلك المنزلة التى كانت لها فى عقائد الاولين

والمعبرون المجازيون فريقان : فريق يلغى الشخصية الشيطانية ألبتة ، ويحل محلها عوامل الوعى الباطن التى يسميها الغريزة أو الكبت أو العقد النفسية أو علل الشخصية السقيمة وما شاكل هذه الاسماء .. وهذا الفريق مسبوق الى رأيه فى جملته دون تفصيله ، فقد ذهبت هذا المذهب فئة من المعتزلة ترى أن الشيطان هو وساوس النفس ودوافع الشهوة والطمع والغضب والخديعة ، وتستند فى رأيها الى قول النبى عليه السلام أن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق، وليس هذا التأويل عند جمهرة المحدثين بالتأويل المقبول

والفريق الآخر على رأى هكسلى الذى تقدم ذكره ، وهو أن العقل والعلم لا يمنعان وجود الشيطان كما جاء فى الفصل السابع من كتابه عن شياطين لودن حيث يقول : « هل توجد الشياطين ؟ وان كانت توجد فهل كانت حاضرة فى جسد الأخت جين وزميلاتها الراهبات ؟ فأما المس الشيطانى فلست أرى فى القول به سخفا أصيلا ، ولا أجد شيئا من التناقض فى فكرة ترى امكان وجود الارواح غير الانسانية طيبها وخبيثها أو لا طيبة ولا خبث فيها ، وليس ثمة ما يضطرنا الى القول بأن الملكة الفاهمة ممتنعة فيما عدا أجسام الانسان والحيوان ، واذا قبلنا الشواهد على الكشف والنظر البعيد ــ وهى شواهد يكاد القول برفضها أن يتعذر علينا ــ فلا بد من الايمان بعوامل مفكرة مستقلة على الاغلب الاعم عن المكان والزمان والمادة

وهذه هى زبدة «الديمنولوجى» فى صفحتها الاخيرة من آراء المتدينين والمفكرين فى القرن العشرين

خاتمة

خاتمـــة

تمت فى هذه الصفحات رســالة موجزة فى موضــوع من موضوعات المقارنة بين الاديان والعقائد يدور حــول تصوير « قوة الشر » من عهــد القبائل البــدائية الى منتصف القــرن العشرين

والمقارنة بين الاديان والعقائد علم حــديث من علوم القرن التاسع عشر ، بدأ البحث فيه قبيل ختــامه ، وانتصف القرن العشرون ولا تزال الكشوف الاخيرة فيه تتوالى وينسخ بعضها بعضا أو يشير بانتظار النهاية بعد خطوات لم تبرح أوائل الطريق ، وكلما تعجل الباحث الفراغ من دور الجمع والتبويب والنتائج المعلقة على البقية المنتظرة بادرته الكشوف الحديثة بما ينقض حكمه أو يضطره الى تعديله على ترقب وتؤدة واستعداد

ونحن نختم هذه الرسالة ، والاجزاء الاخــيرة من موسوعة أرنولد توينبى « Arnold Toynbee » تصــدرها المطبعة من المجلد السابع الى المجلد العاشر ، وفى نهاية الجزء السابع منها تعقيب على الظاهرة الغامضة التى كشفت عن التشــابه القــريب بين عقائد القبائل البدائية فى القارات الخمس وانقســام المفسرين لهذه الظاهرة الى فريقين : فريق يرى أن الانسان تلقى الهاما بالوحدانية قبل التاريخ وقبل افتراق الاجنــاس والقارات ، وفريق يرى أن الطبيعة الانسانية تتقارب فى وحى البديهــة

وتستلهم شعورا واحدا بما وراء المادة المشهودة ، وسيمضى زمن طويل قبل أن تتحد النتائج بين الفريقين ، لأن الأرض واسعة والقبائل البدائية مبعثرة على أرجائها ، ومسائل العقيدة عندها من أسرارها التى تخفيها ، وما تجلوه منها اضطرارا أو اختيارا يتيه فيه الباحثون بين غرابة اللغة وغرابة الرموز

فمن الغرارة البالغة أن يقول قائل عن موضوع من موضوعات المقارنة بين الاديان أنه شيء عتيق مضى أوانه ، على حين اتفاق الاقوال بين علماء المقارنة وقرائنها على ابتدائها فى خطواتها الاولى وانتهائها فيما انتهت اليه الى نتائج معلقة بين الترجيح والتردد والانتظار

ولا نخال أن السريرة الانسانية تكشف عن أعماقها بعلم من العلوم كهذا العلم وعلم الدراسات النفسية ، وهو كذلك فى خطواته الاولى أو على أبواب النتائج التى لا تفتح الا بين التردد والانتظار

لكن الفائدة المبكرة التى خلصت للعقل الانسانى من بواكير البحث فى العلمين أن مقاييس الحقائق تختلف وتتعدد ، وأن الحقائق كلها لا تقاس بأرقام الحساب وأنابيق المعامل وتجارب الطبيعيين ومناظر الفلكيين

فهاهنا حشد من العقائد والأخيلة تمتلىء به سيرة النوع الانسانى فى نحو مائة قرن يدركها التاريخ

ما هى فى أرقام الحساب أو أنابيق المعامل أو تجارب الطبيعة أو مناظر الفلكيين ؟

سهل على أدعياء العلم أن يصرفوها بكلمتين : حديث خرافة! وحديث الخرافة يجب أن يلغى ، فتعالوا نلغه ونعهد بأدعياء

العلم جميعا أن يبدأوا بالنوع الانسانى فى تعلم الخير والشر والقداسة واللعنة على برنامج غير هذا البرنامج وتربية غير هذه التربية

وليتسلم أدعياء العلم هذا النوع الانسانى قبل مائة قرن، وليأخذوا فى تعليمه الابجدية من هذه الدروس

ولنفرض أولا فرضا مستحيلا وهو أنهم سيكونون قبل مائة قرن على معرفة بما يسمونه اليوم خرافة وما يسمونه تحقيقا وما يسمونه دراسة منطقية أو علمية

وليبدأ النوع الانسانى فى هذه المدرسة بفلسفات الاخلاق على مذاهبها وفروضها واحتمالاتها وردودها ومناقشاتها

وليحفظ فلسفات الاكاديمية كلها ويتخرج عليها

ولقد حفظها ولقد تخرج منها بما شاء له أدعياء العلم من آراء

ولقد وصلنا بعد الرحلة الطويلة الى القرن العشرين فماذا نقول ؟

نقول ان هذا فى الحق هو حديث الخرافة الذى لا يعدو الالفاظ والعناوين وأسماء المدارس والمريدين

لكن النوع الانسانى ترك هذه الاكاديمية قبل مائة قرن وأمعن فى طريقه الذى هداه اليه القدر ، وأعدته له الفطرة

ونتيجة هذا الطريق أنه أعطى الحياة النابضة لكل خلق من أخلاق الخير والشر والقداسة واللعنة ، وأن أعلم العلماء اليوم لايستطيع أن يقيم من الفوارق الحية المحسوسة بين خلق وخلق فارقا واحدا كالفارق الذى نفهمه ونحسه ونحياه حين نتكلم عن الخلائق الالهية والخلائق الملكية والخلائق الشيطانية أو عما يجملها من الخلائق السماوية والخلائق الارضية والخلائق الجهنمية

ان العلماء الذين يستعيرون تعبيراتهم المجازية من هـــذه الفوارق لا يفعلون ذلك لعبا بالالفـــاظ أو تظرفا بالتمثيـل والتشبيه ، ولكنهم يستعيرون ذلك التعبير لأنه أدل وأوضح وأقوى من كل تعبير يستعيرنه من المدرسة النفعية والمدرسـة السلوكية والمدرسة الانفعالية ومدارس روح الجماعة وتضامن الهيئـات والبيئات ، وما اليهـــا من ألفاظ ناصـــلة ومعان حائلة وأســـماء لم تخلق من مسمياتها شـــيئا وهيهـــات أن تخلقه ولو تسمت بها مئـات القرون وغاية ما تبلغه أنهـا تأتى الى محصول القرون بعد زرعه ونمائه واستوائه وحصاده، فتكتب العناوين على غلاته وبيادره ولا تأمن بعد ذلك أن تضل بين تلك العناوين التى كتبتها بيديها !

فهذه الحقائق الوجدانية والقيم الروحيـة لا تقاس بمقياس الارقام وأنابيق المعامل ، ومن أراد أن يقيسها بهـــذا المقياس فهو الذى سيخطىء لا محالة ، كما يخطىء كل واضع لأمر من الامور فى غير موضـــعه ، وكل من يقيس شيئا وهو يجهـل كيف يقاس

على أننا قد نفقه تعدد المقاييس وتعدد القيم دون أن نضطر الى التوسع فى هذا الموضوع الشاســع العسـير ، موضـوع المقارنة بين الاديان

فالغريزة فى كل رجـل وامرأة وفى كل ذكـر وأنثى من الحيوان تسفــه كل من يعتسف طرق البحث ويسبر أغـوار الطباع بغير مسبارها

وهذا حنان الآباء والامهات لغو وباطل بكل شـــهادة من شهادات الحس والعقل وتجارب المعامل وأرقام الحساب ، لأن حنان الآباء والامهات يقول لهم ان طفلهم دون غيره يساوى كل

من عداه ويفوقهم فى حق البقـاء ويجب أن يزولوا جميعا اذا وجب أن يزولوا من الدنيا أو يزول هو منها

وليضرب صاحب القياس الحسابى على هـذا الحنان بالخط الاحمر ليخرجه من حيز الحقائق ، ولينظر بعد ذلك أين الحق وأين الباطل بين الرأى فى رأسه وبين الحنان فى صـدر كل والد ووالدة ، من الانسان والحيوان

أصواب هذا الحنان أو خطأ ؟

أحق ذلك الدين أو باطل ؟

انما الخطأ أو الباطل هو الذى نسقطه ونلغيه ، فهاهنا خطأ واحد وباطل واحد ، وهما الخطأ والباطل فى مقياس صـاحب الحساب وصاحب الانبيق

وندع الغرائز المحجبة ونقترب من المحسوسات الواضـحة المفتوحة للسمع والبصر ، فنفرض أن مخلوقا يرى الاشياء كما تكون فى جو الاثير على بعد من الارض والجاذبيـة الارضـية ، وتتحدث أمامه عن اللون الاحمر واللون الاخضر وعن العناصر الثقيلة والعناصر الخفيفـة وعن المقاطع والـكلمات والاصـداء والنغمات ، فماذا عليـه لو صـاح بنا : على رسـلكم يا هؤلاء اللاغطين . ان ما تهذرون به لحديث خرافة وأضغاث أحلام

انه لا يكون قد خرج بذلك على سنة العلم وأدعيائه ، واننا مع هذا لم نبتعد من المحسوسات التى يحيـط بهـا العيـان وتسمعها الآذان فاذا كانت الطبيعة الانسانية لا تدرك هـذه المحسوسات الا بهذه الالوان والاشكال فكيف نطلب من الاديان أن تخاطب الطبيعة الانسانية بأسـلوب غير أسـلوبها وهى تتحـدث عن الغيوب الخفية وعمـا وراء المـادة ووراء الزمـان والمكان

من رام أن يعيب القيم الوجدانية التى دان بها الانسان منذ جهالته الاولى فهو - لا ريب - واجد فيها كثيرا مما يعاب ويفرط فى المعابة . لكن السؤال الفصل هنا لا يكون : هل تعاب القيم الوجدانية أو لا تعاب ؟ بل يكون : هل توجد هذه القيم الوجدانية لانسان ناقص ينمو ويكبر ، أوتوجد لانسان كامل معصوم من نشأته الاولى ؟ ان عقيدة تصلحها عقيدة بعدها كالمعرفة تصلحها معرفة تليها وتقوم عليها ، لا هذه تسقط العلم ولا تلك

اننا فرضنا فى مستهل هذه الخاتمة أن أدعياء العلم تسلموا النوع الانسانى منذ مائة قرن ليرشدوه الى طريق غير الطريق الذى اتبعه فى التمييز بين الخير والشر والقداسة واللعنة ، فلندع هذا الفرض البعيد ولنستغن عنه بما بين أيدينا من «الديانات العلمية » التى ارتضاها « الانبياء العلميون » فى القرنين الاخيرين بعد اختبار العقائد والمذاهب والفراغ من أوهام الخرافات والاساطير ، ولننظر فى الديانة التى سموها الديانة المادية الاقتصادية وقرروا فيها أن احتكار الفلوس هو الذى يخلق الاديان والافكار ويقوم القيم ويرفع الطبقات، وأنه اذا جاء الوقت الذى ينقضى فيه احتكار الفلوس زالت الطبقات وخلا المجتمع من السادة أبدا سرمدا بغير انتهاء

ولم يمض على قيام هذه الديانة جيل واحد حتى سمعنا علما من أعلامها يأسف ويأسى ثم ينعى على زملائه أنهم يختارون لادارة المعامل وتنظيم الحكومة أذنابا من المقربين اليهم ويقصون عنها ذوى الكفاية والغناء فى العلم والعمل والسابقة المذهبية ويبقى فى نفوسهم بعد الغاء الاحتكار باعث يرفع ويضع بغير مقدار الا ن يكون مقدار الاثرة والايثار

وهؤلاء المتدينون « العلميون » هم الذين يصدقون مع هذا أنهم حكموا على المستقبل ورسموا للنوع الانسانى طريقه فى نظام المجتمع وبواعث الاخلاق أبد الآبدين ودهر الداهرين ألوفا من السنين ، لا بل ملايين من القرون بعد ملايين

وكل ما صدقه عجائز الخرافة من عهد الكهوف الى اليوم يطير هباء أمام هذه الخرافة التى آستقر عليها أدعياء العلم والنبوءات العلمية وكفى بهذه المقارنة تعجيزا لمن يتطاول به الغرور فيخال أنه يصحح العقائد بمقاييسه ومقاييس علمه المزعوم

وسيبقى أناس يتعوذون من ابليس يوم يضحكون من خرافة « المادية الاقتصادية » كيف كانت وكيف جازت على العقول ، ونحن نقول فى أول هذه الرسالة أن ظهور ابليس فى عقائد الناس كان علامة خير لأنه علامة التمييز بين الشر ونقيضه ، فنقول فى ختامها ان بقاءه بعد المادية الاقتصادية علامة خير أخرى ، لأن الكون الذى يبقى فيه ابليس ملعونا أشرف من الكون الذى لا يميز بين القداسة واللعنة ولا يعرف شيئا يلعنه ، اذ كان لا يؤمن باله غير الفلوس ، وساء ذلك من اله ، وتعالى الله عما يشركون

عباس محمود العقاد

محتويات الكتاب

صفحة

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

هى خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج أنيق وطباعة متقنة ثمن الكتاب الواحد ٨٠ مليما ـ ما عدا كتابى زينب ومع الله فى السماء وابتداء من كتاب « قال الرئيس » (العدد ٧١) ١٠٠ مليم ـ بخلاف مصاريف البريد المسجل وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

١ ـ عبقرية محمد (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

٢ ـ ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج

٣ ـ هرون الرشيد (نفد)
تأليف المرحوم الدكتور أحمد أمين

٤ ـ أبو الشهداء (اعيد طبعه)
تأليف عباس محمود العقاد

٥ ـ جنكيز خان
سفاح الشعوب (نفد)
تأليف ف . بان

٦ ـ قلب النسر
تأليف أوكتاف أوبرى

٧ ـ السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد أبو حديد

٨ ـ غاندى : القديس الثائر
تأليف لويس فيشر

٩ ـ زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

١٠ ـ الزعيم احمد عرابى (نفد)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

١١ ـ بطلة كربلاء (نفد)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

١٢ ـ اشعب امير الطفيليين (نفد)
تأليف توفيق الحكيم

١٣ ـ نفرتيتى ربة الجمال والتاج
تأليف صوفى عبد الله

١٤ ـ حديث رمضان (نفد)
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى

١٥ ـ **عبقرية خالد (اعيد طبعه)**
تأليف عباس محمود العقاد

١٦ ـ **الذئب الاغبر مصطفى كمال**
تأليف الكابتن هـ ٠ س ٠ ارمسترونج

١٧ ـ **كليوباترة فى خان الخليلي**
تأليف محمود تيمور

١٨ ـ **الاسلام دين الفطرة**
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

١٩ ـ **لا تخف (نفد)**
تأليف ادوارد سبنسر كولز

٢٠ ـ **مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية (نفد)**
تأليف عبد الرحمن الرافعي

٢١ ـ **القائد الاعظم محمد على جناح**
تأليف عباس محمود العقاد

٢٢ ـ **زينب**
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل (نفد)

٢٣ ـ **مذكرات عرابى**
جزء أول (نفد)
تأليف الزعيم أحمد عرابى

٢٤ ـ **مذكرات عرابى**
جزء ثان (نفد)
تأليف الزعيم أحمد عرابى

٢٥ ـ **عبقرية عمر (اعيد طبعه)**
تأليف عباس محمود العقاد

٢٦ ـ **آمنة بنت وهب**
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٢٧ ـ **فاطمة الزهراء والفاطميون (نفد)**
تأليف عباس محمود العقاد

٢٨ ـ **عصا الحكيم فى الدنيا والآخرة**
تأليف توفيق الحكيم

٢٩ ـ **ابو نواس**
تأليف عبد الرحمن صدقى

٣٠ **البؤساء**
تأليف فيكتور هيجو

٣١ ـ **علمتني الحياة (نفد)**
لنخبة من علماء الشرق والغرب

٣٢ ـ **فى الطريق**
تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى

٣٣ ـ **مدرسة المغفلين (نفد)**
تأليف توفيق الحكيم

٣٤ ـ **لا تقتل نفسك**
تأليف بيترشتاينكرون

٣٥ ـ **عصاميون من الشرق والغرب**
لنخبة من كبار الكتاب
(اعيد طبعه)

٣٦ ـ **الارواح المتمردة ـ الاجنحة المتكسرة ـ الموسيقى**
تأليف جبران خليل جبران

٣٧ ـ **ذو النورين عثمان بن عفان (نفد)**
تأليف عباس محمود العقاد

٣٨ ـ **محمد الثائر الاعظم**
تأليف فتحي رضوان

٣٩ ـ **عش مائة عام**
تأليف جايلورد هاوزر

٤٠ ـ الحرية الحمراء
تأليف حبيب جماتى

٤١ ـ اهل الكهف
تأليف توفيق الحكيم

٤٢ ـ الله (أعيد طبعه)
تأليف عباس محمود العقاد

٤٣ ـ عش شابا طول حياتك
تأليف فيكتور بوجومولتز

٤٤ ـ علم الفراسة الحديث
تأليف جرجى زيدان

٤٥ ـ نساء النبى (أعيد طبعه)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٤٦ ـ ثائرون
تأليف محمود تيمور

٤٧ ـ زهرة العمر
تأليف توفيق الحكيم

٤٨ ـ هذا مذهبى
باقلام نخبة من الشرق والغرب

٤٩ ـ غادة النيل
تأليف اميل لودفيج

٥٠ ـ مطلع النور
تأليف عباس محمود العقاد

٥١ ـ يوميات نائب فى الارياف
تأليف توفيق الحكيم

٥٢ ـ طريق السعادة
تأليف فيكتور بوشيه

٥٣ ـ ألف ليلة وليلة
(الجزء الاول)

٥٤ ـ عبقرية الصديق
تأليف عباس محمود العقاد

٥٥ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الثانى)

٥٦ ـ مدرسة الشيطان
تأليف توفيق الحكيم

٥٧ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الثالث)

٥٨ ـ معاوية بن ابى سفيان
تأليف عباس محمود العقاد

٥٩ ـ ألف ليلة وليلة
(الجزء الرابع)

٦٠ ـ اعرف نفسك
تأليف ادوارد سبنسر كولز

٦١ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الخامس)

٦٢ ـ مع الله .. فى السماء
تأليف الدكتور أحمد زكى

٦٣ ـ ألف ليلة وليلة
(الجزء السادس)

٦٤ ـ قصة الثورة كاملة (نفد)
تأليف أنور السادات

٦٥ ـ جحا الضاحك المضحك
تأليف عباس محمود العقاد

٦٦ ـ بنات النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٦٧ ـ عبقرية الامام على
تأليف عباس محمود العقاد

٦٨ ـ شاعرةالطليعة : عائشة تيمور
تأليف الآنسة مى
٦٩ ـ الصديقة بنت الصديق
تأليف عباس محمود العقاد
٧٠ ـ بطل الكفاح : الشهيد محمد فريد (نفذ)
تأليف عبد الرحمن الرافعى
٧١ ـ قال الرئيس
للرئيس جمال عبد الناصر
٧٢ ـ بناة النهضة العربية
تأليف جرجى زيدان
٧٣ ـ محمد الرسول البشر (نفذ)
تأليف توفيق الحكيم
٧٤ ـ القصر المسحور
تأليف طه حسين ـ توفيق الحكيم
٧٥ ـ قصة الثورة كاملة طبعة جديدة (نفذ)
تأليف أنور السادات
٧٦ ـ أسرار الثورة المصرية
تأليف أنور السادات
٧٧ عصفور من الشرق
تأليف توفيق الحكيم
٧٨ ـ البؤساء طبعة جديدة
تأليف فيكتور هيجو
تعريب محمد حافظ ابراهيم
٧٩ ـ أخلاق للبيع
تأليف فتحى رضوان
٨٠ ـ لا شيوعية ولا استعمار
تأليف عباس محمود العقاد
٨١ ـ قصة الوحدة العربية
تأليف أنور السادات (نفذ)
٨٢ ـ حياة المسيح
تأليف عباس محمود العقاد
٨٣ ـ الفكاهة فى مصر
تأليف الدكتور شوقى ضيف
٨٤ ـ عش سليما بغير مرض
تأليف الدكتور ابراهيم فهيم
٨٥ ـ شهر رمضان
بقلم خليل طاهر
٨٦ ـ سارة
بقلم عباس محمود العقاد
٨٧ ـ صلاح الدين الايوبى
تأليف محمد فريد أبو حديد
٨٨ ـ ياولدى .. هذا عمك جمال
بقلم أنور السادات

ويمكنك الحصول على ماينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمدبك عز العرب « المبتديان » بالقاهرة ، وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ومن جميع المكتبات الشهيرة ، وأكشاك الصحف ، ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذا الكشف

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢ (الاعداد ترسل بالطائرة)

العراق : السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد

البرازيل : Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Colegio N° 3,
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

غانا : Mr. Joseph Hassan,
The Cine Travel Co,
P.O.Box 1883,
ACCRA, GHANA

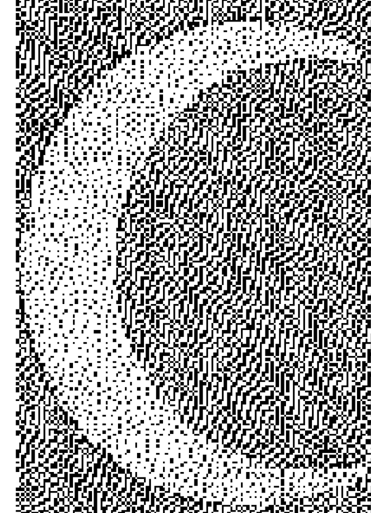
هذا الكتاب

يوم عرف الانسان الشيطان كانت فاتحه خير !

كان العالم ظلاما لاتمييز فيه بين طيب وخبيث ، ولا بين حسن وقبيح ... ثم عرف الانسان الشيطان، فكانت معرفة الشيطان فاتحة التمييز بين الخير والشر : عرف الخير فاتبعه ، وعرف الشر فنبذه وابتعد عنه !

وفي هذا الكتاب القيم ، الذي تفخر سلسلة ((كتاب الهلال)) بتقديمه اليوم ، يقدم لنا الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد بحثـــا مستفيضا قيما عن الشيطان وقصته ، بعنوان ((ابليس)) . ويصور قلمه القوى المعبر ((شخصية)) الشيطان ، واسمائه ... وضروب شيطنته ! ... وهو بحث طريف طرافة الشيطان نفسه ، غريب غرابته . وينتقل بك عبر القرون الى الارواح الشريرة التى روعت الانسان الاول فحاول فهمها والابتعاد عن اذاها ، الى أن فهم الشيطان المتمرد المحرض على الرذائل والشهوات ، وحين تم له هذا الفهم أدرك معنى الخير ومعنى الشر . وهكذا نجد أن قصة الشيطان فى صميمها هى قصة الاخلاق الانسانيه وصراعها فى سبيل الخير

هذا هو كتاب ((ابليس)) الذى نقدمه الى القــارىء اليوم ، فى طبعة ، أنيقة ، منقحة



كتاب الهلال

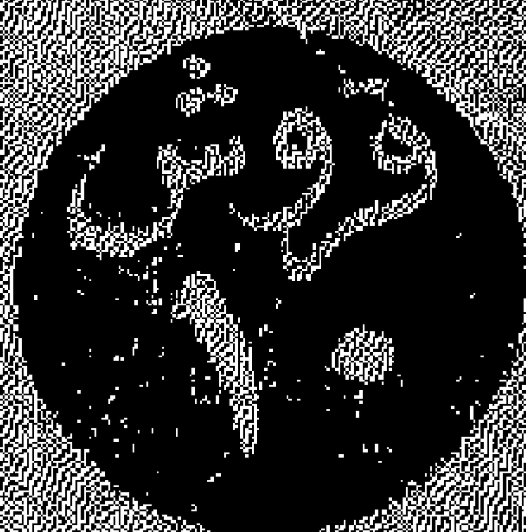
نابغة لبنان

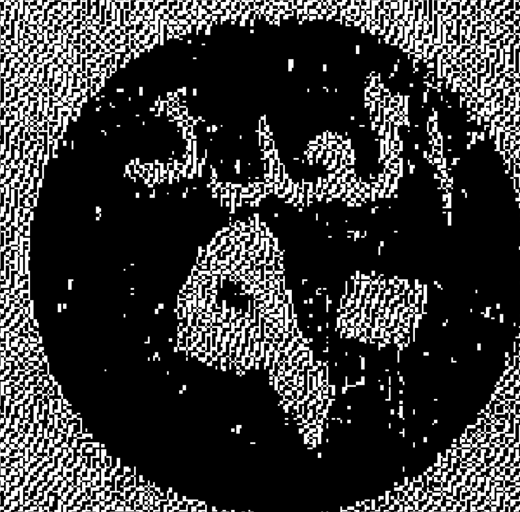
جبران خليل جبران

قصة حياته ومأساة موته

بقلم

ميخائيل نعيمة





سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٩٠ ـ ٢١ صفر ١٣٧٨ ـ سبتمبر ١٩٥٨

No. 90 — September 1958

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ـ مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ـ سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا ـ السعودية والعراق والاردن وليبيا ١٣٠ قرشا صاغا ـ الامريكتين ٥ر٥ دولارت ـ فى سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

نابغة لبنان

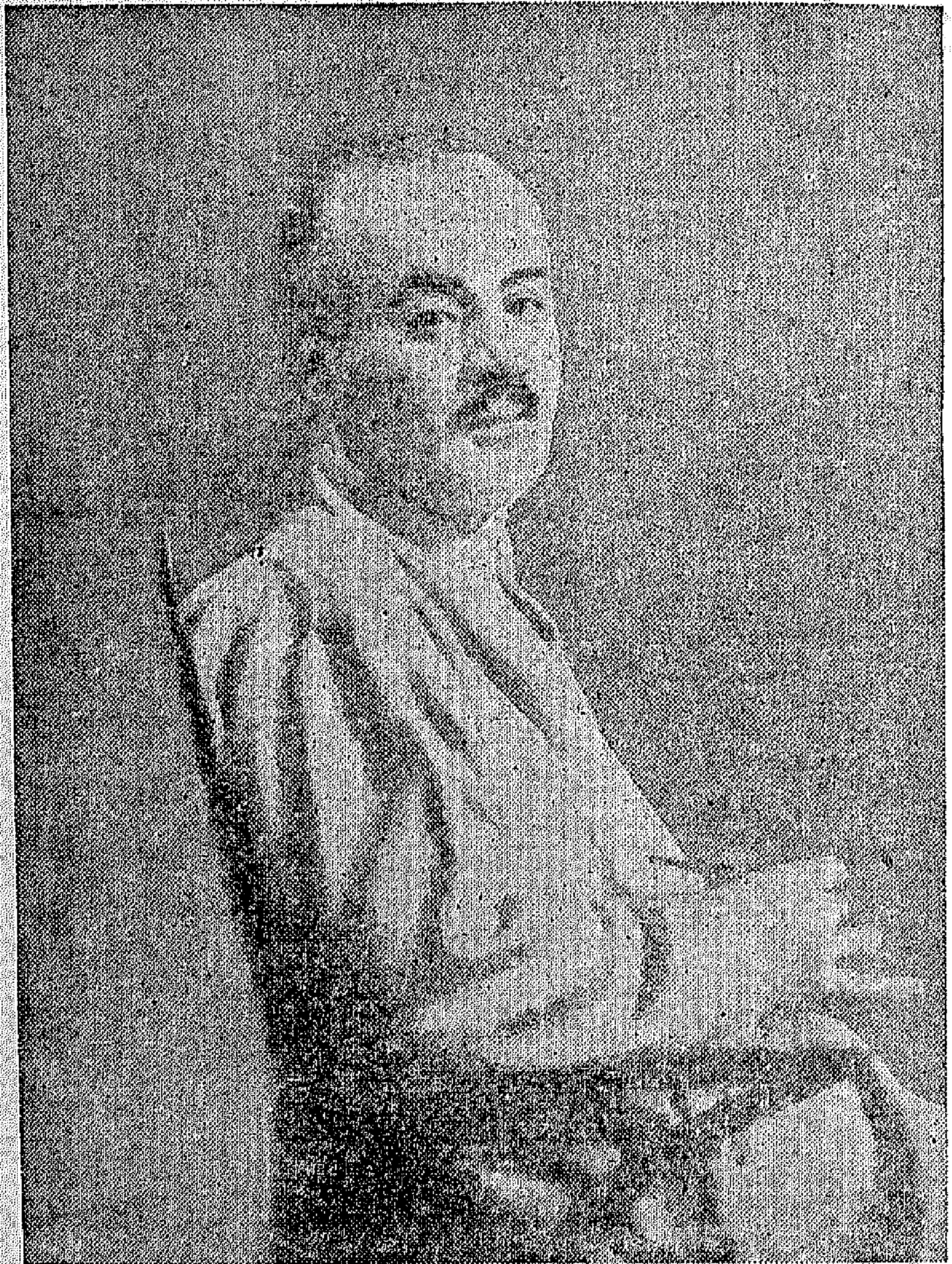
جبران خليل جبران

قصة حياته ومأساة موته

محمد عبد العظيم [illegible]

بقلم

ميخائيل نعيمة



جبران فى ((الصومعة))

آخر صورة فوتوغرافية له وقد أخذت قبل وفاته بمدة قصيرة

اعتذار

بقلم المؤلف

ترددت كثيرا قبل ان أقدمت على وضع هذا الكتاب . لانى لست أؤمن بأن فى الناس من يستطيع أن يصف من حياته حتى لحظة واحدة بكل ما فيها من معان مشتبكة بمعانى الحياة الكونية . فكيف بمن يحاول أن يحصر بين دفتى كتاب حياة غير حياته ، سواء أكانت حياة عبقرى أم حياة بربرى ، وسواء أكان نصيبه من فن الكتابة وفيرا أم يسيرا ؟ وعندى ان كل ما يرويه الناس عن الناس باسم التاريخ ليس الا رغوة متطايرة فوق بحر الحياة الانسانية . أما أعماق الانسان وآفاقه فأبعد وأوسع من ان يتناولها قلم أو يستوعبها بيان . فنحن حتى اليوم لم نكتب « تاريخ » انسان ولا « تاريخ » شيء على الاطلاق . ولو اننا كتبنا تاريخ انسان واحد لقرأنا فيه تاريخ كل الناس . ولو اننا دونا تاريخ شيء واحد لطالعنا فيه تاريخ كل شيء

ثم ان فى حياة كل انسان « أسرارا » يكتمها عن الناس . وانا قد وقفت على البعض من أسرار جبران وفاتنى منها الكثير . فهل يليق بى أن أبوح ولو ببعض البعض الذى أعرفه ؟ وان انا كتمته فما معنى الذى أكتبه ؟ أأخون نفسى والقارىء وجبران بكتمان ما ليس مكتوما فى سجل الحياة

الكبرى ـ وان يكن مستورا عن أعين الناس ـ فأصور صورة لاوزن بين ظلالها وانوارها ، لارضي بعض من لاذوق لهم في الفن ولا رأى لهم في الحيــاة ، وأجور على ذوقي وادفن رايي في التراب ؟

وان انا لم اكتمه فكيف لي ان ابوح به من غير أن اظهر في عين القارىء كما لو كنت أدين أخي بهفوات قـــد لا اكون بريئا منها ؟

وبعد ذلك فكيف لي أن أكتب عن جبران من غير ان اذكر نفسي ، وقد كان بيننا من القرابة ما كان ؟ وان انا لم اجد بدا من ذكر نفسي فهل يفهم القــارىء اني ما فعلت ذلك الا مضطرا واني اكره التحدث عن نفسي لا سيما في كتاب أحدث فيه عن سواي ؟

تلك بعض الاسباب التي دعتني الى التردد في وضع هذا الـكتاب . لـكنني عندما عدت الى الشرق بعـد عام لوفاة جبران وجدت صديقي يكاد يكون أسطورة من الاساطير حتى في بلاده . فهو ليس جبران الذي رافقته خمس عشرة سنة وخبرت أحلامه وآلامه ، وبلوت قوته وضعفه ، ورقبت جهاده العنيف مع نفسه والعالم ، وقاسمني اشواقه وأفكاره وشاركته في افكاري واشواقي . ولكم سمعت أدباء ومتأدبين يطالبونني بكتابة ما أعرفه عنه . فمن قائل ان ذاك دين في عنقي . ومن قائل ان سكوتي في مثل هذه الحالة ضرب من الاثم

فـكان من ذلك كله اني تغلبت على التردد فألفت هـــذا الـكتاب ، على أمل أن يطالع القارىء من خلال فصوله صورة جبران كما عرفته لا « تاريخ » حياته الذي لا يعرفه أحد . وأن يقع فيه على دروس في الحياة التي يشـــترك فيها كل الناس بالسواء . وها أنا أرسله في سبيله عالما حق العلم ان مافيه من صراحة ســيرضي البعض ويغيظ البعض ويدهش الـكثير ممن لم يعرفوا جبران الا فيما قرأوه من ادبه واطلعوا

عليه من فنه . لكنها صراحة لست لاتخلى عنها . فلولاها لما كان الكتاب اهلا للنشر . ولولاها لانطمس اجمل ما فى حياة جبران . وهو صراعه المستتب مع نفسه لينقيها من كل شائبة ويجعلها جميلة كالجمال الذى لمحه بخياله وبثه بسخاء فى رسومه وسطوره . فالفن مهما تسامى فى نظر صاحبه ونظرالناس ، ليس من الاهمية على شيء مالم يترجمه صاحبه والناس الى قوة تنشط بهم من عقالات المعيشة المحدودة الى حرية الحياة التى لا تحد ـ من الانسان فى الله ، الى الله فى الانسان . والادب ، مهما جمل ، لا معنى له الا على قدر ما يكشف معنى الحياة الذى هو أثبت من الارض وابقى من السماء

ميخائيل نعيمة



ميخائيل نعيمة

بريشة جبران

الفصل الأول

الشفق

الاحتضار

حشرجة الموت !

كم سمعت بها قبل أن أسمعها . أما منذ تلك الليلة ــ ليلة العاشر من ابريل سنة ١٩٣١ ــ فانى لا أكاد أسمع غيرها . أسمعها فى دقات قلبى وفى أنفاسى . أسمعها فى صوتى وفى كل صوت . أسمعها فى همس النسائم وحفيف الاوراق . أسمعها فى سكينة الليل وجلبة النهار

الا تباركت حيــاة تلتقى الآزال والآباد فى لحظة منها . فيندمج النقيض بالنقيض ، وتستوى الاضــداد كالانداد . تباركت لانك تهزئين بمقاييس البشر . وفى هزئك قساوة . وفى قساوتك عـدل . فلا تخجلى من أن تجمعى بين العـرض والجوهر ، بين الهزل والجد ، بين المتاجر والمقابر ، بين حشرجة الموت وقرقعة التليفون !

النهار الجمعة . والساعة نحو الخامسـة والنصف . انا أستعد للانصراف من محل أنحر فيه كل يوم ساعات بكارى من حياتى لعدد محدود من مومسات الريالات ، وقلما أسمع حديثا الا عن البيع والشراء ، عن الربح والخسارة ، عن سوق تصعد وسوق تهبط . يقرع جرس التليفون فيطلبوننى اليه . أهو أحد الزبائن يرغب فى بضاعة أو يشكو بضاعة أو يعتذر عن عدم مقدرته على دفع ما عليه ؟

« هلو ... نعم . أنا هو . مرحبا . مرحبــا ... ماذا تقول ؟ جبران فى المستشفى ؟ »

« فى مستشفى القــديس فنسنت . وهو فى غيبوبة .

والطبيب لا يقدر أنه يعيش حتى منتصف الليل . وليس حواليه أحد من رفاقه وخلانه . فرايت من واجبى أن أخبرك لعلمى أنك أقرب الناس اليه »



« تاكسى ! مستشفى القديس فنسنت ـ أسرع أيها السائق ، أسرع ! »

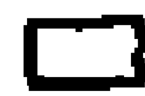
وكيف لهذا المسكين أن يسرع فى شوارع مكتظة بالبشرية المسرعة على أقدامها وعلى دواليبها ؟ والى أين يسرع هؤلاء الناس ؟ ـ كل الى مستشفاه . ومستشفى الكل واحد

ومن هو هذا القديس فنسنت وبماذا تقدس حتى يقدس؟ ليس بينى وبين مستشفاه غير ميل وأقل من ميل . لكنه أطول ما قطعته فى حياتى من المسافات . جبران على فراش الموت . أأدركه حيا ؟ أسرع أيها السائق ، أسرع !

« أنا اليوم رجل صحيح يا ميشا » (١) هذه آخر كلمات سمعتها منه وقد خاطبته بالتليفون قبل ذاك بأيام مستفحصا عن صحته . فتواعدنا أن نلتقى فنتعشى معا فى أحد المطاعم ونقضى السهرة عندى . وها أنا ذاهب لاتناول واياه العشاء على مائدة الموت فى مطعم القديس فنسنت !

« أنا اليوم رجل صحيح يا ميشا ـ أنا غريب فى هذا العالم يا ميشا ـ أنا أحب هذا العالم يا ميشا . » ـ الصحة والعلة . والموت والحياة . والوطن والغربة ـ الا من يرينى ما بينها من الفروق ؟

أسرع أيها السائق ، أسرع !



« فى اية غرفة جبران خليل جبران ؟ » ، سؤال أوجهه الى رجل جالس الى مكتب قريب من الباب داخل المستشفى.

---

(١) هو الاسم الذى كنت اعرف به عند اصحابى الاخصاء فى نيويورك. وهو صيغة التصغير والتحبب بالروسية من اسم ميخائيل

فينــدفع يفحص تحت حــرف « الجيم » فى قوائمه المنظمة كأنه يفتش عن كلمة فى قاموس غير مبال ان صــوت الرجل الذى يخاطبه يتهدج بصوت الموت

« ليس عندنا عليل بهذا الاسم يا سيدى » واذ أؤكد له ان عندهم عليلا اسمه جبران يحيلنى الى رجل آخر عنــد مدخل للمستشفى من شارع اخر فأخرج من حيث دخلت واسرع الى المدخل الذى ردنى اليه . وهناكأعرف ان جبران فى غرفة كذا فى الطبقة الثالثة من تلكالبناية المتعددةالطبقات. فأصعد سلالم كثيرة . وأدور فى منعرجات كثيرة . واتفحص أبوابا كثيرة قبل أن أهتدى الى الباب الذى أطلبــه . ووراء كل باب أقترب منه جسد يتكوى بالاوجاع . وروح تحارب القدر . رباه . رباه . رباه ! هو ذا جانب من خليقتك التى تطلب جابرا لمــا تكسر من عظامها . وراتقــا لمــا تفتق من جلودها . وجامعا لمــا تفتت من أكبادها . فلا تحصل الا على عقاقير ثم عقاقير . فأين دواؤك ؟ أم هو الالم مصهر المحبة ــ محبتك التى لاتوصف . وسبيل الخلاص ــ خلاصــك الذى لا يثمن ؟

راهبات يمررن بى وأمر بهن كأنهــن خيــالات من عالم لا أعرفه ، وفى سواد أثوابهن ما يسود القلب . وممرضــات يدخلن من باب ويخرجن من باب ، وفى بيــاض البستهن ما يجرح العين

« أين الغرفة كذا يا أختاه ؟ ــ الى اليمين ؟ أشكرك »

أمام باب الغرفة رجل تحيط به نسوة ثلاث . واذ أقترب تنفرد منالثلاث واحدة طويلةالقامة ، عظيمة الهيكل ، زعفرانية اللون ، حادة الانف ، غارقــة العينين . فتخطو نحوى مادة يمناها الى . هى شاعرة أميركية فى النصف الاول من عقدها السادس . عرفت جبران منذ سبع سنوات فتقربت منــه وكانت تساعده فى نسخ مؤلفاته . وقد التقيت بها مرة عنده .

واذ أضع يدى فى يدها تتنهد وتقول :
ــ أشكر الله · أشكر الله لانك هنا
فى قلبى وفى عينى وعلى وجهى سؤال واحد يتردد لسانى فى طرحه فتجيبنى عليه هذه السيدة قبل أن تسمعه من فمى :
ــ لم يبق من أمل . لم يبق من أمل
ــ اخبرينى ماذا جرى
ــ كنت البارحة عنده فوجدته يعانى آلاما لم يعان مثلها من قبل . دعونا الطبيب وسألناه اذا كان من ضرورة لنقله الى المستشفى فى الحال . فأجاب انه لا بأس لو بات ليلته فى بيته . ولم اشأ أن أتركه وحده فقضيت الليل عنده . وفى الصباح ــ صباح اليوم الجمعة ــ اشتد عليه الوجع فجئنا به الى هنا بين الساعة العاشرة والحادية عشرة
ــ ولماذا لم تخبرينى امس ، أو اليوم باكرا ؟
ــ امس كنا نظن أنه عارض ويزول . واليوم عندما جئنا به الى هنا كنت أول من خطر ببالى . غير انى اجهل رقم تليفونك · فبقيت أفكر بواسطة أتوصل بها اليك الى أن خطر لى ــ وكان ذلك الهاما ربانيا ــ أن أتلفن (١) الى ادارة مجلة « العالم السورى » لتطلعك على الامر . وهكذا كان . والآن أشكر الله لانك أتيت
ــ كيف هو الآن ؟
ــ غاب عن الوعى بعد الظهر بقليل ولا يزال فى غيبوبة
ــ هل عرض عليه أحد أن يعترف ويتناول ؟
ــ سألته الراهبة : « هل أنت كاثوليكى » ؟ فأجابها بنبرة قوية : « كلا ! » فتركته وانصرفت . وبعد أن انتقل الى حالة الغيبوبة جاءه كاهن سورى ــ هو رجل قصير لعلك تعرفه ــ وأخذ يناديه بأعلى صوته : « جبران . جبران . جبران » ! وجبران لا يعى . ولقد بلغ استيائى من ذلك الكاهن وخشونته

---

(١) يتحدث بالتليفون

حدا تمنيت معه لو كانت لى القوة الكافية لطرحه من النافذة
ــ هل فعل الكاهن شيئا ؟
ــ هذا كل ما فعله
ــ وأين الطبيب ؟
ــ ها هو
مشيرة الى الرجل الواقف أمام الباب
ــ ما هى علته أيها الطبيب ؟ أليس من أمل ... بالطب ـ بالجراحة ؟
ــ سرطان فى الكبد (١) . لا أظنه يعيش حتى منتصف الليل . هو الآن فى غيبوبة ولا أخاله يفيق منها

كلمات تلفظ بها كأنه يحدث عن الطقس . ولا عجب فليست هذه أولى مقابلاته للموت . ترى أيقابل موته بالبرودة عينها التى يقابل بها موت سواه ؟

الطب . الطب . الطب ! اله العالم المتوجع ووجهه الاكبر
ــ اتسمح لى بالدخول على المريض أيها الطبيب ؟
ــ لا مانع على الاطلاق
غر ــ غر ... غر ــ غر ... عذ ــ ن ...

صوت غريب يفاجىء أذنى حالما افتح الباب واغلقه بهدوء ورهبة ، فأشعر عندما أجتاز عتبته كأنى قد اجتزت من عالم لا سر فيه الى عالم كله أسرار . وأنسى أن هذا العالم فى ذاك . وذاك فى هذا . وان لا أبواب بين الاثنين ولا عتبات سوى الابواب والعتبات التى يقيمها جهلى ، وتبصرها عينى الكليلة من خلال أغشية الحواس المحدودة

أدنو من السرير الابيض الصغير القائم خلف الباب فلا أبصر لاول وهلة معاون الطبيب الواقف عند رأسه ، اذ تتسمر عيناى بوجه عرفتاه من زمان فأحبتاه ، والآن لا تكادان

---

(١) لقد أثبت الكشف الطبى بعدالوفاة تحجرا فى الكبد مع بداية سل فى احدى الرئتين

تعرفانه . فقد كان بلون الرمل يسقيه دم الحياة ، فأصبح رملا يعلوه رماد المنية

هاهو ذا الانف المستقيم الارنبة ، المتلىء المنخرين ، قد انتصب نحو السقف الباهت القاسي ، وليس فيه من الدم الا بقية ضئيلة تنهزم لحظة فلحظة من وجه عساكرالانحلال . فهو لا يكاد يتنفس كأن به زكاما من أنفاس الارض والسماء . وكأن الطبيب الاكبر ــ الموت ــ يداويه بنفحات من سماء غير سمائنا وأرض غير أرضنا

ها هماذان العينان اللتان كانتا تبوحان بأسرارهما . فكم رأيت فيهما من بريق الهام ومن حرقة شوق ومن نور بهجة . كم رايتهما تغتسلان بالدمع . وتلتهبان بالضحك . وتتغلغلان فى وجوه الناس والطبيعة لتستجليا معانيها . وأحيانا تذبلان وتذهلان عن كل ماحوليهما كأنهما تتطلعان الى ماوراء الستار أو تداعبان طيوف أفكار وعواطف لا تجول فى أزقة الناس ومساكنهم ومعابدهم . والآن لست أرى فيهما لا رعشة ولا ومضة . فهما مطبقتان تحت حاجبيهما المقوسين وقد اسدلتا اهدابهما الطويلة حتى الوجنتين فلا تبوحان بما أغلقتا عليه من أسرار . وقد يكون خلف أجفانهما وميض بروق كثيرة . فمن يدرى ما فى غيبوبة الموت من ظلمات وأنوار ؟

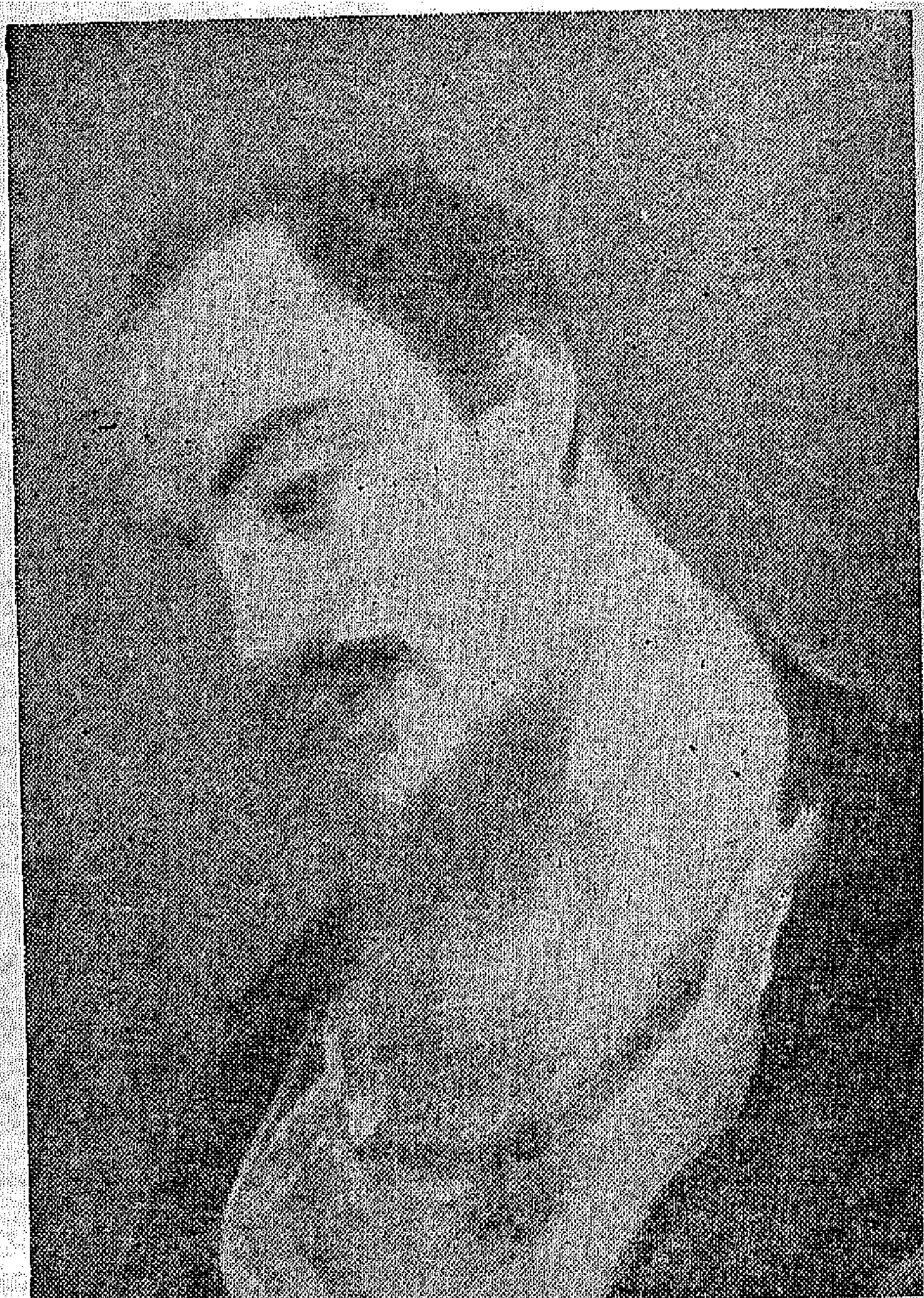
ها هماذان الشفتان الحساستان وقد كانتا بلون القرمز فأصبحتا بلون الرماد . كم انفرجتا من قبل عن بسمة ، وكم تكمشتا بألم . كم قبلتهما أم واخت وحبيبة ، وكم من الشفاه تشتاقهما حتى الساعة ! وتلك الشفة العليا كم ارتجفت بغضب شديد أو بفرح قوى أو بحزن عميق . أما الآن فهاهى ذى قد التصقت بأختها السفلى فى خط كأنه خاتم الحكمة الصامتة أو الحد الفاصل بين ما يمكن وبين ما لا يمكن التلفظ به . ولا تنفصل عن أختها الا لتفتح الباب لانة هى اشبه بزفرة مذبوح منها بأنة مريض

ها هى ذى الجبهة العالية التى تقهقر عنهـا الشعر فزادها ارتفاعا . وابيض عن جانبيها فزادها جمالا . وجعدتها السنون تجاعيد لطيفة فأكسبتها جلالا . هى الجبهـة التى كنت اذا نظرت اليها أكاد ألمس وأبصر ما خلفها من الاشباح والرسوم والمقاصد والمتاعب . أما الآن فهى أبعد من مجال بصري ولمسى

هاهو ذا الشعر الكستنائي ، وقد عبث المشط بنصـفه ، وبيض الشيب نصف ما تبقى منه ، يغطى الآن جانبـا من الوسادة وكأنه ، بعد أن هربت منه الحياة ، خصل من صوف لا لمعان فيها ولا تجاذب

« بلى » ـ تقـول لى عيناى ـ « بلى . هذا هو رفيق أحلامك . وصديق أفكارك . وشقيق روحك . هذا جبران . وهو الآن يحتضر . فاعلم انك فى حضرة الموت »

« جبران ! » ـ يناديه قلبى وتناديه كل جوارحى . اما لسانى فلا يتحرك وشفتاى لا تنفتحـان . لاننى عندما أحدق فى وجهه ، وقد أمسكت بعضلاته أصابع الالم القاسـية ، وعندما أسمع تلك الغرغرة الهائلة فى حلقه ، والزفرات المتقطعة الهاربة من صدره ، أقول فى نفسى : « لعله ان انا ناديتـه يسمعنى فيتألم اذ لا مقدرة له على الجواب . » ثم أقول : لعله يبصرنى . واسمع فى داخلى صـوتا يقول ـ بل هو يبصرك . فأرتاح هنيهة الى هذا الصوت ، واهبط الى كرسى بجانب السرير فأصـغى طويلا الى غرغرة تلك النـارجيلة الجهنميـة فى حلق أخى والى الزفرات التى تولدها ، فأهم أن أصيح به ـ الا اتفلها من فمك . الا تقيأها . جاهلا انه ساعة يتفلها يتفل معها آخر انحابه . وبعد أن أستسلم الى القدر النافذ أمام عينى اغرق فى بحر من التأمل هو ملجأى فى كل شدة . وأشعر كأن جبران يحدثنى وكأنى احـدثه . وكم تحدثنا قبل ذلك بالصمت ! ـ فاطمئن بعض الاطمئنان لاعتقادى انه شاعر بوجودى معه ، عارف انه ليس وحـده وان قلب



جبران في الثامنة والعشرين
عن صورة زيتية بريشة يوسف الحويك

صديق يشيعه فى عبوره من هذا الشاطىء الى ذاك



أدير طرفى فى الغرفة فأتناول كل مافيها . عرضها ثلاثة اذرع . وطولها ستة . وعلوها أربعة . فى جدارها المقابل للباب نافذة تطل على الشارع . وفى النافذة طاقة من الازهار الذاوية . الي جانب النافذة خزانة صغيرة للثياب وبجانبها طاولة صغيرة بيضاء عليها عقاقير وطلاسم طبية . ووراء الطاولة السرير . وعند راس السرير معاون الطبيب بسترته البيضاء وقد أخذ بذراع المريض يجس نبضها بين الفينة والفينة ويحقنها بمخدرات أو منبهات هو أدرى بها

ــ هل هو يشعر بألم يا حضرة المعاون ؟

ــ ولا بشىء

ــ كم تدوم هذه المعركة ؟

ــ لقد قاربت النهاية

وينتهى حديثى مع المعاون . فأعود الى حديثى مع جبران. ومع الموت . ومع نفسى . فأقول لجبران :

ــ ما الذى تزودته يا أخى لرحلتك هذه ؟

فيجيبنى جبران :

ــ غر ــ غر . . . غر ــ غر . . . عنــ ــ ن

وأقول للموت :

ــ ماذا أنت فاعل بأخى ياموت ؟

فيجيبنى الموت :

ــ غر ــ غر . . . غر ــ غر . . . عنــ ــ ن

واقول لنفسى :

ــ ماذا تبصرين يا نفسى وماذا تسمعين ؟

فتجيبنى نفسى :

ــ غر ــ غر . . . غر ــ غر . . . عنــ ــ ن

ويصعد قلبى الى أذنى فيقرعهما قرعا عنيفا . واذ اسأله

عن قصده يجيبني : « غر — غر ... » فتدلهم آفاق فكري وتضيق . ولـكنها لا تلبث أن تتسع وتلتهب بوابل من شهب الذكريات وبلعلعة بروق كثيرة من الخيالات الدفينة في أعماق الروح . وكلها لا ينقاد الى نظام ، ولا يتقيد بزمان . فقـد تشتعل الذكرى الواحدة وتنطفىء مرات متواليـة ، حين أن اختا لها لا تنير الا مرة واحدة . وقد تلمع ذكرى قديمة قبل ذكرى حديثة . ويبرق خيال هرم بنور اسطع من نور خيال لمـا يزل فتيا . وعلى أنوار هذه الذكريات والخيالات تبـدو لعيني حياة المحتضر أمامي صفحات مبعثرة . لكنها مخطوطة بقلم واحد ، ومداد واحد ، ويد واحدة . واليد التي خطتها تعرف أن ليس فيها صفحة زائدة أو حرف مهمل . ولاني اعرف ذلك احاول أن افهم الصلة بين هـذا السطر وذاك ، وتلك الـكلمة وهـذه : بين بشرى ونيويورك . فم الميزاب ومستشفى القديس فنسنت . جبران خليل جبران والنسوة الواقفـات خارجا . وبين كل من عرفهم وعرفوه من رجال ونساء وأطفال . والذين قرأوا ويقراون في هـذه اللحظة مؤلفاته ، او تأملوا ويتأملون الآن رسومه . والذين أسعدهم بحياته وأشقاهم ، أو اسعدوه وأشقوه . وبينه وبيني — لماذا تلاقينا وتآخينا في لحظة من الزمن لا في سواها ، وفي فسحة من المكان لا في غيرها . ولماذا كتب له أن يموت بين يدي ، ولي أن أشيعه من هـذه الديار ؟ فهل تراه يستقبلني في تلك ؟ أو تراه يدرك ما هو فيه الآن ؟ كم تحدثنا عن الموت فرأيناه ولادة أخرى . وكم دعوناه والحيـاة توأمين . اتراه يقول الآن ماكان يقوله أمس ؟ وان كان لا يفكر الآن لابالارض ولا بالسماء ولا بالموت ولا بالحيـاة ، فبماذا يفكر ؟ أم ترى غيبوبة الاحتضار أعمق من الفكر والحلم والخيـال . فقد تكون انعتاقا قصيرا من الحس بالوجود الى الوجود الذي لاحس فيه . أو تمهيدا الى الانعتاق الابدي من الوجود الادنى للحظوة

بالوجود الاسمى ــ باللاوجود

لا أكاد افلت بخيالى من عالم الحس حتى تجذبنى حشرجة الموت اليه . فتتدفق على من النافذة أمواج حياة المدينة ــ اصواتها المبلبلة ، شهواتها المتهيبة ، مطامعها المنسابة كالافاعى ، افراحها الظاعنة واوجاعها المقيمة . وتنسكب كلها فى مقطعين صغيرين : « غر ــ غر ... » ثم تنفرج جدران الغرفة وتتراجع الى وراء الافق . ويتقلص سقفها كما لو كان سحابة من دخان ، فأدخل بيوت النائمين ، ومعابد المصلين ، ومخازن المتاجرين . واطل على مخادع الحاملات ، ومضاجع العرائس ، واسرة المحتضرين ، وعروش الملوك ، وكهوف المتنسكين . وأمشى مع الاسرى والمعتقلين ، وأجلس مع القضاة والمجرمين . أطوف الارض كلها واصيخ الى أصواتها ، واجوب الفضاء وما فيه من عوالم محسوسة فأعود منها كلها بنغمة واحدة ــ « غر ــ غر ... » وتستقر هذه النغمة فى أعماق كيانى كأنها كانت هناك منذ الازل . فأستغرب كيف لم أسمعها من قبل . ويخيل الى أنها نغمة الحياة المثلى ولغتها الوحيدة . وان كل ما تدور به النجوم ، وتتلظى به الشموس ، وتتغنى به الارض ، ويتلفظ به الناس معناه « غر ــ غر .. » وان الـ « وع وع » التى يقذفها صدر الطفل عندما يطل على عالمنا هذا هى عين الـ « غر ــ غر ... » التى تنسل من صدر المحتضر عندما يشرف على عالم غير هذا العالم

خيالات بشرى

« وع ! وع »

الصوت خارج من ذات الحنجرة التى تخنقهـا الآن أمامى غرغرة ولادة أخرى . غير أن القابلة التى تسمع ذاك الصوت لا تسمع فيه هذه الغرغرة فيبرق وجهها عندما تلتفت الى الوالدة الملقاة على فراش المخاض وتقول لها بصوت متهلل :

ــ صبى ، صبى ! الحمد لله على خلاصك بخير ياروحى

وكما تنشب اشعة القمر الناعمة فى الغيوم تنشب ابتسامة هادئة فى تجاعيد الوجع الذى يقنع وجـه الوالدة . فتجيب القابلة بصوت لا يكاد يسمع : « الله يشكر حمدك يا أخيتى » وبطرفة عين يمتلىء ذلك البيت الصغير بكلمة واحدة ترفرف فى كل جوانبه كأنها عصـفورة افلتت من قفص . فهى على السنة القريبات والجارات الجالسات حول الموقد بالقرب من فراش الوالدة . وهى فى الجدران العميـاء من كل بصر الا الباب . وهى فى السقف الذى جعل الدخان اخشـابه بلون القير وهى فى الريح الصرصر خارجـا ـ ريـح ديسـمبر تذر قلبـه الابيض على أعماق وادى قاديشـا ، وعلى ذوائب بنات أرز سـليمان وحفيداتها ، وعلى رأس فم الميزاب ـ « صبى ! صبى ! » وتهنىء النسوة الوالدة وبعضهن بعضـا كأن المواود مولود كل واحدة منهن :

ــ مبارك ما جانا ، مبارك ما جانا !

بين وعوعة الطفل ، وتنهدات الوالدة ، وتمتمة القـابلة ، ولغط الجارات والقريبات ينفتح الباب فتندلق من الخارج

موجة من أنفاس ديسمبر الباردة ، ويبقى الباب مفتوحا وفيه رجل ربع القامة ، أشقر البشرة ، أزرق العينين ، كستنائى الشاربين ، حسن تقاطيع الوجه ، قوى العضل ، دون الاربعين بقليل ، فتصيح به القابلة :

ـ قبرتك أمك . أغلق الباب . فأنت تكاد تميتنا وتميت الصبى بردا

عندئذ يغلق الرجل الباب بعنف وبوثبة أو وثبتين يدرك فراش الوالدة فيقف هنيهة بجانبه حابسا انفاسه . وفجاة تشرق أسرته فيمسد شاربيه ويهتف :

ـ صبى ! صبى !

فتجيبه القابلة بين المزح والجد :

ـ يا لضياعه فيك !

ـ لا يا أم حنا . لا ! خليل جبران يستاهل أكثر من ذلك. صحيح انى سكران لكن خوف الله بقلبى . كامله ! ـ مخاطبا زوجته الملقاة على الفراش ـ كامله ! والله لاغسلن رجليك وأشرب ماءهما . مبارك ما جانا . أتعرفين ماذا سنسميه ؟ جبران ـ جد العائلة . أرخى يا امرأة أرخى . كم . اليوم من الشهر ؟ ستة ؟ أرخى ـ ولد جبران خليل جبران ليلة السادس من ديسمبر سنة ١٨٨٣ فى قصبة بشرى من اعمال لبنان

تتململ الوالدة فى فراشها وتبتل حدقتاها الواسعتان الوديعتان بدمعتين تجمدان عند أطراف الاهداب . وتطفو على وجهها الاسمر النحيل سحابة من الكآبة تغطى ما لمع فيه من أشعة البهجة قبل ذلك بقليل

ـ كامله . كامله ! يا للعيب ! أنت تبكين ؟ اذا لم أسكر فى مثل هذه الليلة ، فمتى ؟

فقالت القابلة :

ـ هنيئا لمن رآك صاحيا ولو مرة واحدة

ـ أم حنا ، أم حنا ، الزمى حدودك . مهنتك سحب الاطفال

من بطون الامهات ، لا سحب الرجال من بطون الادنان. كامله. كامله ! يا للعيب ! مليح . مليح . تركنا الكاس . وحياة جبران وبشرف هذين الشاربين

ويمسك خليل جبران بشاربه الايمن وبلمح الطرف يقفز الى خزانة صغيرة في زاوية البيت فيتناول منها كمية من الزبيب والجوز واللوز ويأخذ يفرقها على النسوة اللواتي في البيت :

ــ كلوا ، كلوا ، هذه « حلوينة » جبران

النسوة يأخذن ويأكلن ويدفعن ثمن ما يأكلنه طلبات من أجل الوالدة والمولود :

ــ ان شاء الله يكون من أولاد السلامة. الحمد لله على خلاصك بخير

وبعد قليل يشعلن مصابيحهن وينطلقن في دجنة ديسمبر كل واحدة الى بيتها . ما خلا القابلة التي لا تترك الوالدة ولا الطفل

ومع النسوة العائدات الى بيوتهن ، وعلى أنوار مصابيحهن، تدرج في الارض حياة لا يعرفن من أسرارها سوى انها صبي. ولا يسمعن من أصواتها الا « وع . وع »

٢

تنام الوالدة ليلتها وبجانبها كتلة اللحم والدم التي انحدرت عنها والتي تدعوها ابنها ولا تعرف من شأنها أكثر مما يعرف ميزاب العين من شأن المياه المنحدرة عنه ــ من أين جاءت ، والى أين تمضي ، وما غايتها من الارض وغاية الارض منها

ولو كان لكامله جبران أن تبصر الصلة التي بين فراشها في بشرى وبين السرير الابيض الصغير في مستشفى القديس فنسنت في نيويورك ، لو كان لها أن ترى قطرات الحياة التي انبثقت من رحمها تلك الليلة تغور بعد ثمان وأربعين سنة في رحم الزمان ، وفي بلاد قصية ، لتحولت بهجتها الى رعشة ولعادت الى قلبها ومفاصلها آلام المخاض دون آماله . ولو كان

لها أن تلمس أسلاك الروح الخفية التى تربط طفلهـــا برجال ونساء وأطفال كثيرين فى العـــالم ، وبأرواح ما برحت خلف الستار تعد لها الاقدار معداتها لتبرزها الى مسرح هذا الوجود ـ ومنها روح كاتب هذه السطور ـ لو كان لكاملة جبران أن تلمس تلك الاسلاك لتكهربت من شدة الدهشة ووقفت أنباضها

غير ان الحياة التى هى أم كل أم تشفق على بناتها وأبنائها . فلا تضع فى حدقتى مخلوق من نورها أكثر مما يحتاج اليـــه ذلك المخلوق ليستدل على طريقه . ولا تودع ساقية من قوتها أكثر مما يلزمه لقطع المسافة التى تخطها له

٣

لا يطلع الفجر فى بشرى حتى يكون الخبر قد تمشى من باب الى باب بأن كامله ابنة الخورى اسطفان رحمه وزوجة خليـــل جبران قد وضعت صبيا . فتعيد جارة بيت جبران على زوجها ما قالته له الليلة السابقة ، ولا فاصـــل بينهما وبين جيرانهما سوى جدار مشترك بين البيتين :

ـ صدقنى ، كامله تستحق . لماذا الجدال ، امرأة عندها من الآدمية ما يفيض عنها . ليس أرجح من عقلها ، ولا أحسن من طباعها ، ولا أدفأ من لسانها . تمشى فلا تحس بها الارض . لكن ربنا ـ سبحانه فى ملكه ـ لم يوفقها بالرجال . تزوجت حنا عبد السلام رحمه ، وكان رجلاطيبا ، فأخذها الى البرازيل ومات هناك بعد أن وضعت له بطرس . والآن أخذت هذا السكير ـ خليل جبران ـ أتراها تقبره كذلك بعد أن جاءته بهذا الصبى؟ يا لضياعها معه . خنصرها يسواه

ـ لماذا لا تقولين يالضياعه معها ؟ أخذها أرملة وعندها صبى

ـ وان تكن أرملة ـ أليست بعد فى مقتبـــل العمر ؟ فهى لا تزيد على الخمس والعشرين

ـ بل تخجلين أن تقولى الخمس والثلاثين . ان تكن هى صبية فهو ليس عجوزاً

ــ عجوز وزيادة . عنده أربعون فما فوق

ــ ولا رأى الست والثلاثين • مع ذلك أخبريني بماذا هي أحسن منه ؟ بسبحتها ؟ أم بوجهها الاسمر الهزيل ؟ ان طلبته للرجولة فقليل هم الذين يرفعون أثقالا كالتي يرفعها . وان طلبته للكلام فلست أعرف كثيرين يفوقونه بذلاقة اللسان • وان طلبته للصورة فكم تعرفين في بشرى من هم أحسن منه صورة ؟ وان طلبته للبسط والعشرة فليس أطيب من عشرته وأقرب من بسطه

ــ من حيث البسط ــ الحق معك•متى حضر القدح فلتخرب الدنيا • ألا دعني منك ومنه ومن كل الرجال الذين على شاكلته

٤

يفيق بيت خليل جبران على وعوعة المولود الجديد • فينهض من فراشه في الزاوية صبي في السادسة من سنيه • وللحال يلتقفه خليل بين ذراعيه ويقبل وجنتيه المتوردتين وعينيه الواسعتين الناعستين ثم يضعه من يديه ضاحكا وقائلا :

ــ بطرس ! أعرفت ان أمك جاءتك بأخ ؟ أتحب أن تراه ؟ تقدم يا روحي تقدم

فيدنو بطرس من فراش أمه بخطوات مترددة ، وقلب خافق، ووجه يحاول أن يخفي الفرح الطافح عليه • ويجثو بقرب الفراش فوق أمه التي تمد يدها الى شعره الحريري وتحني اليها رأسه الجميل وترسم قبلة حنونا على جبينه النير وتقول له بصوت هادىء كله محبة :

ــ ماذآ تريد أن تسمي أخاك ؟

ــ عنتر !

فتضحك الوالدة ويقهقه الوالد قهقهة يسمعها الجيران ، ويأخذ وجه بطرس بين يديه ويضغط على خديه :

ــ جبران اسمه ، جبران ــ جد العائلة . جبران أحسن من

عنتر



في تلك الساعة ينتصف الليل في مدينة تدعى كولومبيا من ولاية سوث كارولينا ، من أعمال الولايات المتحدة، فتجلس في سريرها فتاة أمريكية اسمها ماري ، لها من العمر عشرة سنوات ، وتفرك عينيها بشدة كأنها تحاول أن ترى في ظلمة اليقظة ٠ ما رأته في نور المنام

فقد حلمت انها ذاهبة الى المدرسة وأن كلابا كثيرة انبرت من جانبي الطريق تنبح عليها وتكشر عن أنيابها. فأخذت تستغيث برفيقاتها ، ورفيقاتها يقهقهن ساخرات بها وقائلات : « افتحي فمك الجميل يا ماري تهرب الكلاب ! » فأجهشت بالبكاء وطفقت تعدو بكل ما في رجليها الصغيرتين من السرعة الى أن دخلت غابة من الادغال الشائكة ٠ فوقفت هناك لتستعيد أنفاسها ، واذا بها وحدها ولا كلاب ولا رفيقات ولا طريق . فامتلك عليها الجزع كل حواسها وما درت الا وهي على ركبتيها تصلي

وبينما هي تصلي شعرت بقوة تجذبها الى الامام حتى كادت تهمي على وجهها ٠ فالتفتت واذا بخيط من الحرير الابيض قد شد على وسطها ظنته لاول وهلة خيط عنكبوت ٠ واذ حاولت أن تقطعه وجدته أمتن من حبل قنب ، ورأت أنه يمتد في الغابة كأنه شعاع من نور في ظلمة ٠ فنسيت في الحال كل ما بها من جزع وراحت تلملم الخيط وتتبعه لافة اياه على يدها، وقد أصبح شاغلها الاكبر أن تصل الى طرفه الآخر لتعرف بماذا شد ، ويد من تشدها به . وما فتئت تمشي مع الخيط الى أن بلغت شاطئ بحر عجاج ٠ فالتفتت واذا بالخيط يمتد فوق الامواج الى ما وراء الافق . عندئذ جلست على الرمل تفكر في بهلوان رأته يوما في ملعب يمشي على سلك واحد وتقول في نفسها : « ليتني بهلوانة ٠ » وظل هذا الفكر يساورها الى أن نهضت وبعزمها أن تفعل كالبهلوان ، فما وضعت رجلها على

الخيط حتى أفاقت من نومها وقلبها الصغير ينبض كقلب خشف يطارده ذئب • فأخذت تتلمس وسطها ويديها علها تجد أثرا للخيط • واذ لم تقع له على أثر عادت فغرقت في فراشها ، وشدت اللحاف الى فوق راسها ، وانغمست فى نوم عميق



كانت ليلة الخميس من سبة الآلام • وكانت كامله جبران جالسة على حصير فى بيتها ، وعلى صدرها طفلتها سلطانه ، وعمرها سنة ، والى جانبها ماريانا ، التى سبقت أختها سلطانة الى هذا العالم بسنتين ، وقد ألقت برأسها على فخذ أمها ونامت نوما هنيئا ، وأمام الام بكرها من زوجها الثاني وهو شاخص اليها ومصغ الى كلامها بكل ما فى سنيه الخمس وأشهره الاربعة من الشوق الى استماع الحكايات

في تلك الليلة نام جبران وخلف أجفانه تتسابق خيالات غريبة : أكمة عليها صليب • وعلى الصليب رجل بلحية شقراء وشعر أشقر مسترسل وقد سمر بيديه ورجليه ، ولا ذنب له الا انه نزل من السماء ليجعل الناس كلهم صالحين، ومن حواليه جماهير يبدون تارة أقزاما بلا شعور ، وطورا عمالقة بلحى سوداء تكاد تلمس الارض • وفي أيديهم حراب يطعنون بها الذى على الصليب باصقين فى وجهه ومتهكمين عليه واسمهم اليهود • وفي « السماء » كرسى كبير مرتكز على أربعة نجوم ، وعلى الكرسى « الرب » وقد تدلت لحيته العظيمة البيضاء الى الارض وهو يقول : « هذا هو ابنى الوحيد • » ثم ينفخ فى نار ليصبها من فوق على رؤوس اليهود • وعند أسفل الصليب امرأة اسمها العذراء تنتحب وتصيح — يا ابنى ! يا ولدى !

أفاق جبران مع فجر الجمعة « الحزينة » فرأى في الباب أخاه بطرس وزمرة من رفاقه ، وكلهم حفاة وعلى أهبة الخروج من البيت . واذ سأل أخاه الى أين ؟ أجابه بأنهم صاعدون الى الجبل « ليتعذبوا » مع المسيح ويأتوا بأزهار يضعونها على محمله فى

حفلة جنازه فى الكنيسة • فتوسل اليه أن يأخذه معه • ومال بطرس الى ذلك لانه كان يحب أخاه من أمه محبة جمة ، لكن رفاقه شدوه من كمه وخرجوا به فى الحال قائلين ان لا وقت لهم « لمداداة » الاطفال وتمسيح دموعهم

بكى جبران وانتحب طويلا ، ولم تستطع أمه أن تغريه لا بالزبيب ولا بالوعود • ولم يزده ضرب أبيه ، الذى كان يدخن سيجارته ويمتص قهوته المرة ، والخصام الذى أدى اليه الضرب بين والديه ، الا عويلا ودموعا • فماكان من أبيه الا أن دفعه الى خارج البيت وأغلق الباب قائلا :

ــ حرمتنى لذة قهوتى وسيجارتى ، انقذف من وجهى

مضى الظهر ، وحان وقت الجنازة ، وجبران لم يرجع • فقالت أمه لعله ذهب مع بعض ابناء الجيران الى الكنيسة . وانطلقت مع زوجها وجاراتها وجيرانها الى الكنيسة . فرأت هناك بطرس ورفاقه وقد جاءوا بالكثير من الازهار . أما جبران فلم تر له أثرا •• وانتهت الحفلة فسألت بطرس عن أخيه فأجابها انه لم يره كل ذلك النهار • فقالت لعله عاد الى البيت • لكنها عندما رجعت الى البيت لم تجده هناك • فاضطربت أفكارها وانهالت على زوجها توبخه وتلقى المسئولية عليه اذا ــ لا سمح الله ــ حل بابنهما سوء • وأخيرا أخذت بطرس وبعض رفاقه وراحت تفتش معهم عن جبران • فوجدوه قبيل الغروب فى المقبرة خلف الكنيسة وفى يده طاقة صغيرة من « بخور مريم » ، وعندما أقبلت عليه لتؤنبه على فعلته تحول غضبها الى حنان ومحبة بعد أن سمعت من فمه كيف انه ذهب الى البرية وحده « ليتعذب » مع المسيح • وكيف جاء بأزهار ليضعها على محمله فى الكنيسة فوجد الكنيسة مقفلة • وعندئذ قصد المقبرة ليفتش ما بين القبور عن قبر المسيح فيضع أزهاره عليه

٦

ذات يوم عاد جبران من مدرسة القرية دامى الفم ، مهشم

الاذنين ، ممزق القمباز • وعندما استنطقته أمه عن السبب أجابها ، والدموع فى عينيه ، بأن أحد رفاقه دعاه « سهيان وبكاء » ، فلم يقبل الاهانة وردها بلكمة • غير أن رفيقه كان أقوى منه ، لانه أكبر منه سنا ، فرد له اللكمة لكمات • ولو لم يكن أكبر منه لكان « قبره » ولكنه سيكبر ويقبره بعد . فألقت عليه أمه موعظة فى حسن السلوك وتجنب الشر ، أما أبوه فدعاه جبانا وزاد فى لكماته لكمتين !



وفى يوم آخر عاد بطرس من المدرسة الى البيت عند الظهر، وخلافا لعادته ، لم يكن معه أخوه جبران • واذ سألته أمه عن السبب أخبرها بأن الخورى « زرب » أخاه لأمرين : أولا لانه لم يحسن قراءة مثالته السريانية ، وثانيا لان الخورى فرض عليه كتابة المثالة عشر مرات • وعندما جاء يفحص دفتره وجد انه بدلا من كتابة المثالة قد صور فى الدفتر شبه حمار نائم وعلى رأسه قلنسوة سوداء ، وفى احدى أذنيه قد علق كتاب وفى الاخرى مخلاة

وكان قبل ذلك بأيام قد دخل أبو جبران البيت فوجد ابنه وفى يده فحمة يرسم بها على الحائط أشكالا لم يفهم الوالد لها معنى ــ كأنها بيت وليست بيتا ، وكأن أمام البيت فتاة كئيبة وليست فتاة كئيبة . فضربه وعنفه قائلا : ان خيرا له أن يدرس مثالته السريانية من أن يسود الحائط • لذلك عندما سمع بما فعله به معلمه الخورى قال من كل قلبه : « بيستاهل »



كان جبران يلعب خلف البيت عندما رأى رجلا غريبا يسوق بغلا عليه قربتان وينادى « الزيت الحلو » فأطلت من باب بيتها عجوز فى يدها سبحة طويلة وسألت الرجل أن يذيقها زيته ففعل • وبعد جدال عنيف اتفقت وإياه على السعر ثم دخلت البيت وعادت بزجاجة فارغة وقالت لبائع الزيت أن يكيل لها

ثلاث أواق فكالها . وقبل أن يفرغها فى الزجاجة سألته العجوز عن دينه فأجابها انه روم . فأدارت فى الحال ظهرها عنه وعادت بزجاجتها الفارغة الى بيتها وأقفلت البـاب وراءها بعنف وهى ترسم علامة الصليب وتتمتم بكلمات مبهمة

بعد قليل كان جبران بجانب أمه يسألها :

ـ ما هو ديننا يا أمى ؟

ـ نحن موارنة يا ابنى

ـ ومن هم الروم ؟

ـ هم نصارى مثلنا

ـ ولماذا اسمهم روم واسمنا موارنة ؟

ـ عليك أن تسأل الخورى يا ابنى فهو ينبئك أحسن منى

ـ هل يخنقنا الرب اذا اشترينا زيتا من رجل روم ؟

ـ كلا يا ابنى

وما ان أتم الوالد أسئلته حتى دخل أبوه البيت ونادى بزوجته أن تأتيه بزجاجة فارغة ليبتاع زيتا . فأطل جبران من البـاب ورأى بائع الزيت الذى التقاه سابقا . ورأى أباه يأخذ منـه زيتا وينقده الثمن ويلح عليه بتناول العشـاء معهم وتمضية الليلة عندهم . فكاد يرقص فرحا . لكنه بكى عنـدما انصرف الزيات فى سبيله شاكرا لأبيه لطفه وكرمه

٩

ـ نويت السفر فى الغد من غير شر ؟

ـ نويت

ـ ودبرت فرسا ؟

ـ دبرت اثنين

ـ ولمن الثانى ؟

ـ لجبران

ـ لجبران ؟ لقد فقدت عقلك اذا كنت لا تمزح

ـ لا ، لست أمزح

ـ وكيف لولد عمره احدى عشرة سنة أن يتجول فى وعور هذه الجبال على ظهر فرس وان ينام فى خيام البدو وبين الماعز والاغنام ومع القمل والبراغيث ؟ أم أنت تريد أن تدربه منـذ الآن فى الطريق التى سلكتها بالتزام عد الاغنام والماعز ، وتظلم اصحابها ورعاتها ، ليشبع سنه ويجوع اثنتين ، ويقضى حياته فقيرا كما نحن فقراء ؟

ـ بل أريد أن أعلمه منذ الآن أن قرصـة البرغوث والقملة لدغدغة لطيفة بالنسبة لقرصات لسان أمه . وان بعر المـاعز والغنم لأطهر من جواهر الناس . وخيمة البدوى لأشرف من قصورهم . وبعد ذلك ، آن كنت تعرفين له طريقا أكثر كسبا وسهولة من طريق أبيه فدليه عليها

وأدى الجدال الى خصام بين الوالدين اشترك فيه الاولاد . فأخذ بطرس جانب أمه والابنتان الصغيرتان جانب والدهما . وبقى جبران على الحياد لانه كان يحب أمه حتى العبادة ، ولم يشأ أن يغيظ أباه خوفا من أن يحرم السـفر معه في الغد . وانتهى الامر بأن العشاء الذى كانوا قد جلسوا يتناولونه على صينية مستديرة محوكة من قش الحنطة ظل كما كان . فعاد الخبز الى « المعجن » والطبخ الى القدر . وبرزت الفية العرق من مخدعها فنقل أبو جبران بعض ما فى جوفهـا الى جوفه ـ ولم يسافر فى الغد



عاد بطرس الى البيت عصر ذات يوم فوجد أمه وحدها ودموعها تترقرق على خديها . وقبل أن يفوه بكلمة بادرته بقولها :

ـ لاتخف يا ابنى ، لا تخف . هو القلب يضيق به الصـدر فى بعض الاحايين فيهرب من العينين . ومتى كان الصدر صدر أم فياويل قلبها ، ويا ويل عينيها ! انت مصر على السفر الى أمريكا منذ سنين ، وأنا وقفت فى سبيلك حتى الآن . أما اليوم فقد فكرت طويلا وصليت لربى طويلا . وعرفت انك مصيب

فى عزمك . فلا حياة ولامستقبل لك هنا . وها أنت ذا بلغت سن الرشد . فأنا أقول لك « بحفظ الله » . انما ستطأ رجلى ظهر الباخرة قبل رجلك . وسيكون أخوك جبران وأختاك ماريانا وسلطانه معنا . أما هو فسيبقى هنا . وسنفعل كل مافى طاقتنا لنجعل حياته هنيئة وسهلة . فهو ــ كما تعرف ــ تهمه سيجارته وقهوته وكأسه اكثر من كل شيء

ــ اذا وفقنى الرب يا أمى فسيجارته لن تنطفىء وقهوته لن تنقطع وقدحه لن يفرغ . فأنا أحبه بالرغم من كل ما سببه لك من ألم . وسينال جبران قسطه من العلم . ومثله ماريانا وسلطانه . وستكونين أنت معززة مكرمة . وسندفن الفقر باذن الله

ــ وفقك الله يا ابنى . وفقنا الله جميعنا . ان قلبى يتفتت عليه . فهو سيبقى هنا كوتد ولا أطناب مشدودة به . ولكن ما العمل ؟ ما الحيلة وقد هرب منى الصبر ؟ اننى أخشى هذه السفرة يا بطرس . من يدرى متى نعود ؟ وقد لا نعود الى بلادنا . داخل البحر مفقود ، والخارج منه مولود . لقد اتكلت على الله يا ابنى . فاتكل عليه معى

ــ لا تخافى يا أمى . ففى بوسطن حيث نحن ذاهبون عدد غير قليل من أبناء بشرى . نحن نعرفهم وهم يعرفوننا . وسيسهلون لنا السبيل فى بادىء الامر

وجف دمع الوالدة وتوشح وجهها النحيل بسحابة من آلام ما كان ومخاوف ما سيكون . أما بطرس فمشت فى عروقه عزيمة سنيه الثمانى عشرة . وتفشت فى وجهه الناعم حمرة الشباب العذر . واتقدت عيناه الواسعتان بنور الأمل المكمم. وراقه أن أصبح فى عين أمه رجلا تلقى عليه مسؤولية الرجال . ولم يخطر له ولا لأمه ببال انهما ، حتى ولو شاءا لما تمكنا من أن يحيدا عن الخطة التى رسماها قيد شعرة . وان ما ندعوه « قضاء » ليس الا ما نقضيه على أنفسنا ، كل حسب أعماله فى

هذه الحيــاة وما ســبقها • وانهما فيما اختطاه لنفسيهما كانا يتممان مشيئات عديدة غير مشيئتيهما ، وكلها مقنع ومكتوم• ومنها مشيئة الحياة التى لم يبصرا منها حتى ذلك الحين الا اثنتى عشرة سنة برموزها المبهمة ، وأنوارها المتحجبة ، وظــلالها المتنقلة ــ وهى حياة جبران

خيالات بوسطن

لبوسطن « روح » تمتاز بها عن كل مدن الولايات المتحدة. فهى اذا نسبت الى بعض مدن العالم القديمة ، مثل دمشق وأورشليم ورومة ، كانت طفلة بنت يوم ، بل بنت ساعة. غير انها بين مدن الولايات المتحدة من أقدمها ، وهى تباهى كل المباهاة بقدمها . حتى اذا عيرها أحد بأزقتها الضيقة الملتوية دلته فى الحال على ما فيها من آثار تاريخية تعود الى الثورة وما قبلها وبعدها . واذا نافستها مدينة جديدة بعدد سكانها أشارت الى عدد كبير من أبنائها الذين كان لهم أبعد أثر فى تحرير البلاد ، وتوجيه سياستها وتدريب حياتها الداخلية والخارجية . وهى تفاخر بلقبها « مدينة العلم » . ففيها من المعاهد العلمية والفنية ما ليس فى سواها . وقد أنجبت نفرا من خيرة الكتاب والشعراء والفلاسفة فى امريكا . وهى ضنينة بسمعتها ، شديدة الحرص على ثقافتها . وقد بلغ بها حرصها هذا حدا أصبحت معه حياتها خليطا من التقاليد المتحجرة والكبرياء الفارغة . فمن أكبر مفاخرها ان فيها دما انجلوسكسونيا أكثر مما فى سواها من مدن أمريكا . وانها لم تمزج هذا الدم بدم أجنبى الى حد ما فعلته اخواتها . فمدينة كنيويورك أو شيكاغو ليست أمريكا فى نظرها ، وان تكن فى امريكا . فالامريكيون فى عرفها أنواع ثلاثة ـ أصلاء ، وشبه أصلاء ودخلاء . أما الاصلاء فهم سلالة الذين نزحوا أولا من بلاد الانجليز ـ وهولاندة ـ الى أمريكا الشمالية . وفى مقدمتهم « الحجاج » الذين قطعوا المحيط الاطلنطى على مركب شراعى

يدعى « مايفلور » واستعمروا مقاطعة « انجلترا الجديدة » (نيوانجلند) فى الشمال الشرقى من البلاد التى أصبحت فيما بعد الولايات المتحدة . حتى ان أعظم شرف تدعيه عائلة امريكية اليوم هو رد نسبها الى أحد أولئك الحجاج • وقد تضخم عدد هؤلاء « الاشراف » — وبالاخص فى بوسطن وجوارها — الى حد أن الاسطول الانجليزى بمجموعه لا يكاد يقل فى عام ١٩٣٤ ما أقله ذلك المركب الشراعى فى عام ١٦٩٢ من أسلاف «شرفاء» امريكا اليوم — اذا صدق ادعاء كل المدعين !

وشبه الاصلاء هم الذين نزحوا قبيل الثورة وبعدها من أوروبا الشمالية بما فيه المانيا والدانمارك واسوج ونرويج . أما الدخلاء فهم المهاجرون الذين أخذت جيوشهم تتدفق على الولايات منذ منتصف القرن الماضى ما بين يهود وايتاليان ومجر وسلاف وسوريين وسواهم • وهم محتقرون جدا فى نظر الاصلاء وأقل احتقارا فى نظر شبه الاصلاء

فى بوسطن أحياء مختلفة لمختلف الامريكيين الدخلاء . وكلها حقير وقذر • وأحقرها وأقذرها حى الصينيين • مررت فيه يوما فى صيف سنة ١٩٢٥ فكدت أضع منديلا على أنفى لشدة الروائح المتصاعدة من كوم الاقذار الملقاة فى الشوارع وفيها قشور البطيخ والليمون والموز وفضلات المطابخ السابحة فى بحيرات صغيرة من السوائل القاتمة • وللذباب عليها أعراس ومهرجانات • وللكلاب فيها صيد وفير • وعن جانبيها بيوت كالحة الجدران عابسة المداخل تطل عليك من بعض نوافذها قمصان وكلسونات وكلسات تتنشف فى الهواء ان عزت الشمس • وأمامها صبية وبنات من صينيين وسوريين وارلنديين يلعبون ويتشاتمون ويتشاجرون

ذاك هو الحى الذى اختاره فى بدء هجرتهم أكثر السوريين الذين قصدوا بوسطن للارتزاق • فجاورت فيه نارجيلة التنباك نارجيلة الافيون ، وكان بينهما ما يكون بين الجيران . ولك أن

تصور لنفسك هذا الحى كيف كان فى عام ١٨٩٥ حين حلت فيه كامله رحمه جبران مع أولادها الاربعة

١

ـ جبران ، قم يا ولدى ، قم . كفاك درسا
ـ وماذا تطبخين لنا عشاء يا امى ؟
ـ مجدرة ، يا روح أمك ، أنت تحب المجدرة
ـ كل ما تطبخينه يا أمى لذيذ ، وكل ما تصنعينه حسن . سلم الله يديك
ـ ما كان أبوك يقول كذلك ، وأخوتك كثيرا ما يتذمرون من طبخى
ـ مالك ولأبى وأخوتى ، عندك جبران وكفى
ـ ما بالك تنسى أخاك بطرس ؟
ـ وعندك بطرس ، وهو سيجمع لنا مالا كثيرا . كنت فى مخزنه بعد انصرافى من المدرسة فباع وأنا هناك قميصا بدولار وبرنيطة بدولارين . بطرس سيكون غنيا وسنعود الى بشرى فنبنى بيتا كبيرا . وسنجعلك سيدة ونأتيك بخدم كثيرين
ـ أدامكم الله لى يا ابنى ، فأنا راضية ما زلتم معافين . العافية خير من المال
ـ وسأكتب أنا روايات كالتى أقرأها الآن
ـ وماذا تقرأ الآن ؟
ـ كوخ العم طام
ـ بالانجليزية ؟
ـ أبالعربية اذن ؟ طبعا بالانجليزية
ـ ليكن الصليب سياجك يا ابنى ، أفى سنتين حفظت الانجليزية الى أن أصبحت قادرا على قراءة كتاب كبير كهذا الكتاب ؟
ـ معلمتى الانجليزية تحبنى كثيرا ، وهى التى تسمينى « خليل » لانها تستهجن أن يكون اسمى الاول كاسمى الاخير .

وقد أعطتني اليوم هذه الرواية . ما أبشـع النـاس يا أمي وأظلمهم ويا ليت لك أن تقرأى حكاية العم طام وكم ذاق من ظلم الناس . سأقصها عليك عندما أنتهي منها

ــ لقد غيرت الحديث وأنسيتني ما كان بخـاطرى أن أقوله لك ، وهو أن تترك كتابك وتخرج فتلعب قليلا . من الكتـاب في المدرسة الى الكتاب فى البيت . ستهلك صحتك

ــ ومع من ألعب ؟ مع أولاد الصينيين أم الارلنديين أم السوريين ؟ ما أكثر السفهاء والاشقياء بينهم يا أمي ــ حتى بين البنات . وما أجمل اللسان النظيف والقلب النظيف . انى لاحسن حالا فى معتزل عنهـم مع كتبى ودفاترى وأقـلامى الرصاصية . فهى نقية طاهرة

ــ مع ذلك لا بأس لو خرجت وتمشيت ولو نصف ساعة

ــ او ما أخبرتك بما فعلته معلمة التصوير ؟ جاءت اليـوم برجل قالت انه مصور ــ يصور بيده يا أمي لا بالآلة ــ وأرته بعض رسومى . فقال لى : «أنت فرخ مصور» ، ودعانى لزيارته فى الغد

ــ وهل أنت ذاهب ؟

ــ طبعا

ــ أو ما كان الافضل لك ولنا يا ابنى لو ترددت فى أوقات فراغك على مخزن أخيك ودرست تجارته لتصبح فى المستقبل عونا له بدلا من أن تصرف وقتك فى التصوير ومطالعة الروايات؟

ــ يا للعيب ! أأم جبران تقول هذا القول ؟ خنصر مصـور يسوى ألف تاجر يا أمي ... ما عدا بطرس . وصـفحة من الشعر أثمن من كل ما فى المخازن من الانسجة

ــ لكننا فى حاجة الى المال

ــ وسآتيك بالمال . لا تخافى . اذا قصر بطرس لن يقصر جبران

ــ ليحفظكم لى الرب يا ابنى

٢

ما صدق جبران أن انتهت الصفوف بعد ظهر اليوم التالى حتى راح يفتش عن العنوان الذى أخذه أمس من المصور • كان يمشي ولا يبصر الأزقة وما فيها ومن فيها ، كأنه محمول على سحابة ، وكأن خلف الباب الذى يقصده عالما مملوءا أسرارا ، والرجل الذى سيفتحه له سيكشف له الستار عن سر تلو الآخر • أولم يقرأ ويسمع كيف ان بعض مشاهير الفنانين ابتدأت شهرتهم الفنية على يد انسان مجهول ساقته اليهم المقادير أو ساقتهم المقادير اليه ؟ ولا شك فى أن هذا المصور هو الرجل المقدور لجبران خليل جبران ـ هو ملاكه الحارس الذى سيفتح له أبواب الارض والسماء

كان جبران يؤلف فى فكره الحديث الذى سيدور بينه وبين المصور وأبدا ينتهى بأن يترك المصورمشدوها بغزارة مواهبه، وجميل منطقه ، وحسن مظهره ، وطيب أخلاقه ، هاتفا : « من كان مثلك حرام أن تضيع مواهبه بين أناس لا يعرفون لها قيمة • انى سأهتم بتربيتك الفنية• وستكون مصورا عظيما• » وكان خياله الفتى الخصب يورق ويزهرويثمر برسوم مستقبل زاهر عندما قرع الباب

رحب المصور بزائره وأخذ بيده وقاده الى سيدة جالسة فى كرسى على دكة خشبية صغيرة وقال لها : ها هو ذا الشاب السورى الذى أخبرتك عنه • وقد رأيت فى رسومه قوة خيال غريبة وذوقا فنيا دقيقا

مدت السيدة يدها الى جبران فأخذها بيده وأحس بدمه يصعد الى وجهه ثم يهرب منه • وبرعشة تتمشى فى كل عروقه فتربط لسانه وتضغط على حلقومه • ونكس عينيه الى الارض لكيلا يرى صدر السيدة المكشوف حتى الثديين وذراعيها العاريتين حتى الكتفين

ـ أنت خجول يا مستر جبران • تقدم ، تقدم واسمح لى أن

أمرر أصابعي في شعرك الكستنائي الناعم . شعرك طويل كشعر الفنانين • اذن أنت فنان منذ الآن • دعني أقبلك على جبهتك الجميلة ــ هكذا ، هكذا • بظني ان بلادك جميلة وكل أهلها أصحاب فنون • أليس كذلك ؟ أنا أحب الفن•لكن شغلي فيه حتي الآن لم يتعد جلوسي في هذا الكرسي لاصور لا لاصور ما قولك في صورتي هذه ؟ انها لما تكتمل بعد • وقد أوشكت أن تكتمل

وأشارت السيدة الى خامة على المنصب لا يزال دهانها رطبا عند ذاك رفع جبران عينيه الى الخامة وقال ، وكأنه بما قاله شاء أن ينتقم من محدثته لانها عاملته كما لو كان صبيا صغيرا لا رجلا مدركا :

ــ لا تكتمل الصورة حتى من بعد أن يتركها المصور • نحن لا نصور الا بدايات أو مقدمات•أما الصورة الكاملة فلا يبدعها الا الله

ــ كلامك أكبر من سنيك ، فكم عمرك يا مستر جبران ؟

ــ اربع عشرة سنة

ــ لا غير ؟

ــ وشهران

ــ أنت لم تعطني بعد رأيك في صورتي ، قل رأيك بالتمام، وأنا أكفل ان صديقنا المصور لن يغتاظ أبدا

أخذ جبران ينقل عينيه من السيدة الى الخامة ومن الخامة الى السيدة وهو لا يكاد يبصر لا تلك ولا هذه ، لانه ظل حانقا على نفسه كيف انقاد للسيدة فتركها تداعب شعره وتقبله على جبينه • ولو انه كان الرجل الذى يعتقد لما تجرأت السيدة أن تفعل به ما فعلت . لقد كان من الواجب أن يريها بتصرفه وحديثه انه ليس صبيا بعد • وها هي تسأله رأيه في صورتها فهل يجيبها أم لا ؟ الافضل ألا يجيبها لتعلم انه ليس طوع بنانها وانه ــ كرجل ــ له الحق أن يتمرد . وكفنان ــ أن يحتفظ

برأيه لنفسه

ولكن ، أليس من الانسب أن يعطيها جوابا يدهشها ويدهش المصور فيبرهن لهما انه ليس الصبي الذي يعتقدان . وانه ، على حداثة سنه ، ذو قدم راسخة في الفن ؟ غير انه لم يهتد الى جواب يرضيه لانه كان يفكر في السيدة التي أمامه : ترى كم عمرها ؟ خمس وعشرون ؟ أكثر . ثلاثون ؟ هي أقرب الى الثلاثين منها الى الخمس والعشرين . لكنها فتانة وما أجمل الالفة الفنية بين ثوبها المخملي الارجواني وبشرتها المشربة بالدم والمائلة الى السمرة !

ــ أنا بانتظار جوابك يا مستر جبران

يسمع جبران في صوتها لهجــة الكبير يداعب الصغير أو يتلطف معه ، فيزداد حنقا على نفسه وعلى السيدة . لكن لسانه يتحرك بغير ارادته فيجيبها بجد :

ــ سأقول رأيي عندما تكتمل الصورة

ــ حسن جــدا ، ستكون الصورة عندي غدا ، فهلا تكرمت علي بزيارة ؟ تعال من كل بد . سأنتظرك عند الساعة الرابعة بعد الظهر . واليك عنواني

٣

خرج جبران من عند المصور وفي جيبه ورقة عليها اســم السيدة وعنوانها ، وفي يده رزمة من الاقــلام الملونة أهداها اليه المصور « تذكارا لزيارته » . وفي رأسه خيالات غير التي رافقته من المدرسة الى الباب المجهول . فقد تبين له ان المصور ليس ملاكه الحارس ، أفلا يمكن أن تكون السيدة التي لاقاها عنده ذلك الملاك ؟ لكنها أظهرت شيئا من « السماجة » في بدء حديثها معه . كيفما كان الامر ، هناك باب جــديد يطرقه في الغد . ولعله الباب المؤدي الى فردوس أحلامه

في تلك الليلة ، وهم يتناولون العشاء ، قص جبران عــلى أهل بيته ما كان له عند المصور

ـ المصور لا بأس به كمصور ، وكرجل هو لطيف للغاية . لقد دعاني أن أجلس له

ـ أن تجلس له ؟ وما معنى ذلك يا ابني ؟

ـ معنى ذلك يا أمي أن أجلس أمامه مثلما يريدني أن أجلس ليصورني مثلما يريد أن يصورني

ـ يصورك ؟ ما لنا وللصور يا ابني ، ومن أين نأتي بالمال لندفع ثمن الصور ؟

ـ لا يا أمي ، لا . أنت لا تفهمين من التصوير أكثر مما أفهم من التركية . المصور يحتاج الى رجال ونساء من كل الاعمار والاشكال ليستعين بهم على تصوير ما في خاطره . مثلا : لو أردت أن أصور مريم العذراء ـ وأنا قط لم أر مريم العذراء ـ فقد أصورك ، لكن بالثياب التي أختارها ، وقد أصورك واقفة أو جالسة أو منحنية ـ باسمة أو باكية ـ وقد أختار أن أصور على ذراعيك طفلا ـ حسبما يوحيه خيالي . أفهمت الآن ؟

ـ ليتني لا أعيش لأفهم

ـ وهكذا فسأجلس أنا لهذا المصور عندما يدعوني . وقد وعد أن يعطيني أدهانا زيتية بديلا من الاجر

ـ ليته يعطيك نقدا

ـ فأشتري بالنقد أدهانا ، وهكذا أظل حيث أنا

وسأله بطرس :

ـ أهذا كل ما فعلته في غيبتك الطويلة ؟

ـ لم أخبركم عن الأهم بعد . والاهم هو اني التقيت هناك بسيدة هي من أشراف بوسطن ومن الامريكيين الاصلاء وهي بلا شك من أكبر الاغنياء . وقد احبت أن تطلع على رسومي . فدعتني لزيارتها في الغد

هنا انهالت الاسئلة على جبران بغير انتظام ومن كل واحد من أفراد العائلة ، فسألته ماريانا :

ـ أصبية هي أم عجوز ؟

ـ تقارب الثلاثين
وسألت الأم :
ـ أمتزوجة أم عازبة ؟
ـ لا أعرف ولا يهمنى أن أعرف
وسألت سلطانه :
ـ اجميلة هى ؟
ـ جميلة جدا
وسألت ماريانا
ـ وما اسمها ؟
ـ ذلك سر
وسأله بطرس وأمه معا :
ـ أوذاهب أنت لعندها غدا ؟
ـ طبعا

وهبطت على الكل سكينة عميقة أحس معها جبران بمرارة تتفشى فى دمه • فنهض عن كرسيه وضرب الطاولة بيده قائلا:

ـ حتى متى تنظرون الى نظركم الى صبى جاهل ؟ أنا اليوم رجل ولى الحق أن أفعل ما أشاء وأذهب حيث أشاء • أتظنون أنى قاصر عن الدفاع عن نفسى وأنى لا أعرف الصلاح من الطلاح ؟

فقالت أمه بصوت حنون مخنوق :

ـ وقانا الله يا ابنى ساعة التجربة

ـ أنا أكبر من التجربة ، وقد أخطأت عندما أخبرتكم ما أخبرتكم عن هذه السيدة

ولو كان لغريب أن يراه ويسمعه فى تلك الحالة لعجب لحمل صفير يقلد بثغائه زئير الاسد



ـ أهلا وسهلا بصديقى اللبنانى • لقد جئت ـ ولا بأس • ولو كنت أعرف رقم تليفونك لتلفنت لك أن ترجىءزيارتك الى

الغد • لاننى نهضت اليوم بصـــداع أليم فى رأسى • فلزمت فراشى طول النهار • لذلك ترانى كما أنا ـ فى قميص النـوم والكيمونا • فاعذرنى • واعذرنى اذا ما استقبلتك فى مخدعى، لانى أكون أكثر ارتياحا اذا اتكأت فى فراشى • وأنت لا شك تريد لى الراحة • ومن ثم فالصورة ـ صورتى ـ معلقة على جدار مخدعى فتعال معى وقل لى لماذا لم تعطنى رأيك فيها البارحة • ولعلك تفعل اليوم ما لم تفعله أمس

وقادت صاحبة البيت زائرها الى مخدعها وأجلسته على كرسى كبير من الحرير ، وهو يهم بالاعتذار والانصراف ، قائلا :

ـ قد يكون من الافضل ياسيدتى لو تركتك الآن وعدت فى الغد

ـ لا ، لا • أنت هنا الآن • ولعل صداعى يذهب بوجـودك معى • فقد بدأ يخف • وبيننا حديث طويل • فأنت شرقى وأنا أحب الشرق وما فيه من سحر أبدى • فكيف به اذا اتحد ذلك السحر بسحر الفن ؟ وها أنا ، اكراما لقـدومك سأحرق لك بخورا شرقيا

وجاءت بمجمرة من الفضة فى شكل تنين ورشت فيهـــا مسحوقا من خشب الصندل وأشعلته بثقاب • فتصاعد دخانه الابيض العطرى وامتزج بما فى الغرفة من عطور • ثم وثبت الى سريرها وانكفأت بمرفقها على وسادتها ساندة رأسها بيدها، وقد استرسل شعرها الاسود اللامع، بعضه على صدرها والبعض على زندها العارية • وأشرق فى عينيها السوداوين الواسعتين نور لم يره زائرها من قبل

ـ أعذر ما بدا منى البارحة • فأنا لن ألعب بشعرك ، ولن اقبلك على جبهتك . وهات قل رأيك فى الصورة قبل كل شىء

ـ تمنيت لو قام ليوناردو من قبره ليصورك ، اذن لما أعطاك عين نعجة قريرة ، بل عينى نسر جريح • ولما أطبق شفتيك على بسمة الوردة للشمس ، وفى قلبها قطرة من أجفان الفجر ، بل

على بسمة الوردة وقد طارت من قلبها لؤلؤة الصباح. انى لأرى في وجهك حزنا ليس في الصورة ، وقناعا من الغبطة الكاذبة يبدو في الصورة حقيقة راهنة

ـ انك لشاعر وفنان وساحر في وقت واحد . فمن أطلعك على أسرار حياتي ؟ ومن انبأك أن أهلي زوجوني من تاجر جلود طمعا في ماله فأفلس بعد زواجنا بشهرين . وأنه يزيدني سنا بأكثر من عشرين سنة . وأنه لا يعرف من العـــالم الا جلود البقر والماعز والغنم . وأني قضيت في بيته عشر سنوات هي عشرة دهور من الألم والمرارة ؟ هنيئا لمن يقع في هـــذه الدنيا على قلب يفهم قلبه . انها لاكبر غبطة يا صـــديقي . وأراك ، بالرغم من سنيك ، صاحب قلب فهيم . صدق ان هذا البيت لقبر لى . اقترب مني قليلا . اقترب . ودعني أضع يدي في يدك لعلني اكتسب من شعرك وفنك وسحرك ما ينسيني الذي أنا فيه

ـ أويجور زوجك عليك كثيرا ؟

ـ يعاملني كما لو كنت حظية عنده اشتراها بماله . وأنا في الواقع حظية وقد ابتاعني بماله ولو كان بامكانه لما سمح لى بالخروج من البيت . ولكن دعنا منه . وهات حدثني عنك وعن شرقك الجميل

ـ وأين زوجك الآن ؟

ـ لقد جدد تجارته منذ عامين وهو الآن في مكتبه وعنـــده الليلة أمور وجلسات هامة لن يتخلص منها قبل نصف الليل. حاولت كثيرا أن ألبسه جلد انسان بدلا من جلد ثور ، وأن ألين من طباعه الشرسة ، فلم ينلني من ذلك سوى الوجع المبرح ـ وجع الجسم ووجع الروح. وما صداعي اليوم الانتيجة معركة جرت بيني وبينه هذا الصباح

ـ وهل خف صداعك الآن ؟

ـ لقد كدت تزيله بما لقيته فيك من جميـــل الحس وطيب

الادراك • ولعلك لو وضعت يدك على جبهتى لزال ما تبقى فى رأسى من وجع • اقترب منى قليلا • اقترب

وارتفع صدرالسيدة بتنهدة عميقة،ولمعت فيعينيها دمعتان• وللحال أجابتهما عينا جايسها بالمثل • وكان سكوت

ـ لست أهلا لدمعة من دموعك يا صديقى • وقدكان الأولى بى أن ألجم لسانى وأبقى ألمى دفينا فى قلبى مثلما كان كل هذه الاعوام • فاعذرنى

ـ منذ اليوم أصبح ألمك ألمى

ـ ما أحن قلبك وأجمل روحك ـ وما أضعف النســـاء ! انى لأشعر بثقل على صدرى ، وضغط على حنجرتى ، ودوخة فى رأسى ـ اقترب منى قليلا ••• اقترب •••

٥

ودع جبران « ملاكه الحارس » نحو الساعة الحادية عشرة من الليل ومعها ودع صباه وعفة الصبا وطهارته • وأحس عنـــد خروجه من ذلك البيت كأنه خارج من أتون • وكأن كل قطرة من دمه قد تحولت الى جمرة ملتهبة ، وهو لا يدرى كيف يهرب منها وبماذا يبردها • لكنه ما مشى بضع خطوات فى الشـــارع حتى تحول اللهيب فى داخله الى قشعريرة اشمئزاز وندم • وراح يؤنب نفسه تأنيبا موجعا • وتذكر كلمات أمه : « وقاك الله ساعة التجربة » وجوابه لها أنه أكبر من التجربة • « بلى • أنا أكبر من التجربة • ولن أقترب من امرأة فيما بعد الا التى اختارها زوجة لى • وسأخبرها بزلتى هذه ـ التجربة • الزلة ـ ما هى التجربة ؟ ما هى الزلة ؟ الزلة هى أن تسمع استغاثة قلب ولا تغيثه • والتجربة أن يدعوك الحب لتقدم نفسك محرقة على مذبحه فلا تقدمها • أأتركها فريسة لتـــاجر الجلود ؟ لله ما أجملها ، ولقد اختارتنى من بين كل من فى بوسطن ـ بل فى العالم ـ من رجال • فما أسعدنى ! » وعادت النار تشب فى داخله فلا تلبث أن تنقلب الى قشـعريرة ، وهكذا بين اللهيب

والقشعريرة بلغ بيته ، وبخطوات كأنها خطوات خيـال صعد السلم الخشبى اللولبى المظلم الى الطبقة الرابعة ـ وهى الاخيرة ـ حيث كان يسكن مع عائلته . وكان كلما صعد درجـة يردد كلمات أمه : « وقانا الله ساعة التجربة »

كان من فى البيت قد ناموا ـ الا أمه . فهى كانت تنتظره فى ردهة الاستقبال الصغيرة التى كانت غرفة مائدة كذلك . وما أحست بوطأته على الدرج حتى هبت الى الباب ففتحته . وما وقع نظرها على ابنها حتى شعرت بغربة تقصيها عنـه ما شعرت قط بمثلها من قبل

ـ جبران ، أطلت غيبتك عنا هـذه المرة أكثر من كل مرة يا ابنى . انتظرناك للعشاء حتى الثـامنة . وقد طبخت لك طبخة تحبها . شغلت بالنا كثيرا كثيرا.هل تعشيت يا روحى؟

ـ ما معنى شغل البال يا أمى ؟ هل أنا طفل ؟ اننى رجل وأكره أن أقدم حسـابا لأحد ـ حتى لأمى ـ عن كل خطوة أخطوها

ـ هل آتيك بالعشاء يا روح أمك ؟

ـ لا ، فقد تعشيت

ـ نعم ، عندها

ـ كنت واياها لا غير ؟

ـ بل كان رهط من علية القوم وأشهر الفنانين فى بوسطن

ـ وزوجها كذلك ؟

ـ لم أر زوجها ، ولا أعرف اذا كان لها زوج

ـ أهى جميلة ؟

ـ اذا كان لك حديث عن غيرها يا أمى فهاتى نتحـدث والا فالنوم أفضل

ـ قم الى فراشك يا عين أمك ، واجتهـد أن لا توقظ أخاك بطرس فهو ـ واولداه ! ـ تعبان ، وقد نام باكرا ولم يأكل غير لقمة أو لقمتين

٦

مر عام مزدحم بالزيارات السرية الى البيت السرى. وباللذة والألم. فقد ظن جبران فى بادىء الأمر - عندما قطف الثمرة المحرمة - أن بامكانه أن يأكل حلالها دون حرامها، وأن يتذوق حلاوتها دون مرارتها. ولعله لم يفكر فى حلالها وحرامها على الاطلاق. بل كان يربت لنفسه لتوصله - فى سنة - الى ما يشتهيه الكثير من الرجال ولا يدركونه. غير أنه عندما شعر بالمرارة وأحب أن يطرح الثمرة من يده وجد بذورها فى كل نقطة من دمه، ووجد انه اذا طرحها سيطرح معها قلبه. فازداد تعلقا بها واعتقادا بأن المرارة ليست فيها بل فى الذين حرموها. وبكل ما فى فكره الفتى من حماسة وفى خياله من لهيب، راح يعالج فى نفسه شرائع البشر وقوانينهم، وبالاخص ما تعلق منها بالزواج. فيراها زردات من فولاذ قاس، لا قلب لها ولا خيال، وقد حبك الجهل منها شبكة هائلة لكل من له خيـــال كخياله وقلب كقلبه

لكن التكتم أصبح جرابا من الحيات والعقارب يتوسده فى نومه فيعكر عليه أحلامه. ولماذا التكتم ؟ خوفا من الفضيحة. وأنى المهرب من الفضيحة بالتكتم ؟ انها لدائرة مسحورة ومن الواجب تحطيم حلقاتها كيما يتحرر الناس من سحرها، وهو سيكرس حياته لذلك الواجب حبا بالانسانية المتألمة. ولكن فى التكتم لذة الجهاد. فلا يكتم الا من فى قلبه سر عميق. ولا يحمل فى قلبه سرا عميقا والعالم كله يحاول انتزاعه منه. فهل يقوى عليه العالم ؟ معاذ الله ! انه لأقوى من العالم

على وقع هذه الافكار وأمثالها كانت خطوات جبران تتسارع فى أوائل الليل الى البيت السرى. وما ان ادرك الباب ورفع يده ليكبس زر الجرس الكهربائى حتى رأى خلفه - على ضوء مصباح الشارع - رجلا طويل القامة ممتلئها، حليق الوجـه، لطيف

المعاني ، لا يزيد عمره على الخمسة والثلاثين ، وقد تأبط محفظة جميلة من الجلد الاسود

ــ سأريحك يا سيدى من دق الجرس

وأخرج الرجل مفتاحا من جيبه ، وفتح الباب ، وقال لجبران بصوت كله لطف وتأدب :

ــ تفضل يا سيدى وادخل

دخل جبران مترددا ، مضطربا ، ودخل وراءه الرجل ونادى صاحبة البيت باسمها فكانت أمامه بلحظة • وارتمت على عنقه تقبله ، وقد امتقـــع لونها وهى تحـــاول أن تستر رعشتها ودهشتها :

ــ ماذا جرى يا عزيزى ــ ماذا جرى ؟

ــ لا تجزعى ، لقد نسيت محفظة الدراهم ، فعدت فى الحال من المحطة • اسرعى الى بها قبل أن يفوتنى القطار

فجاءته بها وقالت وهى تناولـه اياها :

ــ لقد أصبحت كثير النسيان فى هذه الايام يا عزيزى•وقد تسربت العدوى منك الى . فقد انسيتنى بلهفتك وسرعتك أن أسلم على المستر جبران وأن أعرفك اليه • فهو فنـــان شرقى التقيت به أمس عند بعض الاصدقاء . وقد تلطف الليلة وجاء يحدثنى عن فنه . هذا زوجى يامستر جبران

ــ انى لسعيد بمعرفتك يا مستر جبران • وكنت أتمنى لو لم أكن مضطرا الى السفر لأعرفك أفضل من هذه المعرفة القصيرة • فاعذرنى ، والى اللقاء القريب ان شاء الله

وقبل الرجل زوجته وانصرف



٧

بعد شهر من تلك الليلة كان دخان الصندل يتصاعد من فم التنين الفضى فيتكاثف لحظة ثم يتخلص ، ويلتوى هنـــا ثم يستقيم هناك ، وجبران يرقب رقصته الهادئة وينفخ فيه بين الفترة والفترة من دخان سيجارته فتتكون من مزيج الاثنين

ألوان وخيالات غريبة • وكان فى الغرفة صمت عميق
ــ الام تعذبنى يا خليل ؟
ــ لاتسمينى فيما بعد « خليل » اسمى المستر جبران
ــ ما كنت اظنك حقودا قاسيا الى هذا الحد ، الانى قلت فى صورتى الزيتية ، التى كانت سبب تعارفنا ، انها أجمل من صورتى التى رسمتها أنت بقلم رصاص ، تمزق مارسمت وتفعل بى ما فعلت ؟
ــ لم أفعل جزءا من مائة مما كان من الواجب أن أفعل • أنت لا تفهمين من الفن شيئا ولا تميزين بين الرأس وذنبه • لقد صورتك شفافة كروح ، جميلة كخيال ، بعيدة كحلم • صورتك مثلما أراك بعين حبى • فاستغربت الصورة لأنك من تراب ولا تبصرين نفسك الا بعين من تراب • ومن كان من تراب لا يعرف العذاب • فبأى لسان تقولين انى أعذبك ؟ أما صديقك الذى صور هذه الصورة ، والذى تفاخرين بصداقته وتعظمين فنه ، فهو لا يفهم من الفن أكثر مما تفهمين • فالحقى به ودعينى وشأنى
ــ عيب عليك أن تقول ذلك • وللرجل مقامه وشهرته فى عالم الفن • ولعلك متى بلغت سنه ، وحويت اختباره ، تكون أعظم منه • أما الآن فأنت ما تزال فى أول عمرك •••
ــ فى بنصرى من الفن أكثر مما فى كل رأسه • ومن ثم فاعلمى أننى أكبر منك ومنه • وأنك ان كنت لا تزالين تحسبيننى صبيا فبقدرتى أن أريك كيف تستغنى الرجال عن النساء
ــ أما أنا فأريك كيف لا تستغنى النساء عن الرجال
ومد « الملاك الحارس » جناحيه وغمر بهما « محروسه »
وكان سكوت ، تلته دموع • وكان عتاب ، تلاه انقلاب
ــ لقد أنسيتنى المهم ، وهو سفرك الى لبنان • أفلا مرد لما أقره أهلك ؟

ـ قلت لك ان رأى أهلى رأيى • ولولا ذلك لما أقدمت على السفر • فأنا لا أكاد أعرف من لغة أجدادى الا ألفها وباءها • ولا أعرف من بلادى غير مسقط رأسى • ومن الضرورى لى أن أدخل مدرسة فى بيروت لاتعلم لغتى على الاقل ، وأتعرف الى بلادى

ـ قد يكون قصد أهلك من ذلك اقصاءك عنى • لقدنجحوا لقد نجحوا . فستنسانى يا خليل . ستنسانى

ـ ان نسيتك فلتنسنى يمينى

ـ لقد أعطيتنى زهرةشبابك ياخليل ـ لقدأعطيتنىرجولتك

ـ بل لقد أعطيتنى رجولتى

هدية الموت

فى شمس ابريل سحر ليس تعرفه بقية الشهور • لاسيما فى المدن المكتظة بالسكان مثل نيويورك ولندن وباريس،حيث يقضى الناس الشتاء وكأنهم فى حصار • أما العدو المحاصر فهو البرد • وأما عساكره فالعواصف والثلوج والامطار والغيوم العابسة الغضوب . وهو عدو لا يكف عن المهاجمة ولا تصده الجدران الغليظة • بل يدخل على الناس فى منازلهم ومعابدهم ومصانعهم والابواب مقفلة والنوافذ مغلقة • وحيثما لمست أصابعه الخفية أجسادهم تقهقر الدم أو تجمد • لذلك يكافحونه بالنار والبخار والالحفة الدافئة . واذا ما التقوه خارجا نازلوه وعليهم دروع ثقيلة من الأكسية الكثيفة ، وفى أرجلهم أحذية من الجلد والمطاط تكاد تكون أغلالا • وتراه ، مع ذلك ، يسد الزكام أنوفهم ويفتك بصدورهم وظهورهم ومفاصلهم • لكنهم عندما تطل عليهم شمس ابريل يشعرون أن بجانبهم حليفة لا تقهر ، وأنهم سينالون الفرج عن يدها • فيفتحون لها نوافذهم ، ويخرجون لملاقاتها جذلين ، ويطربون عندما تغتسل وجوههم بذوب طاهر من أشعتها الدافئة •واذا ما أحسوا فيها بلدغة برد قالوا هو عدونا يتقهقر عنا،وبعضنا

عضته الاخيرة • لكنه قد شماخ ولا قوة بعد فى أنيابه

كان الرابع من ابريل عام ١٩٠٢ وكانت الشمس تدغدغ مويجات نهر السين وتسكب على باريس سيولا من النور الدافىء ، فتبدو المدينة كلها ، ببناياتها الكالحة المخنوقة بأنفاس الشتاء ، وشوارعها المنكمشة من ملامس البرد ، كأنها سجين أطلق سراحه ، أو جبار كان فى صدره غصة وزالت • فالناس من باريسيين وغرباء ، كانوا يسيرون فى الشوارع أنهرا وجداول ، تتلاقى ، فتمتزج ، فتفترق • وفى سيرها خفة وسهولة • كأن أغراضها المتضاربة اندغمت فى غرض واحد • ومجاريها المتشعبة تحولت الى مجرى واحد

وعلى مقعد منفرد بالقرب من كاتدرائية « نوتردام » كان شاب غريب كأنه فى خضم البشرية الباريسية نقطة من الزيت فى بحر من الزئبق . عليه ثياب تكاد تكون ثياب فقير لولا مافيها من نظافة وهندام • ومن تحت قبعته البنية قد تدلت خصل من شعره الكستنائى الطويل • وعيناه المثقلتان بالاهداب قد أطبقتا حتى نصفيهما كأن بهما نعاسا • وفى وجهه النضر كآبة من يبصر غير ما يشتهى • أو يشتهى غير ما يبصر • وكان يحدث نفسه صامتا :

ــ زحمتك السنون يا جبران . وهى مصيبة فيما تقول : من كان بطىء الخطى فليتنح من طريقنا ، وأنت بطىء الخطى ، فماذا فعلت حتى اليوم ؟ ووراؤك عشرون عاما ، انها لمقدمة طويلة للاشىء • كفاك تفرجا مع المتفرجين وآن لك أن تكون بين من يتفرج عليهم المتفرجون • ليوناردو لم يكن متفرجا • ولا ميكلانجلو ولا تشيللى ولا تيتيان ولا رمبراندت ولا روبنس ولا فيلاسكس • هو ذا اللوفر ــ يؤمونه بالملايين من المشارق والمغارب ليتفرجوا على من فيه من رجال الفن المعدودين • لكن من فيه لا يهشون ولا يبشون • ولا يخرجون الى أزقة الناس ليتفرجوا على الناس ، لأنهم أعظم من الناس • لله

ميكلانجلو ! يا ليتك ولدت في زمانه ، اذن لتوسلت اليه أن يسمح لك بالتتلمذ عليه • ما كان أجمل الفن وأسهل التقرب من الفنانين في ذلك الزمان • وما أكثر العقبات في طريق من يرغب فيه اليوم !

« أنت كثير الاحلام يا جبران . من أين تأتي بالمال لتدرس الفن كما تشاء أن تدرسه ، وأنت ما تزال عالة على سواك بدلا من أن تعول سواك ؟ أمك تشتغل ، وأخوك يشتغل ، وأختاك تشتغلان ليقوموا بأودهم وأودك وأود أبيك • وأبوك سلم ذقنه لشريك محتال فأضاع كل ما كان لديه من قليل رزق ومال . وهو ، مع ذلك ، لايفارق قهوته وسيجارته وقدحه . مسكين أبوك ما أسلم نيته ، وأقل تدبيره ، وأطيب معشرة • وما أحسنه رفيقا في السفر ــ بعلبك • الهرمل • حمص • حماه وسهولهما وعاصيهما • وصرود لبنان الشمالي وقراه • لولاه لما عرفت شيئا من جمالها • وتلك الليلة التي قضيتها واياه على « ظهر القضيب » في خيمة رعاة الغنم ، والبدر والنجوم من فوقك ، والأغنام الآمنة ، والتلال البيضاء من حواليك ــ والبحر تحت قدميك ــ لله كم كان فيها من روعة ومن سحر !

« فم الميزاب وبرج ايفل . نهر أبي علي والسين . نوتردام ودير مار سركيس • شوارع باريس ووادي قاديشا • اللوفر ومغادرة قاديشا • الأرز وغابات بولونيا • بيروت وباريس• مدرسة الحكمة والسوربون ــ ما أغرب هذه المقابلات !

« أربع سنوات على مقاعد مدرسة الحكمة ــ ماذا نفعتك ؟ اشكر ربك فقد نجوت من الصرف والنحو والمعاني والبيان والعروض والقوافي . وانك ، وان فاتتك فوائدها ، لم تفتك جوهرها • واشكر ربك فقد نجوت من الصلوات في الصباح والمساء • وقد صليت في أربع سنوات ما يكفيك حتى آخر حياتك • فأنت لن تدخل كنيسة منذ الآن • لأن يسوع الذي



جبران فى مدرسة الحكمة

تحبه لن تجده في كنيسة قط . ما أكثر المعابد وأقل المتعبدين . وما أوفر الصلوات وأقل المصلين !

« هي كانت تعرف معنى الصلاة والعبادة . وهي كانت تعبد « بالحق والروح » لأنها كانت تعبد بقلبها ، وان كان عقلها في حوزة الكاهن . آه ما أظلم الموت . وما أقسى تقاليد الناس ! يا ليتها بجانبك الآن . فقد كان لك في كل بسمة من بسماتها النقية بلسم لكل جرح . وفي كل لمسة من أناملها الناعمة الطاهرة جناح لكل فكر . لقد وقاك الله «ساعة التجربة» معها ، فصنت عفتها وعفتك ولم تدنس سنواتها الست عشرة بشهوة . ما أجمل الحب اذا كان نظيفا ! وما أعظم الفرق بينها وبين « الملاك الحارس » !

« ماذا تقول غدا « للملاك الحارس » اذا لاقيتها في بوسطن ؟ وماذا عساها تقول فيك اذا عرفت أنك هجرتها من أجل سواها ؟ لتقل ما تشاء ، فهي ليست الملاك الحارس الذى كنت تحلم به . وهي من التراب وفي التراب وللتراب ، وليس في استطاعتها أن تفهم حلما من أحلامك أو تلمس شوقا من أشواقك

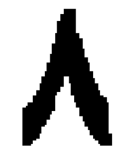
« ومن ذا تهمه أحلامك وأشواقك يا جبران ؟ لا بد من أن يكون لك ملاك حارس يفهمها فيقودك اليها . من هو ؟ من هي ؟ بلى . ففي قلب أمك الساذج محبة تفهم بالاشارة . وفي صدر أخيك بطرس ورأسه أحلام وأفكار تكاد ترافق أحلامك وافكارك . غير أنه يسترها عن أعين الناس ، حتى عن عينيه وعينيك ، كيما يتفرغ لتحصيل الرزق لك ولذويه وذويك . اذا لم يكن لك غير أمك وأخيك يا جبران لكفاك . لكن لك كذلك أختين نبيهتين ، ومجتهدتين . فماريانا تحصل مالا من ثقب ابرتها . وسلطانه ؟ — لقد تركتها فتاة في أول صباها وهي اليوم عروس في السادسة عشرة من عمرها . ترى هل تعرفها عندما تقابلها غدا في بوسطن وهل تعرفك ؟ بل هل يعرفك الباقون من أهل بيتك وجيرانك ؟ لقد تغيرت كثيرا في هذه السنوات الأربع

التى قضيتها فى لبنان • وقد اشـــتد بك الشوق الى أهلك • فأنت لا تصدق متى تضمهم اليك ويضمونك اليهـم • وأنت عيب عليك أن تعود اليهم فارغ اليد • فى جيبك كمية قليلة من المال اذا أنت اقتصدت فى نفقاتك فاض لديك منها نحو أربعة ريالات • فانهض وابتع بها هدايا لأهلك ولتكن أجمل هدية لسلطانه »

وأخرج جبران محفظة صغيرة من جيبــه وعد ما فيهـا من الدراهم • ثم نهض ومشى وهو لا يعرف أين يقصد وماذا يبتاع

وبجانبه مشى الموت حاملا على ذراعيه روح أخته سـلطانه التي كان قد تقبلها فى تلك الساعة ، وراء المحيط ، هدية من يد الحياة

غير أن جبران لم يكن يبصر لرفيقه وجها،ولا يسمع لقدميه وقعا . بل كان يفكر فيما سيبتاعه هدية لاختــه الصـغيرة المحبوبة



٨

دقت الساعة الثانية بعد نصف الليل والظلمة المخيمة فى غرفة بطرس رحمه وأخيه جبران لم تسمـع للنوم نفسـا ولا حفيف جناح • وكان كلا الاخوين اذا ما تقلب فى سريره من جانب الى جانب فعل ذلك بهدوء وتحفظ خشية أن يوقظ أخاه النائم على بعد ذراعين منه • وأخيراً سـمع بطرس تنهدة بليلة خارجة من تحت لحاف أخيه • فخاطبه همسا :

ـ جبران ، يا أخى ، يا روحى ، أتبكى حتى فى مثل هذه الساعة من الليل ، وأنت منهوك من سفر البحر وفى حاجة الى النوم ؟ نم ولو قليلا

ـ الدموع لا تعرف الساعات يابطرس • لقد ذرفت حصتك منها ، فدعنى أذرف حصتى • لست أبكى سلطانه وانما أبكى الله !•••

ـ جبران ، أنت محموم يا أخى • أنت سـكران من الحزن

والتعب . لا تنكر كل ما تجهله

ـ السل ، السل ، جيوش خفية جرارة ، جيوش الله الخفي القدير يرسلها لتحتل صدر مخلوق من مخاليقه ولتسترد منه في سنة أو سنتين نفسا نفخه فيه بأقل من طرفة عين . لتهدم في طرفة عين هيكلا ظل يبنيه سنين . ماذا جنت سلطانه الطاهرة ليشن الله عليها مثل هذه الغارة ؟ ولماذا اختارها من بيننا ، وهي أنقانا ، وهي زنبقة ما يزال أريجها في قلبها ؟

ـ قد لا يكون الموت قصاصا يا أخي . وقد تكون في غفوة الموت أحلام أجمل من كل ما في صحوة الحياة . من يدري ؟

ـ ولماذا اختار لها هذه الميتة من بين كل أصناف الموت ؟

ـ ستعرف طرق الله عندما تصبح الها

ـ ولماذا جاء بها من أحضان الأرز النيرة الرحبة ليميتها في غرفة ضيقة مظلمة ـ من بشري الى بوسطن ـ من بيت على كتف الوادي المقدس الى بيت في حي الصينيين في بوسطن ؟

ـ لابد من سر في كل ذلك . غير أني لا أعرفه ولا أعرف من يعرفه

ـ ولماذا جعلها أختا لي وجعلني أخا لها ؟ ولماذا أماتها في هذه السن ، وفي هذه السنة ، لا في سواهما . وفي الرابع من أبريل لا في الخامس من مايو ؟

ـ دعك من « لماذا » يا أخي ، فقد حرقت قلوبا كثيرة قبل قلبك

ـ آه ـ بطرس ، بطرس . في رأسي الآن الف لماذا ولماذا . وهي تصارعني بألف سيف وسيف . فاما تصرعني فتدفنني مع ربي في لحد واحد ، واما أصرعها فأنهض وينهض ربي معي قويا ، عادلا ، جميلا ، سرمديا

ـ خلنا الآن من ذلك يا جبران . وما زال النوم بعيداً عن أجفانك ، وأجفاني ، فهات أخبرني شيئا عن بشري . كم مرة دخلت المغارة ، وتسلقت جبل الأرز ، وانحدرت الى الوادي

المقدس ؟ وهل كنت تنهض مع الفجر وتترقب مواكب النور صاعدة من البحر لتلاقي الشمس عندما تطل من وراء ظهر القضيب ؟ وهل قلت للشمس المشرقة ـ ولو مرة ـ بطرس يسلم عليك ؟ وهل زرت دير مار سركيس وصليت في معبده الحجري المهجور ، أو سرقت من كرمته عنبا وأكلت ، ولو حبة واحدة ، عن أخيك بطرس ؟ ما كان أجهلنا يا جبران ، وما أسوأ الساعة التي ابتعدنا فيها عن خرير شلال قاديشا وظلال واديه المقدس . انها لساعة سوداء . ولعلنا ، لو رضينا ببلادنا ، لرضى الله عنا وما أخذ سلطانه منا . والآن ـ ست سنوات ـ سبع سنوات ـ وماذا فعلنا ؟ لا علم ولا مال . بلى فأنت قد تعلمت . وأنت ستكفر عن كل قصورنا . لقد كنت أقرأ رسائلك بلذة فائقة ، وأشعر كأني أقرأ فصولا من سفر أيوب أو من مزامير داود أو من نشيد سليمان . فما عدت أعرف ـ هل أنت في التصوير أقدر منك في الكتابة ، أم في الكتابة أقدر منك في التصوير . ولعلك ستكون كاتبا ومصورا معا

ـ لقد نسى الناس فن الكتابة يا بطرس وانشغلوا عنه بصناعة رصف الكلام . فلا روح ولا جمال فيما يكتبون . ولو عادوا الى سفر أيوب والمزامير ونشد الاناشيد لعرفوا ان العواطف اذا ما فارت والافكار اذا ما ثارت ضاقت دونها القوالب المحدودة وغصت بها المجارى المألوفة . لكنهم لا عواطف فيهم تفور ، وينظمون كما لو كانت لهم عواطف . ولا أفكار لهم تثور ، وينثرون كما لو كانوا ذوى أفكار . فهم أموات فيما ينظمون وينثرون

ـ ترى أنعود الى لبنان بعد ؟ هيهات ! أنا أعرف أنني لن أبصر تلك القمم النظيفة . وأصلي من أجلك لكي تراها عني وعنك . هيهات . هيهات ...

وأخذت بطرس نوبة من السعال ارتجت لها الظلمة بما فيها من دموع وحزن وحرقة

٩

« الحق ، الحق أقول لكم ان حبة الحنطة التى تقع فى الارض ان لم تمت فانها تبقى وحدها ، وان ماتت أتت بثمر كثير »

كانت سماء يناير تنثر من دموعها البيض على بوسطن ، وكان جبران يطالع الانجيل . فوقع على هذه الآية فى الفصل الثانى عشر من يوحنا ، ومع انه قرأها وسمعها مرارا عديدة من قبل ، شعر كأنه يقرأها للمرة الاولى . وكأن ستارا أزيح عن عينيه ، فرفعهما عن الكتاب وغرق فى بحر من التأمل:

ـ كل شىء يموت لكى يحيا . الصخرة تموت لتلد حجارة لبناء الهيكل . والشمعة تموت لتتحول نورا . والخشبة تموت ليظهر ما فيها من نار . والثمرة تموت لتنبت الشجرة . والشجرة تموت لتعطى الثمرة . كل شىء يموت ليعود الى مصدره . الحياة ذهاب والموت اياب . والحياة كساء والموت عرى . والحياة فكرة بارزة والموت فكرة خفية . والله هو الموت والحياة معا

وللحال أخذ جبران دفتر الرسم وقلم رصاص وبدأ يرسم فى أعلى الورقة خطوطا ودوائر ونصف دوائر . وما هى الا دقائق حتى برز من تلك الخطوط المبهمة شكل راس منحن الى الامام . واليد التى تمسك القلم تحس كأن يدا خفية تحركها، والقلم ينتقل بسرعة من جانب فى الرأس الى جانب وحيثما انتقل ترك أثرا بينا لمعنى من معانى الوجه ـ هنا حاجبا ، وهناك شبه فم أو أنف ، وهنالك موجة من الشعر . وكانت السبابة تارة ، وطورا الوسطى تساعدان القلم فى بعض وثباته ، فتزيدان من ظل أو تخففان من ظل ، وكان جبران، كلما انتهى من حركة ، يبتعد عن الورقة قليلا ويزورها بعينيه لحظة ثم يعود اليها عودة العاشق الى معشوقه أو العابد الى معبوده . وقد نسى سيجارة كان قد أشعلها فاحترقت من تلقاء ذاتها حتى آخرها . ولم يقف ليشعل ثانية حتى انتهى من

العينين وقداحتار هنيهةمابين أن يجعلهما مفتوحتين أو مطبقتين

بأقل من ساعتين برز الوجه بجبهته المغسولة أعاليها بنور علوى ، والمظللة ما بين الحاجبين وخلفهما بظلال ناعمة ، دافئة ، خفيفة • وبأجفانه المنفرجة بعضهاعن بعض قيد شعرة أو شعرتين ، كأنها تخشى ، لو تدفق كل ما خلفها من سر وسحر ومحبة دفعة واحدة ، أن تغرق الناظر اليها بدلا من أن ترفعه• وبفمه المفتوح نصف فتحة وكأن فيه كل بركات النعيم وجماله• أما الشعر فقد امتد فى مويجات جميلة ذات اليمين وذات اليسار ثم تدلى الى أسفل فى شكل مستدير ، وتقارب طرفاه تحت الذقن ، دون أن يلتقيا، كأنهما جناحان منعكفان واحدهما نحو الآخر دون أن تتلامس قوادمهما • ومن أسفل الورقة قد ارتفع لهيب من نار فى شكل جسم بشرى عار ، لكنه خفيف كالنسيم ، شفاف كالنور ، وقد أدار ظهره الى الناظر . له تقاطيع جسم بشرى انما دون اللحم والعظم والدم. اذا مانظرت اليه لم تره خطوطا جامدة على ورقة جامدة ، بل تخيلته يرتفع الى فوق ، دون ما أقل تعب أو جهد على الاطلاق ، حتى تلامس قمة رأسه شفة الوجه السفلى ، وكتفاه طرفى الشعر • فيبدو الشعر كأنه ذراعا أم أطلت على طفلها من فوق فانتشلته اليها لتضمه الى صدرها وتباركه بقبلة المحبة

« عادت سلطانه من حيث أتت ــ الى الله • ينبثق الشعاع من الشمس ويعود اليها • والشجرة من الارض وتعود اليها• والروح من الروح فتعود اليها . هى عودة لابد منها »

ونظر جبران الى صنع يديه فرآه جميلا • لكنه ماكاد يرفع القلم ليوقع اسمه بأسفل الصورة حتى دخل عليه أخوه بطرس وكأنه محمول على ذراعي الموت :

ــ أسرع وراء الطبيب يا جبران ، أسرع ما تمكنت ، ولا ترجع الى هذا البيت • فهو ينهار علينا بسقفه وكل جدرانه• وأرضه تهرب من تحت أرجلنا • فانج أنت على الاقل من بيننا

...أمك فى خطر ، وأخوك بطرس على أهبة السفر ، أسرع!

١٠

خرج الطبيب من البيت تاركا فى أذن جبران كلمة سوداء ما لبثت أن تغلغلت فى سقف البيت فتدلت منه ثعابين وأفاعى. وفى الجدران فأطلت منها عقارب وأنياب محددة . ووقفت فى الابواب والنوافذ تنانين فاغرة افواهها

ـ السل ، السل ـ جيوش خفية جرارة ـ جيوش الله الخفى القدير وفى الدرجة الثالثة ! أين أنت ياربى ، أين أنت ؟ كنت دفنتك ودفنت نفسى معك • وأمس ظننتنى وجدتك ، فأقمتك من الموت وقمت معك . أو أنت تسخر بى أم ترانى أسخر بنفسى ؟ أمس أخذت أختى الحبيبة سلطانه واليوم ترسل جيوشك الخفية الجرارة لتسلبنى أمى وأخى ـ وهما أعز ما فى الكون لدى • فما بالك لا تستردنى اذ تستردهما ؟ وما بالك تتركنى مغلول اليدين والرجلين ، مقنع العينين ، قصيص الجناح ، فارغ القلب والجيب ؟ الطبيب يأمر بنقل أخى وأمى الى المستشفى • فمن أين آتى بالمال ؟ ان لم يداو الناس جراحى بعقاقيرهم الا اذا داويت جيوبهم بالفلوس ، فبماذا عسانى أداويك لتداوينى ؟ ربى والهى• ربى والهى! لاتتركنى، ولا تقتص من جهلى • لعل جيوشك الخفية الجرارة معسكرة الآن فى صدرى كذلك وفى صدر أختى ماريانا مثلما هى فى صدر أمى وأخى بطرس ...

عند هذا الفكر انتفض جبران بقشعريرة أشد من قشعريرة البرد • وضاقت عليه أنفاسه اذ خيل اليه أن كل نسمة يتنشقها من الهواء حواليه تحمل فيلقا من « الجيوش الخفية الجرارة » ورأى نفسه كسمكة فى شبكة • غير أنه ما عتم أن عاد يقوى نفسه بنفسه :

ـ عيب عليك يا جبران • أوتقبل الموت لأختك وأخيك وأمك ولا تقبله لنفسك ؟ قل لتكن مشيئة الله . بلى . مشيئة

الله . ماذا قادك من بلادك الى هذه البلاد ؟ ــ مشيئة الله . ماذا سلبك اختك سلطانه ؟ مشـــيئة الله . ماذا نقل مرض أختك الى أمك وأخيـك ؟ ــ مشيئة الله . ولكن لماذا شاء الله ماشاء ، ويشاء مايشاء ؟ لماذا ، لماذا ؟ ــ لأنك دنست روحك بالفسق ، وبالغش ، وبالكذب ، يا جبران . لأنك استدفأت فراش الشهوات وهو بارد . واستنعمت لحاف الملذات وفيـه منـاخس . لأنك خاطىء يا جبران . وهل يجـازى الله الام بخطيئة ابنها ، والاخ والاخت بذنب أخيهما ؟ وما هى الخطيئة؟ « أما أنا فأقول لكم ان كل من نظر الى امرأة لكى يشتهيها فقد زنى بها فى قلبه » ــ « الحق الحق أقول لكم ان حبة الحنطة التى تقع فى الارض ... ان ماتت أتت بثمر كثير »

ولكن ما العلاقة بين حبة الحنطة والسل فى الدرجة الثالثة؟ وبين التنين الفضى الصـغير الذى كان يتنفس بروح الصندل وهذا التنين الواقف بالباب والقاذف من جـوفه حمما ونقما ؟ وما العلاقة بين « الملاك الحارس » ــ آه لو تعرف بما أنت فيه الآن يا جبران . بل خير لها ألا تعرف. وحسنا فعلت عنـدما التقيتها أمس فى الشـارع فلم ترد تحيتها . هى عابرة طريق فى حياتك وأنت عابر طريق فى حياتها . أما تلك التى تركتها فى بيروت ؟.. هى كذلك قد عادت الى ربها مثلما عادت سلطانه

حقا ان ما صـورته اليوم لجميـل ــ عودة الروح الى الله . وأجمل منها ستكون « قصة الافكار » التى ما برحت تعـذب خيالك منذ أيام . أين قلم الرصاص ؟ والترمومتر . وقصة الأفكار ورقصـة الموت . المتحف والمستشفى . نداء آلهـة الفن وسعال الامل المصدور . الجيب الملتهب والثلج المنهمر وإذا ذكر الثلج فر جبران من البيت وهو يشعر كأنه مقذوف من فوهة بركان . وما ان أحس بلذعة الهواء خارجا ، وبالثلج يفرش بساطا ناعما لقدميه ويتسابق لتبريد عينيه ووجنتيه، حتى راح يهيم على وجهه ، مرددا مـع كل خطوة أو خطوتين :

« أين أنت يا الهي ، أين ؟ »

١١

ـ ماريانا ، ستهلكين عينيك يا أختي بهذا الخيط وهذه الابرة ، وعلى نور الغاز

ـ وماذا نعمل ، وهذه الابرة وخيطها يدفعان أجرة البيت وثمن الغاز ويقيتان جسدينا ويكسوانها • أو نستعطى قوتنا وكساءنا من الناس ؟

ـ ماريانا ماريانا ، ان ابرتك تثمل عيني،وخيطك يشدعلى عنقى

ـ ما لك يا جبران ؟ لا أكاد أقول كلمة الا جرت دموعك • فهل جرحتك يا روح أختك بما قلت ؟

ـ لا تخافى من دموعى يا أختى • فالمحبة ان بلغت أعماق القلب أترعت المدامع . وابرتك وخيطها محبة صافية . مع ذلك يشق على أن أراك تدفنين أيامك ولياليك في ثقب ابرة لتعوليني بدلا من أن أعولك . وأن تصرفى نور عينيك ليبقى فى عيني نور

ـ دعك من عيني فلا خوف عليهما . وما بالك تنسى عينيك ؟ فأنت تصور طول النهار وتكتب حتى أواخر الليل. وان اعترضتك في ذلك زعلت منى

ـ هى محنة يا أختى لا مهنة . ولولا محنتى لكنت اليوم مع أمى وبطرس وسلطانه.أتعرفين ما يقول الناس ؟ يقولون : « أليس من الغبن أن يموت بطرس ويبقى جبران ؟ » أتعرفين ما قاله أبى في بشرى ؟ قال : « كنت أرثى لو مات وحيدى وبقى بطرس » . ولكن ما يتوجب فى نظر الناس لا يتوجب فى نظر الله . لو كان الموت قصاصا لكان من الحق أن أمضي ويبقى بطرس وتبقى أمي وسلطانه . وقد تكون الحياة عقابا ، ويكون الموت ثوابا ياماريانا • وعقابنا أن نذوق مرارة اليتم ـ يتم الام والاخ والاخت . لكن فى عقابنا ثوابا ـ فقد عرفنا أحن

الامهات ، وأحب الاخوان ، وأطهر الاخوات . ويظهر أن نسيج حياتك وحياتي لمـا يكتمل بعد ، وأن فيه خيوطا تربطنـا بنسيج حياة أناس آخرين على الارض نعرف اليوم بعضهم ونجهل الآخر . لكننا سنعرفهم كلهم قبل أن نبرح هـذه الديار . ان نسيج حياة أمنا وأخينا واختنا قـد اكتمل . والسر هو في انه لم يكتمل الا في بوسطن ، وان الاصابع التي لمت خيوط سداه ولحمته كانت أصابع السل . هنالك سر كذلك في زمان اكتماله ومكانه : سلطانه في البيت في ابريل سنة ١٩٠٢ ، بطرس في البيت في ١٢ مارس سنة ١٩٠٣ ، امي في المستشفى في ٢٨ يونيو سنة ١٩٠٣ . وها نحن في سنة ١٩٠٤ وقد لا ندرك نهايتها . لقد ذهبت أمي وفي قلبها حسرة كبيرة ، وهي أنها كانت في المستشفى فلم تر بطرس في ساعة وفاته . وفي ذلك سر أيضا يا ماريانا

ـ ما القصد من هـذا الـكلام يا أخي ؟ التبكي وتبكيني ؟ أولا تعرف أن دمعة في عينك تولد دمعتين في عيني ؟

ـ ويل لمن يصـافح الموت بيـد ملوثة بالآثام ، مغلولة بالشهوات يا ماريانا ، ذاك يجـد يد الموت أبرد من الجليـد، واقسى من الحديد

ـ غدا علينا أن ندفع أجرة البيت عن شهر وثمن الغـاز عن شهرين

ـ وهنيئا لمن مات بموت عزيز عليه قبل أن يموت . فأنا قد مت ثلاثا يا ماريانا وما أزال حيا

ـ لقـد تركت لك الـكمية اللازمة من المـال على الطاولة في غرفتك

ـ العالم اخرس أصم ياماريانا ، والويل لمن تحرجه العـازة على مخاطبة العالم

ـ ولا تنس أن تشتري لك قبعة في الغد ، فقـد أصبحت أخجل من أن أراك بين الناس في قبعتك الحالية

ـ وللحياة دفتر تقيد فيه لكل انسان حساباته ياماريانا ٠ وهي تصفيها في كل ثانية . وما نحن فيه الآن هو رصيد حسابنا منذ الازل حتى الآن

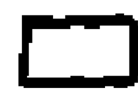
ـ قم يا أخي الى فراشك ، حلفتك برحمة أمك وأخيك واختك

ـ بل برحمة أمي وأخي وأختي أعدى لي ركوة من القهوة واذهبي الى فراشك واتركيني أنهي بعض أشياء لابد من انهائها الليلة . فقد أخبرتك أنني أنوي عرض صوري عما قريب ، وانني قد وقفت الى محل أعرضها فيه وهو في قاعة صغيرة عند مصور فوتوغرافي اسمه « داى »٠أما الصالونات المعروفة فلا تقبلني لانني مجهول ، وان قبلتني فبشروط لا طاقة لي عليها . وعلى أن أبدأ باعداد الصور وتنميرها وتسميتها والاهتمام باطاراتها منذ الليلة

ـ أراك قد ورثت سيجارة أبيك وقهوته قبل مماته ٠ رجوتك بحياتك يا أخي ، واكراما لي ، أن تقلل من تلك وهذه ، فانني أخشى منهما على صحتك ، وأخشى كذلك أن ترث القدح ، فقد بدأت تشرب قليلا

ـ الحق عليك ، فقهوتك طيبة . وهذا البيت الذى نقلتنا اليه يطيب لي فيه السهر أكثر من البيت الذى كنا فيه سابقا ولو انه ، مثل سلفه ، في حي الصينيين ٠ ومن ثم فان انت طلقتني من السيجارة والقهوة فاحذرى من أن تزوجيني من النارجيلة ـ لاسيما نارجيلة جيراننا واخواننا الصينيين

ـ لا ، لا ! ألف سيجارة وفنجان قهوة ونارجيلة سورية ، ولا مصة واحدة من نارجيلة صينية



بقي جبران يحسو القهوة ويدخن السيجارة تلو السيجارة حتى الساعة الثالثة بعد نصف الليل . وبينما هو يفتش عن صورة في محفظة من محافظه عثر على مقال كان قد كتبه

فى العام السابق بعنوان « الموسيقى » . وهو باكورة جهوده الادبية الجدية . فأخذ يقرأه ساكتا مغيرا كلمة هنــا وعبارة هناك ، الى أن وصل حيث يخاطب الموسيقى ، فرفع اذ ذاك صوته الى ما فوق الهمس كأنه يترنم بما يقرأ ولا يصـــدق انه هو الذى كتب ما يقرأه :

ـ يا ابنة النفس والمحبة . يا اناء مرارة الغرام وحلاوته . يا خيالات القلب البشرى . يا ثمرة الحزن وزهرة الفرح . يا رائحة متصـاعدة من طاقة زهور الشـعائر المضـمومة . يا لسان المحبين ومذيعة أسرار العاشقين . يا صائغة الدموع من العواطف المـكنونة . يا موحيـــة الشعراء ومنظمة عقود الاوزان . يا موحدة الافكار مع نتف الـكلام ومؤلفة الشواعر من مؤثرات الجمال

هنا وقف جبران يفتش عن كلمة غير « مؤثرات » يكون بينها وبين « الجمال » من التجانس مثلما بين « نتف الكلام » و « الافكار » . واذ لم يهتد اليها راح يتابع القراءة :

ـ يا خمرة القلوب الرافعـــة شـــاربيها الى اعالى عالم الخيالات . يا مشجعة الجنود ومطهرة نفوس العابدين

وظل يصحح بعض العبارات ، ويربت نفسه على بعضها ، الى أن أذن الديك بالفجر . فانطلق جبران الى فراشـــه قائلا فى نفسه :

ـ يجب أن أصدر هذا المقال فى شكل كراس . فهو جدير بالنشر على حـــدة . وسيقرؤه الناس معجبين متســائلين ـ من هو جبران خليل جبران هذا ؟

١٢

بين النجاح والفشـــل ، مثلما بين الموت والحيـاة وكل المتناقضات ، خط من الظل المتنقل تنظر اليه فى لحظة معلومة من الزمن فلا يصعب عليك أن تقول فى هذا الامر انه ناجح وفى ذاك انه فاشل . ثم ينتقل الظل فتنظر واذا بالنجـــاح

فشل ، وبالفشل نجاح

مضى على معرض جبران بضعة أيام ولم تذكره الصحف الا تنويها ، ولا ازدحم فيه المتفرجون كما كان يتوهم صاحبه انهم سيزدحمون ، ولا بيع من رسومه رسم واحد . هو الفشل بعينه ، والفشل الذى ما بعده فشل

كان جبران جالسا فى زاوية من زوايا معرضه الصغير يحدق فى مجلة بيده دون أن يرى حرفا من حروفها . وكان يسلى نفسه بنفسه فيذكر بعض الذين زاروا المعرض وكيف كانوا يمرون بالصور كأنهم يمرون بطلاسم فيقولون :

ــ هذه جهود ولد صغير ومن العيب أن تعرض على الجمهور كأثمار فنية

وبالاخص ذكر جبران رجلا جاء وبرفقته نساء ثلاث • ثم أخذ يحدثهن عن الفن كأنه يلقى عليهن محاضرة . وكان كلما اقترب من صورة على الحائط يبين لرفيقاته ما فيها من ضعف وخلل وتنافر • فقال فيه جبران :

ــ يا له من حمار !

على عكس امرأة جاءت برفقة رجال ثلاثة وكانت تقودهم من صورة الى صورة فتهتف هتاف اعجاب عند معنى عميق ، أو ظل دقيق ، وتختم كلامها كل مرة : « ياللخيال . ياللخيال ! » وفيها قال جبران :

ــ انها تفهم ما تقول

وبينا جبران يفكر فى صوره تفكير الام ببناتها الحسان اللواتى لم يوفقن الى أزواج ، ويهون فشله على نفسه ، اذ دخلت القاعة سيدة فحدقها جبران بطرف عينيه ثم عاد الى المجلة فى يده كأنه يلتهم كل حرف من حروفها التهاما . وقد شاء بذلك أن يرى السيدة قلة اكتراثه للزائرين كأنه مل ازدحامهم وضوضاءهم ، وكأنه أكبر بكثير من أن يأبه لما يقولون ، أو يهتم بما يحبون أو يكرهون ، ويشترون أو

لا يشترون . الا أنه عاد يسرق لحظات من الزائرة الغريبة فرآها تدرس الصور درس من يرغب فى التوصل الى أسرارها. وذكر ابرة أخته ماريانا وخيطها فقال في نفسه :

ـ لعل هذه السيدة تبتاع صورة

فنهض عن كرسيه ومسد بيده شعره الطويل الى الوراء ، وبابتسامة تقطر لطفا واحتشاما تقدم من السيدة وخاطبها :

ـ هل تريد سيدتى أن أفسر لها بعض هذه الصور ؟

ـ انى أكون ممتنة لك يا سيدى جدا جدا . ولا أنكر عليك اننى بحاجة الى من يفسر لى مثل هذه الصور . فهى ليست من المألوف فى الفن . وأنا ، وان كنت من عشاق الفن ، (هنا قال جبران فى قلبه : ما أكثرهم فى هذه البلاد وما أكذبهم ! الملك منهم ؟) لست من الفنانين . فهل أنت ياسيدى أحدهم ؟

ـ لى الشرف أن انتمى اليهم

ـ وهل تعرف صاحب هذه الصور ؟

ـ أنا هو يا سيدتى

ـ انى سعيدة بمعرفتك يا مستر جبران ، اسمى مارى هاسكل . وأنا رئيسة مدرسة « مس هاسكل » للبنات فى هذه المدينة ـ فى شارع مارلبورو ولعلك سمعت بها . المدرسة اسستها أختى . واشتريتها منها فى العام الماضى عندما تركت اختى عائلتها الكبيرة لتؤسس عائلة صغيرة ـ لتتزوج

ـ بلى . سمعت بمدرستك يا سيدتى . وهى من أحسن مدارس البنات فى هذه المدينة . صدقى انى سعيد جدا بالتعرف اليك يا مس هاسكل

ـ اعذرنى اذا ما سألتك من أى البلاد أنت . فأنت تلوح لى أفرنسيا أو ايطاليا

ـ بل أنا من لبنان

ـ لبنان ؟ لبنان الارز المقدس ونشيد الاناشيد الجميل ؟

ـ نعم . لبنان الازر ونشيد الاناشيد . وقد ولدت عند أقدام ارز الرب على كتف الوادي المقدس ، فى بلدة تدعى بشرى

ـ لعلك درست الفن فى باريس

ـ درسته على نفسي وعلى بعض المصورين فى بوسطن

ـ حقا انك قد أحرزت منه قسطا كبيرا وانت لا تزال فى مقتبل عمرك

ـ تفضلى واجلسى يا مس هاسكل

ـ لا ، لا ، ماجئت لأجلس بل لأدرس . أفلا تفضلت ويسرت لى هذه الصورة ؟

وأشارت الى صورة على الحائط

ـ لقد دعوت هذه الصورة « عودة الروح الى الله » لعلك تعتقدين اعتقادي ان كل مافى الكون من محسوس ليس الا رموزا للحياة غير المحسوسة . وان القصد من الفن ليس تقليد الرموز بل تفسيرها برموز جديدة . الوجه الذى ترينه فى أعلى الصورة هو وجه الله . أنا أعلم ، كما تعلمين ، أن الله لم يره أحد بعين حسية . اما بالخيال فقد رآه كثيرون . ولو كنا كلنا اخيلة لما احتجنا الى رموز . لكننا فى عالم الحس . والخيال يتعذر عليه أن ينقل ذاته الى الحواس ما لم يتخذ لذاته جسما محسوسا . والآن لك أن تنظرى فى هذا الوجه وتترجميه من المحسوس الى غير المحسوس . ولعلك اذ ذاك تبصرين ما حاولت أن أودعه من معانى الالوهة . أو اكثر منه . ولعلك اذ ذاك تنظرين الى الخيال النارى الصاعد من اسفل الورقة نحو الوجه فترين فيه روحا انبثقت من الله وبعد الموت عادت اليه . الفن يجب أن يكون خطابا من خيال الفنان الى خيال الناظر . لذلك أتحاشى فى تصويرى أن أشغل حواس الناظر دون خياله . ومن ثم فالقوالب التى يتخذها الفن يجب أن تكون جميلة وخاضعة لنواميس الجمال . وللجمال نواميس اذا تعداها الفن لم يكن فنا

ـ كلامك جميل يا مستر جبران ومعقول . وحتى الآن لم يكلمني بمثله فنان . ماذا تقول لي في هذه الصورة وقد استوقفتني طويلا وأشكلت على معانيها ؟

ـ وماذا استوقفك فيها لاول وهلة ؟

ـ استوقفني هذه الاجسام العارية المتماسكة بعضها ببعض وكأن قوة تقذفها الى فوق قذف عمود من الماء ثم تهوى بها الى تحت وتبعثرها كقطرات فوارة اذ تهبط الى الحوض

ـ أولم تحسي بشيء وأنت تنظرين الى هذه الاجسام وتقاطيعها والمعاني التي تبدو لك في وجوهها ؟

ـ هي أجسام متألمة ووجوه متألمة

ـ اذن لست بحاجة الى تفسيري . فقد دعوت الصورة « فوارة الالم » وقد شئت أن أمثل بها القوة التي تعصر من النفس كل زوائدها فلا تبقى الا على عصارتها الخالصة . والالم أفعل في النفس من اللذة . وما الحياة كلها الا فوارة من الالم

ـ ولماذا تكثر من الاجساد العارية ؟

ـ لان الحياة عارية . والجسم العارى هو أقرب وأجمل رمز للحياة ، فاذا ما صورت جبلا في شكل كومة من الاجسام العارية ، أو شلالا في هيئة سلسلة من الاجسام العارية الهاوية من فوق الى تحت ، فلأني أرى الجبل كومة من كوم الحياة ، والشلال مجرى من مجارى الحياة

ـ أراك كذلك تكثر من رموز الموت والالم . فهل في ذلك معنى غير معنى الموت والالم ؟

ـ لان الموت والالم كانا نصيبى الاكبر من الحياة حتى اليوم . فبين الرابع من ابريل سنة ١٩٠٢ والثامن والعشرين من يونيو سنة ١٩٠٣ فقدت أختى الصغرى ثم أخى الاكبر ثم أمى . وكلهم أعز ما في الكون عندي يامس هاسكل

ـ انني أفهم حزنك يا مستر جبران . والدمعة التي أراها

الآن فى عينك تفهمها دمعة فى قلبى . فأنا ، مثلك ، قد فقدت أمى حديثا . وكانت اعز انسان لدى . لقد وجدنا بيننـــا قرابتين : قرابة الفن وقرابة الالم

ــ قرابة الالم ابقى من قرابة الفرح وأقوى من قرابة الدم

ــ لقد كنت لطيفا معى لدرجة قصوى يا مستر جبران . ولست أدرى بأية كلمات اشكر لك لطفك . أفـــلا تفضلت وزرتنى قريبا فى المدرسة لعل القرابة التى وجـــدناها بيننا لا تنتهى هنا . ويا ليتك تدرى كم أنا ممتنة لصـــديق لى . فهو الذى أخبرنى اليوم عن معرضـــك وألح على بالمجىء قائلا انه من المعارض القليلة التى يجب على كل من يحب الفن أن يزورها . ولولاه لمـــا اتيح لى ان أعرفـــك واعرف فنـــك الجميل . قل لى أناجح معرضك ؟

ــ من حيث كثرة الزائرين ــ نعم ، فقد غصت هذه القاعة غير مرة بالجماهير . أما من حيث المبيع ــ لا . كثير هم الذين اظهروا رغبة فى ابتياع بعض الصور . لكنهم لم يدفعوا الاثمان التى اطلبها . انما عندى وعود كثيرة أؤمل أن تثمر

ــ هى مثمرة باذن الله . استودعك الله يامستر جبران . واتمنى أن أراك عما قريب فى مدرستى . وأشكر لك لطفك مرة ثانية ، فقد سقيتنى كأسا طافحا بخمر الفن

ــ كأس الفن طافحة أبدا . ولكن الشاربين قليل . الى اللقاء يامس هاسكل

عادت مارى هاسكل الى مدرستها وهى لا تذكر الخيط الابيض الحريرى الذى حلمت به منذ اثنتين وعشرين سنة فى مدينة كولومبيا من ولاية سوث كارولينا . ولا تشعر انها فى ذلك المعرض الصغير قد لمسته بيدها . وبيدها شدته على خصرها . بل كانت تفكر فى الصديق الذى هداها الى المعرض وفى الكلمات التى ستعبر بها عن امتنانها له وعن بعض ماشهدته من لطف الشاب اللبنانى وغزارة مواهبه الفنية . وقد عجبت فى

سرها كيف أن الله لايراعى العدل في تفريق هباته على مخاوقاته
وعاد جبران الى بيته وهو لا يعرف انه بلمسه ليد الزائرة الغريبة قد لمس جناح الملاك الحارس الذى كان يفتش عنه منذ سنين • بل كان يقول فى نفسه : « يا ليت ربى زاد فى قامتى قيراطين حتى اذا وقفت بجانب امرأة كمس هاسكل ماشعرت بنفسى صغيرا مثلما شعرت اليوم »
ولم يخطر لجبران ولا لمارى هاسكل ببال أن الحائك الاكبر قد التقط بمكوكه العظيم خيطى حياتهما من جديد ليتابع حياكة النسيج الذى بدأ به منذ الازل على منواله السرمدى

١٣

كانت مارى هاسكل تسكب الشاى وتناوله لضيوفها موجهة أكثر كلامها وعنايتها الى الشاب الجالس عن يمينها :
ــ حقا أنك أوليتنا جميلا كبيرا يامستر جبران عندما لبيت دعوتنا ورضيت أن تعرض صورك الجميلة فى مدرستنا . والفضل فى ذلك راجع الى الآنسة الجالسة تجاهك . فهى من مساعداتى . وبعد أن سمعتنى أحدث عما رأيت فى معرضك قالت : « ياليتك تطلبين اليه أن يعرض صوره فى المدرسة » وهكذا كان . وها نحن سعداء أن نراك ونرى صورك عندنا . اهتمى بجارك يا ميشلين وقدمى له بعض أقراص الحلوى . جارتك عن يمينك يا مستر جبران من معلماتنا . وهى افرنسية الاصل • واسمها ، كما ذكرته لك سابقا ، ماديموآزيل اميلى ميشيل . غير اننا ندعوها تحببا « ميشلين » فهى حبيبة الكل وملاك هذه المدرسة
ــ رئيستنا يامستر جبران تقيس كل الناس بذاتها ، لذلك دعتنى ملاكا،أمانحن المعلمات والتلميذات فندعوها«السنديانة»
ــ جذورها في الارض ورأسها فى السماء . وما نحن الا عصافير نعشش فى أغصانها ونستظل بظلها ونلجأ من العواصف اليها . نحن نضطرب لامور كثيرة أما هى فهادئة أبدا . فى كل يوم

ناتيها بمشكل بل بمشكلات . أما هى فلا يشكل عليها أمــر . نتقاضى اليها فى خصومات كبيرة أو تافهة فلا نرتد من عندها الا راضيات . واذا ما طلبنا اليها أن تسن لنا قانونا فى أمر من الامور ، قالت : « لتكن المحبة قانونكن . فأنتن ان لم تكن على وفاق مع أنفسكن لن تكن على وفاق مع القانون »

ـ ميشلين ، كفانا يا عزيزتى تحدثنا عن أنفسنا ونحن فى حضرة كاهن من كهنة الجمال . ماهو نظرك فى الجمال يامستر جبران ؟

ـ الجمال هو مانراه فنود ان نعطى لا أن نأخذ . هو ما نشعر عند لقياه بأيد ممدودة من أعماقنا لضمه الى أعماقنا . هـو ماتحسبه الاجسام محنة والارواح منحة . هو الفة بين الحزن والفرح . هو مانراه محجوبا ونعرفه مجهولا ونسمعه صامتا . هو قوة تبتدىء فى قدس أقداسنا وتنتهي فيما وراء تخيلاتنا. الجمال هو المقرب قلوبنا من عرش المرأة . وعرش المرأة هو عرش الله . وياليت الذين جعلوا من الدين لهوا فألفوا بين طمعهم بالمال وشغفهم بحسن المآل يفقهون معنى الجمال ، اذن لجعلوه معبودا لهم

ـ اننى أسمع فى كلامك ما أراه فى صورك يامستر جبران . وقد قلت لى انك تكتب بلغتك العربية . فهل طرازك فى الكتابة مثل طرازك فى التصوير ؟ ولماذا اخترت هذا الطراز ؟

ـ لعله اختارني ولم أختره . لقد وجدتني ماشيا فى هذه الطريق دون علم أو قصد منى . ولكل طريقه فيما يعمل . اذن هذه هى طريقى . عندما بدأت بالتصوير لم أقل لنفسي: هاهى ذى الطريق الكلاسيكية أو الحديثة أو الرمزية أو كثير سواها فاختر لك واحدة منها . بل ما شــــعرت الا وقلمى يرسم رموزا لمــا يجول فى خاطرى من خيـــالات وأفــكار وعواطف . يحسب البعض أن الفن فى تقليد الطبيعة . والطبيعة أعظم من أن تقلد . ومهما تســامى الفن لا يأتى بمعجزة من

معجزاتها . ومن ثم فما الحاجة الى تقليد الطبيعة وهى محسوسة لكل ذى حس ؟ انما الفن أن نتفهم الطبيعة ونؤدى معانيها للذين لا يفهمونها • الفن أن نؤدى روح الشجرة لا أن نصور جذعا وفروعا وأغصانا وأوراقا تشبه الشجرة • الفن أن نأتى بضمير البحر لا أن نرسم أمواجا مزبدة أو مياها زرقاء هادئة . الفن ان نرى فى المألوف ماليس مألوفا . لذلك أبتعد فى التصوير وفى الكتابة عن كل مألوف لأتوصل الى ما فيه من معان والوان غير مألوفة . ويل لعين ألفت الشمس الى حد ألا ترى فيها غير وجاق يدفئها ومشعل يدلها على الطريق من بيتها الى مخزنها . انها لعمياء وان أبصرت البرغشة على بعد ميل . ويل لاذن ألفت تغريد البلبل الى حد أن لا تسمع فيها غير نوطات متتابعة . انها لصماء وان سمعت دبيب النمل تحت الارض . نعم . تلك هى طريقى . وهى تعرفنى وأنا أعرفها . حتى ليخيل الى فى بعض الاحايين انى سلكتها قبل أن ولدت . فأنا لا أكاد ابلغ عطفة فيها حتى اشعر بما بعدها . ولا انحرف عنها قيد باع الا أعرف أننى انحرفت قيد باع . فأعود اليها

تمادى الحديث أكثر من ساعتين . ومثل كل حديث يدور حول فنجان الشاى ، كان يتنقل من الجليل الى التافه ــ من الله الى الطقس ، ومن الفن الى أسعار البيض ، ومن الادب الى أخبار آخر ساعة ، ومن أرز لبنان الى حى الصينيين فى بوسطن . وكان لجبران القسط الاوفر منه . فكان يفيض فى الكلام عن أسعار البيض افاضته فى الكلام عن تمثال الزهرة فى متحف اللوفر وعن ذراعيه المقطوعتين ، مفخما كلامه ، متباطئا بلفظه ، كأنه يتلو آيات منزلات . وكان كلما قال كلمة فتش حافظته حتى اذا ما اهتدى الى أخرى أبهج منها لونا، وأعذب رنة ، وأثقل وزنا ، وأشد غموضا ، استبدلها بها ، والا تعداها الى سواها . وقد آنس من قريحته

فيضانا كان يزداد كلما التفت الى النسوة جليساته فقرأ فى وجوههن علامات الاستحسان والاعجـــاب . ومع انه ، فى الظاهر ، كان يوجه حديثه الى الكل ، لم يكن يخاطب فى باطنه الا اثنتين ــ رئيسة المدرسة عن يساره والمعلمة الافرنسية عن يمينه . أما رئيسة المدرسة فكان يخاطب رأسها . وأما ميشلين فقلبها . وكان ، وهو يخاطبهما ، يقابل بينهما فى فكره وفى وجدانه :

الرئيسة : ــ وجه أشقر مستطيل يغلب فيه النحول . جبهة منفرجة عالية . شــــعر مسرح الى الوراء ومعقود فى مؤخر الرأس عقدة بسيطة . حاجبـــــان ضن الله عليهما الا بالقليل من الشعر . أجفان تكاد أهدابها لا ترى ، تنطبق ثم تنفرج عن عينين زرقاوين مستديرتين غارقتين فى حجاجيهما ، مغسولتين بســــائل ليس من بئر الدموع ولا من مستودع الضحك . أنف مستطيل دقيق قائم فوق شفتين رقيقتين تكاد اطرافهما تصل متوسط الخد الايمن بمتوسـط الخـد الايسر . اذا تلاقتا كونتا خطا مستقيما . أو تباعدتا انكشف من تحتهما معظم اللثتين وما فيهما من أسنان ليست آية فى الاتساق والانتظام . صدر ضيق وكتفان عاليتان تمتـد منهما ذراعان طويلتان تنتهيان بكفين يكاد طولهما يكون ضــــعفى عرضهما ، وأصابع عظمهـا أوفر من لحمها ، تخنت عقــدها ودقت رؤوسها وتباعدت كثيرا أوائلها عن أواخرها

لباسها غاية فى البساطة والنظافة وقلة الاكترات بالازياء . ووجهها يقسم يمينا صادقة انه لا يعرف مساحيق العطارين . تتكلم فلا تلوك الكلام ولا تردده ، بل تخرج الكلمة من فمها تلو الكلمة دون ما تزاحم او تنافر . اذا أبدت فكرا جاءت عليه كله ، لا على ربعه أو نصـفه ، وذاك بعبارات منتقاة صحيحة لا اثر فيها للتأنق والتقعر وتعمد الفصاحة والبــلاغة . فى منطقها وزن ينم عن توازن فى عقلها . وفى عقلها صراحة تكره

التبطن بالمواربة والكذب . قد تخدع لكنها لاتخدع . تسوق ولا تساق . وان ساقت فبدون أسواط ومناخس وشفرات حادة . وقد يهزأ بها ولكنها لا تهزأ . صراحة كأنها سبيل سوى ـ لا يلتوى يمنة ولا يسرة ، ولا يصعد هضبة أو ينحدر الى واد . يخيل الى سامعها وناظرها أن أعنة حياتها فى حرزة عقلها . اذا عملت خيرا فلأن عقلها يقول لها ان فعل الخير حسن أو ارتدت عن شر فلان عقلها يدلها أن تجنب الشر حسن . وان لم يكن فى نفسها مخابىء غضب ، أو مخالب حقد ، أو سهام نميمة أو حسد ، فلأن عقلها يعظها أن الابتعاد عن الغضب والحقد والحسد والنميمة حسن . اذا مشت فبخطوات واسعة لا رشاقة فيها . وبقدم تحب الارض وثبات الارض

فى وجهها ما يشهد شهادة حقة أنها لا تعرف شهوات الرجال . لكنه يشهد كذلك أن ليس فيه ما يوحي قبلة يسيل معها القلب على الشفتين . أو يثير شهوة تسوى الروح والجسد معا • هي سنديانة ، كما لقبتها تلميذاتها ومعلماتها ـ يستأنس الضعيف بقوتها ، والمسافر بظلها ، والعين بطهارتها . أما الجائع فيرتد عنها جائعا ، والعطشان عطشان • هى تلك السنديانة وليست الشجرة المثقلة بالاثمار الفرارة التى أنبتها الله فى وسط الجنة وأنذر آدم أن يأكل من كل شجر الجنة الا منها قائلا : « انك يوم تأكل منها تموت موتا »

ميشلين : ـ فى شعرها الاسود لمعان يأسر العين ويكهرب اليدين الى حد أن الناظر ، لولا قوانين الحشمة واللياقة ، لما تمالك من لمسه وتمسيده . وفى عينيها العسليتين الواسعتين كحل من النور الذى يبرز بالنهار من احشاء الليل ويستل الليل من بين اجفان النهار . فى بشرة وجهها الصافية حمرة الشقيق اذا تفشت فى صفرة العاج . فى ابتسامتها

ضعة الطفل وطهارته . وفى ضحكتها كركرة الجـدول النقى الطروب . لكنها قلما تبتسم وقلما تضحك . كأن سـنيها العشرين علمتها أن فى كثرة الهرج تهلكة للجمال . وفى الرزانة أمنع حصن له

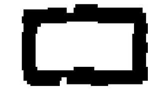
تتكلم أحيانا فيقول السامع ــ انها لطفلة . وأحيانا تفوه بما يحمل السامع على القول ــ انها لشاعرة وحكيمة معـا . وتمشي فكأن فى الارض رفاسا تحت قدميها أو كأن فى رجليها أجنحة

خيرها فيضان من قلبها وكذلك شرها . ولا دخل لعقلها فى كليهما . اذا عطفت على طفل فبكل ما فى كيانها من العطف دون أن تسأل ما اذا كان يتيما أو غير يتيم . فقيرا أو غنيا . وما اذا كان حقيقا بالعطف أو غير حقيق . وما اذا كان العطف عليه واجبا أو غير واجب . الواجب عندها مالا تطيق القعود عنه . والحق ما يستريح اليه قلبها بكليته . والحرام ماأنفت عاطفتها التدنس به . تكره الالم لنفسها ولسـواها . واذا أمكنها أن تخفف من ألم جارها أو جارتها لا تتهاون لحظة ، وان كلفها ذلك ألمـا ، ولا تقول فى نفسها : لقد عملت مايرضى الله ــ الله فى حياتها ضباب . والجنة وجهنم كلمتـان على السنة الكهنة وفى الـكتب المقدسة

اذا آنست من جليسها لطفا أطلت كالبزاقة من صدفتها . أو خشونة عادت الى صدفتها لتحمى نفسها من الخشونة . لكنها أبدا متحفظة حريصة . لا كبرياء فيها ولاادعاء . والذى يحسبه الناظر اليها كبرياء ليس الا برقعا تصون به عفـة جمالها من رجاسة الشنعاء وقحة البلداء

هى جميلة وتعرف انها جميلة . ولكن أتراها تعرف ، أو تحب أن تعرف ، ما فعلت بجبران ساعتان بالقرب منهـا ؟ شبهها جبران فى فكره بالراديوم ــ تحرق ولا تحترق . اذ أحس كأن فى كرسيه أسلاكا كهربائية مشحونة ، وكان كلمـا

سرت الـكهرباء فى مجارى دمه ومسارح خياله يستر هزاتها العنيفة بكل مالديه من الحيل وقوة الارادة قائلا فى نفسه :
لعل فى كرسيها مثلمافى كرسى من الاسلاك المشحونة بالكهرباء.
ولعلها ترانى ، مثلما أراها ـ كالراديوم أحرق ولا أحترق



فى تلك الليلة أهلك جبران كثيرا من القهوة والسيجارات والغاز ، وأتلف أوراقا كثيرة حاول أن يرسم عليها بالـكلام حرارة الجمرة التى تركتها شفتا ميشلين على شفتيه ، واللهيب الذى أضرمته أنفاسها فى قلبه وبين تلافيف دماغه . وقبل بزوغ الفجر بقليل عانق وسادته وهو يشعر كأنه يعانق القدر الذى التقاه فى شكل فتاة غريبة فنانة ولا يصدق ان ما كان كان . وقلبه ولسانه يباركان الحياة الحبلى بالمفاجآت والاسرار

١٤

ـ بماذا جئتنى اليوم يا حبيبى ويا خليلى ؟ أبدمعة أم بابتسامة ؟

ـ بل بابتسامة تستحق ابتسامة . يا ليتك تعرفين العربية يا ميشلين ، اذن لقرأت لك قصائدى كما أقرأها لنفسى ، وما اضطررت أن أكون ترجمانا . أتعرفين ان القطع التى أنشرها فى الجريدة العربية فى « نيويورك » بعنوان « دمعة وابتسامة » تتناقلها الصحف فى كل أطراف العالم ؟

ـ وذاك بالطبع يغيظك جدا جدا . انى لاخشى ان أنا شئت فى المستقبل أن أرى وجهى فى عينيك الناعستين أن أحتاج الى سلم كسلم يعقوب لارقى بها اليك . هات اقرأ لى ابتسامتك الجديدة . والمس بشفتيك شفتى فقد كادتا تنسيان الابتسام

احتضن جبران حبيبته وقبلها ، ثم أخرج من جيبه عددا من جريدة « المهاجر » وأخذ يترجم قطعة بعنوان «الرفيقة» :

« أول نظرة : ـ هى الدقيقة الفاصلة بين نشوة الحياة ويقظتها . هى الشعلة الاولى التى تنير خلايا النفس . هى أول رنة سحرية على أول وتر من قيثارة القلب البشرى . هى آونة قصيرة تعيد على مسمع النفس أخبار الايام الغابرة ، وتكشف لبصرها أعمال الليالى ، وتبين لبصيرتها أعمال الوجدان فى هذا العالم ، وتبيح سر الخلود فى العالم الآتى

« أول قبلة : ـ هى الرشفة الاولى من كأس ملأتها الآلهة من كوثر الحب . هى الحد بين شك يراود القلب فيحزنه ويقين يفعمه فيغبطه . هى مطلع قصيدة الحياة الروحية والفصل الاول من رواية الانسان المعنوى . هى عروة توثق غرابة الماضي ببهاء الآتي وتجمع بين سكينة الشواعر وأغانيها. هى كلمة تقولها الشفاه الاربع معلنة صيرورة القلب عرشا ، والحب مليكا ، والوفاء تاجا ... هى بدء اهتزازات سحرية تفصل المحبين عن عالم المقاييس والكمية الى عالم الوحى والالهام ...

« القران : ـ هنا يبتدىء الحب أن ينظم نثر الحياة شعرا وينشىء من معانى العمر سورا ترتلها الايام وتنغمها الليالى. هنا يزيح الشوق ستائر الاشكال عن معميات السنين الماضية ويؤلف من نتف اللذات سعادة لا يفوقها غير سعادة النفس عندما تعانق ربها . القران هو اتحاد ألوهيتين على ايجاد ألوهية ثالثة على الارض . هو تكاتف اثنين قويين بحبهما لمقاومة دهر ضعيف ببغضه ...هو تنافر روحين من التنافر واتحاد نفسين مع الاتحاد . هو حلقة ذهبية من سلسلة أولها نظرة وآخرها اللانهاية ... »

ـ ومن هى رفيقتك هذه المحظوظة يا خليل ؟

ـ ميشلين ، يا شريرة . أنت تداعبين حيث المداعبة اثم . عندما يجلس القلب على عرشه فلتخر كل الحواس ساجدة. ولتسبح بصوت واحد ـ قدوس . قدوس . قدوس

ـ قدوس • قدوس • قـدوس • ومتى تقترن برفيقتـك يا خليل ؟

ـ لقد اقترنت بها أمام الله . لقـد جعلت من جسمى وجسمها هيكلا واحدا طاهرا لعبادة الحب الواحد الطاهر . وجعلت من روحها وروحى عرشا أزليـا أبديا للاله الازلى الابدى . قبل ان يقول الله للنور « كن » كنت واياها فى النور . ومن قبل أن يخلق الله آدم وحواء كنت واياها آدم وحواء فى جنة أحلام الله . أنت لا تعرفين من انت يا ميشلين . أما انا فأعرف . لقد عرفتك قبل أن ولدتك أمك . فقد كنت شوقا هاجعا فى أعماق كيانى قبل ان صرت كلمة مرتعشـة بين شفتى الحياة . وقد كنت حياة فى عروقى قبل انمشيت دما سخينا فى مفاصل الارض . وكنت دقـة علوية فى قلبى قبل أن تكونى نبضا راقصا فى ساعد المسكونة . وما فصلتنا الحياة يوما الا لتجمعنا ، ولا جمعتنا الا لتبصر نفسها كاملة بكمالنا ، واحدة بوحدتنـا ، أزليـة كما نحن أزليـان ، أبدية كمـا نحن أبديان . منـذ ولدت وأنا أفتش عنك . ومنـذ ولدت وأنت تفتشين عنى . كل صـوت خرج من صدرك حتى ساعة التقينا كان معناه : ـ أين أنت يا خليلى ، أين أنت ؟ وكل خطوة خطوتها حتى اليوم كانت لتدنيك منى . وما أهلك وأهلى ـ من مات منهم ومن لا يزال فى قيد الحياة ـ وما كل من عرفناهم من أعداء وأصدقاء ، وما كل ما انتابنا من ألم ولذة ، وما كل ما أكلناه وشربناه ، وحلمناه واشتهيناه ، غير حروف وكلمات تتألف منها مقدمة السفر السرىالذى هو حبنا

ـ قدوس • قدوس •قدوس•لقد اقترنت برفيقتك أمام الله يا خليل ، فمتى تقترن بها أمام الناس ؟

ـ ما أكثر ترابك وأقل تبرك يا ميشلين • الناس •الناس• الناس ! ما همى بالنـاس وبما يقولون ويفعلون ؟ هل جمعوا

مرة بين قلبين متحابين الا ليفصلوهما ؟ أو ربطوا متناقضين الا ليقتلوهما بربطاهم ؟

ــ خليل ، حبيبى ، نور عينى ، حبة قلبى ــ هبنى كنت ترابا قبل أن عرفتك ، فقد حولنى حبك تبرا

ــ لا ولن يحولك تبرا ألف حب كحبى . الناس . الناس . الناس . أنا أكره الناس وسبل الناس . وأكره من يحبهم ويسير فى سبلهم . هم كالدجاج ــ لهم أجنحة ولا يطيرون . وألسنة ولا يغردون . ومخالب ولا يفتشون بها الا عن الديدان والاقذار . هم لا يبيضون الا فى أكنان تقاليدهم المظلمة وأنظمتهم النتنة . أعطينى ولو فرخ نسر وآحد وخذى كل دجاج الارض

ــ ولمن ترسم رسومك يا خليل ــ أليس للناس ؟ ولمن تنظم قصائدك يا خليل ــ أليس للناس ؟ وبأقلام من تكتب وترسم يا خليل ــ أليس بأقلام الناس ؟ وخبز من تأكل يا خليل ــ أليس خبز الناس ؟ ومجد من تطلب يا خليل ــ أليس مجد الناس ؟

ــ أنت منهم . أنت كذلك ابنة الديدان والأكنان . وأنا كالنسر لا أرضى غير الفضاء ميدانا . ولا أطيق أن أشرف على الحياة الا من القمم العالية . فسبحان من جمع بين النسر والدجاجة !

ــ وأنت لا تأنف من أن تغذى جسمك ببيض الدجاج ولحومها يا خليل

ــ جسمى لا روحى

ــ اذن أنا غذاء لجسمك لا أكثر ولا أقل . أنا مطية لشهواتك . أنا ألعوبة فى يديك . وحبنا ليس الا فرخ دجاجة ؟ ياويل هذا الحب كم خدشته مخالب أنانيتك النسرية وهو ما يزال فرخا . والآن أراك عازما أن تقضى عليه . أنت لا تعرف الا نفسك ، ولا تهتم الا بنفسك ، ولا تؤمن الا بنفسك . أقول لك أنى أصبحت

مضغة في أفواه بنات المدرسة ومعلماتها،فتجيبني : ـالناس . الناس . الناس . ثم تأمرني أن أكتم السر عن كل النـاس ، وبالاخص عن رئيسة المدرسة ، وتدير ظهرك وتنصرف عني . تقرأ لي قصائدك ثم تؤنبني اذا لم أهتف هتاف اعجاب لـكل عبارة أو مقطع . وتقول انني من تراب فلا أفهم جمال روحك السماوية . ألا اجعلني رفيقة تحسن المشي في مسالك الارض قبل أن تجعلني شاعرة تجوب رحاب الجو . ألا اجعلني دجاجة سعيدة قبل أن تجعلني نسرا قويا . ألا اجعلني انسانا راضيا قبل أن تجعلني الها كاملا . لقد أشبعتني شعرا حلوا وخصاما مرا . اذا كان حبك قطرة من العسل في كأس من العلقم فاني محطمة كأسي الآن . ولعل الاله الذي تؤمن به لا يهملني

ـ ميشلين ، لقد سئمت نفسي الخصام . فارحميني وارحمي نفسك . واصفحي عن مرارة فيقلبي لا يزيلها الا حبك . أنت أنت رفيقتي منذ الأزل وستبقين رفيقتي الى الأبد .وسأقترن بك أمام الناس حالما يتيسر لنا ما نظهر به بين الناس.ميشلين، قولي لي : هل تدري الرئيسة بشيء من أمرنا ؟

ـ لها عين ثالثة تبصر كل شيء ، وأظنها تعرفلكنها تتجاهل

ـ يا ليتك تعرفين بعلبك . لكن ستعرفينها ان شاء الله . ستعرفين لبنان ـ لبناني . وستعرفين جلال بعلبك ، وهيبـة تدمر ، وجمال البحر المتوسط . أوتدرين ما يجول بخاطري ؟ قصة خيالية أجعل بعلبك مسرحها . ومحورها حب قديم بين ابن كاهن من كهنة عشتروت وفتاة كميشلين . وكيف كانهذا الحب يتجدد على ممر الاجيال . يموت الحبيبـان ويولدان في أجسام جديدة وظروف جديدة . لكنهما أبدا يلتقيـان ليكملا أنشودة الحب القدسية . خليلوميشلين.وقد اخترت لقصتي عنوانا جميلا : « رماد الاجيال والنار الخالدة ».تحترق الاجيال وتمسي رمادا أما نار الحب فمستعرة أبدا . ما قولك ؟

١٥

ـ لا تقولى مصادفات يا مارى • الحياة لا تعرف المصادفات• فى الكون خيوط لا تحصى يتألف منها نسيج الكون الواحد • وحياتك وحياتى خيطان فى هذا النسيج السرمدى ـ يتباعدان ثم يتقاربان ، ثم يتعانقان ، ثم يتباعدان ويتقاربان ويتعانقان من جديد • وهكذا الى أن يتم النسيج • الحائك الجالس وراء المنوال يعرف الغاية من كل خيط • لكن كل خيط لا يعرف غاية الحائك • لقد مات أخى وأختى وأمى لانه كان من الواجب أن يموتوا فى الحين الذى ماتوا فيه وبالميتة التى ماتوها •ولقد احترقت صورى لانه كان من الواجب أن تحترق فى المكان والساعة المحتومين لحريقها • وقد يكون لى فى ذلك خير كبير

ـ انها ، مع ذلك ، لخسارة جسيمة يا خليل•وكم أناسعيدة لان الله ألهمنى فابتعت من صورك اثنتين ـ رقصة الافكار وفوارة الألم

ـ لكل شىء غاية يتممها ويمضى • ويظهر أن صورى قد أتمت الغاية التى وجدت من أجلها • ويكفيها أنها كانت واسطة لتجديد العلاقات بيننا

(وأضاف جبران فى قلبه ـ وبينى وبين ميشلين)

ـ أراك ، من بعد ما اهتديت الى عقيدة التناسخ ، ترد كل شىء اليها حتى احتراق صورك • لله كم تغيرت فى السنوات الأربع التى عرفتك فى غضونها !

ـ لقد كنت ضائعا بين الموت والحياة • وكنت كلما فكرت فى العلاقات البشرية أشعر كأنى فى سراديب من الطلاسم • أما فى التناسخ فقد وجدت مفتاح الحياة والموت ومصباحا ينير لى سراديب العلاقات بين الناس

« تأملى يا مارى كم خطوة خطوناها قبل أن نلتقى • وكل خطوة كانت نتيجة للتى قبلها وسببا للتى بعدها • وضعتك أمك فى الشهر الثامن فكنت ، كما تقولين ، رأسا وعينين وفما

ـ لا يزيد وزنك على الخمس أواق ، ولا أحد يؤمل لك بالحياة. وبالرغم من ذلك حييت بين خمس أخوات وأربعة اخوان . وتغلبت على نقص الولادة وعراقيل الفاقة .. فأنهيت مدرسة عالية من مدارس البنات في هذه البلاد . وكنت تعصرين الدولارات لدفع الرواتب المدرسية من خرقة غسل الصحون ومن فوهة الفرن حيث كنت تخبزين عددا معلوما من الارغفة في النهار . أو من مفاتيح البيانو عندما كنت تعلمين الموسيقى. وأخيرا توصلت الى ابتياع مدرسة أختك في بوسطن . من كولومبيا ـ سوث كارولينا ـ الى بوسطن . ومن طفلة مشوهة في الولادة يشتهي لها الناس الموت الى رئيسة مدرسة تطلب لها تلميذاتها ومعلماتها طول العمر . لو تغيرت خطوة واحدة في حياتك لتغيرت كل حياتك

« وأنا ـ ولدت بعدك بعشر سنين. ولا علاقة في الظاهر بين أهلي وأهلك ولا بين بشرى وكولومبيا . ولا بين سنة ١٨٧٣ و ١٨٨٣ . ومع ذلك ، لو لم أولد حيث ولدت وحين ولدت . ولو لم يكن أبواي في نفارمستمر . ولو لم يكن لي أخ اسمه بطرس لما هجرنا بلادنا . ولو لم يكن لأخي وأمي معارف من أبناء بشرى في بوسطن لما انتقينا بوسطن من كل مدن الولايات المتحدة وقراها . ولو لم أولد وفي ميل الى التصوير لما صورت. ولو لم أصور لما عرضت صوري . ولو لم أعرض صوري حيث عرضتها وحين عرضتها لما اتفق لصديقك أن يراها... ولو لم يخبرك صديقك عنها وكان لا يقعدك مرض أو شغل عن الذهاب لما ذهبت الى المعرض . ولو لم يتفق وجودي في تلك الساعة هناك لما رأيتني. ولو كان معك رفاق لما اقتربت منك وسألتك اذا كنت تريدين أن أفسر لك بعض الصور

« آ ، ماري ، ماري . أوكل هذه الامور ، وربوات غيرها من الاحلام والاشواق والافكار الدقيقة التي تولدها ، والتي لا يحصيها العقل ، ـ أوكلها مصادفات ؟ »

ـ لا يا خليل ، غير أن الناس يدعون مصـــادفة كل حادثة يجهلون مركزها من حياتهم وحياة الكون

ـ ان دورة الحياة لا تنتهي بعمر واحد ولا بأعمار ٠ نحن نطلب الكمال ، نحن نفتش عن الله ، فمن ذا يجد الله في عشرين سنة أو في مائة أو في ألف ؟ « وكنتم أمواتا فأحياكم ٠ ثم يميتكم ثم يحييكم ٠ ثم اليه ترجعون » ـ هكذا قال نبي العـــرب ٠ وهكذا قال أنبياء في الشرق كثيرون ٠ في الهند والصين واليابان مئات من الملايين الذين يؤمنون بتجديد الحياة الفردية قرونا تلو قرون ٠ وفي لبنــان طائفة يدعونها الدروز تؤمن الايمان عينه ٠ ليست الحياة البشرية الا تصفية حســابات ٠ نموت فنترك خلفنا ديونا لنا وديونا علينا ـ من خير ومن شر ـ من حب ومن بغض ـ من صداقة ومن عـداوة ٠ فنعود لنستوفي ونوفي ٠ وسنظل نستوفي ونوفي الى أن لا يبقى لنا من رصيد حساب الا الله

ـ أرجو أن لا يكون الدين الذي لك في ذمتي كبيرا يا خليل ، وأن أكون قادرة على ايفائه

ـ اذا لم يكن لي غير أني لا أشعر معك بالوحشة الروحيـــة التي أشعر بها مع باقي الناس لكفاني ٠ ها أنا أتحدث اليك في كل بارقة ألمحها بعين روحي ، وفي كل شبح يمر به خيالي ٠ وكأني أتحدث الى نفسي ٠ أنا غريب في هذا العالم يا ماري ٠ لكنني لست غريبا عنك ولا أنت غريبة عني

ـ خليل ، لماذا لا تكتب بالانكليزية ؟ تقول لي انك في العربية من الكتاب البارزين ٠ وها أنت ، ولا تزال في ريعان شبابك ، قد أصدرت ثلاثة كتب بالعربية : الموسيقى ـ عرائس المروج ـ والارواح المتمردة ٠ غير أنها ، كما فهمت منك ، لا تدر عليك فلسا بل تكلفك فلوسا

ـ لست واثقا من لغتي الانكليزية بعد ، ولا أظن بضـــاعة كبضاعتي تلقى رواجا في هذه البلاد

ـ لقد تحسنت انكليزيتك تحسنا عظيما فى السنوات الاربع الاخيرة

ـ الفضل فى ذلك عائد اليك يا مارى

ـ وأنا أعدك بتصحيح لغتك قدر استطاعتى

ـ على أن أهتم بالتصوير الآن . فهو أقرب مورد للرزق من الكتابة

ـ خليل ، أتحب أن تذهب الى باريس لمتابعة دروسك الفنية؟

ـ من كل قلبى ، ولكن ...

ـ لكن لا مال عندك . أنا أدفع أكلاف سفرك يا خليل وأتعهد لك بخمسة وسبعين دولارا أقدمها لك كل شهر الى أن تنهى دروسك . أفلا تقبلها منى تقدمة محبة لك واعجاب بمواهبك الغزيرة ؟ ويا ليت فى طاقتى أن أقدم لك أكثر من ذلك

ـ مارى ، مارى ، مارى ، (كاد لسان جبران يزلق فيقول : ميشلين ، ميشلين ، ميشلين) لقد أترعت قلبى حتى الفيضان. فلتكن دموعى جوابا لك

وبكى جبران وكانت دموعه تقول : « يا ليت روح مارى فى جسم ميشلين



يوم مولد ويوم حساب

أطلت شمس السادس من ديسمبر سنة١٩٠٨على«الكارتيه لاتين» في باريس وأنفذت شرذمة من أشعتها الى غرفة جبران فوجدته في أحضان مورفيوس • فمرت بلوحة من الكرتون على منصب التصوير تحمل شبه جسم فتاة عارية ، وبطاولة عليها أوراق وأقلام مبعثرة وزجاجة من الويسكي ، وبرزمة من الحطب أمام الموقد بجانبها ركوة لاعداد القهوة العربية وفنجانان • ومثلما دخلت الغرفة كالحلم هكذا انسحبت منها وانصرفت في سبيلها

وأخيرا أفاق جبران ، فتناول الساعة من تحت الوسادة ، واذا بها بعد العاشرة ، فنفض عنه اللحاف ونهض من فراشه متواكلا كأن ما كان في أجفانه من نعاس ، وفي نعاسه من أحلام ، ما برح يجذبه الى الفراش • وأضرم نارا في الموقد وجاء بالقهوة والركوة ثم مشى نحو النافذة بقدميه العاريتين فأحس كأن أرض الغرفة من جليد وقال : انه ليوم برده عضاض . لكنه بعد أن رأى الشمس خارجا استأنس بأشعتها ولو من بعيد وعاد فقال : انه ليوم عضاض لكن أنيابه من ذهب • وعندما فتح النافذة ليجرع بعض ما في الهواء من نور الشمس انكسرت لوحة من الزجاج وسمع شظاياها تتطحن على الرصيف فقال : انه ليوم رجلاه من زجاج • وقانا الله عثرته • وعندما سكب فنجانا من القهوة وأخذه بيد ثم أشعل من الموقد سيجارة بالاخرى اندلقت القهوة على رجله فأحرقتها ووقع الفنجان من

يده فتحطم على الارض،فقال جبران : انه ليوم قلبه من الزفت· وقانا الله ناره السوداء · وسكب قهوة جديدة وجلس يشربها ويدخن أمام الموقد ، ولغير ما سبب يعرفه أخذ يشعر كأن فى الغرفة أشباحا تتمشى ذهابا وايابا وتتحدث فيما بينها هكذا»

ـ ما هو الفن ؟

ـ هو أن تحمل بطيختين فى يد واحـــــدة دون أن تلمس احداهما الاخرى

ـ ما هى الحياة ؟

ـ هى أن تركض مع النهار دون أن تدرك الليل · ومع الليل دون أن تدرك النهار · وألا تنكسر فى الركض رجلك أو رقبتك

ـ ما هو المجد ؟

ـ هو أن تشرب زيت السمك ممزوجا بحامض الفينيك ولا تتقيأ

ـ ما هو الحب

ـ هو أن تجدع أنفك لتضحك عينيك

ـ من هو الجالس أمام هذا الموقد ؟

ـ حطبة تتدفأ بحطبة

بقى جبران يدخن السيجارة تلو السيجارة والاشباح تتهادى حواليه وتقهقه فى أذنيه الى أن ســـمع أجراس نوتردام تعلن انتصاف النهار · فانتفض كمن أفاق من كابوس وارتدى ثيابه وخرج من البيت · فمشى فى بولفار سان ميشيل ثم توجـه الى حديقة اللوكسنبورج وقد تسلط على ذهنه بيت عربى قديم « انما الدنيا كبيت تسجته العنكبوت » فكان يمر بالناس فيراهم عناكب · حتى أنه التفت الى الشمس فتخيلهـا عنكبوتا هائلة وتخيل كل ما على الارض وفى السماء نسيجها · ورأى نفسه ذبابة صغيرة عالقة فى ذلك النسيج

وقف جبران طويلا امام متحف اللوكسنبورج وصوت يقول له : « ادخل ، لعل ما حواليك من أشباح سوداء يجفل من بعض

مظاهر الفن الحديث » فيجيبه صوت آخر : « انما الدنيا كبيت نسجته العنكبوت » • فيعيد الصـــوت الاول الكرة ويقول : « اذن فاذهب الى مدرستك ـ الى البوزار ـ فعندك فروض يجب تتميمها • وبعد الظهر سيلقي أستاذ كبير محاضرة عن تمثال « داود » لميكلانجلو • وأنت تؤله ميكلانجلو وفنه » • فيجيبه الصوت الثاني : « انما الدنيـــا كبيت نسجته العنكبوت » • وأخيرا ارتد جبران عن باب المتحف وقصد حانوتا يعرفه فابتاع رغيف خبز وبرتقالتين ، وعاد بخطوات مسرعـــة الى البيت • فالتقى عند الباب بموزع البريد الذى ناوله رسالة من بوسطن عرف للحال أنها من مارى

دخل جبران غرفته وفض الرسالة، فاذا فيها حوالة بخمسة وسبعين دولارا ، وتهنئة بيوم مولده ، وعبارات جميلة تبين له عظيم ايمان مارى بمواهبه وبمستقبله فى عالم الفن • وأخبار محلية منها أن ميشلين قد تغيرت كثيرا بعد ســـفره ، فنحل جسمها ، وفارقت الابتسامة وجهها ، واكمد النور فى عينيها • وأنها لا تكاد تكلم أحدا الا عند الضرورة • وقبل أن يأتى جبران على آخر الرسالة طرحها من يده وراح يتمشى فى جوانب الغرفة وهو يصيح :

ـ ميشلين ، ميشلين ، ميشلين ! لقد ملكت على مشـاعرى ومفاتيح خيالى • ان فرحت فمنك ، وان حـــزنت فمنك • فى حبك قد أصبحت شيخا ، وفى حبك قد عدت صبيا • ما كنت أذكر يوم مولدى أو أهتم به حتى جعلت منه عيدا يليق بالملائكة • رب وردة كنت تبتاعينها بآخر فلس فى جيبك وتأتينني بها فى يوم مولدى فأشتم فيها عطر الألوهة منتشرا من قلبك العطر • رب قطعة من الحلوى كنت تضعينها بين شـــفتيك فأتنـاولها بشفتى وأتذوق فيها حلاوة الوجود التى ما بعدها حـــلاوة • واليوم أفيق وشذا الألوهه لا يتضوع فى غـرفتى من ورود حبك • وعصافير قلبك لا ترفرف فوق رأسى وتزقزق فى أذنى •

بل في فمي مرارة الوحشة ٠ومن حوالي أشباح آلامك وأوجاعي ٠ وفي أذني قضقضة سخريتها وتصريف أسنان انتقامها ٠ لقد جنيت عليك وعلى نفسي يا ميشلين ٠ لقد لذ لي في البدء أن أذلل عنفوانك ، فاذا بي رهنت ارادتي وحسي وخيالي لعنفوانك ٠ لقد حسبتك في البدء سلوى فاذا أنت اليوم شاغل ٠ حاولت أن آخذ دون أن أعطي ٠ وكنت تعطينني ولا تفكرين بما تأخذين

« بلى، لقد جنيت عليك وعلى نفسي يا ميشلين عندما أشركت في حياتي امرأة سواك ، فرضيت أن أستدر جيبها وعقلها حين أنا أستدر قلبك ولحمك ودمك ٠ ولقد كذبت عليك عندما سألتني عن المرأة التي مدتني بالمال لأدرس في باريس فأجبتك أن ليس هنالك من امرأة ، وأن المال دبرته من بعض أقاربي وأصدقائي ٠ لقد تغلب قلبك على لساني اذ شعر في الحال بوجود امرأة ثانية في حياتي ٠ فما أصدق قلبك وأكذب لساني ! يا ليتني بحت لك بكل شيء ، اذن لما كانت هذه الاشباح السود تساورني اليوم وتضيق على أنفاسي ٠ الى يا ميشلين ٠ الى يا روح روحي ويا قلب قلبي ٠ تعالى وقولي انك صفحت عن كل آثامي ٠ وأنا سأكفر عن كل شيء ٠ تعالى يا ميشلين والا — فأنا مقتلعك من قلبي حتى وان اقتلعت قلبي معك ! »



ارتمى جبران على كرسي بجانب الطاولة ، وأخذ يبعثر بيمينه ويساره رسوما وأوراقا كثيرة تكدست عليها ، كأنه يحسبها الاشباح السود التي تناضله ويناضلها ٠ وكان كلما رفع ورقة تأملها قليلا ثم طرحها من يده قائلا : « ما النفع منك ؟ ما النفع منك ؟ » الى أن وقعت يده على دفتر خطت على غلافه هاتان الكلمتان : « دمعة وابتسامة » فأخذ يقلبه بغير ترو وغير نظام ، وكلما وقعت عينه على عنوان تأمله طويلا كأنه يستعيد الظروف والتأثرات التي حبلت به والساعات التي ولدته ، وكأنه لا يصدق أن قريحته أملته ويده خطته ٠ وكان كلما قرأ عنوان

قطعة وبضعة سطور منها يخاطب نفسه معجبا أو معاتبا أو مؤنبا :

ـ خليلي ! لمن هذا الخطاب وما هو ؟ آه ! لخليلي الفقير وخليلي الحزين ، لو علمت يا خليلي الفقير أن الفاقة التي تقضي عليك بالشقاء هي هي التي توحي اليك معرفة العدل وتبثك ادراك كنه الحياة ، لرضيت بقسمة الله ... ولو دريت يا حبيبي الحزين أن الأرزاء التي أصبحت مغلوبها هي تلك القوة التي تنير القلب وترفع النفس من دركات الاستهزاء الى درجات الاعتبار ، لقنعت بها ارثا ...

ـ ما أذلق لسانك ، وأرشق قلمك ، وأصدق مواعظك يا جبران . وما أقل اتعاظك بمواعظك ! أنت تكره الفقروالحزن فعلام تحبب للناس ما تكرهه لنفسك ؟

ـ يا لائمي : دعني ولا تعظني ... اعتزل ذكر المحرمات ، فلي من ضميري محكمة تقضي بالعدل علي وتقيني العقاب اذا كنت ذا برارة ، وتحرمني الثواب ان كنت من المجرمين . » ـ اذن هو ضميرك الذي يعذبك اليوم يا جبران . وهذه الاشباح السود ليست الا من كهوفه المظلمة . ان أنت لم تقض عليها اليوم قضت عليك غدا . فابدأ الآن ، في هذه الدقيقة ، في هذه اللحظة . انزع ميشلين من قلبك وماري من رأسك وعش طليقا باسم الحب الذي لا يعرف اللحم والدم ، والفن الذي لا يتقيد بألوان الارض وأشباحها ، والجمال الواصل كل ما في السماء وعلى الارض بنور الألوهة الذي لا يدرك

ـ رحماك يا نفس رحماك : حتى م تنوحين يا نفسي وأنت عالمة بضعفي ؟ رحماك يا نفس ، فقد أريتني السعادة عن بعد شاسع : أنت والسعادة على جبل عال ، وأنا والشقاء في أعماق الوادي . وهل يتم لقاء بين علو ووطوءة ؟ أنت تذهبين في سكينة الليل نحو الحبيب وتتمتعين منه بضمة وعناق . وهذا الجسد يبقى أبدا قتيل الشوق والتفريق . رحماك يا نفس رحماك !

ـ ومن هى النفس التى تسترحمها ياجبران ؟ وما هوالجسد الذى تطلب من أجله الرحمة ؟ أتشتهى جثة الميت عناقا أو تخاف فراقا ؟ بل هى النفس منبع الشهوات • وهى طامعة اذا طمعتها • عجبا ليسوع ، عاش بتولا ومات بتولا وماكان يتحرق بحرقاتك ويتلوع بلوعاتك • أين سوطك يا جبران ، أين سوطك ؟ أعمله فى هذه النفس حتي تذل • ذللها يذل جسدك • فهى الأميرة وهو العبد • اجلد نفسك بلا شفقة • أين سوطك يا جبران ، أين سوطك ؟

ـ اللقاء ... حكماء الامم يأتون من المشرق والمغرب ليستحكوا حكمتك ويستفسروا رموزك يا حبيبتى ـ عظماء الارض يجيئون من الممالك ليسكروا من رحيق جمالك وسحر معانيك يا حبيبى . ان راحتيك منبت خيرات غزيرة تملأ الاهراء يا حبيبتى ـ ان ذراعيك منبع المياه العذبة ، وأنفاسك نسيمات منعشة يا حبيبى

ـ هذا تقليد فاضح لنشيد سليمان يا جبران . وانت تكره التقليد والمقلدين وتبشر بالابداع • فكيف تنهى عن أمر وتأتيه؟ ولكن ما هو التقليد ؟ ما هو الابداع ؟ ان صاحب نشيدالاناشيد قال ان ليس جديد تحت الشمس • أجل • ليس جديد • كل ما يفعله الانسان تقليد فى تقليد • غير أن بعض التقليد جميل وهو الابداع المرغوب • وأكثره قبيح وهو التقليد الممقوت • وانت تقلد الجميل بجمال يا جبران . فأنت مبدع . هذا فى منطقك منطق • وان لم يكن كذلك فى منطق الناس ، فما همك من منطق الناس ؟

ـ حديث الحب : يا حبيبة نفسى ! هل تذكرين يا حبيبتى ذاك الروض حيث وقفنا وكلانا ناظر وجه حبيبه ؟ وهل تعلمين أن نظراتك كانت تقول لى ان محبتك لى لم تنبثق من الشفقة على ؟ تلك النظرات التى علمتنى أن اقول لنفسى وللعالمين أن العطاء الذى يكون مصدره العدل لهو اعظم من الذى يبتدىء من

الحسنة ؟ وآن المحبة التى تبتـــدعها الظروف تشابه ميـــاه المستنقعات ؟

« أمامى يا حبيبتى حياة أريدها أن تكون عظيمة وجميلة . حياة تؤاخى ذكرى الانسان الآتى ، وتستدعى اعتباره ومحبته. حياة قد ابتدأت عندما لقيتك وأنا واثق بخلودها ، لأنى مؤمن بكونك قادرة على اظهار القوة التى أودعنى الله اياها متجسمة بأقوال وأعمال كبيرة مثلما تستنبت الشمس أزهار الحقول ذات العرف الطيب . وكذا تظل محبتى لى وللاجيال ، وتبقى منزهة عن الأنانية لتعميمها ، ومتعالية عن الابتذال لتخصيصها بك

« اى مارى ، مارى ! ان حيرتى فيك وبهجتى بك لا تعرفان نهاية . من كنا وأين كنا فى حياة قبل هذه الحياة ؟ أكنت لى اما وكنت لك ابنا ، أم كنت أختى وكنت أخاك ؟ أم كنت كاهنة وكنت كاهنا فى خدمة عشتروت أو منيرفا نقدم ذبائحنا سويا على مذبح واحد ؟ عجبا ! تلمسنى ميشلين فألتهب بنار لا أبالى أمن الجحيم هى أم من النعيم . وألمســـك فتهدأ كل لواعجى الارضية وتضطرم نيران أشـــواقى التى لا تستوطن الارض . لا . لا . أنت ما أحببتنى شـــفقة على . ولا أنت تطمعين فى استملاكى بما تبذلينه على من المال . لكن المال يستملك يامارى . المال كالسوس ــ دأبه النخر . والمال كالملح ، اذا وضعت ولو قليلا منه فى كأس من الخمر المعتقة تغير طعم الكأس . وأخشى أن ما تضعينه من مالك فى خمرة علاقاتنا الطيبة ســيغير من مذاق تلك الخمرة . غير أن الحاجة لا ترحم . وها أنا أموه على نفسى فأدعو عطاءك عــدلا لا حسنة . بلى . هو عــدل يا مارى هو عدل ، وان يكن العدل كلمة غريبة فى قاموس المال . هو العدل أن لا يحرم العالم مواهب كمواهبى . وهو العـــدل أن تكون اليد المساعدة على كشف تلك المواهب نقية وطاهرة كيدك . فأنا أريد أن تكون حياتى عظيمة وجميلة وأنا واثق من خلودها . وأنا واثق من أن محبتك الخالصة وعطفك الجميل سيستنبتان

من مواهبى أقوالا وأعمالا كبيرة مثلما تستنبت الشمس أزهار الحقول ذات العرف الطيب

« وما هي العظمة التى تنشدها يا جبران ؟ أستأتى العالم بفتح جديد ، أم ستخلق بشرية جديدة ؟ أسترسم ما لم يرسمه بعد أكبر الرسامين ، أم تكتب ما لم يكتبه بعد أعظم الكتاب ؟ ها أنت اليوم شاب مجهول فى باريس ، تمر فى شوارعها فلا يرفع لك أحد قبعته • فهل تصبح عظيماً اذا مشيت غدا فى الشارع فحياك كل من تلتقيهم وحادوا من طريقك وتهامسوا فيما بينهم : هذاهو • هذا هو ؟ أم هى العظمة أن يتهافت الناس على رسومك ومؤلفاتك وأن تبقى ، كما أنت اليوم ، تساورك الاشباح السود ، وتسرح فى قلبك المرارة ، وتقرض الوحشة ساعات وحدتك ؟

« والخلود ـ ما هو ؟ أولست خالدا كانسان حتى تخلد نفسك بكتاب أو بصورة ؟ ليبق الكتاب أو الرسم ألف جيل بل مائة ألف جيل • ليبق ما بقيت البشرية على الارض • لكن لا البشرية ولا الارض خالدتان • فكيف تخلد بما ليس خالدا ؟ وماذا أتيت حتى الآن من طلائع الخلود حتى تكون واثقا من خلود حياتك ؟

« ها هى مؤلفاتك وها هى رسومك : « عرائس المروج » • ماذا أودعته من الآثار الخالدة ـ رماد الاجيال والنار الخالدة ـ صورة جميلة الالوان لجانب صغير من عقيدة كبيرة ـ عقيدة التناسخ ، وهى أقدم من كل ما تصل اليه معارفك ومعارف الناس التاريخية • مرتا البانية ـ حكاية مثلها ألوف من الحكايات جرت وتجرى وستجرى على الارض . أهذه ستكون مشعلك فى طريق الخلود ؟ أم حكاية يوحنا المجنون ، وهى ندبة فى طاحون ونفخة فى صحراء ؟ لقد جاء الناصرى فندد بالكهنة والفريسيين تنديدا لن تستطيع أن تأتى بمثل بساطته وقوته • والكهنة والفريسيون ما يزالون،

مع ذلك ، متربعين على صدور الناس وفى قلوبهم وأفكارهم . لان ليس فى صدور الناس ولا فى قلوبهم وأفكارهم معـــرفة تقول للكهنة والفريسيين : انصرفوا عنا !

« وهاهو ذا كتابك « الارواح المتمردة » وأخلد ما فيــه هو التقدمة : « الى الروح التي عانقت روحي . الى القلب الذي سكب أسراره فى قلبى . الى اليد التى أوقدت شـــعلة عواطفى . » فروحك وروح ميشلين خالدتان لان الحب خالد . أما المتمردون فى كتابك فقد مضوا مثلما مضى ويمضى سواهم . والذين تمردوا عليه من شؤون الحياة البشرية باق ببقاء البشرية

« ورسومك ؟ لقد التهمت النار ما التهمته منها فى بوسطن . والذى صورته بعد ذلك لم يشعل سراجا ولم يشق طريقا فى عالم الفن ، فما هي العظمة التى تحلم بهــا والخلود الذى انت واثق منه ؟ ومتى تبــدأ أن تكون عظيما وخالدا ؟ ووراءك ــ كم وراءك من السنين ؟ خمس وعشرون . واسمك لا يزال مجهولا الا عند القليل من متكلمى العربية . خمس وعشرون ســـنة ــ ولا عظمة ولا خلود . واليوم يوم مولدك ، فبماذا تذكره ؟

« فى مثل هذا اليوم ولدتنى أمى ، فى مثل هذا اليوم ولدتنى أمى ، فى مثل هذا اليوم ولدتنى أمى »

ولى النهار وجبران يحاسب نفسه ويعاتبها ، ويربتها ويمنيها بما يخزنه له الغد من المجد ، وينتشل من خبايا ذاكرته أشباح ما كان ، ومن زوايا خياله رسوم ما سيكون . وفي دماغه وأمام عينيه ترقص هذه الكلمات : « فى مثل هذا اليوم ولدتنى أمى » يطردها فتعود ، ويحاول أن يلهو عنها بأمر من الامور فتلهيه عن ملهاته . وما فتئت تقفز فى دماغه وتحفر فى قلبــــه حتى نهض وأشعل الغاز وأخذ قلما ودفترا وبدأ يكتب :

« فى مثل هذا اليوم ولدتنى أمى

« وفى مثل هذا اليوم ، منذ خمس وعشرين سنة ، وضعتنى السكينة بين أيدى هذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك

« في هذا اليوم تنتصب أمامي معاني حياتي الغابرة كأنها مرآة ضئيلة أنظر فيها طويلا فلا ارى سوى أوجه السنين الشاحبة كأوجه الاموات ، وملامح الآمال والاحلام والاماني المتجعدة كملامح الشيوخ. ثم أغمض عيني وأنظر ثانية في تلك المرآة فلا أرى غير وجهي. ثم أحدق بوجهي فلا أرى غير الكآبة. ثم أستنطق الكآبة فأجدها خرساء لا تتكلم ، ولو تكلمت الكآبة لكانت أكثر حلاوة من الغبطة



« واليوم ، وقد وقفت متذكرا وقوف سائر متعب بلغ منتصف العقبة ، أنظر الى كل ناحية فلا أرى لماضي حياتي أثرا استطيع أن أومىء اليه أمام وجه الشمس قائلا : « هذا لي » ولا أجد لفصول أعوامي غلة سوى أوراق مخضبة بقطرات الحبر السوداء ، ورسوم غريبة مبعثرة مملوءة خطوطا وألوانا متباينة متناسقة. في هذه الاوراق المنثورة والرسوم المبعثرة قد كفنت ودفنت عواطفي وأفكاري وأحلامي ، مثلما يدفن الزراع البذور في بطن الارض. ولكن الزارع الذي يخرج الى الحقل ويلقي البذور بين ثنايا التراب يعود الى بيته في المساء آملا راجيا منتظرا أيام الحصاد والاستغلال . أما أنا فقد طرحت حبات قلبي بلا أمل ، ولا رجاء ، ولا انتظار »

بقي جبران يكتب حتى الساعة الثالثة بعد نصف الليل . وكان بين الفينة والفينة ينهض ويتمشى في الغرفة ذهابا وايابا. وكلما أحس بدمعة في عينيه مسحها بطرف أصبعه ، أو بجفاف في فمه من كثرة دخان التبغ بله بقليل من عصير البرتقال . وأخيرا ختم ما ابتدأ به بالعبارات التالية :

« سلام أيها الروح الضابط أعنة الحياة المحجوب عنا بنقاب الشمس . وسلام لك أيها القلب لانك تستطيع أن تهز بالسلام وأنت مغمور بالدموع . وسلام لك أيتها الشفاه لأنك

تتلفظين بالسلام وانت تذوقين طعم المرارة »

ثم تناول معطفه وقبعته وخرج يقصد مطعما من المطاعم الليلية ليسكت صراخ معدته الفارغة . وهو يشعر كأن جبلا تزحزح عن صدره . وكان يقول لنفسه فى طريقه الى المطعم : « غدا يجب أن أرسل ثلاثين دولارا لماريانا هدية الميلاد »



فصل يبتدىء وفصل ينتهى

أوغست رودين ــ جبار من جبابرة الفن وكاهن من كهنة الجمال المعدودين . كان جبران قد رأى الكثير من آثاره الفنية فى باريس . وكان كلما وقف أمام تمثاله لفكتور هيجو أو « المفكر » أو « القبلة » تسحره المقدرة التى جعلت من البرونز البارد والحجر القاسى عضــلات تتفجر بقوة الحيــاة وتشع بالعواطف الشعرية وتتأجج بالافكار الثائرة . أما أمام صورته الكبيرة « بوابة الجحيم » فقد وقف غير مرة يدرس دقائق معانيها وتفاصيل الوانها وتركيبها ، بادئا برسم دانتى فى أعلاها ومنحدرا الى الوجوه والاجسام الكثيرة التى تمثل ســكان الجحيم وما يعانونه من أنواع الآلام والاوجاع الابدية

اتفق مرة لجبران أن زار رودين فى محترفه مع نفر من أساتذة البوزار وتلاميذها . فقضوا فى زيارته نحو ساعة خالها جبران دقيقة . لانه أخذ بهيبة الرجل وعظمته وبساطتــه واستقلاله ، وبما رآه حواليه من رسوم ملونة ، وســوداء وبيضاء ، وتماثيل من الجص والحجر والخشب ، بين كبيرة وصغيرة ، ومنها شكل يد بشرية مضخمة قد انفرجت أصابعها الممدودة بعضها عن بعض وانحنت نحو راحة الكف بدرجات مختلفة . فبانت وكأن فى كل عقدة من عقدها قدرة الارض والسماء ، وكأن فى تقاطيعها من الحس أدقه ، ومن الذوق أصدقه وأرقه . حتى لا يصعب على من يتأمل كل معانيها أن يتخيلها تقبض على الطين فتجبل منه بشرا ومردة وكل أشكال الحياة المنظورة . وقد عرف جبران أن رودين صنع تلك اليد

وسماها « يد الله » . فقال فى نفسه : « أهو الله خلق الانسان أم الانسان الله ؟ ليس من خالق الاالخيال واظهر مجالىالخيال الفن ـ الفن . الفن ! هو الحياة والحياة هو . وكل شيء يهون فى سبيله . لا مجد الا منه . ولا جمال الا فيه . هذه هى العظمة ـ أن تكون كرودين ـ ممجدا ومكرما حيثما كان للفن أثر ـ من بطرسبرج الى سدنى ، أو استراليا ، ومن طوكيو الى نيويورك ، وأن يذكر اسمك باجلال كلما ذكر الفن ، وأن يأتيك الناس من المشارق والمغارب ليتبركوا ببعض ما باركتك به الحياة من المواهب »

طرح التلاميذ على رودين أسئلة كثيرة لها علاقة بالفن ، كان يجيب على كل منها ببساطة ووضوح مضمنا بعض أجوبته خلاصة فلسفته فى الحياة والفن . وكان بين الآونة والاخرى يتوفق الى كلمة أو عبارة أو تشبيه تمر بأذهان سامعيه مرور شهاب فى الظلمة . وجره سؤال من الاسئلة التى طرحت عليه الى التحدث عن وليم بلايك ـ الفنان والشاعر الانجليزى الفريب (١٧٥٧ ـ ١٨٢٧) . فأخبر سامعيه شيئاً عن حياة الرجل وكيف تعانقت فى روحه الاهة التصوير مع الاهة الشعر فكان شاعرا ممتازا فى فنه وفنانا ممتازا فى شعره . وكيف أنه كان يرى ما لا يراه الناس ويشعر بما لا يشعر به الناس . اذ كان يرى رؤى ويسكن بخياله عوالم غير عالمنا الارضى . فيترجم رؤاه ومشاهد عوالمه المحجوبة عن أعين الناس تارة برسوم تفتن الناظر بسحر ما فيها من أسرار واتساق ودقة ، وطورا بأناشيد شعرية ونثرية كان يقرأها الناس ولا يفهمون منها شيئا فيقولون ان فى عقل صاحبها مسا . والحقيقة هى أن بلايك لم يكن مجنونا ، بل عاقلاً بين مجانين . ومصيبته لم تكن الا فى أنه حاول أن يجعل أوضاع اللغة الصلبة مرنة مثل الفن . وأن يؤدى بالكلام المقيد بالمنطق رسوما وعوامل نفسية تتعدى المنطق . فكان كلما تقدم فى

السن وكلما تكاثرت وتنوعت رؤاه ونبوءاته ، ازداد فنه جمالا ووضوحا ، ولغته تعقدا وغموضا • ففي الرسوم التي وضعها لسفر أيوب ابداع من الطراز الاول . اما في مؤلفاته الاخيرة فتشويش لغوي لا يلام معه قارؤها اذا دعا كاتبها مجنونا



انصرف جبران من عند رودين وقد نسي رودين وامتلأ دماغه وخياله وكل وجدانه بشخص واحد ـ وليم بلايك ـ . وذهب توا الى بائع كتب امريكي كان قد اهتدى اليه من قبل ، واكثر ما يبيعه كتبا قديمة مستعملة • وهناك حظي بنسخة من تأليف عن وليم بلايك وفيها تفاصيل حياته ونماذج مختلفة من شعره ونثره وفنه . فابتاعها في الحال وما صدق أن وصل الى حديقة اللوكسمبرج حتى جلس على مقعد وأخذ يلتهم الكتاب الذي بيده التهام جائع لرغيف من الخبز

قضى جبران في الحديقة نحو ساعتين ناسيا كل ما في الكون الا نفسه ووليم بلايك ، وهاتفا في أعماق قلبه : « سبحانك ربي الذي قادني اليوم الى رودين ليقودني رودين الى بلايك . حقا ان الامور مرهونة بأوقاتها . فلا يحدث شيء الا عند ما تقضي الحاجة بحدوثه • كنت أظنني غريبا في الارض ، واليوم جاءني بلايك ليؤنس غربتي • كنت أظنني تائها • وهاهوذا بلايك يسير أمامي . ترى ما هي القرابة التي تجمعنا ؟ ألعل روحه عادت الى الارض وارتدت جسدي ثوبا ؟ ما كان أجمل حياته وأهنأها ! هو لم يعرف من النساء غير زوجته . وكم كان سعيدا برفقتها ، تفهمه ويفهمها ، وانا . . . آه لو كان لي مثل زوجته! وما بالي أتأوه وعندي ماري ؟ بلى ، ماري . ماري . سأتخذها زوجة لي وان تكن أسن مني بعشر سنين ، وان لم يكن بيننا تجاذب جسدي كالذي بيني وبين ميشلين . فيكفي أن يكون بيننا تجاذب روحي . وسأحيا معها حياة زوجية بحتة . وسأكون سعيدا عند ما يقول الناس في ما قالوه في بلايك ـ

هو مجنون: الجنون في الفن ابداع، وفي الشعر حكمة، والجنون بالله أقصى درجات العبادة »

بدأ الليل يحتل باريس ، وبدأت باريس ترشقه بنبالها الكهربائية عند ما عاد جبران الى غرفته وتحت ابطه - وفي رأسه وقلبه - وليم بلايك ، وفي يده كيس من الورق تعانق فيه رغيف من الخبز مع أوقية من نقانق الخنزير . وعندما دخل غرفته وجد على الطاولة رسالة مختومة تفحص الخط على غلافها فلم يعرفه . ففضها واذا بها عربية من فتاة لبنانية ما سبق له قط أن سمع حتى باسمها . وهي تتقدم اليه برسالتها لتبين له بعبارتها البسيطة كبير اعجابها به وعظيم امتنانها له ، ولتشكر له باسمها وباسم الفتاة الشرقية اجمالا جهوده في سبيل المرأة ، فقد قرأت «مرتا البانية» و «السيدة وردة» وقرأت كل ما توصلت اليه من كتاباته فغدت تتشوق الى لمس اليد التي خطتها والى التعرف « بالروح السماوية » التي أملتها. وهاهي ذي الآن في باريس.فهل يثقل على صاحب « الارواح المتمردة » و « عرائس المروج » أن يخصص لها ولو بضع دقائق من وقته الثمين لزيارته ؟

وضع جبران الرسالة من يده وهو يشعر أن غبطة ناعمة تمشت في دمه من سطورها البسيطة ، وأن العظمة التي ينشدها قد بدت طلائعها . ثم أخذ يسأل نفسه : « ترى من هي هذه الفتاة ؟ أحب قديم يخاطبني بلهجة جديدة ؟ أخيط من خيوط حياتك يلتقطه الآن مكوك القدر من جديد ؟ ليتابع النسيج الذي أدعوه « أنا » ؟ أجميلة هي ؟ أغنية ؟ ها قد بدأت أكون مشعلا يستنير به الناس من بعيد ، فعلي ان اجعل نوره صافيا . علي أن اكون كما يتمثلني الناس : نقيا ، طاهرا ، شفافا ، شفوقا ، محبا للصلاح ، صبورا على الالم ، مترفعا عن الدنايا . نجني يا رب من نفسي . اغسلني

يارب من أقذارى . اصهرنى يا رب فى مصهر حقك »

وكلمعة الحباحب فى الليل مرت فى ذاكرته كلمات أمه : « وقانا الله ساعة التجربة » وبينما هو فى ذلك اذ سمع طرقة على الباب • واذا به الحاجب أتى ليخبره بأن سيدة جاءت تسأل عنه بعد الظهر ، واذ لم تجده قالت انها تعود فى المساء . ولم تعط اسمها . وبعد أن انصرف الحاجب ندم جبران لانه لم يسأله أن يصف له الزائرة المجهولة . وقال لعلها الفتاة التى كتبت الرسالة . ثم أخذ كتاببلايك والكيس وجاء بزجاجة من النبيذ الابيض وجلس الى الطاولة يمضغ بلايك بعينيه وروحه ، بينا أسنانه تمضغ الخبز ونقانق الخنزير ، وزجاجة النبيذ تساعدها فى ذلك . فكان فى قلبه عرس وفى معدته وليمة

ما كاد جبران يأتى على آخر لقمة من عشائه حتى طرق الباب ثانية . فهب اليه وفتحه وجمد مكانه مشدوها وكأن رجليه قد سمرتا بالارض . وبعد فترة من السكون والدهشة صاح بأعلى صوته : « ميشلين ! » وجذب السيدة الواقفة بالباب الي صدره ، وضمها اليه ، وغيب وجهه فى ثنايا ثوبها فوق نهديها . فطوقت عنقه بذراعيها ، وألقت رأسها على كتفه • وبقيا كذلك دقائق وهو لا يسمع الا دقات قلبها ، وتمتمة شفتيها «خليل ، خليل ! »

وهى لا تشعر الا بمرور أنفاسه السريعة الملتهبة ، ولاتسمع الا اسمها محمولا بخفة على لهيب تلك الانفاس : « ميشلين، ميشلين ! »

ــ لقد أمرتنى فأطعت ، ناديتنى من وراء المحيط فلبيت، فأنت ، كما ترى ، لا تزال صاحب سلطان على يا خليل

ــ هو الحب يا ميشلين ، هو الحب يأمر فنطيع وينهى فنذعن . هو السلطان ونحن الرعية . من يعص الحب يعص الله . اذ لا اله الاه . دعينى الآن أدفىء روحى بشعاع عينيك

الجميلتين ، وأرشف الحق من شفتيك القرمزيتين ، والمس الحياة فى يديك الناعمتين . دعينى أسمع قلبى نابضـا فى قلبك ، وأرى أنفاسى راقصة مع انفاسك . لقد كنت كلمـا مرت السعادة ببابى قلت : هذا خيالها ، وكلما سمعت وقع قدميها فى بيتى قلت : هذه جارية من جواريها . أما اليوم، اليوم أسمعها ترفرف وتزقزق فى قلبى ، اليوم قد هبطت على مع أشعة الشمس ، ودخلت غرفتى مع النسيم . اليوم قد حملتنى فى موكب من نور . اليوم أحلف يمينا صادقة أننى أسعد الناس . ميشلين ، ميشلين ! أفى حلم نحن أم فى يقظة ؟ اليوم اهتديت الى أخت لروحى ستكون أختا لروحك أيضا . روح غريبة عجيبة . روح متفردة بين الارواح . روح شاعر وفنان انجليزى مات منذ تسعين سنة واسمه وليم بلايك . سأقرأ لك حياته يا ميشلين ، وما أجملها من حياة ! وستبصرين فى الحال أن الحياة انتدبتك لتكونى لخليل رفيقة ومعينة مثلما كانت كاترين لبلايك . وسأريك بعض رسومه واقرأ لك شيئا من شعره . وستحبينه مثلمـا احببته . ميشلين ، ميشلين ! ما أكرم الله ! ما أجمل الحياة ! هذا يوم كامل ، هذا من أيام القـدر . وما أجملك يا ميشلين هاتى خبرينى عن كل شىء ، متى تركت بوسـطن ، ومتى وصلت باريس ، وكيف عـزمت على المجىء دون أن تعلمينى يا شريرة ؟ سنجعل هذه الغرفة الصغيرة بيتنا ، وهى ، على ضيقها ، ستكون رحبة ، فحيثما كان الحب كانت المسكونة بيتا له . أين أمتعتك ؟ »

– فى النزل

– وأى نزل ؟ لنذهب فى الحال ونأت بها الى هنا

– لا ضرورة لذلك الآن يا خليل

– وماذا تعنين ؟ أتكونين فى باريس ويكون لك بيت غير هذا البيت ؟

ـ ليكن قلبك بيتا لقلبى ، ولا يهمنى حينئذ اين انام ، وماذا آكل واشرب

ـ حيثما يكون قلبى هناك يكون قلبك ايضا . ومثلما آكل واشرب تأكلين وتشربين . الفراش الذى افترشه تفترشين . وباللحاف الذى التحف تلتحفين

ـ آه خليل ، خليل ! انا قانعة بأن أكون الحصير تحت رجليك ، والغبار على حذائك . دعنى أخدمك فأغسل ثيابك واكنس غرفتك ، وأعد قهوتك ، واطبخ لك غداءك وعشاءك. ولكن ... لا تسألنى أن أكون ... أن أكون . حظيتك

ـ هذا تجديف يا ميشلين ، تجديف على الحب والحياة . ما جمعه الله حذار أن يفرقه انسان . والله هو الحب . هو الحب يربط ويحل . هو الحب شد روحينا وجسدينا منذ الازل برباط واحد . هو الحب قال لنا كونا فكنا . حيثما جمع الحب قلبين لا ولن تفرقهما كل قوى الانس والجن . وقلبان لم يربطهما الحب لا ولن تربطهما تعاويذ ألف كاهن والف قسيس وتمتمة ألف قاض . حظية ... حظية ! رب حظية كانت أشرف فى عين الحياة من ألف زوجة قدست رباطها شرائع الارض ورذلته شرائع السماء . الحب لا يعرف الا نفسه ، ولا يدين بدين غير دين نفسه ، ولا يتقيد بشرع غير شرع نفسه . وشرع الحب هو الحرية ، كل ما فى الارض يحيا بناموس طبيعته ومن طبيعة ناموسه يستمد مجد الحرية وافراحها . أما البشر فمحرومون هذه النعمة ، لانهم وضعوا لارواحهم الالهية شريعة عالمية محدودة . وسنوا لاجسادهم ونفوسهم قانونا واحدا قاسيا . وأقاموا لميولهم وعواطفهم سجنا ضيقا مخيفا . وحفروا لقلوبهم وعقولهم قبرا عميقا مظلما . فاذا ما قام واحد من بينهم وانفرد عن جامعتهم وشرائعهم قالوا : هذا متمرد شرير خليق بالنفى ، وساقط دنس يستحق الموت . وانا متمرد ياميشلين ،

وسأبقى متمردا كل حياتى . وكيف لا أتمرد على الناس وقد أنزلوا الكاهن منزلة الله ؟ أم كيف أرضخ لشرائعهم الفاسدة وقد أخضعوا ناموس الحب والحياة لناموس البطن واللذة واللياقة ؟ أنا شاعر وفنان يا ميشلين . والشعر والفن مالم يسرحا فى فضاء فسيح طليق ماتا بداء السل ، ومن ثم — وأنت تعلمين ذلك يا ميشلين — فأنا أدرس هنا على نفقة البعض من أقربائى وأصحابى . فلو رضيت أن أتقيد بشرائع الناس وأن أتخذك زوجة برضى السلطة الدينية والمدنية — كأن رضى الله لا يكفى — لما تمكنت من ذلك . اذ لو درى اقربائى واصحابى بالامر لقطعوا عنى معونتهم

— بل قل ، لو درت هى بالامر

— ميشلين ، يا شريرة ، لا تقاطعينى

— ولو درى — لنقل أقرباؤك وأصحابك — بأنك تساكن امرأة ليست زوجتك ، أفما كانوا يقطعون عنك معونتهم ؟

— لا ، لا ، يستحيل أن يدروا ، فهم فى بلاد ونحن فى بلاد

— والحياة التى تؤمن أنت بها يا خليل ، وتقول ان لها عينا تبصر كل شىء ، وأذنا تعى كل شىء ، أهى كذلك فى بلاد ونحن فى بلاد ؟ ويسوعك الذى قال : « ليس خفى الا يظهر » أهو كذلك فى بلاد ونحن فى بلاد ؟ ورفيق روحك الجديد — وليم بلايك — الذى كان شاعرا وفنانا وكان ، مع ذلك ، زوجا صالحا وأمينا ، أهو فى بلاد ونحن فى بلاد ؟ بل قل أنت فى بلاد يا خليل وميشلين فى بلاد . أنت خلقت للشعر والفن وأنت تعتقد الشعر والفن من السماء . وأنا — كما قلت لى مرة — من التراب وللتراب . وقد كنت اظن فى بساطة قلبى أن التراب ، الذى ينبت القمح المغذى والزنبقة الطاهرة والوردة الجميلة ، يصلح كذلك تربة للشعر والفن ، فما كان أجهلنى ! ما كان اغبانى ! ما كان أشد عماى !

ووثبت ميشلين الى الباب شاهقة بدموعها وانحدرت عن الدرج بسرعة لم تر معها الدرجات ولا عرفت اين كانت تقع قدمها ولا الى اين كانت تقودها . أما جبران فظل مكانه ، وقد امتقع لونه ، وجحظت عيناه ، وهرب قلبه من صدره ، واختلطت عليه مشاعره وأفكاره . ثم أحس برجفة فى أعصابه وبضعف فى رجليه وبسيل من الدموع يحاصر مقلتيه . فارتمى على فراشه وأخذ وسادة بين ذراعيه وضمها الى صدره وراح يرويها بدموعه ، وصوت فى داخله يقول : «هى النهاية ، هى النهاية ، لقد نحرت حبك على مذبح شهوتك ياجبران . أنت مصاب بداء الكلام يا جبران . ولأنك تخجل من كل ما فيك من ضعف بشرى تعكف عليه فتستره بحلة من الكلام الجميل والالوان البهجة . والكلام الجميل لا يرفع الشناعة الى مستوى الجمال . والالوان البهجة لا تصبغ الضعف قوة . وقولك ان الحب هو الله لا يجعل الشهوة الجسدية الها ولا اللذة الحيوانية ناموس الحياة ، فيجيبه صوت آخر : « سترجع ، سترجع ، لقد فعلت هذا قبل اليوم ورجعت ، سترجع ! »

لكن ميشلين لم ترجع

وفى صباح اليوم التالى تلقى جبران رسالة تنعى اليه وفاة أبيه فى بشرى

سكرة ، ثم صحوة ، ثم سكرة

حياة الانسان على الارض سكرة دائمة ، وليس يصحو منها قبل الموت الا القليل من ذوى الخيال والالهام . وصحوة هؤلاء يندر أن تدوم سنوات متوالية ، كصحوة بوذا ويسوع ، وأكثرها لا يتعدى فترآت قصيرة من الزمن يفلت فيها الخيال من أشراك البدايات والنهايات ، والحدود والفواصل ، والاسباب والنتائج ، والخير والشر ، وكل أصناف المتناقضات ، ويسبح فى جو لا خصام فيه بين «أنا» اذ ليس فيه الا « أنا » واحدة ، شاملة ، لا متناهية

من فكر الى فكر ، من لذة الى ألم ، من شبع الى جوع ، من ضعة الى رفعة ، من فوز الى فشل ، من هم الى هم . سكرة تلو سكرة تلو سكرة . فى مثل هذه الاقداح يفيض الناس أيامهم ولياليهم . وهم يحسبون ما يشربونه سلافة الحياة . وكرمة الحياة براء منه . فما هو الا من معصرة أوهامهم القائلة أن نصف الحياة شهد ونصفها الآخر حنظل . وأن غايتهم القصوى من الوجود هى أن يسرقوا من الحياة شهدها ويتركوا حنظلها . ولمن يتركونه ؟

كان جبران واقفا وحده عند مقدمة الباخرة بطريقه من أوربا الى أمريكا . وكانت الريح تلعب بشعره وتبلل وجهه برشاش الامواج ، والشمس المائلة للغروب قد اتخذت من الغيوم أدهانا ، وجعلت من الافق البعيد منصبا ، ومدت عليه خامة لا حد لها ، وراحت ترسم عليهامن الاشكال والالوان ما تعجز عنه كل فرشاة الا فرشاة الشمس السحرية .

فمن مروج ذهب ترعى فيها قطعان من الخلائق التى لاتعرفها الارض ، الى جبال ثلجية تحمل على رؤوسها بحيرات من نار، ومن هياكل مقببة تنسل من بين أعمدتها جبال من البخور والنور ، الى كهوف تتمايل فى مداخلها العابسة أشباح جبابرة وأقزام ، ومن حور ترقص فى غابات من المرجان ، الى عجائز تندب فى مقابر ، ومن تنانين فاغرة أفواهها وحيتان رافعة أذنابها ، الى عروش لا سلاطين عليها ، ومركبات جيادها مجنحة ولا أعنة لها . رسوم تدهنها الشمس بلحظة . وبلحظة تغير أشكالها وتبدل ألوانها ، وتظل كذوب من السحر تشربه العين فلا ترتوى

لكن جبران كان ينظر الى ما تصوره الشمس أمام عينيه فلا يبصر الا أشباحا يطرحها فانوس الذاكرة على لوحة الافق بسرعة أين منها سرعة الشمس فى تنميق الغيوم . فكان قلبه يعج بما تثيره تلك الاشباح من غبطة راحلة وألم مقيم وفكره يحاول أن يختلس من الغد بعض أسراره ، ويمحو من الماضى الكثير من آثاره . ومن الآثار التى يود لو يمحوها علاقته مع تلك الفتاة اللبنانية التى كتبت اليه مرة تبدى اعجابها به ورغبتها فى التعرف اليه . ومن الاسرار التى كان يود أن ينتشلها من حقيبة الغد سر ما برح يعذبه منذ أدرك أن طريق الفن طريقه . فمشى فيها وترك كل طريق سواها. وهو سر المعيشة : من أين يأتى بالمال ليعيش بشرف ويريح ماريانا من الابرة والخيط ويستغنى عن مساعدة مارى ؟ أمن شق قلمه أم من شعور فرشاته ؟

كثير هم الذين يعيشون فى امريكا من فنهم . لكن أكثرهم تجار لا فنانون • والفرشاة فى يدهم جارية للدولار فى جيب جارهم . اما الذين يكسبون من فنهم دون أن يجعلوه سلعة فلهم شهرة واسعة تساعدهم على الكسب . والشهرة مومس ان استرضيتها كنت دونها ، وان سنحتها مالت عنك الى

الذين يسترضونها . فهل يستطيع أن يستميلها من غير أن يعفر أمامها جبين أنفته وجبين فنه ؟ لكنه ، ريثما يستميلها، من أين وبماذا يعيش ؟

والقلم . كيف له أن يعيش من شقه؟ لقد استلفتت كتاباته أنظار العالم العربي ، ونقلت بعضها باعجاب مجلة رزينة كمجلة جرجي زيدان وأطلقت عليها اسم « الشعر المنثور » . غير أن العالم العربي عالم فقير ، وقد لا يكون فقيرا ، لكنه لا يدفع أجرا الا للذين يملأون فراغ بطنه ، ويسترون عري جسده، أما الذين يعصرون أرواحهم وقلوبهم خمرا ويقدمونها اليه فلا يقبلها منهم الا اذا قدموها في طاسات من جماجمهم . ولا يدفع عنها أجرا سوى « بخ .. بخ » و « نعما .. نعما » كأن « بخ » و «نعما » تكفيان غذاء للحم الكاتب ودمه وعظمه!



هاهو ذا ، بعد ثلاث سنوات قضاها في باريس ، وزار في خلالها روما وبروكسل ولندن وما فيهن من متاحف وآثار فنية ، يشعر كأن قلبه يكاد يتفجر لوفرة ما فيه من العواطف التي بامكانه أن يبرزها الى الناس في أكسية بهية . وكأن خياله أرض بكر رواها الغيث فاستفاق كل ما كان هاجعا في أحشائها من عجائب وغرائب وهو الآن يتحفز لتمزيق ما حواليه من أغشية ليدرج بألوانه المختلفة حيا وجميلا وحرا تحت الشمس . فكيف له أن يفرج عن قلبه فيسكب عواطفه في قوالب شعرية ، اذا كان فكره تائها في صحاري المعيشة يفتش عن الريال ولا يجده ؟ وكيف يتاح له أن يستغل ما في تربة خياله الخصبة من قصائد ورسوم ، مادام صاحب البيت لا يقبض شعرا منثورا أجرة بيته ، وشركات النقل والتنوير، والخباز واللحام والاسكاف وبائع الاكسية والحلاق لا يرضون بالرسوم الفنية نقدا ؟ أو تخنق الحاجة الى الدولار حاجته الى الافصاح عما في كيانه من عوامل زاخرة ، ثائرة ؟

عنده ماريانا وابرتها وخيطها ، وهي بالكد تـكفى نفسـها حاجاتها البسيطة . أفيرضى أن يأكل رغيفه ، ويلبس برنيطته وحذاءه من ثقب ابرة ماريانا ؟ والى متى يفعل ذلك ؟ ماريانا فى السادسة والعشرين . وكان من الواجب أن تتـزوج . لكنها ، من فرط حبها له ، ان تتزوج ما زال هو فى حاجة الى نتاج ابرتها وخيطها . فهل يرهن مستقبلها وحياتها لمستقبل فنه وحياة أدبه ـ وذاك وهذه ما يزالان فى ضباب ؟ الا تبـا للناس كيف شوهوا الحياة فقلبوها راسا لعقب ! رب ملاكم يثقلون جيوبه بالذهب ، وصـدره وأصـابعه بالجـواهر ، ويتركون ذا الهام يغص بالهامه ، ويذبح خياله بسكين الجزار ، أو يجرفه فى فرن الخباز ، أو يشنقه على مصراع الباب لان ليس فى يده ما يدفعه أجرة عن الباب ! ولو عرف الناس قيمة الالهام لقالوا لذويه : « لا تهتموا بمـا تأكلون أو تشربون أو تلبسون أو تسكنون . اعطونا من الهامكم وكل ذلك نقدمه لكم مجانا

غير أن الناس لا يعرفون قيمة الالهام والملهمين . فأين المهرب ؟ ماكان أنعم باله من هذا القبيل فى باريس. فالخمسة والسبعون دولارا التى كان يتناولها من مارى فى كل شـهر كانت تقوم بحاجاته وتفيض عنها . حتى انه كان يرسل الى ماريانا بعضا منها . أما الآن فمدة الدرس فى باريس قد انتهت والمعونة المالية من مارى ستنقطع بلا شك . وامامه جهـاد عنيف وطويل قبلما يصبح معروفا فى عالم الفن ، فى بلاد شاسعة كأمريكا ، فيتمكن من أن يستدر معاشه من فنه . فما العمل ؟ وأين الملجأ ؟

هناك مارى . وهى تحبه ، وتقدر مواهبه ، وتفهم أشواقه ومطامحه ، ولا تحاسبه بضعفه ، ولا تدينه باثمه . هى امرأة وكأنها ليست امرأة ، فلا اثر فى روحها لغيرة النساء ، ولا فى قلبها لشهواتهن . كأنها لم تصنع من ضلع الرجل ، بل

جبلت من شرفه دون قساوته ، ومن عفة المرأة دون ضعفها. هو يحبها ، لكن بغير الحب الذى أحب به ميشلين . ياليته لم يعرف ميشلين ولا غيرها من النساء قبل أن عرف ماري! اذن لاكتفى بحبها الطاهر ، ولبادلها حبا منزها عن عواصف اللحم والدم . أو ليس فى استطاعته أن يفعل ذلك الآن ، فيتفرغ بكليته الى التصوير والكتابة ، تحت جناح مارى الدافىء ، وبرعاية فكرها النير وقلبها الحنون ؟ علام لا ، وهو بحاجة الى من يؤنس وحدته ، ويخفف من وحشته ، ويرفع عن صدر خياله كابوس الحاجة . ويعتقه من الاهتمام بصغائر المعيشة ؟ ومارى حريصة كل الحرص فيما يتعلق بالمعيشة . والفلس فى يدها أقوى من الريال فى يد غيرها . عندها مدرستها ، ولها مورد رزق لا بأس به . فليصل حياته بحياتها ــ ليتخذها رفيقة شرعية ــ ولتبق فى مدرستها ريثما يصبح قادرا على القيام بحاجاتها وحاجاته . ولينصرف هو الى فنه . والافضل أن يتخذ له مقرا فى نيويورك ، فالمجال فيها أوسع منه فى بوسطن . بلى . بلى . ليكن كذلك

ما بلغ جبران هذه النقطة من تأملاته حتى أحس بتخدر فى دماغه ، كأنه جرع كمية وافرة من المسكر . فهز رأسه كمن به دوار ، وفرك عينيه كمن يفيق من حلم مزعج . فرأى أمامه البحر الهادىء كأنه ملاءة زرقاء وقد شدت اطرافها بشواطىء لا تبصر ولا تحد . وكأن ربوات من أرواح اللجة ترقص تحت هذه الملاءة ، فترفعها قليلا هنا ، وتخفضها هناك . ورأى أذيال الغيوم الندية تشتعل اذ تلامس أذيال الشمس . وأحس بالريح التى تداعب شعره ووجهه كأنها انفاس كل الازمنة ــ ما غبر منها وما زال مكتوما ــ ففتح لها صدره وراح يجرع منها جرعات وكلما جرع جرعة قال :

ــ ادخلى ، ادخلى بكل ما فيك من بركات الحياة وويلاتها.

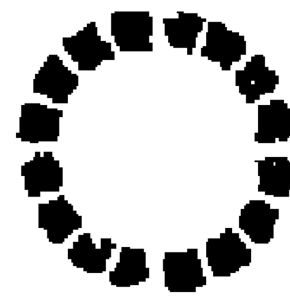
انت ابنة الريح التى حملت روح الله حين كانت الارض خاوية خالية وعلى وجه القمر ظلام ، وروح الله يرفرف على وجه المياه • وأنت الآن تحملين كل ما تنفست به الارض والسماء • منذ كانت الارض والسماء حتى الساعة . فادخلى ، ادخلى الى أعماقى ، واجعلينى شريكا لكل ما على الارض وفى السماء

وجمح به الخيال فصار اذا ما فكر بالنور فى عينيه قال هو من الشمس . فالشمس فى وانا فيها . أو بالبحر ، قال من البحر ارتوى . فالبحر فى وانا فيه . أو بالارض ، قال من الارض اغتذى . فأنا الارض والارض أنا . وكأن ستارا أزيح عن بصيرته، فرأى ذاته مثل محور يدورعليه كل شىء. أو مثل نقطة الدائرة تتفرع منها شعاعات لا تحصى الى كل اطراف الدائرة . ورأى أن قلبه يلامس كل قلب . وفكره يجاور كل فكر . فعجب لنفسه كيف انه ، منذ دقائق قليلة كان يقرض قلبه ويرهق فكره ويكبل خياله بهموم المعيشة . وها قلبه يرقص الآن مع أرواح اللجة تحت ملاءة البحر الزرقاء . وها فكره يدرج عليها . ويتسلق حبال النور المدلاة من الغيوم اليها . وها خياله ينشب من افق الى افق، ومن سماء الى سماء ، واصلا المنظور بغير المنظور ، وما كان بما سيكون ، مبصرا ان نهاية كل امر هى بداية آخر ، وبداية كل امر نهاية سواه . فلا بداية لشىء ، ولا نهاية لشىء ، ولا بداية ولا نهاية للواقف عند مقدمة الباخرة ـ جبران خليل جبران ـ ولا فاصل بينه وبين شىء . ولا عداوة بينه وبين اصغر او اكبر ما فى الكون . بل كل ما فى الكون يناديه : « انت ابنى الحبيب »

دق الناقوس يدعو الركاب الى العشاء . فأجفل جبران كمن كان ماشيا وحده فى حديقة سحرية وفجأة سمع رعدا يقصف فوق رأسه

وكان الافق قد اكمد ، والليل قد شد أوتار قيثاره بالنجوم

وراح يوقع عليها نشيد الموت والحياة . فمشى جبـــــران بخطوات متباطئة نحو غرفة المائدة . وبخطوات متباطئةعادت افكاره الى خمارة المعيشة وعادت تجرع فيها اكوابا من حلاوة الامل ومرارة الهم



نحن بالتفكير

كانت لماري هاسكل ، قبل أن اشتبكت حياتها بحياة جبران ، كرمة واحدة هي مدرستها . وكانت تتعهدها بكل ما في فكرها من المقدرة وقلبها من الحنان . اما بعد أن عرفت جبران وارسلته على نفقتها الى باريس ، أصبحت لها كرمتان . وكان جبران كرمتها الثانية ، وكانت كرمتها الثانية أحب الى قلبها وأقرب الى فكرها من الاولى . فالمدرسة ، مهما تعددت مشاغلها واتسع نطاقها ، تبقى مدرسة تسير على برنامج محدود ، أجيال تاتى واجيال تروح، صفوف ، دروس ، امتحانات ، شهادات ثم عطلة . والذى يجرى فى سنة يجرى مثله فى التى بعدها . حين ان جبران لا نطاق له ، ولا برنامج للقوى التى تغلى وتفور فى داخله .

فما جلست واياه مرة ، وأصغت الى حديثه ، وتفرست فى وجهه ، وتأملت حركاته ، الا احست بخمر جديدة تدب فى أفكارها ، وبأجنحة قوية تطير بخيالها ، وبنسمات منعشة تهب على روحها من عالم بعيد غريب . وما فكرت بوحدته وضيق حاله ، واندفاعه مع مطامحه وآماله ، الا مشى قلبها اليه ، ولذ لها أن تنفق من روحها وجيبها عليه . فما عادت تعرف اهى المحبة تربطها به ، أم الاعجاب يدنيها منه ، ام الشفقة تفتح قلبها له . غير انها، كيفما تفقدت عواطفها نحوه، وتغلغلت فى أفكارها عنه ، لم تجد للشهوة الجسدية فيها اثرا . لانها ، حتى عودة جبران من باريس ، ما احست بجاذب جسدى الى رجل قط . ولم تكن تدرى اتغتبط

لذلك أم تحزن ، أتحسبه نقصا في نسوتها ، أم زيادة في قسمتها

لم يكن يتعب ماري في علاقاتها مع جبران غير أمر واحد، وهو أنها وجدته كثير الشكوك ، شديد الحرص على شخصيته، يخشى عليها أن تمس بأقل ملاحظة أو اشارة . حتى انه ليستعدي صديقا وفيا من أجل كلمة بريئة قد يخيل اليه أن فيها مسا بكرامته . ويستصدق عدوا لدودا اذا سمع منه أو عن لسانه كلمة اطراء . وبقدر ما يستمرىء النقد من أي نوع كان ، يستعذب المديح مهما كان مصدره ، ويفصل المستحيل للحصول عليه . ثم انه ، لشدة نهمه في المديح وخوفه من النقد ، ولانه تعود التفكير والكلام والكتابة والتصوير بالمجاز ، كان يستخلص من الكلمة الواحدة معاني كثيرة حيث لا يستخلص سواه غير معنى ، ويقرأ سطورا في سطر ، ويبصر الوانا عديدة حيث لون واحد لا غير

اما هي — ماري — فمن طبعها البساطة والصراحة في كل شيء : في الفكر ، والكلام ، والمعيشة بكل مظاهرها . فهي لا تخجل من أن تقول الحق وان كان عليها . ولا تلبس منطقها أكسية مزركشة من المجاز . ولا تضمر نيات أو معاني غير ما تؤديه بكلامها . لا تداجي ، ولا تحابي ، ولا تسمي الاشياء بغير أسمائها . لكنها ، بعد أن خبرت جبران وميله الى التمليق والموالسة ، وتبرمه من الصراحة اذا اشتم فيها ما قد يحسبه محطا بكرامته ، أصبحت تخشى على علاقاتها معه أن تعبث بها كلمة من كلماتها السليمة النية ، أو اشارة من اشاراتها الصريحة الودية . ولم تشأ — بل لم يكن في وسعها — أن تغير طباعها فلا تقدم يدها الى جبران الامقمطة بالحرير ليستنعم ملمسها ، ولا تخاطبه الا بكلمات مطلوة بالسكر ليستعذب مذاقها

على أثر عودته من باريس زار جبران ماري هاسكل .

فاستقبلته استقبال فاتح . وقبلته بقبلتها التي دعاها في احد مقالاته « مريمية » وراح يخبرها عن كل شاردة وواردة فاته ان يخبرها عنها في رسائله . وكان اغلب حديثه عن نفسه – عن كبار الفنانين والادباء الذين التقاهم في باريس وعن رأيه فيهم وما قالوه فيه . وعن الرسوم التي انهاها وجاء بها الى بوسطن والرسوم التي ابتدأ بها ولم ينهها . وعن كتاباته العربية وما احدثته في العالم العربي من تأثير . وعن المدن والمتاحف والآثار الفنية التي زارها ، والمعارض التي اشترك فيها . وكان ينمق الجميل من افكاره واعماله فيظهره اجمل مما هو . وينسج للضعيف والباهت منها اكسية من المجاز فيبدو الضعيف قويا والباهت زاهيا . واذا ما جمحت به الذاكرة فجرته الى مشهد من مشاهد حياته الباريسية التي كان يخجل من أن تقع عليها عين ماري ، محا ذلك المشهد بادهان من الصمت اذا تعذرت ادهان الكلام ، وتخطاه الى آخر يروقه وصفه ويروقه أن يرى ماري معجبة به ، مرتاحة الى معانيه



منذ ابتدأ جبران بالحديث وفي فكره ، وبين شفتيه ، كلمة تهم بالوثوب فيردعها قائلا لها : تصبري ٠ تصبري ٠ لم تأت ساعتك بعد . لعلك اكبر كلمة افوه بها في كل حياتي، وقد احيا لاباركك او لالعنك . أما الاذن التي ستقعين فيها فستقتبلك كما اقتبل العبرانيون المن من السماء . بلى . فهي لا شك غرثى اليك . وستعلم ماري أن جبران يعرف قيمة الجميل اذا رافقته المحبة . وقدر المحبة اذا تجردت من محبة الذات . انت كلمة كبيرة . وقد تغيرين مجرى حياتي باسرها . تصبري . تصبري . ريثما اعد لك مسرحا يليق بك

ظل جبران يحادث ماري ويترصد الفرص لاطلاق سراح

الكلمة التى فى فمه الى أن وقف الحديث عند حد يستدعى الصمت والتفكير . واذ أحس أن جليسته تمادت فى التأمل أخذ فجأة يدها بيده ، وشد عليها ، ورفعهـا باحترام كلى الى شفتيه فقبلها . ثم اغمض عينيه ، وبصوت كأنه صوت القدر يعلن سرا عظيما من أسرار الوجود ، قال :

ــ ماری ! أتمشين معى ؟

فأجفلت ماری ، واستغربت الانقلاب السريع فى صوت جبران وحركاته وأجابته مستفهمة ، وهى لا تعلم لماذا سألها مثل هذا السؤال ، ولماذا تستفهم معناه :

ــ الى اين يا خليل ؟

ــ الى حيث تدعونا الحياة

ــ او تعنى الزواج يا خليل ؟

ــ نعم ، هل تقطعين معى الطريق حتى النهاية ؟

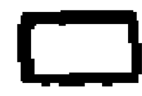
وببساطة الطفل ، وصراحة لا سلاح فى يديها لكنها ، مع ذلك ، تنزع السلاح من يد من ينازلها ، أجابت مارى والدهشة لا تزال بادية على وجهها وفى صوتها :

ــ وهل أنت نظيف يا خليل ، هل جسمك نظيف ؟

فهم جبران فى الحال ماعنته مارى بسؤالها . فقد قصدت ان تعرف اذا كان خاليا من الامراض الخبيثة . لكنه بلمحة طرف انقلب من حمل وديع الى أسد جريح ، ومن ساروفيم يرنم أمام عرش الحب الى ملاك تكبر على الله فطمنه الله فى صميم كبريائه . فاربد وجهه ، وارتجفت شفتاه ، وتوترت أعصابه ،وتخدر دماغه ، وانعقل لسانه . حتى انه لشدة انفعاله ، تمنى لو كانقطع لسانه قبل أن طرح علىمارى سؤاله وسمع سؤالها

لقد ألقى جبران سؤاله على مارى ، و فىأعماق اعماقه أمنية لا يجرؤ أن يبوح بها حتى لنفسه ، وهى أن تصدر من مارى كلمة أو تبدو منها حركة يتمكن معهما من الانسحاب « بنظام » .

فيبقى طليقا من زواج يدفعه عليه عقله ويحجم عنه دمه. ويكون، فى الوقت ذاته، قد زاد فى اعتبار مارى وتعلقها به. وصفى حساباته معها. فتركها مدينة له بدلا من أن يكون مدينا لها. لانها، ان تكن انفقت عليه من مالها، فهاهو ذا ينفق عليها من روحه، ويعرض أن يرهن حياته لحياتها وسعادته لسعادتها. غير انه ما كان قط يتوقع منها مثل ذلك الجواب. فهو وان اتفق مع الأمنية الصامتة فى قلبه، لم يتفق مع تقديره لنفسه وتقديره لمحبة مارى له. فقد كان يظن تلك المحبة ارفع من محبة الذات، لا تخشى النار ولا العار فى سبيل محبوبها. وكان يظن أن جبران خليل جبران اذا ما لمح تلميحا الى امرأة ما، كائنة من كانت، انه يرضى بها رفيقة لحياته جعلها أسعد النساء. وهاهو ذا يعرض حياته على مارى ــ حبيبة نفسه ــ فتباغته بسؤال لو باغتته بمثله امرأة سواها لبصق فى وجهها، أو أدمى فمها، مع كل ما فيه من تأدب واحتشام. كيف تجسر امرأة ــ ومارى من بين كل النساء ــ أن تشك فى « نظافته » ؟ انها لقحة ما بعدها قحة. انها لطعنة نجلاء فى كبد كبريائه. انها لملمة صماء



انصرف جبران من عند مارى هاسكل وقلبه فى ديجور، وفكره فى بركان. اذا مرت به اشباح ماضيه رآها ذليلة واهنة. أو تراءت له خيالات مستقبله وجدها قاتمة عابسة. أو فكر بما كان بينه وبين مارى تلك الليلة شعر كأنه خاض اكبر معركة فى حياته وعاد منها مدحورا، مهشما. وكلما استعاد لذاكرته ما قال وما سمع أكل قلبه الندم على كلمة قالها وما كان من الحكمة أن يقولها. أو كلمة لم يقلها وكان من الواجب أن يقولها. ما العمل ؟ أتستخف به مارى الى هذا الحد ويبقى صامتا ؟ اتجرحه مثل هذا الجرح البليغ ولا يجرحها ؟ أيقطع كل علاقاته معها ؟ ولكن كيف يجرحها الا اذا جرح نفسه جرحا

ابلغ من الذى جرحته ؟ أم يقطع علاقاته معها الا اذا قطع علاقاته مع كل ما هو جميل فى ماضيه ، شفاف فى أحلامه ، باسم فى مستقبله ؟ لقد كتب لها وفيها أشياء كثيرة لو جاء اليوم ينقضها لكذب نفسه بنفسه وجعل من قلبه سخرية لدماغه . أو لم يخاطبها فى مقاله « الطفل يسوع والحب الطفل » هكذا :

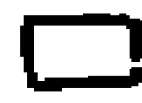
« ففى ليلة واحدة ، بل فى ساعة واحدة ، بل فى لمحة واحدة تتنحى عن سنى حياتى ، لأنها أجمل من سنى حياتى ، هبط الروح من وسط دائرة النور الاعلى ، ونظر الى من وراء عينيك ، وتكلم معى بلسانك . ومن تلك النظرة وهاتيك الكلمة انبثق الحب وحل فى أعشار قلبى . . . هــذا الحب العظيم الجالس فى هذا المذود المنزوى فى صدرى . . . هذا الرضيع المتكىء على صدر النفس قد جعل الاحزان فى باطنى مسرة ، واليأس مجدا ، والوحدة نعيما . هذا الملك المتعالى فوق عرش الذات المعنوية قد أعاد بصوته الحياة لأيامى الميتة ، وأرجع بملامسة النور الى أجفانى المقرحــة بالدموع ، وانتشل بيمينه آمالى من لجــة القنوط »

فكيف يمحو اليوم ما كتبه بالامس ؟ أيقضى على حب مارى مثلمــا قضى على حب ميشلين ويعود الى وحدته ، ويأسه ووحشته؟ بل الافضل أن يكتب اليها رسالة ضافية فيها صلابة وترفع وتفجع . لا بل الأفضل أن يعتصم بالصمت فلا يكتب ولا يتكلم . وبعد نزاع عنيف تغلب الصمت على الكلام

بعد أيام كان جبران ــ وقد التأم جرحه ، وثاب اليه رشده ــ يفكر فى توافه المعيشة التى تتضخم فى بعض الأحوال وتنتفخ الى حد أن البصر ، كيفمــا دار ، لا يرى الاها . والبصيرة ، أنى تغلغلت ، لا تلمح سواها . فتصبح وكأنها من الحياة لبها . وكل ما تعداها قشور . من تلك التوافه اختلاق عذر لصاحب البيت اذا جاءك فى مطلع الشهر يطلب اجرة بيته وليس فى جيبك فلس يحتك بفلس . وفيما هو كذلك اذا بموزع البريد يدعوه فيناوله

رسالة . واذا بالرسالة من ماري وفيها حوالة بخمسة وسبعين دولارا ، واذا بماري تخاطبه بلهجتها المعتــادة ، وبمحبتها السابقة ، كأن لم يحدث بينهما شيء جديد على الاطلاق !

ما اتى جبران على آخر الرسالة حتى فاضت عواطفه من عينيه وانجلت آفاق فكره . فراح يمجد الحياة ويعجب لمجاريها الخفية ، وللناس الذين لا يعرفون عن تلك المجاري ، ومع ذلك لا يفتأون يحددون ويختطون مجاري لحياتهم ، ويشقون عندما تعبث الحياة الكبرى بحدودهم وخططهم وتجرهم في مجراها الأوسع . الم يرسم هو لنفسه خطة منظمة للزواج ؟ لقد كان بامكان ماري أن تقول « نعم » . أو أن تبدى له ما يخامرها من الخوف بطريقة لطيفة لا تجرحه . واذ ذاك لاتخذت حياته مجرى جديدا . ولكان عما قريب مربوطا بامرأة واحدة حتى آخر حياته . لكن ماري بسؤال بسيط ، حولت مجرى حياتها وحياته . وماري لم تكن مخيرة في ذلك بل مسيرة ، فقد الهمت ان تقول ما قالت ، وقد الهم أن يفعل ما فعل ، فكان ما كان لخير الاثنين



بعد عام لعودته من باريس ودع جبران بوسطن قاصدا نيويورك . وكان يحمل في أذنيه انتحاب ماريانا ، وفي عينيــه دموعها ، وفي قلبه محبة ماري وبركاتها ، وفي جيبه قسما من مالها . وفي حقيبته نسخة مخطوطة من روايته « الأجنحة المتكسرة » ونسخة مطبــوعة من كتاب نيتشة « هكذا تكلم زرادشت »

الفصل الثاني

الغسق

تمخضت الفأرة فولدت جبلا

فى سنة ١٦٢٦ لميلاد القائل « مجانا أخذتم ، مجانا أعطوا » جلس الفلس على عرشه ، ونادى بأعوانه ، ثم خطب فيهم هكذا :

« منذ سلمنى الناس مقاليدهم وأنا أداب النهار والليل فى سبيل اسعادهم ، واجترح العجيبة بعد العجيبة لأنقذهم من بؤسهم وشقائهم

« سمعتهم يشكون تبلبل ألسنتهم . فابتدعت لهم لسانا واحدا . وذلك اللسان أنا . أنا هو الحرف والمقطع والكلمة . وحيثما اجتمع اثنان باسمى تفاهما فى الحال وان يكن الواحد لا يفقه حرفا من لغة الآخر . تلك هى العجيبة الأولى

« ورأيتهم تتناتشهم أرباب كثيرة . فخلقت لهم ربا واحدا . وذلك الرب أنا . أنا هو الوزن والميزان ، والدين والديان . وأنا يعبدنى الناس بكل قلوبهم وكل افكارهم وكل نياتهم . أما أربابهم الآخرون فيعبدونهم بشفاههم لا غير . تلك هى العجيبة الثانية

« ووجدتهم يسلكون الى السعادة شتى المسالك . ويطرقون شتى الأبواب . فهديتهم الى مسلك واحد هو أنا . والى باب واحد هو أنا . أنا هو المدخل والمخرج . وأنا الدليل والمحجة . تلك هى العجيبة الثالثة

« وساكنت النـاس وآكلتهم وشاربتهم فوجدت سلطانهم

لا يساكن راعى أغنامهم . وابن أميرتهم لا يؤاكل ابن جاريتهم . وقسهم لا يشارب زانيتهم . وسمعتهم يتبرمون من ذلك ويطلبون المساواة . فوضعت على أعناقهم نيرا واحدا *. وذلك النير أنا . أنا هو النير والمحراث والحارث . تحت نيرى يمشى السلطان بجانب الراعى ، وابن الأميرة بجانب ابن الجارية ، والقس بجانب الزانية . تلك هى العجيبة الرابعة

« ودخلت قلوب النـــاس فألفيتها مرصوفة بالشهوات ولا رصف الحب في الرمانة . وألفيت الناس قد قسموا شهواتهم الى صالحة وطالحة . فأطلقوا الحرية للاولى واقاموا على الثانية الحراس والحجاب . وظلت قلوبهم تصرخ الى باسم الحرية . اذ ذاك جعلت لكل شهوة ثمنا . وجعلت ثمن الشهوة الطالحة اضعاف ثمن الصالحة . فاختلط حابل الناس بنابلهم . وهكذا حررت قلوبهم من قلوبهم . وتلك هى العجيبة الخامسة

« ومشيت فى الارض فوجدت أن الناس قدتقاسموها بالفتر والقيراط . واقاموا لقسماتهم حدودا . واقاموا السيف حارسا لحدودهم فلا يتعدى جار حدود جاره . ولا تعبر جنود مملكة تخوم اخرى الا بقصد الغزو . فأقمت للناس عبـارة تصـل الحدود بالحدود . وتهزأ بالسيوف والجنود . وتلك العبارة أنا . أنا هو العابر والعبارة . امر حيث السيف لا يجسر ان يلمع . وأعبر حيث الجيوش ترتد من وجه المدفع . تلك هى العجيبة السادسة

« أما العجيبة العجيبة فهى أنى قد مزجت الناس فى بوتقة واحدة . فجعلتهم جنسا واحدا وكانوا أجناسا . وأمة واحدة وكانوا أمما . بل قد جعلتهـم لحما واحـدا وعظما واحـدا ودما واحدا . لأنى جعلت طعامهم واحدا وشرابهم واحدا وكذلك كساءهم ومأواهم

« أنا هو الطعام والشراب والكساء والمأوى . ومثلما يشرب الناس قطرة من الماء جاهلين انهم بشربها يشربون كل أصناف

التراب والمعادن والنبات والحيوان والاقذار التى مرت بها كذلك يقبضون الفلس ويبتاعون به طعاما وشرابا وكساء ومأوى وهم لا يعلمون ماذا يأكلون ويشربون ويلبسون والى اين يأوون. اليكم هذا المثل :

« فى الليلة البارحة باعت امرأة أشواق قلبها التائه واهتزازات دمها المحموم بكمية من الفلوس . والمرأة تدعى فى قاموس الناس بغيا ، وفى شرعهم آفة ، وفى ناموس شرفهم قاذورة يتجنبها الشرفاء والاتقياء . وفى هذا الصباح انطلقت المرأة الى الكنيسة فابتاعت ببعض فلوسها بخورا للكنيسة وقدمت البعض تزكية الى الكاهن . اما البخور فأحرقه الكاهن تسبيحا لربه . وأما التزكية فابتاع بها لحم ضأن وأكل منه وأطعم عياله . أو تحسبون ذلك الكاهن ، عندما أحرق البخور لربه ، احرق نزيز جرح فى قلب شجرة عطرة ؟ الحق أقول لكم انه لم يحرق لربه سوى نزيز جرح فى قلب بغى . أم تظنون انه اكل وعياله لحم ضأن ؟ الحق أقول لكم انه لم يأكل وعياله سوى لحم بغى ولم يشرب سوى دم بغى . وأى الأمرين اصعب : أن يؤاكل الكاهن البغى ويشاربها أم أن يأكلها ويشربها فيصبح الاثنان لحما واحدا ودما واحدا ؟

« اليكم مثلا آخر :

« امس دخل لص على أرملة عجوز وكان قد سمع أنها تحمل فى عنقها كيسا من الفلوس . فأرداها بطعنة مدية وانتشل الكيس من عنقها مغموسا بدمها . وراح ليلته فقامر بالمال وخسره . والذى ربحه منه ابتاع به ثوبا من عند تاجر . والتاجر دفعه ضريبة للخزينة . والخزينة دفعته راتبا للقاضى . والقاضى حكم على اللص بالشنق . أو تحسبون القاضى اكثر براءة من اللص ؟ الحق أقول لكم انه لص مثله . اللص اراق دما بريئا ، أما القاضى فشربه

« أجل . لقد مزجت الناس فى بوتقة واحدة فجعلتهم انسانا

واحدا من حيث لا يدرون . وقد اجترحت فى سبيل اسعادهم سبع عجائب كبار ما عدا الصغار . وهم ، مع ذلك ، ما يزالون بؤساء أشقياء وأصواتهم ما تزال تصرخ الى ــ أعطنا السعادة . أعطنا السعادة ! فها انا عازم أن آتيهم بعجيبة جديدة

« لقد بنيت لهم فى سالف الأحقاب مدنا كثيرة . أما الآن فبخاطرى أن أبنى لهم مدينة تفوق كل ما بنيت . وسأعطى هذه المدينة آذانا تسمع بها كل لغات الناس . وعيونا تبصر بها كل أشكالهم وأجناسهم . وسأجعل احشاءها أوسع من احشاء الجو . تسوق لها اليابسة خير خيراتها فلا تشبع . وتحمل اليها البحار انفس أنفاسها فلا ترتوى . وسيكون فيها لكل شهوة مأوى . ولكل فكر مجال . ولكل خيال مسرح . فيمشى فيها اله الناس وشيطانهم جنبا الى جنب . وتنبت اغراس فردوسهم فى مجامر جحيمهم . ويجاور المعبد الخمارة وبيت الدعارة . ويتعانق المتحف والمقصف . وتتكىء المدرسة والسجن على بساط واحد

« وسأحقن سكان المدينة بمصل جديد . هو مصل الحركة الدائمة . فيصلون النهار بالليل ولا يهدأون . وهكذا يكون لهم فى كل ساعة ما يتلهون به عن التفكير فى بواعث الحزن والألم . وسيكونون لى أطوع من بنانى والصق بى من ظلى . يكفرون بأربابهم أما بى فلا يكفرون . ويهربون من أرواحهم أما منى فلا يهربون . بل الى فى كل أمر يفزعون . اذا حملتهم من نفسى فوق طاقتهم لا يقولون : خف من أحمالنا . بل يقولون : زدنا من أحمالك . وسيضيق بهم سطح الأرض فيتخذون فى جوفها انفاقا . ويشيدون فى الجو حصونا عالية وأبراجا شامخة . وسأجعل أذنابهم طعاما لرؤوسهم . ورؤوسهم طعاما لأذنابهم . فيأكل بعضهم بعضا من حيث لا يعلمون

« ها أنا قد بحت لكم بما فى خاطرى . وعليكم أن تخلقوه . وقد اخترت للمدينة العتيدة جزيرة فى العالم الجديد واقعة

بين مصب نهرين . واسمها مانهاتان . وهى اليوم ملك عشيرة من العشائر الحمر . فبادروا اليها فى الحال وباشروا العمل ، وليقسم كل منكم يمين الطاعة قبل أن يبرح هذا المكان وأنا معكم حتى نهاية الأزمان »

ما ختم الفلس خطابه ، حتى قام من بين الحضــور كائن مجنح فى عنقه غل من الذهب ، وعلى عينيه برقع من الذهب . ومشى بكبرياء نحو العرش . ومشى خلفه أبناؤه العشرون ـ توأمين فتوأمين . وفى عنق كل منهم غل من ذهب ، وعلى عينيه برقع من ذهب . واذ مثلوا أمام العرش خروا ساجدين ، وعفروا جباههم قائلين :

ـ نقسم بوجه الفلس وقفاه ، أننا سنطيعه فى كل ما يأمره وينهاه

فقال الجالس على العرش :

ـ أيها الخيال ! لقد أحسنت النطق والنية ، ليكن فى مدينتى العتيدة لكل فن من فنونك أثر

ثم تقدم شيخ جللته هيبة أجيال كثيرة ، ويداه فى أصفاد من الفضة ، وعلى عينيه قناع من الفضة . وتقدم وراءه أولاده الخمسون ـ توأمين فتوأمين . ويدا كل منهم فى أصفاد من فضة ، وعلى عينيه قناع من فضة . ففعلوا وقالوا ما فعله الخيال وأولاده . فقال الجالس على العرش :

ـ أيها الفكر ! لقد أحسنت النطق والنية ، ليكن فى مدينتى العتيدة لكل فتح من فتوحك خبر

ثم نهض كهل على عينيه نظارتان كبيرتان . ورجلاه مكبلتان بسلسلة من نحاس ، وحبا نحو العرش على عكازين . وحبا وراءه على عكازاتهم أولاده الثمانية والتسعون ـ توأمين فتوأمين . وعلى عينى كل منهم نظاراتان كبيرتان ، ورجلاه مكبلتان بسلسلة من نحاس . ففعلوا وقالوا ما فعله من سبقهم . فقال الجالس على العرش :

ـ أيها العقل ! لقد أحسنت النطق والنية ، ليكن على كل باب من أبواب مدينتي العتيدة نظاراتان كالتي على عينيك وعيون أولادك

واخيرا تقدمت كتلة من اللحم قد نشبت فيها مسلات كثيرة فبانت كأنها القنفذ ، وقالت ما قاله الذين سبقوها • فأجابها الجالس على العرش :

ـ أيها القلب ! لقد أحسنت النطق والنيـة ، قر عينا وانعم بالا ، ففي مدينتي العتيدة ستجد منفذا لكل مسلة من مسلاتك

وعندها التفت الفلس الى الوزير الجالس عن يمينه واسمه « الطمع » ، والوزير الجالس عن يساره واسمه « المكر » ، وقال لهما :

ـ اليوم يومكما ، انطلقا الى العـالم الجديد ، حيث القبيلة الحمراء التى تملك الجزيرة المدعوة مانهاتان ، وابتاعاها منهـا بأبخس ما يمكنكما

وكاد الفلس يحل مجلسه عندما انتصبت فجأة أمامه فتاة عريانة ، تقلب فى يديها كرة كبيرة من النور الصافى المتبلور . ففرك الفلس عينيه وقد أدهشته الفتاة وبهره جمال الكرة فى يديها . وقال متلعثما من شدة دهشته :

ـ من أين جئت أيتها الفتاة ؟

ـ كنت هنا من قبل أن تكونوا

ـ هذا مستحيل ، ومن تكونين ؟

ـ انا الحياة

ـ وهذا مستحيل والحياة فى قبضتى ، وماذا تبغين ؟

ـ سمعتكم تطلبون السعادة فجئت اهديكم اليها

ـ وهذا ابعد من المستحيل ، فليس يعرف بيت السعادة والسبيل اليه الا انا . انا هو السبيل والهادى . انا هو المدخل والمخرج . وما تلك التى فى يدك ؟

ـ السعادة

ـ وهذا مستحيل المستحيل ، فالسعادة فى مدينتى العتيدة التى أباشر اليوم بناءها • أنت تمزحين ؟

ـ بل أنا فى جد

ـ ان فى جدك لمزحا يستفز ضحكى ، لكن الكرة التى تقلبينها فى يديك جميلة ، فهل تبيعينها ؟

ـ السعادة لا تباع ولا تشرى

ـ هذا ضرب من الجنون . اذ ليس فى مملكتى ما ليس يباع ويشرى . واذا سلمنا بجنونك وقلنــا أن السعادة لا تباع ولا تشرى ، فكيف لمن يطلبها أن يحصل عليها ؟

ـ من قبلنى كما أنا نال الجوهرة التى فى يدى ، مجانا آخذ ومجانا أعطى

ـ يالك من داهية ! أفلا تفضلت اذن وعلمتنا كيف نقبلك لننــال السعادة من يدك ؟

ـ انزل عن عرشك ، وانزع نيرك عن أعناق الناس ، ودعهم يعطون مجانا ما يأخذونه مجانا

ـ يا لك من عاهرة وقحة ، لا تخجلين حتى من أن تقفى أمامى ولا كساء عليك غير جلدك . استروا عورة هذه العاهر . واسكبوا فى فمها رصاصا . وشدوا رجليها بالحديد . واطرحوها فى الدركة السابعة من دركات الجحيم ، وأتونى بالجوهرة من يديها الأثيمتين

فبادر الحراس الى الفتــاة وانتزعوا الجــوهرة من يدها وقدموها الى الجالس على العرش ، وما كادوا يسترون الفتاة برداء من أرديتهم حتى التفت الفاس الى الجوهرة فى يده واذا بها حجر أسود ، والى الفتاة فاذا بها حية رقطاء ، فصاح مقهقها :

ـ انها لمشعوذة كبيرة ، اسحقوا رأسها ثم دعونى منها ، وانصرفوا كل الى عمله ، واياكم أن تؤجلوا الى الغد ما يمكنكم فعله اليوم ، انطلقوا بسلام

وكان كما أمر الفلس ، فابتاع أعوانه جزيرة مانهاتان بثمن يوازى الأربعة والعشرين دولارا ، وراحوا يبنون نيويورك — مدينتهم العتيدة . وما يزالون حتى الساعة يحفرون ويؤسسون ، ويهدمون ويشيدون . وبين أنقاض ما يهدمون وجدران ما يشيدون ملايين من الناس يأتون ويروحون ، وهم عن السعادة يفتشون

فى خريف سنة ١٩١٢ لميلاد القائل « ملكوت الله فى قلوبكم » انزج بين تلك الملايين جبران خليل جبران

حفار القبور

قرية جرينتش Greenwich Village حي قديم من أحياء نيويورك السفلى ، استأثر به الفنانون من كل نوع ، فجعلوه شبه صورة مصغرة لمونمارتر فى باريس . هناك تجد الشاعر الملهم والشعرور . والموسيقى الذى تقطر أصابعه الحنانا والمتموسق الذى لو عصرته لما نز منه نوطة واحدة جميلة . والراقصة التى فى روحها وجسمها السنة من نار ، والخشبة التى تريد أن تقلد الخيزرانة . والمصور الذى يعرف أسرار الظلال والانوار والخطوط والالوان ، والقرد البشرى الذى يلذ له اللعب بالادهان

لكنهم ــ الموهوبين منهم والمحرومين ــ تجمعهم خلة واحدة. فهم يرون أنفسهم من طينة أنقى وأرفع من بقية الناس . لأنهم ــ فى اعتقادهم ــ يخدمون الروح . أما سواهم فيخدم المادة . هم يعبدون الجمال . أما سواهم فيعبد الفلس . حتى انهم ليبتدعون لهم أزياء من اللباس تختلف ولو قليلا عن أزياء الناس . ويأتون فى الجهر أعمالا لا يأتيها سواهم الا فى السر . وكثيرا ما يباهون بمظاهر الفقر وقلة اكتراثهم للفلس وعباده. غير أنهم لا يبسم لهم الفلس ولو نصف بسمة حتى تقهقه له قلوبهم وعيونهم وترتقص أكبادهم وامعاؤهم . واذا ما أتيح لأحدهم أن يجلس الى مائدة غنى من الاغنياء ظل يحدث رفاقه عن ذلك أياما . وعندما يبتاع الفلس شيئا من نتاج «أرواحهم» تغتبط أرواحهم بالفلس وتسجد له وتمجده

فى ضواحى تلك « القرية » ، فى بناية قديمة من الآجر

الأحمر ، تحت رقم ٥١ من الشارع العاشر غربا ، اتخذ جبران له محترفا صغيرا جعله كذلك مسكنا . وفى تلك الفسحة الصغيرة من مدينة الفلس الكبيرة راح يرسم الخطط ويعد العدد لاستثمار ما فى كيانه من معادن دفينة . وكان نيتشه دليله الأول ، ومساعده الأكبر ، ومؤنس وحدته الاعظم ، ما رافقه فى جولة من جولاته الزرادشتية الا هتف من أعماق وجدانه :

اى رجل هذا الرجل ! نازل العالم وحده باسم مثل الانسان الاعلى — السوبرمان . ولم يخرج من المعركة حتى أخرجه العالم من عقله . لكنه مات سوبرمانا بين أقزام . ومجنونا حكيما بين عقلاء مجانين . هكذا فلتكن الرجال . وهكذا فليجن المجانين ! واى خيال خياله ! بوثبة واحدة ينفذ الى جوهر الحياة وبوثبة يجردها من كل أغشية الخير والشر التى حاكها لها ضعف الناس . فيحرق هذه الأغشية ويذرى رمادها فى أعين الذين حاكوها . هكذا فليكن الخيال ! وأى قلم قلمه ! بشطحة يخلق عالما جديدا وبشطحة يمحو عوالم قديمة . وهو فى كل ما يخلق ويمحو يقطر جمالا وعزما وسحرا . هكذا فلتكن الأقلام ! وأية ارادة ارادته ! أصلب من الصوان وأمضى من الفولاذ . هى التى ابتدعت السوبرمان وهى التى اختطت السبيل اليه . وهى تقول : لا اله الا أنا . أنا الخالق والخليقة . وأنا القضاء والقدر . أنا المحجة والسبيل الى المحجة . وأنا سأمضى بالانسان الى أبعد من الانسان . وسأرفعه فوق خيره وشره . وسأحرره من كل دين ودينونة ، وفضيلة ورذيلة ، وكل ما يمانده فى سيره الى ذاته الكبرى . ولاجل ذلك أحطم مقاييس الناس وموازينهم . فكلها أغلال فى عنق ارادته . واعطيهم ما هو فوق المقاييس والموازين — أعطيهم السوبرمان . من كانت له مثل هذه الارادة فليمش فى الارض غير حاسب حسابا لامر أو لانسان الا لنفسه . وليتنح

كل ضعيف من طريقه. أو فليكن له درجة فى المرقاة التى يصعد بها الى ذاته . وان لم يكن بد من انقراض الانسانية بأسرها ليولد سوبرمان واحد ، ألا فلتنقرض الانسانية . هكذا فلتكن الارادة !

كلما فكر جبران فى نيتشه تخيله كالارض يضيق صدرها بما فيه من نيران فتفرج عنه ببركان • ويا لزرادشت (١) من بركان هائج يقذف البركات مع اللعنات ، والنقم مع النعم !

بل يا لخيال نيتشه يتغلغل فى تجاعيد الماضى السحيق حيث يعثر على زرادشت . فيفض عنه غبار ثمانين أو تسعين قرنا • ويتخذه بوقا له وبشيرا ونذيرا • لأنه يربأ بأسراره ان يبوح بها لسان غير لسان الوحى ، وبأثماره أن تحملها الى الناس يدان غير يدى انسان اصطفاه الحق وجلله الجمال وجعله ميراثا لكل زمان ومكان

هاهو ذا ــ زرادشت نيتشه ــ فى الثلاثين من عمره، يترك بيته وبحيرته المحبوبة ويصعد الى الجبال حيث ينقطع عن العالم . وبعد عزلة عشر سنوات ينحدر الى الناس ليكشف لهم أسرار قلبه المفعم بالأسرار . ويخاطب الشمس فيقول لها فيما يقوله :

ــ الا لقد تعبت من حكمتى حتى السآمة ، فأنا كالنحلة المثقلة بكثير ما جنته من العسل ، وأنا بحاجة الى ايد ممدودة لتأخذه منى (٢)

ثم يلتقى بشيخ ناسك • فيعرفه الشيخ ويسأله عن غايته

---

(١) من المسلم به عند اكثر المؤرخين ان زرادشت رجل تاريخى وأنه مؤسس الديانة المجوسية • لكن الزمان الذى عاش فيه لايزال مجهولا • وفى رواية يونانية انه عاش قبل حرب طروادة بستة آلاف سنة

(٢) بعد سنين كتب جبران مقالا عربيا فى هذا المعنى تحت عنوان «نفسى مثقلة بأثمارها» ومطلعه : « نفسى مثقلة بأثمارها فهل من جائع يجنى ويأكل ويشبع »

من الرجوع الى العالم — « عالم النيام » . فيجيبه بأنه يحب الناس وأنه يحمل اليهم هدايا ثمينة . فيحاول الشيخ أن يرده عن عزمه قائلا ان الناس لا يقدرون هدايا المتنسكين ، لذلك قد انصرف هو عن حبهم الى حب الله . لكن زرادشت لا ينثني

وعندما يدرك أول مدينة في طريقه يجد في ساحتها جمهورا من الناس قد تجمعوا ليتفرجوا على بهلوان سيرقص على حبل ، فيخطب فيهم هكذا :

— انى أعلمكم السوبرمان، الانسان يجب أن يفوق الانسان. ماذا فعلتم لتفوقوا الانسان ؟

« ما هو القرد فيعين الانسان ؟ انه لمخزاة ومسخرة . كذلك سيكون الانسان في عين السوبرمان ... مخزاة ومسخرة

« لقد تدرجتم من الدودة الى الانسان . غير ان الكثير فيكم ما يزال دودة . لقد كنتم قرودا ، وحتى الآن ما يزال الانسان قردا أكثر من أى قرد كان (١)

« حلفتكم يا اخوتى أن تبقوا مخلصين للأرض ، وان لا تصدقوا الذين يكلمونكم عنآمال فوق الأرض. انهم ينفثون فيكم سما ، عرفوا ذلك أم لم يعرفوا

« أولئك يحتقرون الحياة ، وهم أنفسهم جيف مسممة تعبت منها الأرض ، فانبذوهم ! »

---

(١) لجبران مقال بعنوان «أبناء الالهة واحفاد القرود » يقول في آخره :«... ماهي ارادتكم يا ابناء القرود ؟ هل سرتم خطوة واحدة الى الامام منذ انبثقتم من شقوق الارض ؟ .. منذ سبعين الف سنة مررت بكم فرايتكم تتقلبون كالحشرات في زوايا الكهوف. ومنذ سبع دقائق نظرت من وراء بللور نافذتي فوجدتكم تسيرون في الازقة القذرة وأبالسة الخمول تقودكم ، وقيود العبودية تتمسك باقدامكم ، واجنحة الموت تصفق فوق رؤوسكم فانتم اليوم كما كنتم بالامس ، وستظلون غدا وبعده مثلما رايتكم في البدء . كنا بالامس فاصبحنا اليوم وهذا ناموس الآلهة بأبناء الآلهة فما هي سنة القرود بكم يا أبناء القرود ؟ »

غير أن الجماهير كانت تشتاق رؤية البهلوان أكثر من سماع زرادشت . فقابلت عظته بالضحك . وما بدأ البهلوان رقصته حتى تعلقت به أعين الحاضرين ناسية زرادشت وسوبرمانه . وعندما سقط البهلوان عن الحبل فتحطم تفرقوا كل فى سبيله وتركوه فى حالة النزع • فتقدم زرادشت وحمله على ظهره وسار به فى الليل الى ان بلغ غابة ، وهناك دفنه فى جوف شجرة ونام بجانبه « ليحرسه من الذئاب » . هكذا دفن زرادشت العالم ــ عالم الترهات والسفاسف . وعندما أفاق فى الصبح أحس كأن نورا جديدا أشرق فى قلبه . وذاك النور هو أنه لن يخاطب فيما بعد الجماهير والأموات بل يتخذ له صحابة من المختارين . الحصاد قد نضج ، وهو بحاجة الى حصادين :

« رفاقا أطلب ــ رفاقا أحياء لا أمواتا ولا جثثا احملها حيث أشاء

« زرادشت المبدع يفتش عن رفاق يعرفون كيف يشحذون مناجلهم . هؤلاء سيدعون هدامين وسيسخرون بالخير والشر . لكنهم هم الحصادون والمتهللون

« المبدعين والحصادين والمتهللين هم وحدهم أعاشر . ولهم أكتشف قوس الغمام . واياهم أقود الى السلالم المؤدية الى السوبرمان

« للمتوحدين أنشد نشيدى . . . والذى ما تزال له أذنان لسمع ما لم يسمع سأثقل قلبه بسعادتى »

هكذا راح زرادشت يكرز بالسوبرمان . وفى كل نبرة من نبراته منجنيق يهدم ويد تشيد . اذا تكلم حتى فى أبسط الأمور جعلها ذات قيمة وخالف الناس فيما يقولون ويعتقدون . مثال ذلك موعظة فى « القراءة والكتابة » :

« من كل ما يكتب لست أحب الا ما يكتبه انسان بدمه . اكتب بالدم تجد أن الدم هو الروح

« ليس من السهل أن نفهم دما غريبا . وأنا اكره البطالين الذين يقرأون بقصد التسلية

« سماح الناس لكل من شاء منهم ان يتعلم القراءة سيقتل على التمادى ليس فن الكتابة فحسب ، بل وفن التفكير

« ان من يكتب بالدم والامثـــال لا يريد أن يقرأ • بل ان يحفظ على ظهر القلب

« اقرب الطرق فى الجبال هى من القمة الى القمة . لكن من شاء ان يسلك تلك الطريق عليه أن يكون ذا ساقين طويلتين . الأمثال يجب أن تكون قمما . والذين تقال لهم يجب أن يكونوا من العمالقة (١) »

وفى موعظته عن « الفضيلة التى تمسخ النـــاس أقزاما » يتهكم زرادشت تهكما لداعا على كل اوضاع الناس ومقاييسهم ودياناتهم . فقد عاد اليهم بعد غيبة فى « الجزائر السعيدة » فوجدهم أصغر مما كانوا لشدة تعلقهم « بعقيدة الســـعادة والفضيلة »

« امر فى وسط هذا الشعب فأنثر الكثير من الكلام . لكنهم لا يعرفون كيف يأخذون ولا كيف يحتفظون بما يأخذون . . .

« وعندما أصيح فيهم : « الا العنوا كل ما فيكم من الأبالسة الجبنـــاء الذين يستطيبون الهمهمـــة ويضـــمون أيديهم على صدورهم للعبادة » ـــ يصرخون : « زرادشت لا اله له »

« وأشدهم صراخا أولئك الذين يعلمونهم الاستسلام • من اجل ذلك يطيب لى ان أصرخ فى آذان هؤلاء : « اجل ! انا هو زرادشت الذى لا اله له »

« يا للذين يعلمون الناس الاستسلام ! حيثما عثروا على

---

(١) لجبران مقال عربى بعنـــوان « الجبابرة » كتبه نحو سنة ١٩١٧ ومستهله « ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب » اما ميله الى الامثال فظاهر فى كتابيه « المجنون » و« السابق » وفى كتاب « التائه » الذى ظهر بعـد موته

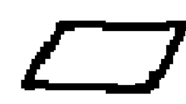
شيء هزيل سقيم ، جرب ، هناك زحفوا كالقمل وليس يردني عن سحقهم الا تقززي منهم

« ها هي ذي الموعظة التي أعددتها لآذانهم : أنا هو زرادشت الذي لا اله له ، وأنا هو القائل : « من ذا أكثر كفرا مني لأنعم بتعاليمه ؟ »

« أنا زرادشت الذي لا الـه لـه . فأين قريني ؟ وليس يقارنني الا الذين استردوا ارادتهم فتجردوا من الاستسلام

« أنا زرادشت لا اله له ! وأنا أطبخ في قدري كل قدر . ولا أقبله طعاما لي الا من بعد أن ينضج كل النضوج

« أنا سابق نفسي (١) بين هذا الشعب ... لكن ساعتهم ستأتي ... »



ما عرف جبران نيتشه حتى كاد ينسى كل من عرفهم قبله من كبار الكتاب والشعراء . وعلى قدر ما كان يطيب له أن يختلي به كان يلذ له في البدء أن يحدث غيره عنه وأن يهدي أصحابه ومعارفه اليه . فما أن تعرف على أثر نزوله نيويورك الى فتاة امريكية اسمها أديل واطسن ، آنس فيها ميلا الى التصوير وشغفا بالفن ، حتى كتب يلح عليها أن تقرأ « هكذا تكلم زرادشت » :

« عزيزتي مس واطسن

« بلى . نيتشه جبار وأي جبار . وكلما طالعتـه زاد حبك له . لعله بين أرواح العصر الحديث أكثرها نشـاطا وأوفرها حرية . وستبقى كتاباته بعـد أن يمضي الكثير ممـا نحسـبه اليوم عظيما . أرجوك ، أ ـ ر ـ جـ ـ و ـ ك أن تقرئي « هكذا

---

(٢) هذه العبارة يفتتح بها جبران كتابه « السابق » مع استبدال ضمير المخاطب بضمير المتكلم

تكلم زرادشت » حالما يتيسر لك ذلك . لأن هـذا الكتـاب فى نظرى من أعظم ما عرفته كل العصور

« تعالى لعندى قريبا ودعينا نتحدث عن نيتشه

خليل جبران »

وما استأنس جبران بزرادشت نيتشه حتى احس بوحدة اقسى من ذى قبل تـكتنفه أينما سار ، وبغربة تقصيه عن ماضيه الى حد انه صار يخجل امام نفسه من كل ما كتبه وصوره حتى ذلك الحين . وعندما اقبل على روايته الجديدة « الاجنحة المتكسرة » لينقحها ويقدمها للطبع كاد يعـدل عن نشرها اذ خيل اليه أنه لو عرضها على نيتشـه لضـحك ذلك الجبار منه ومنها ولضربه على كتفه مثلما يضرب الكبير الصغير وقال له : « يا بنى ! دع الذين قلوبهم من عجين وادمغتهم من مخاط يتلهون بمثل هذه الترهات • أما أنت فعار عليـك أن يشقيك حب امرأة . واكثر عارا أن يسلبك قلبك مطران دون اقل مقاومة منك . واشد عارا من ذاك وهذا ان تندب حظك على مسمع من النـاس وأن تكثر من سـكب الدموع امامهم والتبرم من قساوتهم ، وما قساوتهم الا ضعفك . وما دموعك الا ارادتك المائعـة . الدموع تليق بمآقى النسـاء . اما انت فدعك منها »

لكن جبران كان يشعر ان روايته زاحلة عن قلبه لأنه يحدث فيها عن حبه . ولأنه اودع سطورها اقصى ما توصل اليـه خياله من قوة التصوير بالكلام والتنغيم بالمقاطع . فضن بتلك الصور وهذه الأنغام أن تدفن فى مهدها . ومن ثم ففتوحاته العربية لما تبلغ بعد أقصى مداها . وروايته الجديدة ستكون فتحا جديدا . اذ لم ينسج بعد فى العربية على منوالها . فهى وان تكن صدفة فى نظر نيتشه ستكون جوهرة فى نظر العالم العربى . لكنها ستكون خاتمة عهد التفجع والشكوى . ومن

بعدها سيسترد ارادته وسيحبس دموعه ، وسيكون قلمه معولا للهدم وزاوية للبناء ـ هدم القديم المسترخى وبناء الجديد القوى . وستمشي ريشته جنبا الى جنب مع قلمه

ظهرت « الأجنحة المتكسرة » فاستقبلها العالم العربى ، الذى لا يبصر اللابس ويبصر اللباس ، استقبال حدث خطير . وقد بهرته منها حلة فضفاضة ، وشكوى دامعة ، وملامس ناعمة ، وألحان رقراقة

اغتبط عجب جبران بهذا الاستقبال ، أما قلبه فكان يقول: « ويحى بين شعب يصفق لقشورى ، أما لبىفليس يدركه . من لى بروح واحدة تفهم أشواق روحى ، وتعرف عقباتها ، وترود العوالم التى ترودها ؟ من لى بواحد من شعبى أحدثه عن نيتشه ، وعن الفن ، فيفهم ما أنا قائل وما أنا فاعل ؟ أواه! ليس ولا واحد . غريبا كنت بينهم وغريبا سأبقى . وسأموت غريبا حتى عن نفسى »

بعد ظهور « الاجنحة المتكسرة » بقليل طلب نسيب عريضه الى جبران جمع مقالات « دمعة وابتسامة » فى كتاب فأجابه جبران ببيت من احدى موشحاته :

« ذاك عهد من حياتى قد مضى   بين تشبيب وشكوى ونواح »

ثم أردف البيت بقوله : « ان الشاب الذى كتب « دمعة وابتسامة » قد مات ودفن فى وادى الأحلام . فلماذا تريدون نبش قبره ؟ افعلوا ما شئتم ، ولكن لا تنسوا أن روح ذلك الشاب قد تقمصت فى جسد رجل يحب العزم والقوة محبته للظرف والجمال . ويميل الى الهدم ميله الى البناء . فهو صديق الناس وعدوهم فى وقت واحد »

وهذا الرجل يحب العزم والقوة محبته للظرف والجمال ، ويميل الى الهدم ميله الى البناء ، أصبح بعد أن عرف نيتشه لا يلذ له الا التهكم على الناس ، والعبث بأوضاعهم ، والتشفى بأوجاعهم ، والتنكيل بآلهتهم ، وحفر القبور لهم . والذى كان

يخاطب البؤساء هكذا :

« لا تقنطوا . فمن مظالم هذا العالم ، من وراء المادة ، من وراء الفيوم ، من وراء الأثير ، من وراء كل شيء ـ قوة هي كل عدل وكل شفقة وكل حنو وكل محبة » أصبح يخاطبهم والرفش في يده ، واللحد أقصى ما يمنيهم به، وأصبح لا يعرف لنفسه ربا غير نفسه ، ولا يبصر في الشفقة غير الضعف ، وفي الضعف غير الموت . ولا يحسب أحدا من الناس أهلا للحياة الا من كان على شاكلته

افتتح جبران « عهده الجديد » بمقال « حفار القبور » . ولو انه وضع في آخر ذلك المقال قرار نيتشه الشهير « هكذا تكلم زرادشت » لما كان نيتشه يخجل من أن يجعله فصلا من فصول كتابه وثورة من ثورات بركانه . فهو في كل صوره الزرادشية قلما جاء بصورة أشد هولا ، وأمر لونا ، وأصدق لهجة في تأدية أفكاره من التي جاء بها جبران في ذلك الشبح الهائل الذي التقاه « في وادي ظل الحياة المرصوف بالعظام والجماجم » . وما الشبح ذلك الا جبران « المتقمص في جسد يحب العزم والقوة » يهزأ بجبران التشبيب والشكوى والنواح وينصح له أن يترك مهنة نظم الشعر ونثره لأنها لا تنفع الناس ولا تضرهم ، وأن يتخذ حفر القبور مهنة فيريح الأحياء « من جثث الأموات المكردسة حول منازلهم ومحاكمهم ومعابدهم» لأن الناس « أموات منذ الولادة ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منطرحين فوق الثرى ورائحة النتن تنبعث منهم »

« يعرف الشبح من محدثه أن اسمه عبد الله ، وانه يحب اسمه لأن والده أعطاه اياه ، فيقول له :

« ان بلية الأبناء في هبات الآباء . ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات »

ثم يعرف الشبح أن لمحدثه امرأة وثلاثة أولاد فينصح له أن يطلق زوجته لأن الزواج « عبودية الانسان لقوة الاستمرار » وأن يعلم أولاده حفر القبور فيعطى كل واحد منهم رفشا ثم يتركهم وشأنهم . وان لم يكن له بد من الزواج فليقترن بصبية من بنات الجن . فمن مثل هذا الزواج يأتى « نفع بطيء ينتج عنه انقراض المخاليق الأموات الذين يختلجون أمام العاصفة ولا يسيرون معها »

وعندما يعرف الشبح أن محدثه يؤمن بالله ويكرم أنبياءه ويحب الفضيلة وله رجاء بالآخرة يقول له ساخرا :

« هذه ألفاظ رتبتها الأجيال الغابرة ثم وضعها الاقتباس بين شفتيك • منذ البدء والانسان يعبد نفسه ولكنه يلقبها باسماء مختلفة باختلاف ميوله وأمانيه ـ فتارة يدعوها البعل ، وطورا المشترى ، واخرى الله »

أما فى ذاته فيقول الشبح انه رب نفسه وانه فى كل زمان ومكان ، واسمه الاله المجنون ، وانه ليس حكيما لأن الحكمة « صفة من صفات البشر الضعفاء » . ثم يودع محدثه بقوله: « الى اللقاء . فأنا ذاهب الى حيث تلتئم الفيلان والجبابرة »

ويختم جبران مقاله هكذا :

« وفى اليوم التالى طلقت امراتى وتزوجت صبية من بنات الجن . ثم أعطيت كل واحد من أولادى رفشا ومحفرا وقلت لهم : « اذهبوا . وكلما رأيتم ميتا واروه فى التراب »

« ومن تلك الساعة الى الآن وأنا أحفر القبور والحد الأموات . غير أن الأموات كثيرون وأنا وحدى وليس من يسعفنى ! »

وكيف لا يكون وحده من يرى أكثر الناس ، بل كلهم أمواتا ولا يرى حيا الا نفسه ؟ أم كيف لا يكون وحده من يلحد الناس لينصب لذاته تمثالا فوق قبورهم ؟

لقد سكر جبران بزرادشت . وسكر أكثر من ذلك بما ناله

من شهرة فى العالم العربى . ورأى نفسه كالواقف على منبر ، ورأى الصحافة العربية كالأبواق تؤدى صوته الى كل قطر ومهجر عربى . وراح يكلم قومه « كمن له سلطان » . فلا يستنكف من أن يدعوهم « أضراسا مسوسة » ولا من أن يخاطبهم هكذا :

« كنت أشفق على ضعفكم يا بنى أمى . والشفقة تكثر الضعفاء وتنمى عدد المتوانين ولا تجدى الحياة شيئا . واليوم صرت أرى ضعفكم فترتعش نفسى اشمئزازا وتنقبض ازدراء

« ماذا تطلبون منى يا بنى أمى ـ بل ماذا تطلبون من الحياة والحياة لم تعد تحسبكم من أبنائها ؟

« انا أكرهكم يا بنى أمى لأنكم تكرهون المجد والعظمة

« انا احتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم

« انا عدوكم لأنكم أعداء الآلهة ولكنكم لا تعلمون »

بل انه صار يخجل من أن يكون مسقط رأسه بلدة صغيرة كبشرى فى بلد صغير كلبنان . ويحسب أن من كان مثله يجب أن تكون ولادته ملتحفة بلحاف من السر والسحر . وأى البلاد أكثر سحرا وسرا من بلاد الهند ؟ لذلك عندما طلب اليه مرة نسيب عريضه بعض معلومات عن حياته لينشرها فى مجلة « الفنون » قال له انه ولد فى بومباى الهند ـ انما لا يهمه أن يشيع « السر » بين الناس . ولا بأس لو وضعه نسيب عريضه بين هلالين (وهى أكفل طريقة لشيوعه)

وهكذا كان . فقد ظهرت تلك المعلومات فى « الفنون » وهى تقول ان جبران « ولد سنة ١٨٨٣ فى بشرى من أعمال لبنان (ويقال بل فى بومباى الهند) » الخ . وقد نقل هذه المعلومات بحذافيرها ناشر « البدائع والطرائف » فى مطلع الكتاب . وجاء فيها ، علاوة على ذلك : « ان جبران حاز شهادة الامتياز فى كلية الفنون الافرنسية ... وسمى عضوا فى جمعية الفنون الافرنسية . ونال عضوية الشرف فى جمعية

المصورين الانكليزية » والمرجح أن جبران لم ينل شيئا من كل ذلك بل كان يشتهي لو يناله . لأن هذا الناقم على الناس ، والمتقزز من صغارتهم واستعبادهم لتقاليدهم ، كان أشدهم تعلقا بتلك التقاليد ، اللهم اذا ناله منها مجد وفخر وعظمة . وما نقم على النـــاس الا لأنهم لم يمجـــدوه على قدر ما كان يحسب نفسه أهلا لتمجيـــدهم . وما فاضت مرارته على ترهاتهم الا لأنهم لم يترعوا قلبه بحلاوة ترهاتهم . فما أبعد الفرق بين مرارته ومرارة نيتشه !



وقد يجمع الله الشتيتين

من الرفاق الذين جمعتنى بهم دار المعلمين الروسية فى الناصرة نسيب عريضه وعبد المسيح حداد . وكلاهما من حمص . رافقت الاول ثلاث سنوات متوالية والثانى سنة واحدة . ثم سافرت الى روسيا فى سنة ١٩٠٦ ولم أعد أعرف عنهما شيئا سوى انهما هاجرا الى الولايات المتحدة واستوطنا نيويورك

وفى أواخر سنة ١٩١١ كانت نيويورك مدخلى الى العالم الجديد مكثت فيها يومين بطريقى الى ولاية واشنطن على شواطىء الباسيفيكى . وقد يكون أنى مررت بعريضة والحداد فلم اعرفهما ولم يعرفانى . وقد يكون أن كتفى لامست كتف جبران خليل جبران بين الجماهير فى الشوارع فلا أبه لى ولا أبهت له . اذ اننى لم أكن قد سمعت حتى باسمه ولا كان هو يعرف أن على سطح الأرض بشريا يدعى ميخائيل نعيمة

وفى خريف سنة ١٩١٢ دخلت جامعة واشنطن وانصرفت الى دروسى وبينى وبين العالم العربى قارات وغمار . وبينى وبين آدابه وأدبائه سدود أقامها نفورى من جمود أبناء العربية فى ذلك الزمان ، وتعلقهم بقشور الأدب دون لبابه ، وتهافتهم على الاصداف اللغوية ، وتسابقهم فى تقليد القدماء ، وتعاميهم عن العوالم الشاسعة المنطوية فيهم

وذات يوم من أيام تلك السنة وقع فى يدى « مصادفة » عدد من أعداد جريدة عربية نيويوركية وفيه مقال طويل عن « الأجنحة المتكسرة » . والمقال ، مثل كل نقدنا فى تلك الايام ، لا يقول شيئا عن الكتاب وكاتبه بل يحاول أن يكون « تقريظا »

لو صدقته لقلت ان جبران خليل جبران هو فلتة كل الزمان . لكنني لم أصدقه لأن كل كلمة منه تكذب التي قبلها لشدة ما فيه من الغلو في الاطراء الفارغ . فطرحته من يدي وقلت ان أصحابنا ما يزالون يضربون بذات المطرقة على ذات السندان . ما لي ولهم ؟

وبعد شهور جاءني البريد « بمصادفة » ثانية في شكل كتاب ما مزقت عنه غلافه الخارجي حتى وجدته عددا من مجلة عربية جديدة تصدر في نيويورك . وما ألقيت عليه نظرة سطحية حتى كدت أكذب عيني : يلامسك الذوق السليم في جمال حلته البسيطة ، وفي جودة ورقه ، وحسن حروفه ، ونظافة طبعه ، وتنسيق مواده وتشكيلها . وقد انطوى على صور فنية وشعر لا أثر فيه لعقيم الغزل والرثاء وكاذب المديح ، ونثر لا يقتلك بلادته وبلادة . موضوعاته ، ومنتخبات مترجمة لعدد من أعلام كتاب الفرنجة . واسم المجلة « الفنون » وصاحبها ورئيس تحريرها نسيب عريضه !

وعلى الأثر جاءتني الظروف « بمصادفة » ثالثة في شكل نسخة من «الاجنحة المتكسرة » قدمها الى مهاجر سوري كان قد ابتاعها على ذمة صاحب المقال الذي ذكرته سابقا . وكان يحسبها من نوع روكامبول أو الأميرة فوستا فوجدها « خيالا في خيال » ، ويظهر أنه قدمها لي ليجعلني شريكا له في خيبة فأله

قرأت الرواية فاستفزتني لكتابة مقال فيها دعوته « فجر الأمل بعد ليل اليأس » وأرسلت به الى « الفنون » ، وهو أول مقال نقدي حبرته فكان فاتحة حياتي الأدبية . وقد نددت فيه تنديدا مرا بجمود اللغة العربية في خلال عصور طويلة ، وانصراف كتابها وشعرائها عن الحياة في داخلهم ومن حولهم الى الشعوذات اللغوية والبهرجات الفارغة والتقليد المميت . أما الرواية فبعد ان بينت كل ما فيها من نقص فني من حيث

تحليل العوامل النفسية وتصوير الأشخاص وتنسيق الحوادث وتطبيقها على الحياة . وجدت فى جمال اسلوبها فجر عصر أدبى جديد . ورأيت فى مؤلفها الذى أدرك سر الالوان والانغام، فى الكلام ، وسر التاليف بين تلك الالوان والانغام ، نسرا فتيا مهيض الجناح . غير أن كسره سيجبر . وجناحيه سيشتدان . وسيسبلهما ويحلق عاليا فى جونا الأدبى

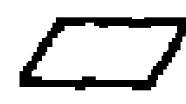


ماوصل المقال الى نيويورك حتى قرأه نسيب عريضه لبعض الأدباء هناك ـ ومنهم جبران . ثم كتب الى يخبرنى عن وقعه منهم وكيف أن جبران هتف عند نهايته : « من هو ميخائيل نعيمة هذا ؟ وأين كان مختبئا حتى اليوم ؟ » وراح يستخبر نسيب عريضه كل ما يعرفه عنى

واشتعلت نار الحرب وحلت « بالفنون » أزمات أوقفتها عن الصدور . وكانت خاتمة بركاتها أن اصدرت كتاب « دمعة وابتسامة » فى حلة هى غاية فى الجمال لأنها غاية فى البساطة . وذكرتنى بنسخة منه. ثم عادت فظهرت فى سنة ١٩١٦ ورئاسة تحريرها فى يد نسيب عريضة وادارتها فى يد أحد أصحابه . والشريكان أخذا يكاتباننى ويلحان على بالمجىء الى نيويورك للاشتراك معهما فى العمل . وكنت قد انهيت دروسى فى الجامعة فادرت وجهى الى الشرق . وفى خريف تلك السنة كنت واحدا من الملايين التى كتب لها ان تفتش عن ابرة السعادة فى جبال القير والاسفلت والحجر والحديد المعروفة باسم نيويورك . ومع أنى لم أنضم الى ادارة «الفنون» اذ وجدت نفقاتها تفوق دخلها ، بقيت فى نيويورك

بعد ظهر النهار الذى وصلت فيه كنت فى ادارة « الفنون » واذا بشاب يدخل ، لطيف الملامح ، دون الربع من القامة ، عليه بذلة رمادية وبرنيطة من الجوخ الأسود ، مستديرة « السقف » مسطحته ، وفى يده عصا كروية الراس معشقة

فى أعلاها بأسلاك فضية نحيفة . وما أن وقع نظرى عليه حتى قلت : هذا جبران ! ولم أكن أبصرت له صورة من قبل . وما ان رآنى حتى تقدم منى وقال : هذا ميخائيل نعيمة ! فتصافحنا وتصادرنا كما لو كنا أخوين شتتهما البين ثم عادت الأقدار فجمعتهما



بعد يومين أو ثلاثة ذهبت ونسيب عريضه وعبد المسيح حداد لتمضية السهرة عند جبران بدعوة منه . وكنت فى شوق الى التفرج على محترفه الذى كان معروفا عند المقربين منه باسم « الصومعة » . والصومعة هذه قائمة فى الطبقة الثالثة ـ والأخيرة ـ من بناية قديمة شعرت عندما دخلتها كأنى داخل ديرا . فقد قادنى رفيقاى فى ممرات كالسراديب ينيرها مصباح ضئيل من الغاز فيطرح على جدرانها المظلمة أخيلة تكاد تستوقفك وتسألك عن غرضك منها وتبكتك لأنك أقلقت سكينتها . ثم صعدنا سلالم خشبية تدور دورات لولبية . وتئن تحت أرجلنا حتى نكاد نخجل من أناتها . وأخيرا وقفنا الى اليسار من رأس السلم ، أمام باب خشبى قاتم اللون ، فى وسطه حلقة من الحديد ما طرقنا بها عليه حتى انفتح وبان من ورائه جبران فى «جبة» التصوير وهى من الكتان البنى اللون وأشبه بقميص واسع يلبس من فوق الرأس ويصل حتى الركبتين، منها بالجبة . وعلى وسطها منطقة محبوكة كالحبل

جلست على ديوان (كانابى) قديم وجلس رفيقاى على كرسيين قديمين لم يكن فى الصومعة كراس غيرهما . وجلس جبران على دكة التصوير الخشبية وهى نحو متر مربع بعلو شبر أو أقل . وأمامنا ، فى الحائط الشرقى ، شبه موقد افرنجى وفى قلبه وجاق حديدى صغير للتدفئة بالحطب أو بالفحم الحجرى . وقد قام هذا الوجاق من الموقد مقام المدخنة . وفوق رف الموقد قنديل من الغاز كان نورنا الأوحد فى تلك الليلة



الأربعة سنة ١٩٢٠
من اليمين الى اليسار . المؤلف . عبد المسيح حداد . جبران . نسيب عريضة

اخذت اتأمل الصومعة وما فيها : طولها نحو الثمانية امتار . وعرضها نحو الستة . الى اليسار من الموقد سرير واطىء صغير من الحديد بغير قوائم ناتئة عند رأسه وقدميه ، وعليه لحاف من صوف ووسادات مختلفة الأشكال والالوان . هو سرير جبران . وبجانبه خزانة صغيرة عليها كتب واوراق . والى اليمين من الموقد منصب التصوير ووراءه منضدة عليها كتب وأوراق . والى يمين المقعد حيث أنا طاولة خشبية مستديرة عليها كذلك كتب واوراق ودفاتر ومحابر وأقلام . وبالقرب منها محافظ متفاوتة الحجم من الكرتون الاسود . هى محافظ الصور

فى الحائط الشمالى شبابيك ثلاثة عالية عليها ستائر سود . ومثلها فى الحائط القبلى . وعند متوسط الحائط الشمالى رفوف قد اصطف عليها نحو المائتين من مختلف الكتب . وفى الجهة الشمالية من السقف العالى نوافذ من زجاج عليها ستائر سود تزاح عند الحاجة لادخال النور . وعلى الحائط الغربى الاصم قطعة كبيرة من نسيج قديم العهد تمثل يسوع المصلوب . وفى زاوية ذلك الحائط الشمالية باب يؤدى الى مخدع ضيق ، فى الجهة الواحدة منه حنفية ماء ومغسلة وبضعة صحون وملاعق وقنان وطاسات خشبية ولوازم القهوة ووجاق صغير للطبخ على الغاز . وفى جهته الاخرى مستودع لثياب جبران وفوقه رف تجمعت عليه جرائد ومجلات قديمة وأشياء كثيرة سواها علاها الغبار وعشش فيها الفار



تلك هى « الصومعة » . وهى صومعة كانت تحدثنى عن فقر ساكنها وجده أكثر من حديثها عن تقشفه وتعبده . وعن العواطف اللاعبة بعواطفه وأفكاره أكثر منها عن طمأنينته فى جده وارتياحه الى فقره

كان جبران فى تلك الليلة عنوان اللطف والانس وحسن

الضيافة . فقد أعد لنا قهوة عربية وقدمها فى طاسات حمراء من الخشب الصينى مع الكثير من السيجارات والقليل من التفاح . وكان لا ينتهى بنا الحديث الى محط حتى يبدأ بحديث آخر . فكنا أربعة وكأننا واحد . نمرح حينا فى مروج الأدب ، ثم نعرج على مستنقعاته . وحينا يسوقنا الحديث الى نكتة فنضحك ، أو الى فاجعة فنجهم . وعندما جئنا على ذكر الأدب الروسى أدهشنى جبران بقوله انه من المعجبين به . لا سيما بتورجينيف ، وتولستوى ، ودستويفسكى • وبالاخير بنوع خاص ، مع أن روحه تناقض روح نيتشة على خط مستقيم . غير أنى اشتممت من كلامه الاجمالى عن هؤلاء الكتبة المشاهير انه قرأ عنهم ولم يقرأهم . ولعله أحب أن يجاملنى فيجارينى فى اعجابى بدستويفسكى عندما رآنى أضعه فوق كل كتاب الزمان الأخير بدون استثناء

ما كنت أدرى ساعة خرجت من تلك الصومعة بعد نصف الليل أننى فى خلال خمس عشرة سنة سأعود فأدخلها مرارا تضيق الذاكرة عن احصائها ، وأننى سأشهد فيها ولادة أكثر ما تمخضت به روح ساكنها الخصبة منذ تلك الليلة حتى ليلة ختمت الاقدار على رحمها • وأننى سأحيا لأذكرها كما يذكر المسافر فى البحر جزيرة وجد الأمن فى مينائها برهة من الزمن ثم ودعها وعاد الى البحر • ولا كنت أدرى أن آلام ساكنها وأفراحه سترسب فى أعماقى فتمتزج برواسب أفراحى وآلامى

فى الكهوف المظلمة

فى تلك الاثناء كتب جبران مقالا بعنوان « المليك السجين» يخاطب فيه أسدا رآه فىحديقة الحيوانات فيصفله نيويورك وأهلها هكذا :

« انظر أيها المليك الجبار الى هؤلاء المحيطين بسجنك الآن ... انظر فهذا كالخنزير قذارة أما لحمه فلا يؤكل . وهـذا كالجاموس خشونة أما جلده فلا ينفع . وذاك كالحمـار غباوة ولكنه يمشى على الاثنتين . وذلك كالغراب شؤما ولكنه يبيع نعيبه فى الهياكل . وتلك كالطاووس تيها واعجابا أماريشها فمستعار

« وانظر أيها السلطان المهيب الى تلك القصور والمعاهـد ، فهى أوكار ضيقة يسكنها الانسان مفاخرا بزخارف سقوفها التى تحجبه عن النجوم ، مغتبطا بصلابة جدرانها التى تفصله عن أشعة الشمس . هى كهوف مظلمة تذبل فى ظلالها ازاهر الشباب . وتترمد فى زواياها جمـرة الحب . وتتحـول فى فضائها رسوم الاحلام الى أعمدة من دخان . هى سراديب غريبة يتمايل فيها سرير الطفل بجانب فراش المنـازع . وينتصب فيها تخت العروس بقرب نعش الميت

« وانظر أيها الامير الجليل الىتلكالشوارع المنفرجة والأزقة الضيقـة ، فهى أودية خطرة المعـابر يتربص اللصـوص بين منعرجاتها وتختبىء الخوارج فى جنباتها . هى سـاحة قتال مستتب بين الرغائب والرغائب ، تتنازلفيها الارواح متضاربة ولكن بغير السيوف ، وتتصارع متناهشة ولكن بغيرالانياب.

بل هى غابة الاهوال تسكنها حيوانات داجنة المظاهر ، معطرة الاذناب ، مصقولة القرون ، لا تقضى شرائعها ببقاء الأنسب بل بدوام الأروغ والأحيل ولا تؤول تقاليـــدها آلى الافضل والاقوى بل الى الاخبث والاكذب . أما ملوكها فليست أســدا نظيرك بل هم مخاليق عجيبة لهم مناقير النسور وبراثن الضبع وألسنة العقارب ونقيق الضفادع»

لكن قائل هذا القول كان يشتغل النهار والليل ، ويشتغل كالمحموم ، بقلمه وريشته ولسانه ليسترعي انتباه أولئـك «المخاليق العجيبة » ، ولتسمع تلك « الاودية الخطرة المعابر » وقع قدميه اذا مشى فيهـا ، ولتنفتح فى وجهـــه أبواب تلك « الأوكار » اذا ما طرقها . وكان لا يتوصل الى معرفة رجل أو امرأة أو عائلة على أسمائهم شيء من اللمعان الادبى أوالفنى أو المادى أو السياسى أو الاجتماعى الا أخبرنى عن ذلك بلسان من لا يكترث لمثل ذلك اللمعان • ولكن بقلب من يكبر فى عين نفسه اذا ما تقرب من الذين يراهم العالم كبارا • وكأنه كان يخشى من أن أعيب عليه التناقض بين نفوره من تقاليد الناس ومفاخرته بها • فكان يطرح على كل علاقاته ستارا من السر وجلبابا من الفن والادب • كأن يقول لى مثـــلا : «.البارحـة كنت مدعوا الى الشاى عند مسز كورين روبنسن » ثم يضيف بفخر ظاهر : « هى أخت ثيودور روزفلت » ويعقب ذلك بقوله: « وهى شاعرة تعجبك يا ميشا » . أو ان يخبرنى عن سهرة عند مستر فلان « وهو مدير البنـــك الفـلانى ، وله ذوق فى التصوير جميل » أو عن زيارة لبيت فلان « وهـو من أخص أصدقاء رئيس الجهورية • وهو وزوجتـه من أقـدم العائلات الأمريكية وأوفرها ثروة وثقافة »

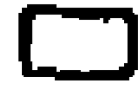
هكذا كان جبران يصفع الناس بيد ويصافحهم بالاخرى • يثور عليهم عندما يثوب الى روحه المتألم من كل شناعة وقساوة وظلم • ويسالمهم عندما تثور عليه نفسه الطماحة الى « المجد

والمظلمة » والمتوجعة من قبضة الفاقة الماسكة بخناقها . يحفر لهم قبورا فى الليل • وفى النهار ، عندما تلحدهم الاقدار فى قبور غير التى حفرها لهم ، يهتف بقلب دامع : « ماتأهلى وأنا على قيد الحياة أندب أهلى فى وحدتى وانفرادى »

وهكذا انقسمت نفسه على نفسه ، وانساقجبران المتعطش الى التفاتهم وعطفهم ومالهم ومجدهم وعظمتهم . فدرج فى كهوف نيويورك المظلمة • وكلما انفتح فى وجهه باب أدى به الى آخر ـ من حلقات فنية ، الى حلقات أدبية،الى رجال ونساء ذوى « سلطان » ـ لكلمتهم وزن ، ولصوتهم مدى ، ولعطفهم قيمة ، ولدعايتهم أثر بعيد • وأخذ يصور بعضهم بقلمه الرصاص بأثمان كانت تتراوح ، حسب قوله لى ، بين الخمسين والمائتى دولار عن الصورة • ويبيع من بعضهم شيئا آخر من نتاج ريشته • فكان يراه مضطرا لمالأتهم ومجاملتهم • اذا دعى الى شاى أو عشاء أو سهرة لا يرفض وان كان يعلم أن ربة البيت ليست من الفن أو الادب على شىء ، وان كل قصدها من دعوته أن تنوع مدعويها فيكون بينهم شاعر وفنان «شرقى» فى كلامه مضغة غير مألوفة وعليه مسحة غريبة • وذاك أقل ما يدفعه طالب الشهرة من ثمن شهرته فى مدينة بابلية كنيويورك وفى بلاد متسعرة الشهوات كأمريكا

الا أن جبران لم يكن قانعا بفتوحاته الفنية البطيئة • وهو يعلم أن فى روحه توأمين ـ الفنان والشاعر • وقد حمل الى الامريكيين فنه دون شعره ، والى أبناء لغته شعره دون فنه • فلا العرب يفهمون شيئا من فنه ، لأنهم لا يفهمون الفن التصويرى • ولا الامريكان يعرفون شيئا عن شعره ، لأنهم لا يعرفون العربية • فعليه ، ان هو شاء الجمع بين الاثنين ، أن يكتب بالانكليزية • تلك هى أمنيته من زمان ، وأمنية مارى والكثيرين من أصدقائه الامريكيين . ومن ثم فالعالم الانكليزى عالم ثقافة ، وعالم شاسع وغنى اين منه العالم العربى الصغير ،

الفقير ؟ والآن ، وقد تحلحلت عن خناقه قبضة العازة بمايدخله من نتاج ريشته ، علاوة على الخمسة والسبعين دولارا من ماري في كل شهر ، فلا شيء يعيقه عن الكتابة بالانكليزية الا الخوف من الخيبة ان هو عرض كتاباته فلم تلق ناشراً ولا « سوقا »



ذات يوم ، في أوائل سنة ١٩١٨ ، دخلت على جبران فاستقبلني بوجه لحظت فيه من البشر أكثر من المعتاد . وما أن تبادلنا السلام حتى قدم الى عددا هو الاول من مجلة انكليزية باسم « الفنون السبعة » . نظرت في حلته فاذا بها جميلة ، وفي أسماء مديري المجلة ، فاذا جبران خليل جبران واحد منهم . تصفحته فاذا فيه أمثال وقصيدة منثورة بقلم جبران

لم أسأل جبران من أين جاء بالمال ليكون شريكا في مجلة كتلك المجلة ، ولكنني أبديت له أعجابي بأسلوبه الانكليزي ، فقد وجدت فيه طلاوة ومرونة واتساقا أكثر مما في أسلوبه العربي . وقلت له : « يا شيطان . لماذا خبأت عني هذه الجواهر حتى الآن ؟ اذا كان عندك بعد من هذه البضاعة فابرزه في الحال »

فأخذ يقرأ لي أمثالا وقصائد دخلت كلها فيما بعد في كتابه « المجنون » ، ومنها قصيدته المنثورة في « الليل والمجنون » وقصيدته في « الله » ، وهذه الاخيرة ، عندما بلغ ختامها حيث يقول لله : « أنا جذورك في الارض وأنت زهرتي في السماء . ومعا ننمو أمام وجه الشمس » سألته :

ـ وما هو هذا الاله الذي تنمو واياه أمام وجه الشمس ؟ أوينمو الله ، وكل ما ينمو يشيخ وينحل ؟ وكيف ينمو أمام وجه الشمس ؟ ألعل الشمس أقدم منه وأثبت ؟ أم أنت تعني أن ادراكك لله ينمو بنموك ؟

فأجابني أن له رأيا « خاصا » في الله سيشرحه لي في وقت آخر . لكن ذلك الوقت لم يأت . لأن جبران عاد فوجد الها

لا ينمو ولا يشيخ ولا يزيد ولا ينقص • ولا يتغير ولا يتحول

لم يكتب لمجلة « الفنون السبعة » أن تعيش الاشهورا قليلة كان منها أنها شجعت جبران على الكتابة بالانكليزية وأعطته نماذج يعرضها من شعره فىالاندية الادبية ومكنته منالاتصال بجمعية الشعر النيويوركية التى أتاحت له أن يلقى فىاجتماع من اجتماعاتها شيئا من نتاج قامه • فألقى قصيدته « الليل والمجنون» • وعاد من الاجتماع ومراجله تغلى ومرارته تكاد تنفجر لان الحضور استقبلوه واستقبلوها ببرودة فى قلبها تصغير ازدراء وهمس سخرية

وماذا فعل جبران ؟ لم يجزع ، ولم يقنط ، ولم يلجأ لتفريج كربته الا الى مفرج كل كربه ومذيع كل أفراحه — الى قلمه • فكتب قصيدته الانكليزية « الانكسار » وفيها قلب خيبته خيبة لأعدائه ، انكساره فوزا لارادته واندحارا لهم :

« ... انكسارى ، يا انكسارى ، يا سيفى البراق ودرعى الصقيل • لقد قرأت فى عينيك أن الجلوس على عروش الناس استعباد للناس • والوصول الى مداركهم انحطاط الى مستواهم ... أنا وأنت سنضحك مع العاصفة ... وسنقف أمام الشمس بارادة لا تقهر • فحذار منا حذار ! »

هى حقنة من المورفين سكن بها جبران أوجاع كبريائه الجريح ، وأنين قلبه المتعطش الى « المجد والعظمة » ، ولجاجة فكره الثائر على الناس لغير ما سبب الا لأنهم على صورته ومثاله • ولو أنه كان يعتقد ما يقول ، ويفعل ما يعتقد ، لاعتزل الناس كل الاعتزال ولكف عن مخاطبتهم ان بالكلام أو بالرسوم • اذ ما نفعه من مخاطبتهم وهو لا يريد أن يكون مفهوما منهم خشية من أن ينحط الى مستواهم — اذا فهموه اغتاظ من نفسه ، وان لم يفهموه اغتاظ منهم ؟ أو ليس الكلام فى مثل هذه الحالة فضولا فى فضول والتصوير ضربا من الجنون ؟ أولم يكتب هو بقلمه مقالا فى « الكلام وطوائف

المتكلمين » ؟ أولم يقل فى ذلك المقال :
« لقد مللت الكلام والمتكلمين
« لقد تعبت روحى من الكلام والمتكلمين
« لقد ضاعت فكرتى بين الكلام والمتكلمين



« والآن وقد أبنت بعض اشمئزازى من الكلام والمتكلمين أرانى كالطبيب المعتل ، أو كمجرم يقف واعظا بين المجرمين . فقد هجوت الكلام بالكلام . وتطيرت من المتكلمين وأنا واحد من المتكلمين . فهل يغفر الله ذنبى قبيل أن يرحمنى وينقلنى الى غابة الفكر والعاطفة والحق حيث لا كلام ولا متكلمين ؟ »

فما باله يقرع آذان الناس من حين الى حين ليعطيهم دستورا للحياة قبل أن يجعله دستورا لحياته ؟ وما بال الطبيب لايطبب نفسه ؟

الا ان جبران ، وان شبه نفسه ـ على الورق ـ بمجرم يعظ مجرمين وبعليل يطبب معتلين ، لم يكن فى الواقع يرى فى نفسه علة أو اثما . بل كان يرى كل العلة وكل الاثم فى الناس . ولولا ذلك لما كتب مقاله الانكليزى « العالم الكامل » فتهكم فيه على عالم الناس تهكما كله مرارة من حيث مقصده ، وكله جمال من حيث أسلوبه ، وكله حق من حيث معناه ، ثم هتف فى آخره :

« ولكن لماذا أنا هنا يا اله الارواح الضائعة ، ايها الضائع بين الآلهة ؟ »

ومعنى هذا الهتاف : « ما شأنى أنا الكامل فى عالم كله نقصان ؟ »

وهو هتاف لا اقدر أن رئيس أجناد الملائكة يفوه بمثله اذا هو زج يوما بين الابالسة !

لقد خيل الى جبران انه يحارب عدوا اسمه العالم . ولو أنه تمكن فى ذلك الوقت ، مثلما تمكن فيما بعد ، أن

يخرج من نطاق نفسه الضيقة ويشهد المعركة عن كثب لأبصر أنها تدور بين ضدين اسم كليهما جبران خليل جبران ـ جبران فى الصومعة وجبران فى العالم .
فجبران فى الصومعة كان اذا ما فكر بأمجاد الناس وجدها حقارة . وبغناهم وجده فقرا . وبفضائلهم وجدها عبودية . وبملذاتهم وجدها أعشاش ألم وشناعة . فكان يمتشق سيف النقمة فوق رؤوسهم . وجبران فى العالم كان يشتهى أمجاد الناس وغناهم وفضائلهم وملذاتهم . فكان يأتيهم حاملا قصعة المستعطى . ولأن الناقم لا يستعطى والمستعطى لاينقم نشبت بين جبران الصومعة وجبران العالم حرب عوان تتدفق عليك مرارتها من خلال سطور جبران الشاعر . وتطالعك أوجاعها من بين خطوط جبران الفنان

ومن ثم فلو أن جبران وقف في ذلك الزمان أمام المرآة وتفحص نفسه لوجد أن الجبة التى استعارها من نيتشة لم تكن « تليق » له . لأنها لم تفصل لكتفين ككتفيه ولا لقامة كقامته . فلا مزاج نيتشه مزاجه ، ولا ارادة نيتشه ارادته . أما القرابة التى وجدها بينه وبين نيتشه فلم تكن تتعدى الخيال والقالب الذى يتخذه الخيال جسدا له . وفيماخلا ذلك فنيتشه فى واد وهو فى واد . غير أنه حاول أن يزدرد نيتشه بجبته وحذائه . فغص ، وفى غصته كان ينبوع مرارته وظلمته وعذابه

هكذا مشى جبران فى كهوف نفسه المظلمة وهو يحسبه ماشيا فى كهوف العالم المظلمة . وهكذا راح يجرع المرارة معصورة من قلبه وهو يظنها آتية اليه من قلوب الناس المريرة . ولو أن روحه آنئذ كانت نيرة لما طغت عليها الظلمة . فهل تكون الظلمة الا حيث لا يكون النور ؟ ولو أن قلبه كان طافحا بالحلاوة لما طفح بالمرارة . وهل يستقطر الحنظل من العسل ؟ وقد بلغت هذه المرارة من نفسه مدى أصبح عنده يرى الحياة

« امرأة عاهرة ، ولكنها جميلة • ومن ير عهرها يكره جمالها» وكاد ينسى كل ما كان يقدسه في أول شبابه ، لاسيما الحب ـ حب المرأة • فقد صار يرضى بالمرأة شريكة له في فراشه ولا يرضاها شريكة في قلبه وفكره وروحه • بل صار اذا ما أحس بحبها يمتد في جوانب قلبه ينتهر قلبه وينتهرها . لأنه يربأ بقلبه أن « يستسلم » للحب وبارادته أن تخضع لارادة امرأة • وما « الجنية الساحرة » الا امرأة أثارت شهوات جبران ثم تملكتها حتى كادت تسلخه عن نفسه • فقام يعلن استقلاله عنها ويعرض عليها شروطه :

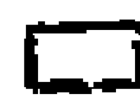
« وقد تمسكت بأذيالك وسرت وراءك كطفل يلاحق أمه ، متناسيا ما بي من الاحلام ، محدقا بما فيك من الجمال، متعاميا عن مواكب الاشباح المتطايرة حول رأسي ، مجذوبا بالقوة الخفية الكامنة في جسدك •••

« ولكن قفي قليلا أيتها الساحرة • فها قد استرجعت قواي وكسرت القيود التي برت قدمي ، وسحقت الكأس التي شربت منها السم الذي استطيبته • فماذا تريدين أن نفعل ، وعلى أية طريق تريدين أن نسير ؟••

« هل تكتفين بحب رجل يتخذ الحب نديما ويأباه سيدا ؟

« هل تقنعين بشغف قلب يهيم ولا يستسلم ، ويشتعل ولكنه لا يذوب ؟

« اذا هذه يدي فهزيها بيدك الجميلة ، وهذا جسدي فضميه بذراعيك الناعمتين ، وهذا فمي فقبليه قبلة طويلة عميقة خرساء (١) »



من حين الى حين كانت تشرق وحدة جبران المظلمة بنور هادىء بعيد يشع عليه من قلب ماري المحب • ومن حين الى حين كان

---

(١) قالت لي سيدة لبنانية في نيويورك أنها «الجنية الساحرة» المقصودة في المقال

يقترب منه ذلك النور فيؤنسه ويهـديه عنـدما كانت ماري تزوره في نيويورك فيجعل بيته بيتها • أو عندما كان يزورها في بوسطن فتجعل قلبها الدافيء وكرا لقلبه الشريد• وصدرها المطمئن ملجأ لطامحه الصاخبة ، وأحلامه اللجوجة ، وأفكاره الثائرة

ومن حين الى حين كان يطرق أذنه في سكينة الليل صوت غريب ـ قريب .هو صوت ذلك الشاب الذي كان جبران قد اذاع خبر موته ودفنه « في وادي الاحلام » والذي لم يمت قط بل أدرج في أكفانه قبل أن تغادره الروح • والاكفان التي أدرج فيها لم تكن الا جبة زرادشت وسراويله



الصوتان

ــ اسحبها

ــ لا بل أنت اسحبها !

هو جدال قصير كنا نبدأ به أكثر مقابلاتنا . فلا نتبادل السلام حتى يسأل واحدنا الآخر عما عنده من جديد نظمه أو نثره . ولا يندر أن يمد الواحد يده الى جيب الآخر طمعا باكتشاف قصيدة لم يشق بعد حجابها عن وجهها

أتيت جبران هذه المرة ــ وذلك فى أواسط مايو سنة ١٩١٨ ــ وللحال فهمت من شدة الحاحه على بابراز قصيدة جديدة أن عنده شيئا جديدا يريد أن يقرأه لى . ولم يخب ظنى . فما أن استقر بنا المقام وأشعلنا كل واحد سيجارة وأترعنا كأسا من النبيذ حتى تناول جبران دفترا ، وقبل أن يبدأ بالقراءة مهد السبيل بقوله :

« هذه ستعجبك يا ميشا . هى قصيدة ذات صوتين . أولا ترى أن تعداد الاصوات يزيد فى وقع القصيدة ومداها ويسترعى انتباه القارىء أكثر من صوت واحد ؟ »

ثم أخذ يقرأ مفخما صوته ومحاولا أن يعطيه قوة لم تكن له وخشونة لم تكن تلائمه :

« الخير فى الناس مصنوع اذا جبروا ،
والشر فى الناس لا يفنى وان قبروا »

وهكذا حتى آخر القصيدة

كان جبران يقرأ ويلحن فى قراءته الى حد أنه لو سمعه رجل غريب لا يعرفه ولا يعرف عنه شيئا لقال ان قارىء

القصـــيدة غير الذى نظمها • أما أنا فكنت أســـــمعه وأعجب بأذنه الموسيقية التى كانت تحـــافظ على الوزن بالرغم من اللحن . وعندما لحظت فى أحد الابيات خللا فاضحا فى الوزن ونبهته اليه عجبت لانه لم ينتبه اليه من تلقاء نفسه . وعبثا حاولت أن أفعله له . فهو لم يكن يعرف التفاعيل ، وان كان قد درسها فى المدرسة . وظل يعيد ذلك البيت ولا يرى فيه عيبا الى أن بدلت له الكلمة المقلقلة بكلمة استقام معها الوزن. وحينئذ أدرك الاختلال . مثلما أنى نبهتـــه الى بعض هفوات نحوية . منها قوله :

« فـــــارق الزهر مذموم ومحتقر ،
وسارق الحقل يدعى الباسل الخطر »

فلم أتمكن من اقناعه لا بالاعراب ولا بالمنطق • لكنه قال لى انه اذا توفق الى قافية تأتى بذات المعنى أو بأقوى منه بدلها منها (١) والا ترك البيت على حاله•كذلك قلت له،فيما قلته ، ان مطلع القصيدة ضعيف البنية شاحب اللون ، لا يليق بما فى القصيدة من قوة وجمال . فأجابنى أنه يشعر بشعورى وأنه سيغير البيت اذا توفق الى أفضل منه

كنت أسمع جبران يقرأ واقرأ جبران فيما أسمع :

هو ذا جبران « المتقمص فى جسد رجل يحب العزم والقوة » ينازل جبران الذى « مات ودفن فى وادى الاحلام » والذى ، من حيث لا يدرى دافنه ، مزق أكفانه ودحرج الحجر عن باب قبره وعاد الى الحياة وفى عينيه نور حقيقة جديدة وفى قلبه جذوة ايمان قديم

يطل الاول على الحياة من كوة لا يبصر منها الا الانسان . وبعد أن يتفحصها بمجهر عقله يجـــدها حلقـات متنافرة

---

(١) بقى البيت على حاله فى الطبعة التى أصدرها جبران فى نيويورك على نفقته . لكننى رأيته فى طبعة مصرية مغيرا هكذا : وسارق الحقل فهو الباسل الخطر

متناقضة : هناك الخير والشر . والحق والباطل . والعدل والظلم . والحرية والعبودية . والحب والبغض . والموت والحياة وغيرها من المتناقضات . ويجد الناس فى ارتباك مستمر وتشويش أبدى لانهم يحاولون أن يؤلفوا من تلك الحلقات المبعثرة سلسلة كاملة فلا يستطيعون . وهم لا يستطيعون لانهم لا يعرفون كيف يقيسون الحلقات ويزنونها. أما هو فيعرف . لكنه ضنين بمعرفته على قدر ماهو جواد بهزئه . فهو يهزأ بخير الناس وشرهم ولا يقول لهم ما هو خيره وشره . وهو يسخر بدينهم ولا يطلعهم على دينه . ويضحك من عدلهم ولا يتنازل أن يبين لهم عدله . ويتهكم على لطفهم من غير أن يعلمهم ما هو اللطف . وبين قذائف التقريع والتبكيت والهزء ، تفلت من فمه السوبرمانى نتف من معرفته الكاملة . وما كانت لتفلت الا لترى الناس الهوة الهائلة التى تفصل بينهم وبينه . من تلك النتف قوله فى الحق :

« والحق للعزم ، والارواح ان قويت
سادت ، وان ضعفت حلت بها الغير »

وقوله فى الحب ، وكأنه يبكت نفسه فيما يقول :

« والحب ان قادت الاجسام موكبه
الى فراش من الاغراض ينتحر »
« والحب فى الروح لافى الجسم نعرفه ،
كالخمر للوحى لا للسكر ينعصر »

وقوله فى العلم :

« وافضل العلم حلم ان ظفرت به
وسرت ما بين أبناء الكرى سخروا »

وفى السعادة :

« وما السعادة فى الدنيا سوى شبح
يرجى فان صار جسما مله البشر »

وفى الموت :

« والموت فيالارض لابن الارضخاتمة ،
وللاثيرى فهـــو البـــدء والظفر »

وبالاجمال ماذا يقول للناس هـذا الواقف على كل أسرار الارواح والاجساد ؟ يقول لهم ان حلقات حيـاتهم لا تأتلف لانهم لم يحسنوا صنعها وتسميتها ، فلو انهم مددوا حلقـة الحق وسموها عزما لاستقام حقهم . أما كيف تتعانق حلقة العزم وحلقة الضعف من غير أن يكونبينهما نفار فأمر يسكت عنه كل السكوت

ويقول لهم انهم لو شربوا خمرة الحب للوحى لا للسـكر لعرفوا الحب ولكنه لا يرشـــدهم كيف يؤلفون بين الحب والبغض لكيلا يكون فى سلسلة حياتهم قلق

ويقول لهم ان الموت هو النهاية لمن كان أرضيا والبـــدء والظفر لمن كان أثيريا . أما كيف يمكن ابن الارض أن يصـبح أثيريا لكي يتغلب على الموت فسر لا يكشفه لهم . ولا يكشفه لهم لانه لا يعرفه . ولا يعرفه لانه ما يزال فى عالم المقاييس والموازين يتوهم أن الناسيجهلون الحياة لانهم يجهلون قياسها ووزنها . ولو أنهم قاسوها ووزنوها بموازينه لوجدوها أطول وأثقل مما يحسبون . ولم يخطر له ببال أن المقاييس ، مهما طالت وتنوعت ، والموازين مهما دقت وثقلت ، لا تقيس الا ماله بداية ونهاية ــ طولا وعرضا وعمقا وعلوا . ولا تزن الا ماله وزن . أما الحياة التى لا بداية لها ولا نهـــاية ، والتى ليست طويلة ولا قصيرة ، ولا خفيفة ولا ثقيلة ، فكيف تقيسها وبماذا تزنها ؟

لو ان نيتشه ادرك هذا الامر لمـا بذر قوة خياله الهـائلة سدى فى التفتيش عن مقاييس وموازين جديدة ، وفى محاربة الذين جاءوا ليخلصوا العالم من كابوس المقـاييس والموازين، أمثال يسوع القائل : « أنا فى الآب والآب فى . وأنا فيكم وانتم فى . » فمن كان فى « الآب » ــ عنوان الحيـاة السرمدية ــ

كان سرمديا كالآب . وهذا كيف تقيسه وتزنه ؟

ذلك حد ما توصـل اليه جبران المتقمص فى جسد رجل يحب العزم والقوة



أما جبران الناهض من لحده فى وادى الاحـلام فينبرى على مسرح الحياة خيالا طليقـا من قيـود المقـاييس والموازين وكل أصناف المتناقضات . وما الغاب التى يسرح فيها ويرد كل شيء اليها سوى عنوان الحياة الشاملة لا الطبيعة بمعناها الضيق . وما الناى الذى ينفخ فيه سوى رمز الروح الذى تلتقى فيه كل الارواح فتؤلف لحنا واحدا كاملا لا نفار فيه ولا تشويش

يأكل الذئب الحمل فيصيح الناس : هى القساوة بعينهـا والجور الذى ما بعده جور ! الا أن الغاب ـ وهى الحيـاة الشاملة ـ لا تولول ولا تصيح . لانها تطعم ذاتها من ذاتها . فلا موت الحمل عنـدها مأتم . ولا غذاء الذئب وليمة . وسيان عند الشجرة اكل ثمرتها انسان أم ثعبان . أم تفيأ ظلها قنفذ أم غزال . أم تدفأ بحطبها ملاك أم شـيطان . فالانسان والثعبان ، والقنفذ والغزال ، والملاك والشيطان أبناء الغاب الواحدة . للغاب منهم غابة واحدة . ولها فيهم مشيئة واحدة . من عرفها لم يعاندها بل استسلم لها ، وباستسلامه جعلها مشيئة له . ومن جهلها فعاندها سحقته فأشـقته . فالاستسلام نوعان : هناك استسلام الجاهل وهو العبودية . وهناك استسلام العارف وهو الحرية . ومن هـذا النوع استسلام النافخ فى الناى والقائل :

« ليس فى الغاب رجاء لا ولا فيـه الملل
كيف يرجو الغاب جزءا وعلى الكل حصل ؟



أعطنى النـاى وغن فالغنـا نار ونور
وانين النـاى شوق لايدانيه الفتور »

كأني بجبران بعد أن أصغى الى الصوتين المتنافرين في داخله وقف يسأل نفسه عن مقرها بينهما — الى أيهماتميل ؟ االي الجاهل المتمرد ، ام الى العارف المستسلم ؟ فأجابته نفسه ، ولم يكن في جوابها من ريب :

« العيش في الغاب . والايام لو نظمت
في قبضتي لغدت في الغاب تنتشر »

لكنها ، ما أعلنت رغبتها في الانعتاق من عالم المقاييس والموازين ، والخير والشر ، حتى ثارت عليها رغائبها الارضية ومطامعها البشرية . فاستسلمت لضعفها من جديد وراحت تقدم عنه أعذارا . وفي اعتذارها مرارة الخيبة والم الاندحار :

« لكن هو الدهر في نفسي له أرب
فكلما رمت غابا راح يعتذر
وللتقادير سبل لا تغيرها
والناس في عجزهم عن قصدهم قصروا »



بعد ان انتهينا من القصيدة أخذ جبران يعرض على الرسوم التي كان قد اعدها لها . فوجدت فيها مواكب من الحياة كانت اشد فعلا في نفسي وابعد اثرا في خيالي من المواكب التي ساقها امام عيني في حلل من الكلام الموزون . فحيث كنت أصغي الى ابياته فأشعر بالجهد العنيف الذي بذله في تذليل الكلام والاوزان والقوافي للمعاني ، وأبصر أن النجاح لم يكن نصيبه في كل جهوده ، كنت أنظر الى كل رسومه فأشعر كأنها رسمت ذاتها من غير جهد أو عناء . فكأن عين جبران الفنان كانت أطوع لخياله ، ويده أطوع لعينه من قلم جبران الشاعر لشعوره . وفوق ذلك فجبران الشاعر كان شديد الولع بمزج الوان الكلام ورناته . فكان يكثر من الادهان والانغام الى حد الزركشة والتنميق . حين أن جبران الفنان كان يطلب البساطة المتناهية فتأتيه بسهولة متناهية . هي بساطة كلاسيكية تعرف

أصول الفن وتنسى انها تعرفها . وهي بساطة تخلق لك من خطوط قليلةأشكالا كثيرة . وخطوطها ليستحدودا لخيالك. بل هي عيونوأجنحة تمضى به الى أبعد منالخطوط والحدود

أول رسم وضعه جبران أمامي على المنصب كان يمثل فتى عاريا ، قوي العضل ، متسق الجسم ، خفيفه ، يسير بخطوات ثابتة واسعة ، وفي يده اليمنى ناي ، وعيناه تحدقان بما هو أبعد من مجال البصر . وفي الفضاء من خلفه شكل أثيرى سابح في الهواء يمثل امرأة لا ترى منها غير رأسها وكتفيها وبعض من صدرها وذراعيها الممدودتين كأنهما جناحان يحرسان حامل الناى . وترى فيوجهها ما يشبه الحب ، لكنه غير ما يعرفه الناس باسم الحب . وترى في عينيها العالقتين بما وراء الافق لهفة كأنها تقول للفتى : سر ولا تخش . فأنا معك . ووراء الفتى قدسار جمهور من الناس يبدون بالنسبة اليه أقزاما

هو ذا صاحب الخيال الذي أدرك بخياله سر الامتثال فامتثل بارادته . وكان لذلك حرا . والشكل الأثيرى هو خياله الاكبر وحاديه وهاديه . والناس منخلفه قطعان تسير ولا تعلم لماذا والى أين تسير . فهم العبيد لان ليس لهم من خيالهم محرر

كنت ظننتني أخذت بذلك الرسم حتى برز أمامي غيره . فأدركت أنه دون قمة جبران الفنية عندما رأيت رسم الدين والعدل والحرية وسواها . فرسم الدين يمثل شبه برجأعلاه مؤلف من رؤوس ثلاثة ــ رأس رع الىاليسار وزرادشت الى اليمين وبوذا في الوسط . وعلى رأس بوذا ، بين قلنسوة رع وزرادشت ، قد ارتكزت كرة ترمزالىالحقيقة اللامتناهية . وعند منتصف البرج ، على صدر بوذا ، الناصري المصلوبوقد لمست كفاه كتف رع من جهة وزرادشت منالاخرى . ومن تحت ذراعي المصلوب حتى أسفل البرج أشكال بشرية تغلغلت

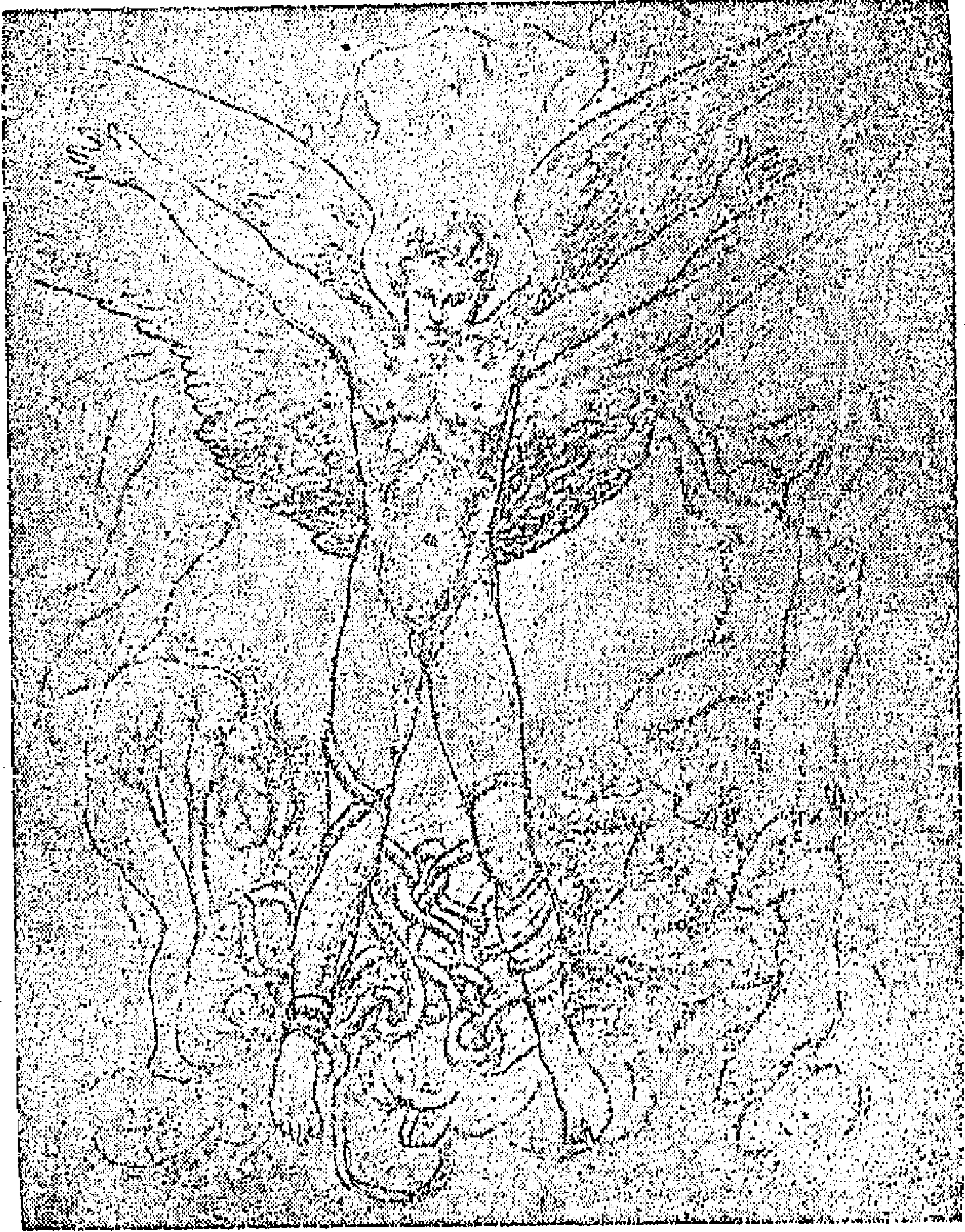
بينها أفاعي الخـــرافات والسخافات والشهوات والمتـــاجر الرائجة بين الناس باسم الدين فى كنف أولئك الجبابرة الاربعة

والرسم الثانى ـ رسم العدل ـ يمثل جبارا مكتمل تقاطيع الجسم . لعله السوبرمان . وقد أمسك بيسراه ميزانا وانحنى الى اليمين فلمس بأصابعه كفة من كفتى الميزان فهوت الى تحت وارتفعت الثانية وفيها شكل انسان صغير ملتو على ذاته . ومن حول حامل الميزان شبه دائرة من البشر المسرعين صعودا وهبوطا يخيل اليك أنه قد وزنهم كلهم فوجدهم ناقصين • كنت أنظر الى الرســـم فلا أرتوى من تفاصـــيله والتعجب فى الالفة الـكاملة بين أصـــغرها وأكبرها والوزن الـكامل فى تركيبها . حتى ليستحيل عليك أن تغير خطا فيها من غير أن تحدث خللا فى توازنها وألفتها

أما رسم الحرية ففيه من الالفة والاتساق والتوازن مثلما فى رسم العدل لكنه يثير فيك شعورا وأفكارا وخيالات تظل تزدحم فى روحك زمانا بعد أن يغيب الرسم عن عينيك • فأنت تبصر فيه فتى بجناحين . وقد أسبل جناحيـــه الى فوق وانتصب بقامته الطويلة وأفرج رجليه الواحـــدة عن الاخرى وجمع كل قواه للطيران . ولـكنه لايســتطيع أن يرتفع عن الارض . تحدق فى عضلاته المنكمشة من قوة الاجهـــاد وفى وجهه المنصب بكل معانيه الى غاية واحـــدة فتكاد تقفز من مكانك لتساعده علّه يرتفع الى الجو . لـكنك ، بعد أن ترى الحبال المحبوكة حول رجليه ، تدرك أنه لن يطير حتى يقطعها . وانها لا تقطع بسيف ولا تقرض بمطرقة • هى حبال الرغائب والشهوات الارضية . وكأنى بجبران رسم نفســـه بذلك الرسم . وكأنى به وصف نفسه عندما قال :

« والحر فى الارض يبنى من منـــازعه
ســـجنا له وهو لا يدرى فيؤتسر »

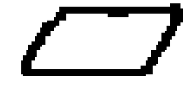
بعد ذلك بأيام ودعت جبران ونيويورك ومن فيها من قليل



« والحر فى الارض يبنى من منازعه
سجنا له وهـــو لا يدرى فيؤتسر »

الســـحاب ، وارتديت البزة العســكرية ، وتقلدت السنكة والبندقية ، وسافرت جنديا مع الجند الامريكان الى فرنسا

وعندما عدت من المجزرة العالمية بعد سنةوشهرين وجدت أن جبران قد أضاف الى الادب العربى أثرا جــديدا باسم « المواكب » طبعه على نفقته فى نيويورك طبعا أنيقا فاخرا . وانه قد شق لذاته دربا فى الادب الانكليزى بكتابصغير سماه « المجنون » وتوفق الى نشره بواسطة شركة للنشر حديثــة العهد فى نيويورك أسسها رجل يهودى المانى اسمه «كنوف» عرف كيف يستثمر مواهب الكتاب الحديثين • فكانوا سبب ثروته وكان مساعدا كبيرا فى نشر شهرتهم



محت الحرب فيما محته من الاسماء اسم « الفنون » من سجل الصحافة . فقضت على زنبقة هيفاء فواحة فى حقلنا الادبى كنت وجبران نتعشقها ونغار عليها غيرة غارسها وولى أمرها ــ نسيب عريضه ــ واشد . فقد كانت لنا ، ولكتلة صغيرة من الادباء فى نيويورك ، بوقا صافى الصوت لا نخجل من أن ننفخ فيه من أرواحنا . وكانت يدا جميلة ونظيفــة يلذ لنا أن نضع فى راحتها نتفا من قلوبنا وأفكارنا لتحملها الى من تهمهم قلوبنا وأفكارنا . وكانت ادارتها ملجــأ لشوارد آرائنا ، وجوا فسيحا يمتزج فيــه هزلنــا بجدنا وتلتقى احلامنا بآلامنا

وكنت على أثر رجوعى من فرنسا فى صيف ســنة ١٩١٩ قد سافرت الى ولاية واشنطن لارتاح ولو قليلا من الحرب وويلاتها ، ولانسى الحلو والمر من تذكاراتهــا . وكأن جبران اســتطال غيبتى أو خشى ان تطول فــكتب يلح على بالرجوع للسعى فى رد «الفنون» الى الحياة . ويرسم لى خطة طويلة للعمل ويختمها بقوله :

« الخلاصة ــ انه على وجودك فى نيويورك يتوقف نجــاح

المشروع . واذا كان رجوعك الى نيويورك يستلزم التضحية فالتضحية فى مثل هذه الظروف هى العزيز الموضوع على اقدام الاعز ، والمهم الموقوف على مذبح الاهم . وعندى أن الاعز فى حياتك هو تحقيق أحلامك . والاهم فى حياتك هو استثمار مواهبك ... »

عدت الى نيويورك ولكن « الفنون » لم تعد الى الحياة . اذ وجدت أن الخطة التى كان قد رسمها جبران ونسيب كانت خطة يسهل تطبيقها على الورق ويكاد يستحيل تحقيقها بالعمل . فالذين كانت قلوبهم فى « الفنون » كانت جيوبهم فى عالم الشكوك والظنون . والذين كانت جيوبهم تعج بالذهب كانت قلوبهم بعيدة عن الادب . فمن أين تأتى بالمال اذا كنت تأبى التذلل والاحتيال ؟

ماتت « الفنون » ولكن كانت هناك « السائح » ـ جريدة نصف أسبوعية لصاحبها ومؤسسها عبد المسيح حداد ، كان قد مضى على تأسيسها نحو الست من السنوات . نعم . هى لم تكن من الادب الصافى بمرتبة « الفنون » لكن عبد المسيح اخ لنا . قلبهُ قريب من قلوبنا وروحه صديقة لارواحنا . وهكذا ما درينا الا و «السائح» بوقتنا ، وادارته مكة خطواتنا، ومنبر أفكارنا ، وعكاظ قوافينا ، ومسرح مهازلنا . هناك كنا نلتقى كلنا لا أقل من مرة فى الاسبوع ، وبعضنا كل يوم فى الاسبوع ـ عصبة صغيرة تفاوتت قواها ولكن توحدت نزعاتها ومراميها ، فأتلفت قلوبها وصفت نياتها ، بينها من كتب فى حياته قليلا ثم انقطع عن الكتابة كل الانقطاع . وبينها من كان لا يكتب الا فى النادر . وبينها من كان لا يقعده عن الكتابة غير قوة فوق قوته . لكنهم كلهم ، المقلال منهم والمكثار والذى لا يقل ولا يكثر ، قد تقاربوا فيما يستسيغونه ويكرهونه من الادب . وبالطبع كان ضمن هذه العصبة افراد تربطهم ألفة ادبية وفنية وروحية أقوى من التى كانت تربط العصبة

بمجموعها
من تلك العصبة تألفت « الرابطة القلمية » . واليك فقرات من وقائع الجلسات التأسيسية كما دونتها بيدى :

« فى خلال ليلة أحياها صـــاحب « السائح » واخوانه فى بيتهم - فى العشرين من ابريل سنة ١٩٢٠ - ودعوا اليهـــا رهطا من الادباء والاصحاب ، دار الحديث عن الأدب وعمـا يمكن الادباء السوريون فى المهجر القيام به لبث روح جديدة نشيطة فى جسم الادب العربى وانتشاله من وهـدة الخمول والتقليد الى حيث يصبح قوة فعالة فى حياة الامة . ورأى أحدهم أن تكون لادباء المهجر رابطة تضـم قواهم وتوحـد مسعاهم فى سبيل اللغة العربية وآدابهـــا . فقابلت الفكرة استحسان كل الادباء الحاضرين وهم : جبران خليل جبران . نسيب عريضه . وليم كاتسفليس . رشيد أيوب . عبد المسيح حداد . ندره حداد . ميخائيل نعيمه . وأقروا باجمـــاع الاصوات مباشرة السعى لتحقيق هذا الفكر ... واذ لم يكن من فرصة للبحث فى كيفية تأليف الجمعية وقوانينهـــا دعا جبران خليل جبران الادباء الى عقد اجتماع فى منزله ليـلة الثامن والعشرين من ابريل »

« جلسة الثامن والعشرين من ابريل سنة ١٩٢٠ عنـــد جبران خليل جبران : التأم تلك الليلة فى منزل جبران الادباء الآتية أسماؤهم : عبد المسيح حداد ، ندره حداد . اليـــاس عطاالله . وليم كاتسفليس . نسيب عريضه . رشيد أيوب . جبران خليل جبران . ميخائيل نعيمه . وبعد المباحثة أقر الجميع الامور الآتية :

١ - أن تدعى الجمعية « الرابطة القلمية » وبالانكليزية Arrabitah

٢ - أن يكون لها ثلاثة موظفـين وهم : الرئيس ويدعى « العميـد » . فـكاتم السر ويدعى « المستشار » . فأمين

الصندوق ويدعى « الخازن » •

٣ ـ أن يكون أعضاؤها ثلاث طبقـــات ـ عاملين ويدعون « عمالا » . فمناصرين ويدعون « أنصار » . فمراسلين

٤ ـ أن تهتم الرابطة بنشر مؤلفات عمالها ومؤلفات سواهم من كتاب العربية المستحقين ، وبترجمة المؤلفات المهمــة من الآداب الاجنبية

٥ ـ أن تعطى الرابطة جوائز ماليـــة فى الشـــعر والنثر والترجمة تشجيعا للادباء

ووكل الحضور أمر تنظيم القانون الى العـــامل ميخائيل نعيمه . ثم انتخبوا باجماع الاصوات جبران خليـــل جبران عميدا . وميخائيل نعيمـــه مستشارا . ووليم كاتسفليس خازنا . . . »

نظمت القانون ووضعت له مقدمة . وها أنا أقتطف من تلك المقدمة بضع نبذ تبين روح الرابطة ومراميها :

« . . . ليس كل ما سطر بمداد على قرطاس ادبا ، ولا كل من حرر مقالا أو نظم قصيدة موزونة بالاديب . فالادب الذى نعتبره هو الادب الذى يستمد غذاءه من تربة الحيـــاة ونورها وهوائها . . . والاديب الذى نكرمه هو الاديب الذى خص برقة الحس ودقة الفكر وبعد النظر فى تموجات الحياة وتقلباتها ، وبمقدرة البيان عما تحدثه الحياة فى نفسه من التأثير

« ان هـــذه الروح الجديدة التى ترمى الى الخروج بآدابنا من دور الجمود والتقليد الى دور الابتكار فى جميل الاساليب والمعانى لحـــرية فى نظرنا بكل تنشـــــيط ومؤازرة ، فهى امل اليوم وركن الغد . كما أن الروح التى تحاول بكل قواها حصر الآداب واللغة العربية ضمن دائرة تقليد القدماء فى المعنى والمبنى هى فى عرفنا سوس ينخر جسم آدابنا ولغتنا وان لم تقـــاوم ستؤدى بها الى حيث لا نهوض ولا تجدد

« بيد اننا ، اذا ما عملنـــا على تنشيط الروح الادبيـــة

الجديدة ، لا نقصد بذلك قطع كل علاقة مع الاقـــدمين . فبينهم من فطاحل الشعراء والمفكرين من ســتبقى آثارهم مصدر الهام لـكثيرين غدا وبعد الغد . الا أننا لسنا نرى فى تقليدهم سوى موت لآدابنا . لذلك فالمحافظة على كياننـــا الادبى تضطرنا للانصراف عنهم الى حاجات يومنـــا ومطالب غدنا . وحاجات يومنا ليست كحاجات أمسنا . . . »

ورسم جبران للرابطة شعارا جميلا يمثل دائرة فى وسطها كتاب مفتوح وعلى صفحتيه خطت هذه الآية من الحديث : ((**لله كنوز تحت العرش مفاتيحها ألسنة الشعراء**)) ومن فوق الكتاب قد أطلت شمس ملأت أشعتها نصف الدائرة الاعلى . وعند أسفل الكتاب سراج شطره الايمن محبرة قـد انغمس فيها قلم فتحول حبرها الى لسان من نور خارج من طرف السراج الايسر . ومن تحت الدائرة اسم الرابطة القلميـــة مخطوط بأحرف مستقيمةالزوايا تشبه بعض أنواعالخطوط الكوفية ، ومن تحته اسم الرابطة بالانـكليزية فعنوانها الذى جعلناه عنوان جبران

كان ذلك الشعار خاتمة دور الرابطة « التأسيسى » والحد الذى وقفت عنده فى مشابهتها جمعية منظمة . فهى من قبل أن تنظم لذاتها قانونا وتتخذ لها شعارا كانت « روحا » وظلت كذلك كل حياتها ، وقط لم تكن « جمعية » بمعنى هذهالكلمة المألوف . بل كان جل ما فعلته من ذلك القبيل أن أعطت تلك الروح اسما تعرف به بين الناس . وأعطت العاملين فيها شبه محجة مشتركة يصوبون اليها خطاهم ومعا يعملون على صيانة حرمتها ورفعها عن التحذلق والابتذال



على أثر « تنظيم » الرابطة أخذت كتابات عمالها تظهر فى أعداد « السائح » وتحت عنوان كل مقال او قصـــيدة اسم صاحبها متبوعا بهذه الكلمات : « العامل فى الرابطة القلمية »

وفى صدر كل عام كانت « السائح » تصـــدر عددا ممتازا يشترك فيه كل عمال الرابطة من التحرير حتى انتقاء الورق والغلاف وتنسيق المواد وتحديد القطع الخ . وهـذا العدد كان يطلع على الادب العربى كحـدث خطير • فتكتب الصحف فيه فصولا وتنقل عنه الشيء الكثير . وهكذا انتشر اســـم الرابطة فى العالم العربى وكل مهاجره وأقبلت الصـحف على آثار عمالها تنقلها وتعلق عليها وقام البعض يجمعها فى مجموعات منها ما يدرس اليوم فى كثير من المدارس. ونقم أنصار التقليد والجمود عليها فما كانت نقمتهم الا لتزيدها قوة وحماسـة واندفاعا ولتنمى عدد أنصارها ومريديها ومقلديهـا والمعجبين بها فى كل قطر عربى . حتى حار فى أمرها أصحابها واعداؤها على السواء . . فما عادوا يعرفون الى ماذا يعزون سر قوتهـا وبعد تأثيرها • فمـن قائل أن السر فى الادب الامريكى الذى تأثر به عمال الرابطة ، وهو قول فارغ . ومن قائل انه فى جو الحرية الامريكية ، وهو قول أفرغ • ومن قائل انه فى تهتـك عمال الرابطة من حيث اللغة العربية واصولها ، وهو قول أفرغ وأعقم من القولين الاولين • أما الحقيقـة فلا يعلمهـا الا الذى جمع عمال الرابطة القلمية فى فسحة محدودة من ديار غربتهم ولمحة معلومة من زمان هجرتهم ووضع فى صـــدر كل منهم جذوة تختلف عن أختها حرارة وبهاء ، ولـكنها من موقــد واحد واياها

أذكر أن صاحب جريدة عربية فى نيويورك ، لحســد فى قلبه ، تهجم مرة فى جريدته على الرابطة وعلى جبران بنوع خاص . وتناول فى تهجمه رجلا جعله من عمال الرابطة ولم يكن منهم . واتفق أن التقيت به فى ذلك الوقت فقلت له : « فلان يا هــذا ليس من الرابطة » . وأخبرت جبران عن ذلك على سبيل التفكهة . وشد ما كان عجبى عندما التفت الى جبران فاذا بعينيه تقدحان شررا وشفتيه ترتجفان غضبا وتقطران

سما . واذا به يقول :

ـ لو التقيته أنا ياميشيا لفعلت غير ما فعلت أنت

قلت :

ـ وماذا كنت تفعل ؟

قال :

ـ كنت أبصق فى وجهه وأفك رقبته . ان كلبا مثله لا يستأهل الا العصا

لم أستغرب ما قاله جبران لاننى كنت أعرف طباعه واعرف أن كل عامل من عمال الرابطة ، لا سيما جبران ، كان يغار على سمعتها أكثر مما يغار على سمعته . لكننى شكرت الله لان جبران لم يوفق الى « فك » رقبة ذلك المسكين ، وان الرابطة القلمية لم « تفك » حتى اليوم من الرقاب الا رقبة الصنم الذى كان أكثر أبناء الضاد يبخرون له ويسجدون أمامه ويمجدونه باسم الادب



العواصف

على أثر صدور كتاب « العواصف » لجبران فى سنة ١٩٢٠ كتبت مقالا توسعت فيه بعض التوسع فى درس الكتاب ونفسية صاحبه الادبية ، والمرارة التى كانت تفيض من قلمه فى ذلك العهد ، والكآبة التى كانت تطفو على مرارته (١) وكان المقال فى جيبى عندما عرجت على جبران بطريقى الى ادارة « السائح » . فسألنى ، حسب عادته ، اذا كان عندى من جديد أقرؤه له ، فأجبته :

ـ عندى مقال لا استطيع أن أقرأه لك الا اذا استطعت أن تسمعه كما لو كنت غير جبران خليل جبران

قال :

ـ انك تسألنى أمرا شاقا يا ميشا . ألعل مقالك فى جبران خليل جبران ؟

قلت :

ـ فى عواصفه

فقال وكان قوله مزيجا من المزح والجد :

ـ حسن يا ميشا . سأحاول أن أفعل الآن ما صرفت حياتى محاولا أن أفعله . وذلك أن أنسى نفسى . لكن بى خوفا منك يا ميشا . فلك عين تنفذ الى أعماق نفسى . وقلم ، لو شاء ، لمزق الستائر التى أتستر بها عن أعين الجهلاء والعميان . اقرأ

---

(١) المقال مدرج فى كتابى «الغربال» تحت « عواصف العواصف »

أخذت أقرأ وجبران يصغي . فأتيت على شبه توطئه قصيره أقابل فيها بين ضروريات الحياة وكمالياتها وأقول : « غدا ستغمرنا لجة العدم بأحزاننا وأوصابنا . بجائعنا ومتخومنا . بفقيرنا وموسرنا . بوجيهنا وحقيرنا . وستقوض الايام أركان ما شدناه من البنايات السياسية والاقتصادية . فلا يبقى الا الخالد والجميل والحق فينا. ومن ذا الذى يبقى ليخبر عن الخالد والجميل والحق فينا ان لم يكن ابن الادب وابن الفن ؟ »

ثم أسأل عن أبناء الادب والفن عندنا آلذين سيخلدون هذا الجيل من وجودنا في سفر الاجيال فلا أجدهم فى الكثير من « بلابل النيل وشحارير لبنان وحساسى سوريا » بل فى فئة قليلة من الذين « قد لمست الحياة أفواههم بجمرة جديدة فاتقدت قلوبهم بنار ما عرفتها قلوب من حولهم من المنتمين الى مملكة القلم . بعضهم لا يزال فى رحم السكينة المولدة . وبعضهم يتنفس الهواء الذى نتنفسه ويطأ الاديم آلذى نطؤه ومن هؤلاء ، بل فى طليعة هؤلاء ، شاعرالليل. شاعر العزلة . شاعر الوحشة . شاعر اليقظة الروحية . شاعر البحر . شاعر العواصف . . . جبران خليل جبران »

بلغت تلك النقطة من المقال واذا بى أسمع بكاء . واذا بدموع جبران تترقرق على يديه . واذا بجبران يشهق كالطفل فى بكائه . فطويت المقال ووضعته فى جيبى وجلست صامتا بين الارتباك والدهشة أرقب جبران ولا أشاء ، بل لا أقدر ، أن أقول كلمة قبل أن أسمع منه كلمة . وأخيرا لملم جبران عبراته بطرف منديله وقال وملح الدموع لا يزال متفشيا فى صوته :

ـ اعذرنى ياميشا . اعذرنى يا أخى . اعذرنى يا حبيبى. ولا تسلنى أن أفسر لك دموعى . فالدموع لا تفسر بالكلام ولا تفيض الا حيث يتعذر الكلام. وانت تفهم دموعى لان بك وحدة كوحدتى ، ووحشة كوحشتى ، وحرقة كحرقتى . وانت

تفهم دموعي لأنك تفرح مثلما أفرح عندما تعثر على روح تفهم لغة روحك • ما أصعب أن تعاشر النـاس وتكلمهم بلغتهم فيحسبون أن لا لغة لك سواها • وعندما تكلمهم بلغتك تجدهم لا يفهمون منها حرفا ونجدك مضطرا اما الى الصمت واما الى تدريسهم الالف والباء من هجاء لغتك ، وما أكبر بهجتك عندما تقع على من يعرف لغتك مثلما تعرفها • وأنت تعرف لغتى يا ميشا وأنا أعرف لغتك • تابع القراءة اذا شئت

فاعتذرت عن متابعة القراءة وقلت :

ـ أمن العدل يا جبران أن نلوم النـاس ولا نلوم أنفسنا ونحن من الناس ؟ أم من العدل أن تتطلب منهم ما لا تتطلبه من نفسك ؟ أنت تطلب أن يفهمك الناس • وقد يكون أنهم لا يفهمونك لأنك لا تفهم نفسك • فهل أنت واثق من فهمك لنفسك ؟

ـ لا ، لست واثقا يا ميشا • ومصيبتى فى أننى أتكلم كما لو كنت واثقا

ـ لعل ذلك مصدر العواصف التى تجتاح وحدتك . ومنبع المرارة التى تفيض من قلمك • ومنبت التمرد الذى اتخذته قوسا لك ودرعا • فكم نتمرد على الغير جاهلين أننا لا نتمرد الا على أنفسنا الجاهلة • وكم تهب فى داخلنا عواصف تجلو ما اكمد من آفاق أرواحنا فنحسبها آتية من الخارج لتعكر ما صفا من آفاق أرواحنا • أولا ترى أن ما نخبر عنه بأقلامنا ليس الا زبدا يطفو على وجه حياتنا ، أما أعماقنا الساكنة فلا تدركها أقلامنا ؟

ـ هذا صحيح يا ميشا • وأنا تمر بى ساعات أرى فيها كل ما كتبته حتى الآن فضولا فى فضول . لكننى أشعر أن فى فمى كلمة لم أنطق بها بعد • ولن يرتاح لى بال حتى أنطق بها • لعلنى أحاول المستحيل عندما أحاول أن أفرغ زبدة حياتى فى كلمة أو فى كتاب • لكننى لا بد من أن أغمس قلمى فى أعماقى

الساكنة لتنطق بما فيها ـ ولو ببعض ما فيها • وماذا عساني أفعل غير ذلك ؟ أنا كالمرأة الحامل : ليس بي الا أن أضع بين أيدي الحيـاة ما أحمله في أحشائي . وأنا أعرف أن المـرارة ليست جميلة وأن الحلاوة أجمل • لكنني سأبقى مرا ما دام في قلبي مرارة

ـ ستبقى مرا يا جبران ما دمت دولابا يدور يمينـا بين دواليب تدور يسارا ـ كما تقول في « العاصفة » ـ لـكنني أراك قد بدأت تغير دورتك . ففي آخر « العاصفة » بعد أن تفرغ كل ما في قلبك من المرارة على الناس ومدنيتهم وطقوسهم تعود فتسأل نفسـك : « نعم . ان اليقظة الروحية هي أخلق شيء بالانسان . بل هي الغرض من الوجود . ولكن أليست المدنية بما فيها من التلبس والاشكال من دواعي اليقظـة الروحية ؟ وكيف يا ترى تستطيع انكار أمر موجود ونفس وجوده دليل على اثبات صلاحيته ؟ قد تكون المدنية الحاضرة عرضا زائلا . ولكن الناموس الابدى قد جعل الاعراض سلما تنتهي درجاته بالجوهر المطلق ـ فكأنك بهذا القول تعرض على الناس سلاما ، وكنت لا تعرض عليهم الا حربا . وكأنك ترضى أن تدور معهم الى اليســـار وكنت لا تدور الا الى اليمين

ـ هاهي ذي الافلاك يا ميشا بما فيها من أجرام لا تحصى . لكل جرم دورته وسبيله . وكلها يدور حول جـرم واحـد فيؤلف عالما واحدا . وهذا العالم يدور حول ذاته وحول عالم سواه . والعوالم كلها تؤلف عالما واحدا كاملا . كلنـا دورات في دورات . وكلنا ضمن دائرة الحياة الكبرى

ـ فما أجهلنا يا جبران نرضى بأن ندور دورتنا وننكر على سوانا أن يدور دورته . ولولا دورة سوانا لما كانت لنا دورتنا

ـ نعم . ما أجهلنا نرى سبيلنا السبيل السوى . ونرى كل سبيل سواه معوجا . ولو استقام سبيلنا لاستقام كل

سبيل . لان كل السبل تؤدى الى سبيل واحد . لكن هو الشباب يا ميشا ــ نزقه أسرع من حكمته . وغضبه أقوى من عدله . وانا كنت حتى الآن كثير النزق شديد الغضب .

ــ ما قولك بقليل من الويسكى مع الكازوزة ؟ لقد اشتريت البارحة صندوقا من أحدمهربى المشروبات الروحية. ودفعت ثمنه ٣٥ دولارا . ذاك ثمن بخس بالنسبة لاثمان هذه الايام. والويسكى التى اشتريتها مثل ويسكى هذه الايام ــ مزيج شيطانى لا يعرف أجزاءه الا الذين ركبوه . قل لعن الله القسس • هذه بلاد قسس وكتبة وفريسيين •. لقد حرموا المسكرات ظنا منهم أن الله لا يقبل فى سمائه الا من كان على شاكلتهم • نظيفا من الخارج أما فى الداخل فمملوء قذارة ونتانة . ولقد حرموها ليجعلوا من تحريمها متجرا لهم رابحا

وسكب جبران كأسين من الويسكى . فذقت كأسى وتركتها اذ لم اقدر على اقتحام طعمها ، وقلت لجبران :

ــ اعجب لك ياجبران تشرب مثل هذه الويسكى ، فهى قتالة

فأجابنى وقد جرع جرعة كبيرة :

ــ لا بأس بها يا ميشا ، ومن ثم فالكحل خير من العمى ، ما العمل وتلك مشيئة القسس الاطهار فينا ؟

ــ دعنا من الويسكى ومشيئة القسس الاطهار • وهات أخبرنى الى اين وصلت فى كتابك « السابق » وهل أضفت شيئا جديدا الى مواده الكتابية والفنية ؟

ــ لم ازد شيئا على المواد التى اطلعتك عليها . والكتاب اليوم فى يد الناشر وسيصدر قريبا . ويعز على انك تفضل « المجنون » عليه

ـ ما همك والاثنان لك ؟ انى أفضل « المجنون » لانه مرارة صرف . أما «السابق» فمزيج من مرارة فقدت مرارتها وحلاوة لم تكتمل بعد حلاوتها . وأين أنت من كتابك الجديد

الذى تفكر به لاحقا للسابق ؟

ــ لقد بدأت بأول قطعة منه ولم انته منها بعد . وان أقرأها لك حتى تكتمل . ذلك الكتاب يملأ الآن كل حياتى يا ميشا ، فأنا انام واياه واقوم واياه وآكل واشرب واياه

فى اليوم التالى سافر جبران الى بوسطن . وصدر مقالى عن « العواصف » فى جريدة السائح . فكتب الى جبران يقول :

« قرات الساعة مقالتك فى « العواصف » فماذا يا ترى اقول لك يا ميخائيل ؟

« لقد وضعت بين عينيك صفحات كتابى مكبرة باورية فظهرت اكبر مما هى حقيقة ــ وهذا مما يجعلنى أخجل من نفسى . لقد القيت بمقالتك مسؤولية كبيرة على عاتقى ، فهل أستطيع أن أقوم بها ؟ هل استطيع تحقيق الفكرة الاساسية فى نظرياتك ؟ اتبينك منشئا هذه المقالة النفيسة وانت تنظر الى مستقبلى لا الى ماضى ــ لان ماضى كان خيوطا ولم يكن نسيجا ، كان حجارة مختلفة الحجم والصورة ولم يكن قط بناء . أتبينك تنظر الى بعين الامل لا بعين النقد . فأندم على الكثير من ماضى وفى الوقت نفسه أحلم بالمستقبل وفى نفسى حماسة جديدة . فان كان هذا ما اردت أن تفعله بى ولى عندما كتبت نقدك فقد نجحت يا ميخائيل »

لقد صدق جبران فى قوله انى نظرت الى مستقبله لا الى ماضيه . فقد أخذت أشعر من محادثاتى الكثيرة معه انه مشرف على فجر حياة جديدة . وأن العواصف التى أثارها فيه نيتشه فكادت تقتلع جذوره من تربتها الشرقية وتتركه عالقا بين الارض والسماء قد بدأت تهدأ . وأن جبران الذى انسلخ عن نفسه المؤمنة بجمال الحياة وحكمتها والمستسلمة لمشيئتها السرمدية قدعاد الى «وادى الاحلام» يبحث عن تلك النفس وينبشها من لحدها ليجدد معها مواثيقه

وعلاوة على ذلك فحجر الرحى ــ رحى الفاقة ــ الذى كان يحمله فى عنقه منذ فقد أمه وأخاه وأخته أوشك أن يتحول الى قلادة من ذهب . فقد صار جبران ينام من غير أن يفكر بحاجاته اليومية من أكل وشرب ولباس ومأوى . بل انه أصبح ، فى كل شهر تقريبا ، يودع قيمة من المال فى البنك، والخمسة والسبعون دولارا من مارى هاسكل ما فتئت تأتيه فى مواعيدها . فاستعان عن نور الغاز فى محترفه بنـــور الكهرباء . وعن وجاق الحطب بوجاق من الغاز . وجاء بتليفون

اما « المجد والعظمة » اللذان كان جبران يحلم بهما منــذ صباه فقد أخذ يتذوق حلاوتهما من السنة الناس الذين كانوا يستسيغون كتاباته ورسومه فلم يعد فى استطاعته أن يشرب من البئر ويرمى فيها حجرا ــ أن يتقبل حلاوة الشهرة من السنة الناس ثم ان يكوى تلك الالسنة بنار نقمته وسخريته. بل صار يبذل كل جهده ، بلسانه وقلمه وريشته ، ليكون عند ظن الناس به ، وليفوق ظنهم به . وكلما ازداد توفيقا من هذا القبيل اشتد عنف الحرب الناشبة بين نفسه الظاهرة ونفسه الباطنة . نفسه التى كان يعرضها على الناس ونفسه التى كان يسترها عنهم فلا تراها الا عين روحه الساهرة

نبأ كاذب

أفقت من نومي صباح يوم من ربيع سنة ١٩٢١ وأمام عيني بقايا صورة مزعجة رأيتها فى الحلم وعبثا كنت أحاول أن أمحوها من فكرى . فقد رأيتني واقفا على حافة بئر مستديرة عميقة ولا ماء فيها . ورأيت فى قعر البئر شجرة يابسة ذات ساق ضئيل قصير وفروع قليلة لا اغصان لها ولا أثر للورق او للثمر عليها . ورأيت تحت الشجرة رجلا مضطجعا على جانبه الايمن وقد توسد ذراعه . ثم رأيت الرجل ينهض متواكلا ويفرك عينيه ويتأمل الشجرة ويتسلق بنظره جدران البئر الملسة كأنه يبحث عن واسطة للنجاة . ورأيت فى وجهه الهزيل الاصفر المقنع بالحزن والالم بقعا سوداء وخضراء وصفراء . وتخيلته فى كل حركة من حركاته كأنه اليأس بعينه ، أو كأنه بقية من الحياة تسرولت بسراويل الموت . فناديته بأعلى صوتى : « جبران ! » وافقت مذعورا من صوتي ومن الصورة التى رأيتها

ما صدقت أن اجتمعت اليوم بجبران فى ذلك اليوم لتكذب عين يقظتي عين منامي ، ولكيمحو وجهه النضر رسم وجهه الشاحب من خيالي . ومن غير أن اطلعه على حلمي أخذت اسأله عن صحته حتى انه تعجب لكثرة اسئلتي وقال :

ــ تدهشني يا ميشا شدة اهتمامك بصحتي اليوم أكثر من كل يوم . فكأنك تشعر بالخلل الطارىء عليها والذى لم اكشفه بعد لاحد . كنت اظنني من حديد . لكن هذه الآلة العجيبة الصنع والتركيب التى ندعوها الجسد تنتابها علل

شأن كل آلة مركبة من أجزاء كثيرة ، بل ان عللها بعض من اجزائها . فأنا أخذت أشعر فى الايام الاخيرة برعشة فى قلبى ما شعرت بمثلها من قبل . وهذه الرعشة تشتد على فى بعض الاحايين الى حد أن تضيق أنفاسى . فيصعب على أن أصعد الدرج من أسفل البناية حتى منزلى

ــ هل استشرت بشأنها طبيبا يا جبران ؟

ــ انا أكره الطب ولا أؤمن بالاطباء . فهم يرون الجسد أجزاء متعددة ويحـاولون أن يداووا الجـزء جاهلين ان علة الجزء هى علة الكل وأن مصدرها قد لا يكون فى المحسوس بل فى غـير المحسوس . وكيف تداوى ما ليس محسـوسا بالعقاقير والطلاسم الطبية المحسوسة ؟ مع ذلك قد اضطر الى مخابرة طبيب ، لعله يعرف جسدى وعلله خيرا منى

ــ ليس خفقان قلبك الا نتيجة جورك عليه يا جبران : أنصفه ينصفك . أنت تنهشه نهشا بقلمك وريشتك . وأنت تنبش منه كل خباياه لتعرضها على الناس . وتسرق كل دقة من دقاته لتجعلها نغمة فى كلمة أو خطا فى صورة . وأنت تسهر الليل وتقضى جانبا كبيرا من النهار مطاردا قلبك حيثما ارتحل وأنى استقر . وأنت فوق ذلك تجهد ما فيه من لحم ودم بكثرة ما تتناوله من القهوة ودخان التبغ والمشروبات الروحية ، فخفف من كل هذه

ــ الم تر أنى انقطعت عن القهوة بتاتا؟ اماالدخان فسأحاول أن اقلل منه . لكننى لن أستغنى عنـــه . وأما المشروبات الروحية فانى أعتقد أنها تنفع قلبى ولا تضره . لكن الدآء هو اعمق من كل ذلك يا ميشا . وقد لمست بعضه فيما قلته . فماذا أعمل ؟ أأنقطع عن الكتابة والتصوير ـ وهما كل حياتى؟ أأترك « النبى » وهو ما يزال جنينا ــ وهو خير ما حبلت به روحى حتى اليوم ؟ بل سأمضى به حتى النهاية وان انتهت حياتى بنهايته . ولكن قل لى يا ميشا : ما الذى جعلك تكثر

السؤال عن صحتى اليوم ؟ ارأيت شيئا جديدا فى وجهى ؟

فأخبرته أنى رأيت حلما مزعجا ولم أخبره بتفاصيله . وذلك جرنا الى التحدث عن الاحلام وأصنافها . وكان كلانا يؤمن بأن النفس فى النوم تستجلى حالات كثيرة من حالات حياتها على ممر الاجيال . قد يكون بعضها تذكارات سحيقة من ماض سحيق كأحلام الطيران التى تعود بالانسان الى زمان كان فيه طائرا قبل ان يصير انسانا . وقد يكون بعضها أشباح رغائب دفينة لم تظفر بالتحقيق . أو رسوم أو أمور آتية مقررة فى سفر الزمان حيث يلتقى الماضى والمستقبل فى الحاضر الابدى . أو خليطا مشوشا من الماضى والحاضر والمستقبل بما فيه من قلق جسدى وروحى . وفى اكثر الاحوال تكون رموزا تحتاج الى تفسير . ولا يندر أن تأتى جلية كأن يرى انسان فى نومه مدينة لم يرها قط فى يقظته . ثم يتفق له بعد حين أن يزور مدينة مثلها بالتمام

فرويت لجبران حلما رأيته منذ سنين حين كنت طالبا فى روسيا . وكان لا يزال جليا فى ذاكرتى كأنى ابصرته الليلة البارحة . وفسرت رموزه لجبران كما فهمتها وبينت له كيف أن ذلك الحلم كان بمثابة خريطة لحياتى بمعانيهاالواسعة لا بدقائقها الصغيرة . فقال جبران :

ـ أما أنا فلا أزال اذكر حلما حلمته من زمان . وكلما ذكرته ارتعشت . فقد رأيتنى جالسا على صخرة فى وسط نهر واسع المخاضة ، كثير الرغوة ، شديد العربدة ، ليس على ضفتيه أثر لانس أو لجن . ومع انى أحسن السباحة ، لم أكن فى خوف من طغيان النهر . بل كنت اشكر الله لاننى فى مأمن من المياه الصاخبة . وأعجب كيف توصلت الى الصخرة ، وافكر فى كيفية العودة الى اليابسة . وأنا كذلك واذا بأفعى عظيمة هائلة تخرج من النهر وتتسلق الصخرة التى أنا عليها . فترتعد فرائصى منها . وأحاول أن أرفسها .

ثم أمسك بخناقها لادفعها عني ولكن بغير جدوى . أما هي فتأخذ تلتف على دورة بعد دورة . ويشتد ضغطها وثقلها على اضلاعي الى أن تنحبس انفاسي. فأجمع كل قواي لاصرخ طالبا الاغاثة وعندها أفيق من نومي وقلبي يقرع أضلاعي قرعا وقطرات العرق البارد تبلل جبهتي

قلت :

ــ وما تفسيرك لمثل هذا الحلم يا جبران ؟

قال :

ــ فسره كما شئت . اما انا فقد رايت فيه رمزا لحياتي مثلما رايت انت في حلمك رمزا لحياتك

ما ابهت كثيرا للحلم في ذلك الوقت ، ولا اخاله عبر بخاطري مرة بعدها في حياة جبران . أما بعد مماته فلا أكاد اذكر جبران واتفحص معاني حياته الا ذكرت ذلك الحلم ورايت فيه رمزا لتلك الحياة . فالنهر الصاخب هو العالم بأمجاده ومساخره ، وملذاته وأوجاعه ، ورغائبه واطماعه . والصخرة هي حقيقة الوجود الثابتة في تيار الحياة العالمية . وقد أدركها جبران بخياله النشيط واطمأن اليها بروحه . والافعى الخارجة من النهر هي ميول جبران العالمية وتعطشه الى مجد العالم وعظمته وملذاته . وهي التي افسدت عليه طمأنينته الروحية ونشوته الخيالية وقضت على أمنيته الكبرى .. أمنية التوفيق بين أعماله وأقواله والتوحيد بين ذاته الظاهرة وذاته الخفية



في صيف تلك السنة اتفقنا انا وجبران ونسيب عريضة وعبد المسيح حداد أن نقضي عطلة قصيرة في البرية . فانطلقنا في أواخر يونيو الى مزرعة صغيرة تبعد نحو مائة ميل عن نيويورك اسمها كاهونزي . وهي واقعة في قلب غاب تمتد اميالا كثيرة شرقا وغربا وجنوبا وشمالا . فيها أنهار وجداول

وبحيرات ومنخفضات وتلال وأماكن مدغلة قلما تطأها رجل انسان . فى تلك العزلة الطافحة بالسلام ، المعطرة بالسكينة، المكحلة بالجمال قضينا عشرة أيام مرت كعشر دقائق . فقد كنا كأربعة عصافير أفلتت من أقفاصها . أو كأربعة أحداث انعتقوا من المدرسة ومن تهديد معلميهم وأوامر والديهم . وكنا لا نمشي الا معا ولا نأكل الا معا ولا ننام أو نقوم الا فى ساعة واحدة . حتى ان أهل المزرعة والمصطافين فيها اطلقوا علينا لقب « الاربعة الكبار » ـ وهو لقب كان لا يزال شائعا على ألسنة الناس ، وكانوا يعنون به ممثلى الدول الاربع الذين كانت لهم أكبر يد فى تنظيم معاهدة فرساى ـ ولسن ولويد جورج وكليمنصو وأورلاندو . ولا وجه شبه بيننا وبينهم الا من حيث العدد

وكان نسيب عريضة قد خبر تلك المزرعة وضواحيها من قبلنا بسنين . فكان دليلنا فى تجوالنا وتطوافنا . وذات يوم قادنا الى شلال يبعد عن المزرعة بضعة أميال . فما بلغناه حتى نسينا كل مشقة تكبدناها فى الوصول اليه . اذ وجدنا انفسنا فى قعر واد حجبته الاشجار والادغال عن الابصار وكانت تحجبه عن الشمس . كأنه متنسك لا تنقطع صلاته ليل نهار . وفى صلاته دوى الرعد ، وهيبة الوحدة ، ورهبة المثول أمام العزة الصمدانية وجها لوجه

اقتربنا من أسفل الشلال على قدر ما سمح لنا بالاقتراب منه . وهناك وقفنا بضع دقائق كالمسحورين . اشعة الشمس تكوى وجوهنا فيبددها الشلال برشاشه المتطاير فى الهواء كمسحوق دقيق من الماس . وأبصارنا تتغلل فى تجاعيد المياه الغزيرة الهاوية من علوها الشاهق فتردها الوان النور المتكسرة عليها كليلة حائرة . واصواتنا تحاول أن تنطق بما فينا من دهشة فتخنقها هلهلة القطرات المتسابقة الى البحر . والاشجار عن جانبينا تنحنى ثم تستقيم . وتتأود

ذات اليسار وذات اليمين • والأعشاب بينها فى رعشة دائمة

وأخيرا أخذنا نفتش عن مكان نجلس فيه • فرأينا صخرة فى وسط النهر على مقربة من مصب الشلال كأنها معدة لمن كان مثلنا يطلب منادمة المياه الزاخرة فى خلوة من الطبيعة مثل تلك الخلوة . وكان بيننا وبين تلك الصخرة شقة واسعة من المياه المزبدة . لكنها لم تكن لتحرمنا لذة الجلوس على تلك الصخرة . فأخذنا نرمى فى النهر حجارة كبيرة وصغيرة الى ان تيسر لنا أن نجمز من الضفة الى الصخرة

جلسنا على تلك الصخرة ووجهتنا الشلال . ومع أنه لم يكن بيننا ولا واحد يحسن الغناء ، ما شعرنا الا ونحن نغنى . وكان من الواجب ، ان نحن لم نخجل من أنفسنا ، أن نخجل من أصواتنا المتهدجة ترتفع فى آن واحد ومكان واحد مع صوت ذلك الشلال . لكن هو الشلال جنى على ذاته . فلولاه لما ارتفع لاحدنا صوت . اما أغانينا فكانت كلها من الاغانى القومية القديمة المعروفة فى لبنان وسوريا • مثل « العتابا » و « الميجانا » و « أبو الزلف » و « المواليا » . ومن بعدها اخذنا نسرد ما نذكره من الشعر العامى القديم . فأنشدنا جبران « موالا » كان شديد الاعجاب به ومطلعه :

« يا زين عن درب الهوى ضعنا من كتر ما فيكم تولعنا
مشتاق اليكم والمجال بعيد يا ريتنا كنا تودعنا »

والذى زاد فى زهونا وأنسانا خشونة أصواتنا قليل من العرق شربناه ممزوجا برشاش الشلال . وعندما نفد ونفدت بضاعتنا الغنائية نزعنا أحذيتنا وانحدرنا الى النهر ندغدغه تارة بأيدينا وطورا بأرجلنا ، شاعرين كما لو كنا ننزع عنا كل أثقال المعيشة ونطهر أنفسنا من كل أدران الماضى ومخاوف المستقبل



وآن وقت العودة . فودعنا الشلال حاملين صلاته فى

أرواحنا وجمال هيكله بين أجفاننا . ورجعنا أدراجنا سالكين الى المزرعة شعابا تكتنفها الاشجار والادغال . وسار نسيب وعبد المسيح في المقـدمة ومشيت أنا وجبران في المؤخـرة . وبيننا وبين رفيقينا مسافة لا يمكنهما معها سماع حديثنا ولايمكننا سماع حديثهما. وكنت وجبران نتحدث بالانجليزية، شأننا في كل أحاديثنا عن الادب والفن والامور الروحية . وكان حديثنا في قطعة قرأها لى منذ أمد قريب عن المحبة وقال انها ستكون الاولى من سلسلة قطع على شاكلتها ينوى تأليفها ونشرها في كتاب سيدعوه « النبى » . وكان قد سبق لى أن أبديت له اعجابى بتلك القطعة وارتياحى لانتقاله من « التمرد » على الناس وحياتهم الى تفهم أسرار تلك الحياة وكشف ما فيها من جمال ينضح من معين الجمال الكلى . وانتهى بنا الكلام الى الصمت الذى هو أفصح من كل كلام

قطعنا ساعة من الطريق على وقع أفكاره الصامتة . والاشجار عن جانبينا تستقبلنا وتشيعنا صامتة . والطريق تحملنا كأنها بساط من ريح

ونحن كذلك ، واذا بجبران يقف فجأة ويضرب الطريق بعصاه وينادى « ميشا ! » فأقف مثله وألتفت اليه . فأرى بهجة الشلال قد طارت من عينيه وحلت محلها سحابة من الكآبة المريرة . ثم أسمعه ينادى ثانية باسمى ويقول :

ـ ميشا ! انا نبأ كاذب ! I'm a False alarm

ثم يطرق ويعود الى الصمت

من كل الوقفات التى وقفتها وجبران خلال خمس عشرة سنة لست أذكر وقفة كانت أبعد أثرا في نفسي من تلك الوقفة . ومن كل ما قاله لى منذ التقينا حتى افترقنا لم يهزني شيء مثلما هزتني تلك الكلمات الثلاث

أهي الساعات التى قضيناها في منادمة الشلال ؟ أهي روح الكرمة التى شربناها ممزوجة بروحه ؟ أم هى هيبة الحقيقة

العارية المهيمنة فى الغاب دفعت جبران ليقف تلك الوقفة ويفوه بتلك الكلمات ؟ ـ لست أدرى . غير أننى شعرت بروح رفيقى تتعصر من الالم وتستغيث . ولعل الطبيعة التى لا تعرف التكتم والتستر ، فلاتظهر بغير مظهرها ولاتستحيى بحالة من حالاتها ، سطت عليه بكل ما فيها من سحر التعرى والصدق والامتثال ، وبأسرع من لمحة الطرف أثارت كل زوايا قلبه وخزائن نفسه فجعلته يخجل من كل ما تخبأ فيها من ضعف تردي برداء القوة ، وتصنع امتسح بمسحة الجمال ، وشهوة نهمة بدت كأنها العفة الصائمة . فرأى نفسه نبياً كاذبا وهاله أن يكون ذلك النبأ فى حضرة الطبيعة التى لا تعرف الكذب ولا الغش . وهاله أكثر من ذلك أن يكون رفيقه الماشي بجانبه ممن صدقوا النبأ . فلم يتمالك من الاعتراف له . بل لم يجد كالاعتراف لصديقه منقيا لقلبه ومطهرا لنفسه . ولم يجد أفضل من الطبيعة شاهدا على صدق اعترافه

ومثلما هال جبران أن أكون مخدوعا بظواهر حياته عن بواطنها ، هالني أن يمضى فى اعترافه أمامى فيجلد نفسه العاتية المتمردة أمام عينى وينزع عنها دروعها العديدة ، ويتركها عريانة وبلا سلاح . ومن ثم فمن أنا لاقتبل اعتراف نفس وان تكن أختا لنفسى ؟ وقد تكون نفسى أحوج الى الاعتراف منها . لذلك عند ما حاول جبران أن يتوغل فى تشريح « النبأ الكاذب » غيرت مجرى الحديث وأسرعت فى السير

فى مساء ذلك اليوم خرجنا نحن الاربعة نتمشى علىالطريق العمومية ، وكانت الشمس قد غابت وأشباح الغسق قد انتشرت فى الغاب . وكنا فى جدل وأحاديثنا تتنقل بسرعة خطواتنا . ثم أخذنا نتبارى فى تصنيف «القرادى» . وعندما مللناه سكتنا هنيهة كأننا فى هدنة . وفى أثناء تلك الهدنة خطر لى بيت من الشعر فأنشدته على مسمع الآخرين

وهو :
« أسمعيني سكينة الليل لحنا   من نشيد السكينة الابدية »
فما كان من أحدهم الا أن أردف البيت ببيت من عنده على ذات الوزن والقافية . وهكذا رحنا ينظم واحدنا شعرا والآخر يكمله الى أن تمت لنا قصيدة من ثلاثة عشر بيتا . وها أنا أثبتها ، لا لما فيها من كنوز شعرية بل كأثر تاريخي وعلى سبيل التفكهة . ولو سألني القارىء لمن هذا البيت أو ذلك الشطر لاجبته بالتقريب لا أكثر . لذلك أترك له الحق في رد المصاريع الى أي من الاربعة . واليه القصيدة :

« اسمعيني سكينة الليل لحنا   من نشيد السكينة الابديه
وافتحي يا نجوم عيني على   أن أرى بينك الطريق الخفية
واجعلي يا رياح منك بساطا   واحمليني الى الرياض العليه
واخطفي يا نسائم الليل روحي   وخذيها مني اليك هديه
ودعيني هناك أسرح حرا   انما العبد يشتهي الحريه
طال سجني وطال في الاسر يأسي   واحتمالي لحالتي البشريه
أنا ما لي وللورى فارفعيني   ودعيهم في بؤسهم والرزيه
مل قلبي بغضاءهم وهواهم   مل قلبي سبابهم والتحيه
ولساني قد صار يخشى لساني   وجناني أضحى على بليه
وفراشي شوك ونومي ارتعاشا   ويقيني شكا وبري خطيه
وشرابي تعللا وأواما   وطعامي مجاعة روحيه
ولباسي رماد فكري تذريه   رياح تثيرها الامنيه
تلك حالي ـ حرب عوان فان   اظفر فنفسي قتيلة أو سبيه »



ودعنا كاهونزي وعاد كل منا الى نيره . وسافر جبران الى بوسطن ليقضي ما بقي من الصيف مع أخته ماريانا . وكان من عادته أن يصرف موسم الميلاد ورأس السنة وأيام الصيف معها . وكان آخر ما قلته له عند ما ودعته في ذلك الصيف :
ـ دار قلبك يا جبران ، دار قلبك !



جبران والمؤلف (عن يمينه)
في غابات كاهونزي

الفصل الثالث

الفجر

الضبــاب يتبلور

« أخى ميشا

مذ جئت هذه المدينــة وانا أتنقل من طبيب اختصاصى الى طبيب اختصاصى ، ومن فحص دقيق الى فحص ادق . كل ذلك لان هذا القلب قد فقد وزنه وقافيته . أنت تعلم يا ميخائيل ان وزن هذا «القلب» لم يكن قط مطابقا للاوزان ، وقافيته لم تكن البتة مماثلة للقوافى . ولما كان العرض تابعا للجوهر والظل للحقيقة كان من المقرر والمحتوم أن تأتلف هذه الكتلة فى صدرى مع ذلك الضباب المرتعش فى الفضاء ـ ذلك الضباب الذى أدعوه « أنا »

« لا بأس يا ميشا ، فكل ما قدر يكون. غير أننى أشعر بأننى لن أترك لحف هذا الجبل قبل طلوع الفجر . وسيلقى الفجر نقابا من النور والبهاء على كل شىء »

(من رســـالة بعث بها جبران الى من بوسطن فى أواخــر صيف سنة ١٩٢١)

« أنا » ـ هى ألف الوجـــود وياؤه ـ من عرفها عرف كل شىء . ومن جهلها جهل كل شىء . من عرفها عرف لذةالالم وتذوق الطمأنينة الروحية حتى فى أنكد حالاته . ومن جهلها جهل مرارة اللذة ولم يعرف سوى الالم حتى فى أســـعد أوقاته . والفرق بين الناس ليس على قدر ما يملكه ذاك او هذا من مال أو عقار أو جاه أو موهبة او صيت او سلطة وما اليها من صنوف التفاوت البشرى . بل الفرق على قدر ما يضيق الواحد منهم « أنا » ويوسعها الآخر

ما الفرق بين القائل : « من ضربك على خدك الايمن حول له الايسر كذلك » وبين القائل : « عين بعين وسن بسن » الا الفرق بين من أدرك أن كل « انا » منبثقـــة من « أنا » الشاملة . فهى شاملة مثلها . فالضارب والمضروب فيهـا واحد . وبين من حصر « أنا » ضمن حظيرة من الاوهام فراح يثأر لها من كل متعد عليها جاهلا أنه المتعدى والمتعدى عليه . وأنه يثأر من ذاته لذاته • وما الوحى الا انفتاح كوة فى الروح تنفذ منها أشعة « أنا » الشاملة وتبدد ضبـــاب الفردية المحصورة فتبصر الروح ذاتها واذ ذاك فما « القضاء » الا مشيئة الكل ، فى الكل ، وللكل . فهو فوق خيرنا المحصور وشرنا المحدود • ولا « القدر » الا ما تحتمه النفس على ذاتها ما دامت مصرة على الاحتفاظ بالضباب الذى ندعوه « انا »

غير أن سواد الناس لا تزال كوى أرواحهم مغلقة دون اشعة « أنا » الشاملة . ولذلك لا يزال ما يدعونه « أنا » ضبابا • ولذلك كان كل ما يصدر منهم ضبابا فى ضباب • وكانت حياتهم مقايضة مستمرة بين اللذة والالم . أما الذين انفتحت كوى أرواحهم فأبصروا انفســـهم فى كل نفس ، واتصلت حياتهم بكل حياة ، وطبقوا أعمالهم على أفكارهم . فهؤلاء هم رسل الحق وهداة البشرية اليه . ولا عجب لو عبدهم الناس . فهم قد اكتشفوا الاله فى الانسان

هل عرف جبران الوحى ؟ لقد عرفه مثلما عرفه كل ذى خيال طليق، فأنت تلمح له وميضا متقطعا فى بعض مقالات «دمعة وابتسامة » ثم يغيب عنك ذلك الوميض من بعد ان استسلم جبران لسحر نيتشه فثار على الناس وكاد يغرق فى رغوة ثورته ويختنق بعجاج معاركه من غير أن يغرق أحــدا من الناس أو يخنق طقسا من طقوسهم . فكأنه فى تلك الفترة من حياته الروحية والادبية كان يثير حربا ــ بل حروبا ــ انما على جبهات مختلفة . فعلى الجبهة الواحدة كان يحارب

الفقر . وعلى الاخرى الادب والفن لينال منهما القسط الذى كان يحسبه من حقه . وعلى الثالثة الناس ليحملهم على اكبار أدبه وفنه • وعلى الرابعة قلبه ومن احتله أو حاول احتلاله من النساء . فكان فى شغل عن جوهر « انا » الشاملة وموحياتها . بل انه أوصد دونه كوى روحه بما اثارته من حروبه العنيفة من عثير وضباب

لكنه ، بعد أن تحصن من الفقر ولو بعض التحصن ، وتمكن من أدبه وفنه ، وآنس من الناس ارتياحا اليهما ، واستقر قلبه على حب امرأة واحدة ، ثاب الى نفسه يسترشدها ويستفسرها ويفتح كواها لاشعة الوحى . فلم ترذله نفسه ولم تخيبه . بل راحت تعظه وتعلمه وتصوغ له من الضباب الذى كان يدعوه « أنا » جوهرة نورانية تنعكس فيها كل ذات من غير أن تحدث أقل تعكير فى صفائها ، أو أقل تشويش فى جمالها :

« وعظتنى نفسى فعلمتنى وأثبتت لى اننى لست بأرفع من الصعاليك ولا أدنى من الجبابرة . وقبل أن تعظنى نفسى كنت أحسب الناس رجلين : رجلا ضعيفا أرق له أوازدرى به ، ورجلا قويا أتبعه أو أتمرد عليه • أما الآن فقد علمت أننى كونت فردا مما كون البشر منه جماعة • فعناصرى عناصرهم وطويتى طويتهم . ومنازعى منازعهم ومحجتى محجتهم . فآن أذنبوا فأنا المذنب . وان أحسنوا عملا فاخرت بعملهم . وان نهضوا نهضت واياهم ، وان تقاعدوا تقاعدت واياهم »

ان بين هذا القول وقوله : « اننى أكرهكم يا بنى أمى لانكم تكرهون المجد والعظمة » لوهدة عميقة . ولكنهما ، على كل ما بينهما من التناقض ، موجتان من بحر واحد . فجبران الذى يكره الناس القانعين من حياتهم بغير المجد والعظمةهو نفس جبران الذى يرى ذاته شريكا لكل أثيم فى اثمه • ولكل

عبد فى عبوديته . ولكل ضعيف فى ضعفه . ذاك جبران فى عالم الظواهر . وهذا جبران فى عالم البواطن . ذاك ضباب يعميك عما فيه من نور • وهذا نور ينسيك ما حوله من ضباب . ذاك هو القشرة ، وهذا هو اللب

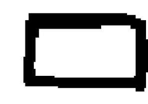
هكذا خمدت ثورة هذا الثائر الذى كان يدعو نفسه ، ويباهى اذا ما دعاه الغير ، ثائرا ومتمردا . وهل الثورات بكل أنواعها غير فوران تلهيك رغوته عن صريحه ؟

ما اتسعت ذات إنسان فعانقت الذات الجامعة آلا رآه مضطرا الى نبذ كل محدود ومحصور . ومتى نبذ الانسان المحصور والمحدود أصبحت عنده كل مقاييس الناس وموازينهم الاعيب صبيانية . فأصبح لا يرى العلة الا رأى فيها النتيجة . أو البداية الا أبصر فيها النهاية . وبكلمة اخرى أصبح لا يرى الا دوائر وأشكالا كروية حيث يرى غيره خطوطا مستقيمة ومكسرة ، ومسطحات ومربعات ومكعبات. فصار لا ينطبق منطقه على منطق الناس . ولا يماشي فكره أفكارهم . هم يخاطبونه بعقولهم واستنتاجاتها وهو يخاطبهم بخياله وومضاته . فاذا ما رأى قاتلا وقتيلا قال فى كليهما أنه القاتل والقتيل فى وقت واحد • واذا ما سمع منشدا ونائحا كان الانشاد والنوح عنده سيين على حد قول المعرى :

«وشبيه صوت النعى اذا قيس   بصوت البشير فى كل واد»

وقد تعجب ، مثلما أعجب ، لهذا الخيال الشرقى كيف أنه ينفذ أبدا من البدايات الى اللابداية • ومن النهايات الى اللانهاية • ومن المحسوس الى غير المحسوس • فمذاهب الشرق كلها ، على وفرتها واختلافها فى الظاهر ، تلتقى فى ذلك الجو الفسيح حيث المسبب والمسبب واحد • وكل ذى خيال طليق لابد من ان يدرك ذلك الجو بخياله . ولكن الويل كل الويل لمن كان خياله أنشط من ارادته • فهو كالطيارة التى يطلقها الاولاد فى الهواء مشدودة بخيط فى أيديهم • فلا تتذوق حرية الفضاء

حتى يجذبها الخيط الى عبودية الارض • ومن كان كذلك لن يتحرر من ربقة الارض ولا بالموت • تلك كانت حال جبران مع خياله وارادته . والمجد كل المجد لمن كان نشاط ارادتهم كنشاط خيالهم • هؤلاء ، وان مشوا بأرجلهم على الارض ، فقلوبهم أبدا فى السماء • وهم قد تحرروا من الموت قبل أن يموتوا • وما أقل ما هم فى تاريخ البشرية !



« ميشا • ميشا ! نجانى الله واياك من المدنية والمتمدينين • ومن أمريكا والامريكيين • ونحن سننجو باذن الله • وسنعود الى قمم لبنان الطاهرة ، وأوديته الهادئة • وسنأكل من عنبه وبقوله ، ونشرب من خمره وزيته • وسننام على بيادره، ونسرح مع قطعانه ، ونسهر على شبابات رعاته وخرير غدرانه • ـ ما بالك لا تدخن ؟ أشعل سيجارة ، ولا تخش من الدخان أن يحجب وجهك عنى • ـ أمل رأسك الى اليسار قليلا • هكذا هكذا ـ آه ! لقد صح لى النور الذى أرغب . وسأنتهى منك بأقل من ساعتين • ـ التصوير كالنظم يا ميشا : اذا تملكك الموضوع واهتديت الى القالب المناسب نظمت القصيدة بسرعة وبغير عناء ، فكأنها نظمت ذاتها كذلك اذا آنست ممن تصوره ، أو فيما تصوره ، قوة تستفزك الى التصوير ، فالصورة تصور ذاتها فتصبح الريشة فى يدك بعضا من يدك • وتصبح أناملك كأن فى رأس كل منها عينا • وكأن كل هذه العيون تبصر بحدقة واحدة • استرح قليلا اذا كنت قد تعبت »

كنت جالسا فى كرسى على دكة التصوير • وعلى مقربة منى المنصب • وعلى المنصب لوحة من الكرتون الابيض بقياس ٤٢ × ٥٥ سنتيمترا • وجبران يصورنى عليها بقلم من رصاص حسب عادته مع كل من صورهم فى حياته من الرجال والنساء . ومنهم رودين ، وطاغور ، وميسفيلد ـ شاعر بريطانيا ـ والمصور الامريكى ريدر ، والكاتب الاسوجى سترندبرج

وسواهم • مكتفيا بتصوير الرأس لا غير
كنت أرقب حـــركات جبران وهو يصـــورنى فتدهشنى بسهولتها ورشاقتها • فكان بعد أن يحدقنى هنيهة يهجم على المنصب بقلمه الرصاصى الذى لم يكن يتجاوز الاربعةالقراريط ويعمله فى لوحة الكرتون . ثم يأخذ ينقل بصره من اللوحة الى وجهى ومن وجهى الى اللوحة • ثم يبتعد قليـــلا عن المنصب ويأخذ يزورنى تارة واللوحة أخرى ثم يعود الى اللوحة بقلمه أو بالماحى (المحاية) الذى لم يكن أكبر من حبة الفول • وبعد أن يفركه بين ابهامه والسبابة حتى يتكون له رأس كرأس القلم يأخذ يصلح به بعض الخطوط أو الظلال،وكثيرا ماكان يستعيض عن الماحى بأصبعه ــ بالسبابة أحيانا وأحيانا بالوســـطى ــ ليخفف من ظل أو ليمد ظلا • كل ذلك ووجهـــه مشرق بلذة العمل ، ولسانه جذل يجارى بالسرعة قلمه • وأنا اذ آنست منه تلك الرغبة فى الكلام ، تركت له الحديث•فما كنتأقاطعه الا لأستزيده

ــ ليس يتعبنى من كل من أصورهم مثل النساء يا ميشا • فقلما ترضى الواحدة منهن بصورتها كما تراها عينى ويبرزها قلمي • لانها ، ان تكن عليها مسحة من الجمال ، تتوقع منى أن أصورها أجمل من فينيس • وان تكن خلوا من الجمال ، تحسب من واجبى أن أجعلها جميلة•وأنا لا أسخر فنىلأحد• فالمعانى التى أراها فى الوجه الذى أمامى هى التى أصورها . والوجه يعكس كل معانى الروح لمن يعرف كيف يستجليها • والفن كل الفن فى تصويرها ، فهى مركبة مندقائق لا تحصى• تبصرها عين الفنان اذا كان أهلا لان يدعى فنانا وقلما تبصرها حتى عين صاحبها • أما الآلة الفوتوغرافية فعمياء عن الـكثير منها . ولو لم يكن الامر كذلك لقامت الآلة الفوتوغرافية مقام الفنان • لكنها لا ولن تقوم مقامه • ومن الآن حتى انقضـــاء الدهر لن تقوم آلة مقام انسان

« لابد يا ميشا ، لابد لى ولك من الرحيل عن هذه البلاد . فالويل لمن كان مجهولا فيها لانه ليس أثمن من خرقة. والويل لمن نال فيها ولو بعض الشهرة لانه يصبح مثل ممسحة . أنا اليوم ممسحة يا ميشا . ونفسى تطالبنى بعزتها . وفكرى يطالبنى بحريته . وجسمى يطالبنى براحته . ولن أستعيد عزة نفسى وحرية فكرى وراحة جسمى الا فى لبنان. ولو كنت تعرف الصومعة التي اخترتها لى ولك هناك لكنت تجذبنى من يدى فى هذه الدقيقة وتقول : هيا بنا اليها . هى صومعة أصلية يا ميشا لا تقليدية كصومعتى هذه »

فقلت بلجاجة :

ـ هات أخبرنى عنها بالتفصيل

ـ هى دير مهجور فى ضاحية من ضواحى بشرى اسمه مارسركيس قائم فى جبهة وادى قاديشا ، فى سفح جبل الأرز. أما غرفه القليلة ، ومنها كنيسة صغيرة ، فمحفورة حفرا فى قلب الجبل الكلسى . وأمامه منحدر من الارض لا تزال فيه بعض أغراس قديمة من الكرمة . هى خلوة يا ميشا لا أظن فى السماء أجمل منها . وأنا قد فوضت محاميا فى طرابلس ليبتاعها لى لكننى أخشى من الرهبنة ـ قاتل الله الرهبان والراهبات ـ أن تمتنع عن بيعها لى . لاننى ، كما تعلم ، رجل كافر فى نظر الرهبان والراهبات . مع ذلك ، لى ثقة كبيرة بصديقى المحامى . فهو لا شك سيدير الامر بحنكة ودراية

« هناك سنعتزل العالم يا ميشا . وسنحلم ما طاب لنا أن نحلم . وسنكتب ما شئنا أن نكتب . وسنقتنى مطبعة كاملة المعدات نذيع بواسطتها أحلامنا على الناس. وسنجعل من الطباعة فنا جميلا . وسنعمل فى الارض فنحول اليابس منها أخضر . والقاحل خصبا . وستباركنا الرياح ، وتفرح بنا الشمس ، ويحمل الينا الوادى أنفاسه الملهمة »

قلت وقد شاقنى وصف جبران لتلك الصومعة ، وأيقظ فى

نفسى أمنية قديمة عميقة :

ـ نحن اليوم فى نوفمبر من سـنة ١٩٢٢ • فما قولك لو استقبلنا ربيع السنة القادمة على كتف وادى القديسين ؟

فأجابنى ، وكان فى جوابه شيء من التردد . وكان تردده كالماء تصبه على نار متأججة :

ـ لى علاقات كثيرة هنا لا يمكننى قطعها فى شهر أو أشهر• وعندى بعض أشغال لابد من تتميمها • ومنها نشر كتـابى : النبى

قلت :

ـ ما زلت ههنا فعلاقاتك تزداد من يوم ليوم • وما دامت لك اليوم أشغال لا يمكن انجازها فى لبنان فستبقى تولد لك أشغالا جديدة من نوعها • فلا تسـكن مار سركيس الا فى أحلامك

ـ لا بل سأسكنه ـ سنسكنه يا ميشا ـ بالجسد • اذاكنت قد مللت هذا العالم ـ عالم الماكينات والخيالات ـ فأنا قدمللته مثلك وأكثر • وأنت وأنا لم نجد منه ملجأ أجمل وأهنأ وأقدس من مار سركيس • وأنت ستحب تلك الصومعة مثلما أحبها

قلت :

ـ لقد جعلتنى أحبها منذ الآن • وستزورها أحـلامى مرارا عديدة قبل أن تزورها عيناى وتطأ ترابها قدماى . ألا قربنا الله منها أو قربها منا

تحدثنا طويلا فى مار سركيس • ولا شـك فى أن الاقدار التى كانت تصغى لحديثنا كانت تضحك منا • لانها كانت تعلم أن جبران لن يدخل تلك الصومعة الا محمولا على الايدى ، وفى نعش من صنع تلك الماكينات التى كان يود أن يهرب منها . واننى لن أزورها لانقطع فيها الى التأمل . بل لأطرح سلامى على جثمان رفيقى معطر بأنفاس طاقة جمعتها بيدى من أزهار جبل الارز المقدس

المصطفى

عندما أطل جبران بخياله على عالم الوحدانية الكاملة ،حيث الحياة ألفة أبدية ، تضاءلت في عينيه كل العوالم التى سكنها من قبل والتى كان يحسبها حقيقة ولم تكن الا وهما ٠ وصار اذا ما ذكرها فكما يذكر الطائر قشرة البيضة التى نقف منها . أو كما يذكر النهر الصخور والادغال والاوحال التى مر بهـا قبل أن يبلغ البحر ٠ أو كما يذكر من تسلق جبـــلا الاودية والهضاب التى اجتازها قبل أن يدرك القمة ٠ وصـــار كيفما أطلق خياله فى جو عالمه الجديد رأى كل ما فيه يعانق بعضه بعضا عناق محبة لا حواجز فيها ولا حد لها. فراح يمجد الحياة ــ وقد دعاها من قبل عاهرة ــ ويهتف من اعماق قلبه :

ــ ما أكرم الحياة وما أسنى هباتها !

« ليت لى ألف يد منبسطة امام السماء والارض بدلا من هذه اليد المستحيية القابضة على حفنة من تراب الشاطىء »

ويشتهى لو كان له ألف عين ليرى كل ما فى الحياة من جمال ٠ وألف أذن ليسمع كل أنغامها الساحرة ٠ ولانه شاعر ــ وداء الشاعر بث مشاعره وأفكاره بالكلام ، ولانه مصور ــ ومحنة المصور تصوير ما يراه من الحيـــاة ، راح يفكر فى « كيف » يخبر الناس بالكلام والخطوط والالوان عن الجمال الذى رآه فى عالمه الجديد

و « كيف » هذه ذات قيمة عظيمة فى نظر الشاعر والفنان ٠ اللهم اذا كان الشاعر شاعرا والفنان فنانا . فهى من الشعر

والفن بمثابة الجسد من الروح • وهى لا تنحصر فى تنميق الكلام وتنسيق الخطوط والالوان • بل هى القالب الذى يفرغ فيه الكلام من بعد التنميق ، والخطوط والالوان من بعد التنسيق • والفنان يعنى بقوالبه عنايته بما يسكبه فيها من روحه ، لعلمه أن جمال القالب يزيد فى جمال ما يسكب فيه • لذلك عندما تنسم جبران بخياله جمال الروح الكلى ، وشاقه آن يخبر الناس عنه ، كان همه الاكبر أن يخلق القالب الفنى اللائق به . فما هو القالب الذى خلقه ؟

لقد خلق جبران رجلا دعاه « المصطفى » وجعل روحه نيرة الى حد أن سامعيه كانوا يخاطبونه « يا نبى الله » • وفى انتقاء الاسم وحده ما يحمل على التجلة والاحترام • فكلمة تسمعها من فم انسان عليه وشاح النبوءة لأكبر وقعا بما لا يقاس من الكلمة عينها تسمعها من رجل عادى . وهكذا ، بكلمة واحدة ، رفع جبران الفنان قيمة شعر جبران الشاعر الى مستوى النبوءة حتى قبل أن يفوه به

لكن جبران الفنان عرف كيف يخلع على مصطفاه وشاح النبوءة. فهو يبرزه لك رجلا غريبا فىمدينة اسمها «اورفاليس» صرف فيها اثنتى عشرة سنة فى انتظار سفينته التى كانت قادمة لتعود به الى الجزيرة التى هى مسقط راسه . ثم يصعد به اكمة خارج المدينة حيث يبصر سفينته مقبلة فى الضباب . فيفتح لك قلبه ويريك ما يتمايل فيه من العواطف المتضاربة بين لذة الانعتاق من الغربة وألم الوداع • فتفهم الى أى حد أحب مدينة غربته وأهلها والى أى حد أحبوه • ومن بعد ذلك يهبط به المدينة•واذ يبصره أهلها ويدركون أنه مودع يتركون كل أعمالهم ويتقاطرون اليه ويلحون عليه بالبقاء بينهم . فلا يجيبهم الا بالصمت والدموع .وأخيرا يسير واياهم الى الساحة الكبيرة أمام الهيكل • وهناك تخرج من الهيكل رائية اسمها « الميترا » • فيرمقها المصطفى بحنان كلى « لانها كانت أسبق

الناس الى اكتشـــافه والايمان به حين لم يكن قد مر عليه فى مدينتهم الا يوم واحد »

الميترا هذه تدرك ان لا مرد لعزم المصطفى لانها تعرف عظم شوقه الى « أرض تذكاراته ومسكن أمانيه الكبرى » فتطلب اليه أن يحدثهم قبل الوداع عن أنفسهم وعما عرفه بالوحى من كل ماهو بين الولادة والموت ، بادئة بالحب او المحبة . وهكذا تفتح المجال فسيحا للمصطفى ليكشف لســـامعيه علائقهم بعضهم مع بعض ومع الحياة ، لا كما يرونهـا بأعينهم المقنعة بالاوهام ، بل كما يراها هو بعين روحه الصافية فى عالم الروح الصافى . فيمضي فى حديثه الطلى . ولا ينتهى من علاقة حتى يسأله بعض السامعين أن يحدثهم فى أخرى . وبعد أن يلقى عليهم خمسا وعشرين موعظة فى خمس وعشرين جهة من جهات الحياة الانسانية يودعهم مؤثرا وينصرف عنهم الى بلاده



هذا هو القالب الذى اختاره جبران ليسكب فيه خلاصـــة أفكاره فى الناس وحياتهم • وهو ، كما ترى ، قالب جميـــل يليق بما يحمله ، وما يحمله يليق به • لكنه ــ ويا للاسف ــ لم يكن كله من صياغة جبران . فشكله الاجمالى مستعار من نيتشه وزرادشت . فكأن جبران الذى تخلص من سطوة أفكار نيتشه لم يتخلص من سطوة أساليبه البيانية والفنية . ولم يكن يعلم أنه لم يتخلص

نيتشه اتخذ زرادشت ــ وهو نبى ــ بوقا لافكاره. وجبران اتخذ نبيا دعاه « المصطفى »

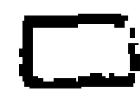
زرادشت نيتشه يسير غريبا بين الناس ناثرا عليهم أفكاره . وعندما تتعب روحه من الغربة بينهم وتحن الى العزلة الملهمة يتركهم ويعود الى «جزائره السعيدة» . ومصطفى جبران ينثر مواعظه على الناس ثم يعود بعد غربته بينهم الى « الجزيرة التى هى مسقط رأسه »

زرادشت نيتشه يودع تلاميذه فى آخر القسم الاول من الكتاب ويقول لهم فيما يقوله : « وأنا لن أعود اليكم الا متى انكرتمونى كلكم » ومصطفى جبران يودع اصحابه قائلا فى بعض ما يقوله لهم : « أما اذا تلاشى صوتى فى آذانكم ، وطار حبى من ذاكرتكم ، فانى عائد اليكم مرة ثانية »

زرادشت نيتشه ، فى أول القسم الثالث ، يتأهب للعودة من الجزائر السعيدة الى العالم • فيصعد جبلا عاليا وفى صعوده يكشف قلبه وآلامه . ثم يشرف على البحر فيخاطبه هكذا : « وأنت أيها البحر القاتم ، الحزين ، المنبسط تحتى ! أيها القدر وأيها البحر ! اليكما أنحدر الآن » ومصطفى جبران يصعد هضبة خارج اورفليس ويخاطب قلبه طويلا ثم يرى البحر فيخاطبه هكذا : « وأنت أيها البحر الشاسع ، أيتها الأم الهاجعة ، فيك وحدك السلام والحرية للجدول وللنهر • سيدور هذا الجدول دورة بعد • سيهمس بعد همسة فى هذه الغاب • ومن بعدها سآتيك قطرة لا تحد الى محيط لا يحد »

وكما أن زرادشت هو نفس نيتشه ، كذلك المصطفى هو نفس جبران • وكما أن نيتشه طرح على زرادشت نقابا من التمويه الرمزى والمجازى يحجبه عن عيون الذين يجهلونه من قارئيه ، هكذا طرح جبران على المصطفى نقابا من المجاز والرموز يحجبه عمن ليس يعرفه • أما من عرف جبران كما عرفته فلا يصعب عليه أن يراه ويرى بعض ظروف حياته وكل أشواقه فى المصطفى وظروفه وأشواقه • فما اورفليس التى كان فيها غريبا يترقب رجوع سفينته الا نيويورك أو أمريكا . وما « الميترا » التى اكتشفته وآمنت به قبل كل الناس الا مارى هاسكل • ولا « الجزيرة » التى كان يشتاق العودة اليها غير لبنان • ولا وعده لأهل اورفليس بأنه سيعود اليهم سوى ايمانه بعقيدة التناسخ القائلة ان الموتى الذين لم ينهوا دورة

الحياة الكاملة يعودون حتما الى الارض ليجددوا عليها ويكملوا العلائق التي تركوها عند موتهم • ولك ، ان أنت شئت ، أن تتخيل في غربة المصطفى في اورفاليس غربة الروح عن ربها أثناء دورتها الارضية • وأن ترى في عـودته الى « الجزيرة » عودته الى مصدر الحياة الأسمى•فالشاعر يترك المجال فسيحا لخيالك • وفي ذلك سر من أعظم أسرار فنه



لئن دفع جبران في كتابه « النبي » جزية كبيرة لنيتشه من حيث القالب فهو من حيث الروح التي سكبها في ذلك القالب لم يدفع جزية الا لخياله . أما تلك الروح فهي من ينبوع الروح الفياضة الذي تستقي منه كل روح • فاذا ما رأيت تشـابها فائق الحد بين ما يبديه جبران من النظرات بلسـان المصطفى وبين ما تقرأه من آثار بعض الصـوفة ، وبالاخص في كرازة بعض الانبياء والرسل ، فلا تتسرع بحكمك على جبران ولا تقل أنه قد نقل ما ليس له • بل قل انه قد تناوله بخياله، من حيث تناوله من قبل ، ويتناوله اليوم ، كل خيال انعتق من كابوس المقاييس والموازين وجميع ما تقيسه من المحدودات المتناقضة• فهو من هذا القبيل لم يأت بشيء جديد ـ وهل من جديد تحت الشمس ؟ لكنه قال ما قاله بأسـلوب يكاد يكون جـديدا بنضارته ، وانسجامه ، وجمـال ألوانه واتسـاقها ، ووفرة أنغامه وائتلافها ، مع قلة كلامه ، وقوة الحياة النابضة في كل نبرة من نبراته ، وسكتة من سكتاته . حتى انك لو شئت أن تجد فيه عيبا يستحق الذكر لما استطعت • الا اذا قصـدت التنكيت والتعنت • أو كنت ممن لا يستسيغون كثرة الطلاء في الكلام • فقد نعيب عليه وفرة المجاز والاستعارة والكناية • وحينئذ ليس أسلوب « النبي » عندك غير طلاسم في طلاسم • لان جبران في هذا الكتاب ، أكثر منه في أي كتاب آخر ، بلغ أقصى مقدرته الفنية في انتقاء التشابيه المبتكرة وابتـداع

الاستعارات والمجازآت الناتئة كتماثيل محفورة فى صخر • لكنها تماثيل مبهمة لمن لاميل فيه الى مثل هذا النوع من الفن• أو لمن حرم التمتع بها فى حلتها الانكليزية • فهى فى الترجمة تفقد الكثير من روعتها وطلائها لاسيما اذا كان المترجم قليل الحظ من الذوق الفنى وقصير الباع فى اللغة التى يترجم منها أو اليها

وماذا الذى قاله جبران بلسان نبيه ؟

فى « النبى » أشرف جبران بخياله على الحياة فرأى جوهرها واحدا وهو المحبة • ورأى الناس شركاء أسواء في جوهرها لايتميز واحدهم عن الآخر الا بقدر ما أدرك الواحد ذلك الجوهر وجهله الآخر • وهذا الجوهر يذيع ذاته لكل الناس على السواء• لكن بعضهم لا يسمعه ولا يبصره لكثرة ما فى أذنيه من أصوات الحس المشوشة ، وما على بصره من غشاوات الوهم الكثيفة • أما الذى طهر أذنيه من جلبة الحواس الخارجية ومزق غشاوات الوهم عن بصيرته فليس يسمع أو يبصر من الحياة الا جوهرها الصافى • وعندئذ فهو لا يحب بعضها ويكره بعضها بل يحبها بكليتها ويتمثلها فيصبح واحدا واياها

لذلك يقول المصطفى لأهل اورفليس : « اذا ما أحببتم فلا تقولوا : ان الله فى قلوبنا • بل الأحرى بكم أن تقولوا : اننا فى قلب الله »

ومن كان فى قلب الله هل يرى من فاصل بينه وبين انسان ؟ أولا يصبح كل انسان فيه وهو فى كل انسان ؟ ومن كان كذلك كيف له أن يقول : أعطيت فلانا أو أخذت من فلان ؟ أوليس هو الآخذ عندما يعطى والمعطى عندما يأخذ ؟ واذ ذاك ففضل من يعطى كفضل من يأخذ ــ لا أكثر ولا أقل

ومن كان فى قلب الله كيف له أن يدين أثيما باثمه ؟ أفى الله اثم ؟ ــ حاشا • انما الاثم فى الانسان الذى لم يتوصل بعد الى ذاته الالهية • والناس فى الاثم سواء :

« أنتم لا تقدرون أن تفصلوا بين العـــادل والظالم ، وبين الصالح والشرير • من شاء منكم أن يرفع الفأس على شـجرة ليقطعها باسم الصلاح عليه أن يتفقد جذورها أولا • الحق أقول لكم أنه يجد الجذور الصالحة والطالحة ، والمثمرة وغير المثمرة ، ملتفة معا في قلب الارض الصامت ••• وكما أن ورقة واحدة على الشجرة لا تصفر الا بمعرفة الشجرة كلها ، هكذا لايرتكب أحدكم جريمة الا بارادتكم الخفية المشتركة »

ومن كان في قلب الله كيف له أن يقيم حواجـــز بين شيء وشيء ، حتى بين نفسه وبين ما يأكله ويشربه ؟

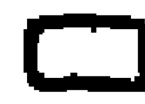
« ليت لكم أن تحيوا بأريج الارض ••• ولكنـــكم ما دمتم مضطرين الى القتل لتأكلوا ، والى سلب صـــغار البهائم حليب امهاتها لتطفئوا عطشكم،فليكن أكلكم وشربكم نوعا من العبادة. ولتكن موائدكم مذابح تقدمون عليهـــا الطـــاهر والبريء من مواليد الغاب والسهل ذبائح لكل ما هو أطهر وأكثر براءة منه في الانسان ••• وعندما تذبحون بهيمة قولوا لها في قلوبكم: انّ القدرة التي تذبحك تذبحنا•••وما دمك ودماؤنا الاالعصير الذي يغذي شجرة السماء »

الى مثل هذا المستوى يرفع المصطفى سامعيه • مستعينا في حديثه بالطبيعة ومظاهرها • وماسحا لهجته بمسحة ظاهرة من لهجة بعض أسفار « العهد القديم » ومستعيرا من الانجيل بعض الرموز والقوالب اللفظية مثل : « لقد قيل لكم كذا وكذا أما أنا فأقـــول لكم كيت وكيت ••• والحق أقول لكم » وسواها • الا أنه يفعل كل ذلك بحذاقة ولباقة وفن تنسيك ما في حديثه من مستعار ، وتحملك على أجنحة قوية سريعة الى حيث تقصد أن تحملك • فلا تودع المصطفى الا تحس بأنه قد أودع حشاشتك حشاشة السنين التي صرفها في التأمل والألم• وانه ـ ان كنت مغمض الروح ـ قد فتح في روحك كوة واسعة تطل منها على الروح الكلي

وضع جبران لكتابه « النبى » اثنى عشر رسما .عشرة منها بالأدهان المائية وآثنان بالرصاص ، وهما رسم المصطفى فى أول الكتاب و « اليد المبدعة » فى آخره . أما المصطفى فأول ما يستوقفك من وجهه عينان واسعتان ذاهلتان تبدوان كأنهما لا تنظران الى شيء ولكنهما تبصران ما هو أدق من الاشـــياء وأقصى من مجال الأبصار. ثم تنظر الى فمه بشفتيه المتلاصقتين فتكاد تحسبهما متورمتين بحمى الشهوات الجسدية لولا ما فيهما من حزن عميق وصمت يترفع عن الشهوات وكل ما فيها من ضوضاء النزاع والغيرة والاستقتال . وعلى الوجه كله ، بما فى تقاطيعه من صلابة وقوة ، تطفو سحابة شــفافة من الكآبة القصوى التى تكاد تلامس الفرح الأقصى . أما الشعر فقـد انسدل على جانبى الوجه الى تحت الذقن بسهولة وخفة ونعومة تنسيك أنه شعر وتجعله يبدو كهالة من نور . هو وجه تحدق اليه طويلا فترى فيه ميدان عراك عنيف بين ما استتر تحتـه من أهواء الارض وأشواق السماء وترى الغلبة بجانب السماء. لكنها غلبة لم تلتئم بعد الجراح التى سببتها . ولم تلحد بعد الاشلاء التى تركتها مبعثرة فى ساحة القتال

وأما « اليد المبدعة » فيد منبسطة تكاد تلمس قوة الفن فى كل أصبع من أصابعها . وفى وسط كفها عين مفتوحة تبصر كل شيء . ومن حولها دائرة من الاجنحة المتلاصقة بأطرافهـا وكأنها فى زوبعة من الحركة السريعة . ومن حـول الاجنحـة سديم أو ضباب تطوقه دائرة من الاجســام البشرية المشتبكة بعضها ببعض . هــذه يد الله . فى لمسها بصر . وفى بصرها خيال . تتخيل الاشكال قبل أن تكونها . ثم تلمس الســديم فتكون الاشكال .ولعل جبران عندما رسم هــذه اليد ، عاد بالذكرى الى « يد الله » من صنع رودين.لكنه اذا ما أخذ منها الفكرة الاساسية ، فقد أعطاها من فنه كيانا استقلت به كل الاستقلال عن يد رودين

ما بقى من الرسوم قد جاء بمثابة تعليق على المتن ، وأحيانا بمثابة متن فوق المتن ، فيه رموز بعيدة ، وانسجام فني بديع. ولكن في تقاطيع بعضه نعومة تبلغ درجة من الاسترخاء والانوثة قد تستحبها في فن امرأة الا أنك تستهجنها في فن رجل . أما من حيث قوتها الرمزية ، والفكرة التي ترمي اليها ، فلا يسعك الا أن تجلها وتكبر الخيال الذي تخيلها واليد التي أبرزتها أمامك أشكالا محسوسة . مثال ذلك رسم الألم . وهو يمثل امرأة مصلوبة على صدري رجلين تحبهما بالسواء أو يحبانها بالسواء . فلا هي تستطيع أن تقسم قلبها بينهما . ولا الواحد منهما يرضى بأقل من قلبها كله . ولعمري هل من ألم أشد من ألم الحب الذي يصبح صليبا للمحب ؟ بل هل أعذب من الحب يقود المحب الى آلام الصليب ، ومن آلام الصليب الى غبطة المحبة العلوية ؟



قبل أن سلم جبران « النبي » الى الناشر بشهر أو شهرين أعطاني نسخة منه مكتوبة على الآلة الكاتبة . وأرسل مثلها الى ماري هاسكل لتنظر فيها وتهديه الى كلمات قد يكون أساء استعمالها أو عبارات قد لا يكون قالبها انجليزيا بحتا . وتلك كانت عادته معها في كل كتاباته الانجليزية . أما النسخة التي أعطاني اياها فكان قصده منها ـ وان لم يكشفه لي بالتمام ـ أن أدرس الكتاب درسا وافيا وأقول فيه كلمة عند صدوره . وكان قد قرأ لي كل موعظة من مواعظه حال فراغه من تأليفها ـ ما خلا الفاتحة والخاتمة . لكنني بعد أن قرأت الفاتحة والخاتمة ورأيت جبران يحدث عن نفسه في تلك وهذه استنكرت منه أن يصور نفسه « نبيا » حتى تحت نقاب من التمويه الفني . فلو أنه اتخذ من المصطفى بوقا لا غير لافكاره وأشواقه لهان الأمر . ولقلت ان جبران الفنان والشاعر شاء أن يصور نبيا ويكشف عن روح نبي . كما نصور أمرا نرغب فيه ونقصر

دون الوصول اليه

لكن جبران ربط ظروف حياة المصطفى بظروف حيـــاته وصوره كمن بلغ فى الواقع الحالة الروحية التى يحدث عنها . فكأنه صور نفسه بالغا تلك الحالة لا بخيـــاله فقط بل فى كل أحوال معيشته وأدوارها • ولانه خلععليه وشاح النبوءةفكأنه خلعه على ذاته أيضا

قد يكون أن جبران لم يقصد هذا القصد•لكن ذلك ماتؤديه فاتحة الكتاب وخاتمته • وذلك ما أداه الكتاب كله الى أذهان الكثير من الناس وبالاخص أولئك الذين كتبوا فوق ضريحه فى مارسركيس هذه الآية :

« هنا يرقد نبينا جبران »

وكأنه أقام لهم من يحاسبهم عن الضمير فى « نبينا » الى أين يعود • فغيروا الكلمة الى « بيننا » • وهى التى قرأتها عنـدما زرت الضريح صيف سنة ١٩٣٢



حصة فى السماء
وحصص فى الارض

زحل « النبى » عن قلب جبران فتسلمته المطابع ولفظته، فى خريف سنة ١٩٢٣ ، كتابا صغيرا، بسيط الهندام ، جميله ، وارسلته فى الشعاب التى تدرج عليها مواليد المطابع فى هذه الايام والتى يخفرها تنين النسيان ويطوقها غربال الزمان فلا يبقيان منها الا على القليل القليل . وكان جبران قد فرش لكتابه الجديد بساطا من الدعاية المستطرفة التى تنسيك أنها دعاية لما فيها من جواذب اللطف والدماثة والفن . ففى نيويورك وحدها من مدن الولايات المتحدة جمعيات وحلقات وأندية و «صالونات» لا تحصى تدعى علاقة ما بجهة ما من جهات الفن أو الادب أو الدين وما ينتمى اليها . بعضها للنساء ، وبعضها للرجال ، وأكثرها مشترك بين الرجال والنساء الذين يروقهم أن يسرقوا من ساعات أعمارهم المهدورة فى سبيل الجسد ومنازعه بضع ساعات فى الاسبوع يتلهون فيها بما يحسبونه أرفع من حاجات الجسد وملذاته . وبذلك يوهمون أنفسهم أنهم من طينة أنقى وأشرف من سائر الناس ، وأنهم « يوفون قسطهم للعلى » . ولا يخفى ما فى ذلك الوهم من لذة التخدير والاغترار بالنفس

من عادة تلك الجمعيات والحلقات والاندية والصالونات ـ على ما بينها من تفاوت فى المراتب ـ أن تتبارى فى دعوة الشعراء والكتاب والفنانين لالقاء المحاضرات ، أو للقراءة من

مؤلفاتهم . وجبران كان لا يرد دعوة للقــراءة حتى اذا جاءته من هيئة يستصغرها أو يحتقرها . وان هو تلكأ فى ذلك كان ناشر كتبه يحثه أن لا يهمل فرصة تمكنه من الظهور بين الناس، لأنه يعرف أن اسم الكاتب اذا شــاع على ألسنة الناس كان من أقوى العوامل فى ترويج كتاباته . والــكاتب الذى كثر معارفه راجت مؤلفاته . لا ســيما اذا كان معــارفه من ذوى «النفوذ » . لذلك ما صدر « النبى » الا بعــد أن كان جبران قد قرأ فصولا منه فى أندية أمريكية عديدة

أما بين اخوانه المهاجرين في الولايات المتحــدة فقــد كان لجبران فى « السائح » أكبر بوق وأعظم نصير . وجبران كان يعرف كيف ينتقى الاخبار التى كان يقصد اذاعتها عن نفسه فى السائح من غير أن يجعل صاحب السائح يشعر بقصده . وصاحب السائح ، من فرط حبه لجبران ، كان يأخذ عنه الخبر ويبرزه فى الجريدة بأسلوب منمق يزيد فى أهميته أضعافا . فكان من جراء ذلك أن أقبــل السوريون المهــاجرون على كتب جبران بالانكليزية ـ والنبى بوجه خاص ـ يبتاعونها لأنفسهم ويهدونها الى بعض معارفهم من الأمريكان آملين بذلك أن يرفعوا مقامهم فى نظر جيرانهم وعملائهم من أهل البلاد . فكأنهم كانوا يقولون لهم : « انظروا . فمؤلف هذه الكتب ابن جلدتنا وابن لغتنا . وهو يجيد لغتكم خيرا منكم . فما نحن بالقوم الخاملين كما تتوهمون . » وذلك أبدا شأن الضعيف يباهى بعزم ابن عمه أو خاله . وشأن الاقرع يفاخر بشعر أخيــه أو جاره . والمفلس يذكرك بما كان عليه من الثروة آباؤه وأجداده

من الاخبار التى أذاعتها « السائح » عن «النبى» خبر قراءته فى كنيسة أمريكية فى نيويورك ، فقد كان منــه ، ومن شتى الروايات التى نقلتها الصحف العربية عنه ، أن اعتقد الكثير من الناس بأن « النبى » أصبح فى أمريكا كتابا كنسيا مقدسا، الي حد أن البعض في لبنان كان يسألني بكل جد :

« أصحيح أن « النبي » قد حل فى كنائس امريكا محل الانجيل ؟ ! »

أما حقيقة الخبر فهى أن فى نيويورك كنيسة أسقفية (أبيسكوبالية) تدعى كنيسة القديس مرقس فى الباورى • وهى من أقدم الكنائس فى المدينة • ولها قسيس اسمه وليم غثرى • ولهذا القسيس نظر غريب فى العبادة وطقوسها وأساليب تحبيبها الى الناس • فهو يرى أن طقوس الكنيسة لم تعد تفى بغايات الناس فى هذا العصر الذى كثرت فيه أنواع الملاهى • وان الناس يتوانون فى تأدية فروضهم الدينية لأنها متحجرة وقاسية بالنسبة الى ما فى روح العصر من المرونة واللين • لذلك رأى أن يجعل من كنيسته شبه مسرح ، أو هيكل يونانى قديم ، فيه الرقص ، وفيه الشعر، وفيه التمثيل ــ حتى ومناجاة الروح • مدعيا أن فى ذلك « جمالا » • وأن الجمال فى كل مظاهره يبعث على التخشع والعبادة . فقد شهدت هناك مرة امرأة جاء بها غثرى كانت تدعى أن الارواح توحى اليها الشعر • فكان من شاء من الحضور أو « المصلين» يعطيها «موضوعا» • وهذا الموضوع قد يكون كلمة ، أوعبارة، أو اسم علم أو أى شيء آخر • فتذهل هنيهة ثم ترشق « برباعية » تتسابق مفرداتها من فمها تسابق الرصاص من فم المتراليز • وليس فى الرباعية معنى ، والشعر منها براء • غير أن الحضور كانوا مبتهجين لمثل هذه الفرجة ، وكانت الكنيسة غاصة بهم حتى الابواب

لقد نجح غثرى نجاحا باهرا من حيث اكثار عدد «المصلين» فى كنيسته لا سيما من بعد أن اصطدم بمطران الأبرشية الذى شجب أعماله ، وهدده بالحرم والتجريد من حلله الكهنوتية ان هو لم يقلع عنها • فتناولت الصحف الخلاف ووسعت خرقه • فازدحمت كنيسة غثرى « بالمصلين » والمتفرجين وطارت « شهرته » فى البلاد من أدناها الى أقصاها

ذات أحد دعاني جبران مع نسيب عريضه وعبد المسيح حداد الى كنيسة القديس مرقس هذه ، قائلا انهم سيقرأون من بعض كتاباته فى خلال الخدمة وسيمثلون « النبى » • فذهبنا • وكان أول ما سمعناه هناك من كتابات جبران قصيدته المنثورة فى « الليل والمجنون » • وهي قطعة لا صلة بينها على الاطلاق وبين ما اعتاد الناس سماعه فى الكنائس • اذ لاعلاقة لها بالدين لا بمعناه المحصور ولا بمعناه الواسع • فكان رجل ينشد ما يقوله « المجنون » على توقيع الأرغن • فيجيبه آخر بلسان « الليل » • وهكذا حتى آخر القصيدة • وعند انتهاء الخدمة ظهر على المسرح رجل فى قميص أبيض عرفنا أنه يمثل « المصطفى » • وهذا الرجل أخذ يجيل بصره ذات اليمين وذات اليسار ، ثم راح يخاطب نفسه بما يخاطب « المصطفى » نفسه فى أول الكتاب وذاك بصوت غير طبيعي وبلهجة تمثيلية خالية من الروح • وبعد قليل أقبل عليه نفر من رجال « أورفليس» ونسائها وفى مقدمتهم امرأة فى حلل بيضاء عرفنا أنها الميترا• فألقى المصطفى موعظتين أو ثلاثا من مواعظه • وبها اختتم «الرواية»

عندما خرجنا من الكنيسة أبديت لجبران أسفى على أن الممثلين قد شوهوا ما حاولوا أن يمثلوه فوافقنى جبران فى ذلك لكنه أضاف :

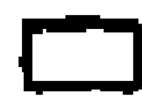
ـ ولكن ، يا ليتك شهدت يا ميشا تمثيل «النبى» فى كلية سمث للبنات ، فقد أجادت البنات فى تمثيله أيما اجادة • أما هؤلاء فليسوا بممثلين

الا أن «النبى» ، وان ساعدته الدعاية ، ليس من الكتب التى لا تعيش الا بالدعاية،ولا من الكتب التى تموت على دواليب المطابع فلا تحييها لا الدعايات ولا الاعلانات • بل ان فيه من عصير الفكر الصافى ومن وهج الخيال المتوقد ما يكفل له حياة مترامية الاطراف ، متعددة الاصداء ، موقورة بالسنين • فجبران قد عرف كيف يجعل منه شجرة كاملة بفروعها وأغصانها، وكيف

يدفن جذورها في تربة الحياة البشرية حيث تبقى حية مادامت البشرية حية • فما دام الناس يولدون ويموتون ، ويأكلون ، ويشربون ، ويحبون ويتزوجون ، ويفرحون ويحزنون ـ مادام الناس ناسا سيبقى بينهم من يفتش عن معانى الحب والزواج وسواهما من علائق الحياة ، ومن يرتاح الى تفسيرها كما هى مفسرة فى « النبى » • وقد يبوخ أسلوب الكتاب الرمزى والمجازى كما باخت من قبله أساليب بيانية كثيرة • أما جوهره فان يبوخ

وكأنى بجبران ، بعد ان اسلم « النبى » الى العالم ، تنفس الصعداء وقال فى قلبه : « الآن قد لفظتها ! » ـ والضمير عائد الى « الكلمة » التى كان يحبسها فى فمه فلا يطلقها الا بعد ان يتثبت من انه قد أودعها خلاصة روحه وجوابه الاخير لنفسه عن الحياة وكنهها وزبدتها . فقد عرف ان الحياة وحدة شاملة تتكسر عليها كل المقاييس الجزئية والفردية والزمانية والمكانية. وانها فى قطرة الماء مثلها فى الأوقيانوس . وفى ذرة الرمل مثلها فى الجبل . فهى لا تحد حتى فى أصغر مظهر من مظاهرها. وكأني به ذكر ما كان من شانه معها قبل ذلك من تأفف وتفجع وثورة وعصيان فضحك من نفسه وقال :

ـ عندما طرحنى الله حصاة فى بحرة الحياة العجيبة احدثت على سطحها دوائر لا تحصى . لكننى من بعد ان بلغت القاع اصبحت هادئا



لقد كان على جبران ، وقد بلغ القاع ، ان يهدأ . لكنه لم يهدأ هناك ولم يستكن . لأنه لم يبلغ القاع الا بخياله . فكان كموسي الذى أشرف على أرض الميعاد فوطئها بعينيه لابقدميه. وذاق طعم لبنها وعسلها بروحه لا بفمه . أو كان كالغواص ينحدر الى قاع البحر مشدودا بالحبال. فلا يتلمس القاع هنيهة من الزمن حتى تشده الحبال الى سطح البحر . والحبال التي

كانت تربط جبران بسطح الحياة وما عليه من أمواج صاخبة وزبد متطاير كانت أشد من أن يقطعها خياله • وهذه الحبال ظلت تحز مفاصل أيامه ولياليه ، وتكبل أجنحة أحلامه وأشواقه، وتحول دون السلام بين نفسه ونفسه حتى آخر حياته

ان كلمة تطلقها من فمك تصبح شهادة لك أو عليك تجاه النـــاس • ان خيرا فخيرا وآن شرا فشرا • وليس ينقضها الا أعمالك • وجبران قد أدى فى « النبى » شـهادة فى نفسـه تكاد تكون الكمال بعينه • فمن يشهد مثل تلك الشهادة عليه أن ينسى ذاته الفردية ليجدها فى الذات العـامة • فلا يبغض انسانا لأنه كل الناس • ولا يملك شيئا لأن كل شيء له • ولا يهرب من الألم لانه الطريق الى الخلاص . ولا يدين مجرما لأنه يدين نفسه • ولا يطلب مجدا لأن كل مجد باطل • وان هو لم يفعل كل ذلك كانت شهادته كاذبة

وجبران كان أدرى الناس بذلك • فهو كان يعرف أن « من نصب نفسه للناس اماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره» ــ كما قال الامام على ــ « وليكن تأديبه بسيرته قبـل تأديبه بلسانه • ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم • » ولأنه كان يعرف ذلك كان يتألم من نفسه القاصرة دون اللحـاق بخياله ، ويعزيها بقوله انها سـتعود الى الارض لتتغلب فى دورات تالية على ما استعصى عليها فى دورتها هذه

كان « النبى » لا يزال مخطوطة فى حقيبة جبران عنـدما طغت على الولايات المتحدة موجة المقامرة بالاطيان والمسقفات • فكنت لا تسمع الا بمن ابتاع أمس بيتا أو قطعـة من الارض بألف دولار فباعه أو باعها فى الغد بألفين أو ثلاثة • فاندفع جبران مع من اندفعوا بذلك التيار • وتشارك مع رجل سورى فى بوسطن فى شراء بناية هنـاك • ودفعـا نحو عشرة آلاف دولار من أصل ثمنها وبقى نحو أربعة أضعاف تلك القيمة دينا عليهما • وتوفق الشريكان على الأثر الى سيدة استأجرت منهما

البناية لتجعلها مركزا لجمعية نسائية • وكانت قيمة الأجر المتفق عليها وافية لدفع الفوائد واستهلاك الدين فى خلال سنين قلائل • الا أن الشريكين اضطرا أن يحدثا فى البناية تحسينات وتبديلات كثيرة لجعلها « لائقة » بتلك الجمعية وغاياتها • والتحسينات هذه كلفتهما من المال قدر القسط الذى دفعاه من الثمن • لكنهما كانا يمنيان نفسيهما بأرباح طائلة • وهكذا راح جبران يرى الثروة على قيد باع منه ، وفيها يرى الاستقلال المادى التام الذى كان يحلم به كل حياته

ولكن سرعان ما انقلب الامل الى ألم • فما هى الا شهور حتى قصرت السيدة المستأجرة عن الدفع مدعية أن جمعيتها لم تنجح ، وأن آمالها بنجاح تلك الجمعية كانت كل ما لديها من رأس مال • واذ أن البناية لم تعد صالحة الا لجمعية كتلك الجمعية تعذر على جبران وشريكه ايجارها • واذ لم يبق فى أيديهما مال تعذر عليهما دفع الفوائد واستهلاك الرهن • فذهب مالهما وذهبت أتعابهما هباء

فى تلك الاثناء كتب جبران الى من بوسطن يقول :

« ••• يعلم الله أننى لم أصرف شهرا فى غابر حياتى يماثل الشهر الماضى بصعوباته ومصائبه ومشكلاته ومعضلاته • ولقد سألت نفسى مرات ما اذا كانت « جنيتى » أو « تابعتى » أو « قرينتى » قد تحولت الى عفريت يعادينى ويقاومنى ويوصد الابواب أمامى ويضع العثرات فى سبيلى • منذ مجيئى الى هذه المدينة العوجاء وأنا فى جحيم من الدنيويات • ولولا شقيقتى لتركت كل شىء وعدت الى صومعتى نافضا الدنيا عن قدمى

« ••• غير أن الامور التى أبقتنى فى هذه المدينة والتى تجبرنى على البقاء عشرة أيام أخرى ، لا تتعلق بما كتبت أو قرأت أو سأقرأ بل بأشياء جامدة بليدة متعبة تملأ القلب شوكا وعلقما وتقبض على الروح بكف حديدية خشنة كالمبرد »

هي ضربة استنزفت من جبران كل ما جمعه من المال بالجد والتوفير في خلال سنين طويلة • فضعضعت قواه ، وبعثرت أفكاره ، وأغلقت عليه أبواب الهامه• وأثقلت من وطأة مرضه• لكنه تلقاها بصبر جميل وجأش رابط • ورأى أن لا مناص له من تجديد بنيان استقلاله المادى • فهجر القلم زمانا وعاد الى ريشته يستعين بها على رد خسارته • وكانت كتبه قد بدأت تدر عليه بعض المال • والخمســة والسبعون دولارا من مارى ما برحت تأتيه فى كل شهر • وما هى الا سنتان أو ثلاث حتى انتعش جيبه من جديد ، فلملم شعث أفكاره واسترد مفاتيح خياله ، وثاب الى محابره ودفاتره • وكان قد مضى عليه نحو ثلاثة أعوام لم يصدر له فى خلالها كتاب • وهى سكتة طويلة، فى بلاد كأمريكا ، لكاتب لا يرضى أن ينساه الناس وهو حى

أقبل جبران على شذور كان قد وضعها بالعربية فى أدوار مختلفة من أدوار حياته • فترجمها الى الانكليزية وزاد عليها وأصدرها فى سنة ١٩٢٦ فى كتاب سماه « رمل وزبد » • وقد قال لى فى ذلك الوقت انه كان يشعر كما شـــعر الملك داود عندما مات ابنه من بتشابع ــ امرأة أوريا • فداود انقطع عن الطعــام والشراب، واســتسلم للحزن فى كل مدة مرض الصبى•أما عندما بلغه خبر موته «فاغتسل وادهن وغير ثيابه» وأمر عبيده فجاؤوه بطعام وأكل قائلا : « لما كان الصبى حيا صمت وبكيت لأنى قلت من يعلم لعل الرب يرحمنى ويحيــا الصبى • وأما الآن فقــد مات • فلماذا أصوم ؟ أفأستطيع أن أرده بعد ؟ »

وهكذا هو ــ جبران • فقد كان ، قبــل أن تنتهى مشكلة البناية فى بوسطن ، يعلل نفسه بأن يسترد منهــا ولو بعض ما دفنه فيها من ماله • لكنه ، بعد أن انتهت المشكلة ولم يبق له من أمل بأقل تعويض ، طرح خســـارته من فكره وثاب الى أدبه وفنه

لم يمض وقت طويل حتى ابتاع جبران أربعين حصة فى البناية التى يسكنها فى نيويورك • وهذه المرة كانت صفقته رابحة الى حد أنها عوضت عليه أضعاف خسارته فى بوسطن



الدبك

«الدبك» بضم الباء وتشديد الكاف ـ كلمة عامية شائعة في بعض جهات لبنان ٠ وهي تعني حيلة يقصد بها المزح اذا انطلت على الممزوح معه ٠ وأنا مدين بعنوان هذا الفصل لرشيد أيوب الذى نبش هذه الكلمة من خزانة تذكارات صباه فأدخلها على قاموس اخوانه فى « الرابطة » والمقربين منهم ٠ وأكثرهم لم يكن سمعها من قبل فى حياته ٠ وأنا مدين بالفصل كله لعبد المسيح حداد الذى كان يجيد هذا النوع من المزاح أيما اجادة ، لا سيما مع رشيد أيوب الذى دعاه لذلك « شيخ الثعالب » أو « الثعلبان » للمبالغة ٠ وكلاهما خفيف الروح ، حاضر النكتة ، لطيف المعشر ٠ فكم حالة عابسة بدلاها بحالة ضاحكة ٠ وكم ساعة تدب ثوانيها فى أصفاد من الهم والأسى جعلاها دقيقة ترفرف بأجنحة من الزهو والطرب

كان النهار سبتا ٠ وكان عبد المسيح منهمكا فى اصدار عدد ممتاز من السائح ٠ فمررت به بعد الغداء، ومن لطخ الحبر على يديه عرفت أنه كان فى المطبعة وأنه قد باشر الطبع بعد أن اكتملت لديه كل المواد ٠ وكان آخر ماوصله منها أبياتا لرشيد أيوب أطلعني عليها قبل ذلك بيوم فأعجبتني ٠ وقرأتها لجبران بالتليفون فأعجبته

كان عبد المسيح يحدثنى عن تعبه المضنك فى ترتيب «الممتاز» وتنسيقه والوقوف على طبعه ٠ وكنت أقلب بعض الصحف على المنضدة أمامى ٠ فوقع فى يدى عدد من جريدة « ألف باء »

الدمشقية وفي صفحته الاولى عمود أبيض ضرب قلم المراقبة على ما فيه • تأملت ذلك العمود وأنا أعجب لسخافة المراقبين وأقلامهم • وهنا خطر لي أن في ذلك العمود الابيض جرثومة صغيرة لـ « دبك » كبير أو لأحبولة ينصبها عبد المسيح لرشيد أيوب • فما كدت أبوح لعبد المسيح بما جال في خاطري حتى أطرق هنيهة ، ثم انتصب واقفا ، وقد لمعت عيناه بنور الفوز• وبأسرع من لمحة الطرف خطف الجريدة من يدي هاتفا : «عندي!» وهرول خارجا

بعد دقائق عاد عبد المسيح وفي يده ألف باء• واذا بالعمود الابيض قد اسود • واذا بالسواد الذي فيه أبيات رشيد أيوب التي قدمها للسائح الممتاز • وفي أعلاها بأحرف كبيرة هاتان الكلمتان : « لابن المعتز » !

أدركت في الحال ما فعله عبد المسيح • فقد ذهب توا الى المطبعة حيث كانت أبيات رشيد لا تزال منضدة • فحذف من أعلاها اسم رشيد أيوب « العامل في الرابطة القلمية » ووضع مكانه اسم ابن المعتز • وطبعها في العمود الابيض كما تطبع « البروفا » فجاءت نظيفة ، منمنمة ، سوداء ، لا تميزها عما حواليها من مواد الا عين خبيرة بأسرار الطباعة وألوان الحبر وأشكال الاحرف

وكان قد قرب ميعاد قدوم رشيد أيوب الى الادارة لينام هناك « دقيقته المعهودة » حسب عادته من بعد ظهر كل يوم • فاتفقت وعبد المسيح أن نطرح الجريدة في سلة المهملات • وبعد أن يأتي رشيد نكلف رجلا من غير الرابطة أن يجلس الى منضدة التحرير ويتظاهر كما لو كان يفتش من غير اكتراث عن صحيفة ما يتسلى بها • فينتشل مصادفة ذلك العدد من « ألف باء » ثم يطرحه من يده الى الارض• ثم يرفعه وقد وقع نظره على أبيات ابن المعتز • فيظهر لها اهتماما كبيرا ويقرأها بصوت عال لائما عبد المسيح لأنه يطرح مثلها في سلة المهملات

بدلا من أن ينقلها الى السائح حين أنه ينقل الكثير مما هو دونها

وهكذا كان . فما دخل رشيد واحتل كرسيه وسند رأسه بكفه وراح يغازل الاهة آلاحلام حتى بدأ « المساعد » بتمثيل دوره . وما قرأ بيتين أو ثلاثة من أبيات « ابن المعتز » حتى أرهف رشيد أذنيه ورفع نظارتيه عن عينيه الى جبهته ، ثم هب عن كرسيه ، وبالرغم من سنيه الخمسين وثب وثبة واحدة الى القارىء واختطف الجريدة من يده . فما وقعت عينه على العمود الذى فيه أبياته حتى جمد فى مكانه وقد جحظت عيناه ، وامتقع لونه ، واستولت الدهشة على كل عضلاته . هى لحظة لا توصف . لكنها لم تكن الا لحظة أشرقت بعدها أسرة رشيد ، وعادت نظارتاه من جبهته الى عينيه ، ومشى الدم فى عروق وجهه . فالتفت الى عبد المسيح مقهقها وقال :

ـ آه يا ثعلبان ! هذا دبك ... لقد بلغت من فنك درجة هى العبقرية بعينها

ونحن فى ذلك واذا بجبران يخاطب الادارة بالتليفون قائلا انه قادم بعد قليل . فاتفقنا بالبداهة أن « نلعب الدور » معه . وكان من نصيبى أن أمثل الجانب الأكبر من ذلك الدور

وجاء جبران ، فلم نبش له كالمعتاد بل استقبلناه بوجوه ارتسم عليها الحزن والهم والارتباك . الا رشيد . فقد تظاهر كما لو كان لا علم له بشىء . وما هى الا هنيهة حتى بدت الحيرة على وجه جبران كذلك ، فأخذنى جانبا وسألنى بالهمس : « ما الخبر؟ » أما أنا فمن غير أن أجيبه بكلمة أخذته من يده ودخلت به غرفة محاذية . ومن بعد أن أغلقت الباب كمن يخشى أن يسمعه أحد ناولته عدد « ألف باء » وأشرت له بأصبعى الى العمود المعهود وهمست له همسا : « اقرأ » وجلست أرقب حركاته وأدرس التغيرات الطارئة على معانى وجهه ، فما انتهى من القراءة حتى رفع الى عينيه وفيهما من الحيرة أخماس وأسداس . وقال :

ـ أليست هذه الابيات أبيات رشـيد التى قرأتها لى أمس بالتليفون ؟

ـ بلى ، حرفا حرفا !

ـ عجبا يا ميشا كيف ينتحل رشيد مثل هذه الأبيات وقد نظم فى حياته ما هو أجمل منها بكثير ، أو ليس من الممكن انه قد نظمها من زمان وبعث بها الى ألف باء ؟

ـ هذا مستحيل يا جبران . فلا علاقة بين رشيد والف باء على الاطلاق . وفوق ذلك فهو يعرف مثلما يعرف كل واحد منا أن ماينشر فى السائح المتاز يجب أن يكون جديدا وخصيصا بالممتاز . ثم ان رشيدا قال لعبد المسيح ولى أنه نظم هـذه الأبيات منذ يومين وقضى ليلة كاملة فى نظمها

ـ أنقول اذن انه توارد خواطر ؟ أم نقول ان رشيدا حفظ القصيدة فى حداثته ونسى أنه حفظها . وعندما جاء لينظم خطرت له معانيها ومع المعانى أكسـيتها اللفظية فكتبها وهو يحسب أنه ينظمها . وهكذا انخدع من حيث لا يدرى ومن حيث لا يقصد أن يخدع ؟

ـ انت تستخف بنفسك وبى يا جبران عندما تأتينى بمثل هذه التعاليل

ـ ما كنت أحسب رشيدا يرتكب مثل هذه الفظيعة

ـ أما وقد ارتكبها فما العمل لتلافيها ؟ بماذا نجيب الناس غدا بعد أن يصدر « المتاز » ويروا أن أحد عمال الرابطة قد اختلس قصيدة برمتها ؟ وهل فى العالم من الصابون مايكفى لغسل هذه اللطخة عن اسم الرابطة ؟

ـ لنقل لعبد المسيح أن يهملها من العدد الممتاز

ـ ولكنها قد طبعت يا جبران ولا سبيل الى اسقاطها الا باتلاف الملزمة كلها . ومن ثم فماذا نقول لرشيد اذا صدر الممتاز ولم ير فيه أبياته ؟ أنقول له اننا عرفناه سارقا فنبذناه ؟

ـ لا ، لا . وألف لا . بل نقول له ان عبد المسيح أهمل أبياته

من غير قصد . ثم ننشرها فى عدد عادى . فقد تعود الناس ان لا يقرأوا فى المتاز الا مواد جديدة . أما الأعداد العادية فليس لها من المكانة والتأثير ما للأعداد الممتازة

ـ وهكذا نبقى حيث كنا . وتبقى اللطخة على اسم الرابطة . ويبقى رشيد سارقا ... لا ، لا يا جبران . هذا عذر أقبح من ذنب

ـ اذن لتصدر القصيدة فى الممتاز باسم رشيد . وفى أول عدد من السائح يصدر بعده ليعلن عبد المسيح أنه قد ظهرت خطأ فى الممتاز قصيدة تحت اسم رشيد أيوب وهى لابن المعتز

ـ وبذلك نكون كمن يحاول أن يغسل لطخة من الحبر على ثوبه فيزيدها تفشيا . أما رشيد الذى هو أخونا ومنا وفينا فنكون كأننا غمسناه فى مرجل من الزفت . لا يا جبران . جئنى برأى غير هذا الرأى

هنا أطرق جبران طويلا وقد شعرت بأفكاره كأنها الاسماك فى شبكة يتراءى لها منفذ فلا تندفع اليه حتى تجده مسدودا . فتعود تختبط بعضها فوق بعض . وكان عبد المسيح فى أثناء هذا المشهد يدخل علينا بين الفترة والفترة . فيفتح الباب بهدوء كلى ، ويغلقه بهدوء كلى ، كأنه داخل الى مجلس يترتب مسير الكون على خلاصة مناقشاته . وكان ، اذا ما فاه بكلمة ، فليزيد بها فى هول المصيبة وحراجة الموقف . وأخيرا نفدت حيل جبران ، فالتفت الى التفاتة المستغيث وقال :

ـ ولكن ما حيلتك يا ميشا ؟ انها لمصيبة عمياء

قلت :

ـ لا حيلة عندى غير الصراحة يا جبران . وكل حيلة سواها ستكون عارا علينا حتى وان نجحت . فمن رأيى ان تصارح رشيدا بالأمر لانك عميد الرابطة

فانتفض كالملسوع وقال :

ـ أنا ؟ لا والله ! فان عرفت أن رشيد ايوب عرف أنى عرفت

لما استطعت بعد ذلك أن أرفع اليه بصرى . بل الاحسن أن تصارحه أنت لانك مستشار الرابطة

ـ هذا هو الجبن بعينه ياجبران . وما كنت أعهدك جبانا تهرب من أمر واقع وتتخلص من مسؤولية على عاتقك بالقائها على عاتق غيرك . ان يكن رشيد صديقك فهو صديقى أيضا . وعلاوة على ذلك هو ابن بلدتى

وكان عبد المسيح قد دخل علينا للمرة الرابعة أو الخامسة ، فاستنجدته بقولى :

ـ ما رأيك يا عبد المسيح ؟ أليس من واجب العميد أن يفاتح رشيدا بأمر هذه القصيدة قبل أن نقع ونوقع رشيدا والرابطة فى ورطة لا يعلم مغبتها الا الله ؟

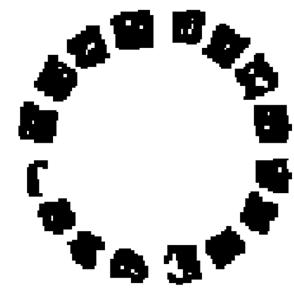
وبالطبع لم يتردد عبد المسيح لحظة واحدة فى تثبيت رأيى . وعندها ، بعد أن طالت مجادلتنا أكثر من نصف الساعة ،وبعد أن انسدت كل المسالك أمام جبران ، انتشرت على وجهه سحابة من الحيرة والحزن الابكم ، وبرقت فى عينيه دمعتان

ومن غير أن يقول كلمة، نهض عن كرسيه، وفتح الباب ،وخرج الى الغرفة التى كان فيها رشيد أيوب ونفر من عمال الرابطة ومن يلوذ بهم ، وارتدى معطفه وأخذ عصاه وقبعته وهم بالانصراف دون أن يودع أحدا

فلم يتمالك رشيد عندئذ من الضحك . ومعه ضحك رجل لم يكن جبران يعرفه . فشزره كأنه يريد أن يمزقه بعينيه لأنه غريب عن الرابطة وتجاسر أن يضحك فى مثل تلك « المأساة » . وعلى الأثر خرجت وعلى وجهى ابتسامة وخرج عبد المسيح وهو يقهقه . فوقف جبران لمحة كالمشدوه أو كمن خولط فى عقله . ثم القى نظرة على الجمهور كله فأدرك أن المأساة لم تكن الا ممازحة . فبسم بسمة صفراوية وضرب الأرض بعصاه وقال :

ـ يا مناحيس ، لقد أنقصتم من عمرى عشر سنين ، من هو

صاحب هذا الدبك الذى هو طرفة من طرف الفن ؟ أنا حتى الآن لا أفهم منه شيئا . أين عدد ألف باء ؟ أم أنا أعمى ؟ أم أنا بليد ؟ هاتوا فسروا لى كيف وصلت أبيات رشيد الى دمشق منذ أربعين يوما ولم ينظمها الا منذ يومين ؟ ومن هو ابن المعتز ومن أين نبشتموه ؟ لله دركم • لله دركم !



السيدة الملتحية

ما برح الانسان يتكلم عن الحياة منذ تعلم النطق . ويكتب عنها منذ تعلم الكتابة . ويصورها بالانغام والالوان والحجر منذ تعلم الغناء والتصوير والنحت فى الحجر . والحياة ما تزال بلا شواطىء . لا تستوعبها كلمة ، ولا يسبرها لحن ، ولا تقتنصها صورة ، ولا يمثلها تمثال . لكن الذين أدركوا بلاغة الصمت وهيبة السكون فى حضرة ما لا يحد لم يولدوا بعد . واما عرفت هذه الارض أمثالهم فالبشرية لم تعرفهم لأنهم كانوا صامتين ساكنين

لعل أقصى درجات المعرفة هى المعرفة بأن سر الحيـاة يدرك بالروح ولا يذاع باليد واللسان . وأسمى مراتب البلاغة هو الصمت المبطن بتلك المعرفة . وقد يكون أن ذلك الصمت هو المحجة التى نسير اليها عن غير علم منا . فلو كان لواحد من الناس أن يجمع كل ما قاله فى حياته لدهش للسانه كيف أنه لم يبر من ترديد بعض الكلمات والعبارات ملايين المرات من غير ما جدوى . ولنفسه كيف لم يرهقها بالثرثرة دون أن يدنيها قيد شعرة من المعرفة التى هى معرفة . ولفكره كيف لم يرزح تحت جبال من المقاطع والمفردات التى لو غربلها كلها لما بقى منها فى غرباله كلمة واحدة يمكنه أن يقول فيها : « هى ذى خلاصتى »

لكن بعض الناس مهنتهم الكلام . ومنهم الكتاب . فواحدهم لا يكاد ينتهى من فصل أو كتاب حتى يفكر بآخر . وعذره فى ذلك أن عنده أفكارا وآراء جديدة يعرضها على الناس .

والناس يحملونه على ذلك اذا هو لم يحمل نفسه عليه . فهم يتوقعون منه أن يكون شـجرة فاكهة على الطـريق وأن يكون عليها ثمر جديد كلما مروا بها . وكما ان الشجرة المثمرة لا تعرف فى اى فصل من الفصول ، وفى اية سنة من السنين تأتى بثمرة تكون أجمل وأشهى كل أثمارها، هكذا الكاتب المثمر قد يأتيك اليوم بكتاب يبلغ فيـه أقصى مداه فلا ينفك يكتب جاهلا أنه لن يقول غير ما قال ولا اجمل مما قال

كتب جبران « النبى » وهو يشعر أنه قد أفرغ فيه كل قلبه وكل فكره وكل فنه . لكنه ما درج الكتاب فى سبيله حتى راح يفكر بسواه . فكأنه من بعد أن ظن انه قد لفظ « الكلمة » التى كانت فى فمه عاد فوجد انه لم يلفظ منها سوى مقطع واحد . فعاد يفكر بما بقى من مقاطعها وهو لا يشك فى ان بامكانه ان يلفظها كلها . وما كان يدرى أنه يحاول المستحيل ولا كان يدرى أن العمر ينقضى ، والبشرية تنقرض وتبقى الحياة كلمة يفهمها الوجدان ويعجز عن النطق بها اللسان . لذلك قال لى بعد صدور « رمل وزبد » :

ــ هــذا لسد الفراغ في حياتى الكتابية ما بين « النبى » والكتاب الذى سيتلوه . فقد مر بى ثلاث سنوات لم يصدر لى فيها كتاب . أما « النبى » فكتاب غريب يا ميشا . وما أكثر الذين يغبطوننى عليه . لكنه مقدمة لا غير . فأنا فيه أتحدث عن علاقة الانسان بالانسان . وبفكرى اليوم كتاب آخر أتحدث فيه عن علاقة الانسان بالطبيعة . وسأدعوه «حديقة النبى» . وكتاب ثالث أبين فيه علاقة الانسان بالله . وسأدعوه « موت النبى » . وهكذا تتكون من هذه الكتب الثلاثة حلقة كاملة . فما رايك

لكنه ما عتم أن فاجأنى بخبر جديد . فقد جئته يوما اسأله اين أصبح من « حديقة النبى » . فاذا به يجيبنى :

ــ الحديقة ما برحت فى خاطرى . ومثلها موت النبى . ولكن

ما قولك فى كتاب عن يسوع ؟ يسوع يساور أفكارى من زمان . وقد سئمت الذين يؤمنون به يا ميشا يتحدثون فيه ويكتبون عنه ويصورونه كما لو كان سيدة بلحية . فهو جميل لكنه مسكين وضعيف وفقير ووديع ومتواضع . وسئمت الذين لا يؤمنون به يصورونه مشعوذا وساحرا . وسئمت « العلماء » يأتونك بالابحاث الطويلة والبراهين العقيمة ليثبتوا أوليدحضوا وجوده ، وهو اكبر حقيقة فى حياة البشرية . وسئمت اللاهوتيين يحوكون له من مماحكاتهم السخيفة أكفانا تحجبه عن الفكر والقلب . فلا هو بشر مثلك فتقتدى به . ولا هو اله فتعبده . ويسوعى بشر مثلى ومثلك . وقد بلغت قحة أحد الكويتبين الامريكان أن صور يسوع تاجرا محنكا يرمى بكل تعاليمه الى غاية مادية بحتة . فتأمل ! وعندى أنه كان رجل العزم مثلما كان رجل الرأفة . وانه قط لم يكن مسكينا أو متمسكنا . وأنا أكره المسكنة وأرى التواضع ظاهرة من ظواهر الضعف

فقلت من غير أن أجادله فى رأيه :

ـ يسوع موضوع لا ينضب مهما تناولته الألسن والاقلام . ومهما كثرت الكتب عنه يظل هناك مجال لكتاب جديد . ولكن كيف تنوى أن تكتب عنه يا جبران ؟

ـ لقد اهتديت الى قالب يعجبك يا ميشا . وبعد أن اهتديت الى القالب أصبح الكتاب فى فكرى كأنه قد كتب . فسأجعل معاصرى يسوع يتحدثون عنه ـ كل حسب منازعه ومداركه . ومن أحاديثهم تتكون صورة يسوع كما أراه أنا . وهو قالب يناسب أساوبى كل المناسبة



وراح جبران يستنطق الأموات عن يسوع . وهو فى الواقع لا يستنطق الا قلبه ولا يحكم الا فكره . فقد كان يجهد ذاك وهذا فى الليل والنهار . وكم ليلة سهرها حتى الفجر متغلغلا فى روح يهوذا الاسخريوطى أو قيافا أوبيلاطس النبطىأومريم

المجدلية أو مريم أم يسوع أو من كل الرسل وسواهم وهو لا يأتى على شهادة واحد منهم الا بعد أن يتقمص فيه وينتقل بالفكر الى عصره . فكان ، وهو فى صومعته فى نيويورك ، أو عند أخته فى بوسطن ، يرود جبال الجليل ، وبطاح اليهودية ، وغور الأردن ، وشواطىء بحيرة طبرية متتبعا خطوات يسوعه ومصغيا الى كرازته فى الجماهير وفى الهياكل وفى التلاميذ على انفراد . ومحاولاً أن يأتى بخلاصة تلك الكرازة والقوة التى جعلتها أحرفا من نار على جباه عشرين من القرون .

كل ذلك والداء يمكن قبضته من قلبه يوما بعد يوم . وهو لا يعى أو لا يبالى . بل كأنه كان والداء فى سباق . وكان يخشى أن يسبقه الداء قبل أن ينتهى من كتابه الجديد . لكن الاقدار كانت لا تزال بجانبه . فقد مكنته من السبق . فانتهى من كتابه فى صيف سنة ١٩٢٨ وسلمه للنشر . فصدر فى خريف تلك السنة وجبران فى بوسطن . وقد كتب الى فى أول اكتوبر يقول :

ــ كتاب يسوع تناول صيفيتى مريضا وصحيحا،ولاأكتمك أن قلبى ما برح فيه رغم أنه قد صدر « وطار من هذا القفص »

على أثر صدور « يسوع ابن الانسان » كتبت فيه كلمة بعنوان : « يسوع جبران » لست أرى بأسا من اثباتها هنا لأن رأيى اليوم فى الكتاب لا يزال كما كان منذ عدة سنوات:

وجهه جميل ونبيل . يعلوه غشاء من الشحوب النام عن شفقة ممسكة بالقلب . لا عن أسى رابض فى النفس

فى فمه الحساس صلابة تفهم اللين فلا تجرح . ورفعة تعرف ذاتها فلا تتضع . وفى أنفه رقة الشعر ، ودقة الفن ، واتساق الهندسة

أما عيناه فتنظران الى أبعد مما تبصران . فيهما رهبة الوحى دون طمأنينته . واليقين بالنصر دون النصر . ووحدة لا تلطفها المحبة . وعزلة لا يؤنسها نورها

فى حاجبيه تقطب خفى . كأنه يجهد فكره للوصول الى سر عميق • وكأنه بلغ عتبة ذاك السر • أما بابه فلا يزال موصدا فى وجهه

فى جبينه الواسع العالى اباء وعظمة . وفى شعره الناعم المرتد عن جبينه وصدغيه ، والمسترسل فوق كتفيه ، طهارة لا تعرف الدنس . هو وجه معانيه كثيرة . وأظهرها ارادة تحاول ان تتغلب على ذاتها أو أن تستر ضعفها ريثما يتم لها النصر

هذا هو يسوع بريشة جبران . وهو أول ما يقع بصرك عليه فى كتابه الجديد « يسوع ابن الانسان » . ذاك ما رايته فيه . ولعلك ترى غير ما رأيت أو عكس ما رأيت

أما يســـوع من قلم جبران فلن تحظى به فى صفحة او صفحتين • بل تتناول صفاته الحسية والروحيــة من ســبعة وســـبعين فما (وفم جبران احــدها) بينها فم التلميذ وفم الجار وفم الصديق وفم العدو • فم العــالق بالارض • وفــم الطــامح الى الســماء . فجبران يحدثك عن يسوعه بألسنة معاصريه . بعضهم مذكور فى الانجيل وبعضهم اختلقته مخيلة المؤلف

وعندما تشبع نفسك ، وتشنف اذنك باقوال هؤلاء كلهم — واقوالهم منسقة بقلم جبران فهى قصائد منثورة — قابل بين يسوع الذى انطبع فى خيالك من مطالعة سطور الانجيل القليلة، ويسوع الذى علق بذهنك من السنة معاصريه كما انطقها جبران ، تر أن بين الاثنين فرقا ليس طفيفا

يسوع الانجيل ولد فى بيت لحم من عذراء . اما يسوع جبران فولد فى الناصرة من رجل وامرأة

يسوع الانجيل يبكى ويتألم • أما يسوع جبران فيضحك• وهو فوق الدموع والألم

يسوع الانجيل يطوب المساكين بالروح والفقراء . اما يسوع جبران فلا يعرف مسكنة ولا يرى غبطة فى الفقر

يسوع الانجيل أدرك منتهى الرفعة الروحية ، لذاك كان « وديعا ومتواضع القلب » . اما يسوع جبران فلا دعة فيه ولا تواضع

يسوع الانجيل لا يخجل من ان يهتف على الصليب : « الهى . الهى لماذا تركتنى ؟ » لأنه لم يكن قد تغلب بعد على كل ضعف فى بشريته • أما يسوع جبران فلاضعف فيه•أو أنه يخجل من اظهار ضعفه فيهتف : « لماذا تركتنا ؟ »

ولعلك تذهل ، مثلما ذهلت انا ، عندما تتمادى فى قراءة الكتاب فترى أن المؤلف ، رغبة فى اظهار شخصية يسوع كما يراها بعين روحه ، يجيئك بانجيل يكاد يكون جديدا لولا انه يتقيد ببعض حوادث الانجيل وأشخاصه وهيكل أقواله • فهو يأتيك بموعظة على الجبل من فم متى منسوجة على نسق الموعظة الانجيلية الشهيرة لكنها تغايرها مبنى وروحا . ويسرد بعضا من عجائب يسوع وحوادث حياته وأقواله • فيسقط منها أويضيف اليها طبقا لما يتصور أنه كان من واجب الانجيليين ان يسقطوه أو يضيفوه

لعل لجبران عذرا فى ذلك . فهو لا يكتب كمؤرخ ، لأنه لم يكن مؤرخا ولن يكون . بل هو الشاعر والفنان أولا وآخرا . لقد تلجم قلم المؤرخ أما خيال الشاعر وريشة الفنان فكيف وبماذا تلجمهما ؟ ومن ثم فجبران يكتب عن يسوعه بقلب طافح بالاعجاب والمحبة والعبادة . فهو فى نظره مثل البشرية الأعلى واقصى محجاتها

مع ذلك أقول ان جبران كان فى غنى عن التصدى لما جاء فى الانجيل وتحريفه أو التصرف به . فقد ورد فى آخر انجيل يوحنا أن هناك « أشياء أخر كثيرة صنعها يسوع لو أنها كتبت واحدة فواحدة لما ظننت أن العالم نفسه يسع الصحف المكتوبة . » أليس أن فى هذه الاشياء التى لم تدون مجالا واسعا لخيال كخيال جبران ؟ فليختلق من الحوادث ما أراد . ولينظم

من المواعظ ما شاء وشاء رب الهامه

أما ما دون في الانجيل فلسبب قد دون بتلك الالفاظ لا بغيرها • ولسبب قد احتفظت به البشرية بأحرفه تسعة عشر قرنا . من ليس يفهمه أو يقبله كما هو فليقل فى نفسه انه لم يعط فهمه بالتمام • ومن ليس يفهمه الا اذا حرفه وتصرف به فهو فى الواقع غير فاهم له . لنا أن نفسر الانجيل. ولكل أن يصور لنفسه يسوعه ، مثلما يصور لنفسه ربه . لكن ليس لنا أن نأخذ يسوعنا من الانجيل ومن ثم أن نحرف الانجيل لينطبق على يسوعنا



والآن فلنعد الى جبران الشاعر المأخوذ بمجالى الروح فى السكون . لا سيما بأسمى مجاليها فى البشرية ــ يسوع ابن الانسان

فما أجمل ما يقوله بلسان ملاخى الفلكى البابلى :

« فى يسوع اجتمعت كل عناصر اجسادنا واحلامنا طبقا للناموس . وكل ما كان من قلبه سابقا لأوانه وجد فيه أوانه »

ثم اسمع تعليله الجميل لبعض عجائب الناصرى :

« يقولون انه كان يعطى العميان بصرا . والمقعدين مقدرة على المشى . وانه كان يخرج الشياطين من المجانين

« قد لا يكون العمي الا فكرة مظلمة يمكن التغلب عليها بفكرة ملتهبة . وقد لايكون العضو المشلول الا سكونا يمكن تنبيهه بالقوة المتحركة . وقد يكون أن الشياطين ــ تلك العناصر القلقة فى حياتنا ــ تخرجهم منا ملائكة السلامة والطمأنينة »

وهاك ما يقوله بلسان اندراوس فى قضية الزانية التى أطلقها يسوع قائلا ــ وأنا لا ادينك ــ :

« عجبت آنئذ مما اذا كان « يسوع » قال ذاك للزانية لأنه هو كذلك لم يكن بغير خطيئة ... أما الآن فأعرف أن نقى القلب فقط يغفر العطش الذى يقود صاحبه الى مياه آسنة »

ان جبران فى كتابه الجديد ، شأنه فى كل كتبه ، ينثر بسخاء جواهر من التشابيه المبتكرة . وينقش رسوما من الفن تقف عندها جذلا مهللا . ولا بد لى من نقل بعضها :

« الريب ألم آنسته وحشته أنه والايمان توأمان »

« وعند الفجر بقيت واقفة بيننا (الكلام عن أم يسوع) كأنها علم يخفق فى قفر لا جحافل فيه »

« ستبقى المرأة أبدا رحما ومهدا وقط لن تكون رمسا »

« لا تمشى النساء الا مقودات بأبنائهن »

« غسل بيلاطس يديه ولا يزال يغسلهما . وحتى اليوم تحمل أورشليم الطست وروما الابريق »

واليك بعضا من التقاريع الجبرانية . وجبران اذا ما قرع وأنب وتبرم أتاك بأقصى مقدرته البيانية . وكأنه فى الكلام الآتى لا يدفع تهمة عن يسوع فحسب . بل عن نفسه كذلك . فقد قال البعض فى يسوع انه لم يكن عالما فى نفسه . ولذلك كان مشوش الفكر :

« كم بومة لا تعرف من الاغانى غير ما شابه نعيبها . أنا وأنت نعرف مشعوذى الكلام الذين لا يحترمون الا من كان أكبر شعوذة منهم . هؤلاء هم الذين يحملون رؤوسهم فى سلال الى السوق ويبيعونها بأول ثمن يعرض عليهم . نحن نعرف الاقزام المتحاملين على من تلمس رؤوسهم السماء . ونعرف ما يقول العوسج عن السنديانة والارزة »

خذ كذلك هذه الفقرة من كلام يسوع ليهوذا الاسخريوطى :

« مملكتى ليست من هذه الارض • وعرشى ليس قائما على جماجم أسلافكم • اذا كنتم تطلبون غير مملكة الروح فخير لكم لو تركتمونى هنا وانحدرتم الى مغاور موتاكم حيث رؤوس الأمس المتوجة تعقد مجالسها فى قبورها • ولعلها حتى اليوم تجود بالألقاب والمكارم على عظام أجدادكم »

كذلك تهكمه على الاغنياء بلسان واحد منهم . وعلى أولياء

الامور والمحافظين على كل سلطة وتقليد بلسان قيافا • فهو يسود وجوههم بما يضعه من الكلام فى أفواههم

ومن الغريب أن جبران يتناول بتهكمه حتى الرسول بولس . فهو لا يعترف له بفضل • بل يعتقد انه أفسد تعاليم الناصرى بما أدخله عليها من تعاليمه • وفى أعتقادى أنها تهمة ظالمة



ليس ما ينقشه جبران بريشته أقل فعلا فى النفس مما يسطره بقلمه . وهو كعادته فى كتبه السابقة قد زين كتابه الجديد بطائفة من الرسوم تقف أمامهـا مستجليا رموزها ، مأخوذا بتناسق خطوطها . منها وجه يسوع وقد ذكرته . ووجه مريم المجدلية الذى تكاد تقرأ فيه ما قاله لها يسوع (حسب رواية جبران) ـ « أما أنا فانى أرى فيك جمالا لن يذوى ، وعندما تدركين خريف أيامك لن يخشى ذلك الجمال من أن ينظر ذاته فى المرآة . ولن يهان »

هناك وجه لبطرس وآخر ليوحنا الحبيب . ورسوم اخرى رمزية أذكر منها اثنين ملونين ـ أحدهما يمثل انسانا راكعا على سحابة وقد أحاطت به سلسلة حلقاتها أجسام بشرية . والآخر يمثل « شجرة الحياة » جذورها بشر . وساقها بشرى . واغصانها مجنحة . واثمارها دانية . ان فى هذين الرسمين ألوانا موسيقية • بل ألحانا ملونة . بل شعرا فياضا

لقد قيل فى نبى الجليل منذ بدأ حتى اليوم ما ليس يحصى . فأنكر البعض وجوده • والذين سلموا بوجوده رماه بعضهم بالشعوذة . وبعضهم قال انه كان مخدوعا . وجعله البعض الها . والآخر انسانا . والبعض الها وانسانا معا . ولعمرى ان فى ذلك دليلا بينا على أن هذا الرجل كان مظهرا رائعا من مظاهر الكونية الشاملة • فهو أكبر من أن ينحصر بين دفتى كتاب • وليس يدخل « ملكوته » من فهم أقواله فحسب . بل من عمل مشيئة « أبيه » الذى فى السموات

على أننا ، وان قصرنا عن العمل بمشيئة « الآب » نكفر بعض التكفير عن تقصيرنا بكشف ما فى وجـدانـنا من الشـوق والتعطش الى مجاراة «ابنه» . وكتاب جبران الجديد هو المحرقة التى يقدمها قلبه لأخيه الاكبر « يسوع ابن الانسان »



مريم المجدلية بريشة جبران
نقلا عن « يسوع ابن الانسان »

الصلح

قال بعضهم فى الدنيا انها ان اقبلت بلت وان أدبرت برت. فهى مقبلة حين تراها مدبرة . ومدبرة حين تحسبها مقبلة. وجبران ، من بعد « النبى » و « يســوع ابن الانسان » ، أدبرت دنياه وهــو يظنها مقبلة بجحافلها وبيارقها وطبلها وزمرها • فقد أخذ عـدد المعجبين به يزداد من يوم الى يوم • وأكثرهم من النساء • واتسعت موارد رزقه حتى أن صـديقا لهمن أصحاب المصارف اسمه ادجار سباير أخذ يهتم «بتوظيف» امواله . واقبل البعض على ترجمة كتابه « النبى » الى لغات أجنبية . وعرضت عليه شركة أن يتجول فى البلاد ويقرأ من كتاباته فى مختلف الأندية . ونقل أخته من بيت قديم فى حى الصينيين فى بوسطن الى بيت جديد ابتاعه فى ضاحية جميلة من ضــواحى المدينــة . وأقام له اخوانه فى نيــويورك مأدبة تكريمية احتفلوا فيها بيوبيله الفضى . وأصبح لا يكاد يمر به يوم الا جاءه البريد أو التليفون بشهادة اعجاب أو تقـدير من أناس يعرفهم وأناس يجهلهم ما بين أعراب وأعجام • فقـد قال لى مرة بفخر كلى ، متظاهرا بعــدم الاكتراث الكلى ، ان ملكة رومانيا السابقة ــ مارى ــ كتبت الى احدى صديقاتها فى نيويورك التى كانت قد أهدت اليها نسخة من « النبى » تقول انها طالعت الكتاب بلذة فائقة ، وتكلف صديقتها اهداء سلامها الى المؤلف . وأطلعنى مرة على رسالة من رئيس كلية فى ولاية كولورادو يستأذنه فيها بحفر آية صغيرة من آيات « النبى » على الجرس الكبير من سلسلة أجـراس صداحة

(chimes) في قبة كابيلا المدرسة . أما الآية فهذه « ما اليوم الا ذكرى الامس . ولا الغد الا حلم اليوم »

لكن للدنيا شؤونا مع الذين يركنون اليها هي أشبه بشؤون الهر مع فأرة يلاعبها . فهي أقرب ما تكون من الهلاك عندما يطلق الهر سبيلها فتحسب انها نجت . ثم لا تلبث أن تجد ذاتها بين شدقي الهر

لعل أفظع الفقر فقر يعضك بأنياب من ماس في لثة من ذهب . وأشد الضنك ضنك يرفل بالخز والبرفير . وأقسى الوحدة وحدة تخاطبك بألسنة المعجبين والمكرمين . وجبران، من بعد أن تفتقت الأكمام عن الكثير من احلام صباه وشبابه ، فتغلب على الفاقة ، واتسعت دنياه ، وكثر مكرموه والمعجبون به ، أحس بفقر أحد نابا من الفقر الذي عرفه من قبل . وبضيق أشد وطأة من الضيق الذي كان فيه . وبوحدة أقسى ملامس من تلك التي كانت تساور أيامه ولياليه . فقد أقفر قلبه من الحب في حين أن النساء كن يحمن حوله حوم الفراش حول السراج . والشهرة وما فيها من بخور الاعجاب والتكريم قد تخدر القلب يوما ـ قد تخدره شهرا ـ لكنها لا تطفيء عطشه ، ولا تسكن جوعه ، ولا تؤنس وحشته اذا ما أفاق من تخدره في سكينة الليل وضوضاء النهار . فكيف به اذا كان قلب شاعر وقلب فنان ، وكان علاوة على ذلك ، قلبا عليلا في صدر عليل ؟

لقد ظل جبران أعواما يماطل الداء والداء يماطله ، وهو يحسبه رجفة في القلب تزول بالحماية والوقاية . لكنها ماكانت لتزول . بل كانت كلما تقادم بها العهد تكاثرت نوباتها ، وتنوعت اشكالها ، وتصلبت أوجاعها . فكانت تارة تفتك في مفاصله فيظنها النقرس . وأخرى في اجهزة التنفس فيخالها نزلة قوية . وطورا تشد على قلبه بأصابع من حديد فيحسبها علة في القلب . والاطباء كانوا يصفون له المداواة حينا بالحماية

والراحة وآخر بالكهرباء وحينا بالراديوم وأحيانا بالعقاقير . فكان يتــداوى بكل ذلك . وكان المــرض يهادنه بين النوبة والنوبة هدنا متفاوتة المدى . فتنتعش قواه وتتجدد آماله ، وتبرأ همته من فتورها ، فيعود فى الحال الى قلمه وريشته ليقتنص الخيالات والافكار التى تحاصره فى سريره ، وتجالسه وتماشيه فى مجالس الناس ومعابرهم

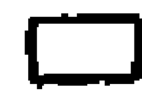
واخيرا كشفت « الاشعة » لجبران مكمن الداء فى احشائه. فكتمه عنى وعن كل أصحابه٠ولو كان بامكانه لكتمه حتى عن نفسه٠وأشار عليه طبيب فى بوسطن باجراء عملية جراحية ٠ فامتثل لاشارته . واستعد لاقتبال القدر المحتوم فى الميعاد الذي ضربه له الطبيب . وارتدى ثيابه وخرج من بيت أخته قاصدا المستشفى . لكنه ما بلغ أسفل الدرج حتى عاد وقال انه قد عدل عن عــزمه فلتفعل الأقدار ما تشــاء . وكان فى عدوله صلابة ، وفى استسلامه عتو . فهو لم يتذمر قط من مرضه ، ولم يشك دهره ، ولم يقنط من حياته ، ولم يشل الوجع يده ، ولا كبل خوف الموت خياله

الا انه عندما عاد الى « حديقة النبى » ليخبر عمــا فيها وجدها غير ما كان قد تخيلها . فقد رآها من قبل بعين خياله حديقة تآخت فيها النبتة والحشرة ، واندغم النــور بالظلمــة ، واستوى الانسان والحيوان فى ميزان الوحدانية الصمدانية. فكانت كلها جمالا وسلاما ومحبة ٠ ذلك فى الفترات التىكان فيها صافى الذهن ، قرير الفكر ، وفى هدنة مع الألم . وقــد صور بعض ما رآه منها فى بضع صفحات لم تنشر بعد . اما الآن ، وقد توالت عليه غارات الوجع ، فأصبح كيفما تفقــد تلك الحديقة رأى الالم يعبث فى غرسها ، ويعكر صفاء جوها، ويفسد سلامها . فمال عنها وهو يمنى نفسه بالعــودة اليها حالما تعود اليه نشوته الروحية التى عرفها فى « النبى » . لكن تلك النشوة لم تعــد . وهــو مع ذلك لا ينفــك يكتب

ويصور

كم من مرة فى تلك الاثناء لاذ جبران بقلمه من الالم ، فسمع قلمه يهتف اليه : دعني وشأنى وعد الى قلبك . ففيه وحده نور الهداية والخلاص : « طوبى للانقياء القلوب فانهم يعاينون الله ! »

وكم مرة عاد الى قلبــه فهتف اليه قلبــه : « ألا رحمــة يا جبران . كم شكوت اليك الجوع فأطعمتنى ما ليس يشبع . والعطش فسقيتنى ما ليس يروى . وها أنا ما أزال جائعا الى طعــام لا يبــلى ، وعطشا الى شراب لا ينفــد . وها أنا فى خلوة هــذه الصومعــة أتكوى بالاوجاع ولا قلب يخفف أوجاعى . ولا عين تسهر فوقى . ولا يد تجس أنباضى »



ذات يوم تسلم جبران رسالة اعجاب وتقدير من فتــاة ما كان يعرف عنها شيئا . لكنه آنس فى رسالتها روحا تفوق باخلاصها ، وجمالها، وشدة شغفها بما هو خلف المحسوسات كل ما جاءه من رسائل الاعجاب والتقدير . وكان فى الرسالة عنوان الفتاة ورقم تليفونها . فأخذ في الحال التليفون وخاطبها وشكر لها جميل رسالتها . وعندما أبدت رغبــة فى زيارته رحب بها كل الترحيب . فزارته ، وكانت لم تقرأ من كتبه الا « النبى » . وبلسان يتعثر بشتى الانفعالات ، ولكن بروح تفيض حماسة وطهارة ، راحت تصف لــه تأثير الكتــاب فى نفسها وكيف أنها لاقت فيه أقوى نصير لأفكارها وأوفى صديق لاشواقها ومعتقداتها . وانصرفت من عنــده ثملى بخمــر حديثه ، وكأنها وجدت فيه الكمال الروحى فى جسد بشرى

وتلت تلك الزيارة زيارات . وكان جبران قد أجدب قلبه من الحب وأخذ يشعر بحاجته الى امرأة تقاسمه حلو الحيــاة ومرها . فقد كان قبل أن اشتد المرض يخشى على عزلته من أن تعبث بها امرأة أو رجل . وعزلته كانت مبعث الهامه ومهــد

مواليد فكره وخياله • أما بعد أن ثقلت عليه وطأة الداء أصبح يخشى العزلة فى المرض والمرض فى العزلة . وكان اذا ما عرض أمام نفسه كل النساء المقربات منه لا يجد بينهن واحدة تطمئن اليها روحه الا مارى هاسكل . ومارى فاتحها مرة بأمر الزواج فكان بينهما ما كان . وهى ما تزال كوكبا نيرا فى سماء حياته الروحية . ومارى قد تزوجت منذ سنوات من نسيب لها غنى ، لكنه مسن ، فى مدينة سافانا من ولاية جورجيا . وقد استشارته فى زواجها فأشار عليها بالزواج وبارك ما فعلت

والآن جاءت هذه الفتاة الغريبة • أيكون أن الحياة قد بعثت بها اليه لتؤنس وحشته ، وتخفف من أوجاعه، وترافق أشواقه وآلامه ؟ أيكون انها المرأة « المكتوبة » له فى سجلات الارض الغامضة ؟ كيفما كان الامر ، ها هى ذى ــ شعاع دافىء ومؤنس . وهى صحيحة الجسم ، نشيطته ، وفى قلبها من الاخلاص له والتفانى فى سبيله ما يقارب العبادة

ولكن هى البشرة ــ وما اضعفها ! ولكن هى الشهوة ــ وما اقواها ! فقد نسى جبران هذه المرة كذلك بيته الجميل فى « المواكب » :

« والحب ان قادت الأجسام موكبه
الى فراش من الأغراض ينتحر »

وكان عذره فى ذلك لنفسه وللفتاة : « تلك هى حياتى » لكنه عذر ، ان كان مقبولا عند جبران ، لم يكن مقبولا عند الفتاة التى كانت روحها مشبعة بروح « النبى » والتى أخذت الندامة تنهش قلبها وتعصر فكرها . فأحست كأن جوهرة ثمينة كانت فى يدها وتحولت الى تراب . أو كأن الارض قد خسفت بها • فكتبت بعد ذلك الى جبران تبكته وتبكت نفسها وتندب ايمانا جميلا طار من قلبها . فقد ظنت عندما اهتدت الى صاحب « النبى » انها قد اهتدت الى مثل الرجل

الاعلى ، الى الرجل الذى يكفر بجمال روحه وجمال حياته عن كل ما فى أرواح الرجال وحياتهم من شناعة . الا أنها وجدته كسائر الرجال . ووجدته يفعل غير ما يقول . ويقول غير ما يفعل ... أفى الحياة بعد ذلك ما يستحق الاعتبار ؟ أليس الايمان بالكمال وهما والمحافظة على الطهارة ضربا من البلادة ؟

لقد كان من تلك الرسالة أنها دفعت جبران الدفعة القاضية على محاسبة نفسه المحاسبة الأخيرة وتعريتها من كل أكسية الغش التى تحوكها الرغائب والمنى الارضية . واذامثلت لديه نفسه عريانة أقبل عليها يغسلها بكل ما فى وجدانه من ماء الحق ، ويضمخها بكل ما فى روحه من عطر الجمال ، ويدفن عند قدميها أوزار حياته وزرا وزرا . فأحس كأنها كانت قصية عنه فدنته منه . وكأنها كانت غريبة فأصبحت قريبة . وكأنها كانت له خصما فانقلبت صديقا . فعانقها وعانقته وعقد معها الصلح الذى كان ينشده كل حياته . وعندها استدعى اليه الفتاة واستغفرها وتوسل اليها أن تستعيد ايمانها بالحياة وجمالها . والا تدين الله بهفوة انسان ، وان يكن ذلك الانسان جبران خليل جبران . وقال لها نظير ما قاله مرة لمارى هاسكل : « تعالى نقطع الطريق سوية »

وما كان يدرى ، ولم يكن قد بقى من عمره الا بضعة شهور ، أن طريقه أوشكت ان تنتهى وأنه سيقطعها وحيدا حتى آخر خطوة

اشعة فى الغمام

استسلم جبران لمشيئة الحياة . ولكنه ما كان يحسبه مستسلما للموت ، فقد ظل يحاربه حتى آخر نحب من انحابه . وكأنى به كان يعتقد من كل قلبه ما قاله لى فى احدى رسائله الاخيرة :

« أما العلة فهى فى مكان أعمق من الاعصاب والعظام . ولقد فكرت مرات فيما اذا كانت علة أو صحة . هى حالة يا ميشا ، صحة كانت أم علة ... هو فصل من فصول حياتى ، وفى حياتك وحياتى شتاء وربيع ، وأنت وأنا بالحقيقة، لا ندرى أيهما أفضل »

لذلك ، ولانه كان يكره كل مظاهر الضعف ، ما سمعته يوما يقول « آخ » أو « أواه » . فقد كان يقضى الليل بعد الليل ، والنهار تلو النهار يحارب وحده الوجع . فيندر أن يستدعى اليه صديقا الا اذا أشتد عليه الألم أو عضت الوحدة قلبه الى حد لا يطاق . ومما لا ريب فيه أيضا أن اعتقاده بقوة الالم المطهرة كان يدعم جميل صبره عليه

مرة ـ فيأوائل سنة ١٩٣١ ـ خاطبته بالتليفون أسأله عن صحته . فأجابنى : « تعال وانظر » وعندما دخلت عليه وجدته فى فراشه ، وعلى وجهه وفى حركاته علامات ضعف ما رأيتها فيه من قبل . الا انه طمأن بالى واكد لى أن ما الم به لم يكن الا وافدة قوية . وانه قد تعافى منها أو كاد . فلمته أشد اللوم لتهامله فى أمر صحته . وقلت له ان بقاءه

وحـده فى صومعته أصبح ضربا من المجـازفة القـريبة من الحماقة . فاما أن يرضى بى أو بسواى من أصحابه ينام عنده ويخدمه عند الحاجة ، واما أن يأتى بأخته من بوسطن لتسكن معه . فأقنعنى أن لا ضرورة لشيء من ذلك . فزوجة حارس البناية تخدمه بكل امانة . أما أخته فالأفضـل أن تبقى فى بوسطن فلا تحمل من همه أكثر مما تحمل حيث هى . ومن ثم فلو جاء بها الى نيويورك لاضطر أن يفتح بيتا آخـر مع الاحتفاظ بالصومعة . وفى ذلك ما فيه من الأكلاف . وبالتالى فهو لا يرضى عن الصومعة بديلا . ولا يفضل على تشويشها بيتا مهما توافرت فيه معدات الراحـة والرفاهية واكتمـل اتقانه وترتيبه

ـ ومار سركيس يا جبران ... أما آن أن تفى بنـذرك ؟ صـدق انه لو كان بامكانى لكبلتك الآن و « شحنتك » الى لبنان حتى فى هذا النهار . ان بقاءك فى هذه البلاد وانكبابك على الكتابة والتصوير فى حالتك هذه هما الانتحار بعينه

ـ مار سركيس لا بد منه ، وقريبا ان شاء الله . أما الكتابة والتصوير فلا معنى لحياتى بدونهما . وهما تعزيتى الوحيدة . وانى لأعجب لك من بين كل الناس ، تنهانى عنهمـا . أأنت تنهانى عن الكتابة والتصوير يا ميشا ؟ أأنت تقول مثل هذا القول ؟ لا أكاد أصدق أذنى . أنقضى اذن على الفن ـ أنقضى على الشعر ؟

ـ ليس الفن ما نصوره ، ولا الشعر ما ننظمه يا جبران . بل الفن أن ندرك بأرواحنا ألفة الحياة فنؤلف ما بين أفكارنا ومنازعنا وأقوالنا وأعمالنا حتى لا يبقى فينا من نقيض يناهض نقيضا . والشـعر أن نجـد لأيامنا وزنا ولليالينا قافية . وما دمنا تمر بنا حالات تتعصر لها قلوبنا ، وتعتم أبصارنا ، ويتحول الشهد فى أفواهنا علقما ، والشدة فى مفاصلنا رخاوة، فما نفعنا من صورة جميلة نرسمها أو من قصيدة «عصماء»

نظمها ؟ أنصور الجمال قبل أن يصورنا الجمال ؟ أنلفظ الحق قبل أن يلفظنا الحق ؟ ونحن لو حيينا حياة جميلة لما استطعنا أن نصور غير الجمال . واذ ذاك كنا فى غنى عن التصوير . ونحن لو كان الحق سلطان أفكارنا لما استطعنا أن نفوه بغير الحق . وعندئذ كنا فى غنى عن الكرازة بالحق

ـ أليس يا ميشا أننا كلما صورنا الجمال اقتربنا من الجمال . وكلما نظمنا الحق اتحدنا مع الحق ؟ أم أنت تشاء أن تحتم الصمت على الفنانين والأدباء ؟ والافصاح عن مكنونات النفس حاجة من حاجات النفس

ـ لابد للنفس من أن تشبع بمكنوناتها ، ومن تلقاء ذاتها . لكننا حالما نحاول تصوير تلك المكنونات للناس نشوهها وننقلها الى غير حالها . فاما نزيد فيها أو ننقص منها . وكثيرا ما نستر الذى نحسبه شنيعا فيها ونبرز الذى نعده جميلا . والجمال الذى يحتاج الى يد تخرجه من بيت الشناعة ليس جميلا . والشناعة التى تسكن والجمال فى بيت واحد ليست شنيعة . والانسان الذى لا ينفك يغربل الكون ليفرز جميله عن شنيعه أحرى به أن يقول لرب الكون : « لقد أسأت سياسة خلقك . وقد اختلط عليك حقه وباطله . وجميله وشنيعه . فانزل عن عرشك وأنا أريك كيف أجمع الجميل من كونك الى الجميل ، والشنيع الى الشنيع ، والحق الى الحق ، والباطل الى الباطل . » أو ليس الله أبعد من جمالنا وشناعتنا ، وفوق حقنا وباطلنا ؟

ـ هو كذلك يا ميشا . هو كذلك . وقد يكون أننا نهتدى اليه كلما حاولنا أن نقسمه فوجدناه لا يتقسم . وأنا ما أزال أقول ان الفن ، وان ميز بين الجمال والشناعة ، هو من أقرب السبل الى الله . اما التأمل البحت الذى أنت ترمى اليه فسبيل آخر . لكنه يؤدى الى الصمت وكتم سر النفس ضمن النفس . والصمت أرهب من الكلام وأصدق . انت

محق فى ذلك . ولكن ستأتينا ساعة نصمت فيها . فلمــاذا نصمت قبل أن تدق الساعة ؟ هو ذا صاحبك لاوتســو لاذ بالصمت ولكن بعد ان اعطى الناس بالكلام خلاصة ايمانه . سنصمت يا ميشا . سنصمت . ولكن لنتكلم الآن . واليك طائفة من الكلام . اقراها وقل لى رأيك فيها

ودفع جبران الى مخطوطة « آلهة الارض » وطلب الى أن اقراها بصوت عال

اخذت اقرأ ما بيدى فاذا به قصــيدة منثورة ذات ثلاثة أصوات تمثل ثلاثة أرواح أو آلهة . لكل منهم نزعته الخاصة ونظرته فى الناس وحياتهم . فالاول اله عبــوس كؤود ، مل الناس وسياسة الناس ، ومل جبروته وألوهيته الى حد انه أصبح ينشد العدم :

« لقد سئمت روحى كل ما هو كائن . وأنا أربأ بيدى أن احركها لاخلق عالما أو لأمحو عالما . وأنا أؤثر الموت على الحياة لو كان فى استطاعتى ان أموت . فقد أثقلت كاهلى دهــور لا تحصى . وانين البحور المستمر يسلبنى لذة النوم »

والثانى اله يطيب له اللعب بالارض وما عليها من حيــاة ، لاسيما بالانسان وحياته . فيقول لرفيقه الاول انه ليس نظيره يطلب العدم . لكنه يختار طريقا أصعب من طريقه . وهى :

« ... أن أبعث الانسان من الظلمة الخفية وأترك جــذوره عالقة بالارض

« أن أعطيه العطش الى الحياة وأجعل ساقيه الموت

« أن أمنحه الحب الذى ينمو بالالم ، ويتسامى بالشــهوة ، ويزداد بالشوق ثم يذوى لدى أول قبلة

« أن أمنطق لياليه بأحلام أيام مشعشعة بالفــرح ، وألقح أيامه بخيالات ليال مترعة بالغبطة ، وأن أقيد ليــاليه وأيامه فتبقى أبدا متشابهة

« أن أجعل خياله كنسر الجبال ، وأفكاره كعواصف البحار ،

ومن ثم أعطيه يدين تترددان فى العمل ، ورجلين يثقلهما التأمل
« أن أعطيه الفرح كيما يرنم لنا • والحزن كيما يضرع الينا • ومن ثم أن ألقمه الارض عندما تصرخ الارض من جوعها طالبة طعاما
« أن أرفع نفسه فوق السماء كيما يذوق طعم غدنا • وأن أدع جسده يتمرغ فى حمأة الارض كيما ينسى أمسه الدابر »
أما الاله الثالث فيصغى الى رفيقيه ، وبصره تائه فى الوادى يرقب فتى وفتاة يرقصان للحب ويرنمان له • وفيهما يرى كل سر الحياة • ولكنه عبثا يحاول أن يجذب اليهما أبصار رفيقيه وافكارهما . فهما لا ينتبهـــان فى البدء الى ما يقول . الا انه يفوز فى النهاية فيستميل الاله الثـانى الى رأيه بأن الحب هو السر كل السر والحق الذى ما بعـــده حق ، ويبقى الاول حائرا ما بين النور والظلمة • ويختتم الاله الثـالث المحاورة قائلا فى بعض ما يقوله :
« نحن سيكتنفنا الغسق . وقد نستيقظ لنرى فجر عالم غير هذا العالم • أما الحب فسيبقى ، وآثار أصـــابعه لن تمحى الى الأبد »
كنت فى قراءتى كلما وقفت عند عبـــارة بارعة ، أو تشبيه بديع ، أو فكر جذاب أنظر الى جبرآن فأرى وجهه مشرقا بنور كأنه أذيال الشمس عند المغيب وقد نشبت فى غمامة • والغمامة هى ذلك الألم الذى أنزلته به الحياة وحاول أن يصفه بلسان الاله الثانى • ومع أنى كنت منذ دقائق أنهاه عن الكتابة ، لم يسعنى الا أن أبدى له اعجابى بأسلوب القصيدة النضر وخيالها الواسع • وأسفى لانها من معدن غير معدن « النبى » الصافى ، ولان نفسه التى كانت قد التأمت فى « النبى » عادت فتشعبت فى « آلهة الارض » • وأنا أعلم فى داخلى أن الألم كان مبعث التشعب • أما لسانى فما كان يطاوعنى لأفوه بذلك
بعد أن انتهينا من قراءة القصيدة والتحدث فيها قام جبران

من فراشه وهو فى ثياب النوم وأخذ يعرض على الرسوم التى أعدها لها ـ وعـددها اثنا عشر ـ فكاد ينسيني نفسه ونفسى والقصيدة التي ما برحت أنغامها ترن فى أذنى • فقد أدهشتنى من تلك الرسوم ـ علاوة على ما فيها من رشـاقة وانسجام وألفة ألوان ـ قوة كنت ألمحها فى فن جبران ولكن ما رأيتهـا قط مجسـمة الى هذا الحد . وأدهشنى كيف أن كفة جبران الفنان أخذت ترجح على كفة جبران الشاعر كلما تمادت بذاك وهذا السنون • فحين أن جبران الشاعر لم يبق عنـده ما يقوله من بعد « النبى » الا اعادة ما قاله ، كان جبران الفنان يزداد براعة وجرأة وقوة فى فنه

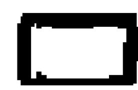
ـ كل هذه من شغل الصيف الماضى يا ميشا ، فقد كان صيفا مثمرا

وبعد فترة من السكوت :

ـ ميشا ، لقد ذكرتك فى وصيتى

سقطت هذه الكلمات على سقوط البرد من غمامة فى الصيف، فأجفلت من سكوتى وشعرت كأن قلبى تحول فجأة الى جرة من دموع . وكادت الجرة تفرغ كل ما فيها من عينى لو لم يسد فوهتها خوفى على الجالس بجانبى ومعرفتى أن دمعة من عينى فى مثل هذه الساعة تنفجر لها ساقية دموع من عينيه • فقلت له وفى صوتى غصة :

ـ ما كنت أحب أن أسـمع ذلك منك يا جبران لا اليوم ولا بعد اليوم • فأنت لو فتشت عن أمر توصى لى به ـ من بعد عمر طويل ـ لما وجدت أعز من نفسك • وتلك أنا حاصل عليها من غير وصية • فأنت معى فى كل حين مثلما أنا معك فى كل حين



بعد ذلك بأسابيع أخبرت نسيب عريضه عما كان بينى وبين جبران بشأن وصيته ، فأجابنى أن جبران قال له عين ما قاله لى : « لقد ذكرتك في وصيتى يا نسيب » وعلى أثر وفاة جبران

حدثني عبد المسيح حداد عن زيارته له قبل وفاته بأربعة أيام، قال :

ـ دخلت عليه وكان النهار ممطرا • وكان قد طلب الى أن آتيه ببعض الصحف العربية ليتسلى بها • فأخذت له رزمة كبيرة منها . وكان فى فراشه فنهض وجلس بجانبى . وللمرة الاولى سمعت الموت فى صوته ورأيته على وجهه • غير أنى حاولت مقدرتى ألا أظهر له شيئا مما سمعت ورأيت • تحدثنا فى أمور كثيرة • ولكن أكثر حديثه كان عن «الرابطة» واخوانه فيها • فقد أخذهم واحدا واحدا وراح يكشف فكره وقلبه نحو كل منهم كأنه يقصد أن يجمعهم حواليه ولو بفكره وأن يودعهم الوداع الاخير

وعندما سألنى عن عائلتى ذكر كل واحد من أولادى وأعطانى بضعة دولارات وكلفنى أن أشترى بها طاقة من الزهر أقدمها كسلام منه الى أمهم • ثم التفت الى وقال : « لا تخف على مستقبل أولادك يا عبد المسيح • اذا مد الله بعمرى فأنا سأهتم بأمر تعليمهم • والا فانى قد تركت لهم فى وصيتى ما يكفيهم • ووصيتى فى تلك الخزانة » واشار الى الخزانة الصغيرة بجانب سريره »

ولكن لا عبد المسيح ولا نسيب ولا أنا كنا نعرف مرض جبران الحقيقى • فكان يودعنا ونحن غافلون عن أنه مودع • وكانت الاقدار تلملم خيوط حياته الارضية ونحن نحسبها ما تزال ماضية فى نسجها

الاحتضار

الغرغرة تغور فى الصدر ويبعد قرارها ، كأنها بقايا شريدة من عاصفة فى قعر واد . والأنات تتواهى وتتقطع وتتباعد . ومعاون الطبيب يجس النبض من حين الى حين فى انتظار النبضه الاخيرة

وأنا ، بجانب السرير،أفكر فى القلب المحتضر أمامى ودقاته من الاولى حتى الاخيرة ـ أين هى ؟ فيتراءى لى أن فى الفضاء حافظة تعى كل دقة من كل قلب ، وكل شهوة ، وكل فكر ، وكل عمل ، وكل طرفة عين ، وكل حلم ، وكل نبرة ، وكل نفس • وأن كل انسان سيأتيه يوم تتمزق فيه أغشية الحس عن عينيه ، وتنفك عصائب الوهم عن أذنيه ، فيبصر ويسمع كل ما كان من أمره منذ صدوره من مصدر الحياة حتى عودته اليه . بل يخيل الى أن تلك الحافظة كامنة فى أعماق الانسان نفسه ، وأن الانسان ، من حيث لا يدرى ، يحفر حياته فيها مثلما يحفر الصوت فى صفيحة الفونوغراف • وأذكر قول يسوع « ليس خفى الا سيظهر » فأحس برهبة الدينونة وعدلها وأرى أن يوم الدين هو اليوم الذى نسمع فيه فونوغراف حياتنا يردد علينا كل ما كان منا على ممر الدهر . فأستغفر الحياة عن كل ما نسبته أو ينسبه اليها الناس من جور وخشونة وقساوة وأقول لنفسى : مثلما تغنين يغنى لك • والذى تزرعين تحصدين • ما ظلمت الا لانك ظلمت • ولا توجعت الا لانك أوجعت • ولا بكيت الا لانك أبكيت • كما أنت كذلك حياتك

والموت ؟ ـ أتكون حافة السرير بجانبى الحد الذى تنتهى اليه

حياة من فى السرير ؟ أيكون هذا السرير الصغير أوسع من الله الذى انبثقت منه تلك الحياة ، فكانت أزلية مثـــله ، والذى يستحيل عليها أن تخرج عن نطاقه فتبقى أبدية مثله ؟

وعلاقتى برفيقى ؟ أتنقطع بانقطاع أنحابه ؟ وأفكارنا التى تقاربت فتلاصقت فى بعض مناحيها ، وروحانا اللذان تعارفا فتآخيا ـ أتفصل بينها وهدة الموت الى الابد ؟ أين هى المقدرة التى فى وسعها أن تحل حلقة واحدة من سلسلة الزمان وتترك السلسلة مفككة مقطعة ؟ أليس أن عــلاقتى برفيقى حلقة فى تلك السلسلة ، فهى لا تنفك ما دام الزمان زمانا ؟ أليست كل حلقة فى سلسلة لابدء لها ولا نهــاية حلقة لابدء لها ولا نهاية كتلك السلسلة ؟ أليس أن حلقتين متصلتين فى مثـــل تلك السلسلة تبقيان كذلك الى الابد ، فاذا ما اختفتا فى ناحية من نواحى الزمان برزتا فى غيرها ، كالشمس تغيب عنا فى بقعة من الارض فتشرق فى سواها ؟ لا . ليس على الارض ولا فى السماء قدرة تستطيع أن تفصم عروة مكنتها الحياة بين انسان وانسان ، أو بين شىء وشىء. وهل فى الكون ذرة ليست مربوطة بكل ما فى الكون ؟



رباه ما أوسعك ! رباه ما أجملك ! رباه ما أعــــدلك ! وما أجهلنا نفصل أنفسنا عنك بكل مانفعل ونقول ونفكر ونشتهى. فنشقى ، ونحزن ثم نتتحب عندما تضمنا اليك . وما أغبانا نحرق العمر طالبين معرفة غير معرفتك ، وحقا غير حقك ، وسلاما غير سلامك . وما أفقرنا ندخر من دنيانا كل أصناف الزاد الا زاد المحبة الذى لا يفنى . وما أضعفنا نتحصن من هذه الساعة بكل أنواع الحصون الا حصن الايمان الذى لا يدك . وما أشد عمانا نفتش عنك فى غير أنفسنا !

ولكن ، لماذا كتب لى من بين كل رفاق جبران واخــوانه أن أشهد عراكه مع الموت وحدى ؟ لقد حاولت مرارا وبغير جدوى

أن أتصل بالتليفون بنسيب وعبد المسيح ، فقد كان يحبهما محبة جمة . فلأحاول مرة بعد

أنهض عن كرسى فأسمع خارج الباب نحيبا • وأفتح الباب فأعرف أن ماريانا قد قدمت من بوسطن فور تسلمها برقيــة تستدعيها الى نيويورك • ولم تكن حتى ذلك اليوم تعرف أن أخاها فى خطر الموت • وأرى النسوة يقدنها الى غرفة محاذية لغرفة أخيها • وهى تشهق بدموعهــا ، وتنتحب وتستغيث • وكانت تعرفنى عندما زرت جبران مرة فى بوسطن وتعــرف الكثير عنى من جبران . فلايقع نظرها على حتى تختنق بعبراتها مستجيرة بى كأن فى قدرتى رفع القدر المحتوم :

ــ دخيلك ! انى أشم فيك رائحة جبران • دخيلك ! أنت أخوه وأخى • أيموت ؟ أمات جبران ؟ دخيلك ! أنتركه يموت؟

أعود الى غرفة جبران وفى قلبى نحيب مثلما فى أذنى • فأسمع الغرغرة تكاد تتلاشى والأنات يهبط قرارها حتى لايكاد يسمع • فتهرب منى أفكارى ، وتتشتت خيالاتى • وتسألنى نفسى ألف سؤال فأجيبها بألف لون من ألوان الصمت • وتختلط عــلى مشاعرى فلا أدرى أأحزن أم أتجلد • أأفرح لانعتاق أخى من متاعب الارض ، أم أتفجع لحياته الملأى بالعواصف والخيالات والاشواق والامانى والظلال والانوار تلملم أذيالها عن الارض قبل أن تشبع من الارض أو تشبع الارض منها • لكننى أشعر برهبة الساعة وهيبة السر الذى تتممه الحياة امام عينى . وتخطر ببالى كلمات المصطفى للبحر :

« سيدور هذا الجدول دورة بعد • سيهمس بعد همسة فى هذه الغاب • ومن بعدها سآتيك قطرة لا تحد الى محيط لا يحد »

وكلماته الاخيرة لأهل أورفليس :

« عما قليل ، بعد هجعة قصيرة على أجنحة الريح ، ستحبل بى امرأة أخرى »

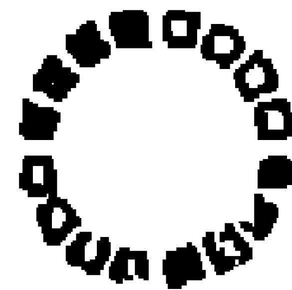
وعندما ينسل آخر نفس من صدر جبران ، نحو الســاعة

الحادية عشرة من الليل ، أحس بقوة تجـــذبنى الى الارض . فأهبط على ركبتى بجانب السرير وأدفن وجهى فى ثنايا الملاءة البيضاء عليه . ومن كل الاصوات التى تتســابق الى اذنى لا أسمع فى داخلى الا صوتا واحدا . أسمعه متقطع النبرات . وفى بعض نبراته صلاة قلب منسحق . وفى بعضــها ترنيمة ايمان ظافر . هو صوت داود النبى :

« ارحمنى يا الله بحسب رحمتك وبحسب كثرة رأفتك امح معاصى .. انى فى الاثم ولدت وفى الخطيئة حبلت بى امى .. تنضحنى بالزوفى فأطهر . تغسلنى فأبيض اكثر من الثلج ... قلبا طاهرا اخلق فى يا الله وروحا مستقيما جدد فى داخلى ... »

وتغمرنى شبه غيبوبة أفيق منها مخاطبا نبى الجليل ومرددا كلماته الوداعية لتلاميذه :

« وها أنا ذا معكم كل الايام الى منتهى الدهر »



الفصل الرابع

ملاحق

جثمان جبران

يحكى عن الفيلسوف الصينى تشوانج تسو الذى عاش فى القرن الرابع ق.م. انه ، عنـدما كان على فراش الموت ، جاءه تلاميذه ليطلعوه على رغبتهم فى الاحتفال بدفنه احتفالا باهرا، فقال لهم : « ما دام لى من الارض نعش ومن السماء كفن ومن الشمس والقمر والنجوم أوسـمة ، وما دامت الخليقة بأسرها ستشيعنى الى القبر ـ أوليست كل معدات دفنى جاهزة ؟ »

فرد عليه تلاميذه : « لكننا نخشى كواسر الجو من أن تمزق جثمان معلمنا » ، فكان جوابه لهم : « أنا على التراب سأكون طعاما للكواسر • وفى التراب سأكون طعاما للدود • فلماذا نجيع تلك لنطعم هذه ؟ »

لكن « للمدنية المنورة » تقاليد عمياء أنى لها أن تبصر حكمة «تشوانج تسو» ! فهى تجل التراب من بعد أن تفارقه نسمة الحياة أكثر من اجلالها اياه ونسمة الحياة ما تزال فيه . وكم خلقت للاحياء من متاعب فوق نكبتهم بموت أمواتهم

قضيت ما تبقى من ليلتى ـ بعـــد أن تركت المستشفى وشيعت ماريانا ومن معها الى النزل ـ ولم يغمض لى جفن•وفى صباح اليوم التالى ـ السبت ـ قصدت محترف جبران فوجدت ماريانا ومن كان معها قد سبقونى اليه • ورحت أهتم مع بعض الاصحاب باذاعة خبر الوفاة فى الجرائد ، وبالتفتيش عن محنط وعن نعش ، وعن قاعة لائقة ومناسبة عند أحد الدفانين تعرض فيها الجثة • فقد رأينا أن يعرض الجثمان كل نهار الاحـــد فى نيويورك ليودعه من شاء من الاصحاب والمعجبين قبل أن ننقله

الى بوسطن • وهكذا كان • وتقاطر المودعون من سوريين وأمريكيين ليلقوا النظرة الاخيرة على جبران وهو مسجى في نعشه المحفوف بالرياحين والازهار

في تلك الاثناء جاءني من يقول ان كاهن الكنيسة المارونية في نيويورك لا يرضى أن يعطى تصريحا لكاهن الكنيسة المارونية في بوسطن بالصلاة على جثمان جبران • لانه زار جبران في المستشفى وعرف من الراهبة ما قاله لها عندما سألته اذا كان كاثوليكيا ، ولم يتمكن من مخاطبته ليعرف ما اذا كان يرغب في الاعتراف ومناولة الاسرار الالهية بعد أن انقطع عنها نحو ثلاثين سنة • فقلت لمخبرى ـ وكان مارونيا وذا نفوذ كبير في طائفته ـ أن يستعمل نفوذه مع الكاهن ليحصل على ورقة تصريح ، لا اكراما لجبران الذى لم يكن يحفل بمثل هذه الامور، بل رحمة بشقيقته التى ما كانت تكف عن البكاء والنحيب دقيقة واحدة . فلم يخيب طلبى

صباح الاثنين نقلنا الجثمان بالقطار الى بوسطن ، وقد رافقه غيرى وغير ماريانا ونسيبين من أنسبائها عدد من اخوان جبران في الرابطة القلمية وسيدتان أمريكيتان من اللواتى لقيتهن في المستشفى • وفى بوسطن بقى الجثمان مسجى فى قاعة جمعية المساعدة للسيدات السوريات حتى صباح الثلاثاء . وهناك ـ في تلك القاعة ـ تعرفت بمارى هاسكل التى قدمت من سافانا البعيدة لتحضر الدفن • فرأيت الرصانة والبساطة والدعة ورحابة الصدر في كل ملامحها ـ حتى في ثيابها • ولم أقرأ في وجهها حزنا ولا سمعت في صوتها غصة • بل حدثتنى حينئذ ـ ومرارا بعدئذ ـ عن جبران كما لو كان ما يزال حيا• وأنا مدين لها بالكثير مما صورته في هذا الكتاب من علائق جبران معها ومع ميشلين

صباح الثلاثاء نقل الجثمان الى كنيسة سيدة الارز المارونية• ومن بعد الصلاة عليه سير به فى موكب حافل الى المقبرة حيث

أودع مدفنا موقتا ريثما تفتح وصية جبران فنرى اذا كان يبدى رغبة ما فى أمر دفنه اما فى أمريكا أو فى لبنان

بعد أشهر قر رأى ماريانا أن تنقل جثمان أخيها الى لبنـــان الذى كان يحن اليه حنينا دائما . فبلغ الجثمان بيروت فى ٢١ أغسطس حيث جرى له استقبال ما عرفت بيروت نظيره. وفى اليوم التالى سار فى موكب رهيب الى بلدته المحبوبة ــ بشرى. وهناك استقر، بعد مناورات كثيرة ، فى الخلوة التى كان جبران يمنى نفسه ويمنينى بها ــ فى مارسركيس . وقد توفق ذووه الى ابتياع ذلك الدير

زرت مارسركيس فى صيف سنة ١٩٣٢ . ولست أعرف ما يصف جمال موقعه وهيبة سكينته أبلغ من الآية المخطوطة باللاتينية فوق بوابته بأحرف تكاد الاعاصير تعبث بها :

Oh Beata Solitudo
Oh Sola Beatitudo

ايتها الوحدة المغبوطة

ايتها الغبطة الوحيدة

وصية جبران

ان الوصية التى قال جبران لى ولنسيب عريضه ولعبد المسيح حداد وعدد من السيدات الامريكيات اللواتى عرفت منهن سيما انه ذكرنا فيها لم يظهر لها أثر . أتراها ما برحت فى ذمة جبران ؟ لااظن ذلك البتة . فجبران أخبرنا عنها كأمر ناجز . حتى أنه دل عبد المسيح على الخزانة التى وضعها فيها . وما كان من داع له أن يذكر قبل موته بثلاثة أيام الا رغبته فى تثبيت وجودها . أهى فى ذمة الزمان؟ اهى فى ذمة بعض الناس ؟ الله أعلم . أما الوصية التى ظهرت وتقدمت الى المحكمة فتاريخها فى ١٣ مارس سنة ١٩٣٠ ، أى قبل وفاةصاحبها بما يقارب السنة . وقد وجدت نسخة منها عند ماريانا فى بوسطن ، والاصل عند ادغار سباير فى نيويورك . واليك ترجمتها :

« كل ما لى من دراهم وسندات مالية عند المستر ادغار سباير ، الذى تلطف واحتفظ لى بها ، أريد أن يكون بعد مماتى من نصيب شقيقتى ماريانا خ . جبران الساكنة حاليا تحت رقم ٧٦ شارع تيلر فى مدينة بوسطن من ولاية ماساتشوستس

هناك أيضا ٤٠ (أربعون) حصة من حصص شركة بناية المحترف رقم ٥١ من الشارع العاشر غربا ، وهى موجودة فى صندوقى للودائع فى بنك منهاتان ترست كومبانى ، رقم ٣١ يونيون سكوير ، مدينة نيويورك . وهذه الحصص أوصى بها لشقيقتى كذلك

وهناك ، علاوة على ما تقدم ، دفتران للتوفير فى وست سيدسايفينغس بنك ، رقم ٤٢٢ من الأفينيو السادس فى

مدينة نيويورك . وهذان الدفتران عندى فى المحترف . وأنا اريد من شقيقتى أن تأخذ هذا المال الى بلدتى بشرى وتنفقه هناك على الاحسان

كذلك أوصي لبشرى بريع كتبى التى ، حسبما أعرف ، يمكن ورثتى أن يطلبوا تجديد الاحتفاظ بحقوق طبعها لثمان وعشرين سنة بعد مماتى

كل ما هو فى محترفى من رسوم وكتب وسلع فنية الخ ، أوصى به بعد مماتى لمسز مارى هاسكل مينس ، الساكنة حاليا تحت رقم ٢٤ شارع غاستون فى مدينة سافانا من ولاية جورجيا . لكننى أرغب الى مسز مينس ، اذا هى استنسبت ذلك ، أن تبعث بكل هذه الاشياء أو ببعضها ، الى بلدتى »

بلغ مجمل تركة جبران ٥٣١٩٦ دولارا . اما قبل حلول الازمة وهبوط أسعار العقارات والاسهم المالية فكانت ثروته تقدر بين الثمانين والتسعين الفا



محتويات الكتاب

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢ (الاعداد ترسل بالطائرة)

العـــراق : السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــدة : السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحـــرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد

البـــرازيل : Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Colegio N° 3
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

غــانا : Mr. Joseph Hassan,
The Cine Travel Co,
P.O Box 1883,
ACCRA, GHANA

هذا الكتاب

ان قصـــة حياه جبران هى قصة العبقـريه والنبوغ التى بهرت الشرق العربى ، ونقلت الى الغرب بانتقال بطلها الى العالم الجديد ، آيات من بلاغة العروبه وسحر بيانها ، فادهش الغرب كما ادهش الشرق بما كتب ونظم ورسم

ويسر « سلسلة كتاب الهلال » ان تقدم بين دفتى كتاب « نابغة لبنان جبران خليل جبران » صورة حية نابضة بالحياة لنابغة لبنان والعروبه ، وفيلسوف الشرق جبران ، بقلم صديقه وصفيه الكاتب الكبير ميخائيل نعيمة

ولقد ابدع المؤلف فى تصوير صراع جبران مع نفسه لينقيها من كل شـــائن ، ويجعلها جميلة كالجمال الذى لمحه فى خياله ، وبثه بســـخاء فى رسومه التى عرضها ، وسطوره التى كتبها

ان القارىء ليطالع من خلال فصول هذا الكتاب صورة جبران كما عرفه المؤلف وصحبه خمسة عشر عاما . . . قصة حياة عبقرى ، عاش الفن ، ولبلاغة العروبة ولجمال الفن، وجمال الادب الممتاز

